تيسير التفسير

لِقُطب الأئمة

الشيخ الحاج امحمد بن يوسف اطفيش

(ت: 1332هـ / 1914م)

تحقيق وإخراج

الشيخ إبراهيم بن محمد طلاي

بمساعدة لجنة من الأساتذة

الجزء السابع

من الآية 84 من سورة هود إلى الآية 50 من سورة النحل

الطبعة الثانية

1439 هـ ـ 2018 م.


تيسير التفسير
الجزء السابع



الطَّبعة الثَّانية
مزيدة ومنقَّحة
1439هـ / 2018م

سلطنة عُمان ـ ص.ب.: 668 مسقط، الرمز البريدي: 100
هاتف: 24641300 / 24641325، فاكس: 24641331
البريد الإلكتروني: info@mhc.gov.om
موقع الوزارة على الإنترنت: www.mhc.gov.om



لِقُطب الأئمة

الشيخ الحاج امحمد بن يوسف اطفيش

(ت: 1332هـ / 1914م)

تحقيق وإخراج

الشيخ إبراهيم بن محمد طلاي

بمساعدة لجنة من الأساتذة



من الآية 84 من سورة هود إلى الآية 50 من سورة النحل



تخريجُ الأحاديثِ ووضعُ التّراجِم:

أ. أحمد بن حمّو كرّوم

أ. عمر بن أحمد بازّين

الرّقنُ والفهرسةُ ومتابعةُ الطّبعِ:

أ. مصطفى بن إبراهيم طلاّي

تدقيقُ النّصّ ومتابعةُ الطّبعِ:

د. مصطفى بن محمّد شريفي

11

تابع تفسير سورة هود

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ (84) وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (85) بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ (86) قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (87) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (88) وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ (89) وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (90) قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ۖ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ (91) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (92) وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ

كَذِبٌ وَارْتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿93﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿94﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿95﴾ ﴾

قصَّة شعيب عليه السلام ومراجعته لقومه

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ﴾ اســم لأولاد مدين، أو يقدر مضاف، أي أولاد مدين، أو المراد البلد، أي أهل مدين، وهو بلد بناه مدين بن إبراهيم، فســمِّي باسمه، فلإبراهيم أربعة أولاد: إســماعيل وإســحاق ومدين ومــدَّان؛ وقيل: ثمانية؛ وقيل: أربعة عشــر. ومن أولاده على قول بعضهــم روم؛ وقيل: روم هو ابن ابنه، والمعوَّل عليه القول الأوَّل، إلَّا أنَّ مدَّان غير مشهور، والجمهور على أنَّ مدين اسم البلد.

﴿أَخَاهُمْ شُــعَيْبًا﴾ يلقَّب خطيب الأنبياء، لحســن مراجعتــه لقومه، وهو أخوهم في النسب إذ هو شــعيب بن ميكائيل بن يشجر بن مدين بن إبراهيم ﴿قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ﴾ خصُّوه بالعبــادة ولا تعبدوا معه الأصنام، أو وحِّدوه ولا تشــركوا به شــيئا ﴿مَا لَكُم مِّنْ اِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ هكذا تبتــدئ الأنبياء، بالأهمِّ فالأهمِّ، والتوحيد أعظم العبادات والاعتقاد فبدئ به.

ولَمَّا اعتاد أهل مدين البخس في الكيل والوزن نهاهم عنه بعدُ كما قال: ﴿وَلَا تَنقُصُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾ إذا كلتم من مالكم لغيركم، وهنا محذوف تقديره: ولا تزيدوهمــا، أي المكيال والميزان إذا كلتم لأنفســكم من مال غيركم، ويجــوز أن يقدَّر الباء وحدهــا، أي لا تنقصوا مــال الناس بنقص الكيل والوزن من مالكم لهم، أو بزيادتهما مــن مالهم لكم، إذا أذنوا لكم بكيل حقوقكم أو وزنهــا وكيلها من مالهم. وهما مصــدران، أو بمعنى ما

يكال أو يوزن، فأسند النقص للمحلِّ وهو آلة الوزن والكيل؛ أو هما آلتا الوزن والكيل، نهوا أن ينقصوا منهما خداعا، وقوله ﷻ في الأعراف [الآية: 85]: ﴿فَأَوْفُواْ الكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾ يَدُلُّ على الأوَّل، فيرجع لفظ الميزان إلى الوزن، ويدلُّ له أيضا قوله ﷻ: ﴿أَوْفُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾، فإنَّ المعنى المصدريَّ فيه أظهر.

وعلَّل النهي بقوله: ﴿**إِنِّيَ أَرَاكُم بِخَيْرٍ**﴾ أعلمكم ثابتين على خير، أو فيه، أو أراكم بعيني وجهي في خير، أو مع خير لظهور أموالكم وصحَّة أبدانكم لي، والمعنى: لا تنقصوا المكيال والميزان لأنَّكم في سعة من المال والبدن، تغنيكم عن التطفيف، فإنَّه حرام ولو مع ضيق، فكيف مع سعة؟ أو لأنَّكم في سعة، حقُّها أن تتفضَّلوا بالزيادة من أموالكم في الكيل والوزن وغيرهما على غيركم، وبالنقص من حقوقكم لهم، وبالهبة شكرا للنِّعمة، لا أن تنقصوا من حقوقهم، أو لأنَّكم في سعة، حقُّها أن تقيِّدوها بإيفاء الحقوق لغيركم والزيادة، لا أن تنفِّروها بالنقص.

﴿**وَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ**﴾ لكفركم ونقصكم المكيال والميزان ﴿**عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ**﴾ بكم كلِّكم لا يخرج عنه أحد منكم، أو من الإحاطة بمعنى الإهلاك، كقوله تعالى: ﴿وأُحِيطَ بِثُمُرِهِ﴾ [سورة الكهف: 42] وإسناد الإحاطة لليوم مجاز عقليٌّ، لأنَّها للعذاب لكنَّها في ذلك اليوم، فأسندت إليه لعلاقة الحلول. قالوا: ويجوز كون «مُحِيطٍ» نعتا لـ«عَذَابَ» فأصله النصب، وجرَّ لجوار المجرور، وفيه أنَّ هذا خلاف الأصل، وأنَّ إحاطة اليوم ـ لأنَّه عامٌّ في الأماكن كلِّها، ومعناه الوقت ـ أشدُّ من إحاطة العذاب، والعذاب في ذلك كلِّه عذاب الاستئصال أو عذاب القيامة، وقد يقال: شبَّه العذاب والمعذَّب به واشتماله عليه بهيئة منتزعة من المحيطِ والمحاطِ عليه، وإحاطته بكلِّ جزء، بجامع عدم خروج جزء ما عن العموم. وعن ابن عَبَّاس: الخير: الرخص، والعذاب: الغلاء.

﴿**وَيَاقَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ**﴾ أي الكيل والوزن، ويليه التفسير بالمكِيل والموزون، ويبعد معنى الآلة هنا ﴿**بِالْقِسْطِ**﴾ بالعدل، وذلك تأكيد للنهي السابق، إذ صرَّح بالإيفاء بعد النهي عن النقص إشارة إلى أنَّه لا يكفي الكفُّ عن تعمُّد التطفيف بل لا بدَّ من السعي أيضا في الإيفاء، ولو بزيادة مَّا مِمَّا يتيقَّن به الخروج عن النقص.

والإيفاء والنقص مضادَّان، والنهي عن ضدِّ الشيء مغاير للأمر بالشيء، ولو تلازما حتَّى إِنَّهُ يعدُّ تكريرًا وتأكيدًا، أو النهي عن الفعل مبنيٌّ على أنَّ الفعل اختياريٌّ، فلا يشمل النقص بلا عمد، فجبر ذلك بالأمر بالإيفاء، وإذا اتَّفَقَ الجنس ولم يتحقَّق الإيفاء إلَّا بالزيادة زاد زيادة يسيرة فقط، ومن خصَّ الربا بالنسيئة جازت الزيادة في النقد برضا صاحبها، ولو كثيرة، وينبغي تمييزها عن الواجب.

﴿**وَلَا تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ**﴾ في الكيل والوزن، ومطلق البيع والشراء وغيرهما ولو بلا كيل ولا وزن، فهذا تعميم بعد تخصيص، والبخس يطلق على الظلم وكتم الحقِّ، وعلى النقص، وعلى المكس كأخذ العشر، قال زهير:

أفي كلِّ أسواق العراق إتاوة   وفي كلِّ ما باع امرؤ بخسُ درهم

وروي: «مكس درهم». والآية صالحة لذلك كلِّه.

[صرف] وقوله ﴿**وَلَا تَعْثَوْاْ**﴾ المضارع «يعثَى» بالألف حذفت للساكن بعدها، وهو الواو، وماضيه «عثِيَ» بكسر الثاء بعدها ياء، أو «عَثَى» بفتح الثاء بعدها ألف، والحمل على الأوَّل أولى لأنَّه على القياس، وفيه لغة ثالثة «عثَى» بفتح الثاء «يعثِي» بكسرها، والآية لا تقبل هذه لأنَّه يقال على هذه: «ولا تَعثُوا» بضمِّ الثاء وإسكان الواو ميِّتا.

﴿**فِي الَارْضِ مُفْسِدِينَ**﴾ أعمُّ مِمَّا ذكر لأنَّ ما مرَّ في الأموال، وهذا في الأموال والأبدان والأعراض، والظلم في الأموال يكون بالغصب والسرقة والتطفيف، والذمِّ والمدح بما لم يكن، والغشِّ والنسبة إلى ما لم يكن.

و«مُفْسِدِينَ» حال مؤكِّدة، والعثوُّ: الإفساد؛ أو مؤسِّسة، والعثوُّ: الخروج عن اعتدال الأمر، بحيث يشمل الحلال والحرام؛ فيكون «مُفْسِدِينَ» مقيِّدا له بالحرام، فيكون احترازا عن الاعتدال، كقتل الخضر الغلام، وكسره السفينة، ومقابلته الظالم بفعله.

أو المراد بالعثوِّ الإفساد بالمال والبدن والعرض، وبالمفسدين سائر المعاصي الدِّينِيَّة، أو المراد: مفسدين لدينكم وآخرتكم بذلك العثوِّ.

﴿بَقِيَّتُ اللهِ خَيْرٌ لَّكُم﴾ ما يبقى لكم عند الله وهو الجنَّة إن آمنتم واتَّبَعتم الحقَّ خير لكم مِمَّا تتمتَّعون به من الأموال الحرام بالتطفيف والبخس أو غيرهما، أو ما أبقى الله لكم من الحلال بعد الحرام خير لكم.

وعن ابن عَبَّاس: ﴿بَقِيَّةُ اللهِ﴾: رزق الله تعالى، وأضاف البقيَّة إلى الله تشريفا للحلال لا لكون الحرام ليس رزقا، فإنَّه رزق مؤاخذ عليه، لا كما قالت المعتزلة: إنَّه غير رزق، والبقيَّة اسم لِمَا يبقى كما رأيت، أو وصف في الأصل، أي قطعة أو حصَّة باقية.

ويجوز أن يكون البقية طاعة الله، كقوله تعالى: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ [سورة الكهف: 46] سمِّيت باقيات لبقاء ثوابها، وقيل: ﴿بَقِيَّةُ اللهِ﴾: وَصِيَّة الله تعالى ﷻ، وعن الفرَّاء: مراقبة الله ﷻ، أي لازمها، وقال قتادة: ذخيرته، وقال الحسن: فرائضه.

﴿إِن كُنتُم مُّومِنِينَ﴾ مصدِّقين بما قلت لكم عن الله، من تحريم الشرك والتطفيف والبخس والإفساد، وذلك أنَّه لَمَّا لم يؤمنوا لم ينتفعوا بما لهم من الحلال، بل يحاسبون عليه حسابا عسيرا، لأنَّهم غير شاكرين ويتوصَّلون به إلى المعاصي. ﴿وَمَآ أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ أحفظكم من القبائح، وهذا أنسب بما سبق من زجرهم عن المعاصي، أو ما أحفظ عليكم أعمالكم لأجازيكم بها، وما عليَّ إلَّا البلاغ وقد بلَّغت، أو لا أحفظ لكم نعم الله لأنَّها تزول بالكفر.

﴿**قَالُواْ**﴾ استهزاء به وبصلاته حين دعاهم للتوحيد، وكان كثير الصلاة ﴿**يَاشُعَيْبُ أَصَلَوَاتُكَ تَامُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ**﴾ من الأصنام. الاستفهام إنكار للياقة النهي عن عبادة الأصنام، وتوبيخ عن النهي عن عبادتها، وإنكار لأن يكون العقل ناهيا عن عبادة الأصنام، حتَّى إِنَّهُ إذا كان النهي عنها فما صدر إلَّا عن مناسبة جنس ما ابْتدَعْتَ من الصلاة ونحوها، وإنَّها كفعل المجانين.

إلَّا أنَّه لَمَّا كانت صلاته كثيرة جمعوها واقتصروا عليها ولم يذكروا غيرها من ديانته، وكانت ضحكة لهم. وعن ابن عَبَّاس: اقتصروا عليها لأنَّه يقول لهم الصلاة تأمر بالمعروف وتنهى عن الفحشاء والمنكر، وعن الحسن: ما بعث الله نبيئا إلَّا فرض عليه الصلاة والزكاة. وفسَّر الأعمش الصلاة بالقراءة. وفسَّرها بعض بالدعاء، وهو أصل معناها في اللغة، وبعض بالدين، ولا جمع كثرة لها، فالمراد بجمع القِلَّة ـ وهو جمع المؤنَّث السالم ـ معنى الكثرة.

قال الأحنف بن قيس ﵀: كان أكثر الأنبياء صلاة، وكانوا إذا رأوه يصلِّي يتغامزون ويتضاحكون. والترك فعل الكُفَّار، والرجل لا يؤمر بفعل غيره، فشعيب لا يؤمر أن يتركوا عبادة الأصنام، فيقدَّر مضاف أي تأمرك بتكليفك إيَّانا أن نترك، أو يقدَّر تأمرك بأن تأمرنا بأن نترك، وكأنَّه قالوا: أوسواس صلواتك تأمرك؟ أي ما تولَّد من الوساوس منها، وقيل: لا حذف، والمعنى: أصلواتك تأمرك بما ليس في وسعك من فعل غيرك؟ قالوا ذلك تعريضا بركَّة الرأي حاشاه. ودخول الهمزة على «صَلَوَاتُكَ» لا يأباه، لأنَّ المعنى: أصلواتك التي أعتنيت بها تأمرك بما لا يتصوَّر، ويزرَأُ بك؟. والمضارع للتجدُّد بتجدُّد الصلوات، وقيل: المراد بالصلوات الدين لأنَّها من أعظم شعائر الدين.

﴿**أَوَ اَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَآءُ**﴾ من التطفيف والبخس وقطع الدنانير والدراهم عَمَّا اعتيدت، على أنَّهم فعلوا ونهاهم عنه، والقطع بالمقراض

ونحوه[1]، أو النقص في الغالب. و«أو» للتنويع، والعطف على «ما»، فيدخل في حيِّز الترك، كأنَّه قيل: وأن نترك فعل ما نشاء في أموالنا، ولو عطف على «أَن نَّتْرُكَ» لكان المعنى: تأمرك أن نفعل في أموالنا ما نشاء، وهو فاسد لأنَّه لا يأمرهم أن يفعلوا في أموالهم ما يشاؤون مِمَّا لا يجوز، أي لا يليق أن تنهانا عن واحد من عبادة الأصنام، وفعل ما نشاء في أموالنا، فكيف تنهانا عنهما جميعا فهي لمنع الخلوِّ، أو بمعنى الواو.

﴿**إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ**﴾ في سائر أحوالك فاستحضر عقلك تجد نهيك لنا عن ذلك غير لائق، وسامحنا فيما نفعل من عبادة الأصنام، وفعل ما نشاء في أموالنا، ولا يشقُّ عليك لأنَّك صبور، أو إنَّك لأنت الحليم الرشيد في زعمك.

أو قالوا ذلك استهزاء وسخرية، أو استعملوا ذلك في ضدِّه، كما روي عن ابن عَبَّاس أنَّهم أرادوا: السفيه الغاوي، استعمالا للشيء في ضدِّه، كقولهم للَّديغ: سليم تفاؤلا بالسلامة، وقولهم للفلاة: مفازة تفاؤلا بالفوز بالنجاة، وكتسميتهم الذهاب بالرجوع إذْ سمَّوْا المسافرين مع دوابهم قافلة، وإنَّما هم قافلة إذا رجعوا.

﴿**قَالَ يَاقَوْمِ أَرَآيْتُمُوَ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ**﴾ علم وحجَّة ونبوءة ورسالة ﴿**مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي**﴾ أي ربِّي ﴿**مِنْهُ**﴾ من ربِّي ﴿**رِزْقًا حَسَنًا**﴾ حلالا غير حرام كما تأخذونه بالتطفيف والبخس، أفأشوب الحلال الذي رزقني بالحرام؟ وأكفر نعمته؟! العقل الرشيد لا يقبل ذلك، وكيف أقابل النبوءة والعلم والرسالة بما يناقضهنَّ وأخون؟ كيف يليق بالحليم الرشيد أن يخالف أمر ربِّه ونهيه؟.

واحترز بالحسن عن القبيح وهو الحرام، فإنَّ الحرام قبيح فمن أكله فقد أكل رزقه، ويعاقب عليه إن كان مِمَّا يعرف بالعلم. وشمل الرزق الحسن ما

(1) وهي الطريقة المستعملة في القديم لِسَكِّ الدراهم والدنانير.

بالكسب السهل وما بالكسب الكدِّ وما بلا كسب؛ وفسَّر بعضهم الرزق الحسن بما لا كدَّ فيه، وبعضٌ بالنبوءة والحكمة، لأنَّهما سبب تعاطي الحلال خاصَّة، وسبب العيشة الدائمة في الآخرة، فيكون ردًّا على قولهم: تعاطيت ما لا نفع فيه.

﴿**وَمَآ أُرِيدُ أَنُ اخَالِفَكُمُۥٓ إِلَىٰ مَآ أَنْهَاكُمْ عَنْهُ**﴾ لا أفعل ما أنهاكم عنه فأكون أنهاكم عنه ليتخلَّص لي ولا تشاركوني فيه، وأكون قد ذهبت إليه خلفكم، أي بعد إعراضكم عنه، وأخلفكم فيه، فهو رباعيٌّ في معنى الثلاثي.

وحاصله: ما أريد أن أكون خلفا منكم فيما أنهاكم عنه. أو من المخالفة ضدُّ الموافقة، وإذا فعلت ما تَوَلىَّ عنه قيل: خالفته إليه. وعدِّي بـ«إِلىَ» لتضمُّنه معنى الميل والسبق، كأنَّه قيل: ما أريد أن أخالفكم مائلا إلى ما أنهاكم عنه، كما قدَّره بعض. وإذا تركته وهو قاصد إليه قيل: خالفته فيه.

﴿**إِنُ ارِيدُ إِلَّا الِاصْلَاحَ**﴾ ما أريد بأمري لكم ونهيي لكم إلَّا إصلاح حالكم بدين الله والنصح والوعظ ﴿**مَا اسْتَطَعْتُ**﴾ ما دمت أستطيع إصلاحكم، فلو وجدت ما أنتم عليه صلاحا لكم لم أنهكم عنه ولم أتخلَّف عنه.

ويجوز أن يكون «ما» اسما بدلا من الإصلاح كأنَّه قيل: إلَّا المقدار الذي أستطيعه، فهو بدل كُلٍّ بأن يراد به الإصلاح المذكور، لأنَّه لا يوجد إلَّا ما أطيق، أو الإصلاح إصلاح ما استطعته من الإصلاح، فهو بدل بعض باعتبار أنَّ مطلق الإصلاح بحسب مفهومه أعمُّ من ذلك المقدار، ولا يصحُّ هنا بدل الاشتمال فلا تهم.

[قلت:] يجب على العاقل أن يراعي من الدين الأهمَّ فالأهمَّ مِمَّا هو حقُّ الله وحقُّ النفس وحقُّ الناس، كما فعل شعيب. قوله: ﴿يَا قَوْمِ...﴾ في حقِّ الله،



فإنَّ المراد: كيف أشـوب الحلال بالحرام، وأكفر النعمة. وقدَّم التوحيد وهو أهمُّ. وقوله: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنُ اخَالِفَكُم﴾ في حقِّ نفسه يصونها عمَّا يعيبها. وقوله: ﴿اِنُ ارِيدُ...﴾ في حقِّهم.

﴿وَمَا تَوْفِيقِيَ﴾ ما جنس توفيقي في إصلاحكم وفي كلِّ ما آتي وما أذر، أي لا فرد من أفراد توفيقي، والمصدر المضاف من صيغ العموم، فهو عامٌّ إلَّا لدليل، مصدر من المبني للمفعول، أي ما كوني موفَّقا إلى الإصلاح المذكور وإصابة الحقِّ، وطاعة الله، وترك المعاصي ﴿إِلَّا بِـالـلهِ﴾ إلَّا بهداية الله تعالى. والتوفيق فعل لله تعالى، والباء لا تدخل على الفاعل، وإذا أكرمك زيد لم تقل إكرامي بزيد بل من زيـد، فيقدَّر مضافٌ خروجا عن ذلـك، أي إلَّا بتأييد الله ﴿عَلَيْهِ﴾ لا على غيره ﴿تَوَكَّلْـتُ﴾ في جميع أموري، ومنها أمركم فإنَّه القادر عليها وعلى غيرهـا، وهذا متضمِّنٌ للتوحيد إذ جعل غيـر الله عاجزا، وتهديدٌ بأنَّ الله عَجَلِّ كاف معين لمن توكَّل عليه ينتقم له.

﴿وَإِلَيْهِ﴾ لا إلى غيـره ﴿أُنِيبُ﴾ أرجع في المصالـح، ومنها إصلاحكم ودفع المضارِّ، وبالبعث. [قلت:] وفي الآية الاستعانة بالله فيما يفعل وما يترك، وقطع أطماع الكفَّار عنه، وتهديد بالرجوع إلى الله بالجزاء.

﴿وَيَاقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ جرم بمعنى أكسـب، يتعـدَّى لمفعولين: الأوَّل الكاف. ﴿شِـقَاقِيَ﴾ فاعل يجرم مصدر شـاقَّ ـ بفتح القاف مشدَّدة ـ بمعنى خالف، مضاف لمفعوله، أي شـقاقكم إيَّاي، واللفظ نهيٌ للسـبب الملزوم، والمراد نهي صاحبه، ولا يقال: نهى غير العاقل ليعلـم بالأولى نهي العاقل، لأنَّا نقول: إنَّما يتمُّ ذلك لو كان لغير العاقل إحساس بأن يكون حيوانا. والثاني هو قوله: ﴿أَنْ يُّصِيبَكُم﴾ أي لا يصيرنَّكم مشـاقَّتي كاسبين إصابتكم بنصب إصابة ﴿مِّثْلُ مَـآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ﴾ من الغرق ﴿اَوْ قَـوْمَ هُودٍ﴾ من الريح ﴿اَوْ قَوْمَ صَالِحٍ﴾ من الصيحة والرجفة.

﴿**وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم**﴾ منازل قوم لوط، أو زمان هلاكهم، وما هو قريب زمانا أشدُّ وعظا ﴿**بِبَعِيدٍ**﴾ أفرد لأنَّه بوزن المصدر من الفعل الثلاثي المفتوح، كالصهيل والدبيب. أو مراعاة للفظ قوم، أو بشيء بعيد، أو ما إهلاك قوم لوط ببعيد، إن لم تعتبروا بمن قدُم عهدا أو مكانا فاعتبروا بمن قرب مرأًى، والباء زائدة، أو ما هم في مكان بعيد أو زمان بعيد، فهي ظرفيَّة، فانظر ما مرَّ فإنَّه مثله.

فاعتبروا بهم إذ ترون في أسفاركم بَقِيَّة آثارهم أو أرضهم المقلوبة، بأن يتواتر إليكم أنَّ هذه الأرض باطن أرضهم المقلوبة. ويجوز أن يكون ما كُفْرُ قومِ لوط ومساوِئُهم ببعيد منكم، فإنَّ كفركم مثل كفرهم، ولو زادوا بالفحش؛ أو ما هم ببعيد منكم في الكفر والمساوئ، فإن لم تكونوا قوم لوط بعينهم فما قوم لوط منكم ببعيد.

﴿**وَاسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ**﴾ اسألوه غفران ذنوبكم، من الشرك والتطفيف وغيره ﴿**ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ**﴾ بالإقلاع عن ذلك وبالطاعة ﴿**إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ**﴾ عظيم الرحمة وكثيرها لمن تاب ﴿**وَدُودٌ**﴾ فاعل بالتائبين من الإحسان ما يفعل عَظِيمُ الحبِّ بمحبوبه.

وهذا تمثيل للإفهام، فإنَّ إحسان الله لا يماثله إحسان، وإنَّما فسَّرت «وَدُودٌ» بذلك لأنَّ الودَّ كَيفِيَّة نفسانيَّة انفعاليَّة، والله لا يتَّصف بذلك، فيحمل اللفظ على غاية معناه، فإنَّ غاية حبِّك للإنسان أن تحسن إليه، وإن شئت فقل: على لازم معناه أو مسبّبه.

ويجوز أن يكون كناية عند من لم يشترط إمكان المعنى الأصلي، ويجوز أن يكون «وَدُودٌ» بمعنى مودود، فيكون كالبرهان للإحسان، أي يودُّه كلُّ من علم به لإحسانه إلى كلِّ أحد.

﴿**قَالُواْ يَاشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ**﴾ لأنَّه هذيان لا يفهم، أو ما نعلم أنَّه حقٌّ، أو ما نعلم حجَّته، وذلك كتحريم عبادة غير الله، وتحريم البخس في الكيل والوزن؛ أو قالوا ذلك احتقارا له كما تقول لغيرك: ما أدري ما تقول،

وأنت فاهم له لكن تريد عدم قبوله حتَّى كأنَّك لم تفهمه، وهو إخبار لفظا ومعنى، لا لفظا فقط إنشاء معنى كما قيل، وهو كناية أو استعارة تمثيلية.

أو المراد: إنَّهم لم يفهموا معنى ما قال لشدَّة نفرتهم عنه، مع أنَّه فصيح عالم بطرق الخطاب المؤثِّرة في السامع، وفهموا الكثير الآخر مِمَّا يقول مِمَّا لا ينفرون عنه، وهو خطيب الأنبياء، فلا يصحُّ ما قيل: إنَّهم قالوا ذلك لأنَّه أَلْثَغُ، والحاصل أنَّه لا وجه لدعوى أنَّه ألثغ بلا دليل، مع أنَّ شأن الكفرة أن يقولوا مثل ذلك لكلِّ من جاء به، ولو أفصح الفصحاء، ومع أنَّ شأن الأنبياء أن يكونوا سالمين من منفِّر، ولو جاز بعد التبليغ.

﴿**وَإِنَّا لَنَرٰيكَ فِينَا ضَعِيفًا**﴾ عاجزا أعمى ذليلا، لا قوم لك يمنعونك عَمَّا نريد من مضرَّتك إن نرِدْها، وهذا المعنى لعمومه أولى من حمل الضعف على بعض معانيه فقط، وهو العمى، وأولى من حمله على ما وضع له في لغة اليمن، وهو العمى، كما يقال للأعمى: ضرير يقال له: ضعيف عندهم.

وأمَّا ما قيل من أنَّه لا يصحُّ تفسيره بالعمى وحده، ولا بالعمى مع غيره، لأنَّ قولهم: «فِينَا» لا يناسبه لأنَّ الأعمى أعمى فيهم وفي غيرهم، وضعيف فيهم وفي غيرهم، فلا يصحُّ، لأنَّ المراد: إنَّا لا نعتبرك فيما بيننا لضعفك بالعمى أو به وبغيره ولأنَّا لسنا مثلك، بل أقوى وتريد العزَّة فينا ولا عزَّة لك فينا، والحاصل: إنَّك لا تقاومنا، وأمَّا كونه كذلك في غيرهم فبمعزل عن الكلام ولا مدخل له هنا.

[أصول الدين] ومشهور المذهب أنَّ الأعمى لا يكون نبيئا، والجواب أنَّه حدث إليه العمى بعد الوحي والبعثة، كما ابيضَّت عينا يعقوب بعد الوحي والبعثة.

وروي أنَّه بكى من حبِّ الله تعالى حتَّى عمي فردَّ الله عليه بصره، وأوحى إليه: يا شعيب ما هذا البكاء؟ أشوقا إلى الجنَّة أو خوفا من النار؟ فقال: لا لكن

لحبِّك، ورضيت بكلِّ ما تصنع بي، فقال الله تعالى: هنيئا لك يا شعيب لذلك أخدمتك موسى بن عمران كليمي.

وكذا قال جمهور قومنا: لا يكون الأعمى نبيئا، وأجازه بعضهم كالقاضي، ومنعه بعض المعتزلة قياسا على القضاء والشـــهادة، وفيه أنَّ القضاء والشهادة يحتاجان إلى تمييز من يقضى له أو عليه، أو يشهد له أو عليه.

﴿**وَلَوْلَا رَهْطُكَ**﴾ ناســك القليلــون الثلاثة إلى العشــرة، أو الثلاثة إلى التسعة، أو إلى السبعة، أو إلى الأربعين، أقوال. فإمَّا أن يكون قومه على شيء من ذلك، وإما أن يكـــون المراد التقليل ولو كانوا أكثر من العشـــرة، احترموا قومه ولو قلُّوا لأنَّهم على دينهم لا لكثرتهم أو شـــدَّتهم، لعدمهما. ولا يطلق الرهط على النساء.

﴿**لَرَجَمْنَاكَ**﴾ بالحجارة حتَّى تموت، والقتل بالحجارة من أســوإ قتل، أو الرجمُ اســتعارةٌ تشــبيها للقتل بأصعب الوجوه: بالقتل بالحجارة، كالقرض بالمقاريض؛ أو كناية عن ذلك؛ أو اســتعارة للشـــتم وإغـــلاظ القول، كقوله تعالى: ﴿**لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا**﴾ [سورة مريم: 46] أو أريد بالرجم الإخراج من أرضهم، والوجه الأوَّل أولى لأنَّه أظهر.

﴿**وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ**﴾ بغالب أو بذي شــأن واحترام، فيمنعنا ذلك عن رجمك، وإنَّما العزَّة عندنا لقومك لهم شــأنٌ ـ عندنا مع قلَّتهم ـ واحترامٌ قائمٌ مقام الغلبة ولو لم تكن لهم غلبة، ولعزَّتهم لم نرجمك كما قال:

﴿**قَالَ يَاقَوْمِ أَرَهْطِيَ**﴾ إنكار وتوبيخ ﴿**أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللهِ**﴾ من جانب الله، أو دين الله، أو نبـــيء الله؟ ﴿**وَاتَّخَذْتُمُـــوهُ**﴾ أي الله ﴿**وَرَآءَكُـــمْ ظِهْرِيًّا**﴾ قيل: المعنى إنَّ العزيز قومك لا أنت لكونهم في ديننا واختيارهم لنا عليك، ولهذا الحصر تلا حرفَ النفي ضميـــرُه، ولو قيل: ما عززت علينـــا لم يفد الحصر،

ولولا أنَّ العبارة للحصر لم يجبهم بقوله: ﴿أَرَهْطِيَ...﴾. [قلت:] لا حصر بصيغة في العبارة ولا تحتاج إليها، لأنَّ المعنى: إنَّ الله موجود ورهطي موجود، وراعيتم رهطي فتركتم قتلي، ولم تراعوا الله فتتركوا قتلي، لأجله وهذا حصر بلا صيغة.

[بلاغة] وكان الجواب باسم التفضيل لأنَّ لله عزَّة عندهم، وإن لم تكن عندهم فالآية كقول عليٍّ: لأن أصوم يوما من شعبان أحبُّ إليَّ من أن أفطر يوما من رمضان، ولا حبَّ له في إفطار يوم من رمضان، وكقول غيره: لأن أفطر يوما من رمضان أحبُّ إليَّ من أن أصوم يوما من شعبان، والمعنى: لو كان كذا محبوبا كان كذا أحبَّ، أو كقولهم: العسل أحلى من الخلِّ، أو الخلُّ أمرُّ من العسل، والصيف أحرُّ من الشتاء، والشتاء أبرد من الصيف، بمعنى أنَّ كذا في صفته أشدُّ من كذا في صفته، ولم يقل: أعزُّ عليكم منِّي، لأنَّه لا عزَّة له عندهم، فلا يصحُّ ما قيل من أنَّ التقدير: أعزُّ عليكم من نبيء الله، أو ما قيل من أنَّه قال ذلك لأنَّ التهاون بالرسول تهاون بالله.

[لغة] والظِّهْرِيُّ بكسر الظاء من شذوذ النسب، كإِمسِي بالكسر، ودُهري بالضمِّ نسب إلى أمس ودهر، والأصل في الكلِّ الفتح: الشيء المنبوذ وراء الظهر، يقول: الواجب عليكم أن ترعوا حقَّ الله وحقِّي بالنسبة إليه بالرسالة، وبالنسبة إلى الرهط بالرحم، كذا قيل، وفيه أنَّه قد احترموه لرهطه فلم يرجموه، ويجاب أنَّه أراد أن يحترموه لله تعالى وللرحم. والكلام استعارة تمثيلية.

وعن مجاهد: الهاء للشرع المفهوم من المقام، وعن الزجَّاج: [الهاء] لأمر الله تعالى، ويكفي عن القولين قولنا: الهاء لله تعالى، وقيل: الضمير لله تعالى، والظِّهري المعين، والجملة حال على تقدير «قد» أو دونه، والمعنى: والحال أنَّكم تَتَّخِذُونه معتمدكم، وهذا على فرض أنَّهم اتَّخَذُوه معتمدا، وفي هذا الوجه من الحالية يجوز تقدير مضاف، والمعنى وَاتَّخَذتم عصيان الله معينا في

عداوتي، وكذا أجيز عـود الهاء للعصيان المعلوم من المقـام فيتَّحد المعنى، والصحيح ما مرَّ، والعطف للفعلية على الِاسمِيَّة جائز.

﴿إِنَّ رَبِّي بِمَـا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ عالم به كلِّه فلا يفوتـه عقابكم ﴿وَيَاقَوْمِ اعْمَلُواْ﴾ ما قدرتم عليه من المعاصي والتكذيب ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ على قدر قوتكم كلِّها وتمكُّنكم، ومن قبل كانوا يعملون ذلـك لا بالغاية، فلا تحصيل حاصل، وعلى فرض أنَّهم من قبل يعملون بالغاية فالمعنى: دوموا على ذلك، فلا تحصيل حاصل؛ وذلـك تهديد، كما يناسـبه قوله: ﴿تَعْلَمُـونَ﴾. ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ على مكانتي بغاية جهدي في الطاعة والتصديق.

[لغة] يقـال: مكن مكانة إذا تمكَّـن أبلغ تمكُّنٍ، والميـم أصل والألف زائد، أو مكانتكـم: الجهة التي هم عليها من المخالفـة، فهي بمعنى المكان الذي استعير للحال من استعارة اسـم العين للمعنى، وهي مخالفتهم الشبيهة بموضع القرار، استعارة محسوس لمعقول، والميم زائد والألف أصل لأنَّه من الكون، يقال: على مكانتك، ويقـال: مكانك، أي أثبت على حالك، أي اثبتوا على ما أنتم عليه من الكفر.

﴿سَـوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَّاتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾ قرن بالفاء في الأنعام [آية 135] مراعاة للوصل وتصريحا بأنَّ التمكُّن سـبب للعقاب، لأنَّها سَبَبِيَّة، ولم يقرن هنا مراعاة للفصل على الاسـتئناف البياني من كونه جواب سؤال، والجواب لا يعطف على السـؤال، وكأنَّه قيل: فماذا يكون إذا عملنا؟ فقال: ﴿سَـوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، وهو أبلغ في التهويل إذ بالغوا في الإهانة، وبَالَغَ لهم بتهديد صريح لا يحتاج إلى التفريع بالفاء لأنَّه ظاهر مستقل.

[قلت:] والقرآن يشـتمل على البليغ والأبلغ على طريق العرب في التفنُّن، وقد يقال: ذكرت في الأنعام لأنَّ الأصل عدم الحذف ولأنَّها في النزول والترتيب قبل سـورة هود، فيقال: إنَّما يقال: حذف الشـيء إذا كان مقدَّرا، وليست الفاء

مقدَّرة في الاســتئناف البياني، وإلَّا كان وصلا مع أنَّه فصــل، ويقال أيضا: أوَّل الذكرين يقتضي المبالغة إذا قلت: الأوَّل أحــقُّ بما هو الأصل، والأصل من هو كاذب ومن هو صادق على أنَّ الكاذب هم والصادق هو، لكن لم يذكر الصادق لأنَّ مراد شعيب بـ«كَاذِبٌ» نفسُه، أي ومن هو كاذب في زعمكم وهو أنا.

[بلاغة] ومجاراة الخصم شائعة في كلام البلغاء كما هو وجه مرجوح في قوله تعالى: ﴿ءَامِنتُم مَّن فِي السَّمَآءِ﴾ [ســورة الملك: 16] إذ قال: الكفار إنَّه تعالى في السماء، وأولى من ذلك أن تقول: الآية ليســت على طريق تقدير الصادق بل على معنى إنَّهم أوعدوه العذاب بأيديهم ونسبوه إلى الكذب فأجابهم بأن ستعلمون من المعذَّب الكاذب أنا أم أنتم.

[نحو] و«تَعْلَــمُ»: تعــرف، و«مَــنْ» موصولة في الموضعيــن مفعول، أو اســتفهامية، فالعرفان معلَّق عن الجملة نائبة عن مفعولــه، وإن جعلناه متعدِّيا لاثنين فمعلَّق عنهما وقد يقال: قوله: ﴿مَنْ يَّاتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ متعلِّق بقولِهِ: ﴿لَرَجَمْنَاكَ﴾، وقولُه: ﴿وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾ متعلِّــق بقوله: ﴿أَصَلَوَاتُكَ...﴾ لأنَّه تكذيب له، أو «مَــنْ يَّاتِيهِ» متضمِّن لذكر جزائهم، و«مَــنْ هُوَ كَاذِبٌ» متضمِّن لجرمهم الذي يجازَوْن به.

﴿وَارْتَقِبُــواْ﴾ انتظروا عاقبة أمركــم، أو ما أقول لكم مــن العذاب ﴿إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ لذلــك، ويضعف أن يقول: ارتقبوا العــذاب إنِّي معكم منتظر للرحمة والنصــر، إذ لا تلائمه المعيَّة، لأنَّها ظاهرة فــي الاتِّحاد ومنتظره غير منتظرهم، ولو جازت مع عدم الاتِّحاد.

[صرف] و«رَقِيبٌ» فعيل من الثلاثي، أو فعيل بمعنى المفاعل كالعشــير بمعنى المعاشر، والجليس بمعنى المجالس، والعقيد بمعنى المعاقد، أو فعيل بمعنى المفتعل كالرفيع بمعنــى المرتفع، أو بمعنى فاعــل كالصريم بمعنى صارم، والمأصدق واحد، والأصل الأوَّل.

﴿**وَلَمَّا جَـآءَ امْرُنَا**﴾ عذابنا كما يدلُّ له قوله ﷻ: ﴿سَـوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أو وقته كما يدلُّ له قوله ﷻ: ﴿وَارْتَقِبُواْ...﴾ مثل ما مرَّ. ﴿**نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا**﴾ وهي الإيمان الذي وفقناهم إليه، أو برحمة كائنة منا لهم، ذكره بالواو لا بالفاء هنا، وفي قصَّة هود إذ قال: ﴿وَلَمَّا جَآءَ امْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا...﴾ [سورة هود: 58] لأنَّه لم يتقدَّم ذكر وعيد يجري مجرى السبب المقتضي لفاء السببيَّة، فكان العطف بالواو المفيدة لمجرَّد عطف قصَّة على أخرى، بخلاف قصَّة صالح ولوط فإنَّه ذُكر فيهما وعيدٌ فجيء بالفاء، قال: في قصَّة صالح: ﴿فَعَقَرُوهَا...﴾ [سورة هود: 65] وفي قصَّة لوط: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ﴾ [سورة هود: 81] فكان ما بعدُ فيهما بالفاء التفريعية.

وإن قلت: الوعيد مذكور في قصَّة شعيب أيضا وهو قوله: ﴿اعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمُ﴾ فإنَّه تهديد، وفي قصَّة عاد إذا قال: ﴿مَا مِن دَآبَّةٍ اِلَّا هُوَ ءاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَا﴾ [سورة هود: 56]، قلت: لم يساقا مساق الوعيد، فروعي عدم سوقهما مساقه، فلم تكن الفاء ولو في معنى ذكر الوعيد الصريح، وهب أنَّ الوعيد الضمني كالصريح لكن السببيَّة قد توجد ولا تلاحظ، كما في آية الواو، وقد تلاحظ كما في آية الفاء كقوله تعالى: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي﴾ [سورة مريم: 5ـ6] بالرفع لغير ملاحظتها وبالجزم لملاحظتها، فذكر بالفاء تارة وبالواو أخرى تفنُّنا.

وقيل: ذكر الفاء لقرب عذاب قوم صالح وقوم لوط، للوعد بثلاثة أيَّام بين قوم صالح وبين عذابهم، وبسويعات بين قوم لوط وعذابهم ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ﴾، وليس قوم شعيب وقوم هود كذلك. وقيل: الفاء لتقدُّم الوعد وتركها وإن كان مع الوعد للإشارة إلى سوء حال القومين، ومزيد فظاعته لمجرَّد ظلمهم بلا تفرُّع، إذ رمى قومُ هود وقوم شعيب رسوليهما بما لم يشافِه به غيرُهما رسولاً، وفيه أنَّه قد شافه غيرهما في غير هذه السورة بنحو الجنون، إلَّا أن يراعى السَّوْق بحسب ما في السورة.

﴿وَأَخَذَتِ الذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ﴾ أي وأخذتْهم، لكن ذكرهم باسم الظلم الموجب للصيحة، والصيحة على ظاهرها، وأجيز أن يكون نوعا من العذاب، والعرب تقول: صاح بهم العذاب إذا هلكوا «دَعْ عَنْكَ نَهْبًا صِيحَ فِي حَجَرَاتِهِ»[1] وفي الأعراف: ﴿الرَّجْفَةُ﴾ [الآية: 78] أي الزلزلة، أو الرجفة الزلزلة في مبتدإ الصيحة صاح بهم جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وعن ابن عَبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: لم يعذِّب الله أمَّتين بعذاب واحد إلَّا قوم صالح وقوم شعيب عليهما الصلاة والسلام، وزيد قوم هود، أمَّا قوم صالح فأخذتهم الصيحة من تحتهم، وقوم شعيب من فوقهم، وقيل: من تحتهم، قيل: نشأت لهم سحابة وصارت لهم كالظلَّة فيها ريح، ولم يعلموا أنَّها عذاب فاجتمعوا تحتها، وقد اتَّقدت عليهم مطامرهم ومظانُّ البرد حرارةً، فخرجوا إليها فصيح فيهم وهم تحتها، فأخذهم عذاب يوم الظلَّة.

﴿فَأَصْبَحُواْ﴾ بعد الليل، أو صاروا ﴿فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ ميِّتين، وأصل الجثوم لزوم المكان، أو على الركبتين، والموت سبب للزوم المكان ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ﴾ وفيما يليها، لم يلبثوا فيها، أو لم يعيشوا فيها، يقال: غني بالمكان: أقام فيه، وغني: عاش، وقدَّم تنجية شعيب ومن معه لعظم الرغبة فيها منهم، ولتقدُّم الرحمة على الغضب، والجملة خبر بعد خبر لِـ «أَصْبَحَ» بمعنى صار، أو حال بعد حال على أنَّه بمعنى: أصبحوا عن الليل.

﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ شبَّههم بثمود في الهلاك لاشتراكهم في ما يوجب العذاب، مع أنَّه فيهما بالصيحة جميعا، وأنَّهم معا في الأمم السابقة، ولذلك لم يضمر لهم. وعن ابن عَبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: صيحة ثمود من تحت ومدين من فوق.

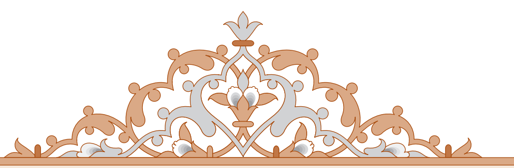
---

(1) البيت لامرئ القيس وتمامه:

دع عنك نهبا صيح في حجراته ... ولكن حديثا، ما حديث الرواحل

انظر اللسان لابن منظور، ج 3، ص 58، مَادَّة: «حجر».

[لغة] والبُعد: الهلاك، يقال: بعُد بضمِّ العين في ضدِّ القرب، وبكسرها في الهلاك، والبُعْد بالضمِّ والسكون مصدر لهما، والبَعَد بفتحتين مصدر للمكسور بمعنى الهلاك، ويستعمل بعُد بضمِّ العين والبُعد بضمِّ الباء بمعنى الهلاك، ومضارع المكسور بفتح عينه، ويقال: بعُد بالضمِّ في الخير والشرِّ وبالكسر في الشرِّ.



﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ٩٦ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَۖ وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ ٩٧ يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ ٩٨ وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ بِئۡسَ ٱلرِّفۡدُ ٱلۡمَرۡفُودُ ٩٩﴾

قصة موسى عليه السلام مع فرعون وملئه

﴿**وَلَقَدَ ارْسَلْنَا مُوسَىٰ بِئَايَاتِنَا**﴾ التي تتلى وهي الصحف أو الدلائل المعجزات، وأمَّا التوراة فنزلت بعد هلاك فرعون فلا تفسر بها الآيات إلَّا إن يتعلَّق قوله: ﴿الَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ بقوله: ﴿سُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾. وخصَّ موسى لأنَّ هارون تبع له، والتوراة نزلت عليه لا على هارون، وقد يجمع بينهما للمشاركة في الدعاء إلى التوحيد والنبوءة والرسالة والأخوَّة.

﴿**وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ**﴾ المعجزات القاهرة، كالعصا واليد البيضاء والدم والضفادع والقمَّل والطوفان، والنقص من الثمرات والأنفس، فهؤلاء كحجَّة واحدة سمَّاها سلطانا لا مقام لهم معهنَّ، وذلك أنَّ العصا جاءت إلى فرعون على صورة أن تبلعه، أو السلطان العصا وحدها، وهي أبهر آياته، عطفت على عامٍّ، أو الآيات التسع.

أو السلطان المبين: هو الآيات، عطفا للصفة تنزيلا لها منزلة التغاير، أي ولقد أرسلنا موسى بما هو آيات وحجَّة قاطعة، كقولك: أكرم زيدا العالم والجواد والشجاع، أي أكرم زيدا الجامع بين العلم والجود والشجاعة، ومفهوم السلطان القُوَّة، ومفهوم المبين الظهور في نفسه، أو الإظهار لغيره

كالنبوءة فإنَّه موضِّح لها، أو السلطان: ما في تضاعف دعوته حين قال: فرعون ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا...﴾[سورة طه: 49] ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَىٰ﴾ [سورة طه: 51] من الأجوبة المسكتة، أو السلطان: الغلبة، كقوله تعالى: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾ [سورة القصص: 35].

وليس من الآيات المذكورة إظلال الجبل والغمام وفرق البحر لأنَّ ذلك بعد زوال تمكُّن فرعون، قال بعض: وكذلك نقص الأنفس والثمرات، وإنَّما ذلك لبني إسرائيل حين عصوا. وتدخل الصحف في الآيات أو تراد بها، لأنَّها نزلت ـ وهنَّ عشر ـ قبل التوراة.

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلإِيْهِ﴾ ولم يتَّبعوا أمر موسى وهو الحق من الله بل اتَّبَعوا أمر فرعون وهو الباطل كما قال: ﴿فَاتَّبَعُواْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾ لا أمر موسى مع أنَّه معجز واضح، أو الأمر: ضدُّ النهي، أي اتَّبَعوا أمر فرعون لهم بالكفر، وعلى كلِّ حال لا حجَّة له، وفساده لا يخفى، وتركوا ما لموسى بحجَّة وظهور، والمراد: استمرُّوا على أمر فرعون أو حدوث كفر لهم لأنَّ كفرهم بموسى اتِّبَاع لفرعون في كفره به غير كفرهم قبل بعثه.

﴿وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ﴾ واحد الأمور، أو ضدُّ النهي إذ يأمرهم بالكفر، أو أمره: طريقه في الديانة، وهي أنَّه ينفي الصانع والمعاد، ويقول: لا إله للعالم، بل يجب على أهل كلِّ بلد أن يشتغلوا بطاعة سلطانهم، وهذا شأن الدهريَّة فهو دهريٌّ، ولا يخفى أنَّ هذا مكابرة للدلائل والعقل، فنفى الله الرشد عنه وأكَّد النفي بالباء في قوله: ﴿بِرَشِيدٍ﴾ بصواب.

[نحو] والأصل بذي رشد فهو للنسب لأنَّ فاعل الرشاد الذات، وليس أمر فرعون يفعل رشادا فينفى عنه، وإنَّما أسند إليه بتقدير مضاف كما رأيت، ولو فسَّرناه بمرشد ـ بكسر الشين أو فتحها ـ لاحتاج أيضا أن نقول: إسناد الإرشاد إليه مجاز من إسناد ما للذات إلى ملابسها، وهو الرشاد، بأن يقال على

التجوُّز: ما أمره مرشـــدا لغيره، أو ما صيَّره غيره رشيدا، أو على كلِّ حال أمره سفه وضلال حيث ادَّعَى الأُلُوهِيَّة مع حدوثه وعجزه.

﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ﴾ يتقدَّمهم ويسبقهم إلى النار كما تقدَّمهم إلى الكفر، قادهم إلى الكفر فيقودهم لذلك إليها أيضا ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ أي يوردهم لكن عبَّر بالماضي لتحقُّــق الوقوع بعد، فكأنَّه وقــع أو أراد عذابهم في قوله تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُــونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِــيًّا﴾ [ســورة غافر: 46] فالماضي على ظاهره، على أنَّ البرزخ من الدنيا.

[بلاغة] شــبَّه النار بالماء ورمز لذلك بلازم الماء وهو الورود، فإثبات الإيراد تخييل، والجامع مطلق الإحضار، أحضروا إلى النار كما تحضر الإبل العطاش إلى الماء، أو نزَّل التضادَّ منزلة التناســب بواسطة التهكُّم، فإنَّ الماء للتبريد للأكباد وتســكين العطش بخلاف النار، أو النار استعارة تهكُّمية للماء وإثبات الورود تخييل، أو شبَّه فرعون بمن سبق رفقته ليهيِّئ لهم الماء أو مع النبات، وقومه بالواردة، ففيه اســتعارة بالكناية أيضا، وإثبات الورود تخييل، أو الاســتعارة مركَّبة بأن تشــبه بالمتقدِّم للماء والمرعى، والإتبــاع لهم النارَ وأهلها، أو شبَّه سوقه إيَّاهُم إلى النار بالإيراد، وسوقه مجاز إذ لا يسوقهم لكن تسبَّب فيه، والســائق الملائكة، و«وَرَدَ» بلا همز يتعدَّى بنفسه لواحد وبالهمز ـ كما هنا ـ إلى اثنين، أي صيَّرهم واردين النار، أي حاضرين عندها داخليها.

﴿وَبِيسَ الْوِرْدُ﴾ أي الورود الذي تضمَّنــه «أَوْرَدَهُم»، إذ المعنى: صيَّرهم ذوي وِرْدٍ، أو «الْوِرْدُ»: النار، أو موضــع الورود على حذف مضاف، ولا مانع من قولك: بيس الورود، فكما يقال: بيــس ما وردوا إليه، يقال: بيس ورودهم إليه، وبيس موضع الشــرب، وبيس الشــرب نفســه ﴿الْمَوْرُودُ﴾ نعت للوِرْدِ لجواز نعت فاعل باب نِعْمَ على الصحيح، لا مخصوص بالذم، فإنَّه محذوف تقديره هي. و﴿الْوِرْدُ﴾: النصيب مِمَّا يورد، وإن جعل مصدرا قدِّر المخصوص

ورود النــار، أي بيس الــورد الــذي ورَدُوه، لأنَّ الورد للتبريــد والريِّ وهذا للإحراق والإعطاش.

ومَن شأنه هذا ليس أمره رشــيدا إذ كانت عاقبته سوءا، وهذا بيان لبعض موجبات انتفاء الرشــد، ومنها الغرق ومنها أصلها ادِّعاء الألوهيَّة ولو لم يكن لها عقاب وكيف وعقابها أشدُّ عقاب.

وقد قيل: المعنى أوردهــم موجبات النار وهي أنــواع الكفر، ويبعد هذا للعطف بالفــاء، لأنَّ الموجبات قبل يوم القيامة لا بعــده، كما يبعد أن يجعل الورد بمعنى الواردين، كقوله تعالى: ﴿وَنَسُــوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [ســورة مريم: 86] للاحتياج إلى الحذف، والأصل الواردون المورود بهم فيكون الذمُّ للواردين لا للورود ولا لمكانه، ويكون المخصوص هم.

﴿**وَأُتْبِعُواْ**﴾ أي القوم أو الملأ ﴿**فِي هَذِهِ لَعْنَةً**﴾ أي في هذه الدار الدنيا أي القريبة الزوال، ولو ذكر الدنيا بهذا اللفظ وجعلناه بمعنى هذا الزمان الســابق على الآخرة تعيَّــن أنَّه عطف بيان أو بدل، ولم يجز النعــت لأنَّ الدنيا حينئذ كالعلَم، والعلــم لا ينعت بــه، وذلك حيث ذكــرت الدنيا مع هــذه ﴿**وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ**﴾ بالنصب مع عطفه على المجرور لأنَّه مع نصبه هو في معنى: في يوم القيامــة، أي يلعنون فــي الدنيا والآخــرة، أي طردوا في الدنيــا عن الرحمة بالهلاك، وبالخذلان قبله، وفي الآخرة بلعن الملائكة.

والعذاب أو اللعن فــي الدنيا لعن الخلائق لهم، والمــراد: جعلت اللعنة تابعة لهم فــي الدنيا والآخــرة، فـ«لَعْنَةً» مفعــول أوَّل والواو ثــانٍ ناب عن المفعول، وجعَل اللعنةَ كشــخص تابع لآخر ليقذفه في هــوَّة وهو غافل عنه. والماضي تغليب لخذلان الدنيــا، وإلَّا فيوم القيامة مســتقبل اللعنة، أو نزَّله منزلة الواقع، وعبَّر عنه مــع الواقع بلفظ المضيِّ، وفيــه الجمع بين الحقيقة والمجاز ﴿**بِيسَ الرِّفْدُ**﴾ العطاء ﴿**الْمَرْفُودُ**﴾ المعطى، والمراد اللعنة، ســمِّيت

عطــاء تهكُّما بهم، ويطلــق الرفد أيضا علــى العون، كأنَّه قيــل: بيس العون المعان، فإنَّ لعنتهم في الدنيــا أعينت بلعنتهم في الآخــرة أو بالعكس، كما يسند الشيء على غيره تعميدا عليه.

وأصل الرفد ما يســند على غيره ليكون عمدة له، وأيضا زيادة السوء في أعمالهم إعانة لهم على ما ســبق من السوء، وأيضا هلاكهم زيادة في ضلالهم بمناســبته لأعمالهم، واللعنة فــي الدنيا مدد لعذاب الآخــرة، والمخصوص محذوف، أي بيس الرفد المرفود رفدهم أو لعنتهم.

﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيۡكَۖ مِنۡهَا قَآئِمٞ وَحَصِيدٞ ١٠٠ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡۖ فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ ١٠١ وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ١٠٢﴾

العبرة من قصص الأمم الظالمة في الدنيا

﴿**ذَٰلِكَ**﴾ المذكور من خبر شأن فرعون وقومه، وقوم شعيب وقوم لوط وقوم نوح وغيرهم، والخطاب لرسول الله ﷺ ﴿**مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ**﴾ أخبارها أي من أخبار القرى المهلكة، وهذا خبر المبتدإ أو حال من «ذا»، أو من الهاء بعده وقوله ﴿**نَقُصُّهُۥ عَلَيۡكَ**﴾ خبر ثان، أو خبر، أو المعنى نذكره لك تسلية لك، لأنَّ الله قادر على إهلاك قومك كما أهلك تلك القرى، وليكون ذلك إنذارا لقومك، وعظة بما وقع بمن قبلهم لكفرهم كما كفروا. والمقصود بالقرى أنفسها، أو أهلها الحالُّون بها تسمية للحالِّ باسم المحلِّ.

﴿**مِنۡهَا قَآئِمٞ وَحَصِيدٞ**﴾ أي منزل قائم أو أثر قائم بعد إهلاك أهله، ومنزل أو أثر حصيد مهلك غير باق، كالزرع المحصود، فهو متهدِّم مشاهد، أو ذاهب كزرع حصده أهله وذهبوا به، فما بقي من أثرها وجدرانها كالزرع القائم، وما عفا وتهدَّم وبقي كالزرع المحصود الباقي.

وعبارة بعض: القائم ما بقي جدرانه وسقط سقفه، والحصيد ما محي أثره؛ وقيل: القائم العامر، والحصيد ما محي أثره؛ وقيل: القائم العامر والحصيد

الخراب؛ وقيل: المعنى منها باق نسله ومنها منقطع نسله، وذلك على كلِّ حال تشبيه بالزرع القائم والحصيد.

وحملنا «قَائِمٌ» على التشبيه بالزرع القائم لدلالة قوله: ﴿وَحَصِيدٌ﴾ وكأنَّه قيل: ما شأنها؟ فقال: منها قائم وحصيد، فالجملة استئناف بيانيٌّ لا حال من هاء «نَقُصُّهُ» لعدم الربط بالواو ولا بالضمير، ولا يقال: الضمير في «مِنْهَا» عائد إلى اسم الإشارة المراد به النبأ. وأُنِّث باعتبار معنى القصَّة أو إرادة الجنس، كأنَّه قيل: تلك الأنباء، فتكون الجملة حالا والرابط «ها»، لأنَّا نقول: الأنباء لا توصف بالقائم والحصيد، ولا يلزم تقدير: «ومنها حصيد» لصحَّة المعنى بدونه.

﴿**وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ**﴾ بإهلاكهم بلا ذنب، فإنَّا أهلكناهم بذنوبهم، والضمير للقرى على أنَّه عبَّر بلفظ القرى عن «أهل» مجازًا أو حقيقة كما هو قول، أو للمضاف المحذوف، أي من أنباء أهل القرى، أو لِمَا دلَّ عليه القرى ولو بلا تقدير، أو على الاستخدام بأنَّ ذكر القرى مرادة بنفسها، وردَّ عليها الضمير بمعنى ساكنيها ﴿**وَلَكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ**﴾ إذ جرُّوا إليها الهلاك بشركهم وسائر معاصيهم.

﴿**فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ**﴾ عطف على محذوف، أي أهلكناهم فما أغنت، أي وجهنا الإهلاك إليها فما دفعته آلهتهم ﴿**التِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ**﴾ يعبدونها، أو يطلبون منها حوائجهم إذ عدُّوها آلهة ﴿**مِن شَيْءٍ**﴾ أي إغنَاء، أو مفعول به أي ما دفعت شيئا من العذاب، وهذا أولى من جعل «مَا» استفهاما إنكاريًّا، لأنَّه على الأصل المتبادر بلا داع إلى الصرف عنه، وعلى كلِّ حال «مِنْ» صلة. ﴿**لَّمَّا جَآءَ**﴾ جاءهم ﴿**امْرُ رَبِّكَ**﴾ أمر من أموره، وهو الإهلاك، وهذا أولى من أن يقال: أمرُه الملائكة بتوجيه العذاب على أنَّه ضدُّ النهي.

﴿**وَمَا زَادُوهُمْ**﴾ زادتهم وعبَّر عنها بضمير الذكـور العقلاء وهو الواو لاعتقادهم فيها أنَّها بمنزلة الذكور العقلاء ﴿**غَيْرَ تَتْبِيبٍ**﴾ تخسير، جاءتهم منها مضرَّة حين رجوها للنفع، ومجيء الشـرِّ من حيث يطمع الخير أشدُّ في الخسران.

والتضعيف للتعديـة، أي: تبَّبَتْهم: أوقعتهم في التبـاب؛ أو للمبالغة، أي غير هلاكهم. ومعنى الزيادة أنَّهم يهلكون بإنـكار الله أو الأنبياء والكتب ولو بلا عبادة أصنام، فزادتهـم عبادتها هلاكا، أو زيادتها لهـم إنكارها أن ترضى بالعبادة وتعذيبهم بها في النار.

﴿**وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ الْقُرَىٰ**﴾ والإشـارة إلى أخذ غير أخذ القرى المذكـور، وهو الأصـل لأنَّ الله ﷻ لم يذكر لرسـول الله ﷺ أخـذ كُلِّ قرية أخذها، أو أراد ما ذكر في غير هذه السورة.

ويحتمل أن تكون الإشارة إلى الأخذ المذكور بعدُ، فتكون الكاف مقحمة للدلالة على فخامة شأن المشار إليه والتلويح إليه كأنَّه مشاهد له، ففي الوجه الأَوَّل القرى غير المذكورة في السورة.

[نحو] وتنازع «أَخْـذُ» و«أَخَذَ» في «الْقُرَى» وأعمـل الأول في ضميرها، وحذف لأنَّه فضلة عمل فيه المهمل، أي وكذلك أخْذُها ربُّك بإسـكان الخاء وضمِّ الذال ورفـع ربُّ على الفاعليَّة للأخذ، والاسـتقبال بـ«إِذَا» على فرض أنَّه ﷺ سـابق لأخذ البعض متأخِّر عن أخذ البعض الآخر، أو «إِذَا» بمعنى إذ بإسكان الذال، أو أراد القرى التي تهلك على يد أمَّته بعده.

﴿**وَهِيَ ظَالِمَةٌ**﴾ حال، بيَّـن الله ﷻ أنَّ عاقبة ظلم النفس بالمعاصي وظلم الخلق وخيمة فـي كلِّ عصر، فإن لم تظهر في الدنيـا ظهرت في الآخرة. ولا يخفى أنَّ أخْذَ القرى وظلمَها أخذُ أهلها وظلمُهـم على ما مرَّ ﴿**إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ**

شَدِيدٌ﴾ وجيع في نفسه على التجوُّز، أو موجع بفتح الجيم كذلك أو بكسرها ﴿شَدِيدٌ﴾: لعظمه ودوامه وحضوره، بحيث لا يرجى دفعه ولا الخلاص منه.

ولا يختصُّ ذلك بالأمم السابقة ولا بأهل الشرك كما قال أبو موسى عن رسول الله ﷺ: «**إنَّ الله ليملي على الظالم حتَّى إذا أخذه لم يفلته**»[1] ثمَّ قرأ ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [قلت]: فنقول يجب على الظالم أن يقلع عن الظلم ويقضي التباعات.

(1) رواه **البخاري** في كتاب التفسير (5) باب ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ...﴾ رقم 4686. و**التبريزي** في كتاب الآداب (21) باب الظلم، الفصل الأوَّل، رقم 5124 (2). من حديث أبي موسى.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّمَنۡ خَافَ عَذَابَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ ١٠٣ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٖ مَّعۡدُودٖ ١٠٤ يَوۡمَ يَأۡتِ لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ ١٠٥ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَشَهِيقٌ ١٠٦ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ١٠٧ ۞وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ ١٠٨ فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّمَّا يَعۡبُدُ هَٰٓؤُلَآءِۚ مَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبۡلُۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمۡ نَصِيبَهُمۡ غَيۡرَ مَنقُوصٖ ١٠٩﴾

العبرة في قصص القرآن بجزاء الآخرة

﴿**إِنَّ فِي ذَٰلِكَ**﴾ فيما ذكره الله من القصص في هذه السورة، أو في كلِّ ما نزل عليهم في كلِّ عصر وما ينزل ﴿**لَأٓيَةٗ**﴾ اعتبارا، إذا قيل: آية على كذا فمعناه الدلالة، وإذا قيل: آية لكذا فمعناه العبرة ﴿**لِّمَنۡ خَافَ عَذَابَ ٱلۡأٓخِرَةِ**﴾ يتَّعظ به لعلمه بأنَّ ذلك مع شدَّته قليل من كثير، وفان من دائم، وينزجر عن موجباته لعلمه بأنَّها من الله العزيز الجبَّار، الفاعل المختار، لا كمن نفى الله وفعل تلك الوقائع لأسباب نجومية اقتضت ذلك، لا لذنوبهم، وقد يقول بهذا بعض المشركين الذين يذكرون الله عز وجل.

﴿**ذَٰلِكَ**﴾ أي يوم القيامة المذكور في قوله عز وجل: ﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾[الآية: 99] المدلول عليه بقوله: ﴿عَذَابَ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾، ويسهل ذلك الإخبار عنه بقوله: ﴿**يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ**﴾ أو الإشارة إلى العذاب فيقدَّر المضاف قبله أي يوم

ذلك العذاب يوم مجموع، أو قبل يوم، أي: ذلك العذاب عذاب يوم مجموع... إلخ. و«النَّاسُ» نائب فاعل، وكأنَّه قيل: يُجمع له النـاس، ولكن غيَّر الفعل إلى الوصف لدلالة الوصف، وهو مجموع على الثبات ثبات الجمع لليوم، وأنَّ جمع الناس فيه أمر لا محالـة فيه، وأنَّهـم لا ينفكُّون عنـه، وهو أشـدُّ مبالغة وبلاغـة من قوله: ﴿يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ [سورة التغابن: 9] جيء بالفعل إذ لم تورد المبالغة.

والقرآن يشـتمل على الأبلغ والبليـغ لأنَّ كلام العـرب كذلك، وصرَّح السـعد وابن هشـام بأنَّ اسـم الفاعل أو اسـم المفعـول مجاز فـي الحال والاستقبال فـ«مَجْمُوعٌ» مسـتعار ليجمع، كاستعارة نادى لينادي، واللام على ظاهرها أي جمع له الناس ليكون يوما عظيما، أو بمعنى في، ومراد الجمع له أو فيه الحساب والجزاء.

﴿وَذَٰلِكَ يَـوْمٌ مَّشْـهُودٌ﴾ يوم عظيم يشـهده الناس، والجـنُّ والملائكة والحيوانات كلُّها، أو يشـهد بعضهم بعضا فيه، وعلـى كلٍّ يعظم، ولا يقال: «يَوْمٌ مَشْـهُودٌ» إلَّا ليوم جامـع الناس لأمر عظيم أو غريـب أو مهمٍّ فيه، ولو جعل اليوم مشـهودا لذاته لم يكن عظيما، لكن مشـهود لِمَا فيه، فامتاز كيوم العيد والجمعة وعرفـة، وإلَّا فكلُّ يوم قـد حضره من هو فيـه، ولا يختصُّ التعظيم بالزمان، قالت امرأة:

ومشهدٍ قد كُفيتُ الغائبين بـه في محفل من نواصي الخيل مشهود[1]

﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ لوقت معلوم عند الله بأجزائه الدقيقة جدًّا لا يعلم دقَّتهـا إلَّا الله وهو مُدَّة الدنيـا المعلومة عنـد الله بذرَّاتها من الزمان. واللام للتعليل، أي إلَّا لأجل انقضاء أجل معدود. والهاء للعذاب أي ما نؤخر العذاب المذكور.

(1) هي أم قُبيس الضبِّيَّة، ورواية اللسـان: «من نواصي الناس»، والنصيـة من الناس: خيارهم. انظر: اللسان مَادَّة: نصا ـ ناصية.

وإن لم نقدِّر الانقضاء فلأجل آخر، جزء من الدنيا أو البرزخ، وهل هو من الدنيا؟ أقوال، ثالثها: لا منها ولا من الآخرة، إلَّا أنَّ الجزء المدقَّق الذي لا يقبل التجزيء من الزمان لا يقبل العدد، فلا يقال: إنَّه معدود إلَّا باعتبار أنَّه جزء من جملة، على أنَّه اختلف في الواحد أهو عدد؟. ويجوز عود الهاء لليوم، أي قضينا أنَّ ذلك اليوم يأتي بعد مدَّة الدنيا.

﴿**يَوْمَ يَاتِي**﴾ متعلِّق بـ«تَكَلَّمُ»، ولا صدر لـ«لَا» النافية غير العاملة عمل إنَّ، أو مفعول لـ«اذكر» محذوف، أو متعلِّق بالانقضاء المقدَّر، وعلى الوجهين ينقطع عنه قوله: ﴿لَا تَكَلَّمُ﴾ فيكون مستأنفا بعده، وقد يقدَّر الضمير، أي لا تكلَّم فيه نفس، فيتَّصل المعنى.

وضمير «يَاتِي» للعذاب، أو لله أي يأتي أمره، أو عذابه، ولا يجوز عوده لـ«يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ» لأنَّ الزمان لا يكون في الزمان، إلَّا إن اعتبر زمان متَّسع، وكأنَّا نعتبر ما يلي الدنيا من البرزخ، أو من قرب القيامة جدًّا مع ما يكون بعدُ، فنجعل اليوم المشهود جزءا متأخِّرا لا انتهاء له.

أو اليوم المشهود: وقت الحساب، ووقت الحساب لا يخلو من عذاب القلوب، وقد صحَّ أن تقول يوم الجمعة في شهر كذا أو الساعة في يوم كذا وما أشبه ذلك، واليوم بمعنى حين، وورد في القرآن إتيان الساعة كقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَاتِيَهُم بَغْتَةً﴾ [سورة القتال: 18] وإتيان الله ﷻ نحو: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَنْ يَّاتِيَهُمُ اللهُ﴾ [سورة البقرة: 210] أي أمره، ثمَّ إذا رددنا الضمير لليوم صحَّ بوجه آخر أيضا، أي يوم يأتي اليوم المجموع له الناس، أي هول اليوم المجموع... إلخ.

﴿**لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ اِلَّا بِإِذْنِهِ**﴾ أي كلاما نافعا أو منجيا أو شفاعة، فلا ينافي ﴿يَوْمَ تَاتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾ [سورة النحل: 111] ونحو قولهم: ﴿وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [سورة الأنعام: 23]. يقال: خرس فلان عن

حجَّته، ويقال: حضر فلان فلم يتكلُّم مع أنَّه ليس أخرس وقد تكلَّم إذ لم يأت بكلام نافع.

[قلت]: ولا يجوز أن يقدَّر لا تكلم كلاما باطلا من الأعذار الباطلة أو غيرها لأنَّ الله ﷻ يقول: ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ والله لا يأذن بباطل، إلَّا أن يقال: المراد يأذن له في الكلام مطلقا، أو في الكلام بحجَّة فينطق بباطل، والله عالم بأنَّه ينطق به قبل نطقه، أو يجعل الاستثناء منقطعا، ويجوز أن يقدَّر لا تكلَّم في موطن ﴿لَا يَنطِقُونَ وَلَا يُوذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [سورة المرسلات: 35ـ36] وتتكلَّم في آخَر، ويوم الحشر مواطن، ومن التكلُّم في موطنٍ قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنَ اَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ [سورة النبأ: 38] فمنه الآية.

﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ﴾ سيِّئ الحال في عذاب وتعب في النار بعمله لموجب الوعيد[1] ﴿وَسَعِيدٌ﴾ حسن الحال في نعمة وراحة في الجنَّة لعمله بفضل الله ﷻ ووعده، أي ومنهم سعيد، ولا يلزم هذا التقدير، إذ المعنى بلا تقدير ثبت منهم شقي وسعيد، وكأنَّه قيل: الشقي والسعيد ثابتان منهم.

[بلاغة] وقدَّم الشقيَّ لأنَّ المقام للإنذار، والمراد: فريق شقيٌّ وفريق سعيد، ولم يقل: أشقياء وسعداء، لأنَّ الإفراد أوفق بما قبل، وللإشارة إلى أنَّ السعداء كسعيد واحد، والأشقياء كشقيٍّ للاتِّفاق فيما به ذلك من الخذلان والتوفيق والأعمال، والجمع في ﴿فَأَمَّا الذِينَ شَقُواْ﴾ و﴿وَأَمَّا الذِينَ سَعِدُواْ﴾ لأنَّهم يدخلون النار والجنَّة زمرة، كما جاء القرآن والحديث بذلك.

الهاء للناس في قوله: ﴿مَجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ﴾ أو للنفس للعموم بتقدُّم السلب مع وجود التنكير، أو للناس المعلومين من ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ﴾، أو لأهل الموقف كما دلَّ عليه ﴿يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ﴾. والجنُّ تابعون للناس في شمول الكلام، والنفس شاملة لهم قطعا.

(1) في الطبعة العُمانية: «العذاب».

[أصول الدين] وأطفال المشركين والمنافقين من السعداء لقوله ﷺ: «**سألت ربِّي في اللاهين فأعطانيهم خدما لأهل الجنَّة**»[1] وأطفال المسلمين في درجات آبائهم لا خدم، جاءه ذلك من الله بعد أن توقَّف، وقال: الله أعلم بما كانوا عاملين.

[أصول الدين] والسعادة والشقاوة من الدنيا بحسب طبق القضاء الأزلي ولا يتخلَّف، [قلت:] والله يمنُّ بالرحمة ولا يظلم بالعذاب وقد منَّ الله على الأطفال كما مرَّ آنفا، ولا يمنُّ على المصرِّ، ويوم القيامة ليس يوم عمل وتكليف. وأنا أذكر لك أحاديث وضعها الناس وأسندوها إلى رسول الله ﷺ وليست منه:

[أحاديث موضوعة] روى أحمد وإسحاق بن راهويه والبيهقي عن الأسود بن سريع عن النبيء ﷺ: «أربعة يحتجُّون يوم القيامة: رجل أصمُّ لا يسمع، ورجل أحمق، ورجل هرم، ورجل مات في فترة، فيقول الأصمُّ: ربِّ جاء الإسلام وما أسمع شيئا، والأحمق يقول: ربِّ جاء الإسلام والصبيان يحذفونني بالبعر، والهرم يقول: ربِّ جاء الإسلام وما أعقل شيئا، والذي مات في الفترة يقول: ربِّ ما أتاني لك رسول. فيأخذ مواثيقهم ليطيعنَّه، يرسل إليهم أن ادخلوا النار، أي نارا ترفع لهم، فمن دخلها كانت عليه بردا وسلاما ومن لم يدخلها سحب إليها أي ودخل النار».

وكذا روى أحمد وإسحاق وابن مردويه في تفسيره والبيهقي عن أبي هريرة، وروى البزار عن أبي سعيد الخدري قال رسول الله ﷺ: «**يؤتى بالهالك في الفترة والمعتوه والمولود، فيقول الهالك في الفترة: لم يأتني كتاب ولا رسول، ويقول المعتوه: أي ربِّي لم تجعل لي عقلا أعقل به خيرا ولا شرًّا،**

---

(1) أورده **ابن الجوزي** في العلل: ج 2، ص 444 بنفس المعنى. ورواه **ابن أبي شيبة** و**الدارقطني** في الإفراد والضياء عن أنس، صحيح الجامع الصغير بدون الجملة الأخيرة.

ويقول المولود: لم أدرك العمــل. فترفع لهم نار، فيقال لهــم: رِدُوها ـ أو قال: ادخلوها ـ فيدخلها من كان في علم الله ســعيدا لو أدرك العمل، ويمسك عنها من كان في علم الله شــقيًّا لو أدرك العمــل، ويقول الله تبــارك وتعالى: إيَّاي عصيتم فكيف برســلي في الغيــب؟» وفي إســناده ضعف بعطيــة العوفي، والترمذي يحسِّن حديثه، ولهذا أحاديث تقتضي حسنه، إلَّا أنَّها **عندنا لا تصحُّ.**

وروى البــزار وأبو يعلى عن أنس قال رســول الله ﷺ: «**يؤتى يوم القيامة بأربعة: بالمولود والمعتوه ومــن مات في الفترة والشــيخ الفاني، كلٌّ يتكلَّم بحجَّة، فيقول الله تبارك وتعالــى لِعُنُق من جهنم: ابــرزي، فيقول: إنِّي كنت أبعث إلى عبادي رســلا من أنفسهم، وإنِّي رسول نفســي إليكم، ادخلوا هذه النار، فيقــول من كتب عليه الشــقاء: يــا ربِّ أَتُدْخِلْنَاها؟ ومنهــا كنا نفرق! ويقتحمها من كتبت له الســعادة، فيقول الله: قد عصيتموني فأنتم أشدُّ لرسلي تكذيبا ومعصية، فيدخل هؤلاء الجنَّة وهؤلاء النار**».

وروى عبد الــرزاق وابن جرير وابــن المنذر وابن حاتم عــن أبي هريرة موقوفا: «إذا كان يوم القيامة جمع الله أهل الفتــرة والمعتوه والأصمَّ والأبكم والشــيوخ الذين لم يدركوا الإسلام، ثمَّ أرسل إليهم رســولا أن ادخلوا النار فيقولون: كيف ولم تأتنا رســل؟» ثمَّ قال: «وأيمُ الله لو دخلوها لكانت عليهم بردا وســلاما، ويدخلها من يطيعه، اقرؤوا إن شــئتم ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ [سورة الإسراء: 15]».

وروى البزار والحاكم عن ثوبان أنَّ النبيء ﷺ قــال: «**إذا كان يوم القيامة جاء أهل الجَاهِلِيَّة يحملون أوثانهم على ظهورهم، فيســألهم ربُّهم فيقولون: ربَّنا لم ترسل إلينا رســولا ولم يأتنا لك أمر، ولو أرســلت إلينا رسولا لكنَّا أطوع عبادك، فيقول لهم ربُّهم: أرأيتكم إن أمرتكم بأمر تطيعونني؟ فيقولون: نعم، فيأمرهم أن يعمدوا إلى جهنَّم، وأن يدخلوهــا فينطلقون حتَّى إذا رأوها**

فرقوا ورجعوا، وقالوا ربَّنا فرقنا منها ولا نستطيع أن ندخلها فيقول: ادخلوها داخرين» فقال: النبيء ﷺ: «**لو دخلوها أوَّل مرَّة كانت عليهم بردا وسلامة**» وصحَّحه الحاكم.

وروى الطبري وأبو نعيم عن معاذ بن جبل عن النبيء ﷺ: «**يأتي يوم القيامة بالممسوخ عقلا، وبالهالك في الفترة، وبالهالك صغيرا، فيقول الممسوخ عقلا يا ربِّ لو آتيتني عقلا ما كان من آتيته عقلا بأسعد بعقله منِّي**»، وذكر في مَيِّت الفترة والصغير نحو ذلك، «**فيقول الربُّ: إنِّي آمركم بأمر أفتطيعونني؟ فيقولون: نعم، فيقول: اذهبوا فادخلوا النار، فلو دخلوها ما ضرَّتهم، فيخرج إليهم فرائص فيظنُّون أنَّها أهلكت ما خلق الله، فيرجعون سراعا ثمَّ يأمرهم الثانية فيرجعون كذلك، فيقول الربُّ: قبل أن أخلقكم علمت بما أنتم عاملون، وعلى علمي خلقتم، وإلى علمي تصيرون، ضمِّيهم، فتأخذهم**».

[قلت:] **فانظر كيف يكذب الناس على الصحابة**، أمَّا الصبيُّ والمجنون من الطفوليَّة فمعذوران بالحديث المتَّفق عليه، أنَّه رفع عنهما القلم[1]، وكذا الأصمُّ والأبكم اللذان لا يعقلان بالإشارة، ولا بالكتابة، وأهل الفترة معذورون في تفاصيل الشرع مقطوعو العذر في الإشراك، فمن وحَّد منهم ولم يجد من يقول له عُذِر، كيف يقال لهم: كذَّبتم، ولم يبلِّغ لهم مبلِّغ؟ وكيف يقول فيهم الله: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ [سورة الذاريات: 54] وكيف يقول الرسول ﷺ: قد بلَّغتهم، وكيف يقولون: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا﴾ [سورة الملك: 9] ونحو ذلك مِمَّا يقول أهل النار؟!.

---

(1) ولفظه: «رفع القلم عن ثلاثة: عن المجنون المغلوب على عقله حتَّى يبرأ، وعن النائم حتَّى يستيقظ، وعن الصبيِّ حتَّى يحتلم» رواه **أحمد** في مسنده كتاب العشرة المبشَّرين، رقم 1258. ورواه **أبو داود** في كتاب الحدود رقم 3823. ورواه **الحاكم**. والحديث عن عليٍّ وابن عمر.

﴿فَأَمَّا الذِينَ شَقُواْ فَفِي النَّارِ﴾ يقدَّر الاستقرار مضارعا للاستقبال، ولو قدِّر وصفا للاستقبال لجاز للثبوت، ولو قدِّر ماضيا لتحقُّق الوقوع لصحَّ لكن لا دليل على تقديره.

[لغة] ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾ إخراج النفَس مع مدِّه، مأخوذ من الزِّفر وهو الحمل الثقيل. ﴿وَشَهِيقٌ﴾ ردُّه مع المدِّ، أو الزفير: ترديد النفس في الصدر حتَّى تنتفخ منه الأضلاع، والشهيق ردُّه في الصدر، أو الزفير للحمار والشهيق للبغل، وقيل: الشهيق الممتدُّ كما تقول: جبل شاهق، وعن ابن عَبَّاس ﵁: الزفير الصوت الشديد، والشهيق الصوت الضعيف، أي دخولا أو خروجا سواء.

[بلاغة] أو أراد الشدَّة في الإخراج والضعف في الإدخال، شبَّه حالهم وهي شدَّة الغمِّ وانحصار أرواحهم في داخل قلوبهم، بحيث يحتاجون إلى إخراج النفس الكثير لإدخال الهواء الكثير البارد للترويح، بحال من كان كذلك في الدنيا لهموم استولت عليه. وأولى من هذا أنَّه شبَّه ضيق حالهم وشدَّتها في النار بمن حاله بانحصار الأرواح إلى آخر ما مرَّ، والزفير والشهيق تخييل، فـ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ مكنية وتخييلية، أو الزفير والشهيق استعارتان مفردتان لصراخهم فيها لشبهها بأصوات الحمر.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالَارْضُ﴾ المراد: الخلود بلا غاية.

[لغة] والسماوات والأرض منقطعة، ولكن مثَّل بدوامها على طريق العرب في التمثيل لِمَا لا انقطاع له بما له انقطاع بعيد، كما يمثِّلون للإيَّاس بالسبعين، ويقولون: لا أكلِّمك ما دامت السماء والأرض وما حنت البنت، وما أطَّت الإبل وما أورق الشجر، وما أينع التمر، وما سال سائل، وما جنَّ ليل، وما طلع فجر، وما لاح كوكب، وما طرق طارق، وما نطق ناطق، وما غنَّت حمامة، ومرادهم أنَّه لا يكون كذا أبدا.

والمعلوم أنَّهم لا يعيشون مدَّة بقاء السماء والأرض ولا مدَّة ما ذكر.

ولو أريد ظاهر الآية لم يبق إلَّا المفهوم، إذ يفهم أنَّه إذا زالت السماوات والأرض خرجوا منها بل يبقون فيها إلى زوالهما، وبعد زوالهما لا يخرجون، للنصوص الدالة على الأبديَّة المبطلة لهذا المفهوم، فليس هذا المفهوم مرادا في الآية ثمَّ إنَّ السماوات والأرض تفنيان يوم القيامة فكيف يدومون في النار ما دامتا؟ فالمراد ـ والله أعلم ـ التمثيل لخلودهم فيها بمقدار بقائهما في الدنيا.

وقيل: المراد سماوات النار وأرضها وهما أبديَّتان، وسماواتها سقوفها كما قال: الله ﷻ: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الَارْضُ غَيْرَ الَارْضِ والسَّمَاوَاتُ﴾ [سورة إبراهيم: 48]، وفي هذا أيضا أنَّ المخاطبين لا يعرفون ثبوت هذا ولا قيام الساعة، ويجاب عن هذا والذي قبله أنَّه لا مانع من خطابهم بما لم يعرفوا لفائدتين: إحداهما: الاحتجاج مثلا، والأخرى: الإخبار بذلك الشيء. وقيل: ما دامت السماوات والأرض قبل زوالهنَّ فإذا زالت أبدلهم الله خلودا.

﴿**إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ**﴾ من مدَّة وهي ما بين قيام الساعة إلى دخول النار، فإنَّهم يعذَّبون في قبورهم بنار تارة، وتعذَّب أرواحهم في سجِّين تارة بها، والمستثنى منه هو المصدر الظرفيُّ، وهو دوام السماوات والأرض، لكن يبقى من يموت بقيام الساعة فإنَّه لم يعذَّب قبله، فإمَّا أن يحمل الكلام على الغالب لأنَّ من مات وعذِّب قبل قيامها أكثر، أو يحمل الاستثناء في جنابه على الاستثناء من أوَّل، ولا مانع من اختلاف أحوال المستثنى.

أو المدَّة المستثناة هي مدَّة كونهم في الزمهرير فإنَّهم تارة في النار وتارة في الزمهرير، أو المراد: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ من الزيادة على قدر مدَّة دوام السماوات والأرض، وهي زيادة لا منتهى لها، و«إلَّا» في هذا الوجه كالنعت أو البدل، أي مدَّة دوام السماوات والأرض التي هي غير ما يزداد بعدها،

كقولك: لي عليك ألف غير الألف الســـابق، أو غير الألف الذي سيكون من جهة كذا، ذكر أوّلاً ما يعرف من المدَّة، وزاد بعدها ما لا ينتهي.

ويجوز أن يكون المســـتثنى مدَّة لبثهم في الدنيـــا، وبرازخهم والموقف. وبرزخ كلِّ أحد ما بين موته إلى بعثــه، كأنَّه قيل: هم أصحاب النار لا يخلون عنها إلَّا ما سبق من المدَّة قبل وقت دخولها.

ويجوز الاستثناء من الزفير والشهيق، والمعنى: لهم فيها زفير وشهيق في جميع أوقاتها إلَّا بعض الأحيان، فينقطع فيها زفيرهم وشـــهيقهم، إلَّا أنَّ هذا يشكل بأنَّه ليس استثناء تاما لعدم ذكر المستثنى منه، ولا مفرَّغا لعدم السلب، وبعض النحاة يكتفي بالمقدَّر في ذلك كما رأيت.

والأَولى في هذا جعل الاستثناء منقطعا، وقيل: المعنى إلَّا ما شاء ربُّك لو فرض أنَّه تعالى و ﷻ يشاء إخراجهم فهو تعليق بالمحال، فيكون ذلك برهانا على الأبديَّــة كقوله تعالـــى و ﷻ: ﴿حَتَّىٰ يَلِــجَ الْجَمَلُ فِي سَـــمِّ الْخِيَاطِ﴾ [ســـورة الأعراف: 40] أو كقوله: لأضربنَّك إلَّا إن أرى غير ذلك، وأنت لا ترى إلَّا ضربه، وكأنَّه قيل: لا يخرجهم ولو شاء لأخرجهم.

وقيل: الاســـتثناء تعليم للاستثناء لمشـــيئة الله ﷻ في الكلام والتبرُّك به، وهو في حكم الشرط كقوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْـــجِدَ الْحَرَامَ إِن شَآءَ اللهُ﴾ [سورة الفتح: 27].

﴿**إِنَّ رَبَّكَ فَعَّـــالٌ لِّمَا يُرِيدُ**﴾ لا رادَّ لفعله ولا معـــارض. ذكر الله وعيدهم إنذارا لقومه ﷺ، وتســـلية له ﷺ، وذكر الســـعادة له ولمن تبعه تنشـــيطا لهم وإرغاما للكفرة بقوله: ﴿**وَأَمَّا الذِينَ سَـــعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّـــمَاوَاتُ وَالَارْضُ إِلَّا مَا شَـــآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ**﴾ غير مقطوع عنهم بفنائهم، أو مرضهم أو خروجهم، أو بعدم الانتفاع، كلُّ ذلك لا يكون.

ونصب «عَطَآءً» على أنَّه مفعول مطلق، أي أعطوا ذلك عطاء، ومعنى جذِّ العطاء إبطاله والرجوع فيه، فلا استثناء فيه بالنقص، كما استثنى في الكفار بالزيادة، و﴿مَا شَـاءَ رَبُّكَ﴾: مدَّة برزخ قيام السـاعة وما بعدها إلى دخولها، أو **ما شـاء ربُّك من الزيادة أي خالديـن فيها قدر مدَّة الدنيا غير ما يزاد عليهـا، ولا ينتهي**، أو «إِلَّا» في الموضعين كما قيل: في قوله تعالى ﴿إِلَّا مَـن ظَلَمَ﴾ [سـورة النمل: 11] بمعنى الواو العاطفة فهي عاطفة، وهو[1] وجه ضعيف، أو الاسـتثناء تبريـك فليس متَّصلا ولا منفصلا كقوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَآءَ اللَّهُ﴾ [سورة الفتح: 27].

﴿**فَلَا تَكُ**﴾ لا تكن يا محمَّـد ﴿**فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُـدُ هَٰؤُلَآءِ**﴾ على حذف مضافين، أي من عاقبة عبادة ما يعبد هؤلاء، أو في عاقبة عبادة ما يعبد هؤلاء، أو في ضياع عبادة ما يعبدون، أو من ضياع عبادة... إلـخ، أو «مَا» مَصدَرِيَّة، أي من عبادة هؤلاء أصنامهم، أي من عاقبة عبادتهم أو ضياعها، وإنَّما جاز أن تفسَّر «مِن» بـ«في» لتعلُّقها بـ«مرية» لا بما تعلَّقت به الأولى.

﴿**مَا يَعْبُدُونَ**﴾ أصنامهم ﴿**إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُـم**﴾ و«مَا» مَصدَرِيَّة أي إلَّا كعبادة آبائهم ﴿**مِّن قَبْلُ**﴾ وقد أهلكوا إلى النار لعبادتها، فكذلك نهلك من عبد من قومك الأصنام إن لم يتب، وقـد أهلكوا يوم بدر إلى النار. وذلك تسـلية لرسـول الله ﷺ، ولذلك قرن بالفاء، وكأنَّه قيل: إذا علمت ذلك ﴿فَلَا تَكُ...﴾، فإنَّا لا نهملهم ولو أمهلناهم بعض إمهال، ومن شأنه كذلك لا يضيق به صدرك.

وقد يقدَّر فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ من شـأن ما يعبدون فمـا لهم إلَّا تقليد آبائهم المهلكيـن بما قلَّدوهم فيـه، وإنَّما عبدوا مثـل ما عبد آباؤهم، وهم شـيء ضعيف لا يدفع العذاب، **وكلُّ ما سـوى الله ضعيـف**، وكأنَّه قيل: «لا تك في مرية...» لأنَّه ما يعبد هؤلاء وهم قومك إلَّا كما يعبد آباؤهم، ومقتضى الظاهر: إلَّا كما عبد آباؤهم، إلَّا أنَّـه جيء بالمضارع تنزيلا للماضـي منزلة الحاضر

(1) أي ورود «إلَّا» بمعنى الواو العاطفة.

المشاهد، وليدلَّ على التكرير، وكأنَّه قيل: إلَّا ما كان يعبد آباؤهم، والاستثناء من العبادة، ويجوز من المعبودات أي لا يعبدون شيئا إلَّا مثل ما يعبد آباؤهم.

﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ نوفِّي قومك نصيبهم من العذاب كما وفَّينا آباءهم نصيبهم، أو نوفِّي قومك نصيب آبائهم، أي مثل نصيب آبائهم، وذلك تهكُّم بهم، لأنَّ النصيب تعورف فيما ينتفع به، فهو استعارة، أو موفُّوهم نصيبهم من الرزق يعقبهم العذاب بعد فراغه، فلا تعجل فما بينهم وبين العذاب إلَّا تمام أجلهم.

وعن ابن عَبَّاس [نصيبهم] من الخير والشرِّ، والوجه الأوَّل أشدُّ زجرا لهم، وإضافة «نصيب» للحقيقة، فشملت أنصباء، وكأنَّه قيل: لموفُّوهم أنصباءهم غير منقوصة ﴿غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ حال مؤكِّدة على أنَّ التوفية إعطاء الشيء وافيا، وحمْلُها في الجملة من سائر الكلام على احتمال وفاء البعض فقط مسامحة أو ذهولا من الخلق يحتاج لدليل، فالتوفية عدم النقص.

وهم لم يُوَفُّوا حَقَّ أبي حيان إذ ردُّوا عليه نحو هذا، اللهمَّ إن اعتبرنا ما يجري بين الناس، من أن يقال: قضى فلان دينه إذا بَرِئَت ذمَّته، ولو بمسامحة في بعض، أو اعتبرنا ما يجري في كرم الله تعالى من المسامحة فتكون حالا مبيِّنة لدفع احتمال عدم الكمال، وأمَّا أن يكون كرمه قرينة لأنَّ كونه كريما في الجملة لا يوجب أن يكون قد سامح في هذه القصَّة.

وعنه ﷺ: «**السعيد من بطن أمِّه والشقيُّ من بطن أمِّه**»[1] ومعناه: يظهر سعادته وشقاوته للملك من حين كان في بطنها، حين كان نطفة، وإلَّا فسعادته أو شقاوته معلومة لله ﷻ بلا أوَّل، وقيل: الأمُّ الثبوت العلميُّ الأزليُّ، أي من جهة العلم الأزليِّ الذي كان كالخزانة للخارج، **وفيه عدم أدب**.

(1) أورده **الهندي** في الكنز في كتاب الإيمان والإسلام في الفصل السادس في الإيمان بالقدر، ج 1، ص 107، رقم 491. وقال: رواه **الدارقطني** من حديث أبي هريرة. ورواه **الربيع** في مراسيل جابر رقم 801 بلفظ: «إذا وقعت النطفة...».

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ﴿110﴾ وَإِنَّ كُلّٗا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمۡ رَبُّكَ أَعۡمَٰلَهُمۡۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿111﴾﴾

التذكير بعاقبة الاختلاف في التوراة

﴿وَلَقَدَ ـ اتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ التوراة ﴿فَاخْتُلِفَ﴾ اختلف قومه ﴿فِيهِ﴾ نائب الفاعل، آمن بعض وكذَّب بعضهم، ولم يؤمنوا كلُّهم، فتسلَّ بذلك إذ كفر بعض قومك بالقرآن، ولم يؤمنوا كلُّهم، و«فِي» على ظاهرها، أو للسببيَّة، والهاء للكتاب، وإن جعلناها بمعنى «على» فالهاء لموسى، وقيل: له ولو أبقيت على ظاهرها، أي فيه من حيث النبوءة أو في نبوءته.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ﴾ أي قضاؤه ﴿سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ بتأخير الموت إلى وقته والعذاب إلى وقته من الموت، ومن القيامة والحساب إليه ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ في الدنيا، حكم فيها بإهلاك المبطل وبحكم الآخرة.

والهاء لقوم موسى، فقومك يا محَمَّد مثلهم، أخَّرنا القضاء بينهم للكلمة السابقة، أي بين المؤمنين والكافرين في الفريقين، أو بين قومك وقوم موسى كما قيل، وهو ضعيف، والوجه الأوَّل يناسبه قرب ذكر قوم موسى، والثاني يناسبه أنَّ الكلام في قومه ﷺ، وأمَّا ذكر قوم موسى فللتمثيل والتسلِّي.

بقي أنَّ قوم موسى لم يكفروا بالتوراة، وفرعون وقومه ولو كانوا من قوم موسى لكنَّهم هلكوا قبل نزول التوراة، ومن كفر من بني إسرائيل بالتوراة قليل، فيعتبر هذا القليل، أو أريد بالكتاب الصحف على أنَّها أنزلت في حياة فرعون، وكفر بها وقيل: بين قومك يا محمد.

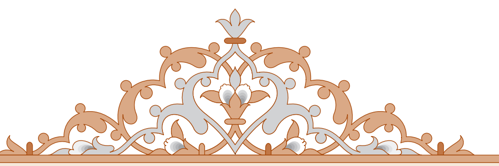
﴿وَإِنَّهُمْ﴾ أي كفَّار قومك يا محمد ﴿لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ﴾ من القرآن المفهوم من سوق الكلام ﴿مُرِيبٍ﴾ موقع في الريبة، فإنَّ الشكَّ ليس نفس الإيقاع في الريبة، أو في شكٍّ ذي ريبة، أو الضمير عائد إلى قوم موسى مع عوده إليهم قبلُ، أو عائد إلى القومين، وهاء «منه» تابعة لذلك، بأن ترجع للكتاب أو للقرآن، وقيل: للوعيد المفهوم.

﴿وَإِن كُلًّا﴾ كلُّ فرد من أفراد كلِّ فريق من الفريقين المؤمنين والكافرين، أو إنَّ كلَّ فريق من الفريقين، «إِنْ» مخفَّفة بقيت على عمل المشدَّدة، وقال مقاتل: المراد كفَّار مكَّة.

[نحو] ﴿لَّمَا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ﴾ اللام الأولى للتأكيد في خبر «إن» المخفَّفة، كما تكون في خبر المشدَّدة، لا فارقة بين النافية والمخفَّفة، لأنَّ النصب بها فارق، لأنَّ النافية لا تنصب الاسم، و«ما» صلة فاصلة بين اللامين لكراهة تواليهما، والثانية للتأكيد في جواب القسم، والقسم وجوابه خبر لـ«إِنْ» المخفَّفة، أو مفعول لقول محذوف، مخبر به عن «إن»، أي لمقول فيهم: والله لَيُوَفِّيَنَّهُمْ...، أو صلة «ما»، أو صفتها واقعة على القولين بتقدير القول، أي للذين يقال فيهم: والله ليوفينَّهم، أو لقوم مقول فيهم: والله ليوفينَّهم.

أو اللام عند زيادة «ما» في جواب القسم كرِّرت تأكيدا، كذا قيل، وفيه أنَّه لا يكرَّر الحرف الذي ليس حرف جواب إلَّا مع مدخوله إلَّا نادرا أو ضرورة، والقرآن لا يحمل على ذلك.

وتَوْفِيَـــةُ الأعمال إحضـــار الثـــواب للمؤمنين على طاعتهـــم، والعقاب للكافرين علـــى معاصيهم، فذلك تبشـــير وإنـــذار في لفظ واحد، وســـمَّى المسبَّب أو اللازم وهو الجزاء باسم السبب أو الملزوم وهو العمل، أو يقدَّر مضاف أي جزاء أعمالهم ﴿**إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ**﴾ عليم بما جلَّ أو دقَّ، ما في القلب وما في غيره.



﴿فَاسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿112﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿113﴾﴾

الأمر بالاستقامة على أوامر الله تعالى

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ هو ﷺ مستقيم لكن جاء الكلام إلهابا له، أو المراد: دُمْ على الاستقامة أو زد منها، وقيل: استفعل للطلب، والكاف بمعنى على، أي اطلب الإقامة على الدين ﴿وَمَن تَابَ﴾ من الشرك وآمن ﴿مَعَكَ﴾ والعطف على ضمير «استقم» لوجود الفاصل.

[نحو] ولا حاجة إلى جعل «مَنْ» فاعلا لمحذوف، أي وليستقم من تاب معك، ففعل الأمر يرفع الظاهر بواسطة العطف، ولو كان لا يرفعه بدونها، والكاف بمعنى على، و«مَا» مَصدَرِيَّة، أي استقم على أمري، أو اسم والمعنى: على ما أمرت به فحذف الرابط ولو لم يجرَّ الموصول بما جرَّ به، ولا اتَّفَقَ عاملهما، أو ضُمِّن «أُمِرْتَ» معنى أُلزمت.

أو الكاف على أصلها، أي استقم استقامة مثل الاستقامة التي أمرت، إمَّا على معنى استقم في الحال وبعدُ كما استقمت قبل، وإمَّا على أنَّ مطلوب الأمر كلِّيٌّ والمأمور به جزئيٌّ على حدِّ: صلِّ ركعتين كما أمرت، ولا غرابة فيه. وإمَّا على أنَّ الشيء باعتبار الأمر به غيره باعتبار وقوعه فصحَّ التشبيه، وقد قيل: الآية كقولك: كن كما أنت، أي كما أنت عليه، وقيل: كقولك: مثلك لا يبخل.

والمراد: أداء الفرائض فعلا وتركا، كالقــرآن والتوحيد والتبليغ هكذا. أو ذلك أمر في بيان اعتدال الإسلام لا إفراط ولا تفريط، ولا تشبيه ولا تعطيل، لا إســراف ولا إقتار، ولا جبن ولا تهوُّر، ولا تحمِّلوا على أنفسكم ما يضرُّها من الطاعات، بل ما تطيقه، ولا ما تضعف به أجسامكم من قطعها بالكُلِّيَّة عَمَّا يلذُّ، [قلت:] وزعم بعض المحقِّقين أنَّ الآية لا تشمل عمل القلب ونقول: هي أولى به ﴿**وَلَا تَطْغَوْاْ**﴾ لا تتعدَّوا الحدود، وعلَّل «اسْــتَقِمْ» و«لَا تَطْغَوْا» بقوله: ﴿**إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾ يجازيكم عليه.

قال ﷺ: «**شيَّبتني هود وأخواتها**» وقال: «**شيَّبتني هود وأخواتها الواقعة والحاقَّة وإذا الشمس كوِّرت**» وقال: «**شيَّبتني هود والواقعة والمرسلات وعمَّ يتساءلون وإذا الشمس كوِّرت**» وقال: «**شــيَّبتني هود وأخواتها قبل المشيب**» وقال: «**شيَّبتني هود وأخواتها من المفصَّل**» وقال: «**شيَّبتني سورة هود وأخواتها الواقعة والقارعة والحاقَّة وإذا الشمس كوِّرت وسال ســائل**» وقال: «**شــيَّبتني هود وأخواتها وما فعل بالأمم قبلي**» وقال: «**شيَّبتني هود وأخواتها، وذِكْرُ يوم القيامة وقصص الأمم**»[1].

وروي أنَّه لَمَّا نزلت الآية قال: «**شمِّروا شمِّروا**» فما رئي ضاحكا بعدها[2]. وعن ابن عَبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: ما نزلت عليه ﷺ آية أشدُّ من هذه، واستدلَّ بعض على أنَّ الاستقامة صعب بهذه الآية.

وفسَّــر بعض الأَشْــعَرِيَّة الصراط الذي هــو أدقُّ من الشــعر وأحدُّ من الســيف في حديث الصراط[3] على متن جهنَّم بالاســتقامة، إخراجا له عن ظاهــره، [قلــت:] كما كنــت أقول قبــل اطِّلَاعــي عليــه، ورأى أبو علي

(1) تقدَّم تخريج ما يشبه هذه الأحاديث. انظر: تفسير سورة هود آية 01، ج 6، ص 338.

(2) أورده **السيوطي** في الدر المنثور، ج4، ص480.

(3) يشــير إلى قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «الصراط على جهنَّم مثل حدِّ السيف». انظر **المنذري**: كتاب الترغيب والترهب، ج 4، ص 429، رقم 87.

الشُشتري[1] النبيء ﷺ في النوم فقال: ما شـيَّبك من هود؟ أقصص الأنبياء وهلاك الأمم؟ قال: «شـيَّبتني ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾» والله أعلم بصحَّة الرؤيا، وتحقيقها لمنافاتها بعض الروايات كما رأيت.

﴿وَلَا تَرْكَنُواْ إِلَى الذِينَ ظَلَمُواْ﴾ مشـركين أو موحِّدين ﴿فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ بركونكم إليهم.

[فقه] والركون شـامل للحبِّ بالقلب إلَّا ما كان عن ضرورة، وبالتزيِّي بزيِّهم في اللباس والمشـي، وبالتكلُّم بنحو كلام اختصوا به، وتعظيم ذكرهم ومداهنتهم، واختيارهم على غيرهم.

حكي عن الموفَّق[2] أنَّه صَلَّى خلف إمام فقرأ هذه الآية فغشي عليه، فلما أفاق قيل لـه، فقال: هذا فيمن ركن إلى ظالم فكيف بالظالم؟ وعن الحسـن: «**جعل الله الدين بين لاءين: لا تطغوا ولا تركنوا**».

ولَمَّا خَالَطَ الزهري السـلاطين كتب إليه أخ في الدين: «عافانا الله وإيَّاك أبا بكر مـن الفتن، فقـد أصبحت بحـال ينبغي لمـن يعرفك أن يدعـو لك الله ويرحمك، أصبحت شـيخا كبيرا، وقد أثقلتـك نعم الله بما فهَّمـك من كتابه وعلَّمك سنَّة نبيئه، وليس كذلك أخذ اللهُ الميثاق على العلماء، قال الله سبحانه: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ [سـورة آل عمران: 187] وأيسـر ما ارتكبت وأخفَّ ما

(1) علي بن عبد الله النميري الشُشـتري من أهل شُشـتر، ولد سـنة 610هـ وتوفي سنة 668هـ. متصوِّف فاضل أندلسـي، تنقَّل في البلاد وتوفي بقرب دمياط ودفـن فيها، من كتبه العروة الوثقى في بيان السـنن وما يجب أن يفعله المسلم. قال الغبريني: شـعره في غاية الانطباع والملاحة، وتواشيحه وزجله في غاية الحسن كذلك. الأعلام للزركلي، ج 4، ص 305.

(2) هو موفق الدين عبد اللطيف البغدادي الشافعي نزيل حلب، ويعرف قديما بابن اللباد وابن نقطة، كان حسن الخلق جميل الأمر عالما بالنحو، له يد في الغريبين: غريب القرآن وغريب الحديث، وله مصنَّفات كثيرة، ومعرفة بالفلسـفة والطب وعلم النفس والتاريخ والبلـدان والأدب. توفي ببغداد سنة 629هـ. تهذيب سير أعلام النبلاء، ج 3، ص 221. الأعلام للزركلي، ج 4، ص 61.

احتملت أنَّك آنست وحشة الظالم، وسهَّلْتَ سبل الغيِّ بدنوِّك إلى من لم يؤدِّ حَقًّا، ولم يترك باطلا حين أدناك وَاتَّخَذَك قطبا يدور عليك رحا باطلهم، وجسرا يعبرون عليك إلى بلائهم، وسلَّما يصعدون فيك إلى ضلالهم، يدخلون الشكَّ على العلماء، ويعتادون بك إلى قلوب الجهلاء، فما أيسر ما عمَّروا لك في جنب ما خرَّبوا عليك! وما أكثر ما أخذوا منك فيما أفسدوا عليك من دينك! فما يؤمنك أن تكون مِمَّن قال الله فيهم: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ اَضَاعُواْ الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُواْ الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [سورة مريم: 59] فإنَّك تعامل من لا يجهل، ويحفظ عليك من لا يغفل، فدَاوِ دينك فقد دخله سقم، وَهَيِّئ زادك فقد حضر السفر البعيد، وما يخفى على الله شيء في الأرض ولا في السماء».

وفي الأثر: ما من شيء أبغض إلى الله تعالى من عالم يزور عاملا، والذباب على العذرة أحسن من قارئ على باب هؤلاء. قيل لسفيان: إنِّي أخيط للظلمة فهل أنا من أعوانهم؟ قال: لا، أنت منهم، ومن يبع لك الإبرة من أعوانهم. ﴿**وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللهِ مِنَ اَوْلِيَآءَ**﴾ يمنعونكم من العذاب على الركون، أو يصرفونه عنكم بعد وقوكم فيه، والواو للحال ﴿**ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ**﴾ لا ينصركم الله ولا غيره إن ركنتم، لقضائه بتعذيب الراكن، ولا يخلف وعيده كما لا يخلف وعده.

[نحو] و«ثمَّ» للتراخي في الاستبعاد، استبعاد النصرة لهم من الله، وليس هذا خارجا عن قولنا: ثمَّ لتراخي الرتبة. وعطف فِعلِيَّة على اسمِيَّة، أي نصركم بعيدٌ، أو هي بمعنى الواو، أو الفاء السَّبَبِيَّة الموصولة، وقد أكَّد الله الشأن في هذه الأحكام إذ صرفها إلى الخطاب لنبيئه ﷺ وأصحابه، أو إليه وإلى أمَّته.

﴿ وَأَقِمِ الصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ (114) وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (115) فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ (116) وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ (117) وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (118) إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (119) ﴾

الأمر بالصلاة والدعوة إلى الصلاح والصبر

﴿**وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَـي النَّهَارِ**﴾ صلاة الفجر في الطرف الأوَّل من النهار وصلاة الظهر والعصر في الطرف الثاني منه، وأوَّله الزوال، كذا قيل، وفيه أنَّ صلاة الظهر أوَّل النصف وهو لا يسمَّى طرفا، ولا وجه له إلَّا أنَّه نصف آخر لا أوَّل. و«طَرَفَي» ظرف الزمان لإضافته إلى الزمان.

أمَره ﷺ بالصلاة لأنَّه إمام أمَّته فذلك أمر لهم أيضا، وخصَّ الصلاة من العبادات بالأمر لأنَّها أمُّ العبادة بعد التوحيد، ويجوز أن يكون الأمر لكلِّ من يصلح.

﴿**وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ**﴾ جمع زلفة، كغرفة وغرف، أي قطعة من قطع الليل، منصوب على الظرفيَّة، مِن زَلَفَ إليه بمعنى قرب، أي ساعات الليل قريبة من

النهار، وهي وقت المغرب والعشاء باعتبار أوَّله، فأوَّله أفضل بعد أن كان التأخير أفضل على ما في كتب الحديث[(1)] والفقه.

فالصلاة التي أمره الله بإقامتها في الزلف صلاة المغرب والعشاء، أو ﴿طَرَفَيِ النَّهَارِ﴾: ووقت الفجر ووقت العصر، و ﴿زُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ﴾: وقت العشاء يقرب من وقت صلاة المغرب، وإن كان النهار من الفجر إلى الغروب، فالمغرب طرف مجازا للمجارة[(2)] وهو طرف الليل حقيقة، وإن كان من طلوع الشمس فالفجر والمغرب طرف مجازا، وأمَّا صلاة الظهر فمن الآية الأخرى، مثل: ﴿فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ﴾ [سورة الروم: 17] ومثل: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ [سورة الإسراء: 78]. وعن ابن عَبَّاس: صلاة الطرفين: الصبح والمغرب، وصلاة الزلف: العشاء [في] الثلث الأوَّل من الليل، ولم تذكر هنا الظهر والعصر ودخلت صلاة التهجُّد والوتر في قوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً﴾ [سورة الإسراء: 79].

﴿**إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ**﴾ أي جزاء السيِّئات، و«ال» فيهما للحقيقة بحيث يراد مطلق الحسنات: صلاة الفرض والنفل، والصوم والزكاة، وسائر العبادات، وقيل: الصلوات المفروضات، وقيل: الفرائض فقط من الصلاة وغيرها، ومطلق السيِّئات، وقال ابن عَبَّاس: «ال» في السيِّئات للحقيقة، أو للعهد الذي في الصغائر في غير هذه الآية كاللمم، وفي الحسنات للعهد القريب، وهو الصلوات الخمس يكفِّرن ما بينهنَّ من الصغائر.

وعن مجاهد: الحسنات قول العبد: «سُبْحَانَ الله، والحمد لله، ولا إله إلَّا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قُوَّة إلَّا بالله العليِّ العظيم» والمراد بالسيِّئات الصغائر.

(1) من ذلك الحديث الذي رواه **البخاري** في كتاب المواقيت (17) باب وقت المغرب، رقم 534، عن رافع بن خديج. وأوَّله قوله: «كُنَّا نصلِّي المغرب...».

(2) في الطبعة العُمانية: «فالمغرب طرف للمحاورة». فلعل الصواب: للمجاورة. تأمَّل.

قال ﷺ: «**الصلاة إلى الصلاة كفَّارة ما بينهما ما اجتنبت الكبائر**»[1] لقوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [سورة النساء: 31] أي بالصلوات الخمس، أو بمطلق الأذكار، وقيل: بمجرَّد اجتناب الكبائر.

[سبب النزول] قيل: نزلت في أبي اليسر عمرو بن غزية الأنصاري، وقيل: كعب بن مالك، وقيل: كعب بن عمرو، وكان يبيع التمر فأتته امرأة فأعجبته، فقال لها: إنَّ في البيت أجود من هذا التمر، فذهب بها إلى بيته فضمَّها وقبَّلها، فقالت له: اتق الله، فتركها وندم، فأتى رسول الله ﷺ فأخبره بما فعل، فقال: «**أنتظر أمر ربِّي**» فلمَّا صلَّى صلاة العصر نزلت فقال: «**اذهب فإنَّها كفَّارة لِمَا فعلت**» وروي أنَّه أتى أبا بكر رضي الله عنه فأخبره فقال: «أستر على نفسك، وتب إلى الله»، فأتى عمر فقال: له مثل ذلك، ثمَّ أتى رسول الله ﷺ فنزلت، فقال عمر: «هذا له خَاصَّةً، أم للناس عَامَّة؟» قال: «**للناس عامَّة**»[2].

وروي أنَّه ﷺ قال له: «**توضأ وضوءا حسنا وصلِّ ركعتين فإنَّ الحسنات يذهبن السَّيِّئَات**»[3] وعلى هذا نزلت الآية قبل فعله. وروي أنَّ أبا بكر قال له: «تب إلى ربِّك ولا تخبر أحدا» وكذا قال عمر، وأنَّه قال: فلم أصبر بعد قولهما حتَّى أتيت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له فقال له: «**أخنت رجلا غازيا في سبيل الله في أهله بمثل هذا؟**» وأطرق طويلا، حتَّى أوحي إليه ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ﴾ إلى قوله: ﴿ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ﴾ فقرأها رسول الله ﷺ فقلت: إليَّ هذا خاصَّة أم للناس عامَّة؟ فقال: «**بل للناس عَامَّة**»[4].

---

(1) رواه **الحاكم** في كتاب التوبة والإنابة، ج 4، ص 288، رقم 7665(65) مع زيادة في آخره. و**أحمد** في مسنده، ج 2، ص 229. من حديث أبي هريرة.
(2) رواه **البخاري** في كتاب التفسير، رقم 4417، من حديث ابن مسعود.
(3) أورده **الزمخشري** في الكشاف، ج2، ص411.
(4) أورده **الشربيني** في السراج المنير، ج2، ص94.

وقيل: معنى ﴿يُذْهِبْنَ السَّـيِّئَاتِ﴾ يمنعن من الإتيان بهـنَّ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَآءِ وَالْمُنكَرِ﴾ [سـورة العنكبوت: 45] فيراد بالسيِّئات الكبائر، لأنَّ الصغائر لا يخلو عنهنَّ الإنسـان، فليس الصـلاة تمنعهنَّ البتَّة، وهو بعيد مخالف لتفسـير الصحابة والتابعين، **والتفسير الأوَّل أولى بمعنى غفران السـيِّئات** ولا يعارض بقوله ﷺ: «**إنَّ الصغائر تغتفر باجتناب الكبائر**» لجـواز أن يكون المـراد تغتفر بالصلـوات الخمس، أو مطلـق الأذكار مع اجتناب الكبائر.

ويدلُّ للأوَّل قوله ﷺ: «**الصلوات الخمس، والجمع، ورمضان، والوضوء كفَّارة لِمَا بينهنَّ ما اجتنبت الكبائر**»[1]، والمراد: تغفر ولو بذكر واحد أو صلاة واحدة لمن شـاء الله، كما مرَّ من أنَّه صلَّى ذلك الرجـل العصر فقال له ﷺ: «**كفَّر الله سيِّئتك بصلاتك هذه**».

وجاء: «**من أمَّن لتأمين الإمام ووافق تأمين الملائكة غفر له ما تقدَّم**»[2]، وجاء: «**من أكل طعاما وقال: الحمد لله الذي أطعمني هذا الطعام، ورزقنيه من غير حول منِّي ولا قُوَّة غفر له ما تقـدَّم، ومن لبس ثوبا وقال: الحمد لله الذي كسـاني هذا ورزقنيه من غير حول مني ولا قُوَّة غفر له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر**»[3].

والجمهور على أنَّ السـيِّئاتِ الصغائرُ، وأمَّا الكبائر فلا يكفِّرها إلَّا التوبة ولا تكفَّر الصغائر المصَـرُّ عليها بأن عنى أن يعود إلـى مثلها، أو عنى أن لا يتوب مِمَّا صدر منه.

---

(1) رواه **مسـلم** في كتاب الطهارة، (5) باب الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة... رقم 16 (...). **والسيوطي** في الجامع الصغير، رقم 3875. من حديث أبي هريرة.

(2) رواه **البخاري** في كتاب الصلاة (29) رقم 747، من حديث أبي هريرة.

(3) رواه **الحاكم** في كتـاب الدعاء والتكبير والتهليل... دون زيـادة «وما تأخر». ج 1، ص 687، رقم 1870 (1). **والسيوطي** في الجامع الصغير، رقم 6086 (2015). من حديث أنس.

﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من الأمر بالاستقامة والنهي عن الطغيان، والركون إلى الذين ظلموا والأمر بإقامة الصلاة، أو الإشارة إلى القرآن إلَّا أنَّه لم يجر له ذكر، وَلَمَّا يتِمَّ نزوله لَكِنَّ بعض القرآن قرآن، وقيل: الإشارة إلى إقامة الصلاة بتأويل ما ذكر، أو إلى إقامة الصلاة، وقيل: إلى الإخبار بأنَّ الحسنات يذهبن السيِّئات، وقيل: إلى الأوامر والنواهي في السورة.

﴿ذِكْرَىٰ﴾ تذكير أي وعظ ﴿لِلذَّٰكِرِينَ﴾ المتَّعظين، وخصَّهم لأنَّهم المنتفعون ﴿وَاصْبِرْ﴾ يا محَمَّد على تحمُّل ما ذكر من الأوامر والنواهي، وعلى تحمُّل الأذى من قومك، أو على مطلق فعل الطاعات وترك المعصيات، وشمل الصبر على البلاء، والصبر على صعوبة ردِّ النفس عمَّا تشتهي، وقيل: المراد الصبر على الصلاة وإقامتها، كما قال ﷻ: ﴿وَامُرَ اَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ واصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [سورة طه: 132].

﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ مقتضى الظاهر: لا يضيع أجرهم، بالهاء عائدة إلى «الذاكرين» وعبَّر عنهم بالمحسنين ليكون الكلام في صورة حجَّة لهم، وهي أنَّ أجرهم يثبت لإحسانهم، إذ تعليق الحكم بالمشتقِّ يؤذن بأنَّه علَّة، وليخبر بأنَّ الصلاة والصبر إحسان، وأنَّه لا يعتدُّ بهما دون إخلاص، إذ «**الإحسان أن تعبد الله كأنَّك تراه**»(1) كما جاء في الحديث، وعبادتك الله كأنَّك تراه إخلاص، والمراد: الإحسان كَيفِيَّةً وكمِّيَّةً، ويجوز أن يراد كلُّ محسن من كلِّ أمَّة، والإحسان على العموم، وعن ابن عَبَّاس ﵁: ﴿الْمُحْسِنِينَ﴾ المصلُّون.

﴿فَلَوْلَا﴾ تحضيض أو توبيخ أو نفي على ما يأتي إن شاء الله ﴿كَانَ مِنَ الْقُرُونِ﴾ الأمم الماضية. «مِنْ» للتبعيض ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾ «مِنْ» للابتداء تتعلَّق بمحذوف، حالٌ من القرون ﴿أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ﴾ أصحاب دين وفضل، أو عقل ورأي، إذ بهما يوصل إلى قبول الشرع، وإلى الاستنباط منه، وذلك أنَّ

(1) تقدَّم تخريجه في تفسير الآية 112 من سورة البقرة، انظر: ج 1، ص 226.

الإنسان يدَّخر أفضل ما يجد ويحافظ عليه، فيحضره إذا احتاج إليه، كما يقال: «في الزوايا خبايا، وفي الرجال بقايا».

[لغة] وَبَقِيَّة القوم: خيارهم، والبقية بمعنى الصفة كناية عَمَّا أطلق عليه أنَّه خير وجيِّد من الخصال المرضية، ومن لوازم الخير أن يصان ويستبقى، وكأنَّه قيل: أولو خصلة باقية، أي من شأنها أن تبقى ولا تضيع، وتغلَّبت عليه الاِسمِيَّة فخرج إلى معنى نفس الشيء الجيِّد، ولو لم يستشعر معنى البقاء.

ويجوز أن يكون مصدرا، أي أولو إبقاء على أنفسهم أي نقص الشرِّ عن أنفسهم، وهو بمعنى الإبقاء، فهو اسم مصدر، يقال: أبقى عليه أي راقبه، وصرف الشرَّ عنه أو بعض الشرِّ، ويدلُّ لذلك قراءة «بَقْيَة» بفتح الباء وإسكان القاف وتخفيف الياء، وقراءة «بُقْيَة» بضمِّ الباء وإسكان القاف، والفعل بقاه يَبقيه كرماه يرميه، وأمَّا ضدُّ الفناء فبقِيَ يَبقَى كرضِيَ يرضَى.﴿**يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الَارْضِ**﴾ بالشرك والمعاصي، وصلاح الأرض تركهما.

[نحو] و«كَانَ» لا خبر لها، فليس «يَنْهَوْنَ» خبرا لها بل حال من «أُوْلُوا» أو نعت له، وإذا جعلنا «لَوْلَا» للتحضيض فقد اعتبرنا القرون كأنَّهم موجودون، فحضَّ أصحاب الرأي منهم على النهي، وكان بمعنى يكون، وإن جعلناها للتوبيخ فالماضي على ظاهره.

وتحضيضُ المفقود وتوبيخه كناية عن توبيخ الموجودين وتحضيضهم، والتحضيض على الشيء والتوبيخ يستلزمان أنَّه منتفٍ يُطلب تحصيله، أو متروك يعاتَب على تركه، فلذلك الانتفاء صحَّ الاستثناء في قوله:

[نحو] ﴿**إِلَّا قَلِيلاً**﴾ وصحَّ النصب في التمام والنفي لجوازه فصيحا، تقول: ما قام القوم إلَّا رجلا[1]، بالنصب كما تقول بالرفع، وقوَّى النصبَ عدمُ التصريح بالنفي، وقد قيل: إنَّ «لَوْلَا» حرف نفي، وكأنَّه قيل: ما فيهم خيار ينهون إلَّا قليلا.

(1) في نسخة: «إلا رجالٌ».

﴿مِّمَّنَ اَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ من الهلاك، نَهَوْا عن الفساد فنجوا. و«مِنْ» هذه للبيان أي إلَّا قليلا هم من أنجينا كمن نجا مع هود، ومع صالح، ومع لوط بإيمانه، ﴿أَنجَيْنَا اَلذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ اِلسُّوءِ وَأَخَذْنَا الذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابِۢ بِيسٍ﴾ [سورة الأعراف: 165].

ويجوز كون الاستثناء منقطعا فرجح النصب أو تعيَّن ولو مع السلب، وأجيز أن تكون الآية من باب نفي الملزوم بانتفاء اللازم نحو: «ما كان أغنياؤهم يواسون الناس» تذمُّهم بأنَّهم فقراء، وبالغت بأنَّه لو كان فيهم أغنياء لم يواسوا الناس.

﴿وَاتَّبَعَ﴾ العطف على محذوف، أي فلم ينهوا واتَّبَعَ. ﴿الذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ﴾ جعلهم الله بخذلانه تابعين ما أترفهم الله فيه، أي ما وسَّع الله عليهم من النعم، ولذَّذهم فيه فاشتغلوا بالتلذُّذ بها، وأعرضوا عن دين الله، واشتغلوا عن النهي عن الفساد بتوفيرها واكتسابها، والمحافظة عليها لهواهم، ويجوز ـ على بُعد ـ أن يكون مِن أترفته النعم إذا أطغته.

﴿وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ مذنبين ذنوبا عظاما من شرك وظلم، وترك النهي عن الفساد مع علمهم بما هو فساد مِمَّا يدرك بالعقل، وهم مؤاخذون على ذلك ولو لم يدركوا فكيف مع ما أدركوا.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ﴾ أنفسها أو أهلها أو إيَّاهُما ﴿بِظُلْمٍ﴾ منه أي إهلاكها بظلم منه منتف ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ مؤمنون، وإنَّما يهلكهم وهم مشركون، أو يهلكهم وهم موحِّدون، لأنَّهم لا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر، وهذا أولى من أن يقال: المراد مصلحون فيما بينهم ولو كانوا مشركين لا يهلكهم وهم غير باغين بعض على بعض، وذلك جائز كما أنَّ حقَّ الله مؤخَّر عن حقِّ المخلوقات بفضل من الله وسعة رحمته.

[فقه] ألا تـرى أنَّ الديون والتباعـات قبل الوصايا بالكفـارات والحجِّ والعمرة والزكاة، وشُـهِرَ وشـوهد أنَّ الملك يبقى مع الشـرك ولا يبقى مع الظلم، وجاء الحديث عن جابر بن عبد الله أنَّه ﷺ سئل عن تفسير ذلك فقال: «**وأهلها ينصف بعضهم بعضا**»(1) والواو للحال.

﴿**وَلَوْ شَـآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً**﴾ في دين الإسـلام، وهذا كما قال: الله ﷻ: ﴿وَلَوْ شِـئْنَا ءَلَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ [سورة السجدة: 13] وهذا أولى مِمَّا قيل: على هدًى كلُّهم، أو على ضلال كلُّهم.

[أصول الدين] وأولى مـن أن يقال: المراد الاتِّحاد فـي الكفر كما قيل: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [سـورة البقرة: 213] لأجل السـياق. والأمر غير الإرادة والمشـيئة لأنَّه يتخلَّف بمعنى أنَّه يأمـر العباد بشـيء ولا يفعلونه، وهما لا يتخلَّفان، فمن أراد كفره كفر ولا بـدَّ، أو إيمانه آمن لا محالة، والنهي كالأمر يتخلَّف، وكذا الحبُّ لأنَّ معنى «أحبَّ الله كذا»: أمر به.

ولَمَّا كان لو للامتناع صـارت الجملة كجملة منفيـة، وكأنَّه قيل: ما كان الناس أمَّـة واحدة بل اختلفـوا، ولذلك عطف عليهـا بقولـه: ﴿**وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ**﴾ بعضهم مؤمن وبعضهم كافـر، وقيل: مختلفين في أصول الديانة، وقيل: في الفروع والأصول لعـدم مخصِّص، وهذا وما قبلـه لا ينافيان قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُواْ﴾ [سورة يونس: 19] لأنَّ هذا على عهد آدم قبل قتل هابيل، أو بعد الطوفان.

قال: أبو هريرة: قال رسـول الله ﷺ: «**افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة أو اثنتين وسبعين فرقة، وسـتفترق أمَّتي على ثلاث وسبعين فرقة، اثنتان**

---

(1) أورده **السيوطي** في الدر، ج 3، ص 386. وقال: أخرجه ابن أبي حاتم والخرائطي في مساوئ الأخلاق عن جرير موقوفا.

وسـبعون فرقة في النار وواحدة في الجنَّة»، وعنـه ﷺ: «**افترقت اليهود على إحدى وسـبعين فرقة، والنصارى على اثنتين وسـبعين فرقة، وستفترق أمَّتي على ثلاث وسـبعين فرقة كلُّهـا في النـار إلَّا واحدة**»، وعنـه ﷺ: «**افترقت المجوس على سـبعين فرقـة، وافترقت اليهـود على إحدى وسـبعين فرقة، وافترقت النصارى على اثنتين وسـبعين فرقة، وسـتفترق أمَّتـي على ثلاث وسبعين فرقة كلُّها هالكة إلَّا واحدة**»[1]، وروي أنَّه قال: «**الناجية هي التي على ما أنا عليه وأصحابي**» وشذَّت رواية: «**كلُّها ناجية ما خلا واحدة**».

﴿**إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ**﴾ فلا يختلفون عن الحقِّ بل يتَّفقون عليه، والاستثناء متَّصل إذا أريد بـ«مُخْتَلِفين» أنَّ بعضهم على الحقِّ وبعضهم على الباطل، فإنَّ أهل الحقِّ لا يختلفون، ولو اختلفوا في الفـروع، ومنقطع إذا أريد الاختلاف في العقائد كذا قيل، والمستثنى منه واو «يزالون» أو المستتر في «مُخْتَلِفِينَ».

﴿**وَلِذَٰلِكَ**﴾ الإشـارة إلى الاختـلاف، أو له وللرحمـة بتأويل ما ذكر، وقيل: الإشـارة إلى كون الناس شـقيًّا وسـعيدا، وقيل: لجمع الناس ليوم مشهود، وقيل: لشـهود ذلك اليوم أو حضوره، وقيل: للجنَّة والنار، وقيل: للعبادة بتأويل ما ذكـر، والهاء في قولـه: ﴿**خَلَقَهُمْ**﴾ للناس، أو الإشـارة للرحمة بتأويل ما ذكـر والهاء لـ«مَن». واللام للعاقبـة إذ لو خلقهم لأجل الاختلاف لم يعذِّبهم عليه، إذ أطاعوه به، ويكون مخالفا لقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالِانسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [سورة الذاريات: 56] بل باعتبار أنَّ أفعاله لا تعلَّل بالأغـراض تكون للعاقبـة في حـقِّ الله مطلقا، ولو جعلنا الإشـارة للاختلاف والرحمة معا لأنَّهما معا عاقبة، ولو خلقهم لأجل أن يختلفوا لم يعاقبهم على الاختلاف.

---

(1) روايات متعـدِّدة رواها **الربيع** في مسـنده عن ابن عَبَّـاس رقم 41. **وابـن ماجه** من طريق عوف بن مالك، والأربعة أيضا من طريق أبي هريرة.

قال عطاء عن ابن عَبَّاس في معنى الآية: إنَّ الله خلق أهل الرحمة للرحمة وأهل الاختلاف للاختلاف، وخلق الجنَّة وخلق لها أهلها، وخلق النار وخلق لها أهلا، قال: الزجاج وَيَدُلُّ لهذا قوله ﷻ:

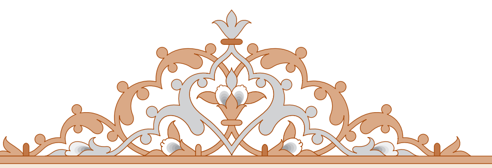
﴿**وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**﴾ أي من كُفَّار الجنِّ وكفَّار الإنس، وليس يبقى أحد من كفَّارهم بلا دخول، أو المراد أنَّها تعمر من الثقلين لا من غيرهم للتعذيب، فذلك عموم للأنواع لا عموم للأفراد.

والمراد أنَّها لا تملأ من الإنس فقط، ولا من الجنِّ فقط، بل منهما جميعا، وهذا معنى قوله: ﴿أَجْمَعِينَ﴾ بعضهم من الجِنَّة وبعضهم من الناس، ولا يخفى ولو على العوامِّ أنَّ هذه العبارة ليس معناها أنَّ الجِنَّة كلَّهم فيها، وأنَّ الناس كلَّهم فيها.

[نحو] و«مِنْ» للابتداء، والابتداء من الشيء لا يدلُّ على استفراغه، تقول: لأملأنَّ الجراب من هذا البُرِّ ومن هذا الشعير، فتملأ ويبقى قليل أو كثير. وتأكيد التثنية بـ«أَجْمَعِينَ» جائز على حدِّ ردِّ ضمير الجمع إليها أو إشارته، ولا سيما أنَّ كلَّ فريق منها هنا متضمِّن لأنواع وأفراد، وهما فريق الجِنَّة وفريق الناس.

وقيل: المراد بالجنَّة والناس الكفار باعتبار العهد، كقوله تعالى: ﴿لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [سورة ص: 85] على أن لا يلزم من الابتداء من الشيء البقاء منه، ولا إشكال على هذا القول في التأكيد بـ«أَجْمَعِينَ». و﴿كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾: قضاؤه بالوعيد والخذلان، أو قوله للملائكة: سوقوهم إلى النار، فـ«لأَمْلأَنَّ» تفسير للكلمة، وإن شئت فقل: محكيٌّ بكلمة.

وليس في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [سورة هود: 118] ما يَدُلُّ على العموم، فلا يخالف قوله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلآَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [سورة يونس: 19] كذا قيل، وفيه أنَّه لا يخفى العموم، وإنَّما الجواب أنَّهم كانوا أمَّةً واحِدَة ثمَّ اختلفوا، ولا يزالون مختلفين، أو إلَّا من رحم ربُّك فجعلهم أمَّة واحدة على الإيمان.



﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿120﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ﴿121﴾ وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿122﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿123﴾﴾

الفائدة العمليَّة من قصص الأنبياء والأمر بالعبادة والتوكُّل على الله تعالى

﴿**وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنَ أَنبَآءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ**﴾ «كُلًّا» مفعول مطلق، أي كلُّ قصٍّ نقصُّ عليك، قدِّم على عامله بطريق الاهتمـام في كلام العرب، أو للحصر و«مَا» مفعول به لـ«نَقُصُّ»، والمعنى: نقصُّ عليك من أخبار الرسل ما نثبِّت به فؤادك كلَّ نوع من أنواع القصِّ. وإن جعلنا «كُلًّا» مفعولا به فـ«مَا» بدلٌ من «كُلًّا»، أو خبر لمحذوف، أي هو ما نثبِّت به فؤادك، أو منصوب بـ«أعني».

ومعنى تثبيت الفؤاد: زيادة ثبات، أو إزالة مـا قد يعتريه من الضيق بأذى قومه، وذلك بالإخبار بأنَّ الرسل قبلك قد لقوا من أممهم المخالفة كما لقيت وتحمَّلوا، فاصبر كما صبر أولو العزم، والبليَّة تخفُّ بالمشاركة فيها كما شهر: إنَّ المصيبة إذا عمَّت هانت.

﴿**وَجَآءَكَ فِي هَذِهِ**﴾ في هذه السورة، أو في هذه الدنيا، أو في هذه الأنباء، أو في هذه الآيات، وقيل: في هذه السـورة ونظائرها، أو هذه السـورة وآياتها جمعت ما لم يجمعه غيرها من إهلاك الأمم وبيـان أحوالهم. ﴿**الْحَقُّ**﴾ «ال»

للحقيقة، أو للعهد، وهو دلائل التوحيد والنبوءة ﴿**وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ**﴾ نكَّرهما تفخيما ﴿**لِلْمُومِنِينَ**﴾ تذكيرٌ للمؤمنين، فيكونون يزيدون نشاطا.

﴿**وَقُل لِّلذِينَ لَا يُومِنُونَ**﴾ بنبوءتك، وتوحيد الله ﴿**اعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ**﴾ جهدكم في الكفر ﴿**إِنَّا عَامِلُونَ**﴾ جهدنا في التوحيد والطاعة ﴿**وَانتَظِرُواْ**﴾ عاقبة أمركم من الهلاك، وهذا تهديد ﴿**إِنَّا مُنتَظِرُونَ**﴾ عاقبة أمركم، أو عاقبة أمرنا من الفوز دنيا وأخرى، أو انتظروا الدوائر علينا إنَّا منتظرون الدوائر عليكم ﴿**عَلَيْهِمْ دآئِرَةُ السَّوْءِ**﴾ [سورة الفتح: 6].

﴿**وَلِلهِ**﴾ لا لغيره ﴿**غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالَارْضِ**﴾ علم ما غاب فيهما عنكم، أو عنكم وعن غيركم، لا يخفى عنه شيء فيهما، فلا يفوته عقابكم ولا بعضه، كما قال: ﴿**وَإِلَيْهِ**﴾ لا إلى غيره ﴿**يُرْجَعُ الَامْرُ**﴾ أمر الخلق كلِّهم ﴿**كُلُّهُ**﴾ فيعذِّب العاصي ويثيب المطيع ﴿**فَاعْبُدْهُ**﴾ وحده ﴿**وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ**﴾ فإنَّه كافيك، نعم المولى ونعم النصير، وإنَّما ينفع التوكُّل العابدَ، والعبادة لا تنفع بلا توكُّل فردفها به، والتوكُّل لا ينفع بلا عبادة فقدَّمها عليه، وأيضا توكَّل عليه في العبادة وغيرها، ومنها التبليغ فبلِّغ ولا تبال بهم، والله حافظك.

﴿**وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**﴾ يا محَمَّد وأمَّته، المطيعين والعاصين، فيثيب كلًّا بما يستحقُّ، وليس تأخير عقابكم عجزا أو جهلا بعملكم، وإنَّما أخَّرهم لأجلهم الموعود، ولا يتخلَّف. قال كعب الأحبار: خاتمة التوراة خاتمة هود.

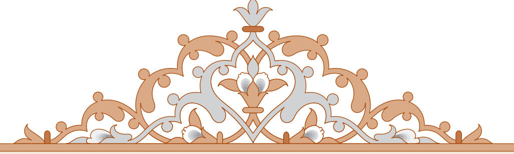
ولا حول ولا قُوَّة إلَّا بالله العليِّ العظيم.
وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم



12

تفسير سورة يوسف عليه السلام

مكّيّة إلّا الآيات 1ـ 3 و7 فمدنيّة، وآياتها 111 ـ نزلت بعد سورة هود



﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٢ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ۝٣﴾

نهي عن تعليم النساء سورة يوسف لئلا يفتنَّ، ولذلك لم يتكرَّر ما فيها كما وقع تكرير غيره، ولتوفُّر الدواعي إلى ما فيها فإنَّ ما هو كذلك يرسخ في القلوب بلا تكرير، كما لم تتكرَّر لذلك قصَّة الذبيح وموسى مع الخضر وأصحاب الكهف وذي القرنين(1).

قصة يوسف ومنزلتها ضمن القصص القرآني

﴿**أَلَر تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ**﴾ «ألر» تعديد للحروف، أي تهيَّأ يا محَمَّد لجنس ما يتركَّب من نحو هذه الحروف ينزل عليك، والإشارة إليها، أو اسم لهذه السورة والإشارة إليها، وعلى كلا الوجهين يحضر في ذهن سَيِّدنَا محَمَّد ﷺ الآيات التي تتضمَّن السورة إجمالا، فصحَّت الإشارة لأنَّ الإشارة

(1) هذه الفقرة غير موجودة في النسخة المسودة بخط القطب. وكيف يصح النهي عن تعليم كلام الله للنساء وهن مكلفات بتدبره؟!.

كما تكون إلى ما في الخارج تكون إلى ما في الذهن، والكتاب: السورة، كأنَّه قيل: آيات الكتاب [هي] آيات السورة، وتمَّت الفائدة بقوله: ﴿الْمُبِينِ﴾، كما تمَّت بقريشي من قولك: الرجل رجل قريشي.

والمعنى: الكتاب الواضح في نفسه معنى ولفظا، أو واضح الإعجاز، وذلك من «أبَانَ» اللازم، أو الكتاب المبين الحقَّ، أو المبين أنَّه من الله لمن تدبَّره.

[سبب النزول] أو المبين لليهود ما سألوا، كما روي أنَّ علماء اليهود قالوا لأكابر قريش: سلوا محَمَّدًا لم انتقل يعقوب وأهله من الشام إلى مصر؟ وعمروا فيها وتناسلوا وكثروا إلى عهد موسى؟ وعن قِصَّة يوسف.

[«الْمُبِين»] من «أَبَانَ» المتعدِّي كما رأيت مفعوله المقدَّر، وكذا إن جعلناه من المتعدِّي وجعلنا «الْكِتَاب» مطلق القرآن يكون التقدير: المبينِ الحلالَ والحرامَ، والحقَّ والباطل، وقصصَ الأوَّلين. وتحصُل الفائدةُ ولو لم يذكر «الْمُبِين»، على حدِّ قوله:

أنا أبو النجم وشعري شعري

أي أنا المعروف المشهور، وشعري أي شعري هو الذي عرف بالفصاحة والبلاغة لم أتغيَّر ولم يتغيَّر، أي تلك الآيات هي الآيات المعروفة بأنَّها لا كلام يعادلها.

وروى البيهقي بسنده إلى ابن عَبَّاس أنَّ حبرا سمع النبيء ﷺ يقرأ سورة يوسف فقال: من علَّمك؟ فقال: «**الله تعالى**»، فقال لليهود: سمعت محَمَّدًا يقرأ ما في التوراة، فجاء بنفر فدخلوا فسمعوهُ يقرأها وعرفوه بالصفة وخاتم النبوءة، فأسلموا. فإمَّا أن يسمعوا ما أدركوا منها أو كررها ﷺ.

﴿**إِنَّآ أَنزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا**﴾ هذا يقوّي أنَّ المراد بالكتاب القرآن مطلقا، لا خصوص السورة، إذ هذا العموم أولى من أن يقال: أنزلنا هذه السورة عَرَبِيَّة، نعم

الخطاب في قوله: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ يتقوَّى به التفسير بالسورة، على أنَّ المعنى: أنزلنا ما سألتم عنه يا أهل مَكَّة، بأمر اليهود من شأن يعقوب وأولاده ومن بعدهم، وشأن يوسف بلفظ عربيٍّ بلغتكم لا بلفظ العجمة لعلَّكم تفهمون معانيها.

ومع ذلك فتعميم القرآن أولى من السورة، لأنَّ خطابهم بتعقُّل الأوامر والنواهي أولى من خطابهم بتعقُّل يعقوب ويوسف وشأنهما، نعم يناسب جدًّا أن يقال: أنزلنا السورة لتدركوا بعقولكم أنَّ من أتاكم بهذه القصص مع أنَّه لم يجاور من عرفها هو نبيء حقٌّ من الله ﷻ، أخبره بها. و«لَعَلَّ» بمعنى «كي»، استعارة تبعيَّة.

[أصول الدين] ولا دليل في الآية على أنَّ الله ﷻ أراد الإيمان مِمَّن لا يؤمن، تعالى الله عن أن تتخلَّف إرادته، وقبَّح الله المعتزلة إذ أجازوا ذلك.

القرآن كلُّه عربيٌّ بمعنى أنَّه نزل بما تتكلَّم به العرب من لغتها، وما يجري على ألسنتهم من ألفاظ يحكونها بيانا لها، ولو حكيت بلفظ آخر لم تفهم، كما ينادي العربيُّ من هو عجميٌّ باسمه في العجمة، ويخبر عنه باسمه، ولا يسمَّى ذلك خروجا عن العَرَبِيَّة، وأيضا قد يعرِّبون اللفظ العجميَّ، وقيل: اتَّفَقَت لغة العرب والعجم فيما شهر بالعجمة، كسجِّيل ومشكاة وإستبرق، ويردُّه منع الصرف في الأعلام التي هي مثل إبراهيم، وأجيب بأنَّها منعت مع العلَميَّة بصحَّة العجمة.

وعن سعيد بن جبير: لَمَّا نزل القرآن على رسول الله ﷺ فكان يتلوه على قومه، قالوا: يا رسول الله لو قصصت علينا، فنزلت السورة فتلاها عليهم، فقالوا يا رسول الله لو حدثتنا، فنزل قوله: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا﴾ [سورة الزمر: 23] فقالوا: لو ذكَّرتنا فنزل: ﴿أَلَمْ يَانِ لِلذِينَ ءَامَنُواْ...﴾ [سورة الحديد: 16].

[نحو] و«قُرْءَانًا» حال من الهاء العائدة إلى الكتاب موطِّئة لقوله: ﴿عَرَبِيًّا﴾ لأنَّ الفائدة منه تمَّت بقوله: ﴿عَرَبِيًّا﴾ ولا داعي إلى جعل الهاء مفعولا مطلقا،

و«قُرْءَانًا» مفعولا به، ولا إلى جعله بـدلا من الهاء. و«عَرَبِيًّا» نعت لـ«قُرْءَانًا»، ولا حاجة إلى جعله حالا من ضمير «قُرْءَانًا» على أنَّه بمعنى اسم مفعول، ولا إلى جعله حالا ثانيةً والأُولى «قُرْءَانًا».

والقرآن يطلق على الكلِّ، وعلى البعض، كما أنَّ بعض الزيت زيت وكلُّه زيت.

﴿نَحْنُ﴾ قدِّم للتقوِّي لا للحصر، لأنَّ المقام ليس له، ولو صحَّ في المعنى، اللهمَّ إلَّا أن يعتبر: إنَّا لا غيرنا مِمَّن يدَّعي المفتري أنَّه أنزله من جنٍّ أو غيرهم ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ مفعول مطلق، أي القصص الأحسن، لإضافة النعت للمنعوت، أو للإضافة للمصدر الذي شأنه أن يكون مفعولا مطلقا، هكذا: نقصُّ عليك قصًّا، وفي ذلك تعريض بأنَّ قصَّ أهل الكتاب قبيح، لأنَّه كذب، فـ«أَحْسَنَ» خارج عن التفضيل إذا لا حسن في قصِّهم، اللهمَّ إلَّا أن يعتبر خصوص ما قصُّوا به دون كذب.

ووجه الخروج [عن معنى التفضيل] أنَّ صِدقهم أفسده كذبهم، وأنَّه يرتاب فيه.

ووجه الأحسنيَّة اشتمالها على حاسد ومحسود، وعاشق ومعشوق، وشاهد ومشهود، وخصب وجدب، ووثاق وإطلاق، وفراق ووصال، وسقم وصحَّة، وحلٍّ وارتحال، وذلٍّ وعزٍّ.

﴿بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي بما أوحيناه إليك من الكلام، أو «مَا» مَصدَرِيَّة، أي بإيحائنا إليك من الكلام ﴿هَـذَا الْقُرْءَانَ﴾ مفعول «نَقُصُّ»، وتنازعه «أَوْحَيْنَا»؛ أو «أَحْسَنَ» مفعول به، أي ما نذكر لك، ونملي المقصوص الحسن، و«هَذَا الْقُرْءَانَ» بدل من «أَحْسَنَ»؛ أو مفعول «أَوْحَيْنَا»، والإشارة إلى السورة. أو يُنزَّل «نَقُصُّ» أو نتلو منزلة اللازم.

﴿وَإِن﴾ إنَّك، أو الشأن ﴿كُنتَ مِن قَبْلِهِ﴾ قبل الإيحاء، أو القرآن ﴿لَمِنَ

الْغَافِلِينَ﴾ يطلق على من علم شيئا وذهل عنه، ويطلق على من لم يعلمه، وهو المراد هنا لم يعلم ﷺ قصَّة يوسف ولم تخطر بباله.

[سبب النزول] قيل روي أنَّ اليهود فاخروا بأنَّ الله ﷻ بيَّن لهم قصَّة يوسف عليه السلام في التوراة، وهي غير مذكورة في القرآن، فنزلت هذه السورة على أبدع طريق وأبلغ كلام بلغة العرب، فزال افتخار اليهود. وسمَّاها الله أحسن قصَّة لِمَا فيها من العبر والأحكام، ومصالح الملوك والعامَّة، وبيان مكر النساء، والصبر والعفو مع القدرة.

ويقال: إنَّ أهل الجنَّة يتفكَّهون بسورة مريم وسورة يوسف، وإنَّه لا يسمع سورة يوسف محزون إلَّا استراح إليها، فيناسب أن يقال هذا لعلَّها نزلت بعد سورة هود التي شيَّبته ﷺ ليزول بها بعض همِّه، وفيها أيضا تسلية له بما لاقى يوسف مِمَّن هو أقرب إليه وهم إخوته، عَمَّا لقي من عمِّه وقرابته إليه ﷺ، وهي في قصص من تقدَّم [في سورة] هود[1]، إلَّا أنَّ هذه سورة رحمة يستراح إليها.

(1) في الأصل: «في قصص من تقدَّم كهود». وفي الطبعة العُمانية: وهي كقصص من تَقَدَّمَ كهود.

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ۝4 قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝5 وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝6﴾

رؤيا يوسف وتعبير يعقوب للرؤيا

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ﴾ يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم. «الكريمُ ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم: يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم».

[نحو] «إِذْ» قيل بدل من «أَحْسَنَ» بدل اشتمال إذا جعلنا «الْقَصَص» بمعنى المقصوص و«أَحْسَنَ» مفعولا به، وفيه أنَّه لا ضمير فيه يعود إلى «أَحْسَنَ»، ويجاب بأنَّه إذا حصلت الملابسة معنىً اكتفي بها ربطا، ولا يعترض بأنَّ الوقت لا يقصُّ، لأنَّ المراد قصُّه بما وقع فيه فهو مقصوص باعتبار ما فيه، وليس يغني الاشتمال المعنويُّ؛ أو مفعول لـ«اذكر»، أي: اذكر وقت قول يوسف، لا متعلِّق بـ«غَافِلِينَ» كما قيل، لأنَّه ﷺ غير موجود في زمان يوسف فضلا عن أن يوصف بالغفلة فيه، فلا تهم.

[لغة] و«يُوسُفُ» عبريٌّ، فَمُنِعَ صَرْفُهُ للعجمة والعَلَميَّة، لا لوزن الفعل والعَلَميَّة، إذ لا يوجد فعل مضارع مضموم الأوَّل والثالث، وكذلك منع إذا قرئ بفتح السين كالمبني للمفعول، أو كسرها كمضارع الرباعي لأنَّه فيهما

عجميٌّ أيضا بدليل قراءة ضمِّ الوسـطى. ولا مانع من كونه من معنى الأسف بمعنى الحزن مع أنَّه عبـري، لأنَّ العبريَّة كثيرا ما تقـارب العَرَبِيَّة، ويصرف العجميُّ الثلاثيُّ الساكن الوسط فُتح أوَّله أو كُسـر أو ضُمَّ نحو شِيث، بكسر الشين وإسكان الياء وبعدها ثاء مثلَّثة.

[قصص] عاش يوسـف مائة وعشـرين سـنة، وأبوه يعقوب مائة وسبعا وأربعين، وجدُّه إسـحاق مائة وثمانين، وجدُّه إبراهيم مائة وخمسا وسبعين، قال ﷺ: «**الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم: يوسف بن يعقوب بن إسـحاق بن إبراهيم**»[1] رواه البخاري، ووجه الكرم توالي الأنبياء نبيء وابن نبيء ونبيء وأبو نبيء.

[صرف] ﴿**يَآ أَبَتِ**﴾ التاء عـوض عن ياء الإضافة، واختيـرت التاء لأنَّها للتأنيث، والياء في هذي وتفعلين وافعلـي للتأنيث، مع أنَّ كلًّا منهما زيادة في آخر الاسـم، كغلامي وقائمة، وأمَّا أن يقتصر في التعليل علـى مجرَّد كونهما زائدتين في آخر الاسـم فلا، وأصل هذه التاء تاء التأنيث ولو كانت للتعويض، بدليل أنَّ ابن كثير وأبا عمرو ويعقوب يقفون عليهـا بالهاء، ومن لم يراع هذه الأصالة أو قال: إنَّها ليسـت أصلها التأنيث وقف بالتـاء، **وبه العمل**. وحرِّكت قيل لأنَّها عوض عن اسـمٍ، والاسـم أصله الحركة، ولو كان هنا ضميرا أصله البناء على السكون، وكانت كسرة لمناسبة الياء التي عوّضت هي عنها، فليقتصر على هذا أو يترك قولهـم حرّكت لكذا، بأن يقال حرِّكت بالكسـرة لتناسـب الكسرة ما عوضت هي عنه، ولو سكنت أو فتحت أو ضمَّت لم تناسب.

[صرف] أو يقال حرِّكت لأنَّها حرف صحيح فنزل منزلة الاسـم، ككاف الخطاب، وقيل: كسرت بكسر ما قبل الياء وفتح ما قبلها، لأنَّ أصلها التأنيث، أو أشبهت تاء التأنيث، وما قبل تاء التأنيث يفتح تحقيقا أو حكما، وقيل هذه

(1) رواه **البخاري** في كتاب الأنبياء، رقم 3202. من حديث ابن عمر.

التاء عوض عن الألف المبدلة عن الياء، فبقيت الفتحة التي قبل الألف، والأصل يا أبا. وقال الكوفيون: هي تاء تأنيث غير عوض، والياء مقدَّرة بعدها، ورُدَّ بِنُدُور «يا أبتي».

﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ رأى هذه الرؤيا وهو ابن اثنتي عشرة سنة وقيل: سبع عشرة، وقيل: سبع، وبين هذه الرؤيا وتحقيقها باجتماعه مع أبويه وإخوته في مصر أربعون سنة عند الجمهور وابن عَبَّاس، وثمانون سنة عند الحسن البصري.

[قصص] روى الحاكم في مستدركه بسنده إلى جابر بن عبد الله أنَّ يهوديًّا جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: أخبرني يا محَمَّد عن النجوم التي رآهنَّ يوسف، فسكت، فنزل جبريل عليه السلام فأخبره بهنَّ، فقال: «**إن أخبرتك تؤمن؟**» قال: نعم. قال ابن الجوزي: حديث موضوع، وقال زرعة: منكر موضوع، وذكروا أنَّ اسم اليهودي سنان أو بستان.

قال: «[الكواكب] هنَّ جِرِيَّان بكسر الراء وشدِّ الياء وكسر الجيم أو فتحها، منقول من اسم طوق القميص، والطارق، والذُّبال بضمِّ الذال المعجمة بعدها موحدة، وقابس، وعمودان، والفيلق نجم منفرد، والمصبح، وهو ما يطلع قبل الفجر»، وذكر السهيلي عن الحارث بن أبي أسامة النطح بدل المصبح، والضروح بضاد معجمة وحاء مهملة، والفرغ بغين معجمة وهو عند الدلو، ووثَّاب بالشدِّ، وذو الكتفين، وهو نجم عظيم.

وقدَّم النجوم هكذا لأنَّهن على ترتيبهنَّ في النزول هكذا، ثمَّ نزلت الشمس والقمر، ولذلك أخِّرت في الآية، وأيضا هما أبواه ليسا من جنس الأخوة المعبَّر عنها بالنجوم، وإخوته أنسب بالسجود له من أبويه لعظمهما، فأخِّرا لأنَّ سجودهما أبلغ، ولأنَّهما لم يجنيا عليه كإخوته، قال ﷺ لليهودي: «نزلت من السماء فسجدت له ونزلت الشمس والقمر فسجدا له»، فقال: والله

إنَّها لأسماؤها، ولم يذكروا أنَّه أسلم، [قلت:] وضبط تلك الكواكب وتفسير ما فسّر منها ليس من الحديث.

وقدَّم الشمس لأنَّها أعظم جرما وضوءا وأكثر نفعا وأرفع مكانا، لأنَّها في السماء الرابعة، والقمر في الأولى، ولأنَّ نوره منها على ما شهر، وكذا قدِّمت في سائر القرآن، والشمس أبوه لتلك الفضائل، وقيل: أمُّه للتأنيث.

وكأنَّه قال يعقوب له: ما شأنهنَّ إذ رأيتهنَّ، فقال على الاستئناف البياني: ﴿**رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ**﴾ ولم يقل: رأيتهنَّ أو رأيتها، ولا ساجدات أو ساجدة أو سواجد لأنَّهنَّ منزَّلة منزلة الذكور العقلاء، لأنَّهنَّ الإخوة والأبوان، ولأنَّ السجود من فعل العاقل، والأب يغلب على الأمِّ لذكورته، وكذا الإخوة.

ويجوز أن يكون «رَأَيْتُهُمْ» تكريرا للأوَّل كرِّر للفصل ولتجديد العهد، وتطريته كما أعيد «أَنَّكُم» لذلك في قوله تعالى: ﴿أَيَعِدُكُمُوٓ أَنَّكُمُ...﴾ الآية [سورة المؤمنون: 35]، وعلى هذا ليس من الاستئناف البياني. و«سَاجِدِينَ» حال للأوَّل، وعلى الاستئناف البياني لم يعمل «رَأَيْتُ» الأوَّل في حال، ولم يؤت له بحال، بل أجملت الرؤية وجيء بالحال للثاني. والسجود: الخضوع، أو حقيقةٌ لَكِنَّهُ لله، ويوسف قِبلة، وهذا خضوع أيضا، شبَّههنَّ بعقلاء ورمز للتشبيه بلازمهم وهو السجود، فذلك مكنيَّة، أو شبَّه أحوالها بأحوال الساجدين فذلك تمثيليَّة.

﴿**قَالَ يَابُنَيِّ**﴾ صغَّره لصغر سنِّه كما مرَّ، أو للترحُّم، أو لهما. ﴿**لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا**﴾ يحتالون في إهلاكك، ولذا عدِّي باللام كما يتعدَّى بها «يحتال»، وإلَّا فـ«كَادَ» متعدٍّ كما قال ﷻ: ﴿**فَكِيدُونِي جَمِيعًا**﴾ [سورة هود: 55].

[أصول الدين] وقد فعلوا كبائر في شأن يوسف، والنبيء لا يفعل كبيرة ولا صغيرة قبل النبوءة ولا بعدها، فالحقُّ أنَّهم ليسوا أنبياء، ويناسبه

أنَّه لم يذكر في القرآن أنَّ أهل مصر جاءهم نبيء قبل موسى غير يوسف، وهم ماتوا في مصر.

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ظاهر العداوة أو مظهرها، ولم يبال اتّكالا على قوّته، وإخوتك عارفون بتأويل رؤياك فتميل أنفسهم مع وسواس الشياطين لهم إلى إهلاكك.

[قصص] وقد رأيتَ أيضا قبل هذه الرؤيا ما يحسدونك به، إذ رأى وهو ابن سبع سنين، أو إحدى عشرة، عصا طويلة مركوزة في الأرض كدائرة، فإذا عصا صغيرة وثبت عليهنَّ فبلعتهنَّ، فذكر ذلك لأبيه، قال: إِيَّاكَ أن تذكرها لإخوتك، ومع ذلك علموا بها، وقال له: النجوم إخوتك، والشمس أمُّك، والقمر أبوك، وهذا مناسب لذكورة القمر وأنوثة الشمس، ولو كان الأب أقوى من الأمِّ والشمس أقوى، وذلك قول ابن جريج.

وقال السدِّيُّ: الشمس أبوه والقمر خالته، لأنَّ أمَّه راحيل ماتت، أي في نفاس بنيامين، وقال قتادة: الشمس أبوه والقمر أمُّه، وفيه مراعاة لقوَّة الأب على الأمِّ، ومخالفة في الذكورة والأنوثة، ووجهه أنَّه نبيء رسول فنوره الشرعيُّ أقوى، وأكثر المفسِّرين أنَّ الشمس خالته والقمر أبوه، وأنَّ أمَّه ماتت في نفاس بنيامين، وقيل: إنَّ الله ﷻ أحياها بعد موتها حتَّى تسجد ليوسف تحقيقا لرؤياه، وفي الحديث: «**الرؤيا ثلاث: حديث النفس، وتخويف الشيطان، وبشرى من الله الرحمن الرحيم**»[1] والصحيح أنَّ الشمس خالته، وقال الحسن: إنَّ المراد أمُّه وأنَّها لم تمت.

﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ كما اجتباك ربُّك لهذه الرؤيا، وكذا مثلها كرؤيا العصي يجتبيك للملك والنبوءة وتفسير الأحلام وغير ذلك من الأمور

(1) رواه **البخاري** في كتاب التعبير، باب القيد في المنام، رقم 6614. من حديث أبي هريرة.

العظام، كالآراء السديدة. والاجتباء: الاختيار، ويجوز أن يتَّحد المشبَّه والمشبَّه به كأنَّه قيل: يجتبيك ربُّك هذا الاجتباء لهذه الرؤيا، كما تقول في الأمر المعظَّم: الأمر كذلك، ولست تشير إلى أمر آخر، وتطعم زيدا فتقول: كذلك أطعمته ولم تشر إلى إطعام آخر، ولا إلى غير زيد، كأنَّك تعتبر أنَّ ذلك الشيء غيره في الخارج.

والواضح أن يقال: المعنى: ومثل ذلك الاجتباء، وذلك التعليم وإتمام النعمة يجتبيك ربُّك بغيرهما لقوله: ﴿**وَيُعَلِّمُكَ مِن تَاوِيلِ الَاحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى ءَالِ يَعْقُوبَ**﴾ أو «يُتِمُّ نِعْمَتَهُ» خارجا عن التشبيه، أو يجعل إتمام النعمة اجتباء، ذَكرَه ليبيِّن أنَّ ذلك إتمام للنعمة، أو عطف عامٍّ على خاصٍّ.

[بلاغة] وقد قيل: كلٌّ من التعليم وإتمام النعمة خارج عن التشبيه، ولو دخل فيه لكان المعنى: ويعلِّمك تعليما مثل الاجتباء بمثل هذه الرؤيا، ولا يخفى عدم حسنه، لأنَّ الاجتباء وجه الشبه ولم يلاحظ ذلك في التعليم، ولو أمكن بِأَنَّ التعليم نوع من الاجتباء، والنوع يشبَّه بالنوع، ولكن يدلُّ على أنَّ التعليم لم يلاحظ فيه الاجتباء عطفه عليه، إلَّا أن يقال: عطف عامٍّ على خاصٍّ، وأيضا لا نسلِّم أنَّ الاجتباء وجه شبه بل مشبَّه.

وتأويل الأحاديث: تفسير ما خفي من كتب الله، وهي الصحف وسنن الأنبياء، وكلمات الحكماء وأفعالهم، أنبياء أو غيرهم، وأمَّا حكماء أمور الدنيا فحدَثوا بعد ذلك بطويل، ولو وجدوا على عهده لم يشتغل بتفسير كلامهم، وأمَّا تفسير الرؤيا فدخل قبل هذا، وإن لم يدخل فيما قبل دخل بتأويل الأحاديث، فتفسير الأحاديث بأحاديث الرؤيا، لأنَّها كلام ملك إن كانت حقًّا وكلام شيطان إن كانت باطلا، ويجوز أن يفسَّر «تأويل الأحاديث» بتفسير الرؤيا وتفسير الصحف والحكم والسنن.

والأحاديث: جمع أحدوثة، إلَّا أنَّ الأحدوثة مختصٌّ بالحديث العظيم، وأمَّا باعتبار لفظ «حديث» فاسم جمع. وما ذكرت من أنَّ أفعولة كأحدوثة وأعجوبة وأنكوحة للأمر العظيم هو المشهور عند النحاة، وقال الرضي: للشيء الضعيف، وليس كذلك، ولا لِمَا سيكون كما قيل، وقيل: هو جمع لواحد غير ملفوظ به وهو أحدوثة، والذي يظهر لي أنَّ أحدوثة مسموع.

وإتمام النعمة يكون بالنبوءة على يوسف وسائر آل يعقوب وهم إخوته، وعلم يعقوب بذلك بكونهم في الرؤيا نجوما مضيئة كذا قيل، والصحيح أنَّهم أولياء تابوا لا أنبياء، لأنَّ الأنبياء لا يصدر منهم ما صدر منهم من الظلم، فإتمام النعمة عليهم إرشادهم للناس إلى الحقِّ، كما يرشد الضوء لعلمهم، فآل يعقوب هم ونسلهم، لوجود الخير فيهم علما ونبوءة، ومالا وجاها وسلطنة وأتباعا في كلِّ نسله، وقيل: إتمام النعمة الجمع لهم بين نعم الدنيا والدين ونعم الآخرة.

﴿**كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَاقَ**﴾ بالعلم والنبوءة لهما، وبالخلَّة والنجاة من النار، ونجاة إسماعيل من الذبح لإبراهيم. و«عَلَى» متعلِّق بـ«أَتَمَّ»، وهو يَدُلُّ على تعليق «عَلَيْكَ» بـ«يُتِمُّ»، وهو الظاهر ولو جاز تعليقه بـ«نعمة»، وزاد قوله: ﴿مِن قَبْلُ﴾ تصريحا باتِّصال النعم قبلُ وبعدُ، سواءً قلنا المراد: من قبلك أو من قبل هذا الوقت، والمأصدق واحد، ولم يذكر يعقوب نفسه تأدُّبا مع الأبوين أو هضما لنفسه، أو لكونه معروفا بالعيان لا بالإخبار والبيان، أو لأنَّ شرف من قبله ومن بعده شرف له.

﴿**إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ**﴾ بكونهم ذوي قُوَّة قدسيَّة، وفضائل روحانيَّة، من فضل الله ﷻ يستحقُّون بها الاجتباء بالنبوءة وما مرَّ ﴿**اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَاتِهِ**﴾ [سورة الأنعام: 124].

[أصول الدين] والحقُّ أنَّ النبوءة غير مكتسبة ﴿حَكِيمٌ﴾ يضع الأشياء في مواضعها، لا يسفه ولا يعبث، فقد وضع الاجتباء وإتمام النعم في أهل ذلك، ويعقوب جازم بالاجتباء وإتمام النعمة وتعليم التأويل، وأمَّا خوفه من أن يهلكه إخوته ومن أن يأكله الذئب، وقوله لعزرائيل: هل مات يوسف؟ فنسيان، أو من ضروريَّات البشر عند الشدَّة، أو توهَّمَ أنَّ لذلك شرطا لم يطَّلع عليه.

﴿لَّقَدۡ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخۡوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٞ لِّلسَّآئِلِينَ ٧ إِذۡ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٨ ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ ٩ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ١٠﴾

اتّفاقهم على إلقائه في البئر

﴿**لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ**﴾ يهوذا وروبيل وشمعون ولاوي وريالون، ويشجر وبنيامين، ودان، ويفائلي وجاد وآشر، الستَّة الأولى من بنت خالة يعقوب ليا، وبنيامين ويوسف من أختها راحيل، تزوَّجها بعد موت أختها، أو لم يكن الجمع بين محرمتين حراما في شرعهم، والأربعة الباقون من سريَّتين اسمها: زلفى وبلهة، ومن لم يذكر بنيامين عدَّهم عشرة، نظرا إلى قصَّة الكيد إذ لم يحضرها بنيامين، وهؤلاء ذكور وله بنات.

وقيل في التوراة: روبيل وشِمعون بكسر الشين، ويهوذا ولاوي من لايا، ويوسف وبنيامين من راحيل، والستَّة الباقون من الأمتين، يشجر وربالون ودينة ودان، وبغتالى وجاد.

والمعنى: لقد كان في قصَّة يوسف وإخوته أي اقتصاصها فحذف المضاف كما يدلُّ له: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ...﴾، والمراد بالإخوة هنا ما أريد به هنالك، وقيل: المراد هناك بنو العلَّات، وجوِّز أن يراد بهم ما يشمل من كان من الأعيان لأنَّ لبنيامين أيضا حصَّة من القصَّة.

﴿ءَايَاتٌ﴾ دلائل على نبوءتك يا محَمَّد، إذ أخبرت بقصَّتهم كما هي عندهم في التوراة، بلا نظر في كتاب ولا سماع من أحد. والجمع باعتبار أنَّ كلَّ أمر من تلك الأمور المقصوصة آية ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾ وغير السائلين، وخصَّ السائلين لأنَّ المقام لجوابهم وهم اليهود كما مرَّ، وإن فسَّرنا الآيات بدلائل قدرة الله فالسائلون مطلق السائل، وذلك كقوله تعالى: ﴿تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ [سورة النحل: 81] أي والبرد، وقوله تعالى: ﴿سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ [سورة فصلت: 10]. وقيل: المراد الناس مطلقا ترغيبا في السؤال، وذلك أنَّهم سعوا في هلاكه فكان سعيهم سعيا في كونه ملكًا وأنَّه أصغرهم ففاقهم إلَّا بَنيامين ـ بفتح الباء وكسرها ـ فأصغر من يوسف، ولم يدخل في كيده، وأنَّ الرؤيا صدقت، وأنَّ يعقوب آل حزنه إلى فرح.

﴿إِذْ قَالُواْ﴾ أي إذ قال إخوة يوسف بعض لبعض إلَّا بنيامين. وقول بعض مع رضا الباقين قول للجميع، وقيل: قولة شمعون، وقيل: دان ورضي الآخرون، إلَّا من قال: لا تقتلوا يوسف فإنَّه قال معهم، أو رضي إلَّا القتل وطرحه أرضا فلم يقل بهما. خيَّروا بعضهم في قتله وطرحه أرضا، و«أَوْ» للتخيير، وقيل: قال بعض: اقتلوه، وبعض: اطرحوه أرضا، ولا دليل لمن قال: شاوروا غيرهم فخيَّرهم، وهو بعيد عن الآية، إلَّا إن شاوروه فخيَّرهم فنطق به بعض لبعض، ويحتاج إلى رواية صحيحة.

﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ﴾ من أبيه وأمِّه بنيامين، ولذلك أضافوه إليه خصوصا وذكروه بالأخوَّة لا باسمه، لأنَّ حبَّ يعقوب إيَّاهُ لأخُوَّته ليوسف ﴿أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ الجملة حال من مجرور «مِنْ»، فالربط بالضمير وواو الحال، أو من ضمير «أَحَبُّ» فالربط بالواو.

[لغة] والعصبة: ما زاد على العشرة، وعن ابن عَبَّاس: ما بين العشرة إلى الأربعين، وقيل: العصبة عشرة فصاعدا، وقيل: ما بين الواحد إلى العشرة، وقيل: من عشرة إلى خمسة عشر، وقيل: من سِتَّة، وقيل: من تسعة. ومادَّة «عصب» للإحاطة، لأنَّ قرابة الرجل يحيطون به دفعا عليه، ويتقوَّى بهم كعصابة الرأس،

وعصابة البكرة السفلى. [أي قالوا:] كيف يفضِّلهما علينا ونحن مجتمعون فينا قُوَّة ونفع ليس فيهما. وسمِّيت الجماعة عصبة لأنَّ الأمر يشدُّ بهم ويقوى.

وكان زيادة حبِّه لِمَا رأى فيه من مخايل الخير، ولَمَّا رأى الرؤيا تضاعف حبُّه، وَمِمَّا زاده حبًّا صغرهما وموت أمِّهما. قالت ابنة الحسن بن الإمام علي: «أَحبُّ بنيَّ إليَّ الصغير حَتَّى يكبر، والغائب حتَّى يحضر، والمريض حتَّى يشفى»، قال الشاعر:

إنَّ البنان الخمس أكفاء معا والحلي دون جميعها للخنصر

وإذا الفتى فقد الشباب سما له حبُّ البنين ولا كحبِّ الأصغر

وبنيامين أصغر من يوسف لكن زاد يوسف بفضائل، [قلت:] والحب ضروريٌّ لا عدالة فيه، وفيما يلتحق به ضرورة لا كسبا ولا تقصيرا.

﴿**إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ**﴾ إعراض عن مصالحه، لأنَّا نحن نقوم بدوابِّه، وحرثه ومصالحه لا هما، أو أرادوا بالضلال الجور في حبِّه لهما أكثر، نسبوا نبيئا إلى كبيرة لسفههم، وبعد ذلك تابوا، وليس ذلك إشراكا، ومن زعم أنَّهم أنبياء قال: عصمة الأنبياء من حين النبوءة لا قبلها، والحقُّ عصمتهم من أوَّل الأمر.

﴿**اقْتُلُواْ يُوسُفَ**﴾ وكان أحبَّ إلى يعقوب من بنيامين ومنهم لِمَا رأى فيه من مخايل الإسلام والأدب، ولَمَّا رأى الرؤيتين زاد حسدهم كما مرَّ، قال ﷺ: «**ثلاث لا ينجو منهنَّ أحد: الحسد والطيرة وسوء الظنِّ، وإذا حسدت فلا تبغ، وإذا تطيَّرت فأمض، وإذا ظننت فلا تحقِّق**»[1] أي لا تفعل سوءًا بسبب ذلك الظنِّ.

﴿**أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا**﴾ بعيدة من العمران مهجورة مهلكة، وقال بعض: هي شاملة للبئر على نزع حرف الظرفيَّة مع أنَّه مكان، ولا ينصب من الأمكنة على الظرفيَّة إلَّا ما ليس محدودا، لأنَّ المراد بها غير محدودة، كأنَّه قيل: اطرحوه

---

(1) أورده **الشوكاني** في الفوائد المجموعة، 227. و**العلجوني** في كشف الخفاء، ج 2، ص 261. ورواه **الربيع** في مسنده (51) باب جامع الآداب، رقم 701.

حيث يهلك بسباع أو جوع أو عطش، أو مفعول ثان على تضمين «اطرح» معنى أنزل، كقوله تعالى: ﴿أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكًا﴾ [سورة المؤمنون: 29].

﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ يتمحَّض حبُّه لكم لا يشارككم فيه يوسف، فضلا عن أن يعرض به عنكم، وعبَّر بالوجه لأنَّ الحبَّ يظهر أثره فيه، والمراد الذات، عبَّر بالجزء عن الكلِّ، أو كنَّى بالوجه عن الإقبال، لأنَّ الإنسان إذا أقبل على الشيء أقبل عليه بوجهه، فذكر الملزوم وأراد اللازم ﴿وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِ﴾ بعد قتله أو طرحه، أو بعد يوسف أي بعد الفراغ من أمره ﴿قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ اعترفوا أنَّ قتله أو طرحه فساد يتوبون منه، وذلك أنَّهم قطعوا الرحم وعصوا الوالدين، أو الوالد والخالة، وهي كالأمِّ، وقَلَّتْ رحمتهم بالصبيِّ الذي لا ذنب له، وغدر الأمانة وترك العهد والكذب.

وقصدوا [بالصلاح] التنصُّل والإخلاص، أو النجاة من العقوق بأن يرضى عنهم، ولو بأن يكذبوا له، والأوَّل أولى وعليه الأكثر، فالصلاح دينيٌّ، وعلى الثاني دينيٌّ غير خالص، لأنَّهم أرادوا مجرَّد الخلاص من العقوق لا التوبة، أو أرادوا صلاح دنياهم. وقيل: أرادوا بالصلاح صلاح حالهم مع أبيهم لا التوبة، ورجَّحه بعض.

وذكر بعض أن دينة أخت يوسف ذكرت تغليبا. والعلَّاتُ: الإخوة للأب، والأعيان: الأشقَّاء، والأخياف: الأُمِّيُّونَ. وكلُّهم في أُخوَّة يوسف معه. وأكبرهم يهوذا، ويعرب بإهماله، وتجوز حكاية الإهمال، وهو أحسنهم رأيًا، وهو أبو الملوك، وأكبرهم سنًّا هو روبيل، باللام أو بالنون أو رؤوبن، على وزن فعولن، ولاوَى، أو ليوى، أبو الأنبياء، ويشجر، يعبِّر عنه بعض بإسَّاخر: بكسر الهمزة وشدِّ السين، وربالون يُعبَّر عنه بربولون، وتقتالى، المشهور فيه تفتالى، ويقال في جَادَ كَادَ، بوزن صَادَ، وبنيامين بكسر أَوَّلِهِ وبِفتحِهِ وَصُحِّحَ وضَمِّهِ.

وإذا قلتُ في لفظ عجميٍّ إنَّه بوزن كذا فمرادي الوزن الطبعي، أعني موازنة الفتحة بالفتحة، والكسرة بالكسرة، والضمَّة بالضمَّة، دون اعتبار أصالة الحروف وزيادتها، إذْ لا ضبط في العجمة بذلك.

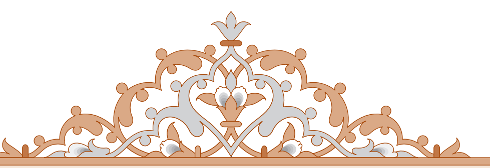
﴿**قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ**﴾ هو يهوذا، وقال قتادة: روبيل، قيل: كان يهوذا أكبرهم سنًّا وأحسنهم رأيا في يوسف، وأقلَّهم شرًّا؛ وقيل بذلك في روبيل، وقال مجاهد: شمعون، وقيل: دان، والصحيح أنَّه يهوذا وهو القائل: ﴿فَلَنَ اَبْرَحَ الَارْضَ﴾ [سورة يوسف: 80] ولم يذكر القائل باسمه سترا.

﴿**لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ**﴾ فإنَّ القتل أكبر الكبائر بعد الإشراك، ولا رجوع فيه إلى إصلاح، بخلاف سائر المضارّ، أشار لهم القائل: «لَا تَقْتُلُوا» إلى هذا كلِّه، ولم يضمر ليوسف استعطافا لهم عليه. ﴿**وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَاتِ الْجُبِّ**﴾ في المواضع المظلمة من البئر، وهي أجزاء قعرها، إذ يغيب ما فيها عن الناظر من أعلاها، ولا سيما إن اتَّسع أسفلها وضاق أعلاها، والغيابة: الموضع الذي يغيب ما فيه؛ أو في أسفل ذلك الجب خفايا في جوانبه.

[لغة] وسمِّيت البئر جبًّا لأنَّ الأرض تُجَبُّ لتحصيلها، أي تقطع، قيل: الجبُّ: البئر التي لم تطو بالحجارة أو الجذوع، ولا بغيرها، والمراد هنا البئر المطوية، والمراد بئر لثمود قديمة، وقيل: بئر بيت المقدس، وقيل: بئر بالأردن، وعن وهب بن منبِّه ومقاتل: هو على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب، وقيل: بئر بين مدين ومصر، قصدوا بئرا مخصوصة. و«ال» للعهد الذهني، والواضح أنَّهم أرادوا مطلق البئر وَاتَّفَقَ أنَّها إحدى الأبيار المذكورة، فـ«ال» للجنس كـ«ال» في «السيارة».

﴿**يَلْتَقِطْهُ**﴾ يأخذه على وجه الإصلاح، والأخذ من الطريق أو من حيث لا يحتسب الْتِقَاطٌ، ومنه اللُّقَطَة، ﴿**بَعْضُ السَّيَّارَةِ**﴾ كان على الطريق يَرِدُ عليه المسافرون فيأخذه منها بعض السائرين في السفر، والسيَّارة جمع سيَّار، الذي هو صفة مبالغة، فيكون من الجمع بالتاء، والمفرد بلا تاء، ككمأة للجمع، والكمأ للمفرد.

﴿**إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ**﴾ مريدين الفعل بمشورتي، أو مريدين التفريق بينه وبين أبيكم، وذلك أنَّه يأخذه بعض المسافرين فيذهب به إلى بلد آخر فيغيب عنكم فيه. أرادوا قتله فقال قائل منهم: إن كان ولا بدَّ من الشرِّ فيه فاقتصروا على إلقائه في الجبِّ.



﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ١١ أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ١٢ قَالَ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ ١٣ قَالُواْ لَئِنۡ أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّآ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ١٤ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٥ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ ١٦ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ١٧ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١٨﴾

تنفيذ إخوة يوسف مؤامرتهم وموقف يعقوب من ذلك

ولَمَّا أجمعوا أمرهم في الكيد بـه، وأرادوا تخليصه من أبيه ﴿**قَالُواْ يَآ أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَامَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ**﴾ تضرُّع مشعر بالمكر، خرج منهم بلا رويَّة، أو كانت مراودة قبل هذا، أو ظهر لهم منه خوفه عليهم أن يضيِّعوه، أو يهلكوه أو رأوا منه بلا تقدُّم مراودة وخوفه لشدَّة حبِّه، وما رأى فيهم من الحسد أو مخايله، وعن مقاتل: قالوا ذلك بعد قوله: ﴿إِنِّي لَيُحْزِنُنِيَ...﴾.

وقالوا له: ﴿**وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ**﴾ مانعوه عن المضرَّة جهدنا، وقائمون بمصالحه وإكرامه كأنَّه عندك.

قالوا له: أما تشتهي أن تخرج إلى مواشينا فتصيد وتستبق؟ قال: بلى، قالوا: فسل أباك، فقال: نعم، فدخلوا على أبيه فقالوا: يا أبانا يوسف أراد الخروج معنا، فقال: ما تقول يا بني؟ قال: نعم إنِّي رأيت منهم اللطف والرحمة.

والجملة حال من «نَا»، أو من ضمير «تَامَنْ»، أو معطوفة على ما بعدَ «قالوا»، وكأنَّه قيل: «وقالوا إنَّا له لناصحون».

[قراءات] والصحيح في ﴿تَامَنَّا﴾ النطق بنون بين ضمَّة وسكون فَنُونٌ بعدها، هذا ما أؤدِّي به، وأطلت الكلام فيه ـ كابن الجزري ـ في شرح نظمي المسمَّى «جامع حرف ورش»[1]، وأذكر بعضه مختصرا:

قرأ العَامَّة: «تامنا» بالإخفاء وهو عبارة عن تضعيف الصوت بالحركة، والفصل بين النونين لأنَّ النون تسكن رأسا، فذلك إخفاء لا إدغام، وقرئ بالإشمام الذي هو ضمُّ الشفتين إشارة إلى حركة الفعل مع الإدغام الصريح، وذلك إشارة إلى الضمَّة بعد الإدغام وقبل كماله، وقرأ أبو جعفر بالإدغام الصريح، وقرأ الحسن بضمِّ النون بلا إدغام ولا إشمام محافظة على حركة الإعراب، والجمهور على الإخفاء أو الإشمام.

﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا﴾ أصله «غدو» بإسكان الدال، أو فتحها كَيَدٍ، حذفت لامه. ﴿يَرْتَعِ﴾ في الصحراء: يأكل الفواكه والثمار، كما ترعى الإبل، أو يلابسها في رعيها ويذهب معها للرعي، وهذا افتعال من الرعي للمطاوعة، أي نرعه فيرتع. ومن سكَّن العين جعله من الرتع، بمعنى يسع في أكل الفواكه ونحوها من الرتعة وهي الخصب، كأنَّه قيل: يعامل الخصب بالأكل والتمتُّع، ولعلَّهم كانوا في شدَّة وذلك مباح، ويقال: يرتع فلان في ماله [إذا] أنفقه في شهواته، ثمَّ تعارفته العرب في أكل البهائم من الخصب، ويستعار للإنسان إذا أريد التفسُّح في الأكل كأنَّه بهيمة، شهوة بلا عقل يكفُّها.

﴿وَيَلْعَبْ﴾ يرمي الحجارة أو بالعصا أو بالسهام ليتعلَّمها، وبالمسابقة برجليه أو دَابَّة، والمراد ما يتدرَّب به لقتال العدوِّ، وإلَّا لم يقرَّهم عليه

---

(1) يشير الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ إلى كتاب له ضخم شرح فيه قصيدته «جامع حرف ورش» وسمَّاه: تلقين التالي لآيات المتعالي، وهو كتاب نفيس لا يزال مخطوطا توجد منه نسخة في مكتبته ببني يزقن.

يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ. سُمِّيَ التعلُّم لعبا للشبه، ويدلُّ للَّعب بالمسابقة قوله: ﴿إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ لأنَّهم قالوا: ﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا﴾، فهو لم يستبق معهم، فإن قام بالمسابقة فوحده لا معهم، واللعب فعل لم يقصد به مقصد صحيح. ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ عن الضرِّ، حال من ضمير «يَلْعَبْ»، أو من الهاء، أو معطوف مثل ما مرَّ.

﴿قَالَ إِنِّي لَيُحْزِنُنِيَ أَن تَذْهَبُواْ بِهِ﴾ يحزنني ذهابكم به عنِّي لشدَّة حبِّه، فلا أقدر على فراقه ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَّاكُلَهُ الذِّيبُ﴾ لصغره، ولو كان ابن اثنتي عشرة سنة، أو لكبر ذئاب تلك الأرض وشدَّتها، وكانت أرضا كثيرة الذئاب، أو أراد بالذئب الذئاب.

وقيل: قال ذلك لأنَّه عَلَيْهِ السَّلَامُ رأى في النوم ذئبا يشدُّ على يوسف ويوسف يأخذ حذره منه، ويقال: إنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ رأى في نومه أنَّه على ذروة جبل ويوسف في بطن الوادي، فإذا عشرة ذئاب تريد أكله ودفع عنه واحد، فاتسعت الأرض فتوارى فيها ثلاثة، قلنا: كأنَّهنَّ أيَّامه في الجبِّ، والذئاب: إخوته.

[نحو] ومعنى إحزانه الذهابُ به: إنَّ ذِكْرَكُم الذهابَ به أَحْزَنَني في الحال تصوُّره قبلَ تحقُّق الذهاب، فالمضارع للحال كما هو مقتضى لام الابتداء الداخلة في خبر إنَّ، لكن لا نسلِّم أنَّ تلك اللام للحال لزوما، بل تجوز للحال والاستقبال، فمن الاستقبال قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [سورة النحل: 124] وكذا أخاف من الآن أن يأكله الذئب إن ذهبتم به، وأقرب من ذلك: إنَّكم إذا ذهبتم به حزنت لا الآن.

﴿وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ في شغلكم كائنا ما كان، لأنَّه لم يذكرهم بالارتعاء واللعب، بل ذكر بهما يوسف، وفي الواقع في زعمهم اشتغالهم بالاستباق كما ذكر بعدُ، نعم يقرب أن يقدَّر: يرتع ويلعب معنا. أو غافلون لقلَّة اهتمامكم به.

﴿**قَالُواْ لَئِنَ اَكَلَهُ الذِّيبُ وَنَحْـنُ عُصْبَةٌ اِنَّآ إِذًا لَّخَاسِـرُونَ**﴾ جواب لقوله: ﴿وَأَخَـافُ أَنْ يَّاكُلَهُ الذِّيبُ﴾، ولم يجيبـوا قوله: ﴿لَيُحْزِنُنِـيَ أَن تَذْهَبُواْ بِهِ﴾ لقصر زمـان الحزن مـن ذهابهم إلى رجوعهـم، أو لأنَّ مرادهـم إيقاعه في الحزن. قال بعض المتأخِّريـن: الأخير هو المتعيَّن، وفيه نظـر، لأنَّهم حينئذ ليسوا يتحرَّزون عن الكذب والإيهام حتَّى يسـكتوا عَمَّا يخالف اعتقادهم بل لم يجيبوه عن ذلك لأنَّهم رأوا أنَّ الحزن لا بدَّ واقع لا حيلة لهم في قطعه.

وجملة «نَحْنُ عُصْبَـةٌ» حال من الهاء أو «الذِّئب». والخسـران هنا العجز والضعف، استعارة من الخسران بمعنى الهلاك أو من نقص المال في التجر، أو المعنى: مستحقُّون أن يدعى علينا بالخسـران، بأن تضيع أموالنا ومواشينا لضعفنا عن القيام بها وهذا بعيد، وكان قيل: بين خروج يوسـف عن أبيه إلى لقائه ثمانون سـنة لم تجف فيها عينا يعقوب، وما علـى الأرض يومئذ أكرم على الله منه. قيل: لـم يعلموا أنَّ الذئب يأكل الإنسـان، وَلَمَّا قال: «أخاف أن يأكله الذئب» تعلَّموا منه الحيلة، فقالوا: «أكله الذئب»، والبلاء موكَّل بالمنطق. قال ابن عمر عنه ﷺ: «**لا تلقِّنوا الناس فيكذبـوا، فإنَّ بني يعقوب لم يعلموا أنَّ الذئب يأكل الناس فلمَّا لقَّنهم أبوهم قالـوا: أكله الذئب**»[1] ويقال: «البلاء موكَّل بالمنطق» قال:

الصمت من سعد السعود بمطلع ننجو بـه، والنطق سـعد ذابح

﴿**فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِ**﴾ أي أرسله معهم، أو خلَّاه لهم، فذهبوا به، ولَمَّا ذهبوا به ﴿**وَأَجْمَعُواْ**﴾ عزموا ﴿**أَنْ يَّجْعَلُوهُ فِـي غَيَابَاتِ الْجُبِّ**﴾ جواب «لَمَّا» محذوف تقديره: ألقوه فيها، أي في غيابات الجبِّ، كما دلَّ عليه لفظ الآية، أو فعلوا به أمرا مهولا، فالحذف للتهويل، فإنَّه حملوه على ظهورهم.

(1) أورده **السيوطي** في الدر، ج 4، ص 9.

[قصص] وَلَمَّا برزوا به ألقوه في الأرض وجعلوا يؤذونه ويضربونه، حتَّى كادوا يقتلونه فصار يصيح ويستغيث، وكلَّما استغاث بواحد ضربه. ويقال: جلد به الأرض روبيل، وقام على صدره ليقتله، فقال: مهلا لا تقتلني، فقال له: يا ابن راحيل قل لرؤياك تخلصك، فقال يهوذا: أما عاهدتموني أن لا تقتلوه، فأتوا به إلى البئر فدلُّوه فيها فتعلَّق بشفيرها فضربوا يديه، ونزعوا قميصه ليلطِّخوه بدم ويحتالوا به على أبيهم، فقال: يا إخوتاه ردُّوا عليَّ قميصي لأتوارى به، فقالوا: أدع الأحد عشر كوكبا والشمس والقمر يلبسوك ويأنسوك.

روي أنَّ إبراهيم لَمَّا جرِّد من ثيابه ليلقى في النار ألبسه جبريل قميصا من حرير الجنَّة فدفعها إبراهيم إلى إسحاق وإسحاق إلى يعقوب، فجعلها في تميمة ليوسف فألبسه جبريل إِيَّاهَا، ويقال جعلها يعقوب في قصبة من فضَّة وجعلها في عنق يوسف فألبسه إِيَّاهَا جبريل فأضاء له الجبَّ. ولَمَّا وصل نصف البئر مربوطا في حبل ألقوه مع الحبل ليموت، وقيل: قطعوه، وقيل: ألقوه بلا ربط، وعلى الربط حلَّه جبريل، وألبسه بعد وقوعه. ولا ماء في البئر وقيل بها ماء، وآوى إلى صخرة، فنادوه فأجابهم يظنُّ رحمتهم فأرادوا رضخه بصخرة، فمنعهم يهوذا، وروي أنَّه كلَّما استغاث من واحد إلى الآخر ضربه الآخر وأهانه.

[قصص] وروي أنَّه لَمَّا ألقي في الجبِّ قال: «**يا شاهدا غير غائب، يا قريبا غير بعيد، يا غالبا غير مغلوب اجعل لي من أمري فرجا ومخرجا**»، ويقال: إنَّ الملك أخرج له الصخرة من البئر وقعد عليها ولَمَّا ألقي فيها عذب ماؤها فكان يغنيه عن الطعام والشراب، ويقال: مكث في الجبِّ ثلاثة أَيَّام، وكان إخوته يرعون حوله ويأتيه يهوذا بالطعام، ودخل عليه جبريل يؤنسه فلمَّا أمسى نهض ليذهب فقال له يوسف: إذا خرجت عنِّي استوحشت، فقال له: إذا

رهبت شيئا فقل: «**يا صريخ المستصرخين، يا غوث المستغيثين، يا مفرِّج كرب المكروبين، قد ترى مكاني وتعلم حالي ولا يخفى عليك شيء من أمري**»، ولَمَّا قالها يوسف حفَّته الملائكة وآنس بهم.

[قصص] ويقال: نزل إليه جبريل عليه السلام فقال: يا غلام من ألقاك في هذا البئر؟ قال: إخوتي، قال: ولم؟، قال: لمودَّة أبي لي حسدوني، قال: أتريد الخروج من هنا؟ قال: ذاك إلى إله يعقوب، قال: قل: «**اللهمَّ إنِّي أسألك باسمك المخزون المكنون يا بديع السماوات والأرض يا ذا الجلال والإكرام، أن تغفر لي وترحمني، وأن تجعل من أمري فرجا ومخرجا، وأن ترزقني من حيث أحتسب ومن حيث لا أحتسب**»، فقالها، فجعل الله تعالى له من أمره فرجا ومخرجا ورزقه ملك مصر من حيث لا يحتسب.

[قصص] ويقال: لَمَّا وقع في البئر بكى فجاءه جبريل فآنسه. وروي أنَّ هوام البئر قال بعضها لبعض: لا تخرجن فإنَّ نبيئا نزل بساحتكنَّ فانجحرن، إلَّا الأفاعي فدعا عليهنَّ جبريل بالصمم. ويقال: إنَّ جبريل علَّمه هذا الدعاء: «**اللهمَّ يا كاشف كلِّ كربة، ويا مجيب كلِّ دعوة، ويا جابر كلِّ كسير، ويا ميسِّر كلِّ عسير، ويا صاحب كلِّ غريب، ويا مؤنس كلِّ وحيد، لا إله إلَّا أنت سبحانك، أسألك أن تجعل لي فرجا ومخرجا، وأن تقذف حبَّك في قلبي حتَّى لا يكون لي همٌّ ولا ذكر غيرك، وأن تحفظني وترحمني يا أرحم الراحمين**».

﴿**وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ**﴾ في البئر ابن اثنتي عشرة سنة، أو ابن سبع عشرة سنة، أو ابن ثماني عشرة، أو ابن ستٍّ، قبل أوان الوحي وهو أربعون سنة، كما أوحي إلى عيسى قبل أوانه ليطمئنَّ قلبه بأنَّه سيخرج ﴿**لَتُنَبِّئَنَّهُم**﴾ بعد زمان ﴿**بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا**﴾ أي بما صنعوا ﴿**وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ**﴾ أنَّك يوسف لبعد العهد وتغيُّر البدن والأحوال، تقول لهم: «هل علمتم ما فعلتم بيوسف»؟ وتخبرهم ببعض ما فعلوا ولا يعلمون أنَّك يوسف حين الإخبار، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَجَآءَ اِخْوَةُ يُوسُفَ

﴿فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ [سورة يوسف: 58]، ويروى أنَّه عليه السلام نقر الصواع فقال: إنَّ هذا الصواع يخبرني أنَّكم ألقيتم أخا لكم في الجبِّ اسمه يوسف، ولطَّختم قميصه بدم، وقلتم لأبيه: أكله الذئب، قال ابن عبَّاس ما نرى ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ نزلت إلَّا في هذا.

﴿**وَجَآءُواْ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ**﴾ وقت الظلمة وقت صلاة العتمة، وقيل: من المغرب إلى صلاة العشاء، وذلك ليجترئوا على الكذب ولا يلحقهم حياء، وربَّما خافوا التضاحك أو التبسُّم، وفي الليل يتشدَّدون[1] عن ذلك، أو وصلوا في ذلك الوقت وهو عشاء يومهم الذي خرجوا فيه، وقيل: عشاء يوم آخر، عشاء اليوم الرابع لِمَا مرَّ أنَّهم رعوا حول البئر ثلاثة أيَّام، كذا قيل، ولَمَّا بلغوا منزل يعقوب بكوا وصرخوا ففزع فقال: سألتكم بالله هل أصابكم شيء؟ وأين يوسف؟.

﴿**قَالُواْ يَآ أَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا**﴾ ثيابنا وطعامنا وما صحبنا ولم نفرِّط فيه لأنَّه يتمتَّع به ولأنَّه قريب المسافة إلينا ﴿**فَأَكَلَهُ الذِّيبُ وَمَآ أَنتَ بِمُومِنٍ**﴾ بمصدِّق ﴿**لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ**﴾ في كلامهم ما يشعر بخيانتهم، والمراد: ولو كُنَّا صادقين في قولنا: أكله الذئب، أو ولو كنا صادقين عندك في غير أمر يوسف فكيف لو كُنَّا نكذب معك في غير أمره؟ فبأولى تكذِّبنا في أمره، ولا سيما مع إفراطك في حبِّه وسوء ظنِّك بنا.

[لغة] و﴿نَسْتَبِقُ﴾ بمعنى نتسابق، كاجتوروا بمعنى تجاوروا، ويختلفون بمعنى يتخالفون، كلٌّ يريد أن يسبق الآخر في السرعة بالمشي على الأقدام للهروب مِمَّا يحلُّ لنا الهروب منه، وللحوق ما فَرَّ عنَّا أو أردنا إدراكه، أو للتحرُّف لقتال، أو في الرمي بالسهام، أو في أعمال نتوزَّعها من سقي ورعي واحتطاب، أو في الصيد، أو في مدافعة الذئب الذي يأكله.

---

(1) في الطبعة العُمانية: يتستَّرون.

وذلك كذب صريــح. وقيل عرَّضوا بردِّ هاء «أَكَلَـهُ» للمتاع، على أنَّه أكل متاعـا تحقيقا وإلَّا لـم يخرجوا به عن الكـذب، وأوهموا يعقـوب ردَّه إلى يوسف، وليس كذلك، لأنَّهم في ذلك الحال لا يبالون بكذب ينفذ عنهم.

[نحو] ﴿وَجَـآءُوا۟ عَلَـى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَـذِبٍ﴾ أي ذي كَـذِبٍ على أنَّه مصدر، أو بدم كاذب جدًّا على أنَّه صفة مبالغة، أو صفة للنسب، أو وصف بأنَّه نفس الكذب مبالغة. و«عَلَى قَمِيصِهِ» حال من «دَمٍ». أجاز بعضٌ تقديم الحال على صاحبها المجـرور بحرف ولو كان الحرف غيـر زائد، وأجازه بعض بشـرط أن يكون الحال ظرفا كما هنـا، ولا يتعلَّق بـ«جَـآءُوا» لأنَّ المجيء ليس على القميص إنَّما يقال: جـاء على الفرس مثلا، وذكر بعض أنَّه لا بأس بذلك، وأنَّ المعنى: أتوا به فوق القميص، وهو تخيُّل لا يصحُّ، فإنَّه في هذه العبارة للحال لأنَّهم لم يمشوا فوق القميص حقيقة ولا مجازا. ويجوز أن يتعلَّق بـ«جَآءُوا» على معنى الاسـتواء. ومعنى كذبه أنَّه ليس دم يوسف مع أنَّه دم تحقيقا.

[قصص] روي أنَّهم ذبحوا سخلة، وقيل: ظبيا، ولطَّخوا القميص بدمها، وقالوا: هذا دم يوسف، وذهلوا عن أن يخرقوا القميص، أو يثقبوه، ولم يوفَّقوا في كلِّ حيلاتهم إلى حيلة تصـحُّ في النظر، ألا ترى كيـف أنَّهم فتحوا باب الكذب في قولهم: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُومِنٍ لَّنَـا﴾، ولَمَّا جاءوا بالقميص ألقاه على وجهه وبكى حتَّى خضَّب وجهه بدم القميص، وقـال إنكارا عليهم: ما رأيت كاليوم ذئبا أحلم من هذا، أكل ابني ولم يمزِّق عليه قميصه!. ويروى أنَّهم أتوا بذئب وقالوا: هذا هـو الذي أكله، فقال يعقوب عليه السلام: أيُّهـا الذئب أنت أكلت ولدي وثمرة فؤادي؟ فأنطقـه الله عز وجل وأفهمه فقال: والله مـا أكلت ولدك ولا رأيته قطُّ ولا يحلُّ لنا أن نأكل لحوم الأنبياء، فقال له: وكيف وقعت في أرض كنعان؟ فقال: جئت لصلة الرحـم وهي قرابة لي فأخذونـي وأتوا بي إليك،

فأطلقه يعقوب، وفيه وعظ لهم في قطع الرحم وهم عقلاء، وقد وصلها الذئب من بعيد[1]، والذئب توهَّم أنَّهم أنبياء، أو أراد لحوم أولاد الأنبياء، أو لحوم الأنبياء يوسف والأنبياء قبله أو بعده.

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمُۥٓ أَنفُسُكُمُ﴾ زيَّنت أو سهَّلت، من التسويل بمعنى جعل الشيء مسترخيا أو تقدير الشيء في النفس مع الطمع في إتمامه والحرص ﴿أَمْرًا﴾ عظيما وهوَّنتموه، لم يأكله الذئب ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أي فأمري صبر جميل، أو فصبر جميل أمري، أو فصبر جميل أجمل، أو فالذي أفعله صبر جميل، أو عليَّ صبر جميل، وفي الحديث: «**الصبر الجميل الذي لا شكوى فيه**»[2] أي لأحد غير الله ولا جزع، وأمَّا إلى الله على التضرُّع فجائز ولو بلغ من الرضا أن لا يشكو إليه ﷻ أو إلى أن يفرح به لكان أولى. ومراد يعقوب أن لا يشكو لأحد لا أن يشكو ولو إلى الله لقوله: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيَ إِلَى اللهِ﴾ [سورة يوسف: 86].

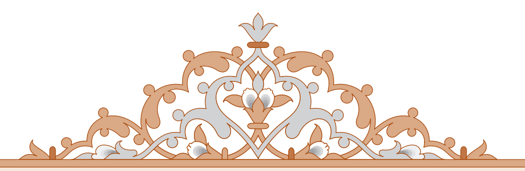
[قصص] روي أنَّه سقط حاجباه على عينيه، فكان يرفعهما بعصابة، فقال له جبريل أو غيره: ما هذا؟ فقال: طول الزمان وكثرة الأحزان، فأوحى الله ﷻ إليه: يا يعقوب أتشكوني؟ فقال: يا ربِّ؛ خطيئة فاغفرها لي. وروي أنَّه لَمَّا قال: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيَ إِلَى اللهِ﴾ قال له جبريل عليه السلام: ربُّك أعلم بك.

﴿وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ﴾ المطلوب منه الإعانة ﴿عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ على تحمُّل ما تصفون، على ما تصفونه من موت يوسف، أو على وصفكم لموته، وذلك أنَّه جزع بتصوُّر وصفهم، لا بتحقيقه لأنَّه غير متحقِّق، وإنَّما جزع بتصوُّره،

(1) ولعلَّ لأجل هذه الموعظة أورد الشيخ هذه الأحجية الغريبة.

(2) أورده **السيوطي** في الدر، ج 4، ص 12، وقال: أخرجه ابن أبي حاتم عن الحسن بن علي.

لأنَّه يتضمَّن تفريقا بينه وبين يوسف، والوصف تارة كاذب، كما في الآية وفي قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [سورة الصافات: 180]، وتارة صادق. ومعنى استعانته بالله ﷻ: طلب إظهار كذبهم كما قال بعد قوله بعدُ: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾: ﴿عسَى اللهُ أَن يَّاتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾. وقيل: الاستعانة على تحمُّل ما تصفون من موته.



﴿وَجَآءَتۡ سَيَّارَةٞ فَأَرۡسَلُواْ وَارِدَهُمۡ فَأَدۡلَىٰ دَلۡوَهُۥۖ قَالَ يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ١٩ وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۢ بَخۡسٖ دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ٢٠﴾

نجاة يوسف وإكرامه في بيت العزيز

﴿وَجَآءَتۡ﴾ بعد ثلاثة أيَّام، وقيل: في اليوم الثاني ﴿سَيَّارَةٞ﴾ جماعة مسافرون سمُّوا سيَّارة لسيرهم في الأرض، ساروا من مدين إلى مصر أو من جهتها، وهي قريبة من مصر فأخطؤوا الطريق، أو قصدوا الجبَّ ونزلوا قريبا من الجبِّ، واختير أنَّها على طريقهم وهي في قفراء بعيدة عن العمران، تردها المارَّة والرعاة، ولو كان ملحا لعزَّة الماء في القفار، ولَمَّا كان فيها يوسف عذُب.

﴿فَأَرۡسَلُواْ وَارِدَهُمۡ﴾ تذكير للمعنى، ولو قال: فأرسلت واردها لكان على اللفظ، والوارد: الذي يرد الماء ليستقي، أضيف إليهم لأنَّه منهم ويستسقي لهم وله، وهو مالك بن ذعر الخزاعي من أهل مدين. ﴿فَأَدۡلَىٰ دَلۡوَهُۥ﴾ أرسلها إلى أسفل ليملأها ماء، فتعلَّق بها يوسف أو بحبلها فأخرجه، وكان الحبل قويًّا أو ضعيفا والله قادر، وذلك ـ كما مرَّ ـ بعد ثلاثة أَيَّام، وبكت البئر وجدرانها وما فيها حين أخرج. فإمَّا أن يمتلئ الدلو فيرفع معها أو منعها من الامتلاء ﴿قَالَ يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞ﴾ أحضري هذا أوان حضورك.

[بلاغة] نزَّلها منزلة العاقل، ورمز لذلك بلازم العاقل، وهو النداء، فذلك مكنيَّة وتخييليَّة وتجوز التمثيليَّة، والبشارة لنفسه أو له ولقومه، وقيل: بُشرى

اسم لصاحبه أضافه لنفسه، أو خادم أو غلام له وناداه ليعينه على حمله، وهذا على أنَّه رآه قبل الرفع أو في حاله، وخاف أن يسقط أو يعجز، أو حين وصل فم البئر ليعينه على الرفع، وعلى الإخراج من فم البئر، وقيل: المنادى محذوف، أي يا قوم اسمعوا بشراي، يقول هذا ولو كانوا لا يسمعونه، ولا يحبُّ سماعهم، ويقوله ولو قولا خفيًّا كما أَسَرُّوه عن سائر الرفقة، والغلام بعد الحولين إلى البلوغ.

[قصص] وكان يوسف أحسن ما يكون من الغلمان أعطي شطر الحسن وورثه من جدَّته سارة، وقد أعطيت سدس الحسن، وعن محَمَّد بن إسحاق: ذهب يوسف وأمُّه بثلثي الحسن، وكان يشبه آدم عليه السلام قبل أن يأكل من الشجرة، فكان حسن الوجه والشعر ضخم العينين، مستوي الخلق أبيض اللون، غليظ الساعدين والعضدين والساقين، خميص البطن صغير السرَّة، إذا تبسَّم ظهر النور من ضواحكه، وإذا تكلَّم ظهر من ثناياه ولا يستطاع وصفه.

﴿**وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً**﴾ أسرَّه السيَّارة: مالك بن ذعر وأصحابه، أي أخفوه عن باقيهم، فإنَّه ليس كلُّ السيارة أسرُّوه، فالآية حكم على المجموع. و«بِضَاعَةً» حال لتضمُّن معنى مجلوب للتجر، أو مبضوعا أي مقطوعا للتجر، أو مفعول ثان لـ«جعل» محذوف، أي جاعليه بضاعة.

والمراد أنَّهم أخفوا أمره وقالوا لباقيهم: أعطاناه أهل الماء لنبيعه في مصر، والثمن لهم، وقالوا ذلك لئلَّا يطلبوا منهم الشركة، وقيل: أخفوا ذات يوسف فلم يقولوا: وجدناه، ولو قالوا: رفعناه من البئر أو استبضعناه لطلبوا الشركة فيه. وعن ابن عباس: أَسَرَّه إخوته أي أخفوا أنَّه أخ لهم، أتاه يهوذا على عادته ليدلي إليه الطعام في البئر على عادته فوجده مع رافعه منها، أو وجده في الرفقة فأخبر إخوته، وقد رجعوا إلى الجبِّ يتفقَّدون حال يوسف، فجاءوا فقالوا هذا عبد أبق مِنَّا، فاشتراه السيَّارة، وعلى هذا يكون الواو للإخوة،

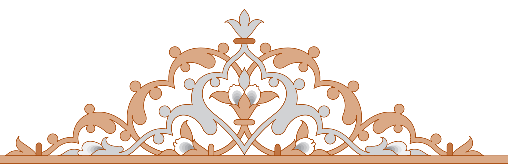
ويعارضه قوله: «بضاعة» فإنَّ إخوته لم يجعلوه بضاعة، إلَّا أن يقال: إنَّهم قالوا إنَّه غلام لهم أتوا به بضاعة فأبق، ولم ينكر العبوديَّة لأنَّهم قالوا له بالعبرانية إن أنكرت العبودية قتلناك.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أي بما يعمل السيَّارة من تملُّك الحرِّ وبيعه، أو بما يعمل إخوة يوسف من إلقائه في البئر ودعوى أنَّه عبد لهم، وبيعهم إيَّاهُ، وغير ذلك مِمَّا فعلوا بيوسف وأبيه، أو بما يعمل السيَّارة من دعوى عُبُودِيَّته، وما يعمل الإخوة من إلقائه في البئر وغير ذلك، أو بعاقبة ما عملوا كلُّهم، وهي ما يجري له في مصر مع زليخاء والسجن، وكونه ملكا يرحم الله به العباد والبلاد في قحط الإسلام والطعام.

﴿وَشَرَوْهُ﴾ باعوه، عطف على «أَسَرُّوهُ»، والضمير للوارد ومن معه، باعوه في مصر أو اشتروه من إخوته، وعليه فالشراء مقابل البيع، أو للإخوة باعوه للوارد ومن معه، لَمَّا رأوه ضربوه وشتموه وقالوا: هذا عبد أبق مِنَّا، فاشتراه مالك بن ذعر ﴿بِثَمَنِۢ بَخْسٍ﴾ مبخوس لزيفه بنحاس مثلا، أو لنقصه وزنا أو لزيفه ونقصه معا، أو لكونه ثمن حرٍّ، وهو حرام والحرام بخس، أي ناقصة البركة. ﴿دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ بدل من «ثَمَنٍ»، ومعنى معدود قليلة، قيل: كانوا يزنون ما بلغ الأوقية، ويعدُّون ما دونها، والأوقية أربعون درهما، قيل: كان عشرين درهما وقيل: اثنين وعشرين، وعلى كلِّ حال هو مِمَّا يعدُّ لأنَّه دون الأوقية.

﴿وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ الزَّٰهِدِينَ﴾ «فِيهِ» متعلِّق بـ«الزَّاهِدِينَ» ويناسبه القول بأنَّ «ال» في الأوصاف حرف تعريف، ولو كانت موصولة للزم تقدُّم معمول الصلة عليها، ويجاب بأنَّ الظرف يتوسَّع فيه، أو يقدَّر: وكانوا زاهدين فيه من الزاهدين، أي من جملة الزاهدين، أو من الزاهدين فيه من الزاهدين، والثاني توكيد.

والزهد فـي الشـيء وعنه: الإعـراض عنه. فـإن كان الضميـر لإخوته فإعراضهم ظاهر، لأنَّهم أرادوا إهلاكه، فهـو عندهم هيِّن يباع ببخس، ويقال: باعوه وقالوا لمشـتريه: قيِّده إنَّه أبق فقيَّده، وإن كان للوارد ومن معه والشراء بمعنى البيع فزهدهم لأنَّهم التقطوه، والملتقط للشـيء يبـادر البيع بما وجد لِئَلَّا ينتزع منه، وإن كان بمعنى الشـراء ضـدَّ البيع فالزهد فيـه لقول إخوته البائعين له إِنَّهُ أبق فلا يحرصون في شرائه بثمن غال.



﴿وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢١ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٢٢﴾

يوسف عند ملك مصر وإيتاؤه النبوءة

﴿**وَقَالَ الذِي اشْتَرٰيهُ**﴾ من بائعه الذي هو مالك بن ذعر، ومشتريه ملك مصر، التقطه مالك فاشتراه من إخوته فباعه في مصر فاشتراه ملك مصر، وهو العزيز الذي على خزائن مصر، قطفير أو أطفير، والملك فوقه هو ريان بن الوليد العمليقي، آمن بيوسف ومات في حياته، وقيل: اشتراه خباز الملك وصاحب شرابه وسجنه، وملك بعد ريان المذكور قابوس بن مصعب، فدعاه يوسف إلى الإيمان فأبى.

﴿**مِن مِّصْرَ**﴾ أي من أهل مصر، أو في مصر لأنَّ السيَّارة جاءوا به إلى مصر فاشتراه بعض أهل مصر.

[قصص] روي أنَّه اشتراه وهو ابن سبعة عشر عاما، وقيل: ابن اثني عشر عاما، وقيل: ابن خمسة عشر، ولبث في منزل العزيز ثلاثة عشر عاما، وكان وزيرا للريان وهو ابن ثلاثين، وآتاه الله الحكمة وهو ابن ثلاث وثلاثين، ومات وهو ابن مائة وعشرين، ومدَّته في السجن سبع سنين، معدودة عند بعض من مدَّة لبثه عند العزيز. وقيل: فرعون موسى عاش إلى وقت موسى

أربعمائة سنة وهو باطل، لأنَّ بين يوسف وموسى أكثر من ذلك، وعلى هذا القول يكون المراد في قوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ﴾ [سورة غافر: 34] أنَّ يوسف بن يعقوب حيي إلى زمان فرعون موسى، وقيل: فرعون موسى من أولاد فرعون يوسف، وهذا الشراء بعشرين دينارا ونعلين، وثوبين أبيضين، وقيل: وزنه فضَّة، وقيل: ذهبا، وقيل: حريرا، وقيل: مسكا، وقيل: هذا الشراء هو الشراء الأوَّل بثمن بخس لا شراء آخر التقطه فباعه في مصر.

﴿لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاٰهُ﴾ هي زليخاء بفتح فكسر أو بضم ففتح، وقيل: راعيل، ويقال: هما امرأة واحدة، وأحد اللفظين اسم لها وهو راعيل والآخر لقب وهو زليخاء، وقيل بالعكس. والمثوى: المقام، اجعلي مقامه حسنا بتعهُّده بالطعام الحسن واللباس الحسن، وعدم استخدامه، ﴿عَسَىٰٓ أَنْ يَّنفَعَنَآ﴾ بطريق العُبُودِيَّة، من الاستخدام للرعي والسقي والحرث وسائر المصالح.

﴿أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ نصيِّره كولد نرفِّهه ولا نستخدمه، وذلك في مقابلة قوله: «يَنفَعَنَا» وإلَّا فالولد ينفع والديه بالخدمة أيضا. و«أو» لمنع الخلوِّ، وهو الصحيح، وقيل: لمنع الجمع على معنى: عسى أن نبيعه وننتفع بثمنه، وإنَّما قال ذلك لِمَا تفرَّس فيه من الأدب والرشد مع شدَّة شوقه للولد، وكان عقيما، وروي أنَّه لا يشتهي النساء.

أخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة والحاكم وصحَّحه عن ابن مسعود موقوفا: «أفرس الناس ثلاثة: عزيز مصر إذ عزم أن يتبنى يوسف، وابنة شعيب إذا قالت: يا أبت استأجره، أي لما رأت من قوَّته وورعه، وأبو بكر حين استخلف عمر»[1]، وقوله عزم مراعاة لِمَا رأى من عاقبة الأمر، وهي التبنِّي وإلَّا فالآية احتمال، ولعلَّه جعل «أَوْ» بمعنى بل.

---

(1) رواه **الحاكم** في المستدرك كتاب التفسير (12) تفسير سورة يوسف عليه السلام رقم 3320 (457). من حديث ابن مسعود.

[لغة] والفراســـة: خاطر ينشــأ من قُوَّة الإيمان يهجم على القلب فينفي ما يضادُّه، فإنَّ لقلــب المؤمن نورا يدرك به ما هو باطــن، لا دليل عليه، قال ﷺ: «**اتَّقوا فراســـة المؤمن فإنَّه بنور الله يبصر**»[1]، كذلك قيل في تعريف الفراســة، وهو غير جامع، فإنَّ الفراســة لا تختصُّ بالمؤمن، كمــا أنَّ العزيز إذ ذاك غير مؤمن، فالأَولى أنَّ الفراسة التفطُّن الغامض، فالفراسة خاطر ينشأ من قُوَّة الفهم.

[قصص] وقيل: سأله مالك بن ذعر بعدما باعه من أنت؟ وابن من أنت؟ فأخبره، فقال: لو علمت لم أبعك، فســأله الدعاء فدعا لــه بالبركة، فحملت امرأته اثني عشر بطنا في كلِّ بطن غلامان.

﴿**وَكَذَٰلِكَ**﴾ كما مكَّنا محبَّته في قلب العزيز بحيث لا يصبر عنه، أو كما مكَّنا له في منزل العزيز بمعنى جعلنا له مأوى كريما في منزل العزيز، أو كما أنجيناه من كربة الجبِّ، وعطفنا عليه قلب العزيز ﴿**مَكَّنَّا لِيُوسُــفَ**﴾ وإنَّما لم يقل: مكَّنا له لأنَّه لم يذكر يوســف فــي قوله: ﴿وَكَذَالِــكَ﴾. ﴿**فِي الَارْضِ**﴾ جعلنا له في ســائر الأرض مَكَانَ قَبُولٍ ووجاهة وملك وتصــرُّف ﴿**وَلِنُعَلِّمَهُ**﴾ عطف على محذوف، أي ليتصرَّف فيها بالعدل وَلِنُعَلِّمَهُ، أو لنملِّكه ولنعلِّمه، أو وفعلنا لنعلِّمه ﴿**مِن تَاوِيلِ الَاحَادِيثِ**﴾ والواضح أنَّ اللام للعاقبة، أو يقدِّر: أصبنا يوســف بتلك المصايب لنعلِّمــه، أي لنثيبه عليهــا بالتعليم، أو تجعل الكاف للتعليل. والإشارة لِمَا أصيب به يوسف، أي مكَّنا له في الأرض لذلك الذي أصابه، وأصابه ذلك لنعلِّمه، وأمَّا ما مرَّ من جعل التعليم علَّة للتمكين، فلا يظهر تقديم التمكين معلولا للتعليم بعده.

والمراد تأويل الرؤيا أو تفســير ما أدركه من كتب الله وكلام الأنبياء قبله، وليس المراد بـ«مِن» القِلَّة، بل المراد تعلُّمه جملا من التأويل، ولو كان «مِن»

(1) تقدَّم تخريجه، انظر: ج 6، ص 201.

للتبعيض، وإن جعلت للقلَّة فالنسبة إلى سعة علم الله ﷻ، والمعنى: وليعلم من تأويل الأحاديث، وَلكن لمَّا كان العلم لازما للتعليم ومسبَّبا له عَبَّرَ عنه بالتعليم، **فبعلمه يدبِّر مصالح العَامَّة والخاصَّة بالعدل**، ومن ذلك تفسيره الرؤيا بسبع سني القحط.

﴿**وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِ**﴾ على أمر الله لا يمنعه عنه شيء، ولا ينازعه فيه أحد، وذلك على الإطلاق، وشمل أمر يوسف، أو المراد: لا يرده أحد عَمَّا شاء في شأن يوسف من إعلاء منصبه، حتَّى كان سعي إخوته في كيده سعيا في علوِّ شأنه، وعلى هذا فالهاء لله أو ليوسف ﴿**وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ أنَّ الله غالب على أمره لا شيء منه لأحد، فيتوهَّمون وقوع ما لم يرد وقوعه، كالمشركين والمعتزلة، أو يقتصرون على ما يظهر لهم فيقصدونه ولا يعلمون ما يتولَّد منه، وما يصرفه الله إليه، وقليل من الناس علم ذلك، وقيل: ﴿أَكْثَرَ النَّاسِ﴾: المشركون، وقيل: أهل مكة، وقيل: أهل مصر، وقيل: المراد بالأكثر الكلُّ، لكن على معنى أنَّه لا يُطلع أحدا على الغيب.

﴿**وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ**﴾ زمان أشدِّه، والأشدُّ قُوَّة الجسم ما بين الثلاثين والأربعين، وقيل: سنُّ الشباب وأوَّله البلوغ، وقيل: ثلاثون سنة، وقيل: ثلاث وثلاثون، وقال القاضي النحوي محمد بن علي بن علي بن أبي طالب: خمس وثلاثون وتمامه أربعون، وقيل: سبعة عشر عاما إلى نحو أربعين، وقيل: ثلاث وعشرون، وقيل: إحدى وعشرون، وقيل: عشرون، وقيل: ثمان وثلاثون، وعن الحسن: أربعون، وقيل: أقصى الأشدِّ سِتُّونَ، وعن الحسن: يقف الجسم عند الأربعين، وقيل: يقف عن النموِّ بين الثلاثين والأربعين.

[صرف] والأشدُّ: مفرد على وزن الجمع بنقل الضمَّة من الدال المدغمة إلى الشين، وعن سيبويه: جمع شِدَّة، الجمع شاذٌّ، كنعمة وأنعم، قال الكسائي والفراء: جمع شَدٍّ، كصكٍّ وأصُكٍّ، فيجب تأنيثه على هذا، وعلى قول إنَّه جمع لا واحد له.



قال بعض المُتَأَخِّرين: لم يقل: «واستوى» كما قال في موسى لأنَّه بلغ الأربعين ولم يبلغها يوسف حينئذ.

﴿ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا﴾ إيقان العلم وردُّ النفس عن هواها، وإتقان العمل، أو الحكم: النبوءة، **والعلم بلا عمل سفهٌ**، ولا منتهى للتعلم إلى الموت، خرج جابر بن زيد رَحِمَهُ اللَّهُ [1] يتَّكِئ وهو ابن سبعين سنة، فقيل له: أين تذهب يا أبا الشعثاء؟ فقال: **أتعلَّم ديني**.

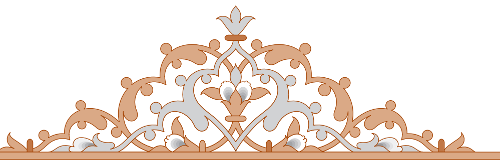
أو المراد: الحكم بين الناس كان يقضي بين الخصوم، والأوَّل أولى لعدم ظهور إعطاء الحكم بين الناس في وقت شدَّة قوَّته، فإنَّ الأولى في هذا عدم التقييد بكمال القُوَّة.

﴿وَعِلْمًا﴾ تأويل الرؤيا، وتفسير كتب الله وكلام الأنبياء، والفقه في الدين، وعن ابن عَبَّاس: الحكم النبوءة، والعلم علم الشريعة، وقيل: الحكمة الحكم بين الناس، والعلم معرفة وجوه المصالح.

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ يفيد أنَّ الله ﷻ أعطاه ذلك جزاء على إحسانه، أي نجزي المحسنين مثل ذلك الجزاء دون غيره، مِمَّا يضعف أو لا يعبأ به، وإحسانه عبادته وعصيان نفسه حين كان قويَّ الشباب، واجدًا لكلِّ ما يلتذُّ به، وهو شابٌّ نشأ في عبادة الله والورع، **ومن عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم**، كما قال الحسن: من أحسن عبادة الله تعالى في شبابه آتاه الله تعالى الحكمة في اكتهاله.

---

(1) جابر بن زيد الأزدي البصري أبو الشعثاء، تابعي فقيه من الأيمة، من أهل البصرة أصله من عُمان، صحب ابن عَبَّاس وغيره من الصحابة، وكان من بحور العلم، وصفه الشمَّاخي بأنَّه أصل المذهب وأسُّه الذي قامت عليه آطامه، نفاه الحجَّاج إلى عُمان. وفي كتاب الزهد للإمام أحمد: «لَمَّا مات جابر بن زيد قال قتادة: اليوم مات أعلم أهل العراق». توفِّي سنة 93هـ. الأعلام للزركلي، ج 2، ص 140.



﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٢٤ وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٥ قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٢٦ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٢٧ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ ٢٨ يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ ٢٩﴾

يوسف وامرأة العزيز

﴿وَرَٰوَدَتۡهُ﴾ طالبته من راد يرود إذا جاء وذهب، أو رفق في طلب شيء.

[صرف] وكان بصيغة المفاعلة بين اثنين مع أنَّ يوسف لم يطلبها للمبالغة، أو عبَّر بصيغة المفاعلة بين اثنين تنزيلا للسبب ـ الذي هو جمال يوسف، وكونه مملوكا لها ولزوجها، وكونه في دارها ـ منزلة المسبَّب وهو الطلب، كمطالبة الدائن ومماطلة المدين فإنَّه لا مطالبة للمدين، ولا مماطلة للدائن، ومداواة الطبيب للمريض فإنَّه لا مداواة للمريض، لكن لَمَّا كانت دواع من المدين والدائن، والمريض، نُزِّلت منزلة المفاعلة؛ أو ذلك مراعاة لكونها طلبت منه الفعل، وطلب منها الترك؛ أو المعنى: لَايَنَتْه مخادعةً له

ليطاوعها، والمفاعلة على بابها لأنَّه أيضا لاينها في الامتناع منها إذ امتنع بلا ضرب لها؛ أو للمبالغة.

﴿التِي هُوَ﴾ أي يوسف ﴿فِي بَيْتِهَا﴾ ولم يذكر اسمها كزليخاء أو راعيل سترا عليها، ولاستهجان ذكرها، ولكراهة جمع الزاي والخاء. وفي قوله: ﴿بَيْتِهَا﴾ إعلان عظيم بنزاهة يوسف وورعه، إذ كان في بيتها برضاها وخلوه بها مع أنَّها المطالبة له، ومع جمالها وملكها له لم يوافقها. وأضاف البيت إليها مع أنَّه للعزيز فيما يظهر لأنَّ النساء يلزمن البيت، ويقمن بمصالحه، كما قال الله ﷻ: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ [سورة الأحزاب: 33] ﴿عَن نَّفْسِهِ﴾ عدَّى «رَاوَدَ» بـ«عَنْ» لتضمُّنه معنى المخادعة، بمعنى أنَّها طالبته بأن تنتقل عنه إليها نفسه الأمَّارة بالسوء، أو ذاته فيواقعها.

﴿وَغَلَّقَتِ الَابْوَابَ﴾ التشديد للمبالغة بأن أغلقتها إغلاقا عظيما، أو للتكثير بأن أقفلتها بقفلين أو ثلاثة مثلا، أو أسندت إليها من داخل ما لا يطاق من خارج، أو لكثرة الأبواب، وقد قيل: إنَّها سبعة وأغلقتها كلَّها وذلك كثير، ولو كانت ثلاثة أو أكثر مِمَّا هو دون جمع القلَّة.

ولا يخفى أنَّ في جعل الأبواب بابا، أو أنَّ كلَّ جزء من الباب باب، ودعوى أنَّ إغلاقه بأقفال تنزيلا بمنزلة تعدُّد الباب تكلُّف، كتكلُّف من قال بزيادة الواو في ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ﴾. وقيل: أغلقت باب الحجرة وباب الدار وهما في الحجرة، ووجه المبالغة بالتشديد أنَّه يجوز أغلقت الأبواب بالهمزة وعدِل عنه إلى التشديد، كذا قيل، ولا أسلِّم أنَّ ذلك مبالغة سوى أنَّه تشديد كتشديد المبالغة، وإن صحَّ أنَّ غَلَقت الباب بالتخفيف جائز فصيح فالمبالغة ظاهرة في التشديد، وإلَّا فلا يحمل القرآن على اللغة الرديئة ببناء التشديد عليها.

﴿وَقَالَتْ هِيتَ﴾ اسم فعل بمعنى أقبل مبادرا، أو تهيأت، فعلى الأوَّل اسم فعل الأمر، وعلى الثاني اسم الفعل الماضي، أخبرت عن نفسها بأنِّي

قد تهيَّأت لك، وهو لفظ عربيٌّ لا سريانيٌّ كما قيل عن ابن عَبَّاس، ولا قبطيٌّ كما قيل عن السدِّيِّ. ﴿لَكَ﴾ اللام للبيان كأنَّه قيل: أمري بالإقبال هو لك، أو خُطايَ لك، أو هذا الكلام مقول لك، أو تهيُّئِي لك. وحرف الجر لا يتعلَّق باسم الفعل، وقيل: يتعلَّق، فيجوز أن يعلَّق «لَكَ» بـ«هِيتَ» فيجوز أن تقول: صه لي.

﴿قَالَ مَعَاذَ اللهِ﴾ مصدر ميميٌّ بمعنى عياذة الله، وأصله: أعوذ بالله معاذا، أي أعتصم به اعتصاما عن الزنى مطلقا، ولا سيما بزوج سيِّدي، وحذف الفعل وناب عنه «مَعَاذَ»، وأخِّر لفظ الجلالة وأضيف إليه. ﴿إِنَّهُ﴾ أي العزيز زوجك، دلَّ عليه بالمقام، أو إنَّ الشأن، أو إنَّ الله ﴿رَبِّيَ﴾ خبر «إِنَّ» على أنَّ الهاء للعزيز أو لله ﴿أَحْسَنَ مَثْوايَ﴾ خبر ثان، أو خبر «رَبِّي» بدل أو بيان، وعلى الشأن فـ«رَبِّي» مبتدأ، أحسن الله مقامي فلا أعصيه بالزنى، أو سيِّدي فلا أخونه في زوجه، وقد قال لها ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾، وكذلك يقول أحسن الله مثواي بالعزيز، ويترجَّح ردُّ الهاء لله تعالى، لأنَّ المتبادر أنَّه عليه السلام لا يطلق على مخلوق أنَّه ربُّه ولو احتمل أنَّه أراد العزيز بمعنى السَّيِّد فإنَّه اشتراه.

﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ لأنفسهم بالزنى، أو لأصحاب الأزواج بالزنى بأزواجهم، والمزنيُّ بها مظلومة في حقِّها عند الله، ولو أباحته، ولو لم يكن لها زوج أو متسَرٍّ، أو الظالمون مطلقا، فيدخل الظلم بالزنى بالأولى، ومن زنى بامرأة ولو مات زوجها عنها فقد ظلمه كرهت أو رضيت.

والإفلاح: الدخول في الفلاح، والفلاح دنيويٌّ وهو البقاء والغنى والعزُّ، وأخرويٌّ وهو البقاء والغنى والعزُّ والعلم الدائمات، ولذلك قيل: «**لا عيش إلا عيش الآخرة**»[1].

---

(1) رواه **البخاري** في كتاب مناقب الأنصار، (9) باب دعاء النبيء ﷺ: «أصلح الأنصار والمهاجرة» رقم 3795. و**الطبراني** في الكبير، ج 6، ص 166، رقم 5875.

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ﴾ قصدت منه المباشـــرة بعزم قويٍّ، حتَّى إِنَّهَا مدَّت يدها وقصـــدت المعانقة، ويوقف هنا ويبدأ بقولـــه: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَـوْلآ أَن رّءا بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ فهو لم يهمَّ بها لأنَّه رأى برهان ربِّه، ولولا للامتناع وهو نفي، كأنَّه قيل: لولا أن رأى برهان ربِّه لهمَّ بها، وربُّه الله.

وقوله: ﴿رَبِّيَ﴾ بمعنى الله فالمعرفة عين الأولى، وإن كان ﴿رَبِّيَ﴾ بمعنى العزيز زوج زليخاء فمن المعرفـــة المعادة مغايرة للأولـــى، إلَّا أن يراد مطلق الملك والســـيادة، ولو كانـــت لله حقيقة ولغيره توسُّـــعا، فالأولـــى أن يجعل ﴿رَبِّيَ﴾ بمعنى الله، لبعد أن يقرَّ نبيء الله بأنَّه عبد لمخلوق، أو تحت حكمه.

وقيل: إنَّ يوسف همَّ بها بالطبع، ولا يكلَّف عليه لأنَّه ضروريٌّ فلا عقاب عليه ولا ذمَّ، بـــل مدح لكونه عصى هذا الهمَّ لله ﷻ، أو شـــارف الهمَّ بها بأن يميل ولم يمل، كمن صام رمضان واشـــتدَّ عليه العطش، فنفسه يعجبها الشرب ولم يقصد أن يشرب، سمَّى ما ليس همًّا بهمٍّ للمشاكلة[1]، وعلى هذين فجواب «لَوْلَا» محذوف لـــم يتقدَّم ما يغني عنـــه، أي لولا أن رأى برهـــان ربِّه لفعل، وعلى هذين يوقف على ﴿هَمَّ بِهَا﴾ لا على ﴿هَمَّتْ بِهِ﴾، وما ذكرته أولى.

[نحو] ولا يقال لو كان البدء بـ«هَمَّ بِهَا» لقرن بلام الجواب إذ كان مغنيا عن جوابها، لأنَّا نقول: إنَّما يقرن جوابها المتأخِّـــر لا مغن عنه متقدِّم، مع أنَّ قرن جوابها باللَّام غير واجب، ولســـنا نقول إنَّه جواب مقدَّم وجواب لولا لا يقدَّم، ولَمَّا كان مغنيا عن جوابها صحَّ الاســـتقبال له، كمـــا تقول: قام زيد إن قمت، تريد يقوم زيد إن قمت.

وحرم ما قيل: إنَّه همَّ بها وحلَّ ســـراويله، وما قيل: إنَّه قعد بين رجليها، والقول بذاك في نبيء فســـق، والحجَّة فـــي ذلك عصمة الأنبيـــاء قبل البعثة

(1) وهذا الوجه يوافق ما جبلت عليه الطبيعة البشرية والأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بشر لا ملائكة.

وبعدها، لا قوله: ﴿هِيَ رَٰوَدَتْنِي﴾ بل قوله: ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ﴾ لأنَّ ذلك سوء، وقوله: ﴿لَمَ اخُنْهُ بالْغَيْبِ﴾ [سورة يوسف: 52]، لأنَّ ذلك خيانة، ولا قوله: ﴿الَانَ حَصْحَصَ الْحَقُّ...﴾ [سورة يوسف: 51]، ولا قوله: ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ﴾ [سورة يوسف: 51] لأنَّها قد لا تعد حلَّ السراويل والقعود بين الرجلين سوءا لأنَّه ترك ذلك.

وبرهان ربِّه أنَّه مثل له يعقوب فضرب بيده صدره فخرجت شهوته من أنامله، أو قال له: أتعمل عمل السفهاء وأنت مكتوب في الأنبياء؟ أو انفرج سقف البيت فرآه عاضًّا على إصبعيه، أو رأى مكتوبا في حائط: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ الزِّنَىٰٓ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسآءَ سَبِيلاً﴾ [سورة الإسراء: 32]، أو إنَّها سترت حينئذ صنما لها فقال: لم؟ فقالت: حياء منه، فقال: أنا أحقُّ بالحياء من ربِّي، ففرَّ[1].

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أريناه البرهان إراءة مثل ذلك، أو عصمناه مثل ذلك، وهي نفس ذلك، فهذا تأكيد، ويجوز في مثل ذلك أن يشبه شأن الإخبار بشأن ما عنه الإخبار، ويجوز أن يراد الأمر كذلك، أو العصمة كذلك، ويجوز كون الكاف في ذلك ونحوه صلة، أي الأمر ذلك أو أثبتنا ذلك أو جرت أفعالنا أو أقدارنا، والفعل أولى لأنَّه أشدُّ مناسبة لتعليق اللام به من قوله:

---

(1) وردت زيادة في نسخة (أ) سنوردها مراعاة لأمانة النقل: «أو نودي: أتواقعها؟ مثلك ما لم يواقعها كطائر في الجو لا يطاق، وكثور صعب لا يطاق، وإن واقعتها فكطائر على الأرض مكسور الجناح لا يدفع عن نفسه، وكبقرة ذبحت لا تدفع عن نفسها، أو أنَّه رأى معصما بلا كف كتب عليه: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ فهرب ثمَّ رجع فعاد المعصم وعليه: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ الزِّنَىٰٓ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسآءَ سَبِيلاً﴾ فهرب، ثمَّ رجع فعاد المعصم وعليه: ﴿واتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ﴾ فهرب، ثمَّ رجع، فأوحى الله إلى جبريل: أدرك عبدي قبل أن يصيب الخطيئة، فانحطَّ جبريل عاضًّا على إصبعه يقول: يا يوسف أتعمل عمل السفهاء وأنت مكتوب عند الله من الأنبياء؟ وقيل: انحطَّ فمسَّه بجناحه فخرجت شهوته من أنامله، وما ذكر من الذهاب إليها لا يصحُّ عندنا ولو عقبه الرجوع».

﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَآءَ﴾ والإشارة إلى الرأي مصدر «رأى»، وهو مذكَّر لا إلى الرؤية بتأويل ما ذكر، ولم يقل: «لنصرفه عن السوء» للدلالة على كمال عصمته عليه السلام، حيث لم يتوجَّه إلى السوء والفحشاء قطُّ، ولا تأهَّل للتوجُّه إليهما، أو للقرب إليهما، وإنَّما توجَّه إليه ذلك من خارج فصرف عنه، ولكن المتعارف الصرف عن العقلاء لا صرفهم عن غيرهم، غير أنَّه قد ورد مثل ذلك، كما يقال: كفَّه الله عن المعصية، وأخلصه منها.

والسوء: خيانة الزوج، والفحشاء: الزنى، أو السوء: مقدمات الزنى من النظر والقبلة والمس، وذلك مناسب للحال والمقام، ويجوز أن يراد مطلق السوء والفحشاء، فيدخل ما ذكر في العموم، أو هما واحد سمِّي سوءًا من حيث إنَّه ضارٌّ، وفحشاء من حيث قبحه، ويناسب هذا قولها: ﴿بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾.

﴿إِنَّهُ﴾ تعليل جملي أي لأنَّه ﴿مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ الذين اصطفيناهم للعبادة على الإطلاق، وهو أيضا من ذرِّيَّة إبراهيم، ومن قوله: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [سورة الحجر: 40] ومن قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَاهُمْ﴾ [سورة ص: 46].

﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ﴾ تسابقا إليه، فهو من الافتعال المراد به التفاعل، أرادت السبق لتجبذه وتمنعه من الخروج وفتح الباب، وأراد السبق للفتح والخروج. وعُدِّي لتضمُّن معنى قَصَدَا وبادَرَا، ويقدَّر «إلى»، والمراد الباب الواحد، لأنَّه قال: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ﴾ فبقي أن يقال: كيف يلفى لدى الباب الأوَّل إلى جهة البيت مع أنَّه أغلقت أبوابا أو بابين بعده، ولعلَّه كان لها مفاتح من خارج وداخل ففتحها من خارج، حتَّى وصل بابا يلي البيت فألفياه عنده، أو الأبواب واحد سمِّي أبوابا لتعدُّد أقفاله مجازا، أو فتحها كلَّها لقوَّة الرجوليَّة، وإعانة الله حتَّى لم يبق إلَّا الأخير فألفاه عنده، أو كلُّ باب في جهة لا مترادفة، وعن كعب رحمه الله: لَمَّا هرب يوسف عليه السلام تناثر أقفال الأبواب له. والجملة عطفت على «هَمَّتْ بِهِ».

[لغة] ﴿**وَقَدَّتْ**﴾ قطعت بإمساكها وجذبه نفسه. ويقال القدُّ: القطع طولا، والقطُّ القطع عرضا، وقيل: هما سواء عرضا وطولا، ويدلُّ له قراءة بعض: ﴿وَقَطَّتْ قَمِيصَهُ﴾، وكذا وجد في مصحف المفضل بن حرب، وأمَّا قول بعض في الإمام علي: «إذا اعتلى قدَّ وإذا اعترض قطَّ» فلا حجَّة فيه لاحتمال أن يكون قائله مِمَّن لا يحتجُّ بكلامه في العَرَبِيَّة.

﴿**قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ**﴾ من خلفه، والقفا إلى العقب دبر، وصادفت القدَّ من خلفه لأنَّه أدبر عنها وفرَّ، وغلبها وخرج وخرجت خلفه ﴿**وَأَلْفَيَا**﴾ وجدا ﴿**سَيِّدَهَا**﴾ زوجها وهو العزيز قطفير، لم يقل الله ﷻ: «سيِّدهما» لأنَّ يوسف حرٌّ لم يجر عليه قيام أحد، وذكره بالسَّيِّد لا بالزوج يشير إلى أنَّه سيِّد لها لا له، وهي أيضا حرَّة إلَّا أنَّ عرفهم أنَّ الزوج سيِّد زوجته.

﴿**لَدَا الْبَابِ**﴾ عند الباب مقابلا يريد الدخول، أو قاعدا جانبا، كلُّ ذلك مع ابن عمِّها أو ابن عمٍّ له، أو منصتا لِمَا يكون من كلام أو صوت هروب وتجاذب في الجري، وخافت التهمة فسبقت بالشكوى كاذبة كما قال الله ﷻ: ﴿**قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنَ ارَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا**﴾ زنى، ولم تقل: هذا أو يوسف أراد الزنى بي، إكراما له، وإبقاء عليه لشدَّة حبِّها إِيَّاهُ، وأيضا قد يصعب عليها بالطبع أن تصرِّح به مع بعده من السوء عند الناس، كما عندها وكمال عفَّته، أو أراد ضربها دفعا لها فعدَّت الضرب سوءًا.

﴿**إِلَّآ أَن يُّسْجَنَ**﴾ مدَّة يسيرة في حبس في بيتها أو في غيره يوما أو يومين أو ساعة أو دقائق، ولو أرادت طول السجن لقالت: إلَّا أن يكون من المسجونين كما قال فرعون[1].

---

(1) في سورة الشعراء: آية 29.

﴿أَوْ عَـذَابٌ الِيمٌ﴾ ضرب موجـع، وعن ابن عَبَّـاس ﵁: قيد. وبدأت بالسـجن لأنَّ المحبَّ لا يحبُّ إيلام حبيبه، وبادرت بما يعاقب به أنَّه السجن أو الضرب، وعيَّنته لئلَّا يقتله، تحرَّزت عن قتله بذكر غيره.

[نحو] و«عَذَابٌ» معطوف على مصدر «يُسْـجَنَ»، أي إلَّا سَـجنه ـ بفتح السـين ـ أو عـذاب أليم، وأمَّا بالكسـر فموضـع الحبس. و«مَـا» نافية، أو استفهاميَّة إنكاريَّة. و«مَنْ» اسم موصول أو نكرة موصوفة.

﴿قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِـي﴾ هـذه عبارة تخصيـص، وكأنَّها حصر، والمعنى: هـي راودتني ولم أراودها، وذلك لوجود إسـنادين أقوى من قوله: «رَاوَدَتْنِي». وقـال ذلك تبرئة لنفسـه عمَّا لوَّثت به عرضه، ولئلَّا يسـجن أو يعذَّب، ولم يكن ليقول ذلـك أوَّلاً لولا أنَّها قالت لم يقـل، ومع ذلك أيضا تأدَّب معها إذ لم يقل: هذه أو أنتِ استحياء عن لفظ الحضور.

[نحو] والغيبـة في اصطلاح النحـاة: ما ليس بخطـاب أو تكلُّم ولو مع حضور، فلم ينصفوا ابن مالك إذ ردُّوا عليه قوله:

فمـا لـذي غيبـة أو حضـور كأنـت وهـو سـمِّ بالضميـر

بقولـه تعالى: ﴿هِـيَ رَاوَدَتْنِـي﴾، وقوله تعالى: ﴿يـآ أَبَتِ اسْـتَاجِرْهُ﴾ [سورة القصص: 26] قالته وموسى ﵇ حاضر.

﴿وَشَـهِدَ شَـاهِدٌ مِّنَ اهْلِهَآ﴾ ابن عمِّها أو ابن خالها، أو ابن عمِّه، وروي شـيخ كبير حكيم، كان مع الملك حينئذ، وَاتَّفَقَ أنَّه أراد الدخول عليها فقال: قد سمعنا الجلبة من رواء الباب وصوت شقِّ القميص، إلَّا أنَّا لا ندري أيُّكما قدَّام صاحبـه، لكـن إن كان قميصه... إلخ، وفي كونه من أهلهـا زيادة تبرئة لجانب يوسف، إذ شـهد على قريبته لا عليه، وأيضا يبعد بسط المملوك يده إلى زوج سـيِّده، وأيضا شـاهدوا أنَّه هرب والطالب لا يهرب في بدء أمره، وأيضا أنَّها تزيَّنت بأكمل زينة، وأيضا ما رأوا منه قبل ذلك ما يريبه.

[قصص] وقيل: كان في المهد صبيًّا ابن خالها، وقيل: هذا الصبي ابن أختها، وكانت هي وزوجها يحبَّان الصبيان لأنَّهما لا ولد لهما، أنطقه الله لهما، قال ﷺ: «**تكلَّم أربعة صغار: ابن ماشطة فرعون، وشاهد يوسف، وصاحب جريج، وعيسى بن مريم**»[1]. وفي حديث آخر: «**ثلاثة عيسى، وصاحب جريج، وصبيٌّ كان يرضع فمرَّ راكب فقالت أمُّه: اللَّهُمَّ اجعله مثل هذا، فترك الثدي وقال: اللهمَّ لا تجعلني مثله**»[2] والعدد لا يفيد الحصر، قال بعض:

تكلَّم في المهد النبيء محمد ... ويحيى وعيسى والخليل ومريم
ومبري جريج ثمَّ شاهد يوسف ... وطفل لدى الأخدود يرويه مسلم
وطفل عليه مرَّ بالأمة التي ... يقال لها زنت ولا تتكلَّم
وماشطة في عهد فرعون طفلها ... وفي زمن الهادي المبارك يختم

وجعل الله الشاهد من أهلها إلزاما للحجَّة، ويجوز أن يكون الشاهد معهما في الدار في موضع آخر منها أو هناك، ولم تشعر به. وفسَّر مجاهد الشاهد بالحكم.

وجملة قوله: ﴿**إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ**﴾ مفعول به لـ«شَهِدَ» محكيَّة به، لأنَّه بمعنى قال، وأمَّا أن يقدَّر: «وشهد شاهد فقال إن كَانَ...» فلا، لأنَّه يقال فبم شهد؟. وإن كان الفاء تفصيلا عادت الشهادة إلى معنى القول، فمن أوَّل الأمر تفسَّر بالقول. أو شبَّه الحكم بصدقها على فرض قدِّ القبل وبكذبها على فرض قدِّ الدبر بشهادته على يوسف بالصدق لجامع إثبات الصدق، فهو بذلك الفرض كشاهد بصدقه.

[نحو] وحذف «قد» أو المبتدأ، والتقدير: فهي صدقت، أو فقد صدقت

---

(1) أورده **الحاكم** في المستدرك كتاب التفسير (66) تفسير سورة التحريم، رقم 3835 (972). **والسيوطي** في الدر، ج 4، ص 15. من حديث ابن عَبَّاس.

(2) رواه **البخاري** في كتاب الأنبياء، باب ﴿وَاذْكُرْ في الْكِتَابِ مَرِيَمَ...﴾ رقم: 3253. من حديث أبي هريرة.

أو فهي كذبت، أو فقد كذبت، لأنَّ صَدَق وكَذَبَ يصلحان شــرطا فلا يقعان جوابا بالفاء، والمراد ظهر صدقها وظهر كذبها، أو يفسَّــر ﴿كَانَ﴾ بـ«تبيَّن»، وبه يصحُّ الاستقبال.

ووجه القدِّ من قُبُل أن يُقبل عليها فتدفعه عنها فينقدُّ قميصه بضربها إِيَّاهُ، أو بجبذه جانبا عنها دفعــا له عنها، فالقدُّ فعلها، أو تهــرب عنه ويتبعها فينقدُّ لعثوره بذيله فالقدُّ فعله، وهروبها ســببه، ووجه القدِّ من دبر أن تمســكه بعد ذهابه، ويبعد أن تمســكه من خلفه، فينقدُّ من قدَّامه، وبالعكس. والقائل: «إِن كَانَ قَمِيصُهُ» هو الشاهد ولو صبيًّا هناك في المهد أنطقه الله بذلك، أو المعنى: حضر حاضر من أهلها قائلا: «إِن كَانَ قَمِيصُهُ».

﴿فَلَمَّا رَءا﴾ زوجها ﴿قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَــالَ إِنَّهُ﴾ أي إنَّ هذا القدَّ أو إنَّ قولك: «مَا جَزَاءُ...»، أو إنَّ السوء اللازم للاحتيال، أو إنَّ الأمر وهو الطمع في يوسف اللازم للاحتيال ﴿مِن كَيْدِكُنَّ﴾ أسند ما للواحدة إليهنَّ لأنَّ النساء في الجملة صواحــب حيل ومكر، لتواطئهــنَّ على المكر أو رضاهــنَّ بما تفعل إحداهنَّ. أو المــراد: إنَّ هذا من جملة ما تفعل النســاء مثلــه، والخطاب لها ولهنَّ، أو لهنَّ داخلة هي فيهنَّ، وذلك شــامل لها ولجواريها وســائر النساء، وقيل: لها ولجواريها، والصحيح العموم فيدخلن.

﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ قال بعض العلماء: أخاف من النساء أكثر مِمَّا أخاف من الشيطان، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ وقوله: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [سورة النساء: 76] وذلك على إطلاقهنَّ في المكر، ولو كان الرجل أقوى في بعض الأحوال من النساء.

وأيضا كلامهنَّ يؤثِّر في قلب الرجل ويسمعه بأذنه، وكيد الشيطان وسوسة بلا مواجهة، أو عظيــم في أمر الجماع، والإنســان مطلقا ضعيــف، الرجال والنســاء بالنســبة إلى ما هو أقوى منه كالملائكة والجبال، كما قال: ﴿وَخُلِقَ

الإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ [سورة النساء: 28] أي بالنسبة. ولعظم كيد النساء اتَّخَذهنَّ إبليس أعاذنا الله منه وسائل لإغواء من صعب عليه، وفي الخبر: «ما أيس الشيطان من أحد إلَّا أتاه من جهة النساء».

وهل الاستدلال بالقدِّ حجَّة؟ وكذا في كون مكرهنَّ أعظم من مكر إبليس على حدِّ ما مرَّ؟ فقيل كذلك، لأنَّ الله تعالى ذكره عن قائله ولم ينكره، وقيل: لا لأنَّه قد يذكر الشيء ولا ينكره مع أنَّه لا يثبته، فقد يكون القدُّ من قدَّامه وهي الجاذبة من خلف، وقد يكون من خلف وهي الجاذبة من قدَّام، لضعفه من قدَّام أو خلف.

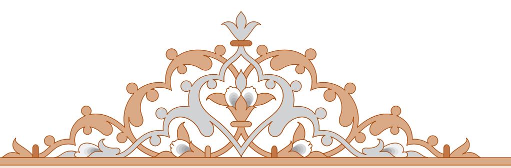
﴿**يُوسُفُ**﴾ يا يوسف، ناداه باسمه لطفا وإزالة لخوفه ﴿**أَعْرِضْ عَنْ هَذَا**﴾ الأمر واكتمه ولا تظهره وأنت صادق، و[اعتبره] كأنَّه غير واقع. وحذف حرف النداء لأنَّ المقام مقام خفَّة أو خفاء مع قرب يوسف وتفطُّنه، والنداء من العزيز، وزعم بعض أنَّه من الشاهد، وروي هذا عن ابن عَبَّاس.

والاستغفار المذكور: طلب العفو والصفح من العزيز، أو من الله لأنَّهم يقرُّون بالله تعالى، ويعتقدون أنَّ للقبائح عاقبة سوء من الله تعالى إن لم يغفرها، وقد قلن: ﴿حَاشَ لِلهِ﴾، ويؤمنون بالملائكة إذ قلن: ﴿إِن هَذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [الآية: 31]. ﴿**وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ**﴾ يا زليخاء أو راعيل ﴿**إِنَّكِ كُنتِ**﴾ في طلب الفاحشة من يوسف، أو نسبة طلبها إليه ﴿**مِنَ الْخَاطِئِينَ**﴾ ولم يقل: من الخاطئات تغليبا، وهو أقوى من قوله: إنَّك خاطئة. والخطأ: الذنب.

قال أبو حيَّان إذ طال مقامه في مصر وهو غريب أندلسيٌّ: إنَّ العزيز كان قليل الغيرة وإنَّ تربة مصر تقتضي قلَّة الغيرة، ولهذا لا ينشأ فيها الأسد ولو دخل لا يبقى [والعهدة عليه]، وَمِمَّا قال في شأن مصر:

أقمنا بمصر نحو عشرين حجَّة ... يشاهدنا ذو أمرهم ونشاهده
وَلَمَّا ننل منهم مدى الدهر طائلا ... وَلَمَّا نجد منهم صديقا نوادده

ومصر تطلق على مصر القاهرة وعلى أسوان ورشيد وما بينهما.



﴿وَقَالَ نِسۡوَةٞ فِي ٱلۡمَدِينَةِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّاۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٣٠ فَلَمَّا سَمِعَتۡ بِمَكۡرِهِنَّ أَرۡسَلَتۡ إِلَيۡهِنَّ وَأَعۡتَدَتۡ لَهُنَّ مُتَّكَـٔٗا وَءَاتَتۡ كُلَّ وَٰحِدَةٖ مِّنۡهُنَّ سِكِّينٗا وَقَالَتِ ٱخۡرُجۡ عَلَيۡهِنَّۖ فَلَمَّا رَأَيۡنَهُۥٓ أَكۡبَرۡنَهُۥ وَقَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ وَقُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ ٣١ قَالَتۡ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمۡتُنَّنِي فِيهِۖ وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ٣٢ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٣٣ فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٤ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ٣٥﴾

انتشار الخبر بين نسوة المدينة وما انجرَّ عن ذلك

وشهر أمر يوسف وزليخاء بين الرجال والنساء وتحدَّثوا به كما قال الله ﷻ: ﴿**وَقَالَ نِسْوَةٌ**﴾ خمس: امرأة صاحب الملك، وامرأة صاحب دوابِّه، وامرأة خازنه، وامرأة ساقيه، وامرأة صاحب سجنه.

[صرف] وهو اسم جمع، قال الرضيُّ: جمع يقدَّر له مفرد، كَفِتْية وصِبْية بكسر أوَّلهما وإسكان ثانيهما، وتأنيثه غير حقيقيٍّ، لأنَّ المراد الجنس أو الفريق، فلم يقرن الفعل بالتاء.

ويقال: هنَّ زوج الحاجب وزوج الساقي وزوج الخبَّاز وزوج السجَّان وزوج صاحب الدوابِّ، والحاجب هو البوَّاب، وقال الكلبي: إنَّهنَّ أربع بإسقاط امرأة الحاجب.

﴿فِي الْمَدِينَةِ﴾ مصر متعلِّق بـ«قَالَ»، أو نعت لـ«نِسْوَةٌ»، وذكر المدينة لأنَّ قول نسائها أشدُّ إغاظة من نساء مدينة أخرى، أو نساء البدو ﴿امْرَأَةُ الْعَزِيزِ﴾ هو بلسان العرب الملك، ولو لم يكن عظيما، فإنَّه هنا قطفير وهو وزير الريان ﴿تُرَاوِدُ فَتَاهَا﴾ عبدها الكنعاني يوسف.

[صرف] وألف «فتى» عن ياء لقولهم فتيان، وقولهم: الفتوة شاذٌّ، والأصل الفُتُية بوزن الفتوة، وقيل: عن واو، وقيل: لغتان أحدهما عن واو والأخرى عن ياء، ويردُّه أنَّه لم يسمع فتوان بالواو، وفي الحديث: «**لا يقل أحدكم عبدي وأمتي، وليقل فتاي وفتاتي**»[1] وذلك ندب لا تحريم، وقد قال الله ﷻ: ﴿وَأَنكِحُواْ الَايَامَى مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُم﴾ [سورة النور: 32].

﴿عَن نَّفْسِهِ﴾ وهو يمتنع منها، والمضارع للتكرير، أي اعتادت مراودته عن نفسه ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ تمييز عن الفاعل أي شغفها حبُّه، أي وصل شغاف قلبها، أي شقَّه، وهو جلدة تغطِّي القلب، ويقال لها: لسان القلب، والأَولى أن يقال: أصاب حبُّها شغاف قلبها، لأنَّه لو شقَّ الشغاف لماتت، فالمراد: فرط الحبِّ، ويقال: دخل وسط قلبها، وذلك من اشتقاق الفعل من اسم الشيء لإصابته، كركبته أصبت ركبته، ورأأته أصبت رِئته، وكبدته أصبت كبده، ورأسته أصبت رأسه.

أو المراد أنَّ حبَّها دار بقلبها وصار لها حجابا مانعا لها من غيره، فلا يخطر بقلبها سواه، كما دارت الجلدة على القلب، وقيل: الشغاف جلدة رقيقة على القلب غير محيطة به كلِّه، وقيل: الشغاف داء يصل القلب من فرط الحبِّ، أي وصلت هذه المرتبة من الحبِّ، وقيل: الشغاف رأس القلب عند معلَّق النياط، وقيل: سويداء القلب كما قيل عن الحسن إنَّه باطنه، وعن الفارسي إنَّه وسطه، وقيل: شغفها قتلها، وقيل: أجنَّها.

(1) رواه **البخاري** في كتاب العتق، باب كراهية التطاول على الرقيق... رقم 2414. ورواه **مسلم** في كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها، رقم 4177. من حديث أبي هريرة.

[لغة] وأوَّل مراتب الحبِّ: الهوى، فالعلاقة وهي الحبُّ اللازم للقلب، فالكلف وهو شدَّة الحبِّ، فالعشق وهو ما فضل عن المقدار المسمَّى بالحبِّ، فالشعف بعين مهملة وهو احتراق القلب مع لذَّة يجدها، وكذا اللوعة واللاعج، فالشغف بإعجام وهو أن يبلغ شغاف القلب، فالجوى وهو الهوى الباطن، فالتيم وهو أن يستعبده الحبُّ، فالتبل هو أن يسقمه الحبُّ، فالدَّله وهو ذهاب العقل من الحبِّ، فالهيام وهو أن يذهب على وجهه لغلبة الهوى.

﴿**إِنَّا لَنَرَٰيهَا**﴾ نعلمها يقينا لا مجازفة ﴿**فِي ضَلَالٍ**﴾ عن الصواب أو الدين ﴿**مُّبِينٍ**﴾ ظاهر، أو مظهر شأنها إذ تركت ما يتعيَّن على أمثالها من العفاف لرتبتها ورتبة زوجها حتَّى دعت هي لنفسها خادمها.

﴿**فَلَمَّا سَمِعَتْ**﴾ سمعت امرأة العزيز ﴿**بِمَكْرِهِنَّ**﴾ بمكر النسوة وهو ذكرهنَّ لها بسوء على وجه الخفاء، وَلَمَّا كان على وجه الخفاء سمِّي مكرا، كما أنَّ الاحتيال في الخداع مكر.

أو ذكرت لهنَّ القصَّة على أن لا يذكرنها لأحد فأفشينها خيانة وإرادة لإغضابها، فيكون مشاكلة إذ ذكر ذلك باسم المكر لوقوعه في صحبة ذكر الحيلة منها في يوسف والكيد، كقوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللهِ﴾ [سورة البقرة: 138] أي دين الله، سمَّاه الله صبغة لأنَّه في مقابلة صبغة النصارى لأولادهم في الماء الأصفر.

أو سمَّاه مكرا لأنَّ المراد به التدرُّج إلى رؤية يوسف بإراءَتِهِ لهنَّ، وهذا يشبه المكر إذ لا مكر فيه في عادة، وكان قد وُصف لهنَّ بالجمال الكامل. ﴿**أَرْسَلَتِ إِلَيْهِنَّ**﴾ من يدعوهنَّ أن يجئن إليها، ويقال: أرسلت إلى أربعين امرأة منهنَّ الخمس أو الأربع المذكورات، ولا يتمُّ هذا لأنَّ الضمير إلى

النســوة وهنَّ دون الأربعين، إلَّا أن يكون استخدام بأن ردَّ الضمير إلى النسوة المذكورة لا على معناهنَّ، بل على معنى الجنس[1].

ولعدد الأربعين استظهار على الأعداء اللائمين قال الله ﷻ: ﴿يآ أَيُّهَا النَّبِيءُ حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُومِنِينَ﴾ [سورة الأنفال: 64] وهم يومئذ أربعون بعمر رضي الله عنه تمَّ به العدد. أو كان إرسالها إليهنَّ على صورة الضيافة ومرادها إقامة عذرها، ولا دليل على غير الخمس أو الأربع فهنَّ المراد فقط.

﴿وَأَعْتَدَتْ﴾ أحضرت، أصوله العين والتاء والدال، والهمزة زائدة كهمزة «أكرم» ﴿لَهُنَّ مُتَّكَئًا﴾ موضع اتِّكاء، وهو فراش واحد يفي بهنَّ، أو المراد أعتدت لكلِّ واحدة متَّكأ، والاتِّكاء: القعود على اطمئنان، ولا يشرط فيه الميل جانبا ولو شُهر الميل جانبا.

وعن ابن عَبَّاس: المتَّكأ مجلس الطعام لأنَّهم يتَّكئون له كما هو عادة المترفين، وجاء النهي في الحديث عن الأكل مع اتِّكاء[2]. وقيل: المتَّكأ الطعام، قال العتبي: يقال اتَّكأنا عند فلان أي أكلنا، ومنه بيت الإيضاح[3] لجميل:

فضللنا بنعمة واتَّكأنا وشربنا الحلال من قُلَلِه[4]

أي وأكلنا وشربنا.

---

(1) وردت زيادة في نسخة (أ) سنوردها مراعاة لأمانة النقل: «ولا مانع من أن يراد بـ«نِسْوَةٌ» الأربعون لا خمس أو أربع، وهنَّ من أشراف المدينة بأن تكون الأربعون عيَّرنها، أو أصل العيرة من الخمس وفشا منهنَّ في البواقي من الأربعين، والخمس سبب لدعوى من سواهنَّ، واختارت الكثرة لتلين عريكته وليجيب ما يرمنه ولإسكات الخمس ولإشاعة عذرها».

(2) لقوله ﷺ: «أمَّا أنا فلا آكل متَّكئا». رواه **الترمذي** في كتاب الأطعمة (8) باب ما جاء في كراهيَّة الأكل متَّكئا، رقم 1830. و**أبو داود** في كتاب الأطعمة، باب ما جاء في الأكل متَّكئا، رقم 3769.

(3) للشيخ عامر بن علي الشَّمَّاخِي: الإيضاح، ج 1، ص 96.

(4) راجع ابن منظور، لسان العرب: ج 11 ص 288، مادة قلل.

﴿وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ بلا طعام أو لحم أو فاكهة يقطع بها، وهي الموسى الصغيرة ﴿وَقَالَتُ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ وقد زيَّنته أكمل زينة، وقالت: أطعني اليوم فيما آمرك به، واعصني أبدا، فتركها لمرادها من التزيُّن والخروج عليهنَّ، فخرج عليهنَّ وبهتن فيه، وشغلن عن أنفسهنَّ فتقع السكين على يد كلِّ واحدة تقطع بها ولا تشعر، وكان السكاكين في غاية من الحدَّة، وكان هو في جمال لا تصبر النساء عنه، فأبكتتهن به فيندمن من العيرة[1] واللوم فيعذرنها، وذلك قصدها، وقد تريد مع ذلك أن يسلِّم عليهنَّ أو يخدمهنَّ.

وقد ألبسته يومئذ ثيابا بيضاء، والجميل أحسن ما يكون في البياض، وقد أباح الله تعالى أن يخلو بهنَّ، وأن يرضى بتزيينها إيَّاهُ، ولعلَّ التزيين لم يكن إذ لم يذكره الله تعالى، فهنَّ يكبرنه بلا تزيين، فإنَّ فضله في الجمال كفضل القمر ليلة البدر على الكواكب كما رآه ﷺ ليلة الإسراء.

[بلاغة] ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ﴾ وفي الآية حذف، أي أرسلت إليهنَّ فجئن وجلسن، وقالت: اخرج عليهنَّ فخرج فرأينه، ولَمَّا رَأَيْنَهُ... والحذف للدلالة على مسارعته بها فيما يحلُّ، وذلك كلُّه أحلَّه الله له، وتسمَّى هذه الفاء أو الواو فاء الفصاحة، أو واو الفصاحة لإفصاحها عن المحذوف، كقوله تعالى ﴿فَانبَجَسَتْ﴾ [سورة الأعراف: 160]. ﴿أَكْبَرْنَهُ﴾ عظَّمنه لجماله الفائق.

[لغة] وزعم بعض أنَّ المعنى: حضن له. وحذف اللام أي أكبرن لأجله، والهاء للإكبار أي أكبرن الإكبار كقمت القيام، والإكبار: الحيض بمعنى الدخول في الكبر، وذلك أنَّ الحيض يجيء بعد الصغر، كأمسى دخل في المساء، وأعرق دخل العراق، والمراد أنَّهنَّ يسلن دما من شدَّة اشتهائه، كقول أبي الطَّيِّب:

خف الله واستر ذا الجمال ببرقع فإن لحت حاضت في الخدور العواتق

(1) في الطبعة العُمانية: فبكتتهن عَلَى تفنيدهنَّ من الغيرة.

وأبو الطيب لا يحتجُّ بشعره كما لا يحتجُّ بأبي نواس ولو قاربا من يحتجُّ به، وأما قول القائل:

يأتي النساء على أطهارهنَّ و لا يأتي النســاء إذا أكبــرن إكبارا

فأظنُّه مصنوعا ولا يصحُّ عن ابن عَبَّاس ذلك.

﴿**وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ**﴾ قطَّعت كلُّ واحدة منهنَّ يدها قطعا عظيما أو كثيرا أو كثر القطع بكثرة القاطعات، ولا يصحُّ ما قيــل بظاهر الآية: إنَّه فصلن أيديهنَّ بالقطــع، فإنَّه يقال قطعت اللحــمَّ فقطَّعت يدي، وما قطــع إلَّا بعضها مع أنَّ المراد الجرح، والتشــديد للمبالغة، كَيفِيَّةً أو كَمِّيَّةً، وهذا مرادها، **وقيل**: **القطع اتِّفَاقًا لا قصدا إلَّا أنَّها لَمَّا حضرن أطعمتهنَّ**، وزعم بعض أنَّها خوَّفته نساء في أيديهنَّ خناجر لعلَّه يطيعها، ويعلم أنَّ لها شوكة.

﴿**وَقُلْنَ حَاشَ لِلهِ مَا هَذَا بَشَــرًا اِنْ هَذَآ إِلَّا مَلَــكٌ كَرِيمٌ**﴾ قال ﷺ: «**رأيت يوســف ليلة المعراج كالقمر ليلة البدر**»[1]، ورواه ابن جريــر والحاكم وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري، ولا بُعد في أن يكون التشبيه مقلوبا أي يشبهه البدر، وكان يرى لوجهه لمعان في الجدار.

وقيــل: المتَّكأ طعــام يجزُّ بالســكِّين، قيل: هــو الأترج علــى الحذف والإيصال، بمعنى أنَّه يتَّكئ عليه الآكل بالســكِّين فهو اســم مفعول، فيكون رمن أن يقطعــن الطعام فيقطعن أيديهنَّ، لأنَّ في يدٍ موســى وفي أخرى ذلك الطعام، وذلك لفرط دهشــتهنَّ، وقيل: أترجا ومــوزا أو بطِّيخا، وقيل: الرقاق الملفــوف باللحم وغيره، وقيــل: اللحم، وكانــوا يأكلونه جزًّا بالســكاكين، وعنه ﷺ: «**أدن العظم من فيك فإنَّه أذهب للقرم**»[2].

---

(1) لم نقف على تخريجه بهذا اللفظ تماما فيما عندنا من المراجع، وأورد ما يقاربه **الهندي** في الكنز: ج 11، رقم 32409: «...فإذا أنا برجل راعني حسنه، شاب فضل على الناس بالحسن».

(2) رواه **أبــو داود** في كتاب الأطعمــة، باب في أكل اللحــم، رقم 3779 مع تغييــر في آخره. و**الهندي** في الكنز، ج 15، رقم 40730.

وفي الآية إنَّهنَّ آمنَّ بالملائكة واعتقدن جمال الملائكة، وأنَّ هذا الجمال لا يكون في البشر، وإنَّما أردن التشبيه لا الحقيقة، لأنَّهنَّ عرفنه بشرا، والملك لا يكون لحما وشعرا، أو خطأن في صفة الملك، والأوَّل أولى، فقد آمنَّ بالله لقولهنَّ: ﴿حَاشَ لِلهِ﴾ وحاش حرف تنزيه.

واللام بعدها للبيان كسقيا لك، أو فعل ماض واللام صلة، وأيضا وصفن الملائكة بالجمال مع العصمة، وذلك كرم عند الله، والاستثناء للعظمة إذ لم يذكر هنا سوء، وقال الفارسيُّ هو فعل، وإنَّ المعنى حاش يوسف المعصية، أي جانبها لأجل الله، وهو تفسير ضعيف، لأنَّه خالف ما شهر من معنى حاشى، لأنَّها للاستثناء، أو للتعجُّب.

وكأنَّه قيل: فماذا؟ فقيل: ﴿**قَالَتْ**﴾ أي امرأة العزيز ﴿**فَذَٰلِكُنَّ**﴾ الإشارة إلى يوسف، وقيل: إلى الحبِّ، وإشارة البعد مع قرب يوسف للتعظيم، وقيل: لأنَّه وقت اللوم غير حاضر، وعند هذا الكلام حاضر فالإشارة باعتبار زمان اللوم على أصلها، وباعتبار هذا الكلام للتعظيم، أو لبعده عنهنَّ عند هذا الكلام لِئَلَّا يزدن قطعا ودهشا.

﴿**الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ**﴾ إن تعجَّبتنَّ من مراودتيه فاعذرنني فيه.

وقال مجاهد: ما أحسسن إلَّا بالدم، وعن قتادة: فصلن أيديهنَّ حتَّى كانت كلُّ واحدة بلا شمال، والأصحُّ أنَّه قطع بلا فصل، وعن وهب: مات منهنَّ جماعة. وروي أنَّهنَّ قلن له: «أطع مولاتك»، وذلك أنَّ جماله فاق جمال البشر فإن كان أحد فوقه في الجمال أو مساويا له فما هو إلَّا ملك، والجمع بين هذا الجمال الفائق والكفِّ عن المعاصي غاية الكفِّ من خواصِّ الملائكة.

[قصص] ويقال: زيَّنت المحلَّ بالفرش وألوان الأطعمة وزيَّنت يوسف أحسن زينة، ولم يمل إليهنَّ ولا إلى دعواهنَّ له، ولا إلى ألوان الطعام، وروي أنَّه ورث الجمال من جدَّته سارة، ويقال: إنَّه ورث حسن آدم يوم خلقه الله ﷻ

وقبل أن يخرج من الجنَّة، وقيل: قبل أن يصيب المعصية كما مرَّ، وهو أولى، ويقال: إنَّه أكبرنه لأنَّهنَّ رأين عليه نور النبوءة وسيما الرسالة وآثار الخضوع والهيبة، ولم يعتذر لهنَّ ولم يمل لنكاح أو طعام وكأنَّه ملك.

[نحو] وإشارة البعد لعلوِّ المرتبة لا المسافة، لأنَّه قريب منهنَّ. و«ذَا» مبتدأ، و«الذِي» خبر، أو «ذَا» خبر لمحذوف، و«الذِي» نعته، أي هذا الذي رأيتنَّ هو ذلك العبد الكنعانيُّ الذي لمتنَّني فيه هو هذا، أو مبتدأ محذوف الخبر أي ذلكنَّ الذي لمتنَّني فيه هو هذا، فعلتنَّ ما فعلتنَّ من الدهش والتقطيع في ساعة به، فكيف بي وأنا معه كلَّ وقت! والمراد: لمتنني في حبِّه ومراودتيه.

﴿وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ بالغ في الامتناع مثل اعتصم، لَمَّا شاهدنه وفعلن أكثر مِمَّا فعلت، وعرفت أنَّهنَّ يعذرنها أقرَّت ليعنَّها على مطاوعته لها ويعذرنها ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُ﴾ أي ما آمره به من الوقاع.

[نحو] والمقام للتعريف، فـ«مَا» اسم موصول لا نكرة موصوفة، فحذف العائد ولم يجرَّ الموصول بمثل ما جرَّ به ويتَّحد المتعلَّق، وقد قيل: إذا دلَّ عليه دليل جاز حذفه مطلقا، ومَن شرط اتِّحاد الجارِّ والمتعلَّق قدَّر النصب على نزع الجارِّ، فيكون مدخوله منصوبا على المفعوليَّة، مع أنَّ النصب على نزع الجارِّ ينبغي أن لا يفسَّر به القرآن؛ أو «مَا» مَصدَرِيَّة، أي ولئن لم يفعل أمري أي موجب أمري أو مضمون أمري. أو هاء «ءَامُرُهُ» لـ«مَا»، أي ما أوجبه فهو الرابط، ضمِّن «آمُرُ» معنى أوجب فعدِّي بنفسه، أو يقدَّر لفظ «عليه» أي ما أوجبه عليه.

﴿لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾ الأذلِّين، والفعل صغِر بالكسر، ونون التوكيد الخفيفة تكتب ألفا لأنَّه يوقف عليها بإبدالها ألفا عند الكوفيِّين، والبصريُّون يكتبونها نونا ويقفون بالألف، كذلك قيل.

[بلاغة] أكَّد السجن بالنون المشدَّدة لتحقُّقه، والكون من الصاغرين بالخفيفة لعدم تحقُّقه عندها، ويبحث بأنَّ كلامها ليس عربيًّا، ويجاب بأنَّ الله ﷻ ذكر كلامها بحسب التشديد وما يليه في لغتها، وكذا تقول في سائر ما ذكر الله ﷻ عن العجم، وقيل: لأنَّ الكون من الصاغرين تبع للسجن فاكتفي عن التشديد فيه.

﴿**قَالَ رَبِّ**﴾ يا ربِّ ﴿**السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ**﴾ من الزنى، كلُّ واحدة دعته إلى الزنى وللزيارة تصريحا، أو تحويلا، أو رسالة على لسان، أو كتابة، وحالهنَّ قريب من هذا وهو ظاهر الآية. ويجوز أن يكون الدعاء مسندا إليهنَّ لأنَّهنَّ أمرنه بفعل ما تريد امرأة العزيز، إذ قلن: أطع مولاتك وخوَّفنه من مخالفتها، والآمر كالفاعل. والواو لام الكلمة، والفاعل هو النون الأولى.

قال بعض لو لم يقل: ﴿السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾ لم يبتل بالسجن، قال ﷺ: «**سلوا الله العافية ولا تسألوه البلاء فتعجزوا، وإذا ابتليتم فاصبروا**» وردَّ ﷺ على من يسأل الصبر مستشعرا بالمصائب، سمع ﷺ رجلا يقول: «اللهمَّ إنِّي أسألك الصبر» فقال: «**سألت الله البلاء، فاسأل الله تعالى العافية**»[1] رواه الترمذي عن معاذ. وفي الأثر: لَمَّا قال: ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ...﴾ أوحى الله تعالى إليه ـ لا وحي نبيء لأنَّه لَمَّا يكن نبيئا ـ: يا يوسف أنت جنيت على نفسك، هلَّا قلت: العافية أحبُّ إليَّ فتعافى؟. وفي الأثر في عبارات قومنا ما روي عن التابعين ومن يليهم أو عن الصحابة بلا رفع إليه ﷺ وفي كتب أصحابنا ما في [تلك] الكتب لهم أو لقومنا.

---

(1) رواه **الترمذي** في كتاب الدعوات، رقم 3450. ورواه **التبريزي** في كتاب الدعوات الباب السابع الفصل الثاني، رقم 2432 (17). وأوَّل الحديث عندهما: سمع النبيء ﷺ رجلا يدعو ويقول: اللهمَّ إنِّي أسألك تمام النعمة. فقال: «أي شيء تمام النعمة؟» قال: دعوة أرجو بها خيرا. فقال «إنَّ من تمام النعمة دخول الجَنَّة...».

والمعنى: ملاقاة السجن أو صاحبه للإدخال فيه، أو مقاساة أمر السجن أحبُّ إليَّ مِمَّا يدعونني إليه من الخلوة والزنى، لأنَّ فيه غضب الله ﷻ، ولا شيء في قلبه من حبِّ السجن ولا من حبِّ الزنى فضلا عن أن يكون أحدهما أحبَّ من الآخر، والجواب أنَّ المراد بالحبِّ الإيثار بلا تفضيل ولا ثبوت لأصل الإيثار في جانب الزنى، فالمعنى اقتصر على السجن دونه، ولم يقل ربِّ السجن والكون من الصاغرين أحبُّ... إلخ، لأنَّ الصغار تابع للسجن، ولوفاء السجن بالغرض وهو قطع طمعها عن أن يطاوعها. وفي «أَحَبُّ» بناء اسم التفضيل من المبنيِّ للمفعول.

﴿**وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي**﴾ بالتثبيت على ترك المعصية ﴿**كَيْدَهُنَّ**﴾ سعيهنَّ في هلاكي بأمرهنَّ إيَّاي على موافقتها ﴿**أَصْبُ**﴾ أمِلْ ﴿**إِلَيْهِنَّ**﴾ إلى وقاعهنَّ أو إلى جانبهنَّ، أو إلى مطاوعتهنَّ، أو إلى أنفسهنَّ لذلك بالطبع البشري ﴿**وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ**﴾ أي من السفهاء و**الذنب سفه**، أو من الذين لا يعلمون الحلال والحرام لأنَّ **من علم ولم يعمل مثل الجاهل** في عدم العمل.

التجأ إلى الله ﷻ على عادة الأنبياء والأولياء في الاعتراف بالعجز عن الحول وَالقُوَّة إن لم يعنهم الله، والعبد لا ينصرف عن المعصية إلَّا إن صرفه الله تعالى عنها، ومراد يوسف الدعاء بأن يجعله غالبا لهواه.

﴿**فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ**﴾ دعاءه، والدعاء في قوله: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي...﴾ لأنَّه إخبار لفظا إنشاء تضرُّعا ودعاء معنى، وقد علم الله صدقه إذ قال: ﴿السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾ أي من الزنى، وذلك أنَّ النكاح محبوب بالطبع ولكن السجن أحبُّ إليه، لأنَّ فيه نجاة من غضب الله وفوزا بالجنَّة والثواب، أو «أَحَبُّ» بمعنى محبوب بلا تفضيل، أو «مِنْ» بمعنى «عن»، و«أَحَبُّ» خارج عن التفضيل.

﴿**فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ**﴾ بالتثبيت على ترك العصيان المحبوب بالطبع ﴿**إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ**﴾ العليم بالأصوات والدعاء ﴿**الْعَلِيمُ**﴾ بالأفعال والنيات وذات الصدور والأحوال.

ومكثت زمانا بعد ذلك تراوده طمعا لأمر النساء له بمطاوعتها، وَلَمَّا أيست منه مع انتشار [خبر] مراودتها له طلبت من زوجها إمَّا أن تخرج للناس فتعتذر إليهنَّ ببراءتها مِمَّا شهر، وتعاقب من يذكر ذلك، وإمَّا أن يسجنه تقوية في أنَّه هو الذي راودها، فظهر أن يسجنه كما قال ﷻ: ﴿**ثُمَّ بَدَا لَهُم**﴾ فاعل «بَدَا» ضمير «السجن» المدلول عليه بقوله: ﴿لَيَسْجُنُنَّهُ﴾ أي بدا لهم سَجنه بفتح السين، كقولك: قال تعالى، أي قال الله بدليل «تعالى»، وكقولك: قال ﷺ أي قال النبيء ﷺ بدليل «ﷺ»، أو ضمير عائد إلى البداء، وهو ضعيف، أو إلى الرأي لتبادره في المقام.

وهاء «لَهُمْ» للعزيز وزوجه وأهلهما، و«ثُمَّ» لتراخي الزمان بعد تقطيع النسوة، وقبل بُدُوِّ السَّجن، لأنَّ زوجها قد رأى صدقه وكذبها فتراخى، واحتالت له حتَّى طاوعها، وزمامه في يدها، ظلما له عمدا، وإعراضا عمَّا رأى من الآيات.

﴿**مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُاْ الاَيَاتِ**﴾ دلائل صدقه وكذبها، كقدِّ القميص من دبر، وشهادة الصبيِّ في المهد بأنَّه بريء، وإعراضه عن النسوة وقد أظهرن أنَّهنَّ دعونه إلى أنفسهنَّ فأعرض عنهنَّ، وكقطع النساء أيديهنَّ فإنَّ فتنتهنَّ به في وقت واحد يَدُلُّ على أنَّها فتنت تحقيقا لكثرة أوقاتها معه، فتكون قد بهتته كأثرها في جسده عند ابن عبَّاس، وكحاله معه في الصدق في جميع أحواله، ومشاهدة عبادته لله ﷻ. ويجوز أن تكون آيات عند الله ﷻ لم يذكرها، ومثل ذلك واقع في القرآن.

﴿**لَيَسْجُنُنَّهُ**﴾ أي قائلين والله ليسجننَّه ﴿**حَتَّىٰ حِينٍ**﴾ مدَّة مَّا طويلة أو قصيرة بحسب ما يظهر للناس أنَّه أجرم، أو يقرُّ لهم بأنَّه الذي راودها، وذلك مراد لها وللعزيز، وزادت ـ قيل ـ الطمعَ في أن ينقاد لها خوفا من السجن لحضوره ولو اختاره قبلُ، وطمعا في موافقة أمر النساء له بالمطاوعة،

ويبحث ببعد ردِّه عن السجن بعد أمر العزيز به، ويجاب بإمكان أن يطاوعها في ردِّه عن السجن إن أحبَّت ردَّه.

والحين في اللغة زمان قصير أو طويـــل، ولا تعيين في الآية، وكان بعض يحمله على ستَّة أشـــهر، لقوله تعالى: ﴿تُوتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾ [سورة إبراهيم: 25] ولا يلزم ذلك، لأنَّ الآية جاءت على بعض ما يطلق عليه الحين، وقيل: خمس سنين، وقيل: سبع، وقال مقاتل: اثنا عشر.

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿36﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿37﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿38﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿39﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿40﴾﴾

يوسف في السجن ودعوته إلى الدين الحقِّ

﴿**وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ**﴾ أي فسجنوه فدخل معه السجن فتيان شرابي الملك الأكبر ريان، وخبَّازه، قيل: رشاهما قوم من أهل مصر على أن يسُمَّاه فألقى الخبَّاز السمَّ في الطعام وقبل الرشوة، وندم الساقي ولم يقبلها ولم يلق السمَّ في الشراب، وأخبر الملك أو اتهمهما فأحضر الخبَّاز الطعام فقال له الساقي: لا تأكله أَيُّهَا الملك إنَّه مسموم، وأحضر الساقي الشراب فقال الخبَّاز: لا تشرب إنَّه مسموم، فقال له الملك اشرب فشرب، وقال للخبَّاز: كل من الطعام فأبى، فأطعمت منه دَابَّة فماتت فحبسهما الملك حين حبس العزيز يوسف، والفتى: الغلام الطارُّ الشارب، والكهل ضدُّه، قيل: أو من حين يولد إلى أن يشيب.

أركب يوسف على حمار وضرب عليه الطبل في أسواق مصر: إنَّ يوسف العبراني راود سيِّدته فهذا جزاؤه، وكلَّما ذكر ابن عَبَّاس رضي الله عنه هذا بكى. و«مَعَ» للمقارنة في زمان الفعل، فوقت دخول الثلاثة السجن واحد، وهذا أصل معنى «مَعَ» حقيقةً حتَّى يقوم الدليل على الانفصال، مثل: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ﴾ [سورة النمل: 44]، ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ [سورة الصافَّات: 102]، ويجوز إبقاؤهما على الأصل لأنَّ الإسلام والسعي يتجدَّدان فيعلَّق معه بالسعي.

﴿**قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّي أَرَىٰنِيَ أَعْصِرُ خَمْرًا**﴾ وهو الساقي. والخمر: العنب أُشِدَّ عليه فيخرج ماؤه، أو إخراج الخمر أي العصير والخمر: العنب أو ماؤه، وفسَّره أُبي وابن مسعود بالعنب سمَّاه خمرا لأنَّه يصير خمرا، يسمَّى الشيء باسم ما يؤول إليه إذا تعيَّن أن يؤول إليه، أو ترجَّح أو كثر أوْلُه إليه أو اعتيد.

وقيل: العنب من أوَّل الأمر خمر بلغة أزد عمان وغسَّان، قال المعتمر: قلت لأعرابيٍّ حمل عنبا: ما تحمل؟ قال: خمرا، ويحتمل أنَّه رأى أنَّه يخرج نفس الخمر من العنب لا مجرَّد مائه، فهو حقيقة لا مجاز، كما هو حقيقة في لغة أزد عمان وغسَّان في نفس العنب.

وقرأ أُبي وعبد الله: «أَعْصِرُ عِنَبًا»، وذكر البخاري عن عبد الله أنَّه قال: والله لقد أخذتها من رسول الله ﷺ هكذا، قلت: لعلَّه ﷺ قرأ بذلك تفسيرا، وهذا تأويل قريب جِدًّا لشهرة ﴿أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ عنه ﷺ بِاتِّفَاقٍ. قال: رأيت في النوم أنِّي في بستان فيه شجرة عنب عليها ثلاثة عناقيد وفي يدي كأس الملك عصرتها فيه، وسقيته وشرب، فسمَّى العصير خمرا، ولو كان لا يؤول إلى الخمر لأنَّه عصير نوم لا حقيق، ولا يشترط في مجاز الأوْل أن يتحقَّق أن يؤول بل يكفي الإمكان مع ما مرَّ من ترجيح وغيره، [قلت:] بل ولو تيقَّن أنَّه لا يؤول لكن من عادته مثلا أن يؤول يجوز التسمية باسم المآل فلا تهم.



﴿وَقَالَ الَاخَرُ﴾ صاحب الطعام واسمه مجلث، وقيل: الساقي راشان والخبَّاز مرطش، وقيل: الساقي سبرهم والخبَّاز شرهم ﴿إِنِّيَ أَرَا۪نِيَ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا﴾ في ثلاث سلل بعض فوق بعض مع ألوان الطعام فيهنَّ ﴿تَاكُلُ الطَّيْرُ﴾ سباع الطير ﴿مِنْهُ﴾ من الخبز الذي في السلَّة العليا.

[نحو] وفاعل «أَرَى» والياء في الموضعين لواحد، وجاز ذلك مع اتِّصال الضمير لجواز ذلك في باب ظنَّ وعلم ورأى الحُلُمية، وفقد وعدم، ولا يجوز ذلك في غيرهنَّ مطلقا، [قلت:] وعندي يجوز في غيرهنَّ إن جرَّ الثاني بحرف جرٍّ، وأنَّه لا حاجة إلى تقدير مضاف، وأنَّه مقيس لكثرته، نحو: ﴿وَاضْمُمِ اِلَيْكَ﴾ [سورة القصص: 32] و﴿تُئْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾ [سورة الأحزاب: 51](1) و﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ [سورة البقرة: 260] و﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ﴾ [سورة الأحزاب: 59] و﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ [سورة الأحزاب: 37] و﴿هُزِّي إِلَيْكِ﴾ [سورة مريم: 25].

﴿نَبِّئْنَا﴾ أخبرنا ﴿بِتَاوِيلِهِ﴾ تأويل ما ذكر وهو ما ذكراه جميعا، أو قال الأوَّل أيضا نبِّئنا بتأويله فحذف ﴿إِنَّا نَرَا۪يكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ في تفسير الرؤيا، فأحسن إلينا بتأويل ما رأينا، وكان يعبِّر لأهل السجن مرائيهم بوجه صادق وفي تسلية المحزونين في السجن وفي قوله: «اصبروا يُثِبْكُم الله ﷻ»، وفي عيادة مرضاهم، والتصدُّق بما وجد عليهم، والتوسيع لمن ضاق موضعه، وصوم اليوم وقيام الليل، ويجمع للمحتاج ما يحتاج إليه.

قيل: رأيا ذلك في النوم تحقيقا، وقيل: كذبا ولم يريا شيئا في النوم فهما تحلَّما وما حلما، ولبثا في السجن ثلاثة أيَّام عدد العناقيد والسلل.

﴿قَالَ لَا يَاتِيكُمَا طَعَامٌ﴾ وقوله: ﴿تُرْزَقَانِهِ﴾ نعت «طَعَامٌ»، وذلك طعام اليقظة أو النوم. وتفسير ابن مسعود الطعام بالثريد تمثيل لأنَّه يأتيهما ثريد

---

(1) نسخة (ب) اقتصرت على هذه الآية.

وغيره، إلَّا إن أراد أنَّه لا يأتيكما طعام في تلــك الرؤيا كائنا ما كان، ولو كان في نفس الأمر الثريد ﴿إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا﴾ أخبرتكما ﴿بِتَاوِيلِهِ﴾ بردِّه إلى ما آل إليه في نفس الأمــر، من قلَّة أو كثرة وجــودة ورداءة، وكونه تمــرا أو خبزا مثلا، وبَطْءٍ وعجل ونحو ذلك، وذلك استعارة من التأويل الذي هو تفسير المشكل، والجامع إيضاح المبهم.

﴿قَبْلَ أَنْ يَّاتِيَكُمَا﴾ أي قبل أن يأتيكما الطعام، أو قبل أن يأتيكما تأويله، كما هو شــأن الأنبياء والصالحين والراغبين في الدعاء إلى الدين يقدِّمون في كلامهم تمهيدا لِمَا يريدون من الإرشاد إليه، كإخبار الأنبياء بالغيب ليتوصَّلوا به إلى تصديق الناس.

فيوسف عليه السلام أراد أن يرشــدهما إلى التوحيد والإيمان، من يموت منهما ومن يحيى، فقال: إنِّي أعرف بإذن الله وإعلامه ما يغيب فيســتوثقان بتفسيره، وبدعائه إلى الدين، وصف نفســه بذلــك وبكونه ذرِّيَّة أنبيــاء ليصل إلى أمر دينيٍّ، لا رئاءً، كما وصف نفســه بأنَّــه حفيظ عليم لذلــك، وليصل إلى نفع الخلق، [قلت:] وجائز للإنسان أن يصف نفســه بما فيه من أمر حسن لذلك، كما يصف الطبيب نفسه في الطبِّ ليرغب فيه.

وروي أنَّهمــا قالا: من أين لك هذا العلم ولســت منجِّمــا أو كاهنا؟ وقيل: قالا: إنَّك كاهن أو منجِّم، وعلــى كلٍّ أجابهما بقوله: ﴿ذَٰلِكُمَا﴾ ما ذكر من التنبئة بمــا يأتيكما ﴿مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّــيَ﴾ بالوحي، أو الإلهام، لا بكهانة أو تنجيم، وهذا كما قال عيســى عليه السلام: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَــا تَاكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ [سورة آل عمران: 49]. ذكر تعليم الله له تعريضا لهما بأن يؤمنا بالله عز وجل، وقوَّى هذا التعريض بقوله: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُومِنُونَ بِاللهِ وَهُم بِالَاخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ «هُمْ» تأكيد للأوَّل ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَائِيَ﴾ المؤمنين بالله تعالى واليوم الآخر ﴿إِبْرَاهِيمَ وَإِسْــحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ وقوله:

﴿إِنِّي تَرَكْتُ...﴾ هــو علَّة للتعليم، أي مِمَّا علَّمنيــه ربِّي بوحي أو إلهام، وقد قيل: إنَّه نبيء من صغره حين يعقل.

والمراد: لأنِّــي تركت ملَّة من لا يؤمن بالله والبعث، واتَّبَعت شــرع آبائي الأنبياء المرسلين في ســائر أمر الدين، وقيل: علَّة لمحذوف، أي علَّمنيه لأنِّي تركت، وذكره ذلك أوَّلاً قبل التفســير من شــدَّة رغبته في التوحيد وتوابعه، حتَّى إِنَّهُ يريد أن يموت الخبَّاز موحِّدا.

لَمَّا دخل السجن وجد قوما اشتدَّ بلاؤهم وانقطع رجاؤهم فجعل يسلِّيهم، ويقول: اصبروا وأبشــروا، فيقولون: بارك الله فيك يا فتى ما أحســن وجهك وخلقك وحديثك! لقد بورك لنا في جوارك، فمن أنت؟ قال: أنا يوســف بن صفي الله يعقوب ابن ذبيح الله إسحاق ابن خليل الله إبراهيم، فقال له صاحب السجن: يا فتى والله لو استطعت لخلَّيت ســبيلك، ولكن سأرفق بك وأحسن جوارك، واختر أيَّ بيوت السجن أحببت.

[قصص] ويروى أنَّه لَمَّا رآه الفتيان قالا: إنَّــا أحببناك منذ رأيناك، فقال: أنشدكما بالله لا تحبَّاني فو الله ما أحبَّني أحد إلَّا دخل عليَّ من حبِّه بلاء، لقد أحبَّتني عمَّتي فدخل عليَّ بــلاء، وأحبَّني أبي فأُلقِيت فــي الجبِّ، وأحبَّتني امرأة العزيز فحبست، وَلَمَّا ألقيا عليه الرؤيا أخَّر تأويلها لأنَّ فيها قتل أحدهما وصلبه، وألهاه عنها بما هو أهمُّ وهو الإيمان، ويأتي أنَّ عمَّته أسرقته شيئا من مالها لتملكه في شرعهم.

[قلت:] وكون إسحاق هو الذبيح ليس بالصحيح ونسبته ليوسف لا تصحُّ.

وكان آباؤه المذكورون مشــهورين بالرســالة والخيــر والكرامة، ولذلك ذكرهم، وقد قيل: إِنَّهُ نبِئ في السجن، ومعنى ﴿تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ﴾ إنِّي أعرضت عنها، ولم أدخلها قطُّ، والمراد بالقوم المشــركون مطلقــا، أو أهل مصر، ولا عبرة بإيمان مع عبادة الصنم.

﴿**مَا كَانَ لَنَآ**﴾ معشر أهل هذا البيت أو معشر الأنبياء على أنَّه نبِّئ في حينه، أو على التغليب، أي لا يصدر منَّا الإشراك لوفور عناية الله ﷻ بنا، ولو كان يصدر من السعداء غيرنا ويتوبون، أو ما كان لنا معشر المكلَّفين، لكن فيه تفكيك الضمائر لأنَّ الضمير في «عَلَيْنَا» بعدُ لأهل البيت، أو للأنبياء، وقد يجاب بأن «الناس» بعد ذلك المؤمنون، وذلك بعيد ﴿**أَن نُّشْرِكَ بِاللهِ مِن**﴾ صلة للتأكيد في النفي والعموم، داخلة على المفعول به وهو قوله: ﴿**شَيْءٍ**﴾ صنم أو ملك أو جنِّي، أو ﴿شَيْءٍ﴾ بمعنى إشراك مفعول مطلق، والمفعول به محذوف أي غير الله من جنٍّ أو إنس أو ملك أو صنم، **والمراد** أنَّا معشر الأنبياء لا يصدر مِنَّا إشراك كما يصدر من غيرنا، وليس المراد مطلق التحريم[1] فإنَّه محرَّم على كلِّ أحد.

﴿**ذَٰلِكَ**﴾ التوحيد كما هو ظاهر، أو العلم بتأويل الرؤيا وغيرها، فإنَّه منفعة لهم وللناس، ويبعد ما قيل: إنَّ الإشارة إلى ما قصد من النبوءة ﴿**مِن فَضْلِ اللهِ عَلَيْنَا**﴾ من جملة إنعامه علينا ﴿**وَعَلَى النَّاسِ**﴾ المشركين بأن يوحِّدوا الله ﷻ بسببنا، لأنَّ إنعامه علينا به إنعام على الناس بإرشادنا إِيَّاهُم إليه، فيفوزون بالتوحيد وثمراته، وينجون من النار، أو التوحيد حصل لنا ولغيرنا، ومن أراد حَصَّلَه بتفضُّل الله علينا بنصب الدلائل، ويجوز أن يراد بالناس الموحِّدون.

﴿**وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ**﴾ وهم المشركون لا يوحِّدون، فإنَّ التوحيد نفسه شكر وداع إلى سائر الشكر وموجب له، أو لا يشكرون الإنعام عليهم ببعث الأنبياء المرشدين لهم إلى مصالحهم دنيا وأخرى، أو أعرضوا عن الدلائل فلا يشكرون بل يكفرون، أو هم يلغون الدلائل فلا يعدُّونها نعمة لهم تشكر.

(1) كأن في العبارة خللا. ربما يقصد: «وليس المراد خصوص الأنبياء وإنما مطلق التحريم، فإنه...» إلخ. تأمل.

وقال بعض: إنَّ معنى ذلك التوحيد من فضل الله تعالى علينا حيث أعطانا عقولا فاستعملناها في الدلائل، وأكثر الناس لا يشكرون لا يستعملونها في الدلائل، ومقتضى الظاهر: «وَلَكِنَّ أكثرهم» وأظهر لزيادة البيان، قيل: ولئلَّا يتوهَّم رجوع الهاء إلى مجموع الناس وإلى ما عاد عليه ضمير «عَلَيْنَا».

وعلينا أن نشكر الله على توفيقه إيَّانا إلى الإيمان بقصدنا، وعلى خلقه الإيمان مِنَّا وأفعالنا خلق من الله، وذلك معنى الآية، والله شكر إيماننا بحسب قصدنا وكسبنا، ﴿فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [سورة الإسراء: 19].

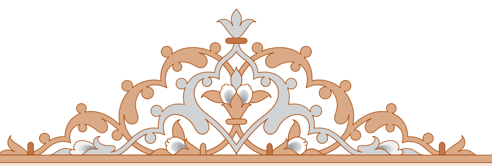
عرَّض لهما بالإيمان في قوله: ﴿لَا يَاتِيكُمَا...﴾ ثمَّ قوَّاه بقوله: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ...يَشْكُرُونَ﴾ ثمَّ دعاهم إلى الإيمان بقوله:

﴿يَاصَاحِبَيِ السِّجْنِ ءَآرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ اَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ اللهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ حجَّة **﴿اِنِ الْحُكْمُ إِلَّا للهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُواْ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَالِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾** وإضافة صاحبي بمعنى في، أي يا من صحب كلٌّ منهما الآخر في السجن، أو يا من صحباني في السجن، أو إضافة للمفعول أي يا من صحبا السجن والتزماه، أو إضافة لشبه المفعول أي يا ساكني السجن، كأصحاب الجنَّة وأصحاب النار، واختار نداءهما بذلك حثًّا على الإقرار بالحقِّ إذ كانا في شدَّة لا ينبغي أن يزاغ عن الحقِّ معها.

[أصول الدين] [قلت:] وتفرُّق الأرباب كون أحدهما من فضَّة وبعض من ذهب وبعض من حجر وبعض من خشب، وبعض إنسانا وبعض جنًّا، وبعض ملكا وبعض بقرا، وغير ذلك وهذا أولى من تفسير التفرُّق بالتعدُّد، **والإله الحقُّ لا تعدُّد له** فضلا عن التفرُّق، لا أجزاء له ولا إله معه، وهو القهَّار لكلِّ ما يشاء، وغيره مقهور بالانتقام والآفات والموت، وما تحصَّلتم إلَّا على

أسماء معانيها غير موجودة، تقولون لشـــيء إنَّه ربٌّ وليس له معنى الرُّبُوبِيَّة، وإله وليس له معنـــى الأُلُوهِيَّة، وهكذا ما أنزل الله حجَّـــة أنَّها أرباب، بل كلُّ جســـم أو عرض يشـــهد أنَّها مربوبة مألوهة، ولا حكم لها مـــن قضاء وقدر، وإيجاد وإعدام، وحَصْرُ العبادة له هو الدين المستقيم.

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّـــاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أكثر أهل الأرض جهلة ومشـــركون لا يعلمون الثواب والعقاب لإنكارهم البعـــث، فمن منكر ومن جاهل، ومن مقرٍّ غير عامل كأنَّه منكر؛ أو لا يعلمـــون أنَّ ذلك هو الدين القيِّـــم. وقدَّر بعض: أعبادة أرباب؟ وعدم التقدير أولى ليشمل اللفظ أنواع المنافع ودفع المضارِّ، كما يشمل العبادة، ويناسب ذلك ذكر القهار وذكر الحكم.



﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴿41﴾ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ﴿42﴾﴾

تأويل يوسف لرؤيا صاحبيه في السجن ووصيته للناجي منهما

وَلَمَّا فرغ من دعوتِهما إلى الإسلام شرع في تفسير رؤياهما فقال: ﴿**يَاصَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا**﴾ وهو الساقي فيرجع إلى منزلته من سقي الملك ﴿**فَيَسْقِي رَبَّهُ**﴾ سيِّده الريان ﴿**خَمْرًا**﴾ كعادته قبلُ. يخرج بعد ثلاثة أيَّام بعدد العناقيد، وقدَّمه لأنَّه خير يعجَّل في التبشير به.

﴿**وَأَمَّا الَاخَرُ**﴾ الخبَّاز فيخرج بعد ثلاثة أيَّام بعدد السلال ﴿**فَيُصْلَبُ فَتَاكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ**﴾ كما أكلت من الخبز على رأسه في حلمه أو تحلُّمه، هذا تأويل رؤياكما، فقالا: ما رأينا شيئا لكن تحلَّمنا تجريبا لك، وكذبا بل حلما، وقيل: صدقا في أنَّهما ما رأيا حلما ولكن تحلَّما.

﴿**قُضِيَ الَامْرُ الذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ**﴾ وهو مجموع الرؤيتين، أو ﴿الَامْرُ﴾: التعبير، أو ما أُتِّهما به على حذف مضاف، أي عاقبة الأمر، ويجوز أن يراد ما يؤول إليه أمر الرؤيتين، أو أمر التعبير، تقول: أفتني في حكم تارك الصلاة بمعنى أخبرني بحكمه، وذلك الأمر قضاه الله بالوحي أو بأمر يثبته لي، أو ضمن به التعبير، أو بحسب الاجتهاد كما فسَّرت لكما مَا حلمتما أو تحلَّمتما.

دخل يوسف السجن ونشر فيه علم تعبير الرؤيا وعبّرها، ووصف نفسه بتعبيرها، فقال أحد الفتيين ـ وكأنَّ البلاء موكل بالمنطق ـ للآخر: نجرِّبه برؤيا نفتريها، قاله ابن مسعود، وقال الشعبي: رأيا فاهتمَّا، فقال: ما شانكما؟ فقالا: إنَّا غلامان للملك رأينا رؤيا، فقال: قصَّاها عليَّ، فقصَّاها، فعبَّرها بما ذكر.

﴿**وَقَالَ**﴾ في اليوم الثالث عند الباب وقت خروج الساقي ﴿**لِلذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا**﴾ وهو الساقي وهو أحدهما، فـ«مِنْ» للتبعيض، و«مِنْ» الابتدائية محذوفة أي ناج من القتل. والظنُّ بمعنى اليقين، مثل: ﴿وَظَنُّواْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلَّآ إِلَيْهِ﴾ [سورة التوبة: 118].

ونجاة الساقي وقتل الخبَّاز علمهما بالوحي، أو بأمر من الله له لا يتخلَّف كإلهام، وعلى كلِّ حال هو قطعيٌّ، وعبَّر بالظنِّ إرخاء للعنان وتأدُّبا مع الله تعالى، ولا بأس بهذا التأدُّب مع أنَّه جازم، لأنَّ السامع لا يعلم أنَّه وحي من الله، فيقول له: كيف لا تجزم مع أنَّه من الله ﷻ؟ وإمَّا بحسب الاجتهاد في التعبير فالظنُّ على بابه. وضمير «ظَنَّ» ليوسف لا للَّذي.

[نحو] وكنت أستدلُّ به على عدم وجوب الإبراز إذا جرت الصلة أو الصفة أو الحال أو الخبر على غير ما هو له، وحكم هؤلاء واحد، وإن رددنا الضمير إلى أحدهما وهو الساقي جرت الصلة على ما هي له. ووجه ظنِّ الساقي أنَّه ناج أنَّه لم يخن وأنَّه هو الساقي قبل، مع قول يوسف: ﴿فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا﴾.

﴿**اذْكُرْنِي**﴾ اذكر حالي ﴿**عِندَ رَبِّكَ**﴾ سيِّدك الريان الملك، وقل له: إنَّ في السجن رجلا مسجونا ظلما اسمه يوسف ﴿**فَأَنسَاهُ**﴾ أي أنسى الساقي الناجي ﴿**الشَّيْطَانُ**﴾ تسبَّب له في النسيان أو في الترك بأن زيَّن له عدم ذكر يوسف للملك، والمُنسي حقيقةً هو الله ﷻ. ﴿**ذِكْرَ رَبِّهِ**﴾ ذكر يوسف لربِّه أي لسيِّده وهو الريان، والهاء للناجي، وأضاف الذكر إلى ربِّه للملابسة، فإنَّ المراد أنساه



الشيطان ذكر يوسف إلى ربِّه الريان وهو ربُّ الساقي، أي سيِّده فالمعرفة عين الأولى كما هو الغالب.

أو الهاءان ليوسف وهو قول الجمهور، فالمعرفة غير الأولى فالربُّ في «ذِكْرَ رَبِّهِ» هو الله، ومعنى إنساء الشيطان يوسف ذكر الله تسبُّبه في ذهوله عن ذكر الله إلى ذكر الريان بن الوليد، حتَّى ابتغى الفرج من مخلوق ذهولا، وغفلة في تلك الحال المهولة من السجن، وليس في قلبه أن يكون شيء بغير الله، فنقول: ركن إلى الله وحده وتسبَّب بالمخلوق، وكره الله منه ذلك لعلوِّ مقامه، وأطال حبسه في السجن لذلك، وذلك قضاء أزليٌّ ولكنَّه خالق الأسباب والمسبّبات.

﴿**فَلَبِثَ**﴾ الفاء للسببيَّة، لأنَّ توصيته عليه السلام المتضمِّنة للاستعانة بغيره سبحانه وتعالى باعثة لإنسائه، قال الله عز وجل: «من استنقذك من قتل إخوتك؟» قال: أنت يا ربِّ، قال: «فمن استنقذك من الجبِّ؟» قال: أنت يا ربِّ، قال: «فمن استنقذك من المرأة إذ همَّت بك؟» قال أنت يا ربِّ، قال: «فما بالك نسيتني وذكرت آدميًّا؟» قال: يا ربِّ، كلمة تكلَّم بها لساني، قال عز وجل: «وعزَّتي لأخلِّدنَّك في السجن بضع سنين» ﴿**فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ**﴾ قطعة من السنين.

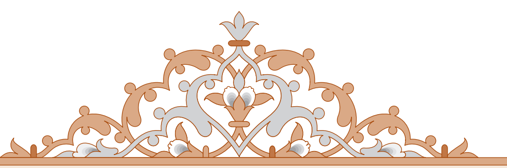
يقال: بضعت الشيء قطعته، قيل عن ابن عبَّاس: لبث اثنتي عشرة سنة، ويردُّه أنَّ البضع كالنيِّف ما لم يستكمل عقدا، وقد شهر أنَّه من الثلاث إلى التسع، وقيل: إلى السبع، ونسب لمجاهد، وقيل: إلى العشر، إلَّا أنَّه روى عبد الله بن راشد البصري عن سعيد بن أبي عروبة أنَّ البضع ما بين الخمس إلى الاثني عشر، وقيل: لبث سبع سنين خمسا منها قبل قوله: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ واثنتان بعد ذلك، وصحِّحَ، وتقدَّم أنَّهما دخلا مع يوسف السجن في وقت واحد، فيكون الحلم أو التحالم آخر الخمس أو أوَّل الاثنتين، فقوله لهما: تخرجان بعد ثلاث بمعنى بعد ثلاث من حين التعبير، وعلى قول الاثنتي عشرة يكون اللبث قبل قوله: «اذكرني» خمسا وبعده سبعا.

وفي رواية عن النبيء ﷺ: «**رحم الله أخي يوسف لو لم يقل «اذكرني عند ربّك» لم يلبث في السجن سبعا بعد الخمس**»[1] وهو حجّة للقول بأنّه لبث اثنتي عشرة، إلّا أنّ الحديث لم يَصِحَّ، وإنّما الثابت ما لبث في السجن طول ما لبث.

وروي أنّه ﷺ لم يأخذه النوم ليلة، وكان يطلب من يحرسه حتّى جاء سعد فسمع غطيطه، وأقام الحرس حتّى نزلت آية الأمن: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [سورة المائدة: 67] فقال: «**انصرفوا**». وأقام الرماة يوم بدر ويوم أُحد، وليس من ذلك شيءٌ كقول يوسف: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾.

والمشهور أنّه لبث سبعا، وأنّ الرؤيا من أوّل السبع، وبه قال ابن جريج وقتادة. قال وهب بن منبه: حبس يوسف في السجن سبع سنين، وهو أكثر الأقوال، ومكث أيوب في البلاء سبع سنين، وعذِّب بخت نصر بالمسخ سبع سنين، ويزاد ابتلاء الناس بسني يوسف السبع، والمشهور أنّ الممسوخ لا يبقى أكثر من ثلاثة أيّام، وقيل: لبث في السجن أربع عشرة سنة، وبه قال الضحاك فقد لبث بعد الخمسة تسعا، كما لبث بعدها سبعا في قول اللبث اثنتي عشرة، قال بعض: البضع مدّة العقوبة لا مدّة الحبس كلِّه.

(1) أورده **البيضاوي** في تفسيره، ج1، ص 289.



﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿43﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿44﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿45﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿46﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿47﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿48﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿49﴾﴾

تأويل يوسف رؤيا الملك

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ﴾ ملك مصر الريان بن الوليد العمليقي حين قرب خروج يوسف من السجن بتمام العدد المذكور.

[فقه] وفي الآية جواز تسمية المشرك ملكا وهو المذكور في أخبار، وليس في كتبه ﷺ إلى هرقل بلفظ عظيم الروم دون ملك الروم ما يمنع من ذلك، وإلَّا فلا أكثر من أنَّه تنزيه لا تحريم، قيل: ووجهه أنَّه لا يتوهَّم استحقاقه للملك، ويعارض بأنَّه يلزم استحقاق اسم العظمة، وما تسميته ملكهم إلَّا معنى أنَّه كبيرهم.

﴿إِنِّيَ أَرىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ﴾ بلحم وشحم والواحدة سمينة ككريمة وكرام ﴿يَاكُلُهُنَّ﴾ المضارع لحكاية الحال ﴿سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ﴾ وأرى سبع

﴿سُــنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ﴾ سبعا أخر ﴿يَابِسَــاتٍ﴾ رأى في منامه سبع بقرات خرجن من البحر ســمان، وخرج بعدهنَّ ســبع بقرات في غايــة من الهزال، فابتلعت العجاف السمان، ولم تســمن العجاف بهنَّ ولا انتفخن، ورأى سبع ســنبلات خضر ممتلِئَات، ورأى سبعا يابســات مدركات التوين على الخضر فزالت خضرتهنَّ، ولم تخضر اليابســات، فخاف مِمَّا رأى من تغلُّب الضعيف على القويِّ، فجمع المنجِّمين والكهَّان والسحرة لذلك فقال ما ذكره الله عنه:

﴿يَآ أَيُّهَا الْمَلأُ اَفْتُونِي فِي رُءْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ هذا أفصح من لغة التشديد، فلم يوفِّقهم الله إلى العبر، فيعبرها يوسف، وعبره سبب لخروجه من السجن بإذن الله مسبِّب الأسباب.

[نحو] و«أُخَرَ» نعت لـ«سَبْع» محذوفا فهو منصوب، أي وسبعا أخر يابسات، وإن عطف على «سُنبُلَاتٍ» فالفتح جرٌّ، وكونهنَّ سبعا يعلم من كون المعطوف عليه أضيف إليه «سَــبْع»، وأمَّا أن يعطف على «سَــبْع»، ويعلم أنَّهنَّ ســبع بدليل لفظ «سَبْع»، فتكلُّف لا فائدة فيه، إذ لا دليل في كون العجاف سبعا على كون السنبلات سبعا، نعم «يَأْكُلُهُنَّ» دلالة على أنَّ اليابسات مسلَّطة على الخضر بالالتواء عليهنَّ، وإزالة خضرتهنَّ، كما سلِّطت السبع العجاف على السمان بالأكل.

[لغة] والعجف: الهــزال، وقياســه: عُجْف بضمٍّ فإســكان جمع عجفاء كحمراء وحمر، ولكن جيء به مشــاكلة لوزن «سِــمَان»، وفيه أنَّه قد جاء بعد هذا بهذا اللفظ بلا مجاورة «سِمَان»، ويجاب بأنَّه تبع للأوَّل.

[نحو] و«الرُّؤْيَــا» مفعول لـ«تَعْبُــرُونَ» جرَّ باللام لضعــف «تَعْبُرُونَ» في العمل بتقديم المعمول، أو ضمِّن «تَعْبُرُ» معنى فعل لازم مثل تنهض، والعبرة التنقُّل عن[1] شــيء لشــيء، أي تنقلون من صورة الرؤيا إلى ما هو المقصود

(1) في نسخة (د): «على».

بها، فتخبروني به. وجواب «إِنْ» أغنـى عنه «أَفْتُونِي» فلا حاجة إلى تقدير: إن كنتم للرؤيا تعبرون فاعبروها.

﴿قَالُواْ﴾ أي الملأ ﴿أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ﴾ هذه أضغاث أحلام.

[لغة] أي أحلام شبيهة بالضغث، قيل: أصغر من الحزمة وأكبر من القبضة، ويردُّه قوله تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا﴾ [سورة ص: 44] والحقُّ أنَّه يطلق على ما جمع من النبات قلَّ أو كثر، وهو النبات الدقيق المجموع من جنس أو أجناس، وشرط بعض أن يكون من جنسين فصاعدا، ويردُّه قوله:

خُودٌ كأنَّ فِراشَها وُضِعَت به أضغاثُ رَيْحَانٍ غَدَاةَ شَمَالِ[1]

ويجاب باحتمال أنَّ المراد بريحان أنواع مِمَّا له رائحة، ووجه الشبه عدم الفائدة، فأضيف المشبَّه به إلى المشبَّه وجمع.

أو يقدَّر أضغاث من أحلام على الاستعارة لا إرادة الجنس، وإلَّا فالحلم واحدة، كما تقول فلان يركب الخيل، ولو ركب فرسا واحدا، أو لاعتبار أنَّ كلَّ جزء منها حلم، ولا يمنع من هذا كون مثل ذلك في العرف رؤيا واحدة.

﴿وَمَا نَحْنُ بِتَاوِيلِ الَاحْلَامِ بِعَالِمِينَ﴾ باء «بِتَاوِيلِ» صلة، أو إلصاق في معمول «عَالِمِينَ» قدِّم للفاصلة، وباء «بِعَالِمِينَ» صلة. والحلم يطلق على الرؤيا الصادقة والكاذبة والباطلة في اللغة، والمراد هنا الباطلة عندهم، إذ عجزوا عن بيانها، وهي في نفس الأمر صادقة كما عبَّرها يوسف عليه السلام.

وقال ﷺ: «**الرؤيا من الله والحلم من الشيطان**»[2] وهذه تفرقة من الشارع بأنَّ الرؤيا في الخير والحلم في الكذب، وأصل اللغة استعمال كلٍّ منهما في

(1) البيت لابن مقبل، من قصيدة: «سائِلْ بكبشة دارس الأطلال». ينظر: ديوان ابن مقبل.

(2) رواه **مسلم** في كتاب الرؤيا، رقم 1 (2261) ورقم 2. و**الترمذي** في كتاب الرؤيا (5) باب إذا رأى في المنام ما يكرهه ما يصنع، رقم 2277، مع زيادة في آخره. من حديث أبي قتادة. ورواه **الربيع** في: باب في الرؤيا، رقم 52 مع زيادة في آخره.

الصدق والكذب، والحديث على الغالب، ويجوز أن يراد بالأحلام هنا مطلق الرؤيا أي ما نعلم تأويل الرؤيا الحقَّة والباطلة، وهذا كبرى من الشكل الأوَّل ـ اعتذروا به إليه في أن جهلوا تأويلها ـ هكذا: هذه أضغاث أحلام، وكلُّ أضغاث أحلام لا تأويل لها فهذه لا تأويل لها.

والمراد بنفي العلم نفي المعلوم بطريق الكناية، أي لا معنى لها فضلا عن أن يعلم، كأنَّه قيل: هذه أضغاث أحلام، وكلُّ ما كان هكذا لا تأويل له، إذ لو كان له تأويل لعلمناه، وأيضا السالبة تصدق بنفي الموضوع، كقوله:

على لاحب لا يُهتدَى بمناره[1]

أي لا منار له فضلا عن أن يهتدى به.

﴿**وَقَالَ الذِي نَجَا مِنْهُمَا**﴾ عطف على «قَالُوا»، والهاء لصاحبي السجن، و«مِنْ» للتبعيض ﴿**وَادَّكَرَ**﴾ أي وتذكَّر، أبدلت التاء دالا مهملة، وهذه الدال المعجمة أبدلت مهملة وأدغمت فيها الأولى، فجيء بهمز الوصل، والمراد: تفكَّر ما نسيه من قول يوسف: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ وهذا يناسب تفسير إنساء الشيطان بظاهره من الإزالة من الحافظة بالاحتيال، بإقدار الله ﷻ على ذلك، وعلى تفسيره بمعنى الترك يكون معنى ﴿وَادَّكَرَ﴾: تراجع إلى موافقته في ذكره عند ربِّه.

﴿**بَعْدَ أُمَّةٍ**﴾ قطعة من الزمان، قيل: سنتان، وقيل: سبع، وقيل: تسع، وهي من معنى الأمَّة بمعنى الجماعة، والغالب استعماله في الناس، وقد استعمل في غيرهم، كقوله ﷻ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الاَرْضِ وَلَا طَآئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ اَمْثَالُكُمْ﴾ [سورة الأنعام: 38] وتفسيره بمدَّة ضعيف لغةً، وإنَّما نظر فيه إلى المعنى ﴿**أَنَآ أُنَبِّئُكُم بِتَاوِيلِهِ**﴾ أخبركم بتأويله عن غيري، لا من تلقاء نفسي، قيل: ولذا لم يقل: أفتيكم، ولو قال أفتيكم لكان من عنده كما طلب الملك، وقال: ﴿افْتُونِي﴾

---

(1) صدر بيت لامرئ القيس. والطريق اللاحب: الواضح أو الواسع. ينظر: اللسان، مادة: «لحب». وديوان امرئ القيس.

أي من عندكم، فإنَّه لا يخفى أنَّ الإفتاء يتبادر أنَّه من عند الناطق به بخلاف الإخبار بكذا، فإنَّه لا يتبادر منه ذلك فلا ضعف في هذا القول فلا تهم، وغاية ما فيه جواز التنبئة فيما من عند إنسان، كما عبَّر يوسف وفيما من عند غيره، كما قال: ﴿**فَأَرْسِلُونِ**﴾ خطاب للملك بخطاب الجماعة تعظيما له أو خطاب له مع أكابره.

﴿**يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ**﴾ تقدير الكلام: فأرسلوني إلى من يعبرها ولم تعلموه، فأرسلوه فجاء إلى يوسف، وقال: يا يوسف أَيُّهَا الصديق، وصفه بالمبالغة في الصدق لِمَا رأى من خصاله الحسنة في السجن كما مرَّ، وصدقه في تعبير رؤياه إذ قال: ﴿أَمَّآ أَحَدُكُمَا...﴾ ولم يقل: أرسلون إلى يوسف خوفا من أن يعرفوا أنَّ يوسف يعبر فيرسلون إليه غيره، ليفوز بمبهمٍ(1) خصَّ بمعرفته، سمع قولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَاوِيلِ الَاحْلَامِ بِعَالِمِينَ﴾ فجثا بين يدي الملك وقال: إنَّ في السجن رجلا يعبر الرؤيا فابعثوني إليه، فبعثوه، والسجن في غير مدينة الملك عند ابن عَبَّاس، وقيل: فيها، ويقال: هو على النيل بينه وبين الفسطاط ثمانية أميال.

﴿**أَفْتِنَا**﴾ لم يقل: أفتني مع أنَّه السائل وحده، لأنَّ الرؤيا ليست له بل لغيره مِمَّن له ملابسة بأمر العَامَّة ﴿**فِي سَبْعِ**﴾ شأن سبع ﴿**بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَاكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ**﴾ وفي سبع ﴿**سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ**﴾ ملتوية عليهنَّ مزيلات لخضرتهنَّ ﴿**لَعَلِّيَ أَرْجِعُ**﴾ بالتأويل ﴿**إِلَى النَّاسِ**﴾ العَامَّة مطلقا مع الملك، أو الملك والسحرة والكهَّان والمنجِّمين بحضرة الملك، سواء كان السجن في بلد الملك أو في بلد آخر، يسير إليه ذلك الناجي فيرجع إلى الملك.

[بلاغة] ﴿**لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾ تأويلها أو فضلك، أو كليهما، وصيغة الترجِّي أوَّلا جاءت على أسلوب العظماء، إذ يأتون بصيغة الترجِّي في مقام الجزم، فإنَّه جازم، وكان عظيم الشأن تحت السلطان الريان، أو على أسلوب البلغاء ولو بلا تعاظم، أو صيغة الترجِّي لخوف أن لا يصل إلى الناس

---

(1) في الطبعة العُمانية: بحبهم.

بالموت أو النسيان أو بكم أو جنون أو مانع، وصيغة الترجّي ثانيا لذلك، أو لكونهم قد لا يصدِّقونه عن يوسف وقد لا يفهمون، وقد لا يعتدُّون بتعبير يوسف، أو «لَعَلَّ» في الموضعين للأدب.

﴿قَالَ تَزْرَعُونَ﴾ الخطاب للملك ومن معه ﴿سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا﴾ هذا جواب سؤال كأنَّه قيل: فماذا قال يوسف؟ فقيل: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا﴾ أي اللائق برؤياكم أن تزرعوا سبع سنين دأبا، أي عادة، مفعول مطلق، أيْ زَرْعَ دَأْبٍ، أي زرع عادتكم، ولو زاد بقدرة الله حتَّى تقع الحبَّة في تراب قليل وندى قليل فتنبت الثمرة، أو تَدْأَبُون دأبا أو ذوي دأب، أو دائبين، والمراد التعب، يقال: دأب أي كدَّ في العمل ونقل إلى معنى العادة.

والجملة إخبار بالغيب أنَّهم يزرعون دأبا... إلخ، أو بمعنى الأمر فيكون جيء به في صيغة الخبر مبالغة، كأنَّه أمرهم بالزرع فوقع فهو يخبر به.

[نحو] ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ﴾... إلخ عطف طلب على طلب، إذا قلنا: «تَزْرَعُونَ» بمعنى ازرعوا، وطلب على خبر إن قلنا: «تَزْرَعُونَ» إخبار بالغيب. وإنَّما قلت: «مَا حَصَدْتُمْ...» طلب على خبر لأنَّ جواب الشرط طلب وهو «ذَرُوهُ» وما الشرط إلَّا قيد له، لا ما قيل: إنَّ جملة الشرط والجزاء خبريَّة ولو كان الجزاء طلبا، ليت شعري أيُّ شيء أخبر وهو يقول: افعَلْ كذا، أو لا تفعل، ولا مانع من أن يقال: جواب شرط محذوف، أي إن تزرعوا فما حصدتم... إلخ، على أنَّ «تَزْرَعُونَ» مراد به أمر، وأمَّا على الإخبار بالغيب فلا يصحُّ «إن تزرعوا فما حصدتم» إلَّا بالتوسُّع.

﴿فَذَرُوهُ﴾ اتركوه ﴿فِي سُنبُلِهِ﴾ لِئَلَّا يأكله الدود، الذي يأكل الثمار المنزوعة عن تبنها في مصر ونواحيها، لا تبقى عامين أو أكثر إلَّا باحتيال، والمراد بالذات الأمر بتركه في سنبله، وأمَّا الزرع فهم يزرعون بلا أمر منه كذا قيل، وهو مبنيٌّ على أنَّ المعنى: تزرعون على عادتكم، ولا يتعيَّن لجواز أن يكون المعنى جدُّوا في الزرع، وبالغوا كما مرَّ التلويح.

وحينئذ يناسب أنَّ المعنى: ازرعوا سبع سنين باجتهاد، وذروا ما حصدتم في سنبله، إلَّا أنَّ كون «تَزْرَعُونَ» بمعنى الإخبار كلفظه هو المناسب، لكون ذلك تفسيرا للرؤيا، ولو لم يخل الأمر عن مناسبة، كأنَّه قيل: افعلوا كذا يحصل تأويلها.

﴿إِلَّا قَلِيلاً مِمَّا تَاكُلُونَ﴾ مثل أن تنزعوا عن التبن ما يكفي يوما أو أسبوعا أو شهرا وهكذا إلى تمام سبع السنين الخصيبة، وفي ذلك حرز التبن أيضا للدواب، وكان عليه السلام بعد ما أخبرهم يتوقَّع الشدَّة، وكان يصنع لرجل طعام اثنين فيقرِّبه للرجل فيأكل نصفه، وَلَمَّا قربت الشدَّة أكل الرجل طعام اثنين فقال: هذا أوَّل يوم من الشداد.

﴿ثُمَّ يَاتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ من بعد ما ذكر من سبع سني الخصب، واختار هذا عن أن يقال ثمَّ يأتي من بعدهنَّ ليلوِّح إلى وصفهنَّ، والبعد باللام لعلوِّ شأن الخصب ﴿سَبْعٌ﴾ سبع سنين ﴿شِدَادٌ﴾ صعبة بالقحط والجوع. وعَطْفُ «يَاتِي» على «تَزْرَعُونَ» يُضعِف كون «تَزْرَعُونَ» بمعنى ازرع، لأنَّ «يَاتِي» إخبار لا أمر، إلَّا أن يقدَّر محذوف هكذا: تزرعون ثُمَّ يأتي من بعد ذلك سبع شداد.

﴿يَاكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ في سبع سني الخصب، واللام للتعليل أو للاستحقاق. وإسناد الأكل للسنين مجاز عقليٌّ لعلاقة الحلول، لأنَّ الآكلين حالُّون فيهنَّ، والأكل مجاز مرسل لتلك العلاقة، وليس في تفسير الأكل بالإفناء تخلُّص عن المجاز، بل هو مجاز على حدِّ ما مرَّ، لأنَّ المنفيَّ هو الذين يأكلون، ومثل ذلك قولك: أَكَل السفر أو أكل السير لحم الناقة، وفي ذلك تطبيق بين الآكلين وتشبيه لأكل البقرات العجاف للسمان بأكل سني القحط لِمَا ادُّخر في سني الخصب.

[بلاغة] وشبَّه أعوام القحط بالبقرات العجاف، وأعوام الخصب بالسمان، وشبَّه أكل أهل زمان القحط ما ادُّخر في زمان الخصب بأكل

البقرات العجاف للبقرات السمان، وَلَمَّا كان الأكل في طرف المشبَّه به البقرَ جعل الأكل في طرف المشبَّه السنةَ لينطبق الأكلان، ويتناسب المعبَّر الذي هو البقرات السبع العجاف، والمعبَّر به الذي هو أعوام القحط السبع، في إسناد الأكل إليهما، ولو قدِّر مضاف هكذا: «يأكل أهلهنَّ» لفات التطابق، وفي الآية المشاكلة.

﴿**إِلَّا قَلِيلاً**﴾ القِلَّة بالنسبة إلى المأكول ولو حصلت الكثرة، والقليل المستثنى بالنسبة إلى الأقدم، فالأقدم يبدأ في سني الجدب بالمدَّخر الأقدم في سني الخصب، فيؤكل ذلك المدَّخر الأقدم إلَّا قليلا للحرث ﴿**مِمَّا تُحْصِنُونَ**﴾ تحرزون للحرث بعد سني القحط.

﴿**ثُمَّ يَاتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ**﴾ بعد ما ذكر من سني القحط، والبعد للتفخيم، والإشارة تلويح للوصف ﴿**عَامٌ فِيهِ**﴾ قدِّم للاهتمام، أو للحصر بالنسبة إلى السنين الشداد ﴿**يُغَاثُ**﴾ مضارع غاث الثلاثي متعدٍّ، يقال غاثنا المطر: أصابنا، وغاثنا الله بالمطر، والألف عن ياء، قالت أعرابيَّة: غُثنا ماشيتنا، بضمِّ الغين وكسرها مبنيًّا للمفعول وماشية بدل اشتمال.

﴿**النَّاسُ**﴾ المعهودون ببلاء القحط، أو «ال» للاستغراق العرفيِّ، وقد ذكر في بعض الأخبار أنَّ القحط في تلك السنين القحطية عمَّ الدنيا كلَّها، وأنَّه مات فيه أهل مدن كثيرة، فتكون «ال» للاستغراق الحقيقيِّ، وَيَدُلُّ له ما يتبادر من الغيث من أنَّه المطر، وأهل مصر والنيل لا ينتفعون بالمطر، إلَّا أنَّه على هذا يبقى أهل مصر غير مذكورين، فلعلَّ الغيث على عمومه بعضَ الأقاليم بالمطر وبعضها بالنيل، وقد يقتصر على المطر لأنَّ مادَّة النيل الإمطار في أعاليه.

أو المراد الغوث من القحط، والغوث بمعنى الإغاثة وهو رباعيٌّ واويٌّ، والتنجية يعمُّ كلَّ ذلك في كلِّ موضع قصد ﴿**وَفِيهِ يَعْصِرُونَ**﴾ قدِّم «فِيهِ»

للاهتمام، وأمَّا الحصر فلا إلَّا باعتبار سني القحط، وأيضا قدِّم للفاصلة. ولم يؤت بمفعول «يَعْصِرُونَ» للعموم، بحيث ينطلق على ما يصلح عصره على الإطلاق، من زيت وماء عنب، وسكَّر وسمسم وغير ذلك مِمَّا يعصر من النبات والثمار، وكأنَّه قيل: يعصرون الزيت وماء العنب ونحو ذلك.

وقيل: ﴿يَعْصِرُونَ﴾ ينجون أي من القحط كما قال أبو زبيد في الإمام عثمان:

صاديا يستغيث غير مغاث ... ولقد كان عصرة المنجود[1]

أي منجاة المنجود، وقيل: ﴿يَعْصِرُونَ﴾: ينالون المطر، وقيل: ﴿يَعْصِرُونَ﴾: يحلبون الضروع، **ولا مانع من كلِّ ذلك.**

ولا مدخل لقوله: ﴿ثُمَّ يَاتِي... وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ لتعبير الرؤيا، فإنَّه خارج عنها، بل علم ذلك بالوحي، أو الإلهام، أو بانتهاء الجدب بالخصب، أو بأنَّ عادة الله التوسعة بعد الضيق.

إذا حل أمر فانتظر وقع ضدَّه ... كعسر ويسر والقُحُوطة والخصب[2]

واعترض بأنَّه لو كان كذلك لأجمل في البشارة، وأنَّ حصر الجدب يقتضي تغييره بخصب مَّا، لا على ما ذكره، وهو بشارة بشَّرهم بها تعقب تمام تأويل الرؤيا بالسنين المخصبة، في مقابلة البقرات السمان، والسنبلات الخضر، وبسني الجدب في مقابلة البقرات العجاف والسنبلات اليابسة، وقد كان يكفي البقرات السمان أو السنابل الخضر مع البقرات العجاف أو السنابل اليابسات، لكن جمع ذلك لكمال السعة والشدَّة.

---

(1) أورد صاحب اللسان البيت ونسبه إلى أبي زبيد حرملة بن المنذر وقال عنه: يرثي ابن أخته الذي مات عطشا في طريق مَكَّة، ولا يبعد ما قاله القطب في أنَّ البيت في حقِّ عثمان لأنَّ الشاعر حسب ما قيل عنه إنَّهُ من الخائضين في فتنة الصحابة وبني أميَّة، وتوفي سنة 60هـ.

(2) البيت للشيخ أبي نصر فتح بن نوح الملوشائي النفوسي من علماء القرن السابع الهجري، من قصيدته البائية في الأخلاق والحكم ومطلعها:

رحيلي من الدنيا بغير تباعة ... إلى رحمة المولى تمام المُنى، حسبي

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿50﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿51﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿52﴾﴾

خروج يوسف من السجن وبراءته

﴿**وَقَالَ الْمَلِكُ**﴾ الريان لَمَّا أخبره الساقي بتأويل الرؤيا عن يوسف ﴿**ائْتُونِي بِهِ**﴾ أي بيوسف، بهذا المعبِّر لرؤياي تعبيرا لائقا غريبا لعلمه وفضله ﴿**فَلَمَّا جَاءَهُ**﴾ أي يوسفَ ﴿**الرَّسُولُ**﴾ ليخرجه من السجن إلى الملك، وقال: اخرج بإذن الملك الريان وائتِه، وهو الذي استفتاه وهو الساقي، وفي الكلام حذف هكذا: فجاءه ليأتي به إلى الملك، فلَمَّا جاءه... إلخ ﴿**قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ**﴾ سيِّدك الريان ﴿**فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ**﴾ شأن ﴿**النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ**﴾ لَأنَّه إذا أقررن بما علمن من شأنه معهنَّ ومع امرأة العزيز المقرَّة باستعصامه تحقَّق على المعتاد عنده أنَّه بريء.

وفي الآية حثُّ الإنسان على نفي التهم عنه. روي أنَّ رجلا مرَّ على رسول الله ﷺ ومعه امرأة فقال: «**هذه زوجي**»، وفي رواية: «**هذه زوجي فلانة**» فقال الرجل: كلُّ من أظن به لا أظن بك، فقال ﷺ: «**إنَّ الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم**»(1) يعني فقد يمكن أن تظنَّ بي. وكان الزمخشري يقضي

(1) رواه **البخاري** في كتاب الاعتكاف، باب زيارة المرأة زوجها في اعتكافه. ورواه **مسلم** في كتاب السلام، رقم 4040. من حديث عليِّ بن الحسين.

بين الناس، وكلّ بلد دخله قاضيا أخبرهم أنّ رجله سقطت لثلج في سفر لا لجناية، وكان يمشي بخشبة.

وقوله: ﴿فَاسْئَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ﴾ أوكد من قوله: فاسأله أن يفتِّش عن حالهنَّ، لأنَّه إن قال: اسأله أن يفتِّش كان ذلك حكما عليه، فقد يأنف ويلغيه بخلاف السؤال عن حالهنَّ فقد يحرِّكه للبحث بلا أنفة، لأنَّ النفس تحبُّ الاطِّلَاع على ما خفي، ولأنَّه يأنف أن يمسك عن شيء جاهلا له مع أنَّه قد طلب بمعرفته، ولم يتعرَّض لامرأة العزيز مع أنَّها السبب في تلك الشدائد تأدُّبا معها، وإكراما لها، ولأنَّها قد أقرَّت وافتضحت، ولأنَّه خاف أن تزيد فيه مكرا آخر، وهو يراها على ضلالها القديم، ولذلك التأدُّب قابلته بإقرارها بنزاهته، واستعمل الجميل مع النسوة إذ اقتصر على ذكر التقطيع والكيد دون ذكر المراودة.

﴿**إِنَّ رَبِّي**﴾ الله، وزعم بعض أنَّ المراد: إنَّ سيِّدي الريان، وهو عالم بأمرهنَّ مع يوسف ﴿**بِكَيْدِهِنَّ**﴾ قولهنَّ: أطع مولاتك، ومراودتهنَّ له إلى أنفسهنَّ، وقيل: الضمير للنساء مطلقا على طريق الاستخدام، فتدخل هؤلاء النسوة بالأولى والبرهان، والأوَّل أولى ﴿**عَلِيمٌ**﴾ استعظم كيدهنَّ فاستشهد عليه بعلم الله وعلى براءته من ذلك، وفي ذلك تضمُّن الوعيد لهنَّ عند الله، فإنَّ الصحيح ﴿إِنَّ رَبِّي﴾ بمعنى الله، ولو جاز أن يكون الريان على أنَّ لفظ «رب» يقال للملك، أو باعتبار ما يقال في العَامَّة له من أنَّه ربٌّ لهم، أي سيِّد، أو باعتبار أنَّ يوسف مرميٌّ بالعُبُودِيَّة، وما يقال: لأنَّه ربَّاه لا يظهر، لأنَّه ربَّاه العزيز، إلَّا أن يقال: مال العزيز من الملك، أو متسبّب منه.

ولم يعجِّل بالخروج ليبرئ ساحته أوَّلاً، فلا يجد أحد إليه سبيلا بالريبة والتهمة أو البهتان، على أنَّه علم بالوحي أو الإلهام أنَّهنَّ يقررن فلا ينظر إليه الملك بالعين الأولى، قال رسول الله ﷺ: «**رحم الله أخي يوسف لو**

دعيت من السـجن لأعجلت الخروج»[1] ولفظ الطبراني وابن راهويه وابن مردويه عن ابن عَبَّاس وابن مسعود ﵄: «**لو كنت مكانه ولبثت في السجن ما لبث لأسـرعت الإجابة**»[2]، وفي رواية: «**لقد عجبت من يوسـف وكرمه وصبره، والله يغفر له: حين سـئل عن البقرات العجاف والسـمان ولو كنت مكانه ما أخبرتهم حتَّى يخرجوني، ولقد عجبت منه حين أتاه الرسول فقال: ارجـع إلى ربِّك، ولـو كنت مكانه ولبثت في السـجن ما لبث لأسـرعت الإجابة وبادرتهم البـاب، ولَمَا ابتغيت العـذر أنْ كان لَحليمـا ذا أناة**»[3] قال ﷺ ذلك تواضعا، وإلَّا فحلمه وصبره ليس دون يوسـف، وقوله: «يغفر الله له»، توقير كمـا يقال: عفا الله عنك مـا جوابك، أو قـال: «غفر الله له» لاشـتغاله بإظهاره براءة نفسـه عن تبليغ التوحيد، وفيه أنَّ الاشتغال بذلك شـهيد لقبول قوله، لأنَّ الأنبياء مبرَّؤون عمَّا يتَّهمون بـه، أو قال ﷺ: «لو كنت...»إلخ تعليما لباب انتهـاز الفرصة، فقد يظهر للملـك أمر يمنع من إخراجه حين تأخُّره عن الخروج، «أو ذلك جري على مقتضى سـعة رحمة الله أكثر من وسعها على غيرها»[4].

﴿**قَـالَ**﴾ الملك ﴿**مَـا خَطْبُكُنَّ**﴾ الخطـب: الأمر العظيم الـذي يحقُّ أن يخاطب في شـأنه أو لأجله صاحبه، ويخطب فيه الناس، ولذا قال الجوهري: الخطب سـبب الأمر. ﴿**إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِـهِ**﴾ أراد زليخاء أو راعيل،

---

(1) أورده **الهندي** في الكنـز، ج 11، ص 514، رقم 32402، وقال: رواه أحمـد في الزهد وابن المنذر عن الحسن مرسلا.

(2) أورد نحوه **الهندي** فـي الكنز، ج 11، ص 514، رقـم 32401، وقال: رواه ابـن جرير وابن مردويه عن أبي هريرة.

(3) رواه **الطبراني** في الكبير، ج 11، ص 199. **والهندي** في الكنز، ج 11، ص 514، رقم: 32403. من حديث ابن عَبَّاس.

(4) زيادة انفردت بها نسخة (أ).



والاســـمان لامرأة العزيز، وهي التي راودته وحدها وخاطبهنَّ بالمراودة كلَّهنَّ سترا عليها، وهي في جملتهنَّ حاضرة، فذلك حكم على المجموع كلٌّ لا كلِّيَّة.

وقيل: راودنه كلُّهنَّ، وقيل: عدَّ قولهنَّ: أطـع مولاتك مراودةً، لأنَّ قولهنَّ تحصيل لمراودته زليخاء، وكذا يوسف إذ قال: ﴿مَا بَالُ النِّسْوَةِ﴾ ولم يقل: ما بال زليخـاء فعلت ما فعلت إبقاء عليهـا، وأدبا معها، ومراعاة لِمَا سـبق من إكرامها إِيَّاهُ. و«إِذْ» متعلِّق بـ«خَطْب»، إذ المعنى: ما فعلتنَّ إذ راودتنَّ يوسـف عن نفسه هل وجدتنَّ منه ميلا إليكنَّ؟.

﴿**قُلْنَ حَاشَ لِلهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُــوءٍ**﴾ زنى أو إشـارة إليه، أو خيانة أو ذنبا، وذلك تعجُّبٌ من قدرة الله تعالى على خلق عفَّة يوسف مع وجود الملاذِّ، وذلك بعد إطلاعهنَّ على براءته. وسمِّي الذنب سوءا لأنَّ القلب يغتمُّ به.

[لغة] ﴿**قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ اِلَانَ حَصْحَـصَ الْحَقُّ**﴾ تَبَيَّنَ بعد خفاء، قاله الخليل بن أحمـد رَحِمَهُ اللهُ[1]، أو بانت حصَّة الحقِّ من حصَّـة الباطل وتميَّزت، وهو راجع إلى ما قال الخليل، وقيل: معناه ثبت ورسـخ كما يقال: حَصْحَصَ البعير إذا ألقى مباركه ليناخ.

[صرف] قال في شرح التسـهيل: «الآن» هنا بمعنى القرب مجازا فيصحُّ مع الماضي والمسـتقبل، وهو اسـم، لدخول «ال» وحرف الجرِّ، يقال: إلى الآن، ومن الآن، بفتح النون مع دخول الجارِّ، فهو مبنيٌّ، لأنَّه اسـم إشـارة، والإشـارة إنشـاء كهلَّا وهل ولعلَّ، وضع مـن أوَّل الأمر علـى «ال» لمعنى

---

(1) الخليل بن أَحمد بن عمرو بن تميـم الفراهيدي الأزدي اليحمدي مـن أَيمَّة اللغة والأدب وواضع علم العروض، أخذه من الموسيقى، وكان عارفا بها، وهو أستاذ سيبويه في النحو، ولد ومات في البصرة، وعاش زاهدا فقيرا صابرا، مغمورا في الناس لا يعرف، قال النضر بن شميل: ما رأى الراؤون مثل الخليل، له عدَّة كتب رائدة، ولد سنة 100هـ ومات سنة 170هـ. الأعلام للزركلي ج 2، ص 314.

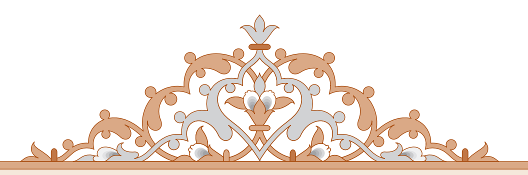
الإشارة، فلا يعترض بأنَّ اسم الإشارة لا يدخله «ال»، وألفه عن واو لأنَّه يفسَّر بالأوان، أو عن ياء من آن يئين: قرب، واعترض بأنَّه ليس بمعنى القرب.

﴿أَنَا رَٰوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ﴾ لا هو راودني، ومثل هذا اختصاص، وهو كالحصر، كقوله: أنا فعلت، أي لا غيري ﴿وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في قوله: ﴿هِيَ رَٰوَدَتْنِي﴾ هذا أولى من قولها: إنَّهُ لصادق، لأنَّه كالبرهان، قالت ذلك لَمَّا رأت منه الستر عليها، ومراعاة الأدب معها، إذ قال: ﴿مَا بَالُ النِّسْوَةِ﴾ ولم يذكرها مع أنَّ الفتنة كلَّها من جهتها.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي قال يوسف طلب إظهار البراءة ﴿لِيَعْلَمَ﴾ أي العزيز وقد بعُد ذكره لكن دلَّ عليه قوله: ﴿أَنِّي لَمَ اَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ أي في أهله، والباء ظرفيَّة متعلِّقة بـ«أَخُنْهُ»، أي في مكان الغيب عن وجهه، أو زمان الغيب عنه، أو متعلِّق بمحذوف حال من الهاء، أو ضمير «أَخُنْ»، وقيل: ضمير «يَعْلَمَ»، وهاء «أَخُنْ» لله ﷻ، والصحيح الأوَّل.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَآئِنِينَ﴾ أي لا ينفذه فهو زائل، وهداية الكيد مجاز عن إنفاذه، بعلاقة اللزوم، والتنفيذ لازم للهداية، أو استعارة تبعيَّة إذ التنفيذ كالهداية في وصول المطلوب، أو لا يهدي الخائنين بكيدهم، فالمجاز في الإيقاع.

والهداية على حقيقتها أوقعت على الكيد، لكونها سببا لعدم الهداية، وإذا عدم السبب عدم مسبَّبه بالأَوْلى، وفيه تعريض لزليخاء أو راعيل أنَّها خانت العزيز. وقد يقال: ضمير «يَعْلَمَ» للملك، أي ليعلم الملك، أنِّي لم أخنه في وزيره العزيز، لأنَّ خيانة الوزير خيانة للملك، وفي ذلك أيضا تأكيد لأمانته، أي لو كنت خائنا لم يهد الله كيدي، وسمَّى ثباته كيدًا للمشاكلة، أو استعارة، وصاحب الفعلة السيِّئة لا يذكر صاحبها بسوء، ولا يدعو عليهم لأنَّ ذلك ذكر لنفسه ودعاء عليها ولكونه تأكيدا عقَّبه متواضعا بقوله:



﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥٣﴾

النفس أمَّارة بالسوء

﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيَ﴾ عن السوء من حيث هي هي، بل من حيث عصمة الله إنعاما عليَّ، ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [سورة الضحى: 11] ﴿إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ فتستخدم الجوارح في المعصية، تميل بالطبع إلى الشهوات وتعرض عن الطاعات، سواء أنفس الأبرار وأنفس الفجَّار، لا يمكن دفعها في بدء الأمر، وإنَّما المعتبر ثاني الحال، فيُقدم إليها من لم يقارنه التوفيق، فيجوز أن يكون المعنى: وما في وسعي أن أبرِّئ نفسي عن الهمِّ بما تشتهي، وإنَّما دفعته ببرهان.

[أصول الدين] وروي أنَّه لَمَّا قال: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَآئِنِينَ﴾ أو إذ قال: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾ أو إذ قال: ﴿لَمَ اَخُنْهُ﴾ قالت هي أو جبريل: ولا حين هممت؟ أو قالت: ولا حين حللت السراويل؟. وأجاز بعضهم الصغيرة على الأنبياء قبل النبوءة، وأنت خبير بأنَّه لم يَصِحَّ حلُّ السراويل ولا الهمُّ إلَّا الخطور، بل مطلق ما بالطبع لا يدخل تحت التكليف، فأجابهما بقوله: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيَ﴾ في أحوالها وليس هذا إقرارا، اللهمَّ إلَّا أن يقرَّ لجبريل عليه السلام بالهمِّ الطبعي الذي لا يدخل تحت التكليف، وليس قصدا إليها فيكون جبريل قابله بما هو طبعي تنبيها وزيادة في اتِّضاعه.

﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ «ما» مَصدَرِيَّة، والاستثناء منقطع، والمعنى: لكن رحمة ربِّي هي المعتبرة، أو الصارفة عن السوء، كقوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ

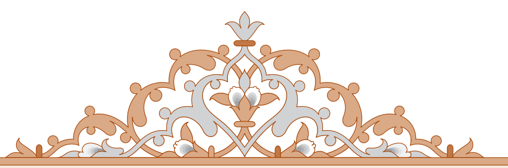
يُنقَذُونَ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا﴾ [سورة يس: 43ـ44]؛ أو اسم واقع على النفس، والاستثناء من النفس، أو من المستتر في «أَمَّارَةٌ» متَّصل، أي إلَّا ما رحم ربِّي من النفوس، كنفوس الملائكة والأنبياء فلا تأمر بالسوء.

والنفس غير عاقل فصحَّت له «ما»، فهو أولى من إيقاع «ما» على الأنبياء، لأنَّهم عاقلون، قيل: أو «ما» مَصدَرِيَّة والمصدر ظرف، أي إلَّا رحمة ربِّي، أي وقت رحمة ربِّي، فإنَّها لا تأمر بالسوء، وفيه التفريغ في الإثبات، والمعنى لأمَّارة بالسوء في جميع الأوقات إلَّا وقت رحمة ربِّي، والمراد جنس النفس لا الاستغراق، فلا تدخل نفس يوسف والأنبياء مع أنَّ أكثر الأوقات لا تأمر فيه أنفسهم بالسوء.

وقيل: الآية إلى قوله: ﴿**إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ من قول زليخاء فتكون داخلة في قوله: ﴿قَالَتِ اِمْرَأَةُ الْعَزِيزِ﴾ فيكون المعنى: [كان مِنِّي] ذلك الاعتراف ليعلم يوسف أنِّي لم أخنه بنسبة المراودة إليه، والافتراء عليه في غيبته، كما نسبناها إليه في حضوره، والجمهور على أنَّ ذلك من كلام يوسف.

قال أبو حيَّان: لا يبعد وصل كلام إنسان بكلام إنسان آخر كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً...﴾ وصل بكلام بلقيس قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [سورة النمل: 34] وليس منه، هذا وجه. اهـ

والنفس: البدن والقلب، والنفس: العقل، والنفس: شيء كالعقل إذا دعا للمعصية فالأمَّارة بالسوء، وإذا امتنعت فاللوَّامة، وإذا أمرت بالطاعة فالمطمئنَّة، و﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ﴾ لمن استغفر من ذنبه بعينه، أو من ذنوبه عموما، ولم يقصد الإصرار على واحد منها، وذلك من كلام المرأة خال عن الإشكال، وعلى أنَّه من كلام يوسف غير اعتراف بأنَّه همَّ ولا خان، لكن جاء به عموما أو هضما لنفسه بأن عدَّ الهمَّ الذي هو ضروريٌّ لا يدخل تحت التكليف ذنبا، أو أراد غفران ذنب زليخاء وهي راعيل.



﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ﴿54﴾ قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ﴿55﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿56﴾ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿57﴾﴾

يوسف في رئاسة الحكم ووزارة المالية

﴿**وَقَالَ الْمَلِكُ ايتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي**﴾ من شأن الملوك أن يوثروا أنفسهم بما هو نفيس، كأرض في الربيع زاهرة، وجوهرة لا يوجد مثلها، ووزير عظيم الشأن، وعالم ماهر، فاختار يوسف مختصًّا به لكماله صبرا وعلما وإحسانا وأدبا وتعبيرا وورعا. وهذا جواب محذوف، أي لَمَّا عبَّر الرؤيا قال: ﴿ايتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ فيكون قال: إيتوني به مرَّتين، قال أوَّلاً: إيتوني به لأنَّه عبَّر الرؤيا، وقال ثانيا: إيتوني به أختصُّ به لأمانته وفوائده.

[قصص] فعاد الرسول الأوَّل إلى يوسف في السجن بعد التعبير وهو في السجن، وقال: أجب الملك في الحين، واطرح ثياب السجن والبس ثيابا حسنة جددا واغتسل، فقام وودَّع أهل السجن ودعا لهم ولأهل السجن مطلقا: «اللهمَّ عطِّف عليهم قلوب الأخيار، ولا تعم عليهم الأخبار»، قيل فمن ذلك يوجد في السجن من الأخبار ما لا يوجد في غيرها، ثمَّ اغتسل ولبس ثيابا حسانا، وكتب على باب السجن من خارج: «هذا بيت البلوى،

وقبر الأحياء، وشماتة الأعداء، وتجربة الأصدقاء» ودخل على الملك فكلَّمه وشاهد منه الملك الرشد.

﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ﴾ وشاهد منه ما يوجب الرغبة فيه. والضمير في «كلَّم» ليوسف، والهاء للملك.

[قصص] سلَّم عليه بِالعَرَبِيَّةِ فقال الملك: ما هذا اللسان؟ قال: لسان عمِّي إسماعيل، ودعا له بالعبرانيَّة، فقال له: وما هذا اللسان؟ قال: لسان آبائي. وكان الملك يتكلَّم بسبعين لغة ولا يعرف العَرَبِيَّة والعبرانيَّة، وكلَّما كلَّمه بلسان أجابه بما تكلَّم به وزاد بِالعَرَبِيَّةِ والعبرانيَّة، فأعجبه أمره مع صغر سنِّه ـ ابن ثلاثين سنة ـ فأجلسه إلى جنبه.

وقيل: الضمير في «كَلَّمَ» للملك، والهاء ليوسف، لأنَّ الملوك هي التي تبدأ بالكلام، والصحيح ما تقدَّم، فإنَّه عهد أن يبدأ الداخل بالسلام والثناء فكذا فعل يوسف.

وقد روي أنَّه لَمَّا أراد الدخول قال: «حسبي آخرتي من دنياي وحسبي ربِّي من خلقه، عزَّ جارك وجلَّ ثناؤك، ولا إله غيرك» ولَمَّا دخل على الملك قال: «اللهمَّ إِنِّي أسألك من خيره وأعوذ بعزَّتك وقدرتك من شرِّه»، ولكن هذا قد يقوله سرًّا أو حيث لا يسمعه الملك. ويقدَّر فأتوا به ودخل على الملك فكلَّمه، فلمَّا كلَّمه، والحذف للدلالة على سرعة الإتيان به كأنَّه اتَّصل بقوله: ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ﴾.

وروي أنَّه قال له: أحبُّ أيُّها الصدِّيق أن أسمع تفسير رؤياي من لسانك، ففسَّرها كما ذكرها عنه الرسول بلا نقص ولا زيادة، ولا تقديم ولا تأخير، ولم يكن حاضرا مع النسوة في المجلس، وزعم بعض أنَّه حاضر وأنَّ معنى: ﴿ايتُونِي بِهِ﴾ قرِّبوه إليَّ.

﴿قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا﴾ الظرفان متعلِّقان بـ«مَكِينٌ»، والمراد باليوم عصري ﴿مَكِينٌ﴾ ذو تمكُّن ورسوخ في قلوبنا وملكنا والجاه، ﴿أَمِينٌ﴾ على



أموالنا وأحوالنا، من أمور السلطنة والوزارة، وقيل: أمين من كلِّ مكروه لا تخاف ممَّا مرَّ عليك، فماذا ترى أيُّها الصديق في أمر السبع المخصبة والسبع المجدبة؟[1]، فقال: اجمع الطعام وأكثر الحرث في السنين المخصبة، واخزن الحبوب للناس، والتبن والقصب أيضا للدواب، وتأمر الناس أن يرفعوا الخمس من زروعهم فيكفيك لأهل مصر ومن حولها، ويأتيك الناس من سائر النواحي للميرة فيجتمع عندك من الكنوز ما لم يجتمع لأحد قطُّ، ولو زرعت على حجر لأنبت وأثمر، وذلك من الله ﷻ.

[قصص] وروي أنَّه لَمَّا قال: أحبُّ أن أسمع منك، قال: رأيت سبع بقرات سمان خرجن من النيل يقطرن لبنا، ونظرت إليهنَّ معجبا، فغار النيل فخرج من طينه سبع عجاف بأنياب وأضراس وأكف الكلاب وخراطيم السباع، فأكلن لحوم السمان، ومخَّهنَّ، وأنت تنظر معجبا إذ لم يسمنَّ، ورأيت سبع سنابل خضرا وسبعا يابسات في منبت واحد ماء وثرى، وأنت تتعجَّب في اختلافهنَّ مع اتحاد المنبت، فهبَّت ريح أضرمت اليابسات على الخضر فنتبهت مذعورا، فقال: والله ما أخطأت فيما رأيت في المنام، وما رؤياي بأعجب من علمك بها، كأنَّك الرائي ومن تفسيرها.

ولَمَّا قال: اجمع الطعام فتأتيك أهل النواحي للميرة، قال: من لي بذلك الحرث والخزائن وذلك التصرُّفات؟، وأهل مصر كلُّهم لو جمعتهم ما أطاقوا ذلك، وليسوا مأمونين على ذلك فمن يكفيني ذلك؟ فقال يوسف ما قال الله ﷻ عنه: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ الْاَرْضِ﴾ خزائن الطعام والأموال، خزائن أرض مصر التي تحت يدك، وقال الربيع بن أنس: اجعلني على خزائن خراج مصر، فأجلسه على السرير وفوَّض الأمر إليه، وذلك كلُّه بعد عبر الرؤيا، وزعم بعض أنَّه قبل عبرها، قيل: جعله وزيرا، وقيل: أسلم السلطنة إليه.

(1) في نسخة (أ) و(د) زيادة: «قيل: ابتلاهم الله بالسبع المجدبة لأنَّه أقام في السجن سبعا وهو مظلوم».

[قصص] وروي أنَّه توفِّي قطفيــر زوج زليخاء أو راعيل في تلك الليالي فجعله في مرتبته فزوَّجه زليخاء أو راعيل فوجدها عذراء، وكان قطفير عنِّينا، فيما قيل، وولدت له إفرائم وميشـا والد رحمة زوج أَيُّـوب في قول، ويقال: ميشـا جدُّ يوشـع، وقيل: رحمة زوج أَيُّوب هي بنت يوسـف، وقيل: لم يلد يوسف، وقيل: لم يلد نبيئا، وتزوَّجها بلا عدَّة لجواز ذلك في دين يوسف فيما قيل، والمشهور أنَّه تزوَّجها بعد مدَّة طويلة، وبه قال القرطبي.

[قصص] وروي أنَّه أصابتها حاجة فقيل لها: لو أتيت يوسف؟ فقيل لها: لا تفعلي نخافه عليك، قالت: **لا أخـاف مِمَّن خاف اللهَ تعالى**، فأدخلت عليه، وقالت: الحمد لله الذي جعل العبيد ملـوكا لطاعته، والملوك عبيدا بمعصيته، فقضى حاجتها وتزوَّجها، وقيل: قالت له ذلك في الطريق فعرفها وقضى لها، وتزوَّجها، وَلَمَّا آذاه قطفير وهو العزيز أورثه منصبه وزوجه، وقيل: عزله وولَّى يوسـف ولم يتزوَّجها إلَّا بعد موته، وبحـث فيه بأنَّ المـؤذي زوجه، قلت: كلاهما لأنَّ زوجها وافقها، ويقال: **لَمَّا تنزَّه عن السوء أنعم الله عليه بذلك.**

﴿**إِنِّي حَفِيظٌ**﴾ للخزائن في السنين المخصبة والمجدبة بحساب لا أضيِّعها، ولا تضيع لمحافظتي عليهـا بإذن الله ﴿**عَلِيمٌ**﴾ بمصالحهـا، وبالكتابة وبوقت الجوع، وبلغات من يأتيني وبأمر الدين، فقـال الملك: ومن أحقُّ بذلك منك؟ فجعله عليها وقد كان الملك يعرف عنه أنَّه من أهل دين الله، ولكن لا يعرف أنَّه من أهل العلم بأمر الدنيا أيضا، فقال له يوسف: إنِّي عارف بهما جميعا.

[فقه] وإنَّما طلب الجعل علـى خزائن الأرض ليقـوم بمصالح العباد، وهذا الطلب واجب عليـه لأنَّه يجب على الأنبياء القيـام بمصالح الأمم دينا ودنيا[1]، ولولا ذلك الطلب لماتت أمم بالجوع. ووصف نفسه بالحفظ والعلم

(1) وكذلك على من يستطيع من غيرهم قال الشيخ السالمي ﷺ:

والاهتمـام بمصالـح الـورى فرض علـى كلِّ امرئ مـا قدرا

ليتوصَّل إلى مصالح العبـاد والقيام بالدين لا ترفُّعـا، ووصْفُ النفس بذلك ـ لغرضٍ جائزٍ شـرعا أو واجبٍ ـ غيرُ مكروه ولا محرَّم، بل هو من الشـرع، ويجب حيث يجب، فلا يشـكل على ذلك قوله ﷺ لعبد الرحمٰن بن سـمرة: «**لا تسأل الإمارة، فإنَّك إن أوتيتها عن مسألة وكلت إليها، وإن أعطيتها عن غير مسألة أُعنت عليها**»[1] لأنَّ الحديث في طلبها لغرض النفس من مال أو فخر.

وعن مجاهد: إنَّ الملك أسـلم على يد يوسف قبل هذا الطلب، مع أنَّا لا نسلِّم أنَّ طلب الولاية من مشركٍ أو موحِّدٍ جائرٍ لإقامة الدين أو مصالح الخلق ممنوع إذا كان غرض الطالب ذلك، ولا يتبعه في جوره أو ديانته، وإلَّا فحرام، كبعض قضـاة العصر يطلبونهـا أو يقبلونهـا، ويتَّبعون أحكامهـم، ويوفِّرون مصالحهم[2]، ويقصدون جمع الأموال، ويحكمون تارة بالجهل وتارة بالجور عمدا، قال ابن عَبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال رسـول الله ﷺ: «**رحم الله أخي يوسـف لو لم يقل اجعلني على خزائن الأرض لاستعمله من سـاعته ولكنَّه أخَّر ذلك سنة**» رواه البغوي ولا أعرف أنَّه صحيح.

﴿**وَكَذَٰلِكَ**﴾ أي كما أنجيناه من السجن، أو كما مكَّناه من عبر الرؤيا، أو تأكيد لِمَا بعدُ. ﴿**مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الاَرْضِ**﴾ أرض مصر، وهي أربعون فرسخا في أربعين فرسـخا، فـ«ال» للعهد، والمراد مكَّنَّا الأمور أو مكَّنَّا يوسف على زيادة اللام. ﴿**يَتَبَوَّأُ**﴾ ينزل ﴿**مِنْهَـا**﴾ أي في بعضها فـ«مِنْ» تبعيضيَّة، أو فيها، ويضعف أن يكون المعنى: يتَّخـذ بعضها منزلا. ﴿**حَيْثُ**﴾ متعلِّـق بـ«يَتَبَوَّأُ» وزعم بعض أنَّه مفعول لـ«مَكَّنَّا» ﴿**يَشَآءُ**﴾ أي هو يوسف، وهو الظاهر، أو الله

---

(1) رواه **البخاري** في كتاب الأيمـان والنذور، باب قوله تعالـى: ﴿لاَ يُوَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ...﴾، رقم 6248. ورواه **مسـلم** في كتاب الأيمـان، رقم 3120. ورواه **الترمـذي** في كتاب النذور والأيمان. من حديث عبد الرحمٰن بن سمرة.

(2) الضمير يعود للمشركين والحكَّام الجورة.

على طريق الالتفات، كما قرئ: «نَشَــآءُ» بالنون، وهي قــراءة غير قراءتنا عن نافع، وكما يناسبه قوله: ﴿نُصِيبُ﴾ بالنون.

﴿**نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَــآءُ**﴾ في الدنيا المؤمــن والكافر، وقيل: المراد الكافر، والمراد التوسيع وإلَّا فكلُّ حيٍّ في نعمة من الله ولو في أضيق عيش، قال الله ﷻ: ﴿عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَــآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [سورة الإسراء: 18] أي نوسِّع له وهو كافر، فالنعمة تصيب الكافر ولا يشكرها، ولا وجه لقولك: لا نعمة على كافر، إلَّا [على] معنى أنَّه يزيد بها كفرا فينتقم منه.

﴿**وَلَا نُضِيعُ أَجْــرَ الْمُحْسِــنِينَ**﴾ في الدنيــا ولا في الآخــرة، وقد يوفَّر للمحسن للآخرة وليس التوفير تضييعا.

قال ســفيان بن عيينة: المؤمن يثاب على حســناته فــي الدنيا والآخرة، والكافر يعجَّــل له في الدنيا وما لــه في الآخرة من خلاق، وتــلا هذه الآية، والحكم أكثريٌّ لا كلِّيٌّ، وفي الحديث: «**أشــدُّ الناس بــلاء الأنبياء ثمَّ الأمثل فالأمثل**»[1]. وأيضا قيَّد المشيئة بالنسبة إلى مجموع الدنيا والآخرة.

[قصص] أعطاه الملك تاجه وســيفه وخاتمه، وســريره الذي هو مذهَّب مكلَّل باليواقيت في طول ثلاثين ذراعا وعرض عشرة، وثلاثين فراشا وستِّين نمرقة، وحلَّة من اســتبرق فأمره أن يطلع الســرير فخرج إليه بالتاج، ووجهه كالقمر يرى فيه الوجه من صفائه، ودانت له الملوك.

[قصص] وقيل قال: أَشُدُّ بالســرير ملكك وأدبِّر أمرك بالخاتم، ولا أقبل التاج، فليس من لباســي ولا لبــاس آبائي، فقال الملــك: تركته إجلالا لك، ودخل يوســف على زليخاء أو راعيل ووجدها عذراء ناعمــة فقال لها: أليس

(1) رواه **الترمذي** في كتــاب الزهد (56) باب ما جــاء في الصبر والبلاء، رقــم 2398. وأورده **الهندي** في الكنز، ج 3، ص 6778. من حديث مصعب بن سعد.

هذا الحلال أولى؟ فقالت: لا تلمني أيُّها الصدِّيق فإنِّي ناعمة وزوجي لا يشتهي النساء وأنت في جمالك الفائق.

[قصص] وشهر أنَّه تزوَّجها بعد عماها وكبرها وفقرها، وكانت تتكفَّف فتعطى أو تمنع، فقيل لها: لو تعرَّضت ليوسف إذا خرج، وكان يخرج في مائة ألف من عظماء قومه كلَّ أسبوع، ففعلت، فقالت: سبحان من جعل العبيد ملوكا بالطاعة والملوك عبيدا بالمعصية، فقال: ما هذا فعرفها وبكى شديدا وتزوَّجها، وزفَّت إليه فصلَّت وراءه ودعا الله أن يردَّ بصرها وشبابها وجمالها. وروي أنَّه قال لها لَمَّا تعرَّضت له: هل بقي من حبِّك شيء؟ فقالت: خذ طرف عكَّازي، فكان يندفع في يده متَّصلا بصدرها[1].

[قصص] وروي أنَّه أحبَّها أضعاف حبِّها فقال: ما شأن حبِّك لي نقص؟ فقالت: لشغل قلبي بحبِّ الله، وروي أنَّها تصلِّي فجذبها فقدَّ قميصها من دبر، قال جبريل: قد انقدَّ.

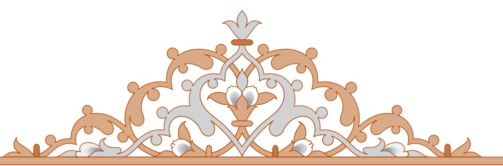
[قصص] واشتغل يوسف ببناء البيوت للطعام، ويقال: إنَّه كان يعطي الملك وحاشيته مرَّة نصف النهار، قيل: وأوَّل من أصاب الجوع الملك نصف الليل فنادى: يا يوسف الجوع الجوع، فقال يوسف: هذا أوَّل وقت القحط، وكان يوسف لا يشبع فقيل له: بيدك خزائن الطعام! فقال: أخاف نسيان الجائع إن شبعت، وأمر أن يطبخ للملك نصف النهار لئلَّا ينسى الملك من جاع، فكانت عادة الملوك الأكل نصف النهار، وفي أوَّل المجدبة قال الله ﷻ لجبريل: «ألَا تَرى كيف يأكل عبادي رزقي ويعبدون غيري؟ اهبط عليهم بالجوع» فنادى ليلا: يا أهل مصر جوعوا سبع سنين فانتبهوا جائعين، قيل: فلا مطر ولا نبات ولا ريح، ولا نهر يجري ولا حمار ينهق، ولا ثور يصيح، ولا

(1) لا يخفى على القارئ ما في بعض هذه الروايات من مبالغات الرواة. والشيخ رحمه الله قد يسوقها لأجل عبرة في ثناياها، لا لاعتقاد صحة كل تفاصيلها.

دَابَّة تحمل، ولا طائر يفرّخ للضعف بالجوع، هلك في الأولى كلُّ ما أعدُّوه، وباع لهم بالنقود وفي الثانية بالحليِّ والجواهر، وفي الثالثة بالدوابِّ، وفي الرابعة بالعبيد والجواري، وفي الخامسة بالضياع، وفي السادسة بأولادهم، وفي السابعة برقابهم، فقال للملك كيف رأيت صنع الله ربّنا فيما أعطاني؟ فقال: لك الرأي ونحن تبع لك، فقال: أشهد الله وأشهدك أنِّي أعتقتهم ورددت لهم أموالهم.

وعن مجاهد: لم يزل يلطف بالملك حتَّى أسلم وأسلم معه كثير، ومات في حياة يوسف، ولم يثبت إيمان العزيز. قيل: أصاب القحط أهل الدنيا، وقيل: مصر والشام وكنعان.

﴿وَلأَجْرُ الَاخِرَةِ خَيْرٌ﴾ من أجر الدنيا ﴿لِّلذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ لا ينفع التوحيد بلا تقوى. ومقتضى الظاهر: «خير لهم» بردِّ الضمير إلى المحسنين، ولكن أظهر ليصفهم بالتوحيد والتقوى بعد وصفهم بالإحسان، وكان لا يبيع لأحد أكثر من حمل بعير ليكفي الباقين.



﴿وَجَآءَ إِخۡوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَعَرَفَهُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٥٨ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ قَالَ ٱئۡتُونِي بِأَخٖ لَّكُم مِّنۡ أَبِيكُمۡۚ أَلَا تَرَوۡنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ وَأَنَا۠ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ۝٥٩ فَإِن لَّمۡ تَأۡتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيۡلَ لَكُمۡ عِندِي وَلَا تَقۡرَبُونِ ۝٦٠ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنۡهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ۝٦١ وَقَالَ لِفِتۡيَٰنِهِ ٱجۡعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ فِي رِحَالِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَعۡرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ۝٦٢﴾

قدوم أولاد يعقوب للامتيار

﴿**وَجَآءَ إِخۡوَةُ يُوسُفَ**﴾ العشرة دون بنيامين من ثغور الشام من فلسطين، أهل بادية وإبل وشياه إلى مصر ليشتروا الطعام لَمَّا سمعوا هم وأبوهم بملك في مصر، حسن السيرة يبيع الطعام، أو أخبرهم أبوهم عليه السلام. ﴿**فَدَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَعَرَفَهُمۡ**﴾ بأوَّل نظرة بدليل فاء ﴿فَعَرَفَهُمۡ﴾، كما قال ابن عبَّاس ومجاهد، كما دلَّت عليه الفاء، ولم يؤثِّر فيه بُعد عهدهم لبقاء الشكل وتشابه أحوالهم بأحوالهم السابقة، ولكونه مهتمًّا بهم، وبالاطِّلاع على أحوالهم، ولا سيما وقت القحط، وكان مترقِّبا لتأويل رؤياه، وليس كما قيل إنَّهم انتسبوا له: نحن بنو فلان، حين أرادوا الدخول، وتردُّه الفاء الثانية، فمعرفته بعد دخولهم، إلَّا بتأويل «دَخَلُوا» بإرادة الدخول ولا دليل له، حيث لا معتمد على صحَّة أنسابهم عند إرادة الدخول.

وقال الحسن: لم يعرفهم حتَّى تعرَّفوا إليه وتردُّه الفاء الدَّالَّة على الاتِّصال، والتأويل يحتاج لدليل صحيح. ﴿**وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ**﴾ لا يعرفونه لبعد العهد،

وظنِّهم أنَّه مات في برِّيَّة، أو في عُبُودِيَّة، فارقوه منذ أربعين سـنة، وأيضا رأوه على السـرير في زي الملوك متوَّجا، حتَّى إنَّه لو قيل: هذا يوسـف لأنكروه، ولذلك والله أعلم قال: وهم إِيَّـاهُ لا يعرفون، وقيل كلَّمهم من بعيد أو من وراء ستر، أو بالواسطة مع الستر أو البعد، أو الله منعهم من معرفته مع المقابلة، كما وعده الله ﷻ أنَّه ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [سورة يوسف: 15] فذلك معجزة، وصرَّحوا ليوسف أنَّه مات في برِّيَّة فيما روي أنَّهم كلَّموه بالعبريَّة.

[قصص] فقال زاجرا: لم جئتم؟ قالوا: للميرة، فقـال: لعلَّكم عيون؟ قالوا: معاذ الله، قال: من أين؟ قالوا: من كنعان وأبونا يعقوب نبيء الله، قال: كم أولاده؟ قالوا اثنا عشر هلك أصغرنا وأحبُّنا إليه في البرِّيَّة، وأبقى شقيقه عنده ليتسلَّى به، فأنزلهم وأكرمهم، وقال: من يشـهد؟ قالوا: نحن في بلدك غريـبون، قال: فأتوني بأخيكم إن صدقتم، واتركوا أحدكم هنا، فوقعت القرعة على شـمعون، وقد أبى من إلقائه في الجبِّ وخالفوه، وقيل: اختاره بلا قرعة لأنَّه أحسن إليه.

ويقال: قال لهم لعلَّكم عيون تنظرون عورة بلـدي، قالوا: لا، نحن أولاد نبيء الله تعالى، قال: إيتوا بمن يشهد لكم لسـتم عيونا، قالوا: نحن غرباء لا يعرفنا أحد، قال: فدعوا عندي أحدا رهنا، ولم يجزم بأنَّهم عيون فلا بهت لأنَّه قال: لعلَّكم عيون، ولم يقل أنتم عيون، فيكون أباح الله هذا القدر، وَلَمَّا قالوا: أولاد يعقوب طلب أخاهم.

ورجع الباقون إلى الشام بالميرة كما قال: ﴿**وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ**﴾ هيَّأ لهم ما يحتاجون إليه في رجوعهم من الكيل الذي جاءوا لأجله وزيادة، أعطى كلَّ واحد بعيرا من الطعام، وأَمَّا البيع فلا يبيع لأحد إلَّا حمل بعير، فلعلَّه عدَّ لكلِّ واحد بيع حمل بعيـر، ويقال: إنَّه يعطي كلَّ إنسـان جاء حملا، وطلبوا حملا للأخ الباقي عند أبيهم بارتهان أحدهم، ليرجعوا به، وليثبت لهم الحمل الذي أعطاهم من أجله.

﴿قَالَ ايتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنَ اَبِيكُمْ﴾ لأرى صدقكم، ولأبيع لكم مرَّة أخرى إذا جئتم، وهو بنيامين، لم يقل: بأخيكم من أبيكم، لأنَّ هذا يناسب أنَّه عارف به، وهو لا يريد أن يعرفوا أنَّه عرفه، فناسب أن يقول: ﴿بِأَخٍ لَّكُم﴾ وهذا ولو كان لا يلزم لكن التفسير به هنا صحيح، ولا يعطِّله قوله: ﴿مِّنَ اَبِيكُمُ﴾ فإنَّه يصحُّ إخفاء أنَّه عارف به، ولو من أبيكم، كما تقول في التنكير: جِئْ بغلام لك من قريش، فتكون تريد بعض بيان مع بقاء التنكير، وذلك إطناب كقوله: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللهِ﴾ [سورة آل عمران: 15].

﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيَ أُوفِي الْكَيْلَ﴾ المضارع للاستمرار، فهم رأوه أوفى لهم ولغيرهم، وسمعوا بإيفاءه، وأيضا رأوه أوفى لكلِّ واحد وهم عشرة، وللحادي عشر الغائب بنيامين. وحذفت ياء «أوفِ الكيل» في الخطِّ[1] كما حذفت في اللفظ، لالتقاء الساكنين رجوعا إلى الأصل في بعض المواضع بأن تحذف في الخطِّ كما حذفت في النطق.

﴿وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾ للأضياف كما رأيتم فعلي معكم ومع غيركم، وكما سمعتم، أحسن إلى الضيف بالمنزل والإكرام، أو أرادهم خاصَّة في الجملتين، وإنَّما قال ذلك جلبا وحثًّا على ما أمرهم به لا امتنانا.

﴿فَإِن لَّمْ تَاتُونِي بِهِ﴾ إذا رجعتم لفكِّ الرهن شمعون وللميرة مرَّة أخرى ﴿فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي﴾ ولا أردُّ لكم شمعون، وإذا لم يكن منه كيل فأولى أن لا يكون لهم كيل من غيره، إذ بيوت الطعام بيده بإذن الله ﷻ. ﴿وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ لا تقربوا من بلادي فضلا عن أن أكيل لكم، أو أحسن إليكم، ولهم قصد في الامتيار مرَّة أخرى بعد الامتيار الأوَّل، وأباح الله له ذلك مع أنَّ أباه في شدَّة من الجوع زيادة في امتحانه وزيادة في أجره.

---

(1) يبدو أَنَّ هَذَا توهُّم من الشيخ رَحِمَهُ اللهُ لأَنَّ الياء لم تحذف خطًّا كما في الرسم العثماني.

ولا يصحُّ جعل «لَا» نافية لأنَّه بعد جعلها نافية تحتاج إلى التأويل بالنهي، فاجعلها ناهية من أوَّل، اللهمَّ إلَّا علـى معنى: وإن لم تأتوني به لم يثبت لكم قربي، وفيه عطف الخبر على الخبر، والفعليَّة على الِاسـمِيَّة في إبقائها على معنى النفي، وعطف الإنشاء على الخبر والفعليَّة على الِاسمِيَّة في غير ذلك.

﴿**قَالُواْ سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ**﴾ في إتياننا به إليك. ﴿**وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ**﴾ تأكيد لقوله: ﴿سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ كأنَّه قيل: سنراود عنه أباه سنراود عنه أباه، كقولك قام زيد قام زيد، أو المعنى: لا نقصِّر في المراودة، ولا نتوانى فيها، أو المعنى: سنأتي به باحتيال، أو المعنى: لقادرون على المراودة وعلى الإتيان به باحتيال، فمن شأننا فعل ما نريد، ولا يغلبنا أبونا عليه فإمَّا برضاه أو بحيلة.

﴿**وَقَالَ لِفِتْيَتِهِ**﴾ جمع قلَّـة بمعنى الكثرة، غلمانـه الكيالين للناس، وقد وكَّل بكلِّ رحل غلاما لكثرة المماليك وسعة ملكه، والاهتمام بالحفظ، وقابل الجمع بالجمع في قولـه: ﴿**اجْعَلُـواْ بِضَاعَتَهُمْ**﴾ ما جاءوا به للشـراء ﴿**فِي رِحَالِهِـمْ**﴾ وقد وكَّل بكلِّ رحـل غلاما يضع فيه بضاعــة، كلُّ رحل ببضاعة صاحبه، وإن كانت واحدة جعل بضاعة مطلقا فـي رحل مطلقا، وكانت نعالا وأدما. وأصل البضاعــة: قطعة من المال تجمع للتجر بهـا، وهي هنا ثمن ما اشتروه. والرحل: ما على ظهر المركوب، أو ما يفرش للراكب، أو ما يُوقَّى به ظهر المركوب.

وإنَّما ردَّ بضاعتهم ليعرفوا سـخاءه فيرجعوا بأخيهـم بنيامين إليه، وهو شقيقه، فهو محتال في الإتيان به إليه، وليجدوا ما يرجعون للميرة ثانيا به إذ ذاك في زمان فقر، ولأنَّ في أخذ الثمن عنهم وعن أبيهم لؤما لشدَّة الحاجة، وليحسـن إليهم بلا اسـتحياء منهم، ولعلمه أنَّهم لا يخونون، فإذا وجدوها رجعوا بها، ويناسـب الرجوع اسـتصحاب أخيهم بنيامين إليـه، وذلك كلُّه مقبول في قوله:

﴿لَعَلَّهُمْ﴾ ترجٍّ أو تعليل ﴿يَعْرِفُونَهَآ﴾ أنَّها مالهم ردَّ إليهم، وقيل: لعلَّهم يعرفون حقَّ ردِّها، وقيل: ذلك تعليل، أي ليعرفوها، ولا مانع من تقدير: لكي يعرفوها ﴿إِذَا انقَلَبُواْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ﴾ وفرَّغوا رحالهم، فإنَّ من لازم الرجوع من السفر تفريغ الأوعية التي جيء بها من السفر، ولا سيما زمان الشدَّة.

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ لمعرفتهم أنَّها مالهم ردَّ إليهم، أو لتوهُّمهم أنَّها وَهِمَ فيردُّونها لديانتهم بتحريم مال الناس، أو لظنٍّ أنَّه اختبرهم وجرَّبهم، فالمعنى: يرجعون إليه بها، أو يَرجعونها أي يردُّونها، من رجع اللازم أو المعتدِّي.

وقيل: ردَّها تكرُّما على أبيه وإخوته وهو من أولاد الكرام، حتَّى زعم بعض أنَّه وجب عليه ردُّها إليهم للشدَّة والصلة، ويعارضه قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ولا سيما إن فسِّر بالتعليل، وقيل: ذلك توطئة لجعل السقاية في رحل أخيه بعدُ، والتعبية ظاهرة في أنَّ ذلك بطريق التفضُّل، وقيل: منع من أن يكيل لبنيامين وردَّ بعيره غير محمَّل على أنَّه لم يعطه وسقا.

﴿ فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿63﴾ قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿64﴾ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ رُدَّتۡ إِلَيۡهِمۡۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا وَنَحۡفَظُ أَخَانَا وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖۖ ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ ﴿65﴾ قَالَ لَنۡ أُرۡسِلَهُۥ مَعَكُمۡ حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأۡتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ فَلَمَّآ ءَاتَوۡهُ مَوۡثِقَهُمۡ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ﴿66﴾ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴿67﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ إِلَّا حَاجَةٗ فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿68﴾ ﴾

طلب أبناء يعقوب إرسال أخيهم معهم ووصيته لهم

﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ﴾ وصلوا، كما يطلق على أوَّل الانقلاب ﴿إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ﴾ وهم تسعة لأنَّ شمعون ارْتُهِنَ عند يوسف، على أن يأتوا بأخ لهم من أبيهم وهو بنيامين ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ﴾ مرَّة أخرى إن لم ترسل أخانا معنا إلى الكيل أو قالوا إلى العزيز سلطان مصر، لا زوج زليخاء، وجائر مصر فرعون، وَعَدنا الكيل لنا وله إن أتينا به، أو منع مِنَّا الكيل مطلقا إن لم نأت به، فالممنوع

كيل معهود، أو مطلق، بمعنى سيمنعنا منه دون الناس ﴿**فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا**﴾ بنيامين ﴿**نَكْتَلْ**﴾ لم نمنع من الكيل، ويكون لكلٍّ واحد مِنَّا حمل بعير، وذلك أحد عشر حملا. والكلام متعلِّق بقوله: ﴿فَإِن لَّمْ تَاتُونِي بِهِ﴾ إلى قوله: ﴿أَبَاهُ﴾.

[صرف] وهو نفتعل من الكيل، والأصل نكتال حذفت الألف لسكون اللام، وأصل نكتال نكتَيِل (بفتح المثنَّاة وكسر الياء آخر الحروف)، قلبت ألفا لتحرُّكها بعد فتح.

﴿**وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾ عَمَّا يكره، علموا أنَّه عليه السلام خائف من تضييعه كما ضيَّعوا يوسف قبله، فسبقوا إلى ذكر الحفظ ﴿**قَالَ**﴾ أبوهم يعقوب وقد قال: ما لكم سلَّمتم عليَّ سلاما ضعيفا؟ وما لي لم أسمع فيكم صوت شمعون ﴿**هَلَ ـ امَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ**﴾ يوسف.

[لغة] قال بعض المتأخِّرين لا يؤتى لـ«هل» بمعادل، لا يقال: هل كان كذا أو لم يكن، وهل قام زيد أو قعد، إلَّا إن كانت بمعنى الهمزة، أو للإضراب.

﴿**مِن قَبْلُ**﴾ ما أمني لكم عليه إلَّا كأمني لكم على يوسف من كونه واقعا على خداع منكم وخطر، رجع إلى إضرار، ومع هذا فإنِّي أرسله معكم توكُّلا على الله عز وجل، بشرط أن تردُّوه عليَّ ﴿إِلَّآ أَنْ يُّحَاطَ بِكُمْ﴾ كما يأتي، ولَمَّا توكَّل عليه قال الله له: لأَرُدَّنَّهما عليك إذ توكَّلت عليَّ، ودلَّ على إرساله بقوله: ﴿**فَاللَّهُ خَيْرٌ حِفْظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ**﴾ فأرجو رحمته، وهو من كلام يعقوب.

قال: أرجو أن لا يجمع عليَّ مصيبتين: مصيبة بيوسف، وأخرى ببنيامين، أو ثلاثا بشمعون، إذ قال ذلك بعد إخبارهم ببقاء شمعون، ودعاه إلى إرساله معهم ـ مع فعلهم بيوسف [ما فعلوا] ـ شدَّةُ الزمان بالقحط، مع أنَّه رأى منهم إحسانا بعد يوسف إليه، وأنَّه لم ير من حسدهم لبنيامين مثل ما رأى منهم من الحسد ليوسف.

﴿**وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَاعَهُمْ**﴾ غرائرهم وفرَّغوها، إذ التفريغ من لازم الفتح، على أنَّ البضاعات مدخلة في الحبوب مخفاة فيه، أو يراد مطلق الفتح على

أنَّ البضاعات في أفواه الغرائــر بلا إخفاء في الحبوب، فإن كانت دراهم خفي الأمر، وإن كانت جلــودا فكيف تخفى في أفواههــا؟ إلَّا لطفا من الله وإكراما ليوســف، وهذا الكلام وقع قبل قولهم: ﴿يَآ أَبَانَا مُنِعَ مِنَّـا الْكَيْلُ﴾ والواو لا ترتِّب، ولا مانع من أنَّهم قالوه بعد الفتح، وقيل: المتاع الطعام، ومعنى فتحه إظهاره فإنَّ المتاع ما ينتفع به مأكولا أو غيره.

﴿**وَجَدُواْ بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتِ اِلَيْهِمْ**﴾ فــي داخل غرائرهم، وهي الأثمان التي اشتروا بها، الإضافة للاســتغراق كلّها أو للحقيقة فالبضاعة بضائع، أو عدَّها كلَّها بضاعة واحدة، لم تتفرَّق على أنَّه يكيل بعدد الرؤوس، ولو اجتمعوا على بضاعة واحدة.

﴿**قَالُواْ يَــآ أَبَانَا مَا نَبْغِي**﴾ «مَــا» نافية، والمعنى: ما نتعــدَّى الحدَّ ونظلم الملك بكفر نعمته، لأنَّه أحســن ضيافتنا وأوفى الكيــل وردَّ علينا الثمن، أو اســتفهاميَّة مفعول لـ«نَبْغِي»، بمعنى أي شــيء نطلب بعد هذا الإحسان؟ لو كان هذا الملك رجلا من أولاد يعقوب ما أكرمنا هذا الإكرام، وهو خير رجل أنزلنا وأكرمنا، لو كان رجلا من آل يعقوب ما أكرمنا إكرامه، وهو أعظم الناس ملكا ولم نر مثله علما وحكما وخشوعا وســكينة ووقارًا، وإن كان لك شبيه فهو يشــبهك، فقال لهم يعقوب: إذا رجعتم إلى مصر فأقرئوه مِنِّي الســلام، وقولوا لــه: إنَّ أبانا يصلِّي عليــك ويدعو لك بمــا أوليتنا، وقــال لهم: أين شمعون؟ وقالوا: ارتهنه ملك مصر لنأتيه ببنيامين.

وأيّ دليل على إحســانه إلينا نطلب بعد هذا الإحســان؟ وهو أنَّه ردَّ لنا بضاعتنا بعدما أوفانا الكيل كما قال: ﴿**هَذِهِ بِضَاعَتُنَــا رُدَّتِ اِلَيْنَا**﴾ وقد فتحوا متاعهم بحضرته وأروه البضاعة مردودة ﴿**وَنَمِيرُ أَهْلَنَا**﴾ نرجع إليه بأخينا معها فيظهر له صدقنا معه بإتيانه بأخينــا، ونأتي بالميرة إلى أهلنــا، وهو الطعام، مستعينين بالبضاعة الأولى، مع ما نضمُّ إليها مِمَّا يكون ثمنا لأخينا بنيامين.

[فقه] وإنفاق الأهل واجب ولو غاب الزوج، واستدانت زوجه فيما يجب لها عليه بلا إسراف وجب عليه قضاء ذلك الدين، وينقص عنه ما أسرفت به، ولو أنفقت من مالها لم تدرك عليه في الحكم إلَّا إن أشهدت على الإدراك.

﴿**وَنَحْفَظُ أَخَانَا**﴾ بنيامين ﴿**وَنَزْدَادُ**﴾ لأجله ﴿**كَيْلَ بَعِيرٍ**﴾ زيادة على ما لنا ولشمعون من الكيل ﴿**ذَٰلِكَ**﴾ الكيل لكلِّنا الذي نرجوه بعد ﴿**كَيْلٌ يَسِيرٌ**﴾ سهل عند الملك لسعة ماله مع سخائه، استدلُّوا بإحسان سابق على إحسان مستقبل، كما شهر التوسُّل بإحسان سابق إلى إحسان لاحق.

أو ذلك الكيل الذي جئنا به يسير لا يكفينا فلا بدَّ من الرجوع للكيل لكن لا نجده إلَّا بالذهاب بأخينا إليه، أو ذلك المذكور من ازدياد كيل بعير بأخينا سهل عند الملك، أو ﴿ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ من كلام يعقوب خلط بكلامهم لجواز ذلك في الجملة، كما نصَّ عليه أبو حيَّان، والمعنى أنَّه لم يبلغ أن يخاطر فيه بالولد، لكن لا دليل عليه هنا فلا يرتكب.

﴿**قَالَ لَنْ اُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُوتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللهِ**﴾ عهدا مؤكَّدا باليمين أو بإشهاد الله، أو بالخروج من الدين، أو بالتزام ما يصعب كاعتكاف ثلاثة أشهر، ولكن الأخيران **بعيدان**، والثالث أبعد عن يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ.

﴿**لَتَاتُنَّنِي بِهِ**﴾ جواب القسم وهو موثقا، لأنَّ المعنى حتَّى تؤتوني يمينا بالله لتأتنَّني به ﴿**إِلَّآ أَنْ يُّحَاطَ بِكُمْ**﴾ أي على كلِّ حال إلَّا حال الإحاطة بكم.

فالمصدر منصوب على الظرفيَّة، ومن منع هذا في مصدر غير صريح قدَّر مضافا أي وقت أن يحاط بكم، أو على معنى لا تمتنعون من الإتيان به لعلَّة مَّا إلَّا لعلَّة الإحاطة بكم، وفي ذلك حذف العموم قبل الاستثناء في الإثبات، وهو وارد في كلام العرب، والغالب عند حذف المستثنى منه تقدُّم السلب، ولعلَّ «تَاتُنَّنِي» مضمَّنة معنى لا تتركون الإتيان به إلَّا أن

يحاط بكم، والإحاطة بفلان عبارة عن هلاكــه أو قرب هلاكه، وكأنَّه قال: إلَّا أن تموتوا، أو لم يبق لكم طاقة بــلا جبن ولا تقصير، ويجوز أن يكون الاستثناء منفصلا.

﴿**فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ**﴾ قال لهم: قولوا: «والله رَبِّ محمَّد، لنأتينَّك به إلَّا أن يحاط بنا» وعن ابن عَبَّاس: طلب منهم أن يحلفــوا بمحمَّد ﷺ خاتم النبيئين وسيِّد المرسلين، واستظهر بعض المحقِّقين **أنَّه لم يَصِحَّ**، [قلت:] وفيه الحلف بغير الله وغير فعله، وهو لا يجوز إلَّا لله ﷻ.

﴿**قَــالَ**﴾ يعقــوب ﴿**اللهُ عَلَىٰ مَا نَقُــولُ**﴾ أنا وأنتــم من طلبــي المَوْثِقَ، وإعطائكموه إيَّاي ﴿**وَكِيلٌ**﴾ وكَّلت الأمر إليه فيحفظه، ويردُّه سالما، أو رقيب، لأنَّ الوكيل بالأمر يراقبه، فأرسلَه معهم.

﴿**وَقَالَ**﴾ لهم ﴿**يَابَنِــيَّ لَا تَدْخُلُواْ**﴾ مصر ﴿**مِنۢ بَابٍ وَاحِــدٍ وَادْخُلُواْ مِنَ اَبْــوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ**﴾ لِئَلَّا تصابــوا بالعين، فقد جمع عليه السلام بين التــوكُّل مقدِّما له، والحذرِ المأمور به شرعا، كما قال ﷺ: «**إعقلها وتوكَّل**»[1] وكما ظاهر بدرعين وقد تــوكَّل، وقال الله تعالى: ﴿**خُــذُواْ حِذْرَكُــمْ**﴾ [سورة النســاء: 71] ﴿**وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمُۥٓ إِلَى التَّهْلُكَةِ**﴾ [سورة البقرة: 195].

قال ﷺ: العين حقٌّ، وقال ﷺ: «**لو كان شيء يسبق القدر لقلت العين**»[2]. وروي: «لسبقته العين»، «**وإذا استغسلْتم فاغتسلوا**»[3] أي إذا طلب مِمَّن خيف منه العين فليغسل وجهه ويديه ومرفقيه وركبتيه وأطراف رجليه وداخل إزاره،

---

(1) أورده **أبو نعيم** في الحلية، ج8، ص390. و**الهيثمي** في الموارد، رقم 2549. من حديث أنس.

(2) أورده **القطب** في جامع الشمل، رقم 2197 وقال: رواه أحمد ومسلم عن ابن عَبَّاس.

(3) رواه **مســلم** في كتاب الســلام (16) باب الطب والمرض والرقى، رقم 42 (2188). ورواه **الترمذي** فــي كتاب الطب (17) باب ما جــاء في الرقية من العين، رقــم 2059. من حديث أسماء بنت عميس.

وهو ما يلي جسده من الإزار، وقيل: وركيه، وقيل: مذاكيره، ويصبُّ ماء ذلك على رأس المعين يحكم عليه بذلك، وكان ﷺ يعوذ الحسن والحسين بقوله: «**أعوذ بكلمات الله التَّامَّة، من كلِّ شـيطان وهامَّة، ومن كلِّ عين لامَّة**» ويقول: «**كان أبوكما يعوذ بهما إسماعيل وإسحاق**»[1].

[أصول الدين] والعين يضرُّ بـ[إذن] الله تعالى، ومن قال يضرُّ اسـتقلالا أشرك، ولا نعتقد أنَّ شيئا ينفصل من عين العائن إلى المعين فيضرُّه كما قيل، والرقيا من العين جائزة، ومن عـرف بالعين حبس عن الناس، ورزق من بيت المال إن كان فقيرا. ويروى أنَّ نبيئا اسـتكثر قومه فمات فـي ليلة مائة ألف، فشـكا إلى الله سـبحانه، فقال الله سـبحانه: إنَّك اسـتكثرتهم فعينتَهم، هلَّا حصنتهم إذ اسـتكثرتهم، قال: يا ربِّ كيف أحصِّنهم؟ قال: تقول: «حصَّنتكم بالحيِّ القيُّوم الذي لا يموت أبدا، ودفعت عنكم السـوء بألف ألف لا حول ولا قوة إلَّا بالله». قال ﷺ: «**اللهمَّ إنِّي أعوذ بكلماتك التامَّة من كلِّ هامَّة، ومن كلِّ عين لامَّة**» والهامَّة بالشـدِّ واحدة الهـوامِّ: الحيَّة وكلُّ ذي سـمٍّ، والعين اللامَّة: الجامعة للشرِّ على من يصاب بالعين.

وكانوا طوالا سـمانا ذوي جمال ومهابة، مشهورين بالكرامة عند الملك، وكانوا بني أب واحد، ولم يوصهم بذلك في المـرَّة الأولى لأنَّهم مجهولون أوَّلاً، أو لمزيد خوفـه على بنيامين. قيل: المراد بالدخـول من أبواب متفرِّقة [عدم] الدخول جملة واحدة، فلو دخلوا واحدا واحدا لا بمرَّة لجاز، فالوحدة اعتباريَّة، والأبواب أربعة فيما قيل، فكأنَّه لمصر أحد عشـر بابا على عددهم، أو أكثر من أحد عشـر، والدخول من اثنين أو ثلاثة محتمل للمحذور أيضا، وأمَّا الدخول من أربعة فلا محيد عنه إذ لم يكن لمصر أكثر من أربعة.

---

(1) رواه **ابن ماجه** في كتاب الطب (36) باب ما عوَّذ به النبيء ﷺ وما عوِّذ به، رقم 3525. و**أبو نعيم** في الحلية، ج 4، ص 79. من حديث ابن عَبَّاس.

﴿**وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللهِ**﴾ من قضاء الله ﴿**مِن شَيْءٍ**﴾ لا أغني عنكم شيئا أي إغناء، أو لا أدفع عنكم شيئا، أو أي إغناء أغني عنكم ﴿**اِنِ الْحُكْمُ إِلَّا للهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ**﴾ عليه قدّم على متعلّقه وهو «يَتَوكَّلُ»، ولا صدر للام الأمر، والفاء للسببيَّة فإنَّ التوكُّل من يعقوب موجب [لهم]، وسبب لتوكُّل غيره، لأنَّه نبيء من الله يجب اتِّبَاعه فيما لم ينسخ، ولَمَّا قدَّم قوله: ﴿عَلَيْهِ﴾ عن قوله: ﴿فَلْيَتَوَكَّل﴾ كان فاصلا بين الواو والفاء فساغت الواو لمطلق الجمع. والفاء للسببيَّة، ويجوز تقدير معطوف بالواو، أي: عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ الآن ـ كما قيل ـ وأتوكَّل بعدُ؛ أو توكَّلت قبل تكلُّمي هذا وأتوكَّلُ الآن، وإنَّما ساغ تقديم ما بعد الفاء على الفاء لأنَّها هنا لمجرَّد السببيَّة دون العطف.

﴿**وَلَمَّا دَخَلُواْ**﴾ مصر ﴿**مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمُۥ أَبُوهُم**﴾ أي من أبواب متفرِّقة ثلاث أو رباع أو مثنى أو آحاد وهو المتبادر. و«حَيْثُ» بمعنى المكان وهو هنا أربعة أبواب مصر. وجواب «لَمَّا» هو قوله: ﴿**مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللهِ مِن شَيْءٍ**﴾.

وقيل: محذوف، أي امتثلوا أو قضوا حاجة أبيهم، وفيه أنَّه لا فائدة في هذا الجواب وهي حرف، إذ لو كانت ظرفا لم يوجد لها متعلَّق، لأنَّ «مَا» النافية لها الصدر فلا يتعلَّق فيما بعدها، فيجاب بأنَّا لا نسلِّم أنَّ لها الصدر، وإن كان لها صدر فالظرف الشرطيُّ يخرقه، كما قيل في «إذا»؛ أو محذوف، أي قصدوا الملك أو حاجة أبيهم.

وقيل: جوابها: «ءَاوَى» وهو أيضا جواب لـ«لَمَّا» الثانية، لأنَّ دخولهم على يوسف عقب دخولهم مصر، كما تقول: لَمَّا جئتني ولَمَّا كلَّمتني أجبتك، وما بينها معترض؛ أو الجملة حال من واو «دَخَلُوا»، وضمير «كَانَ» عائد إلى يعقوب، أو إلى رأيه، أو إلى دخولهم من حيث أمرهم أبوهم، وهو اتِّبَاعهم رأيه، **والمأصدق واحد.**

والمعنى: ما أغني عنهم في رفع العين بل رفعها الله، ولا يقال: إنَّه لم يغن عنهم ذلك إمساك أخيهم بنيامين، لأنَّه أمسكه يوسف، لأنَّا نقول: الكلام في الإغناء بدفع العين خَاصَّةً، بدليل الأمر بالدخول من أبواب، إذ لا يخفى أنَّ الدخول من أبواب لا يكون سببا لدفع إمساك بنيامين، وأيضا لا شعور ليعقوب بإمساكه حين أمرهم بالدخول من أبواب، وأيضا «شيء» نكرة في سياق السلب تعمُّ، وقد وقاهم الله من إصابة العين وهي شيء، وقد يقال: إنَّ إمساكه من جملة إصابة العين، لأنَّ إصابتها لا تختصُّ بموت أو ضرٍّ في البدن، وذكر بعض أنَّ المراد السوء مطلقا، وخصَّت العين لظهورها.

وحاصل الآية أنَّه لا يغني عنهم من قضاء الله شيءٌ، بل الله هو الدافع لِمَا دفع من العين، وما أغنى شيءٌ مِمَّا قضى الله من نسبتهم إلى السرقة، ومن إمساك بنيامين. ويجوز أن لا ضمير في «كَانَ» لِمَا مرَّ بل للشأن. والضمير في «يُغْنِي» لِمَا مرَّ وأن يكون «شيء» فاعل «يُغْنِي».

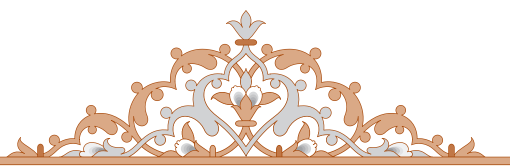
﴿**اِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا**﴾ يعقوب، وهي دفع العين، أشفق أن تصيبهم. ومعنى ﴿قَضَاهَا﴾: أرادها أو أظهرها، وأعلم بها أولاده، كقوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِي إِسْرَآئِيلَ فِي الْكِتَابِ﴾ [سورة الإسراء: 4] والاستثناء منقطع، ويجوز أن يكون متَّصلا من باب قوله:

ولا عيب فيهم غير أنَّ سيوفهم بهنَّ فلول من قراع الكتائب[1]

فالمعنى: ما أغنى عنهم ما وصَّاهم به أبوهم إلَّا شفقة، ومن المعلوم أنَّ شفقة الأب مع قدرة الله هباء فما أغنى عنهم شيئا قطُّ، وقيل: فاعل «قَضَى» ضمير الدخول.

(1) البيت للنابغة في مدح عمرو بن الحارث الغساني.

﴿**وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ**﴾ بالوحي ونصب الحجج ولذلك لم يغتر بتدبيره بل فوَّض الأمر إلى الله ﷻ. و«مَا» مَصدَرِيَّة، أي لتعليمناه، أو اسم [موصول]، أي الذي علَّمناه إِيَّاهُ، وأَنَّ العلمَ الحفظُ والمراقبةُ. ﴿**وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ**﴾ وهم المشركون ﴿**لَا يَعْلَمُونَ**﴾ سرَّ القدر أنَّه لا يغني عنه الحذر، فيقصر نظرهم على الأسباب، أو لا يعلمون إلهام الله ﷻ لأوليائه، أو لا يعلمون وجوب الحذر، ورُدَّ بأنَّه يأباه تخلُّف المطلوب من المبادئ، أو لا يعلمون أنَّ يعقوب بهذه المثابة.



﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٦٩ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحۡلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ ٧٠ قَالُواْ وَأَقۡبَلُواْ عَلَيۡهِم مَّاذَا تَفۡقِدُونَ ٧١ قَالُواْ نَفۡقِدُ صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ ٧٢ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ عَلِمۡتُم مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ٧٣ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ ٧٤ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ٧٥ فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ٧٦﴾

معرفة يوسف أخاه بنيامين وتحايله لإبقائه عنده

﴿**وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ**﴾ في مجلس حكمه ﴿**ءَاوَىٰٓ**﴾ ضمَّ ﴿**إِلَيۡهِ أَخَاهُ**﴾ بعد أن قالوا له في مجلسه: هذا أخونا الذي أمرتنا أن نأتيك به، فقال: أحسنتم وسأجازيكم.

[قصص] فأنزلهم وأكرمهم، وأجلسهم على موائد مثنى وأفرد بنيامين فبكى، وقال: لو كان أخي يوسف حيًّا لجلست معه، وقالوا له: كان له أخ مات، فقال: فأنا أجلسه معي، وجعل لكلِّ اثنين فراشا وجعل بنيامين كذلك معه في فراشه، ولَمَّا أصبح قال: يكون هذا الرجل معي في منزلي، وأجرى

لهم الطعام كذلك، ولَمَّا خلا به يوسف قال: ما اسمك؟ قال: بنيامين، قال: هل لك من ولد؟ قال: عشرة، وهل لك شقيق؟ قال: مات، قال: أتحبُّ أن أكونه؟ قال: ومن يجد مثلك أخا؟ لكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل، فبكى يوسف وعانقه، وقال: أنا شقيقك أخوك يوسف، فقال: لا أفارقك، فقال: يزداد أبونا غمًّا بحبسك، لكن أدسُّ الصاع في رحلك فتشتهر بالسرقة فأقبضك، وذلك أنَّ إمساكه لحدث أقلُّ ضررا على يعقوب بالنسبة إلى غير حدث، قال: افعل هذا وما شئت مِمَّا يسوء ولا أبالي، كما قال الله ﷻ:

﴿**قَالَ إِنِّيَ أَنَاْ أَخُوكَ**﴾ الشقيق ﴿**فَلَا تَبْتَئِسْ**﴾ لا يظهر عليك أثر الحزن كالنحول والصفرة وعدم الانبساط، وهذا معنى الابتئاس، والمراد ملزومه وسببه، فكأنَّه قيل: لا تحزن ﴿**بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ**﴾ فينا من المضارِّ حسدا لنا، وأمره أن لا يخبرهم بأنَّه يوسف وبدسِّ الصاع.

﴿**فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ**﴾ أصلح لهم عدَّتهم، وأوقر ركائبهم، وذلك تأكيد، كقولك: نطقت بلساني، أو تجريد بالباء للمبالغة، كأنَّهم انتزع من جهازهم لكماله جهازا آخر. والفاء لسببيَّة الإيواء، لجعل السقاية، فهي داخلة على «جَعَلَ»، ولعدم السبب في لفظ التجهيز الأوَّل كان بالواو لا بالفاء، وفي الفاء تلويح بسرعة الرجوع، ولذلك لم يكن الأوَّل بالفاء أيضا، فإنَّ الأوَّل بطول مدَّة الإقامة ليتعرَّف الملك أحوالهم.

﴿**جَعَلَ**﴾ يوسف، وقيل غيره، لكن أسند الجعل إليه لأنَّه آمر ﴿**السِّقَايَةَ**﴾ وعاء من ذهب مرصَّع بالجواهر، وعن عكرمة من فضَّة مرصَّعة بالجواهر، وقيل: مموَّهة بالذهب، وقيل: من ذهب كان مشربا له، ثمَّ جعله مكيالا لعزَّة الطعام الذي يكال به، قيل: كانت مستطيلة تشبه المكوك الفارسي الذي يلتقي طرفاه، وقيل: من فضَّة تُسقَى الدوابُّ بها ويكال بها ﴿**فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ**﴾ نادى ﴿**مُؤَذِّنٌ**﴾ بعد مدَّة طويلة مثل أن ينفصلوا عن البلد أو عمرانه، أو دخلوا

بلدة أخرى كما قيل: وصلوا ببلبيس، ومعنى ﴿مُؤَذِّنٌ﴾ مَن شــأنه أن يؤذِّن، أو رجل معروف بالنداء، ولعلَّه كرَّر النداء بدليل التشديد.

﴿أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـارِقُونَ﴾ العير هنا الناس الراجعون من السـفر مع إبلهم الحاملـة للميرة، وأصلـه الإبل الحاملة لهـا، لأنَّها تعيـر، أي تجيء وتذهب، ثمَّ صارت حقيقة عرفيَّة لها مـع الذين معها، ولكن المراد هنا أهلها الذين معها للخطاب بالسرقة، أو الآية على الأصل المذكور، لكن سمِّي أهلها باسمها لعلاقة الجوار بالسـير والمكث، وبالحمل لهم وعليها، وبالملك لها والرعي والسقي والإطعام، أو يقدَّر مضاف، أي يا أهل العير.

[لغة] ويطلق العير أيضا علـى كلِّ ما يحمل عليه من إبل وحمير وبغال، سـمِّي [بذلك] لأنَّه يعير، أي يجيء ويذهب، وقيل: المراد هنا الحمير وهو اسـم جمع لا واحد له من لفظـه، وقيل: جمـع عَير بفتح والعَيـر بفتحها: الحمار، فتكون القافلة حمرا في هذا القول. وقد تطلق القافلة على المسافرين تفاؤلا بالرجوع.

والخطاب في الآيـة مثله فـي قوله ﷺ: «**يا خيـل الله اركبـي**»[1] رواه سـعيد بن جبير. وعن قتادة بن النعمان: بعث ﷺ مناديا ينادي يوم الأحزاب: «يا خيل الله اركبي». وروي أنَّ أنس بن حارثة بن النعمان قال: يا رسـول الله، ادع الله لي بالشـهادة، فدعا له، فنـودي يوما: يا خيل الله اركبـي، وكان أوَّل راكب، وأوَّل فارس استشهد، فأطلق الخيل على أصحابها للجوار المذكور.

[صرف] وإذا قيل: جمع عَير بالفتح فأصله عُور بضمِّ العين كسرت لتسلم الياء من قلبها واوا، وذلك كسقف بضمٍّ فإسـكان جمع سقف بفتح فإسكان، وذلك شـبيه بباب فُعْل بضمٍّ فإسـكان في جمع أفعل وفعـلاء، في الألوان

---

(1) أورده **ابن كثير** في تفسيره، ج 3، ص 58. و**الطبري** أيضا في تفسيره، ج 6، ص 133.

والعيوب من معل العين كبيض في جمـع أبيض وبيضاء، وإنَّما قال: «اركبي» لتأويل الفرسان بالجماعة.

[قلت:] ولا ظلم في خطاب الجماعة بالسـرقة مع أنَّهم لم يسـرقوا، لأنَّ الله ﷻ أباح له ذلك الخطاب، كما أباح له ما يزيد به حزن أبيه يعقوب، وكما أباح له نسبة السـرقة إليهم بمعرضة لمصلحة، وَأَمَّا بلا إباحة من الله فيبحث فيه بأنَّ المعرضة تضرُّهم فـلا تكون جوابا، وقيل: إنَّهـم لا يتضرَّرون بذلك لظهور أنَّ ذلك حكم على المجموع، أي فيكم سـارق فإنَّهم تعدَّدوا، وأيضا معهم غيرهم، بدليل قوله: ﴿وَالْعِيرَ التِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ وبنيامين متَّفق في ذلك مع يوسف راض كما مرَّ.

وَسَمَّى ذلك سرقة تجوُّزا للمشابهة، وأمَّا ما قيل: إنَّه أريد لسارقون يوسف من أبيه بأن شبَّه احتيالهم في أخذه بالسـرقة، فيردُّه قوله: ﴿قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ﴾ ويجاب بأنَّه أخفى أوَّلاً المسـروق ليخرج عن الكذب، وأظهر ثانيا المراد وهو الصواع، ويجوز ـ على ضعف ـ أن يكون على حذف الاسـتفهام، أي أينَّكم لسـارقون؟ أو قال المنادي ذلك بلا أمر من يوسف لَمَّا فقد الصواع شرع في البحث والنداء فيهم، لأنَّهم آخر من اكتال في ذلك اليوم، ولم يخبره يوسف بأنَّه هو أخفاه، ولا ظلم في عدم إخباره بأنَّه أخفاه لِمَا مرَّ.

﴿**قَالُواْ**﴾ أي أصحـاب العير ﴿**وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم**﴾ عطف الواو السـابق على اللاحق، لأنَّ الإقبال متقدِّم على القول، أو الـواو للحال، أي قالوا وقد أقبلوا، والضمير فـي «أَقْبَلُوا» على كلِّ حـال لأصحاب العيـر كَوَاو «قَالُـوا» ﴿**مَّاذَا تَفْقِـدُونَ**﴾ أي ما تفقـدون، أو ما الذي تفقدونـه، والهاء فـي «عَلَيْهِمْ» وواو «تَفْقِدُونَ» راجعان للمؤذِّن ومن معه من الرسـل. لَمَّا وصلوا إلى إخوة يوسف قالوا: ألم نحسـن ضيافتكم ونوفِّ كيلكم وأكرمناكم بما لم نكرم به غيركم؟ قالوا: بلى، فماذا؟ قالوا: فقدنا صواع الملك ولا نتَّهم غيركم، كما قال الله ﷻ:

﴿قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ﴾ صاعه، وهو السقاية المذكورة، والقول للرسل ولو كان من واحد فقط، وخصَّ المؤذِّن منهم نفسه بقوله: ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ من الطعام جُعلا للمجيء به، ولو جاء به السارق. ولا جهالة في حمل بعير لأنَّه قدر معلوم، فيحلُّ عقدها للجاعل، ولا يحلُّ أخذها للسارق ﴿وَأَنَاْ بِهِ زَعِيمٌ﴾ كفيل من مالي، أو من مال الملك، أي ضامن، وإنَّما الكفالة تكون في الالتزام عن الغير ولا واجب على يوسف، فقد يجوز أن يكون المراد أنَّ ذلك لزم يوسف، وأنا أؤدِّي عنه من ماله أو مالي. أو ذلك من المجموع، إلَّا قوله: ﴿وَأَنَاْ بِهِ زَعِيمٌ﴾ فمن المؤذِّن. ويترجَّح أنَّ الضمير في «قَالُوا» للمجموع، ولكن صدر من المؤذِّن إلى قوله: ﴿زَعِيمٌ﴾.

[فقه] وفي الآية جواز الجعل قبل الشروع في العمل وقبل الفراغ، وأنا أختار أنَّ شرع من قبلنا شرع لنا، إذا لم يجئ ما ينقضه من القرآن أو السنَّة أو الإجماع، أو حجَّة ترجع إلى شيء من ذلك.

﴿قَالُواْ تَاللَّهِ﴾ قيل: قسم فيه معنى التعجُّب، كما تعجَّبوا في قولهم: ﴿تَاللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ [سورة يوسف: 15]، ولا دليل على التعجُّب إلَّا من خارج، كما ظهر من أحوالهم ما يدلُّ على صدقهم، من مواظبتهم على الصلاح حتَّى يسدُّوا أفواه دوابِّهم عن زروع الناس، وردُّوا البضاعة إذ ظنُّوا أنَّهَا لم توضع في رحالهم بإذن الملك، كذا قيل، وفيه أنَّهم عرفوا من يوسف أنَّها عطيَّة، ألا ترى أنَّهم عدُّوها نعمة، إذ قالوا: ﴿مَا نَبْغِي هَـٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتِ اِلَيْنَا﴾ [سورة يوسف: 65]. وتاء القسم أصل برأسها، وقيل: بدلٌ عن واو القسم، كتُراث أصله وُراث، وذلك بدل صرفي، وقيل: بدل عن الباء أي عوض عنها في المعنى، فليس بدلا صرفيًّا.

﴿لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا﴾ أرضكم ﴿لِنُفْسِدَ فِي الَارْضِ﴾ أرضكم ﴿وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ ما سرقنا قطُّ، وجملة «لَقَدْ...» جواب «تَاللَّهِ» لا قسم آخر مؤكِّد

للأوَّل فلا تهم. نفوا الإفساد عن أنفسهم أوَّلا وهو أعمُّ من السرقة، ونفوا السرقة مع ذلك تأكيدا، وخصُّوها لأنَّ المقام لها وبها اتُّهموا.

﴿**قَالُواْ**﴾ أي المؤذِّن وأصحابه ﴿**فَمَا جَزَآؤُهُ**﴾ أي جزاء الصواع أي ما العقاب الذي ترتَّب على سرقته، أو ما جزاء سرقته على حذف مضاف، أو ما جزاء السرق، أو ما جزاء السارق ﴿**إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ**﴾ في قولكم «مَا كُنَّا سَارِقِينَ»، وحصول السرقة إفساد أيضا، وكأنَّه قيل: ما جزاؤه إن وجد فيكم؟. والفاء عاطفة لكلام المؤذِّن ومن معه على كلام إخوة يوسف.

﴿**قَالُواْ**﴾ أي إخوة يوسف ﴿**جَزَآؤُهُ مَن وُّجِدَ فِي رَحْلِهِ**﴾ «مَنْ» مبتدأ شرطيَّة، وجوابها قوله: ﴿**فَهُوَ جَزَآؤُهُ**﴾ والجملة خبر «جَزَآؤُهُ» والرابط كونها نفس المبتدأ في المعنى، وإعادته بلفظه أيضا، أو «مَنْ» موصولة خبر «جَزَآؤُهُ»، وجملة «هُوَ جَزَآؤُهُ» جواب لمحذوف، أي إذا وجد في رحل أحد فهو جزاؤه، أي فاسترقاقه جزاؤه؛ أو جزاء بمعنى ما يجزى به، والمجموع تأكيد لِمَا قبل، مقرون بالفاء، كأحد الأوجه في قوله تعالى: ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [سورة البقرة: 40].

حكموا بشرعهم في أنَّ السارق عبد للمسروق منه. وأعاد الظاهر موضع المضمر، ولم يقل: فهو هو للإيضاح، والعرب إذا فخَّمت شيئا أعادت لفظه بعينه.

﴿**كَذَالِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ**﴾ تقدَّم الكلام في مثل هذا التشبيه، والمراد بالظلم السرقة لأنَّها المذكورة هنا، ولأنَّ الاسترقاق جزاء لها لا لغيرها ﴿**فَبَدَأَ**﴾ المؤذِّن ﴿**بِأَوْعِيَتِهِمْ**﴾ أوعية إخوة يوسف من جملة القافلة، وقيل الضمير في «بَدَأَ» ليوسف لقوله: ﴿ثُمَّ اَسْتَخْرَجَهَا مِن وِّعَآءِ اَخِيهِ﴾ لأنَّ الأخ أخ ليوسف لا للمؤذِّن، وليس كذلك فإنَّ الهاء ليوسف قطعا، لكن لا مانع من ردِّ ضمير بدأ للمؤذِّن، مع ردِّ الهاء ليوسف فإنَّ الكلام قبل للمؤذِّن تارة وله مع من معه أخرى، وهو المقصود بالذات، فضمير «بَدَأَ» له لا ليوسف، وأيضا البدء للمؤذِّن حقيق وليوسف مجاز، إذ لا يباشر البدء وكذا الاستخراج،

والحقيقة أولـــى من المجاز، وعلى القـــول بردّه إلى يوســـف يكون التفتيش بردِّهم إلى مصر، وعلى كلٍّ العطف على محذوف تقديره أرادوا التفتيش، أو أريد التفتيش أو ردُّوا إلى مصر، فبدأ تفتيش أوعيتهم. والهاء لغير بنيامين من إخوة يوســـف لقوله: ﴿قَبْلَ وِعَآءِ اَخِيهِ﴾ وهو تأكيد لِمَا فهـــم من قوله: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِـــمْ﴾ وبيان لكون الضميـــر لإخوة بنيامين، ولا مانـــع من اعتبار أهل الرفقة كلِّهم في التفتيش، فبدأ منهم بإخوة يوسف.

﴿ثُمَّ اَسْـــتَخْرَجَهَا مِن وِّعَآءِ اَخِيهِ﴾ بنيامين زيادة فـــي الإخفاء، ولو بدأ به لتُوُهِّم الاتِّفَاق، وهذا على أنَّ المؤذِّن عالم بالوضع، أو المفتِّش يوســـف لَمَّا أقرَّ إخوة يوسف بأنَّ السارق يســـترقُّه صاحب المال في شرعهم، قال المؤذِّن ومن معه: لا بدَّ من أن تفتِّشوا واحدا بعد واحد.

[قلت:] ولا يقبل مـــا قيل من أنَّ يوســـف لا ينظر في رحـــل أحدهم إلَّا استغفر الله ﷻ مِمَّا قذفهم به لأنَّه غير قاذف، حتَّى لم يبق إلَّا بنيامين قال: ما أظنُّ هذا أخذ شيئا، وصدق أنَّه لم يأخذ لأنَّه ليس آخذا للصواع، بل جعله في رحله غيره، قال إخوة يوســـف والله لا نتركك حتَّى تنظر في رحله، فإنَّه أطيب لنفسك وأنفسنا، ففتح فوجد فيه.

وهاء «اسْتَخْرَجَهَا» عائد للصواع، لأنَّه يذكَّر ويؤنَّث، أو يذكَّر لكن أنِّث هنا لتأويل الســـقاية، أو عائد إلى الســـقاية، وهي نفس الصـــواع، وكأنَّه قيل: ثمَّ استخرج السقاية المجعولة في رحله التي ذكرت في قولنا: ﴿جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْـلِ أَخِيـهِ﴾ وردَّ بعضهـــم الضمير إلى الســـرقة وهو ضعيـــف، لأنَّ إيقاع الاستخراج عليها مجاز مستغنى عنه، وإن أوِّل بمعنى المسروق فمجاز أيضا.

قال له إخوته: كيف ســـرقت هذا يا ابن راحيل؟ فرفع رأســـه إلى السماء فقال: والله ما سرقت، فقالوا: فمن جعلها في رحلك؟ قال: الذي جعل البضاعة في رحالكم.

﴿**كَذَٰلِكَ كِدْنَا**﴾ احتلنا ﴿**لِيُوسُفَ**﴾ كدنا له مثل ذلك الكيد العظيم، أو شبَّه ما يفهم من معاني الألفاظ بما هو الواقع المتشخِّص في نفس الأمر، وهذا وجه غريب تستحضره في مثل هذا المقام، وكذا يجوز جعل الكاف صلة للتأكيد، ويجوز عود الإشارة إلى حكم إخوة يوسف باسترقاق السارق.

وَلَمَّا أخرجوا الصواع من رحله نكَّس إخوته رؤوسهم من الحياء، وأقبلوا عليه يلومونه، ويقولون: فضحتنا وسوَّدت وجوهنا، يا بني راحيل ما زال لنا منكم بلاء متى أخذت هذا الصواع، فقال: بل بنو راحيل مازال عليهم بلاء منكم، ذهبتم بأخي فأهلكتموه في البرية، وضع هذا الصواع في رحلي الذي وضع البضاعة في رحالكم، فاسترقَّ بنيامين. واللام للاستحقاق أو بمعنى في، أي في شأن يوسف، أو للتعليل.

﴿**مَا كَانَ**﴾ يوسف ﴿**لِيَاخُذَ أَخَاهُ**﴾ بنيامين ﴿**فِي دِينِ**﴾ في حكم ﴿**الْمَلِكِ**﴾ ملك مصر الريان مثلا، بل دينه ضرب السارق وتغريمه ما سرق، أو ردُّه مع الضرب إن كان موجودا لا استرقاق السارق، وقيل: الضرب ومثلان للمسروق، ويوسف في ظاهر الأمر هو من الملوك المتداولة على مصر من أهلها، فليس يعلم شرع يعقوب في السرقة وهو في الحقيقة عالم به، وقد استرقَّته عمَّته إذ كان طفلا بدسِّها متاعا في لباسه، ولذلك دسَّ الصواع فيأخذ من هو في رحله.

﴿**إِلَّآ أَن يَّشَآءَ اللهُ**﴾ أي إِلَّا بأن يشاء الله، ألهمه سؤال إخوته بنفسه أو بواسطة المؤذِّن وهو يشاء جوابهم بسنَّتهم.

ويجوز أن يكون الاستثناء منقطعا، والمعنى: لكن شاء الله أخذه بغير دين الملك، على أنَّ يوسف لم يعلم ذلك أو علمه، وبحسب كونه غير ولد يعقوب في الظاهر لا يحكم بالأخذ ﴿**نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَآءُ**﴾ رفع درجته كيوسف

على إخوته ﴿وَفَـوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ لا عالم فـي الخلق إلَّا وفوقه أعلم منه، والله أعلم مِمَّن انتهى إليه العلم منهم.

[أصول الدين] أو فـوق كلِّ عالم من الخلق عالـم هو الله ﷻ، وعلمه ذاتيٌّ، ومن زعم أنَّ علمه بصفة زائدة على الذات حالَّة فيه أو مقترنة به، فقد شـبَّه الله بخلقه، إذ عدَّد القدمـاء وجعله محتاجا إلى ما يعلـم به، أو جعله محلًّا للصفة.

﴿ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿77﴾ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿78﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ ﴿79﴾ فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ قَالَ كَبِيرُهُمۡ أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمۡ قَدۡ أَخَذَ عَلَيۡكُم مَّوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبۡلُ مَا فَرَّطتُمۡ فِي يُوسُفَۖ فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿80﴾ ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ ﴿81﴾ وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلۡعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا فِيهَاۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿82﴾ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٌۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿83﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ ﴿84﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ ﴿85﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿86﴾ يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿87﴾ ﴾

نقاش حادٌّ في السرقة المزعومة وحزن يعقوب ممَّا حدث

﴿قَالُواْ إِنْ يَّسْرِقْ﴾ الصواع ﴿فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ﴾ وذلك منهم فجور، زلُّوا به وليسوا أنبياء في الحال ولا قبل ولا بعد، والأخ هو يوسف، وهو وبنيامين أمُّهما واحدة هي راحيل من شأنهما السرقة، ولسنا نحن من أمِّهما فلم نأخذ طريقتهم في السرقة، وقالوا: «إِنْ يَّسْرِقْ»، بلفظ الشكِّ لعدم تحقُّق سرقته عندهم باستخراج من رحله، ولا ينافي هذا قولهم: «إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ» لأنَّ المقصود إنَّ ابنك سرق باعتبار ما قيل، وبمجرَّد وجود الصاع في رحله. والمضارع لحكاية الحال الماضية، فإنَّ مقتضى الظاهر أن يقولوا: إن سرق فقد سرق أخ له من قبل صنما أو تمثالا من ذهب من أبي أمِّه، سرقه فكسره وألقاه في الطريق، أو الجيف، أو تمثالا من الكنيسة فكسره وألقاه في ذلك، أو أعطاه سائلا، وقيل: دجاجة، أو عناقا، أو أخذ بيضة من البيت فأعطاها السائل، أو خبَّأ الطعام من المائدة ليعطيه الفقراء.

أو حضنته بعد موت أمِّه عمته وأحبَّته واحتالت في أن شدَّت على وسطه منطقة إسحاق، وكانوا يتوارثونها بالكبر، وهي أكبر أولاده فتفقَّدتها فوجدوها على يوسف، وقال لها أبوه: إن كان ذلك فخذيه، والسارق في دينهم عبد لصاحب المال، وكان لا يقدر على مفارقته ساعة.

أو أرادوا **بالأخ مطلق أحد من بني آدم**، ولا ينافيه قوله تعالى: ﴿فَأَسَرَّهَا﴾ لأنَّ يوسف يظنُّ أنَّهم عنوه بالأخ وهم لم يعنوه. ﴿**فَأَسَرَّهَا**﴾ أسرَّ السرقة ﴿**يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ**﴾ المنسوبة إليه لم يذكرها ولم يعاتبهم على نسبتها إليه، أو أسرَّ الحزازة، أو أسرَّ الإجابة، أو الكلمة وهي أعمُّ من الإجابة لصلوح أن يتكلَّم بدون أن يكون كلامه جوابا لهم، ولا إشكال في الإجابة لأنَّها حضرت في قلبه ولم يصرِّح بها، كما لا إشكال في الكلمة لأنَّه حضرت في قلبه ولم ينطق بها، أو أسرَّ نسبة السرقة إليه، وقد لا ينافيه قوله:

﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ لأنَّه ولو كان إظهارا لكن ليس فيه تصريح بأنَّ نسبتكم السرقة إليّ بهتان، أو **أسرَّ الحجَّة عليهم**.

أو أسرَّ ما يفسِّره قوله: ﴿قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ فإنَّ في قلبه قولا أسرَّه وهو أنَّه قال في قلبه: «أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا» أي أسرَّ القولة التي في قلبه، ولم ينطق بها، وهي قوله فيه: «أَنتُمْ شَرٌّ...» وأكَّد ذلك بقوله: ﴿**وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ**﴾ أي لم يظهرها لهم، وأبدل منه بدلا مطابقا قوله: ﴿**قَالَ**﴾ في قلبه أو بلسانه بعد أن قال في قلبه: ﴿**أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ**﴾ سمَّى ذلك كلَّه كلمة لجواز إطلاقها على الجمل، والمعنى أنتم قبيحون منزلة عند الله فشرٌّ خارج عن التفضيل، ويجوز بقاؤه أي أنتم شرٌّ مكانا مِمَّن رميتموه بالسرقة لو صحَّت، لأنَّهم عقُّوا أباهم وأخاهم بالتفريق والإلقاء في الجبِّ والبيع والبهت والكذب والحسد، والله أعلم بما تصفونه في حقِّي، أو بوصفكم إيَّاي. و﴿أَعْلَمُ﴾: بمعنى عليم، أو باق على التفضيل على أنَّ لهم علما في السرقة غير محقَّق، مثل أن يسمعوا عمَّتهم أو غيرها تقول سرق، والله يعلم أنَّ الأمر ليس كما تقولون.

﴿**قَالُواْ يَآ أَيُّهَا الْعَزِيزُ**﴾ هو هنا وصف، ولذلك تبع به أيُّها وليس علما، ولا يقال يا أَيُّهَا الحارث ويراد به رجل يسمَّى حارثا، فكأنَّه قيل: يا أَيُّهَا الملك العزيز الشأن ﴿**إِنَّ لَهُ**﴾ لأخينا الذي أخذته ﴿**أَبًا شَيْخًا**﴾ نعت لـ«أَبًا» ﴿**كَبِيرًا**﴾ هرما كبير السنِّ، فإنَّ الشيخ من حين شاب أو دخل الخمسين، ولا يهرم من فوق الخمسين إلَّا إن عمّر كثيرا، أو **كبير القدر** عند الله لأنَّه نبيء ابن نبيء ابن نبيء، أو أرادوا كبر السنِّ والقدر ﴿**فَخُذَ اَحَدَنَا مَكَانَهُ**﴾ بدله واستعبده، وإنَّما كان المكان بمعنى البدل، لأنَّ بدل الشيء يكون مكانه، ويتمكَّن فيه، فكنَّى به عن البدل ﴿**إِنَّا نَرٰيكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ شهدنا إحسانك معنا ومع غيرنا، وعلمناه، وهذا من التوسُّل في الإحسان بالإحسان السابق، أو نراك من المحسنين بردِّك إِيَّاهُ لنا إن رددته، وهذا لا يتبادر.

[قصص] وزعموا أنَّ أقواهم روبيل، وقيل: شمعون، وكان إذا صاح ألقت كلُّ حامل حملها إذا سمعت صوته، وإذا غضب قام شعره حتَّى ينفذ ثوبه، لَمَّا أخذ يوسف بنيامين بالصاع قال: أردده إلينا وإلَّا صحت فتضع الحوامل، واشتدَّ غضبه، وقال لإخوته: اكفوني الملك وأكفيكم أهل مصر، أو أكفيكموه واكفونيهم، وكانوا إذا مسَّهم يعقوب أو ولده ذلُّوا واتَّضعوا، فأمر يوسف بنيامين أن يقوم قريبا منه فيمسَّه، ففعل ففتر، وقال: من مسَّني منكم إنَّ هنا أحدا من أولاد يعقوب، ثمَّ عاود فتقدَّم إليه يوسف فقبض يده وضربه برجله، فوقع على الأرض وقال ذليلا: ﴿يَآ أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذَ اَحَدَنَا مَكَانَهُ...﴾ والقائل واحد وأسند القول لهم على طريق الكلِّ لا الكلِّية، أو لرضا الباقين.

﴿**قَالَ**﴾ يوسف ﴿**مَعَاذَ اللهِ أَن نَّاخُذَ**﴾ نعوذ بالله عوذا أن نأخذ، وهذا في معنى النفي، ولهذا صحَّ التفريغ بقوله: ﴿**إِلَّا مَن وَّجَدْنَا مَتَاعَنَا**﴾ أي الصواع، لم يقل: إلَّا من سرق متاعنا مع أنَّه أقلُّ لفظا لأنَّه ذكر في الاستفتاء ذكر المتاع، أو للاحتراز عن الكذب ﴿**عِندَهُ**﴾ وهو بنيامين ﴿**إِنَّآ إِذًا**﴾ إذا أخذنا غيره على فرض أنَّا أخذنا غيره ومضى الأخذ، أو إذا أخذنا غيره كما طلبتم منَّا ﴿**لَظَالِمُونَ**﴾ لأنفسنا بتبديل الدين، وللمأخوذ بأخذ غير الفاعل مكان الفاعل، ولم يقل: إلَّا من سرق متاعنا تحرُّزا عن الكذب، وقد مرَّ تخلُّصه من الكذب في كلِّ موضع يوهم الكذب، وبقي أن يقال: كيف يسوغ له أن لا يخبر يعقوب بأنِّي في مصر؟ وكيف يأخذ بنيامين ونحو ذلك مِمَّا يغمُّ يعقوب؟ الجواب: إنَّ الله ﷻ أمره بذلك فيعظم أجرهما.

﴿**فَلَمَّا اسْتَيْئَسُواْ مِنْهُ**﴾ أيسوا يأسا عظيما من العزيز يوسف أن يردَّ إليهم بنيامين، أو مِن بنيامين، أو مِن أن يأخذ أحدهم مكانه، والإيَّاس من الذات أشدُّ مبالغة من الردِّ أو الأخذ، ويجوز أن يكون الله قد قضى بخلاصه

﴿خَلَصُواْ﴾ خَلَوْا عن يوســف ومن معه بالانفراد عنهم وترك الخلطة ﴿نَجِيًّا﴾ حال مقارنة بأن يتناجوا حــال الذهاب عنهم، أو مقــدَّرة أي ناوين التناجي، بمعنى التكلُّم سرًّا من بعض مع بعض مشاورة.

[صرف] وهو فعيل بمعنــى مفاعل بضمِّ الميم كالعشــير بمعنى معاشــر، والخليط بمعنى مخالــط، وأفرد لأنَّه بوزن المصــدر كالصهيل، والمصدر يجوز إطلاقه على الواحد وغيره، وقيل: هو اسم موضوع لِمَا فوق الواحد، كقوم للثلاثة فصاعدا، وهو مصدر للمبالغة كأنَّهم نفس النجوى، أو يقدَّر ذوي نجيٍّ وهو حال.

وكأنَّه قيل: بم تناجوا؟ فقال: ﴿قَالَ كَبِيرُهُمُ﴾ ســنًّا روبيل أو كبيرهم رأيا يهوذا أو كبيرهم رئاسة شمعون ﴿أَلَمْ تَعْلَمُواْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدَ اَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا﴾ عظيما كما مرَّ ﴿مِنَ اللهِ﴾ في ردِّ أخيكم إليه، لكن قال: ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ ولم يعدُّوا إمساك الملك إحاطة بهم، لأنَّهم يرجون حيلة تخلِّصه منه، أو عدُّوه إحاطة لكن تفاوضــوا في الكلام، وعــدُّوا الموثق من الله مع أنَّــه منهم لأنَّه بخلقه وأمره ولأنَّ الحلف به.

[نحو] ﴿وَمِن قَبْلُ﴾ خبر ﴿مَا فَرَّطْتُّــمْ﴾ «مَا» مَصدَرِيَّة، والمصدر مبتدأ، أي وتفريطكم ثابت من قبل أن تأتوا ببنيامين، أو من قبل أن يمسكه العزيز، أو «مَا» صلة و«مِن قَبْلُ» يتعلَّق بـ«فَرَّطْتُّمْ» أي وفرطتــم من قبل، وقد جاز جعل الظرف المقطوع حالا وخبرا، ونعتا عند بعض، ولا سيما إذا كان المضاف إليه معلوما.

﴿فِي يُوسُــفَ﴾ أي في شــأنه، أو «مَا» مَصدَرِيَّة والمصدر معطوف على مفعول «تَعْلَمُوا» وهو مفرد كمــا أَنَّ «أَبَاكُم...» في تأويــل المفرد، وجاز لأَنَّ «تعلم» بمعنى تعرف، أو لاشتمال الكلام على المسند والمسند إليه، أو عطف معمولين على معمولين، أي وإن من قبل تفريطا.

﴿فَلَــنَ اَبْــرَحَ الَارْضَ حَتَّىٰ يَاذَنَ لِــيَ أَبِــيَ أَوْ يَحْكُمَ اللهُ لِــي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِيــنَ﴾ عدِّي «أبرح» للمفعــول به لتضمُّن معنى أفــارق، أي لن أفارق



أرض مصر حتَّى يأذن لي أبي في الرجوع إليه، أو يحكم الله لي بخلاص أخي، أو بالموت أو بالمقابلة مع الملك وهو أعدل الحاكمين.

﴿**ارْجِعُواْ إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ**﴾... إلخ هذا من كلام كبيرهم، ويبعد ما قيل: إنَّه من كلام يوسف، أي قولوا معتذرين ﴿**يَآ أَبَانَآ إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ**﴾ الصواع فأمسكه الملك ولم نقدر على المجيء به فجئنا بدونه، كما قلتَ: «إِلَّآ أَنْ يُّحَاطَ بِكُمْ» فلا تتَّهمنا به كما اتَّهمتنا بيوسف، يعنون أنَّه سرق في ظاهر الأمر لوجود الصاع في رحله.

والله أعلم بحقيقة الحال كما قال: ﴿**وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا**﴾ بظاهر حاله من وجود الصاع في رحله، والشهادة هنا الإخبار ﴿**وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ**﴾ بل الله يعلم هل سرق، فلعلَّ أحدا أراد الانتقام منه فدسَّه في رحله، أو أراد الملك أخذه بنفسه فدسَّ، أو كان في رحله خطأ، وأيضا قال: وضع الصاع فيه من وضع البضائع في رحالكم.

والغيب: ما غاب عَنَّا، أو غيب يوسف في ليله ونهاره، ومجيئه وذهابه، أو الغيب كونه يسرق، لو علمنا أنَّه سيسرق، ولو علمنا ما ذهبنا به، أو لو علمنا أنَّه تصاب به. واللام للتقوية.

ويبعد ما قيل: إنَّ الغيب الليل من لغة حمير، أي لم نحفظ الليل على ما يقع فيه فلعلَّه سرق فيه، أو دُلِّسَ عليه مكرا فاللام للتقوية أيضا، وكون الليل محفوظا مجاز، أو بمعنى في، [قلت:] **ولا داعي إلى أن يفسَّر القرآن بما لا يتبادر ولا بغير لغة قريش**. وإنَّما أعطيناك الموثق، وقلنا: «نَحْفَظُ أَخَانَا» على ما لنا إليه سبيل، قال رسول ﷺ: «**إذا علمت مثل الشمس فاشهد**»[1].

---

(1) أورده **الزيلعي** في نصب الراية، ج 4، ص 82. و**العجلوني** في الكشف، ج 2، ص 93.

﴿وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ اسأل أهل القرية التي كُنَّا فيها، وهي مصر، على أنَّهم ردُّوا إليها للتفتيش، أو قرية بعدها على أنَّهم لم يردُّوا إليها، وتطلق القرية أيضا على أهلهـا مجازا أو حقيقة، وسـمِّيت القرية قريـة لأنَّها تقري الناس، أي تجمعهم، يقال: قريت الماء في الحوض: جمعته.

والأولى أنَّ المراد مصر لأنَّ قوله: ﴿كُنَّا فِيهَا﴾ يناسـبه أشـدَّ المناسـبة، لطول الكون فيها، ولأنَّ الكـون فيها مقصود بالذات، وأمَّا القرية الأخرى فلم يطل مكثهم فيها، وما معنى الكون فيها إلَّا كونهم فيها حين اسـتخراج الصاع على هذا القول، ومعنى قولهم: «اسـأل القرية» أرسل إلى أهلها يجيبوك، لأنَّ يعقوب في الشام لا في مصر وأعمالها، والمراد اسألهم عن القصَّة.

﴿وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ أهل العير التي أقبلنـا فيها أو العير التي أقبلنا فيها، كلُّه اسـم للناس، وهم غيرنا جمعنا سفر واحد، بل الظرفية تدلُّ على أنَّ الأكثر غيرهم، أو «في» بمعنى مع، فيكون المتبوع هـو الأصل فهم تابعون، فيتبادر أنَّهم أقلُّ والأصل الظرفيَّة.

﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ إنَّا قوم عادتنا الصدق فما يكون ما أخبرناك به إلَّا حقًّا، وقيل: إنَّا لصادقون في قولنا: إنَّه سـرق بحسـب الظاهر، ويدلُّ له قوله: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ...﴾ وقيل: **المراد** اسأل القرية والعير على ظاهرهما بناء على أنَّ الأمر ظاهر حتَّى لا يخفى عن الجماد والإبل، كقوله:

واسـأل نجوم الليل هـل زار الكرى جفني.................[1]

وهذا أيضا مجاز.

هذا آخـر كلام كبيرهم الذي أمرهـم أن يقولوه لأبيهـم، إذا رجعوا إليه، فقالوا له: نعم نقوله، فرجعوا إليه، وقالوه له، فأجابهم بما قال الله عنه في قوله:

(1) في الطبعة العُمانية زيادة: «وكيف يزور من لم يعرف».

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ﴾ ليس الأمر كما قلتم بل زيَّنت وسهَّلت، أو خيَّلت أنَّه سرق وما سرق، والإضراب بـ«بَلْ» عن دعواهم الصدق، أي لم تصدقوا بل سوَّلت، بمعنى أنَّ ما شاهدتم ولو صدقتم فيه غير خال عن تضمُّن ما ينقضه، أو الإضراب عَمَّا يتضمَّنه من البراءة عن التسبُّب فيما نزل بأخيهم، كما أفتوا باسترقاق السارق، وليس من دين الملك، وفي معنى ذلك تقدير المحذوف أي ليس حقيقة كما أخبرتم بل سوَّلت، أو الإضراب عَمَّا طمعوا فيه من الخروج عن التهمة لذلك الإفتاء، وما فعلوا بيوسف، أو إضراب عن جعلهم وجود الصواع في رحله سرقة مجزوما بها.

﴿لَكُمُۥٓ أَنفُسُكُمُۥٓ أَمْرًا﴾ فعلتموه كيدا في إهلاكه، أو تغييبه، وهب أنَّه سرق فمن أدرى الملك أنَّ السارق يسترقُّ بسرقته؟ وإنَّما يعلم ذلك من جهتكم، قيل: وكان استرقاق السارق شرعا ليعقوب والأنبياء قبله، وقد علمه من قولهم: ﴿جَزَآؤُهُ مَن وُّجِدَ فِي رَحْلِهِ﴾ وإنَّما سعى في أن لا يخبروه لأنَّه يظنُّ أنَّ الملك مشرك حاشاه، والمشرك لا يملك موحِّدا كما أنَّ دماء المشركين والموحِّدين لا تتكافأ.

﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أي فأمري صبر جميل، أو فصبر جميل أحسن، أو فالواجب صبر جميل، أو فعَلَيَّ صبر جميل.

[قلت:] **من الصبر الجميل أن لا تتحدَّث بمصيبتك، ولا تزكِّي نفسك.** اتَّهمهم لِمَا رأى منهم في يوسف، ولعلم الملك بالاسترقاق، واستفيد أنَّ الظنَّ ولو قويت أماراته وكان من أفاضل الناس لا يؤمن كذبه، فهذا يعقوب صفيُّ الله ظنَّ وأخطأ في هذا الظنِّ، لأنَّه لا كيد لهم في إمساك بنيامين.

﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَّاتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ يكمل لي إتيانهم جميعا فقد جاء واحد وهو كبيرهم، رجع بعد ما قال: «فَلَنَ اَبْرَحَ الاَرْضَ» وبقي اثنان يقدر الله

أن يَأتِيَانِي فيكون قد أتوني جميعا، أو الهاء لاثنين: بنيامين ويوسف، أو لهما وللكبير، على أنَّه لم يرجع إلى أبيه.

و«عَسَى» منه عليه السلام جزم لعلمه بحياة يوسف، وبأنَّه سيجتمعون من الوحي، أو ترجٍّ على احتمال أنَّ لاجتماعهم شرطا اختلَّ، أو تملُّق إلى الله وتضرُّع، ولو جزم، أو خاف لعلَّ اجتماعهم بعد موته، وكذلك قال لعزرائيل: هل قبضت روح يوسف؟ فقال: لا، وقد يخشى قبضه بعد قوله: لا، **إذا تناهت الشدَّة أتى الفرج**، وأيضا قال يوسف: إذا أتيتم أباكم فاقرؤوا له السلام وقولوا له: إنَّ ملك مصر يدعو أن لا تموت حتَّى ترى ولدك يوسف، فيعلم أنَّ في مصر صديقا.

﴿**إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ**﴾ بحالي وحالهم وبكلِّ شيء ﴿**الْحَكِيمُ**﴾ في تدبير الأشياء وأحوالها ﴿**وَتَوَلّىٰ**﴾ أعرض ﴿**عَنْهُمْ**﴾ لأنَّه لم ير منهم ما يسرُّه، في شأن يوسف وأخيه أو أخويه، وترك خطابهم إذ لا يفيده.

﴿**وَقَالَ**﴾ إذ بلغ جهده بيوسف ﴿**يَآ أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ**﴾ يا حزني الشديد أحضر، فهذا أوانك، هذا ظاهر اللفظ، والمراد الكناية على التحسُّر، فإنَّه معلوم أنَّ غير الحيوان لا ينادى، فنداؤه استعارة مكنيَّة، هُيِّج حزنه على يوسف بحدوث موجب لحزن آخر، كان يتسلَّى بعض تسلٍّ عنه ببنيامين إذ كانا من أمٍّ، وَلَمَّا غاب عنه زاد حزنه، وكان حبُّه يوسف أعظم من حبِّه بنيامين وهو القاعدة في حزنه حتَّى إنَّ حزنه غضٌّ طريٌّ ولو قدم. وأيضا هو واثق بحياة روبيل وبنيامين دون يوسف، وهذا قبل أن يقول له عزرائيل: إنَّ يوسف حيٌّ، أو بعده وخاف أنَّه مات.

[نحو] وألف «أَسَفَىٰ» ضمير جرٍّ للمتكلِّم قلبت الياء ولو ساكنة ألفا بعد فتحة ولا يشترط تحرُّكها للقلب، لأنَّ ذلك شرط في الياء التي هي حرف من الكلمة لا في ياء المتكلِّم فلا تهم، وقيل: الألف للندبة وهاؤها مقدَّرة.

وذلك شكوى إلى الله لا إلى غيره، ولا جَزَعٌ، كأنَّه قال: يا أرحم الراحمين



اشتدَّ حزني. روى الطبراني وابن مردويه والبيهقي عن سعيد بن جبير عنه ﷺ: «لم تعط أمَّة من الأمم: ﴿إِنَّا لِلهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ عند المصيبة إلَّا أمَّة محمَّد ﷺ»[1] ألا ترى إلى قول يعقوب حين أصابه ما أصابه لم يسترجع، وقال: «يَآ أَسَفَىٰ»، وفيه مع لفظ يوسف تجنيس.

﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ﴾ لكثرة بكائه، فالحزن سبب بعيد لبياض العين، وكثرة البكاء سبب قريب، فأقيم سبب السبب مقام السبب تنبيها على كمال السَّببيَّة البعيدة، كأنَّه محق الدموع سواد عينيه لاستمراره ولا ضعف لبصره، وهذا هو الراجح فيما قيل، ولا يعارضه ﴿فَارْتَدَّ بَصِيرًا﴾ فإنَّه معناه زوال تلك الدموع التي صار بها كالأعمى، وقيل: زال نظره وعمي، كما هو ظاهر قوله: ﴿فَارْتَدَّ بَصِيرًا﴾.

[قلت:] ولا مانع من حدوث العمى أو الجذام ونحو ذلك للأنبياء بعد التبليغ بالحجج والمعجزات، وقيل: ضعف بصره تحقيقا ثمَّ ارتدَّ بصيرا كامل البصر. ويروى: فارق يوسف يعقوب ثمانين سنة ودموعه تجري فيها حتَّى ذهب بصره، وما على الأرض يومئذ أكرم على الله تعالى منه، ويروى أنَّ جبريل دخل على يوسف في السجن فقال: هل لك علم بيعقوب وحاله؟ فقال: ابيضَّت عيناه من الحزن عليك حزن سبعين مثكلة وله على ذلك أجر مائة شهيد.

﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ مكظوم مملوء من الهمِّ كقربة مملوءة شدَّ على فيها، لم يزله أو بعضه بالشكوى إلى الخلق أو بالجزع، ففي ذلك استعارة مكنيَّة شبَّه بالقربة ورمز إليها بلازمها وهو الكظم، ولم يمنعه ذلك عن ذكر الله، وعبادته ومناجاته، وانشراح صدره، أو هو كظيم بمعنى كاظم، أي شادٌّ على نفسه من

---

(1) ذكره الشيخ في الجزء الأول ص 292 بلفظ: «ما أعطي الاسترجاع لأحد قبل أمَّتي» وقد غفلنا عن تخريجه، أورده **المنذري** في الترغيب، كتاب الجنائز، باب في كلمات يقولهنَّ من مات له ميِّت، من حديث ابن عَبَّاس.

أن تجزع، أو تشكو لغير الله ﷻ، فيجوز أن يكون من كظم البعير جرَّته إذا ردَّها إلى بطنه، فذلك استعارة مكنيَّة أيضا.

[فقه] والتأسُّف والحزن والبكاء غير حرام ما لم يكن جزع أو صياح أو نياحة، ولطم الخدِّ والصدر وشقُّ الجيب، وربَّما لم يدخل تحت التكليف، وَلَمَّا مات ولد رسول الله ﷺ إبراهيم بكى، وقال: «**القلب يجزع، والعين تدمع، وأنا لا أقول ما يسخط الربَّ، وإنَّا عليك يا إبراهيم لمحزونون**»[1]. ورفع إليه ولد لبعض بناته يجود بنفسه ووضعه في حجره ففاضت عيناه ﷺ، وقال له سعد: ما هذا يا رسول الله؟ فقال: «**هذه رحمة جعلها الله فيمن شاء من عباده، وإنَّما يرحم الله من عباده الرحماء**»[2]. ﴿**قَالُواْ**﴾ تسلية له عليه السلام ولذلك أجابهم بأنِّي لست أشكو إليكم ولا إلى غيركم، بل إلى الله ﷻ، قال ﷺ: «**من كنوز البرِّ كتمان الصدقة والمصائب والأمراض**»[3].

﴿**تَاللهِ تَفْتَؤُاْ**﴾ لا تفتأ أي لا تزال ﴿**تَذْكُرُ يُوسُفَ**﴾ بالتوجُّع عليه، وإنَّما حذف لا النافية للعلم بالنفي من المقام، فإنَّه لا يناسب إنَّه تالله تترك ذكر يوسف، ولأنَّه لو لم تقدر لأكِّد الفعل بالنون واللام على حدِّ ﴿تَاللهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم﴾ [سورة الأنبياء: 57]، وذلك كثير حتَّى إنَّه لو قيل: تالله أحبُّك، لكان المعنى: لا أحبُّك بالنفي، ولو أريد الإثبات لقيل: لأحبنَّك، قال [شاعر]:

فقلت لها: تالله أبرح قاعدا ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالي[4]

(1) أورده **ابن حجر** في كتابه الكاف الشاف في تخريج أحاديث الكشاف، ص 90.

(2) رواه **البخاري** في كتاب الجنائز، باب قول النبي ﷺ: يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه، رقم 1224، من حديث أسامة بن زيد.

(3) أورده **الشوكاني** في الفوائد، ص 263، رقم 817 (170) بلفظ مقارب.

(4) البيت من قصيدة لامرئ القيس مطلعها:

أَلا عم صباحا أيها الطلل البالي

وذكر في أوضح المسالك بلفظ: «فقلت يمين الله» عوض «فقلت لها تالله».

فالآية من التورية إذا أريـد المعنى البعيد، وهو تقديـر النفي لا القريب الذي هو إبقاء الـكلام على ظاهره من الإثبات، وإنَّما حلفوا على حسـب ما ظهر لهم من الأمر الغالب، والداعي إلى الحلف قصد تسلِّيه عن يوسف.

﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾ مريضا مشرفا على الهلاك، أو الحرض الذي أذابه همٌّ أو مرض، وأصله مصدر وصار يطلق على الـذات المفردة وما فوقها ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ الموتى.

[لغة] و«أَوْ» لمنع الخلـو لا لمنع الجمع، لجواز أن يكون مشـرفا على الموت ويموت بعد، نعم باعتبار حالة واحـدة لمنع الجمع لأنَّه حال الحرض غير ميِّت، وحين الموت خرج عن الحرض. ويقال: «أَوْ» بمعنى إلى، أو بمعنى بل، قال بعض المحقِّقين: فلا يردُّ عليه أنَّ حقَّ هـذا التقديم على «حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا» وأنَّه إن كانت للترديد فهي لمنع الخلوِّ، والتقديم على ترتيب الوجود كقوله تعالى: ﴿لَا تَاخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [سورة البقرة: 255] أو لأنَّه أكثر وقوعا.

﴿قَالَ﴾ مجيبا لهم بأنَّه لا يذكر يوسف مُهْمِلاً أو جزعا، بل يذكره تضرُّعا إلى الله ﴿إِنَّمَآ أَشْـكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيَ إِلَى اللهِ﴾ لا إلى غيره. البثُّ: تفريق الشيء وإظهاره منتشـرا، كبثِّ الريح التراب، واسـتعمل فيما لا يطـاق ففرِّق على متعدِّد، فهو بمعنى مفعول واستعارة تصريحيَّة، أو بمعنى فاعل أي الغمُّ الذي فرَّق الفكر وهو أشـدُّ الحزن، فكأنَّه قال: أشكوا حزني الشديد، وحزني الذي دونه إلى الله لا إلى غيره، لأنَّ غيره لا قدرة له على إزالته فلا يخيب داعيه.

﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَـا لَا تَعْلَمُـونَ﴾ من رحمته، ومن حياة يوسـف، زاره عزرائيل فقال له: أَيُّهَا الملك الطيِّب ريحه، الحسـن صورته الكريم على ربِّه، هل قبضت روح ابني يوسف؟ قال: لا، فطابت نفسـه، ولذلك قال: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وأيضا علم برؤيا يوسف إنَّ إخوته يسجدون له، وأيضا لَمَّا أخبر بحسن سـيرة ملك مصر وديانته رجا أنَّه يوسف، وعلم أنَّه حيٌّ ولا

يدري أين هو؟ قال رسول الله ﷺ: «**كان ليعقوب أخ في الله، فقال له: ما الذي أذهب بصرك؟ قال: البكاء على يوسف، وما قوّس ظهرك؟ قال: الحزن على بنيامين، وقال له جبريل: إنَّ الله يقرئك السلام، ويقول لك: أما تستحي تشكو إلى غيري؟ فقال: إنَّما أشكو بثِّي وحزني إلى الله، فقال جبريل: ربُّك أعلم منك**»[(1)]، أو الله أعلم بما تشكو.

كأنَّه أشار إلى ما قد لا يخلو عنه البشر طبعا، أو كره الله منه أن يقول بحضرة الناس: «يا أسفي على يوسف»، مع أنَّه لم يَشْكُ إليهم.

وأخرج ابن أبي حاتم عن النضر أنَّه قال: بلغني أنَّ يعقوب عليه السلام مكث أربعة وعشرين عاما لا يدري أيوسف حيٌّ أم ميِّت؟ حتَّى تمثَّل له ملك الموت، فقال: من أنت؟ قال: أنا ملك الموت، فقال: أنشدك بإله يعقوب عليه السلام هل قبضت روح يوسف؟ قال: لا، فعند ذلك قال ما في قوله تعالى:

﴿يَابَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِنْ يُّوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْئَسُواْ مِن رَّوْحِ اللهِ إِنَّهُ لَا يَاْيْئَسُ مِن رَّوْحِ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الكَافِرُونَ﴾ وقوله: لا يدري أيوسف حيٌّ مخالف لِمَا علم من رؤيا يوسف، فإنَّه علم بها أنَّهم سيجتمعون معه، ويسجدون له، وكذا يعقوب وخالة يوسف، وبكلام عزرائيل، وبفتور روبيل بمسِّ بنيامين، ولم يأمرهم بالذهاب إلى موضع معيَّن، ولعلَّه أمرهم بالذهاب إلى مصر لعلمه بأنَّ فيها بنيامين وروبيل، ولأنَّ فيها الملك المحسن فلعلَّه يعينهم على البحث عنهما.

وقد روي عن عبد الله بن يزيد بن أبي فروة أنَّ يعقوب عليه السلام كتب إلى يوسف عليه السلام: «**من يعقوب عبد الله بن إسحاق ذبيح الله، ابن إبراهيم خليل الله، إلى ملك مصر، أما بعد: فإنَّا أهل بيت البلاء ألقي جدِّي إبراهيم في النار**

---

(1) أورده **السيوطي** في الدر، ج 4، ص 36، من حديث أنس. وقال: رواه ابن أبي حاتم والطبراني في الأوسط، ج 7، ص 62، رقم 6101. وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في الشعب مع زيادة.

مشدود اليدين والرجلين، وعمِّي إسماعيل اغترب في مكَّة، وأبي إسحاق أمر بذبحه فصبروا لأمر الله ﷻ، ولي ابن أحبُّ أولادي إليَّ وأتلفه إخوته، وقالوا: أكله الذئب، فذهبت عيناي، وله أخ شقيق أتسلَّى به، وحبستَه وزعمتَ أنَّه سرق، فإنَّا أهل بيت لا نسرق، فإن لم ترده دعوت عليك دعوة تلحق السابع من ولدك»، فذهبوا بالكتاب إلى يوسف في مصر متحسِّسين عنه، فقيل: بكى لَمَّا قرأ الكتاب وكتب إليه: «اصبر كما صبروا تظفر كما ظفروا».

[لغة] والتحسُّس: البحث بالحاسَّة عن الشيء كالتجسُّس بالجيم، كما قرئ به، لكنَّ الغالب في الجيم البحث عن السوء، وبالمهملة على السواء، وقيل: غالبها الخير كما هنا، ومن خصَّه بالسوء ردَّ عليه بالقراءة به، وقيل: هو بالجيم تعرُّف حال مَّا، وبالمهملة تعرُّف ما يدرك بالحسِّ، فهو أعمُّ مِمَّا بالمهملة. و«مِنْ» بمعنى عن، أو للتبعيض على حذف مضاف، أي بعض أخبار يوسف وأخيه، وهو بنيامين، وأمَّا روبيل أو شمعون فعلم أنَّه في مصر باختياره حتَّى يأذن له أبوه في الرجوع، أو يحكم الله، ورَوْحِ اللهِ: رحمته، مستعار من روح القلب، وهو استراحته من الغمِّ، كأنَّه قيل: لا تيأسوا من راحة لقلوبكم تأتيكم من الله، أو مستعار من الروح بمعنى النفَس بفتح الفاء للفرج.

[أصول الدين] والإيَّاس من رحمة الدنيا كفر كما هو من رحمة الآخرة كفر، وأمَّا الإيَّاس من الخلق فجائز، والكفر هنا بمعنى الشرك، أو **مطلق الفسق**، وذلك تغليظ في الزجر، أمَّا الفاسق غير المشرك فلقسوة قلبه وإعراضه، وأمَّا المشرك فلقصوره عن إدراك خصال التوحيد، وذكر بعض قومنا أنَّ الموحِّد إذا أيس فإيَّاسه شرك.

﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ﴿88﴾ قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ ﴿89﴾ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿90﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿91﴾ قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿92﴾ ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿93﴾﴾

تعرُّف أولاد يعقوب على يوسف في المرَّة الثالثة واعترافهم بخطئهم وعفوه عنهم

وذهبوا يتحسَّسون ﴿**فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ**﴾ خرجوا من عند أبيهم للتحسُّس إلى مصر ودخلوها ودخلوا على يوسف، وَلَمَّا دخلوا عليه ﴿**قَالُواْ يَآ أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ اللهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ**﴾ هذه مرَّة ثالثة في دخول مصر، الأولى ليكتالوا، والثانية ليرجعوا ببنيامين إليها، ويزدادوا كيل بعير، وهذه للتحسُّس، ولكن قدَّموا ذكر مسِّ الضرِّ وهو الجوع وطلب إيفاء الكيل والتصدُّق، لأنَّ المتحسِّس يستعمل كلَّ ما يظنُّ أنَّه يتوصَّل به إلى مطلوبه، فاعترفوا له بالمسكنة أوَّلا ليقابلها بما يصلحها من الإيفاء والتصدُّق، وذلك استجلاب للرأفة، فإن رقَّ لهم طلبوا بنيامين وسألوه العمل في يوسف، وإلَّا شرعوا لا محالة في بنيامين ويوسف أو سكتوا.



[لغة] والبضاعة: ما يشترى به أو يباع، والمزجاة: التي تدفع على صاحبها لقلَّتها، أو خسَّتها، أو لهما وهو المتبادر من المقام، والخسيسة قد تكون قليلة وقد تكون كثيرة، والقليلة قد تكون خسيسة وقد تكون جيِّدة، وذلك عموم وخصوص من وجه، [وقد قيل:] كانت دراهم زيوفا تؤخذ بوضيعة، أو صوفا أو سمنا وحبَّ الصنوبر والحبَّة الخضراء المأكولة من البطم، ويعصر منها الزيت، أو الأَقِطِ قط وسويق المقل، أو الفستق مع الصنوبر وسمَّاه بعض الحبَّة الخضراء، ويقال: المقل الدوم، ويقال: سمغ شجرة، والزيف يكون بخلط النحاس مثلا، ويقال: نحاس مطليٌّ بمعقود الزئبق مع الكبريت.

وجعل مسُّ الضرِّ علَّة لإيفاء الكيل والتصدُّق، أو المجيء بالبضاعة المزجاة علَّة لهما لبنائها على مسِّ الضرِّ، والمراد: أوف الكيل ولا تنظر إلى رداءة بضاعة فتنقصه، أو اقبلها كالجيِّدة، وزد على ما تسوى الجيِّدة، أو أوفه بردِّ أخينا، وتصدَّق علينا زيادة على ذلك كلِّه، لا في مقابلة ثمن، أو التصدُّق بردِّ بنيامين.

[فقه] وأخطأ من قال: إنَّ إخوة يوسف أنبياء لأفعالهم، فلا شكَّ أنَّه تحلُّ لهم الصدقة لأنَّها ولو حرمت على الأنبياء كلِّهم لكن لم تحرم على آلهم، كما حرمت على آل سيِّدنا محمَّد ﷺ مثله، وذكر بعض أنَّها حرمت عليهم وعلى آلهم، ولعلَّهم طلبوا الصدقة لأنفسهم وهم غير أنبياء، لا ليعقوب النبيء، فإمَّا أن لا يعطوه منها وإمَّا أن يعطوه منها، لأنَّها لم تطلب له كما قال ﷺ في لحم: «**إنَّه صدقة على بريرة وهديَّة لنا**»(1).

والمشهور أنَّ الصدقة حرمت على النبيء ﷺ وعلى آله، لا على الأنبياء قبله، وهو المتبادر من قوله: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ لكن يحتمل التصدُّق بردِّه بنيامين، وأيضا التصدُّق على كلِّ أحد هبة، والهبة لكلِّ أحد، وكأنَّهم قالوا:

(1) رواه **الربيع**، في كتاب النكاح. باب الطلاق والخلع والنفقة، رقم: 535. من حديث عائشة. ورواه **البخاري** في كتاب الهبة (6) باب قبول الهدية، رقم 2438. من حديث أنس.

وهبْ لنا، وأيضا تطلق على التفضُّل مطلقا، كما جاء: «**إنَّ القصر** [في السفر] **صدقة تصدَّق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته**»[1]. بقي أن يقال: الأنسب إذا كانت لنبيء لا تسمَّى صدقة، والصدقة في العرف ما يبتغى به الثواب، ولذلك ردَّ الحسن على من قال: «اللهمَّ تصدَّق علينا» وقال: «قل اللهمَّ أعطنا وتفضَّل علينا» ولا يعارض بهذا الحديث، لأنَّ القائل ليس بليغا يتصرَّف في كلامه ولئلَّا يشرَّع في الناس، أو هو في الحديث للمشاكلة، وقالوا: «يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ» لا إنَّ الله يجزيك لأنَّهم لا يعرفونه مؤمنا وظنُّوه كافرا، كملوك مصر.

وَلَمَّا قالوا ذلك رقَّ لهم فقال ما في قوله تعالى: ﴿**قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ**﴾ من الضرب والشتم، والإلقاء في البئر والبيع والنسبة إلى السرقة، والتفريق له عن أبيه وأهله ﴿**وَأَخِيهِ**﴾ بنيامين، من إذلاله حتَّى لا يكلِّمهم إلَّا في عجز وذلٍّ، ولا يجد ذكر أخيه يوسف إلَّا في ذلك، ومن تفريقهم بينه وبين يوسف، وقولهم له لَمَّا خرج الصاع من رحله: ما رأينا منكم يا بني راحيل خيرا. والاستفهام توبيخ ليتوبوا، أو تقريع كذلك، والمراد: هل علمتم قبح ما فعلتم أو عقابه من الله.

وفي قوله: ﴿**إِذَ اَنتُمْ جَاهِلُونَ**﴾ تليين لهم، كأنَّه علَّمهم الاعتذار، وسهَّل لهم لجهلهم، جعل عمدهم كالجهل، لأنَّ غير العامل بما علم كالجاهل في عدم العمل، أو ﴿جَاهِلُونَ﴾: سفهاء كأنَّهم صبيان، أو جاهلون عاقبة أمري من النبوءة والملك، أو عقاب فعلكم أو قبحه.

﴿**قَالُواْ أَ.نَّكَ لأَنتَ يُوسُفُ**﴾؟ قالوا بالاستفهام لا بالجزم، لأنَّهم ظنُّوا ظنًّا أنَّه يوسف لجماله، ولعلمه بما فعلوا في يوسف وأخيه، وإن قالوا هذا بعد علمهم تحقيقا بأنَّه يوسف فالاستفهام تعجُّب أو زيادة تيقُّن، أو تقرير، ويدلُّ على أنَّه بعد علمهم التأكيد بـ«إنَّ» واللام وتكرير الضمير، والاستفهام الحقيقي

---

(1) رواه **مسلم** في كتاب المسافرين (1) باب رقم 4 (686). ورواه **الترمذي** في كتاب التفسير (5) باب ومن سورة النساء، رقم 3034. من حديث عمر بن الخطاب بنفس المعنى وزيادة.

ينافي التأكيد، وقد قيل: عرفوه لَمَّا كشــف وجهه لهم وتبسَّم، وقيل: رفع التاج عن رأسه فرأوا في قرنه علامة تشبه الشــامة البيضاء كشامة جدَّته سارة، وشامة أبيه يعقوب، قيل: عرفوه لِمَا رأوا من خصاله، وقيل: بوجهه أظهره لهم في ذلك الوقت فقط ومن قبل ستر وجهه، أو يكلِّمهم من وراء الستر تارة ومستور الوجه أخرى، وقيل: لَمَّا قرأ كتاب يعقوب رقَّ فأخبرهم أنَّه يوسف.

﴿**قَالَ أَنَاْ يُوسُـفُ**﴾ لم يقل أنا هو، أو هو أنا لزيــادة الإيضاح وتعظيم ما فعلوا به، وما عوِّض من النصر والملك، كأنَّه قال: أنا يوسف المعروف بالإلقاء في الجبِّ، وسائر مساويكم به، صرت إلى ما ترون، ولذلك أيضا قال: ﴿**وَهَٰذَآ أَخِي**﴾ شقيقي بنيامين ـ مع أنَّهم عرفوه ـ وأيضا هو مظلوم مثلي، وأيضا زاد به تعريفا لنفسه وتفخيما لشأنه، وإدخالا في قوله: ﴿**قَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَآ**﴾ بالسلامة، وبالاجتماع بعد الفرقة، والقعود على بساط الملك وسلامة الدين.

﴿**إِنَّهُ**﴾ أي الشأن ﴿**مَنْ يَّتَّقِ**﴾ الذنوب ويخش الله ﴿**وَيَصْبِرْ**﴾ على الطاعات والبلايا وعن المعاصي ﴿**فَإِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ أي أجرهم اعتبارًا لِمعنى «مَنْ» بعد اعتبار لفظه، وأظهر في موضع الإضمــار لِيُبَيِّنَ علَّة الحكم، أي عدم الإضاعة لإحسانهم، وَلِيُبَيِّنَ أنَّ المحسن من جمع التقوى والصبر، أو الإحسان هو الإخلاص فيلوِّح إلى أنْ لا عبرة للتقوى والصبر بلا إخلاص، بناء على أنَّه لم يشــمله لفظ التقوى، كمــا تَذكُر العامَّ على قصــد أن لا يدخل فيه خاصٌّ، فتَذكر الخاصَّ بعدُ أو قبلُ. والرابط نفس المحســنين لأنَّهم هم الذين اتَّقوا وصبروا لا العموم، إلَّا إن أريد بـ«مَنْ» يوسف وأخوه أو أهل بيته خَاصَّةً.

﴿**قَالُواْ تَــاللهِ لَقَدَ ـ اثَــرَكَ اللهُ عَلَيْنَا**﴾ اختارك علينا بالصبــر والعقل، والحلم والعلم والملك والتقوى، والجمال والإحسان وحســن الخلق، وما قيل: إنَّه أراد قتلهم ثمَّ رقَّ عليهم بذكرهم أباه واغتمامه به وببنيامين فكيف بهم لا يصحُّ ﴿**وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ**﴾ مذنبين في صنعنا معك، ولذلك جعلنا الله أذلَّاء لك خاضعين.

﴿**قَالَ لَا تَثْرِيبَ**﴾ لا عتاب كثيرا، بل قليل كما مرَّ أنَّه وبَّخهم، وإن لم يكن توبيخ فالمبالغة راجعة إلى النفي، أي انتفى التثريب انتفاء بليغا، وذلك أنَّ الأصل ثرب ثربا كضرب ضربا شدِّد للمبالغة، ولَمَّا استحقُّوا المبالغة في العتاب لمبالغتهم في الشرِّ تركها عفوا، استعارة من التثريب بمعنى إزالة الشحم عن اللحم، فيبقى هزيلا، فلو عدَّ ذنوبهم عليهم لزال كمالهم كما زال كمال اللحم ﴿**عَلَيْكُمُ**﴾ خبر.

[نحو] ﴿**الْيَوْمَ**﴾ متعلِّق بما تعلَّق به «عَلَيْكُمْ»، أو بـ«عَلَيْكُمْ»، لنيابته ولو علق «عَلَيْكُمْ» بـ«تَثْرِيبَ» لنوِّن عند البصريين، وأجاز البغداديُّون نصب المشبَّه بالمضاف بلا تنوين، نحو: لا طالع جبلا، ويجوز تقدير الخبر، أي لا تثريب يقع عليكم، كما قدِّر في قوله ﷺ: «**لا مانع لِمَا أعطيت**»[1] لا مانع[2]، وعدم التنوين في ذلك للبناء أو للتخفيف، قولان، و«ال» للعهد الحضوري، وهو يومهم ذلك الذي أظهر لهم يوسف فيه نفسه، فإذا انتفى التثريب فيه مع أنَّه وقت شدَّة الغضب انتفى بعد بأولى، بل نفيه اليوم نفي لِمَا بعد، أو يتعلَّق بقوله:

﴿**يَغْفِرُ اللّهُ لَكُمْ**﴾ ذنوبكم التي في شأني، دعاء بليغ حتَّى كأنَّه قد أجيب، فهو يخبر بأنَّه وقع الغفران في الحال، أو يقع في وقت مستقبل، ولوَّح بكونه على صورة الإخبار إلى العلَّة، كأنَّه قيل لا تثريب عليكم لأنَّه يغفر لكم الله، ولا يتحقَّق التعليل لأنَّ ذلك على الإنشاء لا خارج له.

وما قيل من أنَّ الإنشاء لا يعمل فيما قبله غلط، فكما يقال: إيَّاي ارحم يا رَبِّ يقال: إيَّاي رحم الله، بمعنى ارحمني، وقيل: «يَغْفِرُ» إخبار لفظا ومعنى،

---

(1) رواه **البخاري** في كتاب الأذان (17) باب الذكر بعد الصلاة، رقم 808، من حديث المغيرة بن شعبة. ورواه **مسلم** في كتاب الصلاة، رقم 736. من حديث أبي سعيد الخدري. ورواه **الربيع** في باب العلم وطلبه، رقم 26، من حديث معاوية.

(2) في الطبعة العُمانية: «لا مانع مانع».

وذلك رغبة لتوبتهم أو بالوحي، ولو قالوا بعد: ﴿يَآ أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ﴾، لأنَّ المغفرة تطلب ولو حصلت، لأنَّ ذلك مزيد دعاء وتضرُّع للطمأنينة، وأيضا المستقبل يطلب ما لم يقع ولو وعد به، وأيضا لا يدري وقته فيطلب تعجيله، وأيضا طلبوا من يوسف عفوا عن حقِّه، وطلبوا من أبيهم عفوا عن حقِّه، وأيضا طلبوا من يعقوب مغفرة مقارفتهم من الله، بعد ما سامح صاحب الحقِّ.

﴿**وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ**﴾ يتفضَّل على التائب بعد مغفرة صغائره وكبائره.

[قصص] وكان يغذِّيهم ويعشِّيهم معه، فأرسلوا إليه: نستحي منك بإساءتنا، فقال: لا لقد تشرَّفت بكم في أهل مصر، إذ علموا أنَّكم إخوتي وأنِّي من إبراهيم، ومن قبل يرونني بعين العُبُودِيَّة، ويقولون: سبحان من بلَّغ عبدا بيع بعشرين درهما هذه المرتبة، والله علم ما يقع من القحط وأجرى شأنه على يدي لتبقوا أنتم وغيركم أحياء، وقد مضى من سنيه سنتان وبقي خمس، وقد خالطني فرعون في أموره كلِّها إلَّا زوجته، وقال: آنف أن تأكل معي، فقلت: أنا آنف أن آكل معك لأنِّي من بيت إبراهيم.

[قصص] وقال: ما حال أبي بعدي؟ قالوا: عميَ فقال: ﴿**اذْهَبُواْ بِقَمِيصِي**﴾ مع قميصي ﴿**هَذَا**﴾ مرَّ أنَّه قيل: قميص من الجنَّة ألبس إبراهيم حين جرِّد وألقي في النار، وكان معلَّقا على يوسف كالتميمة في شيء، فكَّه جبريل حين ألقي في البئر، وألبسه إيَّاهُ، وفيه ريح الجنَّة، قال جبريل عليه السلام: لا يلقى على مبتلى إلَّا عوفي، ولم يزل لابسا له أو مستصحبا له، وإنْ ردَّه في وعائه فإنَّه استحضره إذ قال هذا.

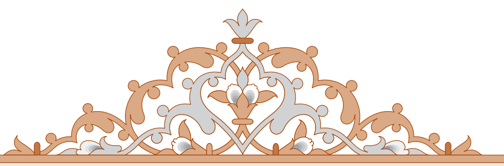
وقيل: قميص آخر لبسه في الحال قال: اذهبوا به ليعقوب ليعلم أنِّي بريء مِمَّا رميت به **وهو الصحيح**، وقيل: هو القميص الذي قدَّ.

و«هَذَا» نعت أو بيان أو بدل، أو مفعول لـ«أعني» أو خبر لـ«هو».
﴿**فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي**﴾ ليزول همُّه الذي ضعف به بصره، وكذا ضعف بكثرة

البكاء فينشرح صدره ويقوى بصره، أو علم أنَّه يرجع بصره به ولو ذهب كلُّه ﴿**يَاتِ**﴾ يصير ﴿**بَصِيرًا**﴾ كما قال: ﴿فَارْتَدَّ بَصِيرًا﴾ أي صار ورجع، أو يأتني بصيرا، كما قال: ﴿وَاتُونِي بِأَهْلِكُمُۥ أَجْمَعِينَ﴾ وصحَّ أنَّ أباه أتاه إلى مصر معهم، ولكن لا مانع أنَّه يصير بصيرا ويجيء بعد، وذلك بعد عماه أو كامل البصر بعد نقصه، وعلم يوسف بعماه أو ضُعْفِ بصره [علمه] بالوحي، أو بإخبار إخوته كما مرَّ آنفا.

﴿**وَاتُونِي بِأَهْلِكُمُۥ أَجْمَعِينَ**﴾ شامل لأبيه وخالته، ونسائهم وأولادهم ومواليهم، وعبيدهم، وأولاد أولادهم، ويبحث في جعل الأب من الأهل وتابعا ملحقا! ويجاب بضعفه، ولو عاش بعد ذلك أربعا وعشرين، فإذا كان لا يلي الأمور كالكسب والرفع والحط فهو كالطفل من جملة الأهل، وإن كان في ذلك كراهة جعلنا الإتيان بالأهل تغليبا عليه. أو إيتوني أنتم وأبي بأهلكم، وغلَّب المخاطب، وليس في هذا إتيان بالأب.

[قصص] والأهل: اثنان وسبعون، أو سبعون، أو ثمانون، أو تسعون، أو ثلاثة وتسعون، أو ستَّة وتسعون، ونموا في مصر حتَّى خرجوا منها مع موسى، وهم ستمائة ألف وخمس مائة وبضعة وسبعون رجلا، سوى الذرِّية والهرمى، والذرِّية ألف ألف ومائتا ألف فيما قيل.



﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ قَالَ أَبُوهُمۡ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿94﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ ﴿95﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ أَلۡقَىٰهُ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗاۖ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿96﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿97﴾ قَالَ سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿98﴾﴾

بشارة ترد على يعقوب من يوسف عليه السلام

﴿**وَلَمَّا فَصَلَتِ**﴾ انفصلت ﴿**الْعِيرُ**﴾ خرجت من عريش مصر مع القميص، وعريش مصر آخر بلادها مِمَّا يلي الشام قريبا من الشام، كذا قيل، كأنَّه قيل: خرجت عن أعمال مصر، **والمتبادر** أنَّ المراد لَمَّا خرجت من المدينة التي فيها يوسف إن كان فيها أو من أي بلد هو فيها من بلاد مصر، كأنَّه قيل لما فصلت العير عن عمران مصر إلى كنعان من الشام.

﴿**قَالَ أَبُوهُمُ**﴾ لمن حضره منهم ومن أولادهم وأحبابه ﴿**إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ**﴾ الطيّبة في أنفي، أو المراد ريح قميصه، والأوَّل أولى لأنَّه ظاهر اللفظ، وقد قيل: إنَّ ريح بدنه أشدُّ من ريح المسك.

[قصص] وقيل: وجد ريح القميص حين خرج به يهوذا من ثمانين فرسخا، وفي عبارة: من مسيرة ثلاثين يوما، وفي أخرى: عشرة أيَّام، روايات عن الحسن، وعن ابن عبَّاس: ثمانية أيَّام، ويقال: استأذنت الصبا في إيصال ريح يوسف فأذن لها. والخطاب في «اذْهَبُواْ بِقَمِيصِي»

للمجموع، وأيضا كأنَّه حمله كلُّ واحد لرضاهم به وفرحهم بما يسرُّ أباهم، وأيضا هم رفقة واحدة يتحافظون، أوصلت إليه ريح الصبا ريح بدنه، أو ريح القميص بإذن الله.

لكن مصر تكون دبورا للشام أو جنوبا لا صبا، ولعلَّ الله أرسل إليه ريحا هبَّت من جهة الصبا ودارت إلى مصر، وحملت الريح، وإلَّا فمهبُّ ريح الصبا يقابل الشام.

[قصص] وقيل: ريح القميص من ريح الجنَّة، قيل: هبت ريح فلعلَّها ريح الصبا فصفَّقت القميص فامتلأت الدنيا ريحا، واتَّصلت بيعقوب وعلم أنَّه ريح يوسف، لأنَّه ليس في الدنيا ريح الجنَّة إلَّا ما على قميص يوسف، ويبحث بأنَّه قال: «رِيحَ يُوسُفَ» لا ريح قميصه، وأمَّا غيره فلو فاحه لا يدري أنَّه ريح قميص يوسف، أو ريح يوسف، ويقال: أوصلته إليه وبينهما ثلاثة أيَّام، ويقال: ثمانية، ويقال: عشرة، ويقال: شهر[1].

﴿لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ لولا تفنيدكم تكذيبكم إيَّاي، أو تخطئتكم، أو نسبتكم إيَّاي إلى الضعف في الرأي، أو إلى السفه، أو نقصان العقل. والجواب محذوف أي لأكثرت التبجُّح به، وأظهرت المبالغة في السرور، وهذا أولى من أن يقال: لقلت إنَّ يوسف في قريب المكان مِنِّي، أو يقرب اجتماعه بي، أو لقلت: إنَّ مبشِّره إليَّ قريب، وأمَّا أن يقال: «لصدَّقتموني» فضعيف لأنَّ وجود التفنيد هو نفس انتفاء التصديق فلا تهم.

﴿قَالُواْ﴾ أي المخاطبون ﴿تَاللهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ خطئك القديم، وهو رجاؤك لقاء يوسف بإفراط في محبَّته على بعد العهد بينك وبينه، ثماني عشرة سنة أو أربعين سنة، أو ثمانين سنة.

(1) لا تنس أنَّ الشيخ قد رجَّح أنَّ القميص هو قميص يوسف لا قميص الجنَّة.

﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ﴾ قبل وصول العير ﴿الْبَشِيرُ﴾ يهوذا بالقميص، قال: أنا أحمل إليه القميص هذا لأفرحه به كما أحزنته برفع قميص يوسف الملطَّخ بالدم، يقال: ذهب به حافيا مكشوف الرأس يسرع، وزاده سبعة أرغفة لم يستوف أكلها حتَّى أتى أباه، والمسافة ثمانون فرسخا أو غيرها، سبق العير، فارقهم من حين وصلوا العريش، أو من حين انفصلوا عن عمران مصر، وقيل: البشير الجائي مالك بن ذعر رجل من عرب البدو، والصحيح ما مرَّ، ويردُّه قوله: ﴿فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي﴾.

﴿أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ﴾ وجه يعقوب، وضمير «ألقى» للبشير، وقيل: ليعقوب، وهو أنسب بالأدب، ورُجِّح الأوَّل بقوله: ﴿فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي﴾. ولَمَّا ألقي على وجهه دخل ريحه أنفه، وقيل: الوجه: عيناه لأنَّهما فيه وهما بعضه، وقيل: الوجه: جسده عبَّر بالبعض عن الكلِّ. ﴿فَارْتَدَّ﴾ بالله أو مع واسطة تحرُّك القُوَّة فيه ﴿بَصِيرًا﴾ صار بصيرا بعد العمى، أو صار كامل البصر بعد نقصه، أو بعد كونه كالأعمى لكثرة الدموع، أو رجع من العمى أو من كماله أو من شبهه.

[قصص] علَّمه يعقوب كلمات ورثها من أبيه إسحاق، وإسحاق من أبيه إبراهيم «يا لطيف فوق كلِّ لطيف، اُلْطُف بي في أموري كلِّها كما أحبُّ، وأرضني في دنياي وآخرتي» وسأل البشيرَ: كيف يوسف؟ قال: ملك مصر، فقال: ما أصنع بالملك على أي دين تركته؟ قال على دين الإسلام، قال: الآن تمَّت النعمة وما وجدت ما أكافئك به، وما اختبزنا سبعة أيَّام، ولكن هوَّن الله عليك سكرات الموت.

﴿قَالَ أَلَمَ اَقُل لَّكُمُۥٓ إِنِّيَ أَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ «أَلَمَ اَقُلْ» مقول «قَالَ»، و«إِنِي أَعْلَمُ...» مقول «أَقُل...»، أو مقول «أَقُلْ» محذوف، أي ألم أقل لكم: «اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ...»، أو ألم أقل لكم: «إِنِي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ» أو ألم

أقل لكم: «لَا تَيْأَسُــواْ...». ومعنى ﴿أَعْلَمُ مِنَ اللهِ...﴾: أعلم من سعة رحمة الله ما لا تعلمون، أو أعلم بالوحي ما لا تعلمون من اجتماعي بيوسف وأنَّه حيٌّ، ورؤياه صادقة منتظرة. والخطاب لمن عنده قبلُ، وقيل: لابنه القادم. والجمع تعظيم، أو لأنَّه معتبر مع إخوته، أو هذا المقال بعد حضورهم.

﴿قَالُواْ يَآ أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ﴾ ادع الله أن يستر ذنوبنا التي أذنبناها في شأن يوسف، وشأنك وشــأن بنيامين، وفي شــأن من أوجعناه بها، وسترها: عفوها، فكأنَّها شــيء غير واقع فلا يرى ﴿إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ في حقِّ الله وحقِّ العباد، ومن شــأن المعترف التائب بإصلاح ما أفســد أن يعفو عنه المظلوم، ويغفر الله ﷻ له.

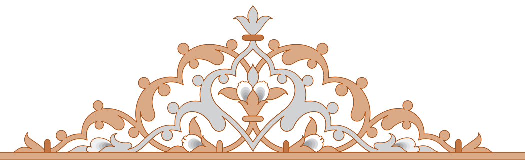
﴿قَالَ سَــوْفَ أَسْــتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيَ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ يقال استغفر لهم في الحــال، والآية وعد لِمَا بعــد ذلك، [قلت:] ويظهر لــي أنَّه أخَّر الاســتغفار حتَّى يعلم هل عفا من وصلتــه المضرَّة بالــذات منهم، وهو يوســف وبنيامين، وإن علم وأخَّر فلانتظار وقت الإجابة كالســحر، نحو طلوع الفجر الكاذب، ونحو ليلة الجمعــة، أو آخر يومها، أو صلاة الليل، أو الليالي البيض، أو محلَّ الإجابة كالمســجد فــإنَّ للأمكنة مظانَّ إجابة كالأزمنة، أو ذلك كلُّه.

[فقه] ومن قــال: حللني من كلِّ حــقٍّ لك، فحللته عالمــا بالحقِّ بريء حكما وديانة، وإن لم تعلم به فحكما إجماعا لا ديانة عند محمد صاحب أبي حنيفة، وفيهما عند أبي يوسف.

[نحو] والتسويف والتنفيس صالحان في السين وفي «سوف» جميعا عند البصريِّين، مع أنَّهما يكونان نســبيين، فقد يعدُّ الزمان طويلا باعتبار ما تحته وعكســه، وبعارض، وتأخير الاســتغفار من النهار إلى الليل يعظم كأنَّه زمان طويل في شأن من نصحت توبته ورغبته، فكيف من يوم إلى يومين.

[قصص] ويقال: صلَّى سـحرا ورفع يديه وقال: «اللهمَّ اغفر لي جزعي على يوسـف، وقلَّة صبري عنه، واغفـر لأولادي ما أتوا إلـيَّ وإلى أخيهم يوسـف» فأوحى الله إليه: إنِّي قد غفـرت لك ولهم أجمعيـن. وعن وهب: استغفر لهم كلَّ ليلة جمعة أربعا وعشرين سنة. وعن طاوس: استغفر لهم ليلة جمعة كانت ليلة عاشـوراء، ويقال: استقبل القبلة أي الكعبة لا بيت المقدس على الراجح، أو إيَّاهُما بأن جعله بينه وبين الكعبة، قائما يدعو ويوسـف[1] خلفه مؤمِّنا وهم خلف يوسـف مؤمِّنين أذلَّاء خاشـعين، فنزل جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ فقال: «إنَّ الله قد أجاب دعوتك في ولدك»، ولم يَصِحَّ أنَّه زاد على ذلك: «أنَّه جعلهم أنبياء بعدك».

(1) كيف يكون قائما خلفه في القدس، والقرآن ينص على أن يوسف في مصر؟!. (المراجع).



﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ٩٩ وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ١٠٠﴾

لقاء أسرة يعقوب عليه السلام في مصر

توجَّهوا إلى مصر وخرج يوسف والأكابر لتلقِّيهم، وخرج يعقوب بأهله أجمعين وساروا حتَّى بلغوا يوسف يوم عاشوراء ﴿**فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ**﴾ في مخيمه أو بيته خارج مصر ﴿**ءَاوَىٰٓ**﴾ ضمَّ يوسف ﴿**إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ**﴾ أباه وجدَّته أمَّ أمِّه، فهي أمٌّ فهما أبوان.

[قصص] قيل: أباه وخالته سمِّيت أمًّا، وغُلِّب الأب فصارَا أبوين، أو سمَّاها أمًّا لأنَّها زوج أبيه كأمِّه، وتحترم كالأمِّ، واسمها ليا، وماتت أمُّه راحيل في نفاس بنيامين، تزوَّج راحيل وأختها ليا معا لجواز ذلك في شريعته، وبقيت ليا حتَّى أدركت اجتماع يعقوب بيوسف، وضعَّف بعض هذا القول، ورجَّح أنَّه تزوَّج راحيل بعد موت ليا، وعلى اجتماعهما قيل: تزوَّج راحيل قبل ليا، وقيل: بالعكس، ولعلَّ لهما أختا ثالثة تزوَّجها بعد موتهما. ويقال: أحيى الله أمَّه من قبرها حتَّى سجدت له مع أبيه تحقيقا لرؤياه، وهو ضعيف، وقيل: لم تمت حتَّى آواها وأباه وسجدا له، وقيل: اسم خالته راحيل، وشهر أنَّه اسم أمِّه.



[قصص] بعث مع إخوته إلى يعقوب مائتي راحلة ليأتوا بيعقوب وأهله، وأتوه فجمع أهله اثنين وسبعين إنسانا ذكورا وإناثا أو ثلاثة وسبعين، وَلَمَّا دنا من مصر أخبر يوسف الملك فخرج بأهل مصر ركبانا، ويوسف بأربعة آلاف من الجند لكلِّ واحد جبَّة من فضَّة وراية خزٍّ، واصطفُّوا وتزيَّنت الصحراء بالفرسان والألوان، وتعجَّب يعقوب وقال ليهوذا وهو متَّكئ على يده: هذا فرعون مصر! وقال: بل ابنك يوسف، وقال جبريل عليه السلام: انظر إلى الهواء فإنَّ الملائكة قد حضرت سرورا بحالك، وكانوا باكين محزونين مدَّة لأجلك، وماج الفرسان، وصهلت الخيل، وسبَّحت الملائكة، وضربت الطبول والبوق كأنَّه يوم القيامة، وأراد يوسف البدء بالسلام فقال جبريل: يبدأ يعقوب، فقال يعقوب: السلام عليك يا مذهب الأحزان، ونزلا وتعانقا وبكيا، وقال: يا أبت بكيت حتَّى ذهب بصرك، ألم تعلم أنَّ القيامة تجمعنا؟ قال: خفت أن يسلب دينك فيحال بيننا.

﴿وَقَالَ﴾ يوسف لهم ﴿ادْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ اللّهُ﴾ شرط متعلِّق بقوله: ﴿ءَامِنِينَ﴾ قدِّم للفاصلة، أو هو للتبرُّك، أو متعلِّق بـ«تدخلون» محذوفا مستأنفا، وذلك لأنَّ الأمر والنهي والدعاء والإنشاء لا تقيَّد بـ«إِن شَاءَ اللهُ» لأنَّه لا خارج لها، ويبعد ما قيل من تعليقه بالدخول المصرَّح به، فكيف بالأمن؟.

[قصص] فدخلوها وهم اثنان أو ثلاث وسبعون إنسانا، وبورك لهم حتَّى خرج موسى عليه السلام منها بستمائة ألف وخمس مائة وبضعة وسبعين سوى الذرِّيَّة، وهي ألف ألف ومائتا ألف أخرجوا، وسوى الهرمى بقوا فيها وبينه وبين موسى أربعمائة، وقيل: خرج بستِّمائة وسبعين ألفا، وقيل: خرج بذلك وخرج بالهرمى والذرِّيَّة، وإنَّ الذرِّيَّة والهرمى ألف ألف، ومئتا ألف. ومعنى ﴿ءَامِنِينَ﴾: إنَّكم لا تخافون عدوًّا ولا قحطا ولا طاعونا ولا مكروها ولا ملكا، وكان الناس يخافون ملوك مصر فلا يدخلها أحد إلَّا بجوارهم، فقال يوسف

وهو خارج مصر في مخيم أو بيت مبنيٍّ: «ادخلوا مصر آمنين على أنفسكم وأموالكم» فقيل دخولان: دخول في حدِّ مصر، ودخول في بيت في مصر.

﴿**وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ**﴾ أجلسهما معه تعظيما ﴿**عَلَى الْعَرْشِ**﴾ السرير، وعدّى «رَفَعَ» بـ«عَلَى» لتضمُّنه معنى الإجلاس، أو الحمل، والرفع: النقل إلى علوٍّ. ﴿**وَخَرُّواْ**﴾ عجّلوا كالحجر الساقط، وهم أبواه على ما مرَّ وإخوته لا إخوته فقط كما قيل ﴿**لَهُ**﴾ ليوسف ﴿**سُجَّدًا**﴾ بوجوههم على الأرض، كسجود الصلاة **مريدين تعظيمه لا عبادته**، كان ذلك جائزا ثمَّ نسخ؛ أو المراد بالسجود الانحناء بلا وصول للأرض، وذلك كالتحية بالقيام وتقبيل اليد.

[فقه] ونهي في شرعنا عن القيام إعظاما لأحد، أمَّا ليقعد في موضع القائم فيجوز القيام للإمام العدل، أو الوالدين. أو سجَّدا بوجوههم في الأرض سجود عبادة لله. واللام بمعنى إلى، أي سجدوا إلى جهته شكرا كالصلاة للكعبة تعظيما له.

أو الضمير لله، أي سجدوا لله، ويدلُّ لهذا أنَّه لو كان ليوسف لكان قبل الرفع على العرش لأنَّه أبلغ في التواضع، إلَّا أن يقال السجود قبل الرفع لكن أخِّر لفظا للاهتمام بالرفع، ويعارضه: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ فيجاب بأنَّ اللام بمعنى إلى، أي ساجدين لله إلى جهتي، أو للتعليل أي ساجدين لأجلي لله ﷻ، ومعنى لأجلي لاجتماعهم بي، وفي ذلك تفكيك الضمائر بردِّ ضميري «رَفَعَ» و«أَبَوَيْهِ» ليوسف، وهاء «لَهُ» لله ﷻ، وفيه ردُّ الضمير إلى أقرب مذكور وهو يوسف في ضمير «رَفَعَ»، وضمير «أَبَوَيْهِ».

وإنَّما سجد أبوه له لا هو لأبيه مع عظم حقِّ الوالد وكذا الأمّ وقدم نبوءته وكبر سنِّه لبلوغه في الرغبة في ولده حتَّى عمي، وكونه هو الطالب له، ويوسف في غفلة عن تلك الرغبة، فيكون كالزجر ليعقوب عليه السلام، وقيل: سجدا ليتبعهما أولاده، وأمَّا أن يقال لتصدق الرؤيا فلا يتمُّ جوابا لأنَّه يبقى أن يقال: لِمَ جعل

الرؤيا كذلك سجود أب لولد؟ فلا تهم، وأيضا لا تجب مطابقة الرؤيا من كلِّ وجه. وقيل: الواو للإخوة ومن معهم لا للأبوين معهم، وفيه منافاة لقوله: ﴿أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالقَمَرَ﴾ [الآية: 4] مع قوله: ﴿هَذَا تَاوِيلُ رُءْيَايَ﴾.

﴿**وَقَالَ يَآ أَبَتِ هَذَا**﴾ أي هذا السجود ﴿**تَاوِيلُ رُءْيَايَ**﴾ إرجاعها إلى ما هي عبارة عنه، وتطبيقها معه ﴿**مِن قَبْلُ**﴾ أي قبل سجودكم هذا، أو حال صغر السن، ﴿إِنِيّ رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا...﴾ متعلّق بـ﴿رُءْيَايَ﴾ أو بمحذوف حال من ﴿رُؤْيَايَ﴾. وذكر الدماميني قولا بجواز تعليق الظرف بمعرفة محذوفة نعت لمعرفة، أي رؤياي الكائنة من قبل.

﴿**قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا**﴾ صادقة ولو لم تصدق لكانت باطلا ضدَّ الحقِّ، وذكر «حَقًّا» لأنَّه مصدر، وهو بمعنى اسم الفاعل، أو يقدَّر مضاف: ذات حقٍّ، أو وصفٌ لمذكَّر، أي أمرا حقًّا، واختير «حَقًّا» لأنَّها مقال والمقال يصدق ويكذب.

﴿**وَقَدَ اَحْسَنَ بِيَ**﴾ أي إليَّ ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ﴾ [سورة القصص: 77] أو ضمَّن معنى لطف، ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [سورة الإسراء: 23] أي الطف بهما. وذكر بعض أنَّ الإحسان يتعدَّى بالباء بلا تأويل، وهي للإلصاق ﴿اللهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِ﴾ [سورة الشورى: 19] أو بمعنى وقد أحسن فيَّ، أي جعل الخير فيَّ، وقدَّر بعض أحسن صنعه بي ﴿**إِذَ اَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ**﴾ لم يقل: أخرجني من الجبِّ، لأنَّ الأصعب الإلقاء في البئر، ومقابله الإدخال في السجن، وليس الكلام في الإلقاء والإدخال بل في اللبث، ولا شكَّ أنَّ اللبث في السجن أشدُّ من اللبث في البئر، لطول مدَّته ومعاشرة السفهاء فيه والمشركين، بخلاف مدَّة اللبث في البئر فإنَّها قصيرة ومعاشره فيها جبريل وغيره من الملائكة، وأيضا الإخراج من السجن سبب للملك المتوصَّل هو به إلى الدعاء إلى الدين، وإنقاذ النفوس من الهلاك بالجوع، وأيضا هو إزالة للتهمة في شأن امرأة العزيز، وآل به إلى إظهار

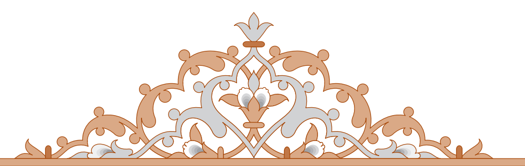
حرِّيَّته، ولو قال: أخرجني من الجبِّ، لخجلوا بذكر الجبِّ مع أنَّه قد قال: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ...﴾ [الآية: 92].

﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ﴾ البادية وهم قرويُّون لكن كانوا في مواشيهم في البادية، وجاء بهم منها، وقيل: كان يعقوب من أهل البدو، فإن صحَّ فإنَّما تحوَّل إليها من القرية بعد التبليغ، إذ لم يبعث نبيء من البدو، وله مسجد تحت جبل باديته، [قلت:] وجاز لغير هذه الأمَّة البداوة بعد الحضارة.

﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ﴾ أفسد ﴿الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيَ﴾ لم يزل يستر عليهم إذ عبَّر بعبارة لا تفصح أنَّهم الظالمون، بل بعبارة تقبل أن يكون ظالما أو هم ظالمين ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾ مدبِّر لِمَا يشاء من أحوال خلقه، من حيث لا يعلمون، ولا يعجز الله شيء، وهو خالق الأسباب ومسهِّل الصعاب ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾ بخلقه وأحوالهم ومصالحهم ﴿الْحَكِيمُ﴾ الفاعل للشيء في وقته ومكانه وكمِّه وكيفه.

[قصص] ومن حكمته تفريقه بين يوسف ويعقوب أربعين عاما، أو سبعين، أو ثمانين، أو ثمانية عشر، أو اثنين وعشرين، أو ستًّا وثلاثين، أو خمسا وثلاثين، وأقام معه قبل الفرقة سبعة عشر، وأقام عنده أبوه بعد الاجتماع أربعة وعشرين، أو سبعة عشر، ويقال: عمره حين ألقي في الجبِّ سبع عشرة سنة، وأقام في العُبُودِيَّة والسجن والملك ثمانين سنة، وأقام مع أبيه وإخوته وأقاربه بعد الاجتماع ثلاثا وعشرين، وتوفِّي وهو ابن مائة وعشرين. ويروى أنَّه طاف بيعقوب على خزائنه فرأى خزانة القراطيس، فقال: ما أعقَّك؟ عندك هذه القراطيس ولم تكتب إليَّ على ثمان مراحل! قال: منعني جبريل، قال: هلَّا سألته لمه؟ فقال: أنت أبسط إليه منِّي، فسأله يعقوب فقال: لقولك: ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَّاكُلَهُ الذِّيبُ﴾ ذكرت الذئب دون الله.

[قصص] وَلَمَّا احتضر يعقوب أوصى يوسف أن يدفنه عند أبيه إسحاق في الأرض المقدَّسة، فمضى به في تابوت من ساج، فوافق وصوله موت عيص أخي يعقوب، فدفنا في قبر واحد، كما ولدا في وقت واحد من بطن واحد، وعمرهما مائة وسبعة وأربعون، ورجع إلى مصر، وعاش بعدُ ثلاثا وعشرين.



﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾

دعاء جامع يتضمَّن تحدُّث يوسف بنعم الله عليه وطلبه من ربِّه حسن الخاتمة

وقد تمَّ له الأمر المرُّ والحلو، واستشعر أنَّه لا بدَّ من الموت، فسأل الله الرحمن الموتَ على الإسلام واللحوق بأهل النعيم الدائم كما قال تعالى: ﴿رَبِّ﴾ يا ربِّ ﴿قَدَ ءاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ﴾ بعض الملك وهو ملك مصر، أو قد آتيتني من الملك ملكا عظيما، والمقصود بالذات ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ ولكن قدَّم الثناء على الله والشكر على النعم السابقة توسُّلا بها إلى اللاحقة.

﴿وَعَلَّمْتَنِي مِن تَاوِيلِ الَاحَادِيث﴾ بعض تأويل الأحاديث، أو فنًّا عظيما منه تأويل الأحاديث، تفسير الرؤيا أو الكتب ﴿فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالَارْض﴾ صفة لـ«رَبِّ»، أو نداء آخر: يا فاطر السماوات والأرض ﴿أَنتَ وَلِيِّي﴾ متولِّي أموري وناصري ﴿فِي الدُّنْيَا وَالَاخِرَةِ﴾ تعاملني فيهما بالنعم وإزالة النقم ﴿تَوَفَّنِي﴾ أمتني ﴿مُسْلِمًا﴾ إذا جاء أجلي، فهذا طلب لأن يكون موته على الإسلام لا طلب للموت.

[قصص] قال الحسن: عاش بعد هذا الدعاء سنين كثيرة. أو توفَّني الآن، روي أنَّه لم يتمَّ الأسبوع، قال قتادة: لم يسأل نبيء الموت إلَّا يوسف، وفي رواية عنه: لم يتمنَّ نبيء قبله الموت، وكثير من المفسِّرين على هذا القول من

طلب الموت في الحيـن، [قلت:] لكن تمنِّيه الموت بعـد تخيير الله له لقول عائشة رضي الله عنها عن رسول الله ﷺ: «**لم يقبض نبيء حتَّى يرى مقعده من الجنَّة ثمَّ يخيَّر**»[1] قاله ابن مالك في شـرح المشـارق عند قوله ﷺ: «**إنَّ الله خيَّر عبده بين الدنيا وبين مـا عنده فاختار ما عنده**»[2] والحديث في البخاري ومسـلم. وعنه ﷺ: «**لا يتمنَّ أحدكم الموت لضرٍّ نزل به**» قيـل: وهو نهي تنزيه، وفي الحديث: «**لكن يقول اللهمَّ أحيني ما كانت الحياة خيرا لي**»[3]. وطَلَبَ الوفاةَ على الإسـلام مع علمه أنَّ كلَّ نبـيء لا يموت إلَّا كذلك ذهـولا، أو إظهارا للعبوديَّة، ورغبة وتعليما للغير، وانفساحا للقلب وانشراحا واطمئنانا.

﴿**وَأَلْحِقْنِـي بِالصَّالِحِيـنَ**﴾ إبراهيم وإسـحاق ويعقوب وإسـماعيل في درجاتهم، لا في درجة الصلاح فإنَّه فوقها، وهي أوَّل درجات المؤمن، فتوفَّاه الله مسلما وألحقه بهم.

[قصص] وتخاصم أهل مصـر في مدفنه حتَّى همُّوا بالقتـال فاتَّفقوا أن يدفن فـي أعلى النيل مـن جهة الصعيد، حتَّـى تجري عليهـم بركته كلِّهم، وجعلوه في صندوق من رخام أجود رخام لا من حجر الزند، وحمله موسـى إلى الشام حين خرج من مصر، وعمره مائة وعشرون سنة.

[قصص] وولد له من راعيل إفرايم، وميشـا جدُّ يوشـع، ورحمة امرأة أيُّوب، ويروى أنَّـه جعل في تابوت مـن رخام ودفن في أيمـن النيل، وهي الغَربِيَّة، فأخصب وأجدب الأيسـر، ثمَّ دفن في الأيسر وهي الشَّرقِيَّة فأخصب

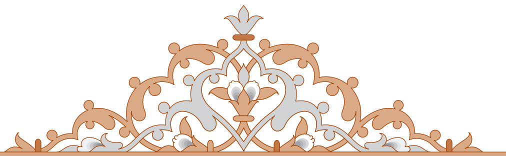
---

(1) رواه **البخاري** في كتاب المغازي (78) باب مرض النبيء ﷺ ووفاته، رقم 4173. من حديث عائشة رضي الله عنها.

(2) رواه **البخاري** في كتاب الصلاة (80) باب الخوخة والممر في المسجد، رقم 454. ورواه **مسلم** في كتاب فضل الصحابة، باب فضائل أبي بكر، رقم 4390. من حديث أبي سعيد الخدري.

(3) أورده **الهيثمي** في الموارد، ص 2426. وابن **عدي** في الكامل، ج 1، ص 393.

وأجدب الأيمن، فدفنوه في وسطه بالسلسة فأخصب الجانبان، وَلَمَّا أمر الله تعالى موسى عليه السلام بالخروج من مصر إلى الأرض المقدَّسة، أوحى إليه أن احمل معك يوسف، ولم يكن علم بقبره عند أحد إلَّا عند عجوز، فشرطت أن تكون لموسى زوجا في الجنَّة فتوقَّف موسى، فأوحى الله عز وجل إليه أن قل: نعم، فأخبرته أنَّه في موضع كذا من النيل في وسطه.



﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ (102) وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ (103) وَمَا تَسۡـَٔلُهُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ (104) وَكَأَيِّن مِّنۡ ءَايَةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يَمُرُّونَ عَلَيۡهَا وَهُمۡ عَنۡهَا مُعۡرِضُونَ (105) وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ (106) أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأۡتِيَهُمۡ غَٰشِيَةٞ مِّنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوۡ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ (107) قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ (108)﴾

إثبات نبوة محمَّد ﷺ وإعراض المشركين عن كلِّ آية

﴿**ذَٰلِكَ**﴾ المذكور من أخبار يوسف وإخوته وأبيهم، والخطاب للنبيء ﷺ لقوله: ﴿**مِنَ اَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ**﴾ فهو دليل نبوءتك، لأنَّك أخبرت به على أحسن وجه وترتيب، بدون أن تسمعه من أحد، وبدون أن تقرأه في كتاب، لأنَّك لم تجالس أصحاب الكتب وأصحاب الأخبار، ولا تعرف الكتابة ﴿**وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمُ**﴾ لدى إخوة يوسف غير بنيامين لقوله: ﴿**إِذَ اَجْمَعُواْ أَمْرَهُمْ**﴾ دبَّروه، وهو إلقاؤه في البئر، وبنيامين صغير لم يدخل مكرهم ﴿**وَهُمْ يَمْكُرُونَ**﴾ به يحتالون عليه، بترغيبهم له في الخروج للعب وعلى أبيه بعهدهم له أن يحافظوا عليه، وأن يناصحوه، وأن لا يصدر منهم إلا ما يسرُّهما، فقال الله ﷻ: لم تحضرهم فتعرف قصَّتهم، وإنَّما عرفتها بالوحي من الله، وهذا كقوله تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا﴾ [سورة هود: 49] وذلك ردٌّ على أهل مكَّة إذ كفروا به، وقد سألوه هم واليهود عن قصَّة يوسف، فأخبرهم بلا سماع ولا نظر كتاب.

﴿**وَمَآ أَكْثَرُ النَّاسِ**﴾ ناس مكَّــة، وليس المراد الناس كلُّهم ولو كان الواقع كذلك لقوله: ﴿**وَلَوْ حَرَصْتَ**﴾ إذ لا حرص له على من فات، والمراد الحرص على إيمان أهل مكة لينفســح الإيمان إلى غيرها، إلَّا أن يراد بالحرص مطلق الرغبة فتصدق بالناس كلِّهــم ﴿**بِمُومِنِينَ**﴾ مع أنَّــك أخبرتهم بها، على وفق التوراة، ووعدوا لك بالإيمان إن أخبرتهم فلم يوفُّوا.

﴿**وَمَا تَسْئَلُهُمْ**﴾ أي أهل مكَّة ﴿**عَلَيْهِ**﴾ أي على الإخبار بقصَّة يوسف أو على القرآن أي تبليغه، وبيان أحكامه وتلاوته، أو على نفســه مبالغة ﴿**مِنَ اَجْرٍ**﴾ أجرة بمال أو بدن أو جاه أو شــيء ما ﴿**اِنْ هُــوَ إِلَّا ذِكْرٌ**﴾ وعــظٌ ﴿**لِّلْعَالَمِينَ**﴾ كلِّهم، فكيف يأخذ الأجرة من بعض لا يختصُّ به؟ وأخــذ الأجرة من العامِّ لا يتصوَّر، ولا أخصُّ به غنيًّا ولا ذا جاه ولا طلبه أحد لمصلحة فآخذها عنه لأجلها.

﴿**وَكَأَيِّن**﴾ كم من ﴿**مِنَ ـ ايَةٍ فِي السَّــمَاوَاتِ وَالَارْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ**﴾ كم دليل على وَحْدَانيَّة الله تعالى في السماوات؟

[فلك] من نجــوم، منازل وغير منــازل للقمرين ثوابــت، ونجوم ذوات أذناب وغيرهــا، وتغيُّر أحوالها، والقطــب الشــمالي، ودوران النجوم عليه، والقطب الجنوبي، ودوران مارد ســهيل عليه معه، والمجرَّة وفيها نجوم كبار تدور معها في وســط الســماء، ومطلعها ومغربها، وإذا اســتقبلت أنت جهة تقوست إليها، وبنات النعش الصغرى والكبرى، وإضاءة ما قابل الشمس من القمر، وخلوِّ ما لم يقابلها منه، وغير ذلك.

وما فــي الأرض من جبال وأشــجار وبحور، وآثار الأمم الســابقة وغير ذلك... يمرُّون على تلك الآيات بعيونهم يشــاهدونها مشــاهدة تشبه المرور بالأقدام على الأرض، لا يتفكَّرون فيها.

[قصص] ومن ذلك أن بدويا نام فــي بعض صحاري مغربنا هذا فجاءت حيَّة كعروض الخيمة، فأحسَّ بشــيء يلمُّه من تحته في وســطه، فإذا هو حيَّة

التوت عليه، وأسرعت به، فافتتح القرآن من الفاتحة وسورة البقرة، وقبل الفراغ منها خرجت عليه أخرى مثلها تقاتلها، فأطلقته فانطلق إلى جبل فرآها رجعت إلى موضعها الأوَّل تضطرب فيه، وانسلخت جلدة وسطه مع أنَّها لم تمسَّه إلَّا من فوق الثوب. ومن ذلك ما رئي من سفينة أو جبل عال في المشرق من خروج الأسود والنمور والأفيال من غابة شجر في سرعة لتوجُّه حيَّة كالصومعة إليها، لو صادفت الفيل لكان لها لقمة.

﴿**وَمَا يُومِنُ أَكْثَرُهُم بِاللهِ**﴾ أنَّه الخالق الرازق ﴿**إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ**﴾ بعبادة الأصنام، وهذا حال أهل مكَّة، وكانوا يقولون: «لبَّيك اللهمَّ لبَّيك لا شريك لك إلَّا شريكا تملكه وما ملك» فكان ﷺ إذا وصل أحدهم إلى «لا شريك لك»، يقول: «قط، قط» يعني لا تزد: «إلَّا شريكا...».

وعن ابن عَبَّاس: أراد [الله] المشبِّهةَ: آمنوا إجمالا وكفروا تفصيلا، وعن الحسن: المراد المراؤون، وقيل: المراد الناظرون إلى الأسباب [فقط]، وقيل: المراد مطيع الناس بمعصية الله، وقيل: المنافقون بإضمار الشرك.

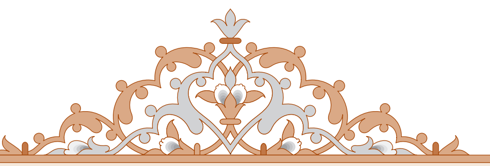
وإن أريد بالناس العموم فالإشراك بعبادة الأصنام، وباتِّخاذ الأحبار أربابا، وقول: إنَّ عزيرا ابن الله، والمسيح ابن الله، أو إنَّه إله، ومريم إله، وإنَّ الملائكة بنات الله سبحانه عن ذلك، وإنَّ النور خلق الخير، أو تولَّد منه الخير، والظلمة خلقت الشرَّ أو تولَّد منها، وإنَّ إبليس خلق الشرَّ، وإنَّ المطر استقلَّ به طلوع المنزلة أو غروبها.

[أصول الدين] وما هو في معنى الإشراك، كالقول بأنَّ الحيوان خلق فعله كملك وجنِّيٍّ وآدميٍّ. و[كالقول في] ﴿اسْتَوَى﴾ على المعقول، ودعوى أنَّ متشابه القرآن على ظاهره لكن بلا كيف، والنظر إلى الأسباب، وكون صفاته غيره، قال ابن العربي الأندلسي المالكي: «ما بين من يقول صفاته غيره، ومن يقول إنَّ الله فقير إلَّا تحسين العبارة».

﴿**أَفَأَمِنُواْ**﴾ أتَرَكوا التفكُّر فأمنوا؟ ﴿**أَن تَاتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللهِ**﴾ عقوبة تعمُّهم في الدنيا، أو صاعقة لا يفلت منها أحد ﴿**أَوْ تَاتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً**﴾ فجأة بلا تقدُّم علامة ﴿**وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ**﴾ بوقت إتيانها فلا يستعدُّون لدفعها، على سبيل الفرض بأنَّ لهم دفعا، ولا للتخلُّص منها بالتوبة وإصلاح الفساد.

﴿**قُلْ هَذِهِ سَبِيلِيَ**﴾ أي الدعوة إلى توحيد الله ﷻ، يدلُّ لهذه الإشارة قوله: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُومِنِينَ﴾ فإنَّه حريص على توحيدهم بإجهاد نفسه في الدعاء إليه، ومن قوله: ﴿وَمَا يُومِنُ أَكْثَرُهُم بِاللهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ فإنَّه دعاء للتوحيد، وزجر عن الإشراك إذ عاب عليهم الإشراك، وفسَّر الإشارة بقوله: ﴿**أَدْعُو إِلَى اللهِ**﴾ إلى توحيده، من شأني ذلك الدعاء، أو يقدَّر: النَّاسَ إليه، والعلم بالله خلاصة الدين، والعمل متفرِّع على العلم بوحدة الله؛ أو أدعو إلى عبادته، وعبادته تستلزم العلم به ﴿**عَلَىٰ بَصِيرَةٍ**﴾ تمييز بين الحقِّ والباطل أو حجَّة واضحة.

﴿**أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي**﴾ في الإيمان، العطف على ضمير «أَدْعُو» أو «عَلَىٰ بَصِيرَةٍ» خبرٌ لـ«أَنَاْ». ﴿**وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَآ أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾.



﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِيٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰٓ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْاْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿109﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا اسْتَيْـَٔسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿110﴾ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الْأَلْبَٰبِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿111﴾﴾

العبرة من القصص القرآني

﴿**وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً يُوحَىٰٓ إِلَيْهِم**﴾ ردٌّ لقولهم: إنَّ الرسول لا يكون بشرا بل ملكا، ﴿وَلَوْ شَآءَ اللهُ لَأَنزَلَ مَلآئِكَةً﴾ [سورة المؤمنون: 24] ﴿**مِّنَ اَهْلِ الْقُرَىٰٓ**﴾ لا من أهل البدو لجهلهم وجفائهم، كما لم يرسل النساء لنقصهنَّ ﴿**أَفَلَمْ يَسِيرُواْ**﴾ أي أهل مكَّة ﴿**فِي الَارْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الذِينَ مِن قَبْلِهِمْ**﴾ من إهلاكهم لتكذيبهم بالرسل والآيات.

﴿**وَلَدَارُ الَاخِرَةِ**﴾ دار المنزلة الآخرة، أو الحياة الآخرة ودارها الجنَّة، أو لدار هي الدار الآخرة ﴿**خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوا**﴾ تركوا الشرك والمعاصي، والخير ضدُّ الشرِّ، أو أفضل وخرج عن التفضيل، إذ لا فضل، كأنَّه قيل: حسنة وغيرها قبيح، أو أحسن من الدنيا على اعتبار ما في الدنيا من الحسن ﴿**اَفَلَا تَعْقِلُونَ**﴾ أنَّ هذه خير، خطاب بعد غيبة.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا اسْتَيْئَسَ﴾ أي أيس، فهو لموافقة المجرَّد ﴿الرُّسُلُ﴾ تراخى نصر الرسل حتَّى استيأسوا من النصر في الدنيا، فمن وعد له بالنصر ولا يدري فيها أو في الآخرة، أو **أيسوا من إيمان الكفرة** ﴿وَظَنُّوٓاْ﴾ أي أيقن الرسل ﴿أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُواْ﴾ بلغ التكذيب غايته بأن لا يعقبه نصر، أو ظنُّ الرسل: توهُّمُهم أن لا ينصروا، لذهولهم عن الوعد بالنصر لشدَّة الهول عليهم، أو لتوهُّم أنَّ النصر على شرطٍ، لم يقع الشرط فلم يقع النصر ﴿جَآءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ لهم على أممهم المكذِّبة لهم، بتنجيتهم وإهلاك مكذِّبيهم كما قال ﴿فَنُنجِي مَن نَّشَآءُ﴾ وهم الرسل وأتباعهم ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا﴾ عذابنا ﴿عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ المكذِّبين.

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ﴾ قصص الرسل أو قصص إخوة يوسف ﴿عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الْأَلْبَابِ﴾ العقول المستعملة فينتفعون بها، أو مطلق العقول فيخسر من لم يستعملها ﴿مَا كَانَ﴾ هذا القرآن ﴿حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾ أشار إلى القرآن لحضوره، أو لتقدُّمه في قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ [في أول السورة].

﴿وَلَكِن تَصْدِيقَ﴾ كان تصديقا كقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ اَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللهِ﴾ [سورة الأحزاب: 40] ولا حاجة إلى جعله تعليلا لمحذوف هكذا: لكن أنزلناه تصديقا، أو حالا بمعنى أنزلناه مصدِّقا ﴿الذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الإنجيل والزبور والتوراة والصحف ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يحتاج إليه في الدين، من حلال وحرام والحدود والأحكام، والمواعظ والأمثال، [قلت:] **وأمور الدين كلّها في القرآن بالذات أو بالواسطة.**

﴿وَهُدًى﴾ من الضلال ﴿وَرَحْمَةً﴾ دِينِيَّة ودُنْيَوِيَّة ﴿لِّقَوْمٍ يُومِنُونَ﴾ خُصُّوا بالذكر لأنَّهم المتأثِّرون بالقرآن.

[بلاغة] وفي جعله تصديقا وتفصيلا وهدى ورحمة مبالغة، كأنَّه نفس ذلك، أو يقدَّر مضاف أي ذا تصديق...، أو يقدَّر بالوصف أي مصدِّقا ومفصِّلا وهاديا وراحما، والإسناد مجاز، والحقيقة لله.

وإذا كانــوا مؤمنين فهداهم تحصيــل الحاصل! الجــواب: أنَّهم يزدادون الإيمان والهدى، والمراد: يشارفون الإيمان والهدى، فيحصل ذلك لهم به، أو يؤمنون في قضاء الله ويهتدون، وهكذا في مثل ذلك تقول في القرآن.

ووجه الاعتبــار بقصصهــم أنَّ القــادر على إخراج يوســف مــن الذلِّ والمصائب قادر على إظهار دين محمَّد ﷺ وعلى آله وصحبه.

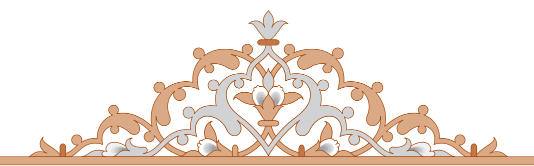
ولا حول ولا قوَّة إلَّا بالله العليِّ العظيم



13

تفسير سورة الرعد

مدنيَّة وآياتها 43 ـ نزلت بعد سورة محمَّد



﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ الٓمٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ الْكِتَٰبِ وَالَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ①﴾

القرآن حقٌّ من الله

﴿أَلَمِّر﴾ اسم للسُّورة، أو حروف من أوائل أسماء الله، وقد قيل المعنى: أَنا الله أعلم وأرى ﴿تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ﴾ الإشارة إلى آيات السورة هذه، أو آيات القرآن، أو إلى أخبار الرسل المذكورة في سورة يوسف المشار إليها إجمالا في آخرها، وحضورُها باعتبار تلاوة بعض لبعض في التلاوة، أو في اللوح المحفوظ، أو مع الملك.

والكتاب: القرآن، وهو الكتاب العجيب الكامل، المغني عن الوصف المعروف من بين الكتب، أو السورة أو اللوح المحفوظ، أي آيات هنَّ الكتاب، أو هنَّ السورة، أو بعض من الكتاب، أو من السورة، و«ال» للكمال، أو للعهد الحضوري، أو الاستغراق مبالغة، والمراد بالكمال كمال السورة في نفسها لا الفضل على غيرها، لأنَّ قوله: ﴿تِلْكَ ءَايَاتُ﴾ مذكور في أوائل سور متعدِّدة فكلُّ واحدة آية كاملة في ذاتها.

﴿وَالذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ﴾ نعت «ءَايَاتُ»، والعطف عطف عامٍّ على خاصٍّ، أو عطف صفة على أخرى لموصوف، أي تلك آيات الكلام الجامع بين كونه كتابا وكونه منزلا من ربِّك، والكتاب بمعنى المكتوب في اللوح المحفوظ، أو في صحف الملائكة، و«الْحَقُّ» خبر لمحذوف، أي هو الحقُّ، أو «الذِي» مبتدأ و«الْحَقُّ» خبره، وعلى هذا فـ«الذِي» القرآن أو مع سائر الوحي إليه ﷺ، والجملة كالحجَّة للجملة قبلها، فإنَّ ما هو منزل من الله حقًّا يكون كاملا لا محالة.

[أصول الفقه] وإذا جعلنا «الذِي» مبتدأ حصل الحصر بتعريف الطرفين مع أنَّ القياس أيضا حقٌّ، والإجماع حقٌّ والسنَّة حقٌّ، والجواب: إنَّهنَّ دخلن في المنزل ضمْنًا، السنَّة لقوله ﷻ: ﴿وَمَآ ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ...﴾ [سورة الحشر: 7]، والإجماع لقوله ﷺ: «**لا تجتمع أمَّتي على ضلالة**»[1] الثابتِ[2] بقوله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ...﴾ [سورة النجم: 3]، والقياس لقوله تعالى: ﴿أَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الاَمْرِ مِنكُمْ﴾ [سورة النساء: 59] أي المجتهدين، وأمَّا الكتب المتقدِّمة فلأنَّ القرآن مصدِّق لها. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُومِنُونَ﴾ بأنَّه من الله لإخلالهم بالنظر في بلاغته الخارجة عن طوق البشر والخلق.

---

(1) رواه **الترمذي** في كتاب الفتن، باب ما جاء في لزوم الجماعة، رقم 2033، من حديث ابن عمر.

(2) كذا في النسخ المعتمدة، ولعلَّ قوله: «الثابت» نعت لـ«قوله ﷺ»، ليرجع إثبات حُجِّيَّة الإجماع إلى القرآن أيضا..

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ ② وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۡهَٰرٗاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ③ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ④ ﴾

بعض مظاهر قدرة الله في السماوات والأرض

وشرع في ذكر دلائل السماوات في أوائل السورة بقوله: ﴿**اللهُ الذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا**﴾ إلخ... وفي ذكر دلائل الأرض بقوله: ﴿وَهُوَ الذِي مَدَّ الَارْضَ...﴾ [الآية: 3] وذلك قوله تعالى في أواخر السورة قبلها: ﴿وَكَأَيِّن مِّنَ ـ ايَةِ فِي السَّمَاوَاتِ وَالَارْضِ﴾ [سورة يوسف: 105] ومعنى رفعها نقلها من الجهة السفلى إذ كانت على الماء، أو خلقها في علوٍّ، ودلَّت الآية على أن لا عِلاقة للسماوات أيضا، لأنَّ الآية في دلائل قدرة الله، ولو رفعها بلا عمد مع عِلاقة لم يستعظموا قدرته، ولو كانت بعمدة لاحتاجت تلك العمدة إلى أخرى، فيتسلسل ذلك، وهو محال، ولو كانت بعِلاقة لاحتاجت العِلاقة إلى أخرى.

وحاصل الآية أنَّه أمسك السماوات بقدرته حيث هي، ورفعها إمساكها حيث هي بلا عِلاقة ولا عمدةٍ.

[لغة] و«عَمَدٍ» جمع عماد أو عمود على غير قياس، والقياس أعمدة أو أعمد، أو اسم جمع، وذلك كإهاب وأَهبٍ، وأَديم وأَدم، وأفيق وأَفقٍ، قيل: ولا خامس لها، وذلك كلُّه رباعي ثالثه مَدَّة، جمع على فعل، ويدلُّ على أنَّه غير مفرد التأنيث في قوله ﷻ: ﴿فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ﴾ [سورة الهمزة: 9] وقيل هو مفرد مؤنَّث. والمنفي العمد والرؤية معا.

وحاصله أن لا عمد فضلا عن أن ترى، وقال مجاهد وعكرمة: نفيت الصفة فقط فالعمد ثابتة لا ترى، وهي جبل قاف محيط بالدنيا، بعد المحيط من زمرد أخضر عليه أطراف السماء، **وهو كلام غير كاف** إذ تبقى السماوات أو يدعى أنَّ أطرافهنَّ كلّهنَّ على جبل قاف **وهو غير صحيح**.

والصواب أنَّ العمد على فرض ثبوتها هي القدرة، والقدرة لا ترى وإنَّما يرى أثرها، فالعمد هي قدرة الله ﷻ، وهي واحدة ذَاتِيَّة[1]، وأمَّا جمعها فتمثيل أو باعتبار تعدُّد متعلَّقاتها. والجملة نعت لـ«عَمَدٍ» و«هَا» لها، ويجوز كونها للسماوات فالجملة مستأنفة أو حال من «السَّمَاوَاتِ»، ورؤيتنا السماوات برؤية نجومهنَّ، وما تقدَّم أظهر.

﴿**ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ**﴾ ملك الأمور كلَّها والأجسام كلَّها، أو حفظها ودبَّرها، أو خلق الجسم العظيم المسمَّى عرشا. و«ثُمَّ» للترتيب الذكري، أو لمجرَّد العطف.

[أصول الدين] وكلُّ موجود سوى الله متناهٍ، لأنَّه لو وجد جسم لا يتناهى لزم أنَّه قديم غير مخلوق، واعتقاد هذا إشراك، والعرش والسماوات دليل على وجود الصانع ووحدته وكمال قدرته، وعموم علمه، فإنَّ إمساكهنَّ في مَحَالِّها دليل على أنَّ لها فاعلا يختار ما شاء من الجائز، اختار موضعهنَّ ولسائر الأجسام أيضا محالَّها، فليس بجسم ولا عرض لعجزهما.

---

(1) ومن القدرة قُوَّة الجاذبيَّة التي أودعها الله في الأفلاك ومفعولها.

وعلى ذلك الأسلوب تسخير الشـمس والقمر في قوله: ﴿**وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ**﴾ ذلَّلهما لِمَا أراد منهما من حركة سـريعة واستدارة في منازل، لو شاء لزاد في سـرعتهما أو نقص أو سـكنتا أو دارتا على غير دورانهما، فاختار ما هما عليه على غيره، وجعل حركتهما نافعة فـي حصول الفصول الأربعة وما يترتَّب عليها من حرٍّ وبرد ونبات وثمار.

﴿**كُلٌّ**﴾ منهما ﴿**يَجْرِي**﴾ في فلكه ﴿**لأَجَلٍ مُّسَـمًّى**﴾ وهو يوم القيامة، أو هو دور الحول للشـمس، والشـهر للقمر، لا يختلف ذلك، واختاره بعض، وبعضهـم الأوَّل، كما اختلف فـي قوله: ﴿وَالشَّـمْسُ تَجْرِي لِمُسْـتَقَرٍّ لَّهَا﴾ [سـورة يس: 38] [قلت:] وعندي أنَّ المراد في الآيتين الثاني، ألَا ترى إلى قوله: ﴿ذَالِـكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيـزِ الْعَلِيمِ﴾ [سـورة يس: 37] مـع قوله: ﴿وَالْقَمَـرُ قَدَّرْنَاهُ﴾ [سـورة يس: 39] واسـتدلَّ للأوَّل بقوله ﷻ: ﴿إِذَا الشَّـمْسُ كُوِّرَتْ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ﴾ [سـورة التكوير: 1و2] ويناسب الثاني أنَّ التسـخير لمنافع العباد، وهي بالفصول لا بيوم القيامة. واللام على كلِّ حال بمعنى إلى.

﴿**يُدَبِّرُ الاَمْرَ**﴾ يقضي أمر ملكه بإحياءٍ وإبقاءٍ وإماتةٍ وإفناء ورزقٍ، وإنزال الوحي والكتـب والتكليف، والإغنـاء بعد الفقر والعكـس، وكون الأحمق [أحيانا] في أهنإ عيش والعاقل الذكيِّ في عسر وضيق كما قيل:

كم عاقل عاقل أعيـت مذاهبه   وجاهـل جاهل تلقـاه مرزوقا
هذا الذي تـرك الأوهام حائرة   وصيَّر العالم النحرير زنديقا[1]

أي شـاكًّا في وجود الصانع تعالـى وأخطأ، بل ذلك دليـل على وجوده تعالى كما قيل:

---

(1) نسـبه الدمنهوري شـارح الأخضرية في علم البلاغة لابن الراوندي. راجع حاشية المناوي عليه ففيه تعليق مفيد في الشأن، ص 80.

كم عاقل عاقل قد كان ذا عسر وجاهل جاهل قد كان ذا يسر
تحيَّر الناس في هذا فقلت لهم هذا الذي أوجب الإيمان بالقدر

وكما قيل:

كم من أديب فهم قلبه مستكمل العقل مقلٍّ عديم
ومن جهول مكثر ماله ذلك تقدير العزيز العليم

﴿**يُفَصِّلُ الۡاَيَاتِ**﴾ يُبَيِّنُ دلائل قدرته أو ينوِّعها، أو الآيات المتلوَّة، أو يحدث الدلائل شيئا بعد شيء ﴿**لَعَلَّكُم**﴾ أيُّها الناس عموما، أو يا أهل مَكَّة. الترجِّي هنا بمعنى الاختبار، أو لعلَّ للتعليل ﴿**بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ**﴾ توقنون بلقائه بالبعث، وكأنَّه يفصِّل آياته في كتابه أو كتبه المنزَّلة لعلَّكم توقنون بالجزاء، وأنَّ هذا المدبِّر المفصِّل لا بدَّ لكم من الرجوع إليه، فإنَّه لا يخلقكم عبثا، وبأنَّ القادر على خلق السماوات والشمس والقمر وسائر الحوادث قادر أن يبعثكم.

﴿**وَهُوَ الذِي مَدَّ الۡاَرۡضَ**﴾ بسطها لمصلحة العباد قال ﷺ: «**أوَّل بقعة وضعت من الأرض موضع البيت، ثمَّ مدَّت منها الأرض، وأوَّل جبل وضعه الله تعالى على وجه الأرض أبو قبيس ثمَّ مدَّت منه الجبال**»[1] وليس المدُّ مشعرا بالطول العظيم كما قيل، وإنَّما الطول والقصر من خارج.

والآية دليل على أنَّ الأرض بسيطة، وكذا قوله: ﴿وَالۡاَرۡضَ بَعۡدَ ذَالِكَ دَحَاهَا﴾ [سورة النازعات: 30] ومثله، ولا داعي إلى زعم أنَّها كرة، وأنَّ ما يظهر من بسطها إنَّما هو لعظمها حتَّى إنَّ كلَّ قطعة منها تشاهد سطحا، ودلائل الفلاسفة في ذلك كلِّها مدخولة[2]، ثمَّ إنَّ ظاهر قوله: ﴿**مَدَّ الۡاَرۡضَ**﴾ أنَّ الأرض موجودة

(1) رواه **البيهقي**، كتاب المناسك، رقم 3698، ج5، ص447، من حديث ابن عباس.
(2) لا تنس أنَّ الأمر الآن لم يعد محلَّ جدال أو احتمال كما كان في القديم. وَالأَدِلَّة على أنَّها بسيطة إنَّما ساقها الله تعالى على حسب ما يبدو للناس.

بلا مدٍّ، ثمَّ أوقع عليها المدَّ، ولا مانع من ذلك. وعلى أنَّها خلقت بسيطة من أوَّل الأمر، فالمعنى أنَّ البســط الذي فيها من أوَّل وجودهــا فعلٌ لله ﷻ، أو خلقها بسيطة كـ«ضيّق فم البئر».

﴿**وَجَعَلَ**﴾ خلق أو وضع ﴿**فِيهَا رَوَاسِــيَ**﴾ أي جبــالا ثوابت تمنعها من الحركة.

[صرف] والمفرد رَاسٍ كقَاضٍ، وجمع على فواعل مع أنَّه مذكَّر لأنَّه غير عاقل، قال الجاربــردي[1]: يجمع فاعــل مذكَّر غير عاقل على فواعل قياســا مطَّردا، ومن خصَّه بالمؤنَّث قال: جمع راســية، أي جبال راسية جمعت على رواس، أو جمع راسية مفردا بتاء المبالغة في الرسوخ.

﴿**وَأَنْهَــارًا**﴾ ينزل ماؤها من الســماء كما ترى نقص ماء العيــون بقلَّة المطر وكثرته بكثرته، ويكفي في ذكرها مع الجبال أنَّ فاعلهما واحد وهو الله جلَّ وعَلَا، والجامع خيالي كقوله تعالى: ﴿وَإِلَــى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَــى الَارْضِ كَيْفَ سُــطِحَتْ﴾ [سورة الغاشــية: 19ـ20] وأيضا الجامع التضادُّ، فإنَّ العيون تســيل بالماء والجبال ثوابت، ولا حاجة إلى ما ذهب إليه بعض الحكماء من أنَّ الجبال لتركُّبها من أحجار صلبة إذا تصاعدت إليها الأبخرة احتبست فيها فتكاملت فتنقلب مياهها إلى خارج عنها، وربَّما خرقتها فخرجت منها، **مع أنَّه كلام فاسد.**

سيحان وجيحان والفرات والنيل من الجنَّة كما رواه مسلم عن أبي هريرة مرفوعا[2]، والأوَّلان في أرض الأرمن، جيحان نهر المصيصة، وســيحان نهر

---

(1) الجارْبَــرْدِي (توفي عام 746هـ/1346م) أَحمَد بن الحســين بن يوســف فخــر الدين: فقيه شافعي، اشــتهر وتوفي في تبريز، له شــرح منهاج البيضاوي في أصول الفقه، وشرح شافية ابن الحاجب، وحاشية على الكشاف... خير الدين الزركلي: الأعلام، ج 1، ص 111.

(2) روى **مســلم** في كتاب الجنَّة وصفة نعيمها وأهلهــا، باب ما في الدنيا من أنهــار الجنَّة، رقم 5073. عن أبي هريرة ؓ، قوله ﷺ: «سيحان وجيحان والفرات والنيل كلٌّ من أنهار الجنَّة».



أدنه، وسيحون نهر الهند وهو أربعمائة فرسخ ينصبُّ في بحر الحبشة، وجيحون نهر بلخ يجري إلى خوارزم، ويتفرَّق في أماكن وباقيه إلى البحر الذي عليه الجرجانية، وذكر بعض أنَّ الأنهار مائة وَسِتَّة وتسعون.

﴿وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ «مِن كُلِّ» متعلِّق بمحذوف حال من «زَوْجَيْنِ»، أو بـ«جَعَلَ» أي وجعل فيها زوجين اثنين من كلِّ الثمرات، والزوجين: النوعين، أو عطف على «رَوَاسِيَ» أو «أَنْهَارًا»، كأنَّه قيل: وجعل أنواعا من الثمرات، فيكون قوله: ﴿جَعَلَ فِيهَا﴾ مستأنفا بعده.

[لغة] والزوج الفرد المقابل للآخر، كذكر وأنثى، والنعلين، وفي الآية الحلو والحامض، والأسود والأبيض، والأصفر مع أحدهما، والأحمر مع أحدهما، ونحو ذلك، والحارُّ والبارد، واختلاف الروائح، والصغير والكبير، أو جعل فيها زوجين من أنواع الثمرات حين مدَّها، ثمَّ تشعَّبت وتكاثرت وتنوَّعت، والقول بأنَّ الثمرات في أصلها صنف ثمَّ تشعَّبت فصارت أصنافا كثيرة بعيد[1]. والوصف بالاثنين للتنبيه على أنَّ القصد إلى الأفراد لا إلى الماهية، والمراد أقلُّ ما يكون، وإلَّا فلا انحصار في الاثنين كأبيض حلو بارد كبير، وأسود مرٍّ حارٍّ صغير.

﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ يجعل الله الليل غاشيا النهار، يستره بظلمته، والنهار أيضا غاش لليل، يستره بنوره، وإنَّما لم نحمل الآية عليه لأنَّ الأنسب بالليل أن يكون هو الغاشي، ولأنَّه إذا لم يكن دليل على أنَّ المقام مقام التأخير أبقي على حاله، ولا دليل هنا على أنَّ «اللَّيْلَ» مفعول ثان، و«النَّهَارَ» مفعول أوَّل فاعل في المعنى، فضلا عن أن يقال: المعنى يجعل الله النهار غاشيا الليل.

(1) ولا يبعد ذلك إذا لاحظنا ما يقع بالتلقيم وانتقاء البذور، إلَّا إذا كانوا يعنون أنَّ الأصناف كلَّها كانت صنفا واحدا.

[بلاغة] أو شــبَّه إحضاره على النهار بإلباس اللباس لأحد، فالاستعارة تبعيَّة، أو شبَّه النهار برجل ورمز إليه بإلباس اللباس فتكون الاستعارة مكنيَّة. وهذه الآية تكوَّنت بالسماء وَلَكِنَّ الأثر يظهر في الأرض بزوال الضوء وحلول الظلمة، فجعلت في آيات الأرض، والمشــهور أنَّ النهار زمان ظهور الشمس وانتشــار الضوء، وقيل: الضوء والليل زمــان غيوبها، وقيــل: نفس الظلمة، والغشي هنا التعرُّض، كقوله: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ﴾ [سورة لقمان: 32].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في المخلوقات فيســتدلُّون بالأثر على المؤثِّر.

[لغة] والفكــر: تصــرف القلب في الأشــياء المعقولــة، أو ترتيب أمور معلومة ليتوصَّل بها إلى إدراك المجهول، ويقال: الفكر قُوَّة توصل إلى إدراك المجهول، والتفكُّر استعمالها بحسب نظر العقل.

ولا يكون ذلك إلَّا فيما له صورة، وجاء الحديــث «**تفكَّروا في المخلوق ولا تتفكَّروا في الخالق**»[1]، والله لا يوصف بصــورة، والجاهل يتفكَّر فيه من حيث إنَّه شيء متَّصف بصفات، فيتوهَّم أنَّه يوصف بها تعالى الله عنها.

﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ﴾ جمع قطعة بكسر فإسكان بمعنى بقعة ﴿مُّتَجَاوِرَاتٌ﴾ تخالفت مع تجاورها بعــض كريمة التربة كثيــرة النبات حســنة وافرة النفع، وبعضها ســبخة قليلة النبات والنفع، أو عديمتها، وبعض رخوة وبعض صلبة، وبعض يصلح للزرع كالرخوة دون الشــجر وبعض بالعكــس كالصلبة، بعض قليل المطر كمضــاب[2] وبعض كثيرة، وذلك فعل للفاعــل الذي يختار بعض

---

(1) رواه **الربيع** في مســنده، ج 3، ص 309، رقــم 823 و846. وأورده **الهنــدي** في الكنز، ج 3، رقم 5705 و5706 مع زيادة. من حديث ابن عَبَّاس.

(2) مُضاب: مزاب، أو ميزاب، أو بادية بني مصعب، بلد الشــيخ ﵀، وهي منطقة ولاية غرداية بالجزائر حاليا.

الجائزات عن بعض، سبحانه وتعالى وإلَّا لتساوت، لأنَّها كلُّها أرض بسيطة متَّحدة المادَّة، فلا تتفاوت بالذات بل باختيار القادر [بما أودعه فيها من العناصر].

﴿**وَجَنَّاتٌ مِنَ اَعْنَابٍ**﴾ أشجار الزبيب، خصَّها بالذكر دون سائر الأشجار كالتين، لأنَّ ثمارها أشهى للعرب من غيرها، وسهولة أكلها وحصول الخلِّ منها أكثر، وأسهل من غيرها ﴿**وَزَرْعٍ**﴾ لم يقل: زروع لأنَّه في الأصل مصدر يصلح للكثير كما يصلح للقليل ﴿**وَنَخِيلٍ صِنْوَانٍ**﴾ ثلاث فصاعدا مقترنات أصلهنَّ واحد، كلُّ واحدة صنو، وأصل الصنو المثل ﴿**وَغَيْرِ صِنْوَانٍ**﴾ ثلاث فصاعدا، كلُّ واحدة بأصل على حدة، فيبقى نخلتان أصلهما واحد لم يذكرهما الله عز وجل، لأنَّهما تعلمان بالقياس والمشاهدة.

أو نقول: الجمعان أُطلقا على اثنين فصاعدا، أو نقول: ﴿صِنْوَانٍ﴾ يشمل الاثنتين على حدة والثلاث فصاعدا على حدَّة، مثلا اثنتان بأصل واحد وثلاث بأصل واحد، فذلك خمسة كلُّهنَّ صنوان، كما شمل الثلاث فصاعدا على حدة باعتبار دون اعتبار الاثنتين.

[صرف] وذلك مِمَّا اتَّحَدَ مثنَّاه وجمعه في حال الرفع، ولا فرق في اللفظ إلَّا بالتنوين وضمِّ النون وفتحها في الجمع، وإثباتها مع الإضافة فيه، ويقال أيضا رِئْدٌ ورِئْدان بمعنى مثل، وحِشٌّ وحِشَّان للبستان، وشفذ وشفذان [الولد الحرباء] ذكرهما سيبويه ولا خامس لَهُنَّ(1).

﴿**تُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَاحِدٍ**﴾ من عين أو مطر أو بئر أو بعروقها، ولا تخرج الشاربة بعروقها عن ذلك، أو يجمع ذلك أو بعضه فيهنَّ، وعلى الاجتماع تكون المياه المجتمعة كشيء واحد كما مرَّ مثله في سورة البقرة(2) ﴿**وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكْلِ**﴾ نفضِّل بعض النخلات المسقية بماء واحد في مأكولها، وهو

(1) انظر: كتاب سيبويه، ج 3، ص 576.
(2) لم يتضح لنا الموضع الذي أشار إليه الشيخ.

الثمار، وذلك التفضيل جعل طعم بعض أفضل من طعم بعض، وبعض أفضل رائحة من بعض، وشكل بعض أحسن من شكل آخر، وبعض أكبر من بعض، وكذلك في الحبوب والثمر والبقول، وخصَّ المأكول بالذكر لأنَّه أشدُّها نفعا وإلَّا فكذلك يفرق بالحموضة والمرارة والعفونة، والماء واحد.

وفي تفضيل بعض على بعض مع اتِّحاد الماء دليل على قدرة خالقها، واختياره ما أراد من الجائزات، ومن ذلك أنَّ البشر من آدم كالأرض للثمار بالماء، وتذكرتهم واحدة[1]، حسنت نفوس بعض وخبثت نفوس بعض، قال الحسن: «والله ما جالس أحد القرآن إلَّا قام عنه بزيادة أو نقصان» قال الله ﷻ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُومِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [سورة الإسراء: 82].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي ما ذكر كلّه من الاختلافات، أو من تخالف الأرضين وتخالف ثمارها المسقية بماء واحد، وهذا أولى لأنَّ مَا قبله قد ذكر له قوله: ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، ﴿ءَلَايَاتٍ﴾ كثيرة عظيمة، فالتنكير لذلك، و«فِي» للتجريد، بمعنى أنَّهنَّ في عظمهنَّ بحيث يتولَّد منهنَّ آيات أخر، أو يشار إلى الأحوال الكلِّيَّة، والآياتُ أفرادُها الحادثة شيئا فشيئا في الأزمنة والأمكنة فلا تجريد، ولكن لا وجود للكلِّيِّ إلَّا في ضمن الجزئيِّ، فلا يكون مشارا إليه من حيث هو هو.

﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يستعملون قُوَّة عقولهم فينتفعون، ولا مفعول له لأنَّه ليس المراد يعقلون كذا، بل استعمال قُوَّة عقولهم، وقال هنا: ﴿يَعْقِلُونَ﴾ و[قبلها] هنالك: ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ للتفنُّن، أو لأنَّ الاستدلال باختلاف النهار أسهل، والتفكُّر سبب للتعقُّل والسبب مقدَّمٌ على المسبَّب.

---

(1) كذا في النسخ ويبدو أنه يقصد أن آيات التذكير المجلوَّة والمتلوة واحدة، مع ذلك اختلف الناس في مدى التأثر بها.

[قلت:] ومن ذلك أنَّه تنبت من أسـفل الحبَّة عروق لأسفل، ومن أعلاها أوراق وأغضـان، وبعضها خشـب وبعضهـا نـوْرٌ، وبعضها ثمـر، فما هذا الاختلاف مع اتِّحاد طبيعـة الحبَّة والأرض والحرِّ والبـرد إلَّا بفاعل مختار، وانظر الجوزة أعلاها قشر تحته قشرة خشـنة تحتها قشرة تحيط باللبِّ تحت ذي قشرة في غاية الرقَّة حال رطب الجوز، وإلى العنبة جلدها وعجمها باردان يابسان، ولحمها وماؤها حاران رطبان قيل:

والأرض فيهـا عبـر لمعتبـر	تخبر عـن صنع مليـك مقتدر
تسـقى بماء واحد أشـجارها	وبـقـعـة واحـدة قـرارهـا
والشـمس والهواء لـم يخلفا	وأكلهـا مختلـف مـا ائتلفـا
لـو أنَّ ذا مـن عمـل الطبائع	أو أنَّـه صنعـة غيـر الصانـع
لم يختلف وكان شـيئا واحدا	هل يشـبه الأولاد إلَّا الوالدا؟
الشـمس والهـواء يـا معاندُ	والماء والتراب شـيء واحدُ!
فما الذي أوجـب ذا التفاضلا	إلَّا حكيـم؟ لم يـرده باطلا[1]

[سبحانك ما أعظم سلطانك وما أعزَّ شأنك].

(1) لم نقف على قائل هذه الأبيات، وقد أوردها بعض المفسرين ولم ينسبوها. ينظر: **أبو حيان**: تفسير البحر المحيط، ج5، ص357. **الآلوسي**: روح المعاني. ج13، ص103.

﴿وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٥ وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِ وَقَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِمُ ٱلۡمَثُلَٰتُۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝٦ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦٓۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ ۝٧﴾

إنكار المشركين البعث واستعجالهم العذاب

﴿**وَإِن تَعْجَبْ**﴾ من كفرهم وإنكار البعث مع وضوح الحجَّة، والعجب حالة انفعاليَّة تعرض للنفس عند إدراك ما لا يعرف سببه، أو تغيُّر النفس برؤية خلاف المعتاد، أو الاستعظام، وذلك كلُّه محال في حقِّ الله ﷻ، إلَّا إن أريد مطلق العظمة ﴿**فَعَجَبٌ**﴾ عندك ﴿**قَوْلُهُمْ**﴾ أي وقع تعجُّبك في محلِّه، أو إن تعدَّه عظيما فهو عظيم عندي وعندك، والمتعجَّب منه واحد وهو قوله: ﴿**أَ.ذَا كُنَّا تُرَابًا إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ**﴾ والذي تعجَّب ﷺ منه وعظَّمه الله هو نفي كونهم في خلق جديد بالبعث.

[بلاغة] ومقتضى الظاهر: «وإن تعجب من حالهم فهو عجيب»، ولكن أظهره تأكيدا في إظهار قبحه، والنعي عليهم بأنَّ القادر على الخلق الأوَّل قادر على الجديد، أو المعنى: إن تحقَّق عجبك فقد أصبت، وهذه الإصابة مرادة بقوله: ﴿فَعَجَبٌ...﴾ فأقيمت العلَّة وهي «قَوْلُهُمْ» مقام المعلول وهو قوله: فقد أصبت.

أو **المعنى**: إن تحقَّق عجبــك فتعجُّبك كامل واقع موقعــه، والتعجُّب أو تحقُّقه لا بدَّ واقع من قولهم، فكذلك هو معظــم فذلك تأكيد، أو **المعنى**: إن يكن منك تعجُّب فليكن من قولهــم: ﴿أَ.ذَا كُنَّا...﴾، أو إن تعجب يا من ينظر في هذه الآيات فازدد تعجُّبا مِمَّن ينكر الإنشاء الجديد.

[نحو] و«عَجَبٌ» خبر و«قَوْلُهُمْ» مبتدأ، وقدِّم للحصر وطريق الاهتمام، فيتصوَّر من ذلك معنى آخر هــو إن تعجب من حالهم فما هــو إلَّا عَجبٌ، وقولــه: ﴿أَ.ذَا كُنَّا...﴾ مفعول به للقــول على معنى المصدر، أو بدل مطابــق على معنى مفعول. والاســتفهام للإنكار والتعجُّب من الإمكان والوقوع، و«إِذَا» متعلِّق بمحذوف، أي أَنُبْعَثُ إذَا كُنَّا...؟ أو إِذَا كُنَّا... نبعث؟ لا بـ«كُنَّا» لأنَّ المضاف إليه لا يعمل فيما قبل المضاف، إلَّا على قول من يدَّعي أنَّ مدخول «إذا» غير مضاف إليه، ولا بما تعلَّق به «فِي» لأنَّ معمول خبر «إنَّ» لا يتقدَّم عليها، ولا بـ«خَلْقٍ» لأنَّه من خبرها.

﴿أُوْلَئِكَ﴾ المنكرون للبعث أو لرسالته ﷺ ﴿الذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ﴾ الكفر بقدرة الله على البعث أو بصفة من صفاته كفر به، كمــا قال في منكر البعث: ﴿أَكَفَرْتَ بِاللذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ﴾ [سورة الكهف: 37].

[أصول الدين] ومنكر البعث ومنكر إمكانه كافران مشــركان، لأنَّهما ردَّا على الله ما أثبت، والبعث فعل والقدرة عليه صفة. ولا نسلِّم أنَّ إعادة المعدوم بذاته مســتحيلة إذ هي من جنس إيجاد المعدوم بلا وجود له قبلُ، بل أسهل لبادئ الرأي، وعند الله سواء.

﴿وَأُوْلَئِكَ﴾ الكفــرة ﴿الَاغْلَالُ فِــي أَعْنَاقِهِمْ﴾ تثبت فــي أعناقهم، يقدَّر المضارع للاستقبال، أو يقدَّر ثابتة للاستقبال، لأنَّ ذلك يوم القيامة.

ويجــوز تقديرهما للحــال أو للماضي المســتمرِّ تنزيــلا للواجب منزلة الواقع، وإن أريد بالأغلال الموانع عن الإيمان من دواعي النفس والشــيطان والخذلان قدِّر ثَبَتَتْ أو ثابتة للماضي، وجاز تقدير الحال.

[بلاغة] شبَّه الموانع بأغلال الحديد على الاستعارة التصريحيَّة، والأعناق ترشيح، أو هيئة بهيئة على التمثيليَّة بجامع عدم رجاء الخلاص، والتمكُّن في الهلاك، فإنَّ وجود تلك الموانع للقلب والحواسِّ وتسلُّطَها عليها كوجود الأغلال ووضعِها في الأعناق، يقادون بها ولا يمتنعون، أو يربط أيضا الأرجل والأيدي، ولا يجدون التصرُّف حيث شاؤوا.

﴿**وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ لا ضمير فصل هنا، لأنَّ ﴿أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ جملة و﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ جملة أخرى فلا تهم.

﴿**وَيَسْتَعْجِلُونَكَ**﴾ حين أنكروا ما أنذروا به من النار على إنكارهم، وذلك قولهم: ﴿مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ﴾. ﴿**بِالسَّيِّئَةِ**﴾ العذاب ﴿**قَبْلَ الْحَسَنَةِ**﴾ وهي الإبقاء بلا عذاب، والقبليَّة اختياريَّة، كأنَّه قيل: قدَّموا في اختيارهم العذاب وتركوا الإبقاء بدونه، وهو الإمهال، فإنَّ العذاب منتف فيه والتوبة ممكنة فيه، أو الحسنة: خير الدنيا والآخرة لو آمنوا، والمضارع للاستمرار، أو لحكاية الحالة الماضية ما زالوا في إنكار إذا أخبروا بالبعث قالوا: ﴿أَ.ذَا مِتْنَا﴾؟ وإذا هدِّدوا بالعذاب قالوا: ﴿مَتَىٰ هَذَا الوَعْدُ﴾؟.

﴿**وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ**﴾ العقوبات لأمثالهم من المكذِّبين الفاضحة، أو المبقية أثرا كقطع أنف أو يد أو فقء عين، فما لهم لا يخافون أن تنزل عليهم لتكذيبهم؟ سمِّي العقاب مثلة لأنَّه مثل ما يعاقب عليه.

﴿**وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ**﴾ أي مع ﴿**ظُلْمِهِمْ**﴾ كبائرهم وصغائرهم إذا لم يصرُّوا عليها، ولا تعجزه معصية ولو بلغت ما بلغت.

[أصول الدين] والآية زجر عن الإيَّاس، ولا مغفرة بلا توبة، أو هي في الصغائر لمن اجتنب الكبائر، أو المغفرة: الستر في الإمهال وهو بعيد، فلا دليل فيها على مغفرة المصرِّ، فلنا إحباط الحسنات بالسيِّئات، ولنا قيد التوبة

في الآي الأخر، فالعمل به لا بالإطلاق، **ومن الجهالة** الغفلة عن أنَّ الآية قَضِيَّة مطلقة عَامَّة بظاهرها، فيلزم أنَّ كلَّ ظالم مصرٍّ يغفر له، ولا يقول ذلك إلَّا من تبرَّؤوا من مذهبه وهم المرجئة، ويكرهون الانتساب إليهم، وتشمل بظاهرها المشركين ولا يقولون به هم ولا غيرهم، لقيام الدليل والإجماع **على أن لا مغفرة للمشرك غير التائب من شركه** ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُّشْرَكَ بِهِ﴾ [سورة النساء: 48] و«عَلَى ظُلْمِهِمْ» حال من «النَّاسِ»، أو متعلِّق بـ«مَغْفِرَةٍ».

والظلم شامل لظلم نفسه وظلم غيره، ولا يعجزه غفران الظلم ولو لغيره مع التخلُّص من التباعة، ويقضي الله عنه إن تاب نصوحا، ولم يجد ما يعطي، قيل: قال الله ﷻ: ﴿لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ﴾ للمبالغة في الرحمة، ولذلك لم يقل: وإنَّ ربَّك لذو عقاب شديد مع أنَّه أوفق للفاصلة.

روى ابن أبي حاتم من رواية حماد بن سلمة، عن علي بن زيد بن سعيد بن المسيَّب، عن رسول الله ﷺ: «**لولا عفو الله وتجاوزه لَمَا هنأ أحدا العيشُ، ولولا وعيده وعقابه لاتَّكل كلُّ أحد**»[1] أي على عفوه، فقوله: «لولا عفو الله» عائد إلى قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ وقوله: «لولا وعيده» عائد إلى قوله: ﴿**وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ**﴾ لمن أصرَّ.

﴿**وَيَقُولُ الذِينَ كَفَرُواْ**﴾ مقتضى الظاهر: «ويقولون» بالإضمار كما أضمر في «وَيَسْتَعْجِلُونَكَ»، لكن أظهر ليصفهم بالكفر الشديد بأن جعلوا الآيات العظام غير آيات، وطلبوا ما هو آية كآيات موسى وصالح وعيسى ﴿**لَوْلَآ**﴾ صيغة تحضيض، لا يجوز أن يقال حضض أحد الله، وحضَّه أحد والمراد: الطلب الشديد ﴿**أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَبِّهِ**﴾ كالعصا والناقة وخلق الطير بإذن الله مِمَّا لو أتى به فلم يؤمنوا لم يؤخِّر إهلاكهم.

(1) أورده **القرطبي** في تفسيره، ج 9، ص 285. والعراقي في المغني، ج 3، ص 144.

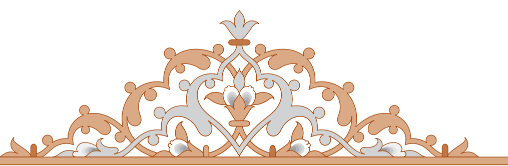
ولا يقال: إنَّهم قد جعلوا ما آتاهـم آيات، لكنَّهـم أرادوا آية عظيمة كما مثَّلنا، لأنَّا نقول: صرَّحوا بأنَّ ما يأتي به سـحر أو جنون، أو أساطير الأوَّلين، لا آيات، وسـواء جعلنا التنوين للوحـدة أو للعظمة، كأنَّهم قالـوا: إيت بآية عظيمة، وما أتيت به غير آية البتَّة، فخطَّأهم الله ﷻ بقوله:

﴿**إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ**﴾ إنَّما عليك الإنذار والاستظهار بما آتاك الله من المعجزات، لا الإتيان بما يقترحون، وكفى أنَّ الخلق عجزوا عَمَّا أتيت به مع أنَّه ما من معجزة أتى بها نبـيء قبلك إلَّا وقد أتيت بمثلهـا وأعظم، كحنين الجذع، ونبع الماء من الأصابع، وإغزار الثمد، وإكثار الطعام القليل، وانشقاق القمر، وإحياء الموتى، وسـلام الحجر، **ولو أنصفوا لكفاهـم القرآن فصاحة وبلاغة لا تطاقان، وإخبارا بالغيوب.**

﴿**وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ**﴾ إمَّا نبيء أو نائبه، يتحدَّاهم بمثل ما يستعظمونه ويتكلَّفونه، كالسحر في زمان موسى، فإنَّ العصا مناسـبة له وليست سحرا، والطبِّ في زمان عيسى فإنَّه يناسبه الإحياء، وإبراء الأكمه والأبرص، والفصاحة والبلاغة في زمان سيِّدنا محمد ﷺ، فإنَّ العرب فيه أفصح وأبلغ ما يكون، فجاء القرآن منهما بما لا يطيقونه، ونائب الرسول يتحدَّاهم بنفس ما تحدَّاهم به الرسول.

والهادي الله ونكِّر اللفظ للتعظيم، فإنَّ الله تعالـى هدى كلَّ أحد، أي بَيَّنَ له، فمن قابل ومن معرض، أو المراد أنَّه قادر على أن يهدي هداية توفيق لكن لا يهدي توفيقا، إلَّا من سبق له القضاء به.

وقد علم الله أنَّهم يطلبون الآيات عنادا أو إعناتا لا استرشـادا أو استزيادا للطمأنينة، ولو فتح هذا الباب لأفضى إلى ما لا نهاية لـه، وهو أنَّه كلَّما أتى بمعجزة طلبوا أخرى، أو جـاء آخرون فطلبوا أخرى، وذلك يوجب سـقوط دعوة الأنبياء، أو أتى بما يوجـب الإعجال بالعقاب، إن لم يؤمنوا به، وأردف ذلك بما يدلُّ على كمال العلم والقدرة على البعث فقال:



﴿ ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۖ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ۝٨ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ ۝٩ سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ ۝١٠ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ۝١١ ﴾

بعض مظاهر علم الله المحيط بكلِّ شيء

﴿**اللهُ يَعْلَمُ**﴾ متعدٍّ لواحد، بمعنى لا يجهل ذلك، وفي وصفه بالمعرفة قولان ﴿**مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ**﴾ من الجنِّ والإنس، وسائر الدوابِّ والطير ﴿**وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ**﴾ تنقص الأرحام من مدَّة الحمل بأن تلد قبل تسعة أشهر ﴿**وَمَا تَزْدَادُ**﴾ بأن تلد بعد تسعة أشهر، وفاعل الزيادة والنقص في الحقيقة الله.

أو غيض الأرحام: الحيض، يخرج الدم فينقص الغذاء فينقص الولد، ودم الحيض غذاء الجنين فيحيى أو يفسد، وإذا لم يخرج ازداد الجنين قُوَّة، أو علقت بآخر أو أكثر أيضا، أو إذا حاضت الحامل نقص الغذاء وزادت مدَّة الحمل، فتتمُّ التسعة أو يزداد عليها، أو النقص: السقط، والزيادة: ما يزيد على التسعة.

[فقه] وأقلُّ مدَّة الحمل الذي يولد حَيًّا ويحيى ستَّة أشهر، وأكثره عامان عندنا وعند أبي حنيفة، وأربعة عند الشافعي وأحمد ورواية عن مالك، وهي

المشـــهورة عنه، وخمســـة عنده في الأخرى، وإذا احتمل بعد مـــدَّة من تلك المدَّات على أقوالها حكم بعدمه، فتتزوج ولو علم أنَّـــه في بطنها ميِّتا إلَّا إن تيقَّن بحياته، هذا ظاهر إطلاقهما.

[قلت:] والذي أقـــول به إنَّها لا تتزوَّج ما دام فيه ولـــو ميِّتا لأنَّها حامل غير واضعة.

وولد الضحَّاك لسنتين بأسنان يضحك فســـمِّي بالضحَّاك لذلك في قول، وهرم بن سنان لأربع، وشوهد حياته في البطن عشرين عاما، وأقلَّ وأكثر، وما روي عن عائشة ﵂ لا يبقى أكثر من عامين محمول على السماع أو الكثير[1]، أو الآية في نقص أعضاء الولد أو جســـمه، وزيادته بالتمام وَالقُوَّة، أو باتِّحاد الجنين وتعدُّده.

قيل: وقد ولدت امـــرأة في بغداد أربعين ولدا من مشـــيمة واحدة وحييوا فيما روي، وشريك من فقهاء المدينة رابع أربعة في بطن أمِّه، ولا غاية لعدده، وقال أبو حنيفة: أربعة فيما عرف، وأخبر شـــيخ في اليمن الشافعي أنَّ امرأته ولدت بطونا في كلِّ بطن خمسة.

[نحو] و«مَا» مَصدَرِيَّة، بمعنى يعلم حملها وغيض الأرحام وازديادها، أو موصولة، أي ما تحمله ومـــا تغيضه وما تزداده، أو اســـتفهامية مفعول مقدَّم، والجملة علِّق عنها «يَعْلَمُ».

﴿**وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ**﴾ ســـبق به القضاء بلا أوَّل لعلمه وقضائه، ولا يتغيَّر بكمِّية أو كَيفِيَّة، ودخل في ذلك أفعال العباد كســـبًا لهم، وخلقًا لله ﷿، ﴿إِنَّا كُلَّ شَـــيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [ســـورة القمر: 49]. و«عِندَهُ» خبر، و«بِمِقْدَارٍ» خبر ثان، أو حال من ضمير الاستقرار ﴿**عَالِمُ الْغَيْبِ**﴾ هو عالم ما غاب عن الخلق

(1) لا يخفى عليك أنَّ تقدُّم الطبِّ بطرق الكشف بالأشعة قد حسم القَضِيَّة.

كلِّهم، وما غـاب عن بعض دون بعض فـي الدنيا والآخرة ﴿**وَالشَّـهَادَةِ**﴾ ما شاهدوه وما شاهد بعض دون بعض.

﴿**الْكَبِيرُ**﴾ شأنا لا يخرج شيء عن علمه، وقدرته ﴿**الْمُتَعَالِ**﴾ عن صفات الخلق، أو ﴿الْكَبِيرُ﴾: علما، ﴿الْمُتَعَالِ﴾: قدرة على كلِّ شيء.

﴿**سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنَ اَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِالَّيْلِ وَسَارِبُۢ بِالنَّهَـارِ**﴾ هم عند الله سـواء في علمه بهـم وبقولهم، المجهور به والمسـرّ، وبخفائهم وظهورهم، وجميع أحوالهم في ذلك وغيره، كيف يجهل شيئا وهو خالقه؟. و«مِنكُمْ» حال من المسـتتر في «سَـوَآءٌ»، ولم يجمع لأنَّه في الأصل مصدر، وإلَّا فإنَّه لأربعة، كأنَّه قيل: المسـرُّ بالقول والجاهر به، والمسـتخفي بالليل والسارب بالنهار مستوون عند الله في العلم بهم وبأحوالهم.

[لغة] وإسرار القول: إظهاره في القلب أو النطق به في خلوة، أو مع الغير بلا قصد إفشاء، وما في القلب سـمِّي قولا مجازا على الصحيح، والجهر به: النطق به ولـو في الخلوة، أو مع الغير، أو إفشـاؤه. والبـاءان بمعنى في، أو الأولى باء الآلة أو الاستعانة. والسـارب: البارز في طريقه أو داخل السرب، وهو حفير الأرض لا منفذ له، فيكون قد اختفى بالليل أو بالسرب.

﴿**لَهُ مُعَقِّبَـاتٌ**﴾ جمع معقِّبة، والمعقِّبة: جماعـة، فكأنَّه قيل: له جماعات معقِّبات، أو جمع معقِّبة، والمعقِّبة مفـرد، وتاؤه على هذا للمبالغة. وهاء «لَهُ» للمخلوق، أو لله ﷻ، والمعقِّبات: الملائكة، والتشـديد للمبالغة، إذ يكفي أن يقال: عاقبات، اسـم فاعل عقب بالتخفيف، وإذا قلنا: إنَّه جمع معقِّبة للواحد والتاء للمبالغة اجتمع تأكيدان، وذلك أنَّ الملائكة أشدَّاء التعقُّب على الإنس والجنِّ، في كتب ما يفعلون وما يقولون ـ قيل: وما يعتقدون ـ على أنَّ الله ﷻ يطلعهم عليه، يعقِّبون ذلك منهم بالكتب له، أو أشدَّاء التعقُّب عليه يحفظونه مِمَّا أمرهم الله بالحفظ عنه، كما قال:

﴿**مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ**﴾ يحفظونه من المضارِّ بأمر الله، و«مِنْ» بمعنى البـاء، أو لأجل أمر الله لهم بالحفظ، ويجوز أن تكون للابتداء، والمعنـى: يحفظونه مِمَّا هو ملك لله لو وقـع، أو من أمر الله الواقع على غيره.

والضرُّ خلق لله وفعل لـه، أمَّا الإنس فمضرَّتهم مـن بعض لبعض، ومن الجنِّ والهوام وغير ذلك كالتردِّي والاحتراق، والشـوكة والصاعقة في النوم واليقظة، وأمَّا الجنُّ فمن بعض لبعض، ومن الناس وَمِمَّا ذكر.

وما لم يؤمـروا بالحفظ عنه لـم يحفظوا أحـدا عنه. وأمرهـم إنَّما هو بالإلهام، فيقع الإنسان في بئر أو عند سـبع أو نحو ذلك من المضارِّ فيلحقه الضرُّ إذ لم يقع لهم إلهامٌ وانكشاف، لذلك قال كعب الأحبار رضي الله عنه: «لولا أنَّ الله تعالى وكَّل بكم ملائكة، يذبُّون عنكم في مطعمكم ومشـربكم وعوراتكم لاختطفتكم الجـنُّ» ومعنى ﴿مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾: مـن جهاته كلِّها، فأشـار إليها كلِّها بالجهتين، كما يشـار بالأوَّل والآخر إلى الوسط معهما، أو معناه: من الأعمال مـا قدَّم وما أخَّـر، وذلك في الملكيـن الكاتبين، وقيل: الكاتبون لكلِّ أحد أربعة فصاعدا.

روي[1] أنَّه تطلع خمسـة باتوا معنا فيقول الله لهـم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلُّون، وأتيناهم وهم يصلُّون، ويصبح معنا خمسـة فيقال لهم فيقولون ذلـك، لأنَّهم يجتمعون عند العصـر، وقيل: عند المغرب وفي قرب الفجر، وقيل: في الفجر، وقال اللقاني: عشـرة ليلا وعشـرة نهارا، وقيل: خمسة ليلا وخمسـة نهارا، الأوَّل عن اليمين لكتب الحسنات، والثاني

(1) يشـير إلى الحديث الـذي رواه **البخاري** في كتـاب مواقيت الصلاة، بـاب فضل صلاة العصر، رقم 530، عـن أبي هريرة رضي الله عنه. وَأَوَّلُه قوله ﷺ: «يتعاقبـون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار...».

على اليسار لكتب السـيِّئات، والثالث على الناصية يرفعه إن تواضع، ويضعه إن ترفَّع، وآخر يقيه عن الأذى، وآخر يقيه عن الهوام.

و﴿مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْـهِ...﴾ متعلِّق بما قبله، وإن علِّـق بـ«يَحْفَظُونَهُ» فلا بأس لأنَّها بمعنى في، و«مِنْ» في ﴿مِنَ اَمْرِ اللهِ﴾ للابتداء، أو للسببيَّة، أو للاستعانة كما مرَّ.

﴿**إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ**﴾ في قوم أو لقـوم، أو مع قوم، من نعم الصحَّة والمال والجاه والسـتر ونحو ذلك ﴿**حَتَّـىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِـهِمْ**﴾ من الحالة الحسنة بالمعصية.

وكلُّ أحد يولد على الفطرة حتَّى يبلغ فيكفر، أو يبقى على الخير، أو من حال حسنة كالجود والعدل، ولو كان كافرا فإذا جار سلب ماله مِمَّا يستحسنه، وقد يبقيه أو يزيده مما يحبُّ استدراجا، **والشكر يُبقي النعم، والكفر يزيلها.**

﴿**وَإِذَآ أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءًا**﴾ ضرًّا ﴿**فَلَا مَرَدَّ لَهُ**﴾ لا ردَّ له، قيل: المعقِّبات: الحرس حول السلطان يحفظونه بإذن الله، وإذا أراد الله بهم سوءا لم يدفعوه بل إن شاء سلَّطهم عليه، وذلك كالتهكُّم بهم ﴿**وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِنْ وَّالٍ**﴾ يليهم، يدفع العذاب أو بعضه قبل وقوعه أو بعده.

﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ١٢ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ ١٣ لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۚ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ١٤ وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ١٥﴾

مظاهر ألوهيَّة الله وربوبيَّته وقدرته

﴿هُوَ الذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ ذوي خوف وطمع، أو نفس الخوف والطمع مبالغة، أو خائفين خوفا وطامعين طمعا، أو خائفين وطامعين، أو لأجل خوفهم وطمعهم، لأنَّ الإراءة تتضمَّن الرؤية، فقد اتَّحد فاعلها وفاعل الرؤية، أو إراءة خوف وطمع، أو هما اسما مصدرين، أي إخافة وإطماعا، أي ذا إخافة وإطماع، أو مخيفا ومطمعا، أو للإخافة والإطماع.

والمراد: خوفا من أذى يأتي من جهة البرق، وطمعا في مطره، والخائف والطامع واحد، وقيل: يخاف من المطر من يضرُّه، ويطمع فيه من ينفعه، وكلُّ واحد غير الآخر، والمطر وإن ضرَّ لَكِنَّ نفعه أكثر، فيخاف منه في غير أوان الصلاح فيه، كحال تجفيف التمر والحبوب، وفساد الثمار به أو سقوطها. والمضارع للاستمرار التجدُّدي.

﴿**وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ**﴾ الغيث المنسحب في الهواء الثقيل بالماء، والسحاب جمع أو اسم جنس جمعي، والواحد سحابة ولذلك وصف بالجمع ﴿**وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ**﴾ ثابتا مع حمده أو ملتبسا بحمده، يقول: «سبحان الله والحمد لله»، أو التقدير: يسبِّح الرعد ويسبِّح من يسمعه بحمده، فالحامد على هذا سامعوه.

أو تسبيح الرعد حالي لا قالي، وهو دلالته على قدرة الله ﷻ دلالة ملتبسة بنزول الرحمة وهو الصوت.

وإذا قلنا: الرعد ملك فذلك منه قالي، قال ﷺ: «**الرعد ملك موكَّل بالسحاب، معه مخاريق من النار يسوق بها السحاب حيث شاء الله**»[1]، أجاب بذلك اليهود السائلين له عن الرعد، فقالوا: وما الصوت منه؟ قال: زجره للسحاب، وإذا شذَّت سحابة ضمَّها، وإذا اشتدَّ غضبه طارت من فيه نار هي الصاعقة، ويقال: إنَّ بحورا من نار تحت العرش يكون منها الصواعق، وقال ابن سيناء: أجسام نارية فارقتها السخونة وصارت لاستيلاء البرودة على جوهرها متكاثفة، وقيل: الرعد ملك والصوت تسبيحه، وقيل: صوت ضربه السحاب، وقيل: صوت تقارع الماء، وقيل: ملك والبرق سوطه كما مرَّ.

وعنه ﷺ: «**إنَّ الله ينشئ السحاب فينطقه أحسن النطق، ويضحكه أحسن الضحك، فنطقه الرعد، وضحكه البرق**»[2]، والله قادر على إحياء الجماد وإنطاقه وإضحاكه، وإذا سبَّح ذلك الملك لم يبق ملك في السماء والأرض إلَّا رفع صوته بالتسبيح فينزل القطر.

---

(1) أورده **ابن بشران** في الأمالي، 2/27/24، و**المقدسي** في الضياء في الأحاديث المختارة (ق206، 207) من حديث ابن عبَّاس. (الألباني، الصحيحة: ج 4، ص 491 رقم 1871).

(2) أورده **السيوطي** في الدر، ج 4، ص 58، من حديث أبي هريرة.

وإذا كان الرعد ملكا فقوله ﷻ: ﴿وَالْمَلَآئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ عطف عامٍّ على خاصٍّ، وذكر الخاصّ قبل العامّ والعكس كلاهما تشريف للخاصّ، والخيفة: نوع من الخوف مقرون بالتعظيم. والهاء لله ﷻ، وقيل: للرعد خوفا منه، [قلت:] والصحيح الأوّل، وليس خوفهم من الله كخوف غيرهم فإنّهم لا يعرفون من بيمينهم أو يسارهم لشدّة خوفهم، ولا يشغلهم شيء عن العبادة.

﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ﴾ الصاعقة: نار تنزل من ماء السحاب، أو صوت شديد ينزل، ثمّ تكون فيه نار، أو عذاب أو مَوْتٌ، وأمر النار من الماء عجيب جِدًّا، وهي أقوى من جميع نيران الدنيا، فإنّها تنزل من السحاب فربّما غاصت في البحر، وأحرقت الحيتان فيه وفي قعره، وتنزل وتغوص في الأرض فتخرج حجارة كالبكرة السفلى، وهذا كخروج النار من العرجون، ومن شجر المرخ، **وذلك أدلُّ دليل على وحدة الله**، أخرج ما هو حارٌّ يابس مِمَّا هو بارد رطب، ويقال عن ابن عَبَّاس: من سمع صوت الرعد فقال: «سبحان الذي يسبِّح الرعد بحمده، والملائكة من خيفته، وهو على كلِّ شيء قدير» وأصابته صاعقة فعليَّ ديته[1].

﴿فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَّشَآءُ﴾ يوصله من يشاء فيهلك، أو الإصابة نفس الإهلاك، قال محمَّد بن علي الباقر[2]: تصيب الصاعقة المسلم وغير المسلم، ولا تصيب الذاكر، جاء الحديث بذلك فليس نزول الصاعقة على أحد موجب للبراءة منه، كما قيل، وأمَّا المسخ فموجب للبراءة، والجزم بشقاوة الممسوخ، وكذا الخسف، ولا مانع من حمل إصابة من يشاء على معنى الضرِّ له في جسده أو حرثه وشجره وماله.

(1) يعني رضي الله عنه لا تصيبه صاعقة فلذلك ألزم نفسه بديته إن أصابته.

(2) محمَّد بن علي زين العابدين بن الحسين الطالبي الهاشمي القرشي أبو جعفر الباقر، ولد 57هـ وتوفي سنة 114هـ، خامس الأَئمَّة الاثني عشر عند الإماميَّة. كان نسَّاكا عابدا، له في العلم وتفسير القرآن آراء وأقوال، ولد بالمدينة وتوفي بالحميمة ودفن بالمدينة. (الزركلي: الأعلام، ج 6، ص 270).

﴿وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللهِ﴾ في شأن الله، يكذِّبونه ﷺ في قوله بالبعث والجزاء، ووصفُ الله بالقدرة والعلم التامِّ وبأنَّه لا يشبهه شيء أشدُّ تكذيب، كالجدل بمعنى الإلقاء على الجدالة، وهي الأرض، أو بمعنى القتل.

[سبب النزول] نزلت الآية في رجل بعث إليه رسول الله ﷺ من يدعوه إلى التوحيد فقال: من رسول الله؟ وما الله؟ أمن ذهب أم فضَّة أم نحاس؟ فقال: عودوا إليه، فعادوا فقال ذلك وأقبح، وأمرهم بالعود إليه، فما زاد إلَّا شرًّا، فنزلت الصاعقة بعد إرعاد وإبراق فذهبت بجمجمة رأسه، وهم جلوس حوله، ينهونه، وسلموا، فجاءوا ليخبروه ﷺ فسبقهم بالإخبار، وقال: أوحي إِليَّ بذلك[1].

وروي أنَّ عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة أخا لبيد وفدا إليه ﷺ وأرادا قتله، على أن يلهيه عامر بالجدال ويضربه أربد بالسيف من خلفه، فقال ﷺ: «**اللهمَّ اكْفِنِيهِما بما شئت**» فأرسل الله على عامر صاعقة، ورمي أربد بغدَّة كغدَّة البعير، ومات في بيت سلولية من قبيلة تستحقر، فكان يقول: غدَّة كغدَّة البعير وموت في بيت سلولية، ثمَّ خرج وأجرى فرسه ومات على ظهره، ويروى: مات عامر بالطاعون، وأربد بالصاعقة[2].

[لغة] ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ الكيد للعدوِّ، أو القُوَّة أو الأخذ، أو المماحلة بمعنى المكايدة، يقال: تمحَّل لكذا إذا تكلَّف استعمال الحيلة له، وهو مصدر ماحل يماحل، وإذا كان بمعنى القُوَّة فقد قيل إنَّه اسم لا مصدر، ومادَّة المحل الشدَّة، ومنه المحل بمعنى القحط.

[صرف] والميم أصل والألف زائد، ويجوز العكس، فتكون من الحول بمعنى الحيلة مجازا، كأنَّه من المجازاة على احتيالهم في الإهلاك، والقلب

---

(1) ورد معناه في مسند **الربيع**، ج3، السُّنَّة في التعظيم لله ﷻ، رقم 821. من حديث ابن عبَّاس. ورواه **الطبراني** في الأوسط، باب من اسمه إبراهيم، ج3، ص96، رقم: 2602، من حديث أنس.

(2) أورد القصة عدة مفسرين، منهم **البغوي** في معالم التنزيل، في تفسير الآية ذاتها، ج4، ص302.

على هذا شاذٌّ قياسا، إذ لا موجب لقلب الواو ألفا فيه، كذا قيل، وليس كذلك، فإنَّه نقلت فيه حركة العين إلى الفاء فقلبت، بل لو صحَّت كمِجْوَر ومِقود لقيل: شاذٌّ، إلَّا إن أراد بكونه شاذًّا أنَّه خارج عن قانون الاستعمال، ويُدَّعى أنَّ مِفعل بكسر الميم ما ورد إلَّا غير مُعلٍ نحو مقول، وليس كونه شاذًّا لعدم الفتح قبله، فإنَّه ينقل فتحه لِمَا قبل فلا تهم.

وقيل: بمعنى الفقار، وهذا في قراءة فتح الميم، والواحد محالة بالتاء، فيكون مثلا في القُوَّة، فإنَّ المخلوق الطويل الظهر الكبير الفقار قويُّها، وهنَّ سبع عشرة، وعن أبي الهيثم: أربعة وعشرون، ويجمع بأنَّ بعض الناس يكون أكثر فقرة من بعض، ولا تزيد على أربع وعشرين ويكون الكثير الفقار قَوِيًّا حاشى الله، **وهو ضعيف لعدم التوقيف ولا يجوز اعتقاده ولو بالتأويل**، ويقتصر على الوارد كما جاء من حديث نهاية ابن الأثير: «**فساعد الله أشدُّ وموساه أحدُّ**»[1]، أي لو شاء تحريم البحيرة لخلقها مشقوقة الأذن، وهو أقوى على ذلك، فكنَّى عن ذلك بأشدِّية ساعده، وأحدِّية موساه، **ولا يوصف بالساعد**.

﴿**لَهُ**﴾ لا لغيره ﴿**دَعْوَةُ الْحَقِّ**﴾ الدعاء إلى التوحيد فإنَّ الدعاء إليه دعاء حقٍّ لا باطل، أو الحقُّ هو التوحيد، ودعوة التوحيد هو الدعاء إليه، وليس من إضافة الموصوف إلى الصفة كما قيل، وإلَّا قيل: الحقَّة، إلَّا أن يتكلَّف أنَّه مصدر كما يقال: امرأة عدل، أو أَوَّل الدعوة بالدعاء فكأنَّه الدعاء الثابت، أو المستجاب فإنَّ ما لا يستجاب باطل، كما قال: ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ﴾، أو **المراد**: دعوة المدعو الحقِّ وهو الله، وقيل: الحقُّ: الله، وكأنَّه قيل: لله دعوة الله، فيشكل بظاهره، ويؤوَّل بأنَّ كلَّ ما كان دعاء إليه تعالى يكون له، وأنَّه أمر به ولا يليق بغيره، وكلُّ دعاء إليه هو دعاء له، بمعنى أنَّه أمر به.

﴿**وَالذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ**﴾ ذكر الأصنام بما يذكر به

(1) رواه **أحمد** في مسنده، كِتَاب مسند الشاميِّين، رقم 16594، من حديث أبي الأحوص عن أبيه.

العقلاء لأنَّهم يعظِّمونها كأنَّها عقلاء، وواو «يَدْعُونَ» للمشركين، و«الذِينَ» للأصنام، والعائد هاء محذوفة، أي والأصنام الذين يدعونهم، أي يدعوهم المشركون، أو «الذِينَ» للمشركين، والعائد الواو، ومفعول «يَدْعُونَ» محذوف ظاهرا يعود إليه واو «لَا يَسْتَجِيبُونَ»، فإنَّ واوه على كلِّ وجه للأصنام، وهاء «لَهُمْ» على كلِّ حال للمشركين، لا يستجيب الأصنام لعابديها بشيء مِمَّا يطلبونها إليه.

﴿إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ﴾ أي إلَّا استجابةً كاستجابة باسط يديه من فم البئر إلى الماء في قعرها، أو باسطيهما إلى السحاب مع ضمِّ أصابعه، ونصبهما لتمسك له الماء ليدخل فاه أو يصله، وهو عطشان والماء جماد لا شعور له بعطشه، ولا ببسط الكفَّين إليه، ولا قدرة له على إجابة الدعاء، ولا يطلع إليه الماء أو ينزل إليه، فكذا دعوا الأصنام جمادا لا تعلم بدعائهم ولا تستجيب لهم، ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ﴾ [سورة فاطر: 14] بقي أنَّه لا استجابة للماء البتَّة فكذلك لا استجابة للأصنام، فذلك كقوله:

ولا عيب فينا غير أنَّ سيوفنا   بهنَّ فلول من قراع الكتائب

فإنَّ ذلك لا يختصُّ بالمدح والذمِّ.

﴿وَمَا هُوَ﴾ أي الماء ﴿بِبَالِغِهِ﴾ أي بالغ فيه، أو ما فوه ببالغ الماء، أو ما باسط كفَّيه إلى الماء ببالغ الماء، والأوَّل أولى، لأنَّ البالغ في قوله: ﴿لِيَبْلُغَ فَاهُ﴾ هو الماء، ووجه الثاني والثالث التفنُّن في البالغ.

ويجوز أن يكون المعنى: كباسط كفَّيه بتفريق أصابعه، أو مع ضمِّها ممتدَّة في حوض أو إناء واسع، فإنَّه لا يغترف له الماء بذلك، وما تقدَّم أولى لتمام التشبيه فيه، بخلاف هذا فإنَّه قد يبقى ماء قليل في أخمص راحته، مع أنَّه لا نفع كثير ولا قليل من الأصنام.

﴿وَمَا دُعَآءُ الْكَافِرِينَ﴾ طلبهم حوائجهم من الأصنام، أو عبادتهم إيَّاهَا، أو ما عبادتهم الله لأنَّهم قد يعبدونه كالطواف ﴿إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ ضياع حين

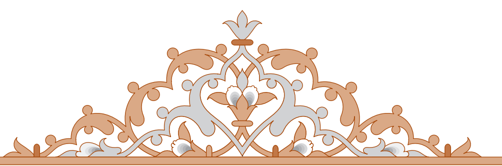
يحتاجون لا نفع فيه، لا تنفعهم الأصنام ولا يقبل الله عبادتهم إِيَّاهُ لشركهم، قال ابن عَبَّاس: «أصوات الكُفَّار محجوبة عن الله تعالى فلا يسمع دعاءهم» ومعنى حجبها وعدم سمعها أنَّها غير مقبولة، والله لا يخفى عنه شيء.

﴿وَلِلهِ﴾ لا لغيره ﴿يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالَارْضِ﴾ بالجباه على الأرض والسماوات من [قِبل] الملائكة فيهما، ومؤمني الإنس والجنِّ، ومنافقيهم ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ ذوي طوع وذوي كره، كمشرك يسجد خوفا من القتل، وكمنافق يسجد لئلَّا يظهر نفاقه، أو طائعين وكارهين أو للطوع والكره، ولا مانع من أن يقال: من حقِّ الله أن يسجد له طوعا أو كرها، أو بمعنى الطلب، أي اسجدوا له طوعا وكرها.

ومعنى السجود كرها: أن يقبل السجود من قلبه لكن يكرهه بالطبع، ومقابله الطوع فيه بالرغبة، أو المراد حال النشاط وغيرها، أو السجود: عدم قدرتهم على الخروج عمَّا أراد فيهم من التصرُّف، فبعض يذعن للشدَّة بلا كراهة، وبعض بها، أو السجود: التعظيم، فإنَّ أجساد الكافرين مقرَّة، والكفر يحدث في القلب.

ويدلُّ على أنَّ السجود غير سجود الجبهة بل بعض ما تقدَّم أنَّه قال: ﴿وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالَاصَالِ﴾ فإنَّه لا جبهة للظلال، إلَّا أن تستعمل الكلمة في معنييها، وهما سجود الجبهة مع السجود بمعنى الخضوع أو الانقياد، أو يقدَّر وتنقاد ظلالهم كقوله: «علفتها تبنا وماءا باردا»، أو يخلق الله لها عقلا تسجد به، وقيل: سجودها ميلها، و«بِالْغُدُوِّ» متعلِّق بـ«يَسْجُدُ» كناية عن دوام سجود من في السماوات والأرض، أو حال من الظلال، فيكون قد خصَّ الغدو والآصال لأنَّ الشيء إذا أخذ بطرفيه فقد أخذ كلُّه، وإلَّا فالظلال موجودة في غيرهما أيضا ساجدة، ولأنَّ الامتداد في الآصال أظهر، لأنَّه يزيد الظلُّ في زمان قصير كثيرا، والتقليص في الغدوِّ أظهر لأنَّ نقصانه كثير في زمان قليل. والغدوُّ جمع غداة، والآصال جمع أصيل وهو ما بين المغرب والعصر، وقيل: أصل الغدوِّ مصدر استعمل للزمان وهو ما بعد طلوع الفجر.





﴿قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ قُلِ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ لَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ نَفۡعٗا وَلَا ضَرّٗاۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ ١٦﴾

وحدانيَّة اللّه ومثل المؤمن والمشرك تجاه الوحدانيَّة

﴿**قُلْ**﴾ يا محمَّد لقومك ﴿**مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالَارْضِ**﴾ مالكهما القائم بوجودهما وإبقائهما وأحوالهما ﴿**قُلِ اللهُ**﴾ الله ربُّهما، أو ربُّهما الله، لا يجدون جوابا غيره، أجابوا به أو سكتوا عنادا لظهوره، فهو ﷺ والخصم في تقريره سواء، أو قل لهم ذلك تلقينا لأن يقوله جاحدٌ أو ساكت عارف، والأمر ظاهر حتَّى كَأَنَّهُم قالوه بعد السؤال فحكاه، وذلك تحريض لهم على الجواب. والاستفهام للتقرير.

﴿**قُلَ اَفَاتَّخَذتُّم مِّن دُونِهِ**﴾ أظهرت لكم دلائل وحدانيَّته فاتَّخذتم بعد ظهورها؟ أو الهمزة مِمَّا بعد الفاء، والاستفهام إنكار للياقة الاتِّخاذ فإنَّه منكر بعيد عن العقل ﴿**أَوْلِيَآءَ**﴾ آلهة تتولَّونها بالعبادة والدعاء، أو تتولَّى نصركم على زعمكم، وتنفعكم وتشفع لكم في نظركم الخاسر ﴿**لَا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا**﴾ فكيف تطمعون أن تنفعكم بنصر أو رزق أو شفاعة، وصيغة الذكور العقلاء لأنَّهم يعتقدون فيها ما يعتقد في الذكر العاقل.

﴿**قُلْ هَلْ يَسْتَوِي**﴾ في التعظيم ﴿**الَاعْمَىٰ**﴾ أي الجاهل، فإنَّه في وقوعه في المضارِّ كفاقد بصر لم يتَّبع بصيرا ﴿**وَالْبَصِيرُ**﴾ العالم بمصالحه لا

يســتويان، بل لاحظَّ في التعظيم للجاهل فكذلك الجاهل بالتوحيد والعبادة، والعالم به المعتقد له العامل، أو لا تستوي الأصنام الغافلة عَمَّن يعبدها، ولا إدراك لها، والعالم بكلِّ شيء المستحقُّ للعبادة.

أو ﴿الأَعْمَى﴾: المشــرك و﴿البَصيــرُ﴾: الموحِّد، أو ذلــك تمثيل، أو استعارة، ومرادنا بالغفلة عدم الشــعور، فصحَّ إسنادها إلى غير الحيِّ، وإنَّما لم تعطف هذه الجملة لأنَّها استئناف بياني، كأنَّه ﷺ قال: أيُّ شيء أقول في تصويــر اتِّخاذهم القبيح بالصورة المحسوســة؟ فقــال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْــتَوِي الَاعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾.

﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾ لا يســتويان، فإنَّ من في الظلمات لا يهتــدي لمصالحه ولا ينجــو من المهلــك، بخلاف من في النــور، فكذلك الجاهل والمشرك يهلكان، والموحِّد المطيع ينجو ويفوز

[أصول الدين] وجمع الظلمة لكثرة أنواع الشــرك كاليهوديَّة والنصرانيَّة، والصابئة والمجوســيَّة، والوثنيَّة والثنويَّة، والدهريَّة وأنواع الفســق، بخلاف التوحيد والعمل بمقتضاه.

[بلاغة] ووجود «هَلْ» بعد «أَمْ» هنا دليل على أنَّ «أَمْ» منقطعة تقدَّر بلفظ بل لا ببل والهمزة، وإلَّا اجتمع هنا هل والهمزة الاســتفهاميَّتان، وقد يجاب بأنَّ «هَلْ» هنا بمعنى قــد، كما قال به بعض في قوله تعالــى: ﴿هَلَ اَتَىٰ عَلَى الِانسَانِ﴾ [سورة الإنسان: 1] وقد يقال: إنَّها تقدَّر ببل والهمزة إذا لم تكن «هل».

﴿أَمْ جَعَلُواْ لِلهِ شُــرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ﴾ بل أجعلوا لله شركاء في الأُلُوهِيَّة وإيجاد المعدومات؟ فالتبس عنهم ما خلق الله وما خلق شركاؤهم، ولم يتميَّز واحد من آخر كما قال: ﴿فَتَشَــابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ فعبدوها، والله لم يكن ذلك ولــم يتوهَّمــوه، لأنَّهم أقــرُّوا أنَّ آلهتهــم لا تخلــق شــيئا، وأنَّ الخالق الله

وحده ﷻ، فكيف يعبدونها معه وهي لا تتَّصف بصفاته، ولا تفعل أفعاله؟ بل لا تفعل [حتَّى] أفعال الحيوانات. والاستفهام في هذه المواضع للإنكار.

﴿**قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ**﴾ الجواهر والأعراض، لا شيء سواه يخلق كما يخلق فيعبد كما يعبد، لا ثاني له في الخالقيَّة والألوهيَّة ﴿**وَهُوَ الْوَاحِدُ**﴾ في ذاته وأفعاله وصفاته، فهو المتوحِّد بأن يعبد ﴿**الْقَهَّارُ**﴾ لعباده في غير أفعالهم التي يختارونها واكتسبوها. والجملة من كلام الله أو من مقول القول.

﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدًا رَّابِيًاۖ وَمِمَّا تُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ ١٧ لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡحِسَابِ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ١٨ ۞أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩﴾

مثل الحق والباطل ومآل السعداء والأشقياء

﴿**أَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً**﴾ من السحاب أو من جهة السماء، فإنَّ السحاب من جهتها، أو من نفس السماء أو السماوات تحقيقا، والله قادر، أو المراد أنَّ مبادئه منها، والأوَّل أولى لأنَّ بعض الأمطار من ماء البحور أو العيون.

[صرف] ﴿**فَسَالَتَ اَوْدِيَةُۢ**﴾ جمع واد جمع فاعل على أفعلة على غير قياس، كما يجمع فعيل على أفعلة قياسا، وذلك لتوارد فعيل وفاعل على الشيء الواحد كعالم وعليم وشاهد وشهيد.

[لغة] وهو المنفرج بين الجبلين وليس ما بين الجبلين كلّه يسل فيه الماء بل يسيل في جانبه مِمَّا يلي الجبل، ويسمَّى كلُّه واديا لأنَّ فيه موضع جريان الماء، وهو من ودى يدي بمعنى وصل إليه، والماء يصل منه إلى غيره.

وأســـند الســـيلان إلى الموضع مع أنَّه للماء لعلاقة الحالية والمحلِّية، أو سمَّى الماء باســـم الوادي لتلك العلاقة، وهذا أولى من تقدير مضاف هكذا: سال ماء أودية. ونكَّر الأودية لأنَّه ليست تســـيل الأودية كلُّها إذا نزل الماء بل بعضها ﴿**بِقَدَرِهَا**﴾ بمقدارها الذي سبق به القضاء، من كثرة وقلَّة وامتلاء وغير امتلاء، وضرٍّ ونفع.

فأرض طيِّبة تتأثَّر بالماء فتنبت وتثمر كالمؤمن يتأثَّر بالوحي ينتفع وينفع الناس به، وأرض تمســـك الماء للناس والدوابِّ ولا تتأثَّـــر به كمؤمن وغيره يحفظ الوحي وينفع به الناس ولا ينتفع به، وكحافظ وحي ينســـاه فيؤدِّيه في غيره قبل النسيان، وأرض لا تمسك الماء ولا تتأثَّر بالمطر كالمشرك والفاسق يسمعان الوحي ولا ينفعان به ولا ينتفعان به[1].

﴿**فَاحْتَمَلَ**﴾ فحمل، من الخماسي بالزيادة بمعنى الثلاثي، أو هو للمبالغة ﴿**السَّـيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا**﴾ الســـيل: الماء الجاري ولو من غير المطر، والمراد هنا المطر، والزبد: ما علـــى وجه الماء لجريانه أو اضطرابه من وســـخ، وقيل: ما على وجهه ولو من غير اضطـــراب أو جري كما يكون في ماء إناء، ويقال: هو ما على الماء من العشب اليابس، و﴿رَابِيًا﴾: عاليا.

وعرَّف السيل لأَنَّهُ قد تقدَّم وما يتضمَّنه في قوله: ﴿فَسَالَت﴾ وهو المصدر الذي في ضمن الفعل، والســـيل مصـــدر، أي فاحتمل جريـــان الماء زبدا، أو الوصف، فإنَّ الضرب يدلُّ على ضارب، وسالت على سائل، والسيل: بمعنى

(1) يشير الشيخ إلى الحديث: «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصابت منها طائفة أخرى إِنَّمَا هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في ديـــن الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلَّـــم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذي أرســـلت به». رواه **البخاري** في كتاب العلم (20) باب فضل من علم وعلَّم، رقم 79. و**مسلم** في كتاب الفضائل، باب بيان ما بعث به النبيء، رقم 2282.

الماء السائل وكأنَّه ذكر في ﴿سَالَت﴾ وهو نكرة وأعيد معرفة في ﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ﴾ ألا ترى كيف يجوز ردُّ الضمير إلى ما يفهم من الفعل؟ والضمير معرفة كمعرفة العهد، نحو: ﴿وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [سورة الزمر: 7] و﴿اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [سورة المائدة: 8] ومن كذَّب فهو شرٌّ له، أي يرضى الشكر، والعدل أقرب والكذب شرٌّ له، وأولى من ذلك أن تكون «ال» للحقيقة.

﴿**وَمِمَّا تُوقِدُونَ**﴾ خبر مقدَّم و«مِنْ» للابتداء، و«زَبَدٌ» مبتدأ، أي زبد مثل زبد السيل، و«مَا» واقعة على الجواهر الأرضية، كالذهب والفضَّة والنحاس والحديد والرصاص، و«مِنْ» للابتداء لأنَّ زبدا مثل زبد السيل ينشأ مِمَّا يوقدون، والمعنى: ثابت مِمَّا توقدون بالتولُّد منه، وإن شئت قدَّرت الخبر كونا خاصًّا، أي ناشئ أو متولِّد مِمَّا...، أو للتبعيض بمعنى: وبعضه زبد.

وحاصل المعنى: أنَّ الموقد عليه من الجواهر المعدنية له زبد مثل الزبد الذي يعلو الماء إذا أذيب، فالصافي ينتفع به كما ينتفع بالماء، وزبده يبطل كما يبطل زبد الماء، ووجه الشبه أنَّ كلًّا ناشئ من الأكدار وصاعد وعال، والآية تهاون بما يستعظمون من نحو الذهب والفضَّة، إذ ذكرها بلفظ «مَا» لا بلفظ الذهب والفضَّة ونحوهما، مع لفظ الإيقاد عليها في النار، كما قال: ﴿تُوقِدُونَ **عَلَيْهِ فِي النَّارِ**﴾ على عادة الملوك في الاحتقار بالشيء، كقوله: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ﴾ [سورة القصص: 38] في تحصيل الآجر.

أي هذه الجواهر التي تعدُّونها أنفس الجواهر وتفتخرون بها وتتَّخذونها حُليًّا تتزيَّنون بها في مجالسكم، هي التي توقدون عليها، كقوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الِانسَانُ مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ [سورة الطارق: 5ـ6]، وقوله: ﴿مِنَ اَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ﴾ [سورة عبس: 18ـ19] أي شيء حقيرٍ، وللاحتقار لم يذكرها باسم الذهب والفضَّة والنحاس. و«فِي النَّارِ» حال من الهاء، أو متعلِّق بـ«توقد».

﴿ابْتِغَآءَ﴾ طلبَ، مفعول من أجله ﴿حِلْيَـةٍ﴾ ما يتزيَّن به في البدن أو في اللبـاس ﴿اَوْ مَتَاعٍ﴾ ما يتمتَّع بـه كأواني النحـاس، وآلات الحرب، وآلات الحرث، والدنانير والدراهم والفلوس ﴿زَبَدٌ مِّثْلُـهُ﴾ زبد مثل زبد الماء وهو خبث تلك الجواهر ورديئها أو الوسخ.

﴿كَذَٰلِـكَ يَضْـرِبُ اللهُ الْحَـقَّ وَالْبَاطِلَ﴾ كمـا ذكر من المـاء والموقد عليه والزبدين، يضرب الله مثل الحقّ والباطل على العموم، أو التوحيد والشرك، فالحقُّ في الثبات والنفع كالماء من السـماء يحرث به ويجمع فـي الأحواض وغيرها، ويمكث فوق الجبال السفلية وتحتها، وكالجواهر المنتفع بها مع الطول، والباطل في سرعة الذهاب وعدم النفع أو قلَّته كزبد الماء وزبد الموقد عليه.

﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ﴾ زبد المـاء وزبد الموقد عليه وهما مثـلان للباطل ﴿فَيَذْهَبُ جُفَآءً﴾ حال، بمعنـى ذا جفاء أو مجفـوًّا، أي غير معتنىً به، بـل يرمى أو لا يتعرَّض له، أو مفعـول مطلق أي ذهاب جفاء ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَـعُ النَّاسَ﴾ من الماء والجواهر الموقد عليهـا ﴿فَيَمْكُثُ فِـي الَارْضِ﴾ زمانا للانتفـاع به، والعرب توضح الشـيء بالمثال فميَّـز الله الحقَّ بالمثـل كما أوضح المشـرك بالجاهل والأعمى ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الَامْثَالَ﴾ لزيادة البيان مثل ذلك الضرب العجيب.

يضرب الله الأمثال في كلِّ باب يليق، إظهـارا لكمال اللطف والعناية في الهداية، وهـذا تأكيد لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِـكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَـقَّ والْبَاطِلَ﴾ إذ الظاهر أنَّ ذلك إشارة إليهما بتأويل ما ذكر، أو إلى ضرب المثل لهما كما هو الظاهر، وهذا مبنـي على التمثيل الأوَّل، أو نجعل «ذَلِكَ» إشـارة إليهما معا. والأمثال: المثلان.

﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُواْ﴾ خبر المبتدأ الذي هو «الْحُسْنَى»، أي للمؤمنين الذين استجابوا ﴿لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ﴾ أو متعلِّق بـ«يَضْرِبُ» و«الْحُسْنَى» مفعول مطلق، أي استجابوا الاستجابة الحسنى.

﴿وَالذِينَ﴾ لِلكُفَّارِ الذين ﴿لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُ﴾ عطف على «الذِينَ [اسْتَجَابُوا]»، أو مبتدأ خبره قوله: ﴿لَوَ اَنَّ لَهُم مَّا فِي الاَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ﴾ من الأموال، أو ما في الأرض مطلقا صار لهم مالا ﴿لَافْتَدَوْاْ بِهِ﴾ والأوَّل أولى، لأنَّ ضرب الأمثال فيه غير مقيَّد، كما وقع في غير هذه الآية غير مقيَّد، ويدلُّ على أنَّ المراد بالأمثال المثلان أنَّه لم يقل: كذلك يضرب الله الأمثال للناس، أو لقوم يعقلون، كما قال: ﴿وَتِلْكَ الاَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ [سورة العنكبوت: 43]. ومعنى ﴿لَافْتَدَوْاْ بِهِ﴾ أنَّه يهون عليهم كلُّه فيتركونه فداء مع أنَّه لا يقبل عنهم، وليست «لَوْ» للتمنِّي بدليل اللام في قوله: ﴿لَافْتَدَوْاْ بِهِ﴾ فلا تهم.

﴿أُوْلَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ﴾ هو على ظاهره، أي فظاعة الحساب، أو الحساب السوء أي السيِّئ، وأضيف النعت إلى المنعوت؛ يحاسبون حسابا عسيرا لا يغفر لهم ذنب ولا همٌّ به، صغير ولا كبير، وفي البخاري ومسلم عنه ﷺ: «**من نوقش في الحساب عذِّب**»[1]. ﴿وَمَأْوِيهُمْ﴾ مرجعهم ﴿جَهَنَّمُ وَبِيسَ الْمِهَادُ﴾ أي المستقرُّ، شبِّه بالفراش الذي يمهَّد، أو تهكّم به، والمخصوص بالذمِّ محذوف تقديره: هي، أو مهادهم.

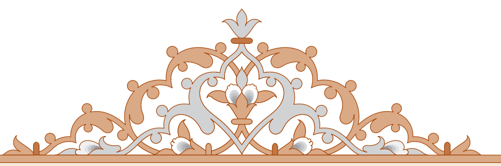
ونزل في أبي جهل لعنه الله وحمزة رضي الله عنه قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَّعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ﴾ لا غيره، وهو حمزة رضي الله عنه وغيره، لأنَّ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ﴿كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٓ﴾ أعمى القلب، وكفاقد البصر لا يستبصر، ولا يستجيب. والاستفهام إنكار، لا يميِّز الحقَّ من الباطل، أو هو أبو جهل وغيره للعمل بعموم اللفظ. ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الاَلْبَابِ﴾ العقول المكتسبة لا أصحاب العقول التي لم تستعمل، فبقيت على متابعة ما ألفوه، وموانع الوهم[2].

---

(1) رواه **البخاري** في كتاب العلم (36) باب من سمع شيئا فراجع حتَّى يعرفه، رقم 18. ورواه **مسلم** في كتاب الجنَّة وصفة نعيمها وأهلها، باب إثبات الحساب، رقم 2876. من حديث ابن عمر.

(2) كذا في النسخ ولعلَّه: «وموانع الفهم».





﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ۝20 وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ۝21 وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ۝22 جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝23 سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ۝24﴾

أوصاف المؤمنين أولي الألباب وجزاؤهم

﴿**الذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ**﴾ المأخوذ عليهم حين قالوا: ﴿بَلَى﴾ بعدَ ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [سورة الأعراف: 172]، أو بما عهد الله في الكتب وسائر الوحي إلى الأنبياء، ومن لم يعلمه أو أنكره كأنَّه علمه وأعطى الميثاق لتبليغ الأنبياء، ونَصْبِ الدلائل، **أو بكلِّ وعد وعدوه من طاعة لله، أو وعد وعدوه من المباح لغيرهم.**

[نحو] و«الذِينَ» نعت لـ«أُوْلُواْ الاَلْبَابِ»، و«الذِينَ» بعده مبتدأ، وقوله: ﴿أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ خبر له مع ما بعده، أو «الذِينَ يُوفُونَ» مبتدأ، أو «أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ» خبر له مع ما بعده، ويجوز عطف «الذِينَ» في ذلك كلِّه على «الذِينَ يُوفُونَ» عطف صفات لموصوف واحد، فيكون «أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ» مستأنفا.

﴿**وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ**﴾ إن كان بمعنى العهد المذكور فعطف على «يُوفُونَ» باعتبار اختلاف المفهوم، ذكر أوَّلاً باعتبار عدم النقص منه بالصاد المهملة، وثانيا باعتبار أنَّهم لم يخالفوه، والمخالفة له نقض (بالمعجمة)، أو

باعتبار أنَّهم أوفوا له وداموا عليه لم ينقضوه برئاء، أو بمحبط كشرك، **أو العهد على العموم والميثاق بينهم وبين الله أو بالعكس.**

﴿**وَالذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُّوصَلَ**﴾ من حقِّ الرحم والجار والعشرة وحقِّ المؤمنين وموالاتهم وإثارهم، والتودُّد إلى الناس وعيادة مرضاهم، واتِّباع جنائزهم، وحقوق الناس، والإيمان بجميع الأنبياء والكتب لا ببعض دون بعض، كاليهود والنصارى، وهذا داخل فيما مرَّ. و«أَنْ يُّوصَلَ» بدل اشتمال من الهاء.

﴿**وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ**﴾ يخافونه وعذابه تعظيما له ﴿**وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ**﴾ داخل فيما مرَّ لكنَّه ذكره بعنوان يشير إلى «أن يحاسبوا أنفسهم قبل أن يحاسبوا».

﴿**وَالذِينَ صَبَرُواْ**﴾ على الطاعة وتجويدها في إخلاص فرضا ونفلا، وعلى المصائب، وعلى المعاصي، والنفل لا يلزم، [قلت:] لكن لَمَّا كان تارك السنن المؤكَّدة لا يتولَّى إن لم تسبق له الولاية أدرجتُ النفل في الآية ﴿**ابْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ**﴾ ذوي ابتغاء ثواب وجه ربِّهم، أو مبتغين لثوابه، أو لابتغائه، لا ابتغاء عرض الدنيا كالمال والشهرة بالصبر في ذلك، وكالرئاء وما هو من جانب الخلق وحذر أن لا تشمت به الأعداء.

﴿**وَأَقَامُواْ الصَّلَوٰةَ**﴾ المفروضة، وأمَّا غير المفروضة إن أتوا بها متهاونين فمن سوء الأخلاق، [قلت:] **وسوء الأخلاق يجرُّ إلى سائر الذنوب**، ويجوز تفسير الآية بالصلاة الواجبة وغير الواجبة، حملا للكلام على المدح لصفات الخير، ولو كان الإخلال بالنفل لا يدخل به النار.

[فقه] [قلت:] **ومن تضييع الصلاة** الجمع بين الصلاتين بلا ضرورة، فقد صلَّى الثانية قبل وقتها إذا جمع قبله، ولو كان في السفر إذا كان في قرية آمنا، وأجزتهم على قول اشتراك الأولى والثانية من أوَّل وقت الأولى إلى أواخر وقت الثانية، **وتقرَّر أنَّه من جمع بين صلاتين بلا عذر أجزتاه ولا ثواب له.**

وعطف قوله: ﴿يَخَافُونَ﴾ عَلَى: ﴿يَخْشَوْنَ﴾ عطف خاصٍّ على عامٍّ، وكذا عطف قوله: ﴿وَأَقَامُواْ الصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ﴾ على قوله: ﴿صَبَرُواْ﴾.

﴿مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ أي بعضه، وهو ما وجب من الزكاة والضيافة ونفقة الأهل الواجبة، وتنجية المضطرِّ، ويقال أيضا: لا بأس بإدراج النفل، لأنَّ المقام مقام مدح، وترك اللَّذة المباحة، ولو كان الإخلال بالنفل لا يدخل النار.

﴿سِـرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ بأيِّ حـال اتَّفَقَت لحرصهم على الطاعـة، لا يؤخِّرون الفرض إلى وقت العلانية، ولا النفل إلى وقت السرِّ ﴿سَارِعُواْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [سورة آل عمران: 133]، أو سرًّا في النفل وعلانية في الفرض، لأنَّ من شأن الفرض الإعلان، قال الحسن: المراد الزكاة المفروضة، فإن عرف بالمال أدَّاها جهرا وإلَّا فسرًّا، ولا مانع من ردِّ ﴿سِـرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ إلى الصلاة والإنفاق معا، ونصبهما علـى الظرفيَّة، أي وقت سـرٍّ ووقت علانية، أو حال أي ذوي سـرٍّ وذوي إعلان، أو مسرِّين ومعلنين.

﴿وَيَدْرَءُونَ﴾ يدفعون ﴿بِالْحَسَـنَةِ السَّـيِّئَةَ﴾ كالجهـل بالحلم، والأذى بالصبر، والحرمان بالعطاء، والجفاء بالأدب مع الجافي، وما يؤدِّي إلى سوء ترك، كما جاء: «من الجفاء الإقبال على من أعرض» أو يتبع السيِّئة بالحسنة، قـال ﷺ: «**إذا عملت سـيِّئة فاعمل بجنبها حسـنة تمحهـا**»[1]، أو يدفعون المعصية بالتوبة.

دخل شـقيق البلخي علـى عبد الله بـن المبـارك، أو بالعكـس ـ وهو المشـهور ـ متنكِّرا، فقال: «إذا منعوا صبروا وإذا أعطوا شـكروا» فقال شقيق: «هذه صفة كلابنا ببلخ» أو قال عبد الله: «هذه صفة كلابنا» فقال أحدهما للآخر:

(1) رواه **سعيد بن منصور** في سننه، ج 3، ص 64. ورواه **أبو نعيم** في الحلية، ج 4، ص 218 مع زيادة في آخره. من حديث أبي ذر. ورواه **أحمد** عن أبي ذر كذلك.

فكيف الأمر؟ فقال: «إذا منعوا شكروا وإن أعطوا آثروا» ويزاد على ذلك: أنَّهم يجزون الظالم بالمغفرة والمسيء بالإحسان، كما قيل:

يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة ومن إساءة أهل السوء إحسانا

﴿**أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ**﴾ العاقبة المحمودة في الدار الآخرة، والدارُ الآخرةُ: ما بعد الموت، شاملة للجنَّة والنار، والمحمودة منها الجنَّة وهي المراد هنا، أو ﴿الدار﴾: الدنيا وعقباها الجنَّة لأنَّها تجيء بعدها ونتيجة لها لمن اتَّخَذَها مطيَّة إلى الخير، وينتهي شأن الدنيا إلى الآخرة بجنَّة أو نار والمراد هنا الجنَّة.

﴿**جَنَّاتُ عَدْنٍ**﴾ والعدن: الإقامة، قيل: هي وسط الجنَّة، وهو بدل أو بيان من «عُقْبَى»، أو خبر لمحذوف، والوجوه هذه أولى من كونه مبتدأ مخبرا عنه بقوله: ﴿**يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنَ ـ ابَآئِهِمْ**﴾ وإن علوا، والديهم ووالداتهم، يجاورونهم في الجنَّة لإتمام السرور، و«مِنَ ـ ابَآئِهِمْ» حال من ضمير «صَلَحَ»، أو من «مَنْ»، و«مَنْ» معطوف على الواو للفصل بالمفعول. ﴿**وَأَزْوَاجِهِمْ**﴾ التي متن أو ماتوا في العصمة، هُنَّ فراش لهم في الجنَّة، [قلت:] والمرأة لآخر أزواجها على الصحيح، وجاء به الحديث، وقيل: تختار أحسنهم خلقا معها، وفيه أثر وارد، وقيل: لأوَّلهم.

﴿**وَذُرِّيَّاتِهِمْ**﴾ الذين لم يبلغوا من الذكور والإناث يكونون في درجاتهم، مع أنَّهم لم يعملوا عملهم، وكذا قيل في الآباء لإكمال السرور، وذلك من جملة الشفاعة، والأنثى غير البالغة تكون مع زوجها لا مع أبيها، ولا يخفى أنَّ الآية في الجَنَّة تجمع هؤلاء لاتِّصال بعض ببعض في أمر الدين، لا في الاستواء في الدرجات، إذ لا دليل في الآية على الاستواء، وإنَّما الصريح في الأولاد قوله تعالى: ﴿وَالذِينَ ءَامَنُواْ وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ اَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ [سورة الطور: 21].

﴿وَالْمَلَآئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾ من أبواب الجَنَّة، ومن أبواب القصور يهنِّئونهم، وبعد ذلك يدخلون عليهم في مقدار كلِّ يوم من أَيَّام الدنيا ثلاث مرَّات بالهدايا، والتحف من الله ﷻ بالسلام في ذلك الدخول كلِّه، كما قال تعالى: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ أي بصبركم، والباء سببي، أو عوض، متعلِّق بما تعلَّق به «عَلَيْكُمْ»، أو خبر لمحذوف، أي هذا الثواب بما صبرتم، أو المعنى: يدخلون عليهم من كلِّ نوع من الهدايا، أو بكلِّ نوع، سمِّيت الهدايا أبوابا مجازا، وفيه أنَّه لا قرينة، وقيل: من كلِّ باب من أبواب البرِّ كباب الصلاة وباب الزكاة وباب الصبر.

﴿فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ عقباكم أو هذه العقبى أو ذلك، هذا من جملة قول الملائكة، أي عقبى دار الآخرة وهي الجنَّة، أو عقبى دار الدنيا أي نتيجة عملكم فيها.

قال عبد الله بن سلام وعلي بن الحسين: «إذا كان يوم القيامة نادى مناد: ليقم أهل الصبر، فيقوم ناس ولا يقدر غيرهم على القيام، فيقال لهم: انطلقوا إلى الجنَّة، فتقول الملائكة: إلى أين؟ فيقولون: إلى الجنَّة، قالوا: قبل الحساب! قالوا: نعم، فيقولون: من أنتم؟ فيقولون: نحن أهل الصبر، قالوا: وما صبركم؟ قالوا: صبَّرنا أنفسنا على طاعة الله، وعن معاصي الله، وعلى بلاء الدنيا، فيقولون: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ...﴾ الآية»، وهو تبشير بالسلامة أو تَحِيَّة منهم أو من الله بواسطتهم.

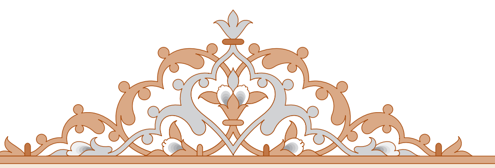
﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿25﴾﴾

صفات الأشقياء وجزاؤهم

﴿**وَالذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَاقِهِ**﴾ هما ما تقدَّم في قوله: ﴿الذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ [الآية: 20] في الأوجه السابقة، وزاد معنى آخر هنا في الميثاق وهو التأكيد، كأنَّه قيل من بعد تأكيده بالاعتراف والقبول، وهم فاعل الميثاق، أو من بعد تأكيد الله له بالدلائل العقلية والسمعية، ففاعله الله، أو الميثاق اسم آلة وهو ما يوثق به الشيء فعهد الله قوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ والميثاق قولهم: ﴿بَلَىٰ﴾ [سورة الأعراف: 172].

﴿**وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُّوصَلَ**﴾ هو ما مرَّ في قوله: ﴿وَالذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ ﴿**وَيُفْسِدُونَ**﴾ يعتادون عمل الفساد ﴿**فِي الَارْضِ**﴾ فلا مفعول له، أو يقدَّر يفسدون ما صلح وهو التوحيد وعبادة الله وعدم الجور، وذلك بالشرك والمعاصي فيما بينهم وبين الله، وفيما بينهم وبين الخلق، وفعل المعاصي من الإفساد، وكتهييج الفتن، وإفشاء أسرار المسلمين إلى الكُفَّار.

﴿**أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ**﴾ البعد عن الجنَّة وولاية الله ﴿**وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ**﴾: الآخرة، وسوؤها: جهنَّم، أو سوء الدار: الدنيا، أو سوء عاقبة الدنيا وهي جهنَّم، لأنَّه في مقابلة ﴿عُقْبَى الدَّارِ﴾ على أنَّ ﴿عُقْبَى الدَّارِ﴾: عقب دار الدنيا، أو ﴿الدَّار﴾: جهنَّم، وسوؤها: عذابها؛ واللام في الموضعين للاستحقاق، وقدِّم للحصر، وكلُّ واحدة من تلك الصفات على حدة توجب اللعنة وسوء الدار. وأخِّر سوء الدار للفاصلة.



﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿26﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿27﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿28﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿29﴾﴾

الرزق على الله والآيات بيد الله والهداية من الله

﴿**اللّٰهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ**﴾ قدّم المسند إليه تأكيدا بإسنادَيْن، لأنَّ في «يَبْسُطُ» ضميره لا للحصر، كما قال عبد القاهر الجرجاني، وتبعه عليه من لم يتأمل، والذوق لا يقبل أنَّ قولك: «زيد يقوم» للحصر.

وبسْط الرزق توسيعه، وذلك استئناف بياني، كأنَّه قيل: لو كانت لهم اللعنة وسوء الدار لم يبسط الله رزقهم؟! فأجاب بأنَّ بسطه لهم ليس لرضا الله بكفرهم، بل لحكمته أن يجازيهم في الدنيا على خير عملوه، أو أن يزدادوا عذابا بكفر النعم، وقد يضيّق على الكافر لينزجر، وقد يضيّق على المؤمن ليعظم ثوابه لا لإهانته، ويبسط له ليزيد شكرا، ولذلك علَّق البسط والتضييق بمشيئته لا بقيد كفر أو إيمان، بل إجمالا.

كما قال: ﴿اللّٰهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ **لِمَنْ يَّشَآءُ**﴾ البسطَ له من كافر ومؤمن ﴿**وَيَقْدِرُ**﴾ يضيّقه لمن يشاء منهما ﴿**وَفَرِحُوا**﴾ أي كُفَّار مَكَّة أو عُمُومًا فيدخلون بالأولى، ويبعد عطفه على «يَنقُضُونَ» أو «يُفْسِدُونَ» على أنَّ ما بينهما اعتراض، ووجه البعد أنَّ الفرح بالحياة الدنيا مثل ينقضون وما بعده

في أن يجاب به السؤال المقدَّر على الاستئناف البياني، فلو كان العطف على ذلك لأخَّر قوله: ﴿اللهُ يَبْسُطُ...﴾ إلخ ولم يعترض به، ويدلُّ على عدم العطف عليه أنَّ الثانية بصيغة الماضي، فإنَّه ولو جاز ذلك العطف لكن الأنسب التوافق في الماضويَّة أو المضارعيَّة. ﴿**بِالْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا**﴾ فرح بطر لا فرح سرور بفضل الله وقصد شكر عليه، وهذا تقبيح لحالهم، إذ ركنوا إلى الدنيا واستعملوا في المعصية ما أعطوه ليعبدوا الله عَزَّوَجَلَّ به، [قلت:] **والآية دليل على أنَّ الركون إلى الدنيا حرام**، وفي الآية حذف والأصل: «وفرحوا بنعم الحياة الدنيا» أو «بالحياة الدنيا في النعم».

﴿**وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا فِي الَاخِرَةِ**﴾ في جنب الحياة الآخرة، يتعلَّق بمحذوف حال من المبتدأ عند مجيز ذلك، وهو ضعيف، لأنَّ عامل المبتدأ الابتداء وهو لا يقيَّد بالحال إلَّا أن يعتبر النفي، والأولى أن يتعلَّق بنسبة الكلام كأنَّه قيل: محكوم عليها في جنب الآخرة ﴿**إِلَّا مَتَاعٌ**﴾ شيء قليل يتمتَّع به كما يستصحبه الراعي إلى رعيه من طعام، أو إلى أهله من لبن ضحى، أو يتعجَّل به للمسافر بلا احتفال، أو يعطاه وهو راكب، أو غَدَاء أو عشاء.

والتنكير للتحقير ولو ملكوا ما ملكوا، لأنَّه لا يكمل ويتكدَّر وينقطع أو ينقطعون، أو المعنى الدنيا مزرعة الآخرة. نام ﷺ على حصير فقام وقد أثَّر في جنبه، فقالوا: يا رسول الله لو اتَّخذنا لك مهادا، فقال: «**مالي وللدنيا؟ ما أنا في الدنيا إلَّا كراكب استظلَّ تحت شجرة ثمَّ راح وتركها**»[1].

﴿**وَيَقُولُ الذِينَ كَفَرُواْ**﴾ أهل مَكَّة ﴿**لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِ**﴾ تستعظمها العقول ويحسُّونها، وتكون معهم في الأرض كعصا موسى واليد والناقة ﴿**قُلِ اِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَّشَآءُ**﴾ من الكُفَّار باختيارهم فلا تغني عنهم

(1) رواه **الترمذي** في كتاب الزهد (44) رقم 2377. و**المنذري** في الترغيب في الفقر، ج4، ص198، رقم 118. من حديث علقمة عن عبد الله.

الآيات شيئا، ولو كنَّ ما كنَّ لبلوغهم غاية العناد والمكابرة، فلا سبيل لهدايتهم، وكأنَّه أنزلت الآية تعجيبا منهم، فإنَّ ما نزل عليهم من الآيات غير قليل ولا حقير، وَمِمَّا يستعظم انشقاق القمر ﴿**وَيَهْدِي إِلَيْهِ**﴾ إلى دينه ﴿**مَنَ انَابَ**﴾ رجع إليه بالتوبة، أي يزيده هدى، أو يديمه على الهدى أو يهدي إليه من أراد الله إنابته.

﴿**الذِينَ ءَامَنُواْ**﴾ بدل مطابق لِـ«مَنْ»، أو بيان، أو هم الذين، أو أمدح، أو أعني الذين، أو مبتدأ خبره «الذِينَ»، أو خبره «طُوبَى لَهُمْ» و«الذِينَ» بدله. ﴿**وَتَطْمَئِنُّ**﴾ تثق وتسكن ﴿**قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللهِ**﴾ استئناسا به وبوعده ورجائه، أو بذكر وعده بعد القلق من وعيده، أو بذكر دلائل وجود وحدانيَّته.

أو الذكر: القرآن، فيكون تعريضا بأنَّ الكفار لم يعبؤوا به، وطلبوا معجزة غيره، **مع أنَّه المعجزة التي يسكن إليها [القلب] ولا يبقى معها ريب** ﴿إِنَّمَا الْمُومِنُونَ الذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ...﴾ الآيَة [سورة الأنفال: 2]، ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وقُلُوبُهُم﴾ [سورة الزمر: 23]. والمضارع للاستمرار، فإنَّ اطمئنانهم يتجدَّد بحسب التذكُّر ونزول الآيات ﴿**أَلَا بِذِكْرِ اللهِ**﴾ لا بغيره من أمور الدنيا، وإن أريد بالذكر القرآن فالحصر بالنسبة إلى من لم يشاهد سائر المعجزات لأنَّه معجزة باقية ﴿**تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾ قلوب المتَّعظين.

﴿**الذِينَ ءَامَنُواْ**﴾ مبتدأ خبره الجملة بعده ﴿**وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ**﴾ ومن الصالحات ترك المعاصي ﴿**طُوبَىٰ لَهُمْ**﴾ الكلمة الطيِّبة، وإنَّما طابق في التأنيث مع أنَّه نكرة لخروجه عن التفضيل في الطيب، كما تقول: جملة كبرى وجملة صغرى وفاصلة صغرى وفاصلة كبرى، وقضيَّة كبرى وقضيَّة صغرى.

[صرف] قلبت ياؤه واوا لانضمام ما قبلها، وصحَّ الابتداء به لأنَّه نعت لمحذوف كما رأيت، أو هو مصدر كبشرى ورجعى وزلفى، قلبت ياؤه كذلك.

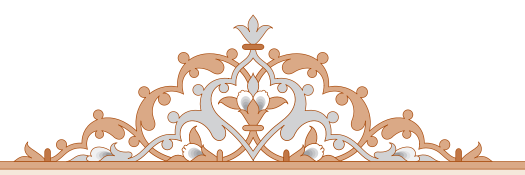
وصحَّ الابتداء به للتعظيم، أو للدعاء، أي قولوا: طوبى لهم بالدعاء.

قيل: أو عَلَم للجنَّة بلغة الحبشــة، أو الهند، أو لشــجرة في الجنَّة في دار النبيء ﷺ فــي كلِّ دار وبيت وغرفة غصــن متدلٍّ تنفتق أكمامــه عن الثياب والفرس الملجمة وعمَّا يراد من الإبــل كحقَّة وجذعة، فيه كلُّ طعم ولون غير الســواد، ورقتها تظل الأمَّة في أصلها عين الكافور، وعين السلســبيل، يسير الراكب في ظلِّها مائة عام لا يقطعها، أو لا يدور بهــا، وثمرتها كقلَّة هجر[1]، وعلى المصدريَّة يجوز كونه مفعولا مطلقا كقوله: سقيًا لك وسلامًا لك.

﴿وَحُسْــنُ مَآبٍ﴾ حســن مرجع، وقرئ بالنصب فيكون دليــلا على أنَّ «طُوبَى» مفعول مطلــق، فـ«الذِينَ» بدل مــن «القُلُوبُ» علــى تقدير تطمئنُّ أصحاب القلوب الذين، أو تطمئنُّ القلوب قلــوب الذين. والآية تعريض بأنَّه طوبى وحسن المئاب للمؤمنين، لا لليهود والنصارى المدَّعين لهما.

---

(1) يشــير الشــيخ بهذا إلى ما ورد في الأثر من أحاديث أنَّ المراد بالطوبى الموعود بها لأهل الجنَّة. راجع ابن كثير في تفسير الآية.



﴿ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَاْ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿30﴾ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿31﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿32﴾ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسِۭ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿33﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْأٓخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿34﴾ ﴾

بيان أهمّية القرآن ووعيد المكذّبين

﴿**كَذَٰلِكَ**﴾ مثل إرسال الرسل قبلك المدلول عليهم بقوله: ﴿ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ وبقوله: ﴿فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ﴾ وهو مفعول مطلق لقوله: ﴿**أَرْسَلْنَٰكَ**﴾، أو المعنى: كما هدى الله من أناب أرسلناك، أو كما جرت العادة بالإضلال والهداية أرسلناك، أو يقدَّر: الأمر كذلك. ﴿**فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ**﴾ برسلهم، فليست رسالتك ببدع، فكيف يقولون: البشر لا يكون نبيئا؟ ﴿**لِّتَتْلُوَاْ عَلَيْهِمُ الذِي أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ**﴾ وهو القرآن.

﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ بالله الذي نِعَمُ الدنيا والآخرة صغيرها وكبيرها في ملكه، ولا سيما أنَّ منها القرآن وكفروا به ولم يشكروها، قيل: أو باسم الرحمن أنكروا أن يكون لله، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُواْ للرَّحمَّنِ قَالُواْ وَمَا الرَّحْمَنُ...﴾ [سورة الفرقان: 60].

[سبب النزول] سبب نزولها قول أبي جهل لَمَّا سمع قوله ﷺ: «يا الله يا رحمن» قال: «محمَّد ينهانا عن عبادة الآلهة وهو يدعو إلهين» ونزلت الآية لذلك، وخصوص السبب لا ينافي عموم الحكم.

[أصول الدين] والكفر باسمه تعالى أو صفته أو فعله كفر به، والمتبادر أنَّ المراد بالرحمن الذات الواجب لا الاسم، فالمراد كفر نعمه.

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمَّد ﴿هُوَ﴾ أي الرحمن الذي أنكرتم ذاته بإنكار صفاته أو اسمه، أو أنكرتم معرفته إذ قلتم وما الرحمن؟ ﴿رَبِّي﴾ مالكي ﴿لَآ إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في نصري وكلِّ ما أريد ﴿وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ مرجعي بالموت والبعث، ومرجعكم بهما، وذكر متابه فقط لأنَّهم مثله كما في قوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [سورة يس: 22].

[سبب النزول] وطلب كُفَّار مكَّة أن يزيل رسول الله ﷺ جبالها لتتَّسع للحرث والغرس والبناء، وأن يقطع الأرض بتفجيرها عيونا وإظهار معادنها، أو بتخشيعها بتلاوة ما تتلوه عليها، وبأن تكلِّم به الموتى بعد إحيائها قصيًّا وغيره من آبائهم، فيتكلَّموا به مطلقا، أو يتكلَّموا به ويصدِّقوك فنؤمن، فنزل قوله تعالى:

﴿وَلَوَ اَنَّ قُرْءَانًا﴾ بعضا من القرآن كحرف أو كلمة، أو جملة أو آية أو سورة أو أكثر، وذلك أنَّ بعض القرآن قرآن، فكيف يؤمنون إن لم تسيَّر ولم تقطَّع أو لم تكلِّم الموتى؟ أو فعلت ذلك بالقرآن كلِّه، أو المراد

القرآن فنكِّـــر للتعظيم، أو المراد شـــيئا يقرأ كائنـــا ما كان. ﴿**سُـــيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ**﴾ عن مقارِّها، فلســـت بأهـــون على ربِّك من داود وقد ســـخَّر له الجبال تســـير معه وكذَّبوا، وإنَّما سخَّرها تســـبِّح معه، ولو قالوا أَلَانَهَا له لصدقوا في إلَانتها، وكما نقل الطور لموســـى عن محلِّـــه فيما قيل، وكما سخَّر الريح والجبال لسليمان. ﴿**أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الاَرْضُ**﴾ لمصالحهم جعلت قطعا للأنهار والحرث والغرس، كما قطِّعت لموســـى عيونـــا ﴿**أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ**﴾ كإحياء جدِّهم قصي، فإنَّ عيســـى يحيي الموتى، ولســـت أهون على ربِّك منه.

[سبب النزول] ويـــروى أنَّ جماعـــة مـــن المشـــركين، منهـــم أبو جهل وعبد الله بن أميَّة، أرسلوا إلى النبيء ﷺ، فأتاهم أو مرَّ بهم، فقال عبد الله بن أميَّة: إن سرَّك أن نؤمن بك فافعل ذلك، وزيد: سخِّر الريح تجر بنا إلى الشام لتجرنا وميرتنا، ونرجع في يومنا كسليمان، ولست أهون منه عند ربِّك.

وجواب «لَوْ» محذوف تقديره بعـــد «الْمَوْتَى» **لَمَا آمنوا** أو لم يؤمنوا، كما قال: ﴿وَلَوَ اَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ المَلآئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَـــرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قِبَلاً مَّا كَانُواْ لِيُومِنُواْ...﴾ [ســـورة الأنعام: 111] والقرآن يفسِّر بعضه بعضا، بخلاف تفسير التقطيع بالســـير إلى الشام على الريح فإنَّه لا دليل عليه، ولا يتبادر، وسير ســـليمان على الريح يكون فوق الجبال وغيرها. أو دليل الجواب قوله: ﴿وَهُمْ يَكْفُـــرُونَ بالرَّحْمَنِ﴾ وما بينهما معترض، وكأنَّه قيل: «أو كلِّم به الموتى لكفروا بالرحمن»، وعذابُ شديدِ الرحمةِ أشدُّ عذاب، كما يقال: نعوذ بالله من غضب الحليم، ويقال: نعوذ بالله من غضب الرحيم.

أو يقدَّر: لو أنَّ شـــيْئا ما مِمَّا يقرأ ســـيِّرت به الجبـــال، أو قطِّعت به الأرض أو كلِّمَ بـــه الموتى لكان هو هذا القرآن، لأنَّـــه في غاية الإعجاز

والتأثيـــر، لكن لا أثر لشـــيء إلّا بـــإذن الله ﷻ. و«أَوْ» لمنـــع الخلو لا الجمع، وقيل: بمعنى الواو لأنَّهم طلبوا ذلك كلَّــه لا بعضه، والواو في قوله: ﴿وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ﴾، ﴿وَحَشَــرْنَا عَلَيْهِــمْ﴾ ولو قيل: «أو كلِّمت به الموتى» بتأويل الجماعة كما قال: ﴿سُــيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾ بتأويلها لصحَّ، لكن أسقط التاء لأنَّهم طلبوا أجدادا ذكورا عقلاء، فناسب اختيار إسقاطها لا لمجــرَّد تغليب الذكور فــي الموتى إذ لا أنثى فــي مطلوبهم، وأيضا الجبال ذكور بلا تغليب، قرنت بالتاء وعدم العقل يعادل خلطة الإناث لو كنَّ فلا تهم.

[سبب النزول] ويــروى أنَّــه لَمَّا نــزل: ﴿وَأَنــذِرْ عَشِــيرَتَكَ الْاَقْرَبِينَ﴾ [سورة الشــعراء: 214] صاح على أبي قبيــس: «**يا آل عبد مناف إنِّــي لكم نذير**»، فقالوا: ســخَّر الله تعالى الجبال والريح لســليمان، والبحر لموسى، والموتى لعيسى، فادع الله تعالى أن يســيِّر عنَّا هذه الجبال أربعة أَيَّام أو خمسة، ويفجِّر لنا أنهــارا للحــرث، وتحملنا الريــح إلى اليمن أو الشــام أو الحيــرة ذهابا ورجوعا، وإلَّا فادع الله تعالى أن تكلِّمنا موتانا، أو يجعل الصخرة تحتك ذهبا تغنينا عن رحلة الشتاء والصيف فنزلت الآية.

﴿**بَل لله الَامْرُ جَمِيعًا**﴾ لا يخرج شــيء عن قدرته، فلو شــاء لكان التسيير والتقطيع والتكليم بلا قرآن، ولو شاء لفعل ذلك به، وقد شاء أن لا يؤمنــوا فلا يؤمنوا، هــذا وجه اتِّصَــال «بَلْ» بما قبلهــا، أو لم يفعل بالقرآن ذلك بل لله الأمر، فالإضراب متعلِّق بأنَّه لم يفعل بالقرآن ذلك، ويجوز اتِّصَالهــا بما دلَّت عليه «لَوْ» من الانتفــاء، ويجوز كونها لمجرَّد انتقال كلام لآخر.

وقوله ﴿بَل للهِ الَامْرُ جَمِيعًا﴾ قائم مقام أنَّه قادر على ذلك، وأنَّه لم يفعله لأنَّهم لا يؤمنون ويناسبه قوله تعالى:

﴿أَفَلَمْ يَاْيْئَسِ الذِيــنَ ءَامَنُواْ﴾ ألم يقنطوا من إيمــان هؤلاء الكفرة مع ما رأوه من عنادهم؟ [قلــت:] **والمحرَّم الإيَّاس من الله لا مــن المخلوق**، أو ألم يعلموا؟ كما قال سحيم:

أقول لهم بالشعب إذ يأسرونني ألم تيأسوا أني ابن فارس زهدم

وقال رباح بن عدي:

ألم ييأس الأقوام أنِّـــي أنا ابنه وإن كنت عن أرض العشيرة نائيا

والهمزة مِمَّا بعــد الفاء، أو يقــدَّر: أغفلوا؟ أو أطمعوا فلــم ييأس الذين آمنوا؟ وواو «غفلوا» للذين آمنوا على التنازع.

قيل: قال بعض الصحابة للنبيء ﷺ: ادع الله فيفعل لك ما طلبوه ليؤمنوا، فنزلت الآيــة: ﴿أَن لَّوْ يَشَــآءُ اللهُ لَهَدَى النَّــاسَ جَمِيعًا﴾ إلــى الإيمان تعليل للاســتفهام الإنكاري، وقد أجاز قوم التعلُّق بأحرف المعاني كأنَّه قيل: بطلت غفلتكم، وعدم إيَّاســكم، لأنَّه ﴿لَّوْ يَشَــآءُ اللهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ ولكن لم يشأ إيمان هؤلاء، أو يقدَّر: «علما منهم بأَن لَّوْ يَشَآءُ...» أو «عالمين بأَن لَّوْ...» أو يقدَّر: «بأَن لَّوْ...» فيعلَّق بـ«ءَامَنُوا».

[لغة] أو ﴿يَيْأَس﴾ بمعنى يعلم على لغة هوازن أو قوم من النخع أو لغة النخع. أو يســتعمل اليأس في معنى العلم لأنَّ الآيس من الشيء عالم بأنَّه لا يكون، كالرجــاء بمعنى الخوف، والنســيان بمعنى الترك، وذلــك أنَّ اليأس مســبَّب عن علمهم بأنَّ إيمانهم المأيوس منه لا يكون إلَّا معلوما، وأمَّا تفسير اليأس بمعنى التبيُّن فنظر إلى حاصل المعنى لا الصناعة، لأنَّه لم يقل «للذين» بلام الجرِّ.

﴿وَلَا يَزَالُ الذِينَ كَفَــرُواْ﴾ من أهل مكَّــة ﴿تُصِيبُهُم بِمَــا صَنَعُواْ﴾ بما صنعوه من الشــرك والمعاصي وجورهم أو بصنعهم، والباء سببيَّة ﴿قَارِعَةٌ﴾

فعلة من الله ضاربة لهم، كقتل وأسر، وحرب وجدب وغارة على مواشيهم، أو يقدَّر: داهية قارعة، لكن داهية يحتاج أيضا إلى تقدير موصوف مؤنَّث أيضا بحسب الأصل، أو يقدَّر: عذاب قارعة، على أنَّ التاء للمبالغة.

﴿**اَوْ تَحُلُّ**﴾ تلك القارعة أو أنت يا محمَّد ﴿**قَرِيبًا مِّن دارِهِمْ**﴾ مَكَّة كما حللت قريبا من مَكَّة عام الحديبيَّة، ويبحث بأنَّه لا دليل على تخصيص كُفَّار مكَّة، وبأنَّ حلوله يوم الحديبيَّة لا يمتدُّ إلى إتيان وعد الله، إلَّا أن يقال حتَّى غاية إصابة القارعة، وبأنَّ حلوله فيها للعمرة لا للقتال وصدوره إلى قابل ﴿**حَتَّىٰ يَاتِيَ وَعْدُ اللهِ**﴾ موعوده من النصر لك عليهم بالفتح، أو موتهم بلا قتل، فمنهم من مات بالقتل كما مرَّ، ومنهم من مات ذليلا حزينا كأبي لهب، ولا يصحُّ التفسير بيوم القيامة لأنَّ الأمر انفصل بفتح مَكَّة إلَّا على معنى: لم لا تخافون ذلك؟.

﴿**إِنَّ اللهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ**﴾ الوعد ولا الوعيد، لأنَّه لا يكذب ولا تبدو له البدوات، وقد أنجز الله ﷻ وعده، وسلَّى الله رسوله ﷺ بقوله: ﴿**وَلَقَدُ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ**﴾ عظام كثيرين ﴿**مِّن قَبْلِكَ**﴾ وهدَّد قومه بما فعل بأمم الرسل قبله في قوله:

﴿**فَأَمْلَيْتُ**﴾ أمهلت مَلَاوَةً من الزمان، أي مدَّة في تمتُّع كالبهيمة في المرعى مدَّة ﴿**لِلذِينَ كَفَرُواْ**﴾ من أممهم، دلَّ هذا على أنَّ فاعل الاستهزاء هو الذين كفروا، إذ لا يستهزئ أحد ويجازى غيره على استهزائه ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [سورة الأنعام: 164] والآمر بالشيء كفاعله فقد يهلك الآمر دون المأمور الفاعل بأن تاب من فعله ﴿**ثُمَّ أَخَذتُّهُمْ**﴾ عن حياتهم وملاذِّهم ومصالحهم وأملاكهم بالإهلاك.

﴿**فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ**﴾ عقابي لهم، استفهام تعجيب وتعظيم أي هو واقع موقعه من الشدَّة والعدل، والبعث به في حال خلوٍّ بالهم منه، وحال الفرح ورجاء الخير، وذلك أشدُّ، وكذلك أفعل بالمستهزئين منك يا محمَّد، فالآية تسلية له ﷺ .

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ﴾ رقيب، أي أيســاوي العاجز القادر بمن هو قائم؟ ﴿عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍم بِمَا كَسَبَتْ﴾ من خير أو شرّ لا يخفى عنه شيء، ولا يفوته جزاؤها، ومن ذلك عقاب المســتهزئين، ولا تَعَــرُّضَ في الآية للــرزق والحفظ، إلَّا إن جعلنا الباء بمعنى مع، فيكون المعنى: أفمن هو قائــم على كلِّ نفس بإيجادها وإبقائها وحفظها ورزقها وأحوالها مع ما كسبت بثواب أو عقاب عليه؟ والخبر محذوف تقديره: «كمن ليس كذلك»، بل هو عاجز عن نفسه فكيف عن غيره؟ وهو الأصنام، أو تقديره: أفمن هو قائم على كلِّ نفس بما كسبت لم يوحِّدوه؟.

وعليه فالعطف في قوله: ﴿وَجَعَلُواْ لِلهِ شُــرَكَآءَ﴾ على قوله: «لم يوحِّدوه» المخبر به، فيكون لفظ الجلالة إظهارا بعــد الإضمار بهاء «لم يوحِّدوه»، ولا بأس به ولا سيما مع الحذف كما هنا، ولا ســيما أنَّ الظاهر مستكمل لجميع الصفات الحســنى، وأنَّ فيه تربية المهابة وإدخال الروع في قلوب المشركين، وكذا في غير هذا الوجه وهو أن يقــدَّر الخبر: كمن ليس كذلك، والعطف في غيره عطف قصَّة على أخرى، أو على «مَا كَسَــبَتْ» إن جعلت «مَا» مصدريَّة، ولا يمنع من هذا العطف أنَّ النفــس عام، و«جَعَلُواْ...» خاصٌّ بالمشــركين، وأجاز بعضهم العطف على ﴿اسْتُهْزِئَ بِرُسُــلٍ...﴾ والمراد: جعلوا لله شركاء في الأُلُوهِيَّة والعبادة.

﴿قُلْ﴾ يا محمَّــد لهم تنبيها على أنَّ شــركاءهم لا يســتحقُّون الأُلُوهِيَّة والعبادة ﴿سَــمُّوهُمُ﴾ عبَّر عنهــا بضمير العقــلاء لأنَّها عندهــم كالعقلاء، والمعنى: اذكروهم بأســمائهم الدَّالَّة على الوصف بصفــة الخالق فيفتضحوا عند ذلك، إذ لا يقدرون أن يسمُّوها الله، ولا أن يقولوا: خالقة رازقة، أو قديمة أو قائمة أبدا، لظهور أنَّها ليســت كذلك، أو اذكروا أســماءهم فيظهر أنَّها لا تستحقُّ الأُلُوهِيَّة أو لا يســتحقُّون اسما لحقارتهم، وإن شــئتم فسمُّوهم، أو المراد الأمر بتسميتهم آلهة تهديدا.

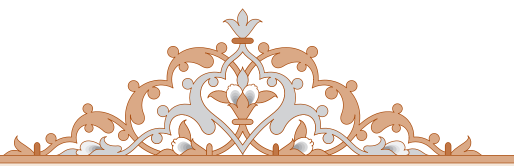
﴿**أَمْ تُنَبِّئُونَهُ**﴾ بل أتخبرونه، أو أتخبرونه ﴿**بِمَـا لَا يَعْلَمُ فِي الَارْضِ**﴾ من الشـركاء المسـتحقِّين للعبادة، أو من صفاتهم الموجبة لها، ذكر الأرض دون السماء لأنَّهم وأصنامهم فيها، أو يقدَّر: وفي السماء، أو لأنَّهم يزعمون أنَّه حلَّ في السماء فلا يغيب عنه ما فيها، بل يغيب ما في الأرض، حاشاه لا يخفى عنه شيء، فإذا لم يعلم شريكا له في عبادة أو صفة، فلا شريك إذ لو كان لَعَلِمَهُ.

﴿**أَم بِظَاهِـرٍ مِّنَ الْقَوْلِ**﴾ بـل أتخبرونه بظاهر من القول، من تسـمية إله ومعبود وربٍّ لأصنامهم بدون تحقُّق معنى ذلك لها، كتسـمية الزنجي كافورا أو أبيض يقَقٌ، ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَا﴾ [سورة النجم: 23] وينبغي أن يقدَّر «أم» الأوَّل بالهمزة وحدها، والثاني بها مع بل. والاستفهام إنكار، والإضراب في ذلك كلِّه انتقال كلام إلى آخر.

﴿**بَلْ زُيِّنَ لِلذِينَ كَفَـرُواْ مَكْرُهُمْ**﴾ إضراب عن محاجَّتهم، كأنَّه قيل: اترك محاجَّتهم فإنَّهـا لا تؤثِّر فيهـم، وقد زيَّن الله فـي قلوبهم المكـر أي الكفر ﴿**وَصَـدُّواْ**﴾ أعرضوا أو منعوا الناس ﴿**عَنِ السَّـبِيلِ**﴾ سـبيل الله ﷻ، و«ال» للعهد الذهني والحضوري.

﴿**وَمَنْ يُّضْلِلِ اللهُ**﴾ عن السـبيل ﴿**فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ**﴾ إليـه ﴿**لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾ بالإهانة والذلِّ والقتل والسـبي والأسـر، وغير ذلك لكفرهم، وما أصاب المؤمنين من المضارِّ فلتوفير الأجر وتكفير الذنوب.

﴿**وَلَعَذَابُ الَاخِرَةِ أَشَقُّ**﴾ أشـدُّ وأدوم ﴿**وَمَا لَهُم مِّنَ اللهِ**﴾ من عذاب الله، و«مِنْ» للابتداء متعلِّق بـ«وَاقٍ»، وقـدِّم للفاصلة، والتي في قوله: ﴿**مِنْ وَّاقٍ**﴾ صلة، أو لا واقي من رحمة له لهم، أي لا يتفضَّل الله عليهم من رحمته بشيء يقيهم من العذاب، فـ«مِنْ» يتعلَّق بمحذوف حال من «وَاقٍ».



﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿35﴾ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿36﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿37﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿38﴾ يَمْحُوا ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿39﴾﴾

صفة الجنَّة وموقف أهل الكتاب والمشركين من نبوءة النبيء ﷺ

[نحو] ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ﴾ صفتها، والخبر محذوف أي «فيما يتلى عليكم»، أو «مِمَّا يتلى عليكم مَثَلُ الجنَّة» كما قدَّر سيبويه وغيره: «مِمَّا يتلى عليكم حكم ﴿السَّارِقُ والسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا﴾» [سورة المائدة: 38] «مِمَّا يتلى عليكم حكم ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُواْ كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جِلْدَةٍ﴾ [سورة النور: 2] أو الخبر قوله: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الاَنْهَارُ...﴾ وقوله: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ﴾ خبر ثان، والرابط إعادة المبتدأ بمعناه.

[لغة] والمَثَل بالفتح والمِثْل بالكسر فالإسكان سواء، كالشَّبَه والشِّبْه بذلك الضبط وزنا ومعنى، ولكن كثر استعمال المَثَل بالفتح في الكلام السائر المشبه مضربه بمورده، ولا يضرب إلَّا لِمَا فيه غرابة، ثمَّ استعير لكلِّ ما فيه غرابة تشبيها بالمثل السائر في الغرابة.

وإن قـدِّر الخبر مفـردا والجملة «تَجْـرِي» نعته لم يكن تشـبيها بالمثل السـائر، بل مطلق المماثل، هكذا مثل الجنَّـة. ﴿**التِي وُعِـدَ الْمُتَّقُونَ**﴾ جنَّة ﴿**تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الاَنْهَارُ**﴾ فيكون الخبر مفردا، والمثل وصف بمعنى مشابه ومماثل لا بمعنى صفة، والمراد: وُعِدَ الْمُتَّقُونَ عَلَى اتِّقَائهم، لأنَّ الوصف يدلُّ على العلَّة، والمفعول الثاني محذوف أي وُعِدَهـا بالبناء للمفعول، والمعنى: تنبع من تحتها أو من موضع آخر لكن بالنسبة إلى ما بعدها تكون كالمبدأ.

﴿**أُكْلُهَا**﴾ ثمرها الذي يؤكل ﴿**دَآئِـمٌ**﴾ لا ينقطع ذاته كما تنقطع أكثر ثمار الدنيا بمضيِّ فصولها وأوقاتها، ولا ينقطع وصفها بالقدم أو بالفساد وبالقسوة، كثمار الدنيا تتغيَّر بالبقاء، بل هي أبدا طريَّة جديدة بعد دخولها، فلا يقدح في ذلك فناؤها قبل دخولها، فعلى قول فنائها يجدِّدها الله فيدخلونها[1]، وما أكلوا فيها يفنى ويجدَّد مثله ﴿**وَظِلُّهَا**﴾ كذلـك أو دائم، واختير الأوَّل لعدم التكرير معه، ولا بأس بالثاني لأنَّه غير مذكور، والمراد بدوامه أنَّه لا ينسـخ بالشمس كظلِّ الدنيا إذ لا شمس فيها.

﴿**تِلْكَ**﴾ أي الجنَّة المذكورة ﴿**عُقْبَـى الذِينَ اتَّقَواْ**﴾ عاقبتهم بعد الدنيا أو ثمرة أعمالهم فيها، وعلَّتها اتِّقاؤهم الشرك والمعاصي.

﴿**وَّعُقْبَى الْكَافِرِيـنَ النَّارُ**﴾ عاقبتهم بعد الدنيـا، أو ثمرة معاصيهم فيها، وعلَّتها الشرك والمعاصي المعبَّر عنهما بالكفر، وهذا إقناط لِلْكُفَّارِ من الجنَّة، ووعد بالنار لا يتخلَّف.

﴿**وَالذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ**﴾ التوراة والإنجيل والزبور، اليهود والنصارى والصابون ﴿**يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنـزِلَ إِلَيْكَ**﴾ ولو لم يؤمنوا بـه لموافقتهم التوراة والإنجيل والزبور في التوحيد ومكارم الخلاق، وما لم ينسخ، ويستنصرون به

---

(1) أي على قول وجود الجنَّة الآن في الدنيا، وفنائها عند قيام الساعة يجدِّدها الله فيدخلونها.

على عبدة الأوثان. أو المراد من آمن من اليهود كعبد الله بن سلام وأصحابه، وقد ذكرت منهم جماعة في شرح نونيَّة المديح[1]، ومن آمن من النصارى وهم أربعون بنجران، وثمانية باليمن، واثنان وثلاثون بالحبشة.

﴿وَمِنَ الَاحْزَابِ مَن يُّنكِرُ بَعْضَهُ﴾ وهم الذين تحزَّبوا عن رسول الله ﷺ بالعناد والشقاق، والمعاداة من المشركين واليهود، والبعض هو ما خالف التوراة وما وافق ما حرَّفوه أو محوه، كذكر الرحمن وما عدا القصص، وقالوا: ما نعرف الرحمن إلَّا رحمان اليمامة مسيلمة، وعلى هذا فقد أطلق البعض على الأكثر.

والمسلمون من أهل الكتاب يؤمنون بالقرآن كلِّه، ويفرحون به كلِّه، إذا وافق ما لم ينسخ، ورضوا بنسخ ما نسخ، وغيرهم فرح ورضي بما لم يخالف كتابهم.

أو المراد بالذين آتيناهم الكتاب المسلمون من الأمَّة ومنكر بعضه هم مشركو مكَّة مثلا، قيل: كان ذكر الرحمن قليلا في القرآن فساء ذلك عبد الله بن سلام وأصحابه لكثرة ذكره في التوراة، وَلَمَّا كثر نزوله في القرآن فرحوا، فنزل: ﴿وَالذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ...﴾.

وقيل: من الأحزاب من أحزاب اليهود والنصارى وهم كفرتهم، ككعب بن الأشرف وأصحابه، والسيِّد والعاقب مِمَّن ينكر بعضه ما لا يوافق كتبهم، ولم ينكروا ما وافق كتبهم، لكن لم يفرحوا به.

وعن ابن عَبَّاس: الأحزاب كفرة اليهود والكتاب التوراة، وقيل: الأحزاب أحزاب الجَاهِلِيَّة من العرب. وقال مقاتل: الأحزاب بنو أمية وبنو المغيرة وآل أبي طلحة. وقيل: المراد بـ«مَنَ» عَامَّة أهل الكتاب، والبعض ما لم يوافق ما حرَّفوه، والمعنى: منهم من يفرح بما وافق ومنهم من ينكره لشدَّة عناده.

---

(1) تقدَّم التعريف بهذا الكتاب، انظر: ج 1، ص 298.

﴿**قُلْ**﴾ لقومك يــا محمَّد ﴿**إِنَّمَآ أُمِـرْتُ**﴾ فيما أوحي إلــيَّ من القرآن وغيره ﴿**أَنَ اَعْبُدَ اللَّهَ**﴾ بأن أعبد الله ﴿**وَلَآ أُشْـرِكَ بِهِ**﴾ شيئا في العبادة، ولا في الفعل ولا في الصفة ولا في القول، أو قل لأهل الكتاب: إنَّما أمرت أن اعبد الله ولا أشــرك به لا محيد عن ذلك، وأمَّا اختلاف الشرائع فذلك سنَّة الله فــي أنبيائــه وكتبه ﴿قُــلْ يَــآ أَهْــلَ الْكِتَــابِ تَعَالَــوْاْ اِلَىٰ كَلِمَــةٍ...﴾ [سورة آل عمران: 64].

﴿**إِلَيْهِ**﴾ إلى الله أي إلى الإيمان به لا إلى غيــره، كما أدعو إلى عبادته لا إلى عبادة غيره، ﴿**أَدْعُواْ وَإِلَيْهِ مَئَابِ**﴾ مرجعي بالبعث للجزاء.

﴿**وَكَذَٰلِكَ**﴾ كإنزال الكتب الســابقة على الأنبياء قبلــك بلغاتهم ولغات قومهم، كما يدلُّ عليه: ﴿الذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَــابَ﴾ أو مثل إنزال القرآن على هذا الأسلوب العجيب ﴿**أَنزَلْنَاهُ**﴾ أي القرآن ﴿**حُكْمًا**﴾ حال ﴿**عَرَبِيًّا**﴾ بلغتك ولغة قومك، تحكم به بين الناس كلِّهم العــرب والعجم، و﴿حُكْمًا﴾ بمعنى حاكم على الإسناد المجازي، أو مبالغة كأنَّه نفس الحكم بالمعنى المصدري.

﴿**وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم**﴾ قول أهل مَكَّة: اترك عبادة الله ســنة إلى عبادة آلهتنا، ونترك عبادة آلهتنا إلى عبادة الله ســنة، وَلَمَّا أبى قالوا: امســح على آلهتنا فأبى، وقــولَ اليهود: ارجع عــن قبلتك الكعبة إلــى قبلتنا التي كنت عليها، وهي بيت المقــدس أو صخرته، فإنَّه صلَّى إلــى بيت المقدس بعد الهجرة نحو سِتَّة عشر شهرا، ثمَّ استقبل الكعبة بأمر الله ﷻ، في رجب بعد الزوال قبل بدر بشهرين.

﴿**بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ الْعِلْمِ**﴾ بالتوحيد واســتقبال الكعبة ﴿**مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَّلِيٍّ**﴾ يدفع عنك العذاب بعد ما جــاءك ﴿**وَلَا وَاقٍ**﴾ يمنع عنك العذاب قبل مجيئه، أو بالعكس ما لك حافظ من عــذاب الله، أو ما لك من رحمة الله واق من العذاب، وذلك حسم لأطماع المشــركين واليهود من متابعتهم في شيء

مِمَّا خالف الوحي والقرآن، وتهييج للمؤمنين علــى الثبات على دينهم، لأنَّ الخطاب ولو كان لــه ﷺ لكنَّه تعريض بغيره، لبعــد أن ينهى مثله في صلابة دينه عَمَّا يبعد عن أدنى مسلم، حتَّى قيل: إنَّ الخطاب لمن يصلح له لا له ﷺ، ولو كان له في قوله تعالى:

﴿**وَلَقَدَ اَرْسَلْنَا رُسُــلاً**﴾ كثيرين عظاما ﴿**مِّن قَبْلِكَ**﴾ بشرا يتزوَّجون ويولد لهم ويتســرّون، مثل رســالتك وتزوُّجك وتســرِّيك، والولادة لك كما قال: ﴿**وَجَعَلْنَــا لَهُــمُۥٓ أَزْوَاجًــا وَذُرِّيَّةً**﴾ كما لســليمان ثلاثمائة امــرأة بمهورهنَّ، وسبعمائة سريَّة، ولداود مائة امرأة بمهورهنَّ، فكيف يقول أهل مَكَّة: لا يكون البشر نبيئا؟ بل النبيء ملك.

وتمَّم الله البَشَــرِيَّة بالتــزوُّج والتســرِّي والولادة، ولا يستشــكل بيحيى وعيسى لأنَّ رسلا نكرة في الإثبات فلا تعمُّ، وإنَّما المراد جماعة مخصوصة، ويقال: من فضائله ﷺ: استواء ســرِّه وعلنه، حتَّى إنَّه لم تترك نساؤه شيئا مِمَّا يسرُّ من شأن فراشهنَّ معه إلَّا ذكرنه.

[فقه] حتَّــى إنَّ الصحابــة اختلفوا فــي الإيلاج بلا إنــزال هل يوجب الغسل؟ فسألوا عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فقالت ولا حياء في الدين: فعل ذلك رسول الله ﷺ معي فاغتسلنا جميعا، وهذا يناسب ما روي عن جابر بن زيد رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى، أنَّه سألها عن جماع رسول الله ﷺ.

[قلت:] وكلُّ ذلــك عجيب لأنَّه ﷺ نهى عــن ذكر ما يفعــل الرجل مع زوجه، فإمَّا أن يكــون ذكرهنَّ ذلك زلَّة منهنَّ وهي مغفــورة تبن منه، وإمَّا **أن يخصَّصن بجواز ذلــك لأنَّهنَّ مبلِّغــات عنه** ﷺ، والمراد كذلــك جعلنا لك يا محمَّد تســع نســوة، وقد قالوا: ﴿لَوْ مَا تَاتِينَا بِالْمَلآئِكَةِ﴾ [ســورة الحجر: 7]، و﴿لَوْلَآ أُنــزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ [ســورة الأنعام: 8] و﴿مَا لِهَذَا الرَّسُــولِ يَــاكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الَاسْوَاقِ﴾ [سورة الفرقان: 7].

وعيَّروه بحبِّ التزويج ولو كان رسولا من الله لاشتغل عن النكاح والأسواق بالعبادة، والملك لا يأكل فليس بملك، لأنَّه يأكل فليس نبيئا، فردَّ الله عليهم بذلك. والنكاح والولادة لا يكونان بلا أكل، ولو كان رسولا لجاء بكلِّ آية طلبت منه.

فردَّ الله عليهم بقوله: ﴿**وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ**﴾ ما ثبت في قدرته ﴿**اَنْ يَّاتِيَ بِـَٔايَةٍ**﴾ عَقلِيَّة أو نَقلِيَّة طلبت منه أو لم تطلب ﴿**اِلَّا بِإِذْنِ اللهِ**﴾ فإنَّه رسول ولو لم يأتكم بكلِّ آية تطلبونها، وقد جاء بآيات كافية أعرضتم عنها، وقد جاء بآية كآية عيسى وهي إحياء موتى بعد الهجرة فيما قيل[1].

[سبب النزول] وخوَّفهم بالنصرة عليهم ونزول العذاب وتأخَّر ذلك فقالوا: لو كان رسولا لَنُصِرَ علينا وعُذِّبنا، فردَّ الله عليهم بقوله ﷻ: ﴿**لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ**﴾ لكلِّ مكتوب عند الله أجل ينتهي إليه، على القلب للكلام تأكيدا كأنَّه يستحقُّ الأجل مكتوبا ويطلبه، أو لكُلِّ أمر مؤجَّل كتاب كتب فيه لا يؤخَّر ولا يقدَّم، أو لكلِّ أجل كتاب كتب فيه، وذلك بحسب الحكمة والمصلحة.

[أصول الدين] ولا يجب الصلاح على الله ﷻ بل يهدي إلى الدين، وحكمه عدل ولا يوصف بالفساد والجور، وقالوا لو كان رسولا لم ينسخ بعض ما في التوراة والإنجيل، أو أكثرهما من الأحكام، فردَّ الله عليهم بقوله جَلَّ جَلَالُهُ:

﴿**يَمْحُواْ اللهُ مَا يَشَآءُ وَيُثَبِّتُ**﴾ ما يشاء ﴿**وَعِندَهُۥٓ أُمُّ الْكِتَابِ**﴾ يمحو ما يشاء من القرآن ومن التوراة والإنجيل، بالنسخ كنسخ عدَّة الوفاة من السنة

---

(1) يورد الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ قائمة في أسماء الأنبياء من آدم إلى محمَّد عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فمن أرادها فليراجع النسخة الحجرية أو غيرها وهذه الإضافة غير موجودة في نسخة (د) المسودة التي هي بخط المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ.

إلى أربعة أشهر وعشر، واستقبال بيت المقدس إلى استقبال الكعبة، وبالنسخ إلى غير بدل، ويمحو السـيِّئات بالتوبة والصغائر باجتناب الكبائر، ويمحو ما ليس عليه ثواب ولا عقاب من ديـوان الحفظة، ويمحو ما يشـاء من الأجل المنقضي، والأشياء الفارغة والفاسدة.

ويثبت ما لم ينسـخ وما يحدث وما ينسخ إليه، والحسنات وما فيه ثواب أو عقاب، ويمحو القمر ويثبت الشمس، ويمحو القرن ويثبت الآخر، ويمحو الحيوان والنبـات بالموت، ويثبت الآخـر بالولادة والنبـات، ويمحو الدنيا ويثبت الآخرة، ويثبت ليلة القدر أو ليلة نصف شـعبان يثبت ما يثبت ويمحو ما يمحو وهكذا على عموم ما يزول وما يحدث.

وأمُّ الكتاب: اللوح المحفوظ والعلم الأزليُّ، وأصل كلِّ شـيء أمُّه، وما يجري مجرى الأصل أمٌّ، ومن ذلك أمُّ الرأس، وأمُّ القرى لمكَّة. أو أمُّ الكتاب: صحائف الأعمال، أو عامٌّ لها وللكتب المنزلة، أو لذلك واللوح المحفوظ.

﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿40﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَاتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿41﴾ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿42﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿43﴾﴾

مهمَّة الرسول التبليغ والله الشاهد والحاكم بين العباد

﴿**وَإِن مَّا**﴾ «إِنْ» الشرطية و«مَا» المؤكِّدة لربط الجواب بالشرط ﴿**نُرِيَنَّكَ**﴾ يا محمَّد ﴿**بَعْضَ الذِي نَعِدُهُمُ**﴾ من العذاب في حياتك ﴿**أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ**﴾ قبل تعذيبهم، والجواب محذوف أي فلا لوم عليك، ﴿فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ [سورة الذاريات: 54] ناب عنه علَّته وهو قوله: ﴿**فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ**﴾ أي لأنَّه ليس عليك إلَّا البلاغ، أي تحصيل البلاغ، وقد حصَّلته، أو البلاغ اسم مصدر بمعنى التبليغ، ولأنَّه لا حساب إلَّا على الله كما قال: ﴿**وَعَلَيْنَا**﴾ لا عليك ولا على غيرك ﴿**الْحِسَابُ**﴾ للمجازاة عليهم ولك، ولا يهمَّنَّك شأنهم والعذاب يصيبهم لا محالة، والإسلام يعلو الكفر وعدًا لا يتخلَّف، وما تقدَّم أولى من تقدير الجواب للفعل الأوَّل على حِدَة هكذا: فإمَّا نرينَّك بعض الذي نعدهم فذاك شافيك من أعدائك، أو نتوفينَّك فلا لوم عليك، ولا بدَّ من عذابهم.

وهذه طلائعه مذكورة في قوله: ﴿**أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَاتِي الَارْضَ نَنقُصُهَا مِنَ اَطْرَافِهَا**﴾ ومكَّة وسطها، أشكُّوا ولم يروا، أو أنكروا ولم يروا أنَّنا ننقص أرض

المشركين بالفتح لبلد بعد بلد نقصا من أطراف المشركين وزيادة في أطراف المؤمنين، وجملة «نَنقُصُهَا» حال من ضمير «نَاتِي»، أو من الأرض، أو ننقص بلاد الأمم السابقة بكفرهم، أفلا تخافون أن تهلكوا مثلهم لكفركم؟.

[قلت:] ويضعف ما قيل عن ابن عباس: ننقصها بموت الأشراف والكبراء والعلماء والصالحين، ولعلَّ هذا لم يَصِحَّ عن ابن عَبَّاس، إذ ليس المقام له، اللهمَّ إلَّا أن يقال: ألم يروا أنَّا أهلكنا قبلهم من هو أشرف منهم فكيف هم مع كفرهم؟.

﴿**وَاللهُ يَحْكُمُ**﴾ في الخلق بما يشاء، ومقتضى الظاهر: ونحن نحكم، وجعل الظاهر موضع المضمر لتربية المهابة بلفظ الجلالة، وتحقيق الخبر لكونه من الجليل الذي اسمه «الله».

﴿**لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ**﴾ لا يأتي أحد عقب حكمه بما يبطل حكمه، أو ينقصه أو يضعفه، [قلت:] وقد **حكم للإسلام بالإقبال وللكفر بالإدبار**، فلا بدَّ من وقوعه خارجا بالمعاينة. والجملة حال من ضمير «يَحْكُمُ». ﴿**وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ**﴾ قريب عذابهم بعد الموت، أو حسابهم يوم البعث بالمناقشة بعد عذابهم في الدنيا، بالذلِّ والخوف والقتل والجلاء من ديارهم، وغير ذلك، وكلُّ آت قريب. ويجوز عود الحساب إلى ثواب المؤمنين وعقاب الكافرين.

﴿**وَقَدْ مَكَرَ الذِينَ مِن قَبْلِهِمْ**﴾ احتال الكُفَّار قبلهم على أنبيائهم والمؤمنين بالسوء، كما احتال عليك قومك وعلى المؤمنين، فَتَسَلَّ، ولم يؤثِّر احتيالهم، كذلك لا يؤثِّر احتيال قومك، فلا عبرة به لأنَّ المكر لله جميعا، كما قال: ﴿**فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا**﴾ لا شيء من تأثيره لغيره، فلا يؤثِّر ما لم يرد الله أن يؤثِّر، أو لله المجازاة على المكر، أو المكر: التأثير نفسه لأنَّه مسبّبه، والأوَّل أولى.

وقد مكر نمرود بإبراهيم عليه السلام، وفرعون بموسى عليه السلام، واليهود بعيسى عليه السلام، وما أثَّر في بعض الأنبياء والمؤمنين فبقضاء الله تعالى.

﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ لا يخفى عنه شيء، وَالكُفَّار غافلون فيحضر لهم العقاب من حيث لا يعلمون، وهذا من أشدِّ المكر، وللمؤمنين في ذلك ثواب صبرهم وأعمالهم يجدونه أحوج ما يكونون إليه، وظهور عقاب الكافرين أيضا كأنَّه مكر من المؤمنين يتشفَّون به ﴿وَسَيَعْلَمُ الْكَافِرُ﴾ الكُفَّار ﴿لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ عقباها الجنَّة أللنبيء ﷺ والمؤمنين أم لهم؟.

﴿وَيَقُولُ﴾ لك يا محمَّد ﴿الذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلاً﴾ من الله بل تقول من عندك أو من غيرك ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿كَفَىٰ بِاللهِ شَهِيدَاۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ بأنِّي رسول، وقد اكتفيت بما علمت من شهادته، وانقطع الخصام إلَّا أنَّ يشاء الله، أو سمَّى إظهار الله تعالى المعجزات على رسالته ﷺ شهادة منه تعالى بها.

﴿وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ عطف على لفظ الجلالة، والكتاب كتب الله كالتوراة والإنجيل والزبور، والذين عندهم علم الكتاب مؤمنو أهل الكتاب، يشهدون له بالرسالة، كعبد الله بن سلَام وسلمان الفارسي وكعب الأحبار، والجارود وتميم الداري كذا قيل، وفيه أنَّ سلمان من الفرس لا كتاب له، اللهمَّ إلَّا أن يقال: تعلَّم الإنجيل أو التوراة حين هرب من أبيه، وصار يخدم الرهبان ليدلُّوه على دين الله، وأَنَّ كعب الأحبار أسلم في عهد عمر رضي الله عنه، نعم قيل أسلم في زمان النبيء ﷺ، ولم يظهر إيمانه إلَّا في عهد عمر رضي الله عنه.

ويروى أنَّ عبد الله بن سلَام أخذ بعضادتي الباب وقال: أنشدكم الله تعالى أتعلمون أنِّي الذي أنزلت فيه ﴿وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ قالوا: اللهمَّ نعم.

وقيل: ﴿الْكِتَاب﴾: اللوح المحفوظ، فالمراد بـ﴿مَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ الله عَزَّ وَجَلَّ، وكأنَّــه قيل: قل كفــى من اتَّصــف بالألوهيَّة واختــصَّ بعلم اللوح المحفوظ شــهيدا، فاصلا بيني وبينكم، فيخزي الــكاذب، كقولك جاء زيد العالم والشجاع، أي المتَّصف بالعلم والشجاعة.

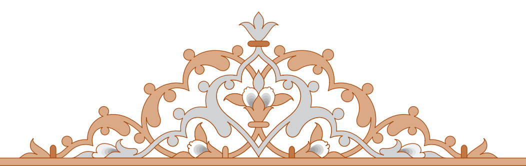
وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم
ولا حول ولا قوَّة إلَّا بالله العليِّ العظيم



14

تفسير سورة إبراهيم

مكِّـيَّة إلَّا الآيتين 28 ـ 29 فمدنيَّة، وآياتها 52 ـ نزلت بعد سورة نوح



﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ الر ۚ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (1) اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (2) الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (3) وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (4)﴾

الغاية من إنزال القرآن وذمُّ الكافرين

﴿**أَلَر**﴾ مرَّ مثله، أو هذه «أَلَر» أي هذه سورة تسـمَّى ألر، أو اقرأ هذه السورة المسمَّاة «أَلَر» وكذا هو اسـم لمثل هذه السـورة ﴿**كِتَابٌ**﴾ أي هذا كتاب أو هذه السورة المسماة «أَلَر» كتاب، وقوله: ﴿**انزَلْنَاهُ إِلَيْكَ**﴾ نعت «كِتَابٌ». أو «أَلَر» تعديد للحروف وقرع للعصاة، ولا إعراب له على هذا، كأنَّه قيـل: تنبَّه فإنَّنا ننزِّل عليك كلاما معجزا، أو مبتـدأ نكِّر للتعظيم خبـره قولـه ﷻ: ﴿انزَلْنَاهُ إِلَيْـكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ﴾، وفي إسناد الإخراج إليه ﷺ مع إسناد الإنزال إلى الله ﷻ تفخيم وتقدير.



﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ﴾: بدعائك به الناس إلى ما فيه الهدى، كما قال: ﴿مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ من أنواع الكفر إلى التوحيد والإسلام، جمع الظلمة لكثرة طرق المعاصي، وأفرد النور لأنَّ طريق العلم والإيمان واحد.

﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ بتوفيقه، والإذن موضوع لتسهيل الحجاب والدخول متعذِّر، وإذا رفع المنع صحَّ الدخول، وذلك مجاز مرسل لعلاقة اللزوم، أو استعارة، شبَّه توفيق الله ﷻ بالإذن، والجامع إزالة المانع، وهو متعلِّق بـ«تُخْرِج»، أو حال من ضمير «تُخْرِج»، أي ثابتا بإذن ربِّك، والمعنى: مأذونا لك، ومقتضى الظاهر: بإذننا، لكن أضافه إلى الربِّ إشعارا بالتربية واللطف.

﴿إِلَىٰ صِرَاطِ﴾ بدل من «إِلَى النُّورِ» ولا حاجة إلى قولهم: «صراط» بدل من «النُّورِ» بترك اعتبار الجارِّ في الإبدال، وهو خطأ شائع، فلا تهم، أو متعلِّق بـ«تُخْرِجَ» محذوفا على الاستئناف البياني، كأنَّه قيل: إلى أيِّ نور يخرجهم؟ فقيل: يخرجهم إلى صراط ﴿الْعَزِيزِ﴾ الغالب ﴿الْحَمِيدِ﴾ المحمود، حمد نفسه وحمده خلقه، وهو أهل لأن يحمده ما سواه. وأضاف الصِّراط إلى الله لأنَّه الشارع له والمظهر له، وكان المضاف إليه بلفظ العزَّة تنبيها على أنَّ الخارج إلى هذا الصراط في حمى من لا غالب له، فلا يلحقه ذلٌّ، وبلفظ الحمد تنبيها على أنَّه لا يخيب من الخير، فإنَّه تعالى محمود بإحسانه إلى الخلق كلِّهم. وقدَّم العزَّة لأنَّها قدرة على الإنزال وعلى غيره عَامَّة تستحقُّ الحمد، ولأنَّ التخلية قبل التحلية.

﴿اللَّهُ الذِي﴾ مبتدأ وخبر، أو خبر ونعت، أي هو الله الذي ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ دخل في ذلك ما بينهما وأجزاؤهما، فإنَّ كلَّ جزء من أحدهما هو فيه، خلق الله الكلَّ وملكه، ودخل ما يتولَّد منهما بعد كالثمار قبل وجودها.

﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ﴾ الذين لم يخرجوا من الظلمات عنادا للهدى ﴿مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ هذا بيان للويل، كأنَّه قيل: عذاب شديد للكافرين، فهو حال من ضمير الاستقرار، أو «مِنْ» للابتداء متعلِّق بمحذوف خبر ثان، أو خبر و«لِلْكَافِرِينَ» نعت.

وقيل: الويل واد في جهنَّم لو أرسلت فيه الجبال لكانت مائعة، أو جبٌّ فيها تستعيذ منه جهنَّم، وقيل: الويل التأوُّه فيعلَّق به «مِنْ عَذَابٍ»، وفي هذا إخبار عن المصدر قبل متعلَّقه، والوأْل (بهمزة ساكنة) بمعنى النجاة ضدُّ الويل (بياء ساكنة)، والموئل الملجأ وَوَأَلَ إليه: لجأ.

﴿**الذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الَاخِرَةِ**﴾ يختارونها على الحياة الآخرة، أو الدار الآخرة.

[نحو] وهو مبتدأ خبره ﴿أُوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ أو مرفوع، أو منصوب على الذمِّ، لا نعت للكافرين، والألزم الفصل بين النعت والمنعوت بأجنبي، وهو «مِنْ عَذابٍ» الذي هو بيان للمبتدإ الأجنبي من الخبر، كذا قيل، وفيه أنَّ الخبر مرفوع بالمبتدإ فلا يكون أجنبيًّا، وأيضا يتسامح في الظروف.

﴿**وَيَصُدُّونَ**﴾ يعرضون، أو يمنعون الناس ﴿**عَن سَبِيلِ اللهِ**﴾ التوحيد والإسلام ﴿**وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا**﴾ يبغون لها عوجا، فحذف اللام، أو يثبتونها أو يصفونها عوجا، على الاستخدام، فالضمير لـ«سَبِيلِ اللهِ»، والمراد به سبيلهم، والعوج: الزيغ، يطلبونه ليقدحوا به في سبيل الله، و«عِوَجًا» حال، أي ذات عوج، أو معوجَّة، أو نفس العوج مبالغة.

﴿**أُوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ**﴾ عن الحقِّ، ومن الضلال ما هو قريب كضلال الموحِّد الفاسق، وضلال الكتابي الذي قد يراجع التوراة أو الإنجيل فيرجع إلى الإسلام، وعلى استشعار أنَّ الضلال بعيد مطلقا يكون «بعيد» نعتَ توكيدٍ كظلٍّ ظليل، وليلة ليلاء، وداهية دهياء.

وصفهم بالرسوخ في الكفر، فإنَّ استحباب الشيء طلب محبَّته عن اختياره باستحبابه لِمَا في اختياره من شائبة طلب كونه أحبَّ إليه من غيره، فالاستحباب أبلغ من الاختيار، لأنَّ الاختيار ترجيح والاستحباب يدلُّ على

كون حبِّ الشيء مطلوبا له، وكفروا وطلبوا لما كفروا به عوجا[1] بإلقاء الشبه والشكِّ، والجدِّ في تقبيحه بكلِّ ما يمكن.

والبعد في الحقيقة في المكان، واعتبر في الإنسان الذي خالف الدين الشبيه بمن ضلَّ في الأرض، ووصف به فعله الذي هو المخالفة المعبَّر عنها بالضلال على طريق التجوُّز في الإسناد، أو نزّل الحقَّ منزلة المكان الذي وقع الضلال عنه، وأسند البعد إلى سببه الذي هو الضلال، للملابسة بينهما، وقد يقال: البعد حقيقة في الضلال وفي الأمر الذي به الضلال.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾ وهم أولى به ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الَاقْرَبِينَ﴾ [سورة الشعراء: 214] ولو أرسل إلى أمم مختلفة فينتشر من قومه الذي هو على لغتهم إلى سائر الأمم المخالفة للغته، كما أنَّه أنزل القرآن على رسول الله ﷺ بلغة قومه وبلغ سائر الأمم المخالفة لقريش من العرب ومن العجم، فذلك جواب عمَّا يقال: كيف يخرج الناس من الظلمات إلى النور مع أنَّ منهم من ليست لغته عَرَبِيَّة؟.

وأيضا قال الله ﷻ: ﴿يَـآ أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [سورة الأعراف: 158] والمراد بالرسول النبيء مطلقا لأنَّ شأن النبوءة التبليغ مطلقا، وما من نبيء إلَّا بلَّغ ما أوحي إليه، واللسان بمعنى اللغة، وهو مجاز، ووجهه أنَّهُ آلة اللغة، وقيل: إنَّه مشترك.

والذي يظهر أنَّ المراد بـ«قَوْمِهِ» من هو فيهم، ومتكلِّم بلغتهم، فلا ينتقض بلوط إذ تزوَّج مِمَّن بعث إليهم، وسكن معهم وليس منهم، ولا بشعيب إذ بعث إلى أهل الأيكة كما بعث إلى أهل مدين وليس منهم، فلا حاجة إلى دعوى أنَّ قوله: ﴿إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾ جري على الغالب، بل لو قيل

(1) كذا في النسخ والمخطوطة والمطبوعة، ولم يظهر لنا وجه المعنى، تأمل.

في قوله ﷻ: ﴿أَخُوهُمْ لُوطٌ﴾ [سورة الشعراء: 161] إِنَّ الأُخوَّة مطلق الكون فيهم والإرسال إليهم لصحَّ.

ولو أنزل الله على سيِّدنا محمَّد ﷺ لكلِّ أمَّة كتابا بلغتها لكان إعجازا قَوِيًّا، إذ تكلَّم عربيٌّ خالص بلغات العجم كلِّها بلا تعلُّم، لكن يفوت أجر تعلُّم العَرَبِيَّة وما يتشعَّب منها، والاجتهاد.

وقيل: إنَّ الهاء لسيِّدنا محمَّد ﷺ، وإنَّ الكتب كلَّها بِالعَرَبِيَّةِ وترجمها جبريل لكلِّ قوم بلغتهم ويردُّه قوله ﷻ: ﴿**لِيُبَيِّنَ لَهُمْ**﴾ فإنَّ هاء «لَهُمْ» للقوم، وغير القرآن لم ينزل ليبيِّن للعرب، ودعوى رجوع هاء «لَهُمْ» إلى قوم كلِّ نبيء على الاستخدام خروج عن البلاغة، كأنَّه قيل: وما أرسلنا من رسول إلَّا بلسان قوم محمَّد ﷺ ليبيِّن الرسول لقومه الذي أرسل إليهم، **وهو كلام لا يناسب جزالة القرآن** ويخالف الواقع.

ذكر بعض أنَّ القرآن نزل بلغة قريش خَاصَّةً، وما فيه من غير لغتهم جرى في لسانهم، وعن عمر نزل بلغة مضر.

[فقه] والآية تدلُّ على أنَّ تعليم الدين واجب، وأنَّه فرض كفاية، ويتعيَّن على الأب لأولاده، وعلى الزوج لزوجه، وعلى السيِّد لعبده، وإن علَّمهم غير هؤلاء أجزى، وتدلُّ على أنَّ التعلُّم واجب. ولام «لَهُمْ» للنفع. وعلى المتعلِّم تعظيم معلِّمه والتقرُّب إلى الله تعالى بنفعه، ولزم المعلِّم أن لا يقصد النفع الدنيوي من معلِّمه، قال بعض:

رأيت أحقَّ الحقِّ حقَّ المعلِّم ... وأوجَبَهُ حفظا على كلِّ مسلم
لقد حقَّ أن يُهدَى إليه كرامةً ... لتعليم حرفٍ واحدٍ ألفُ درهم

وهذا مجرَّد تعظيم وتحضيض، ولعظم شأن العلم وجب كسبه ولو من صين ـ وهو من المشرق الأقصى ـ على مَن في الموضع البعيد كالمغرب

الأقصى، وجاء الحديث: «**اطلبوا العلم ولو بصين**»[1] بدون «ال» وحرَّفته الرواة بإدخال «ال» على صين، ولا سيما أنَّه لا يصحُّ أن تكون «ال» فيه للمح الأصل[2].

[نحو] وهذا مما يقوِّي القول بعدم الاحتجاج بالحديث في علوم العَرَبِيَّة، لأنَّ الرواة يحرِّفون اللفظ، ويحتجُّ به في المعنى لأنَّهم لا يحرِّفون المعنى فكما لا يقول ﷺ: «المكَّة» لا يقول: «الصين» بـ«ال».

﴿**فَيُضِلُّ اللهُ مَنْ يَّشَآءُ**﴾ إضلاله ﴿**وَيَهْدِي مَنْ يَّشَآءُ**﴾ الأصل: فنضلُّ من نشاء ونهدي من نشاء، وذكر لفظ الجلالة تلويحا إلى استحكام الإضلال والهدى، وإضلال الله خذلان، وهدايته توفيق، ولا إجبار، وهما أزليَّان ولا يتخلَّفان.

﴿**وَهُوَ الْعَزِيزُ**﴾ غالب غير مغلوب ﴿**الْحَكِيمُ**﴾ يهدي ويضلُّ بحسب حكمته لا عبثا ولا سفها، ولا جورا تعالى الله عن ذلك.

---

(1) تقدَّم تخريجه، انظر: ج 2، ص 212.

(2) في الطبعة العُمانية: «لا يصحُّ أن تكون «ال» فيه للعلَم».والعبارة ليست في النسخة (ج).

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ٥ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ أَنجَىٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ٦ وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ ٧ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ٨﴾

مهمَّة الرسول موسى عليه السلام ونصائحه لقومه

وسلَّى رسول الله ﷺ وحثَّه على التبليغ بقوله عز وجل: ﴿**وَلَقَدَ اَرْسَلْنَا**﴾ إلى فرعون وقومه ﴿**مُوسَىٰ بِئَايَاتِنَآ**﴾ اليد والعصا ونحوهما من التسع، ومنها الطمس، فبلَّغ الرسالة وصبر على أذاهم، فافعل كذلك ﴿**أَنَ اَخْرِجْ قَوْمَكَ**﴾ مَن أشرك مِن بني إسرائيل أو فسق، أو المراد تذكير الكلِّ ووعظه بإثبات المؤمن، أو قومه هم بنو إسرائيل والقبط لأنَّهم أيضا قومه بالإرسال إليهم.

﴿**مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ**﴾ من الشرك والمعاصي إلى التوحيد والعمل الصالح. و«أَنْ» مفسِّرة، لأنَّ الإرسال فيه معنى القول دون حروفه، لا مَصدَرِيَّة مقدَّرة بالباء قبلها كما شهر، لأنَّه لا خارج للأمر يسلَّط عليه معنى الباء، وقولك: أمرناه بإخراج قومه إخبار، وقوله: ﴿اَخْرِجْ قَوْمَكَ﴾ إنشاء، وليس



إخراجهم خارج ﴿اخْرِجْ﴾، ففي قولنا: أخرجتهم وأخرجهم الآن أو غدا خارج ولا خروج ماضيا ولا حاضرا ولا مستقبلا في ﴿اخْرِجْ﴾ بصيغة الأمر، وإنَّما يكون له خارج إذا أخرجهم.

﴿وَذَكِّرْهُم﴾ ذكر يا موسى قومك ﴿بِأَيَّامِ اللهِ﴾ شدائده الشبيهة بالحروب المسمَّاة بالأيَّام، كيوم ذي قار ويوم الفجار، ويوم فضَّة، وأضيفت لله لأنَّه موجدها كإغراق قوم نوح، وإهلاك عاد وثمود ونمروذ، وذلك من جملة ما قال لموسى.

وقيل عنه ﷺ: «**أَيَّام الله نعمه**»[1]، وقيل: نعمه ونقمه، وعلى كلِّ حال سمِّيت بأيَّام لوقوعها فيها، والتفسير الأوَّل أنسب بالمقام، لكن قوله: ﴿اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللهِ﴾ يناسب الثاني، ولذلك جمعهما القول الثالث ﴿**إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ءَلَايَاتٍ**﴾ دلائل ﴿**لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ**﴾ من كلام الله أو مِمَّا أرسل به موسى، والإشارة إلى التذكير والصبر على ما يشقُّ، والشكر على ما يلذُّ، **وقيل**: **الصبَّار الشكور**: **المؤمن**، عبَّر عنه بهما لأنَّ فيه مضمونهما وهما عنوانه، وللتهييج إلى المبالغة في الصبر والشكر، وإذا تفكَّر فيما جرى لمن مضى تنبَّه للإيمان مع المبالغة فيهما، فذلك معنى الدلائل، وذكر المؤمن لأنَّه المنتفع بالآيات لتفكُّره فيها دون غيره، وقدَّم الصبر لأنَّه مفتاح الفرج، والفرج يقتضي الشكر، ولأنَّه من المتروك، يقال: صبرت الدَّابَّة أي حبستها.

﴿**وَإِذْ قَالَ**﴾ اذكر يا محمَّد لقومك إذ قال: ﴿**مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ**﴾ بني إسرائيل ﴿**اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمُۥٓ إِذَ اَنجَيٰكُم مِّنَ ـ الِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ**﴾ الجملة حال من آل فرعون، أو من الكاف أو لهما، وكأنَّه قيل: ممَّ نجَّاهم؟ قال: من سوء العذاب، وسوم العذاب: إذاقته، بالاستخدام في البناء والحرث والغرس والحفر، والاستعباد بكلِّ ممكن، والضرائب على من لا يقدر على ذلك، وليس شاملا للذبح لعطفه عليه في قوله:

(1) رواه **أحمد**، رقم: 21158، ج 5 ص121، من حديث ابن عباس عن أُبي بن كعب.

﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ وإن شــمله فالعطف تخصيــص بعد تعميم لعظم شــأن التذبيح، كأنَّه لشــدَّته ليس من ذلك العامِّ، لكن لا عذاب في استحياء النساء فليس قوله: ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ عطف خاصٍّ على عامٍّ، بل عطف على «يَسُــومُونَكُمْ»، أو يجعل «سُــوءَ الْعَذَابِ» غير شــامل لِمَا بعد. ومعنى اســتحياء النســاء إبقاؤهنَّ بلا قتل بل يداوونهنَّ، وإذا اعتبر أنَّهم يبقونهنَّ بلا قتل ليذقن الــذلَّ ذلَّ العُبُودِيَّة والخدمة والإبعاد عن أزواجهنَّ، وليذقن شــدَّة مفارقة بنيهنَّ صحَّ أن يكون قوله: ﴿يَسْتَحْيُونَ...﴾ خصوصا بعد عموم.

أخبر الكهنةُ فرعون أنَّ مولودا في بني إســرائيل يبطل ملكك وتموت به، فصار يســقط الحبالى منهم، ويخرق بطونهنَّ، ويقتل الأولاد الذكور الخارجة من البطن، ويبقي الإناث منها، وأمهاتهنَّ بالمداواة، ولما كان المراد في سورة البقرة تفسير السوم بالتذبيح كان بلا عطف. وتشديد «يُذَبِّحُ» للمبالغة في أفراد الذبح، وبتعظيم نفس الذبح بحيث لا يطمع في حياة المذبوح.

﴿وَفِي ذَالِكُمْ﴾ أي في الإنجاء من آل فرعــون بإغراقهم ﴿بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ إنعام ﴿إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ﴾ [سورة الفجر: 15] أو فيما ذكر من السوم والتذبيح والاســتحياء ابتلاء بالشــدائد، ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾ [سورة الفجر: 16] ﴿وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾ [سورة الأعراف: 168].

﴿وَإِذْ﴾ هذا وما بعده من كلام موســى عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومــه للجمع، والخطاب في قوله: ﴿تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَــكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ أي نعمه، فإنَّ الشكر يقتضي تقدُّم نعمة تشــكر ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْۥٓ إِنَّ عَذَابِي لَشَــدِيدٌ﴾ والعطف، علــى «نِعْمَةَ اللهِ»، والمعنى: اذكــروا نعمة الله عليكم، واذكروا القصَّة الواقعــة حين تأذَّن ربُّكم، أو على «إِذَ اَنجَاكُم مِّنَ ـ الِ فِرْعَوْنَ...» فأعاد «إِذْ» للتنبيه على استقلاله، أي واذكروا نعمته عليكم في الوقتين، فإنَّ التــأذُّن أيضا نعمة من ربِّهم عليهم، لأنَّه ســبب لتنشيط الشكر الموجب لزيادة النعمة، وسبب لمجانبة الكفر الموجب للنقمة.

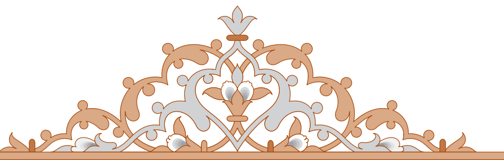
ويجوز أن يكون ذلك من كلام الله لسـيِّدنا محمَّد ﷺ، فيقدَّر: واذكروا إذ تأذَّن ربُّكم بالجمع. وقد يجوز الإفراد فيكون كقوله تعالى: ﴿يَآ أَيُّها النَّبِيءُ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَآءَ﴾ [سورة الطلاق: 1].

وفي التأذُّن مبالغة، لأنَّ من المعاني الموضوعة للتفعُّل التكلُّف والعلاج، تعالى الله عنهما. والجملة مقول لمحذوف حال، أي قائلا: لئن شكرتم يا بني إسرائيل ما أنعمت به عليكم من الإنجاء وغيره، أو قائلا: لئن شكرتم ـ يا أهل مكَّة ما أنعمت عليكم به من رحلة الشـتاء والصيف، ومـن جعل مكَّة حرما آمنا، وغير ذلك ـ بالإيمان والعمل الصالح لأزيدنَّكم نعم الدنيا ونعم الآخرة والدين، وقيل: نعم الدنيا، والعموم أولى، ومنه زيادة العبادة.

وإن كان الخطاب لمؤمني بني إسـرائيل فالمراد: بقيتم على الشـكر، أو زدتم فيه، ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ﴾ بقيتم على الشـرك أو الفسـق، أو لئن كفرتم بعد نزول هذه الآية ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَـدِيدٌ﴾، فخافوا أن ينزل عليكم، أو مفعول به لـ«تَأَذَّنَ» لتضمُّنه معنى قال، أو معنى اعلم.

ومقتضى الظاهر: «ولئن كفرتم لأعذِّبنَّكم عذابا شديدا»، أو عبَّر عن ذلك بقوله: ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَـدِيدٌ﴾ لأنَّ من عادة الله ﷻ أن يصرِّح بالوعد كما قال: ﴿لأَزِيدَنَّكُـمْ﴾ ويعرِّض بالوعيد تعريضا، ولأنَّ من عادته تعالى إسـناد الخير إليه دون الشرِّ، ومن ذلك النوع «إِنَّ رَحمته سبقت غضبه».

ومنافع الشـكر ومضارُّ الكفر إنَّما تعود إلى الشاكر والكافر، وأمَّا الله ﷻ فلا يلحقه نفع ولا ضرٌّ كما قـال: ﴿**وَقَالَ مُوسَـىٰ إِن تَكْفُرُواْ أَنتُـمْ وَمَن فِي الَارْضِ جَمِيعًا**﴾ من المكلَّفين ﴿**فَإِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ**﴾ لا يحتاج إلى شـكرهم ولا إلى أن يتركوا الكفر، وهو محمود لنعمه ولا نعمة إلَّا منه، وممدوح لذاته وصفاته، وهي هو، فما شكرتم إلَّا لأنفسكم، وما كفرتم إلَّا عليها. وفي الآية إرشاد لأهل مَكَّة إلى أن يتأثَّروا بقول موسى هذا.



﴿ اَلَمْ يَاتِكُمْ نَبَؤُاْ اُ۬لذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمُۥ إِلَّا اَ۬للَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِےٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِے شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ۝9 قَالَتْ رُسُلُهُمُۥٓ أَفِے اِ۬للَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ اِ۬لسَّمَٰوَٰتِ وَالَارْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمُۥٓ إِلَيٰٓ أَجَلٍ مُّسَمّيٗ قَالُوٓاْ إِنَ اَنتُمُۥٓ إِلَّا بَشَرٞ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَاتُونَا بِسُلْطَٰنٖ مُّبِينٖ ۝10 قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمُۥٓ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اَ۬للَّهَ يَمُنُّ عَلَيٰ مَنْ يَّشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّاتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ اِلَّا بِإِذْنِ اِ۬للَّهِۖ وَعَلَى اَ۬للَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ اِ۬لْمُومِنُونَۖ ۝11 وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اَ۬للَّهِ وَقَدْ هَدِينَا سُبُلَنَاۖ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَيٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَاۖ وَعَلَى اَ۬للَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ اِ۬لْمُتَوَكِّلُونَۖ ۝12 ﴾

أخبار بعض الرسل وحوارهم مع أممهم

وزاد تهديدا لهم بقوله: ﴿**اَلَمْ يَاتِكُمْ نَبَؤُاْ**﴾ تقرير، أو توبيخ بأن لم ينتفعوا بخبر من قبلهم ﴿**الذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ**﴾ قوم هود سمُّوا باسم جدِّهم عاد ﴿**وَثَمُودَ**﴾ قوم صالح سمُّوا كذلك. ﴿**وَالذِينَ**﴾ عطف على «قَوْمِ» أو على «الذِينَ». ﴿**مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمُۥٓ إِلَّا اُ۬للَّهُ**﴾ لكثرتهم، كما قال ابن مسعود: **كذب النسَّابون فلا يعلم أحد عمر الدنيا**، ولا كم سنة من آدم، ولا الأنساب إليه، قال الله ﷻ: ﴿وَقُرُوناۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ [سورة الفرقان: 38] ﴿وَمِنهُم مَّن

لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [سورة غافر: 78] وجملة «لَا يَعْلَمُهُمُوَ إِلَّا اللَّهُ» حال من «الذِينَ» أو من المستتر في «مِن بَعْدِهِمْ»، أو «الذِينَ» مبتدأ خبره «لَا يَعْلَمُهُمُوَ إِلَّا اللَّهُ...». عن ابن عَبَّاس: بين عدنان وإسماعيل ثلاثون أبا لا يعرفون.

﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ تفسير للنبأ، أو كأنَّه قيل: ما شأنهم؟ فقال: ﴿جَآءَتْهُمْ...﴾، أو خبر ثان للذين الأخير، وقوله: ﴿اَلَمْ يَاتِكُمْ﴾ من كلام الله تعالى لأهل مَكَّة، وقيل: من كلام موسى، والأوَّل أولى لأنَّه اعتيد تهديد أهل مَكَّة بالأمم قبلهم، لا تهديد موسى لقومه بمن قبلهم، ولأنَّ الكثرة تزيد بأن يكون الخطاب لهم، وتنقص بأن يكون من موسى لقومه. والبَيِّنَات: البراهين.

﴿فَرَدُّواْ أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ إلى أفواههم، أو كما يقال ردَّ الشيء في موضعه، بمعنى أثبته فيه، والضمائر في قوله: ﴿جَآءَتْهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿أَفْوَاهِهِمْ﴾ عائدة إلى ﴿الذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ وإلَى ﴿وَالذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾.

ومعنى ردِّ الأيدي: إمالتها إلى ما لم تكن فيه، لا ردُّها إلى موضع كانت فيه فنزعت عنه، بأن عضُّوا عليها بعد إمالتها إلى الفم غيظا من رؤية الرسل، وَمِمَّا جاءت به الرسل لتسفيه دينهم، من عبادة الأصنام وسائر معاصيهم، كقوله تعالى: ﴿عَضُّواْ عَلَيْكُمُ الاَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾ [سورة آل عمران: 119] وَلَمَّا كان لازما للعضِّ عبَّر به عن العضِّ وذلك لفرط حمقهم، والأيدي على ظاهره، أو الأنامل كالآية المذكورة.

أو الردُّ: وضعها على أفواههم تعجُّبا عظيما، كأنَّهم أرادوا أن يفحشوا بالكلام، فمنعوا أنفسهم، أو استهزاء، أو الردُّ غير حقيق بل هو مجاز عن التعجُّب أو الاستهزاء.

أو الردُّ: في الأفواه منعهم أنفسهم عن الضحك بوضع الأيدي على الأفواه، كما يفعل ذلك من خاف الضحك من نفسه.

أو الردُّ: وضعها على أفواههم إشارة إلى الرسل أن اسكتوا، أو إشارة إلى ألسـنتهم بأنَّ جوابكم بها هو قولنا: «إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا...» أو قالوا هذا وأشـاروا إليها بعد القول.

أو الـردُّ في أفواه الأنبيـاء على أنَّ الهـاء للأنبياء أمسـكوا أفواههم لِئَلَّا يتكلَّموا وذلك حقيقة، أو استعارة تمثيليَّة بأن يُشبَّهَ قصدُ الأنبياء الكلامَ وعدمُ قبول الكُفَّارِ له، وزجرُهُم للأنبيـاء عن الكلام بقصد أحدٍ الكلامَ وكراهةِ غيرِهِ للكلام، ومنعُهُ عنه بإمساك فمه.

أو الأيدي: النعم وهي نعم الأنبياء، وهـي ما جاءوا به من الوحي، فالهاء أيضا للأنبياء، ومعنـى ردِّها عدم قبولها، وكأنَّهم ردُّوهـا حيث جاءت، وهذا أيضا تمثيلية. ويقال: هاء «أَيْدِيَهُـمْ» لِلكُفَّارِ، ويقال: هاء «أَفْوَاهِهِمْ» للرسـل. والأيدي: النعم، ويقال: الأوَّل للرسل والثاني لِلكُفَّارِ، ويقال: الهاءان لِلكُفَّارِ.

﴿وَقَالُواْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِ﴾ على زعمكم أنَّكم أرسلتم به، أو ذكروا الإرسال استهزاء، أو أرادوا بما أرسلتم به من غير الله، ولا يجوز أن تكون «إِنَّا» أن المخفَّفة من الثقيلة مثل: ﴿أَن قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ [سورة المائدة: 113] بل التقت ثلاث نونات فحذفت ثانية «إنَّ» أو نون «نا»، ويدلُّ لذلك ورود إنَّنا بلا حذف.

[لغة] ﴿وَإِنَّا لَفِي شَـكٍّ مِّمَّـا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ موقـع في الريبة، من أرابك فلان بمعنى أوقعك في الريبة، أو مريب ذو ريبة من أراب بمعنى صار ذا ريبة، والشكُّ هنا غير الريبة، والريبة هي قلق النفس بعد الشكِّ، وقد يسمَّى بها الشكُّ لأنَّه سببها وملزومها. والجملة تأكيد لِمَا قبلها بوجه بليغ، إذ جعلوا أنفسهم محاطة بالشكِّ المريب إحاطة الظرف بالمظروف.

وصحَّ إطلاق الشـكِّ عليهم بعد إطلاق الجزم بالكفر، لأنَّ الشاكَّ كافر لأنَّه إنَّما يخرج عن الشرك بالجزم بالتوحيد، فلا إيمان للشاكِّ فهو كالمنكر، أو الواو

بمعنى أو، أي إمَّا أن نكفر جزما أو نشكَّ، أو الواو بمعنى أو التنويعيَّة، بعضٌ يجزم بالكفر وبعض يشكُّ، أو كفرنا بالمعجزات والبيِّنات وشككنا في التوحيد.

وقرئ ﴿تَدْعُونَا﴾ و﴿تَصُدُّونَا﴾ بالإدغام، فالتقاء الساكنين إذا كان الأوَّل حرف مدٍّ جائز واردٌ، ولو كان حرف المدِّ والساكن بعده ليسا من كلمة واحدة، وقد جمعتُ قراءات من ذلك في شرح جامع حرف ورش[1].

﴿**قَالَتْ رُسُلُهُمُوٓ أَفِي اللهِ شَكٌّ**﴾ خبر مبتدإٍ متعلِّق به، أي أثابت في الله شكٌّ، توبيخ على شكِّهم، وإنكار للياقته، إذ وقع منهم مع كثرة أَدِلَّة الوَحدَانِيَّة ووضوحها، ومنها خلق السماوات والأرض كما قال:

﴿**فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالَارْضِ**﴾ نعت للمعرفة، ولو كان وصفا لأنَّه للماضي لا يصحُّ تنوينه ونصب السماوات، فضلا عن أن يكون في نيَّة الانفصال عن الإضافة، ومن كلامهم: إنَّ البدل في المشتقِّ ضعيف، وذلك جواب لقولهم: ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِ﴾. قيل: فبم أجابهم المرسلون به؟ فقال: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمُوٓ أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالَارْضِ﴾ وما فيهما.

﴿**يَدْعُوكُمْ**﴾ إلى توحيده وطاعته هو لا نحن، ندعوكم من تلقاء أنفسنا كما يوهمه قولهم: ﴿مِّمَّا تَدْعُونَنَا﴾ ومع ذلك يدعوكم لمصلحتكم كما قال: ﴿**لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ**﴾ بعض ثمَّ بعض، حتَّى تغفر كلُّها كلَّما أذنبتم ذنبا وتبتم بعد إسلامكم غفره لكم، بعد أن يغفر ذنوبكم التي قبل الشرك بالتوحيد، فـ«مِنْ» للتبعيض مع حصول العموم، والمضارع للتجدُّد الاستمراري، أو «من» للتبعيض.

[فقه] والبعض: حقوق الله، وأمَّا حقوق العباد فلا تغفر إلَّا بقضائها، كانت قبل التوحيد أو بعده، وقيل: تغفر كلُّها أيضا إن كانت قبله، أو «مِنْ»

(1) مؤلَّف للشيخ رَحِمَهُ اللهُ شرح به شرحا مستفيضا قصيدة له في قراءة ورش عن نافع لا يزال مخطوطا.

للتبعيض والبعض ما قبـل التوحيد، قيـل: أو البعض الكبائـر لأنَّ الصغائر مغفورة، قيـل: أو البعض الصغائـر لأنَّ الكبائر تحتاج إلـى الإصلاح فتغفر الصغائر لمن تاب من الكبائر.

[نحو] أو «مِـنْ» صلة، والذنوب: ما قبله على جـواز كون «مِنْ» صلة في الإثبات والمعرفة، وجعلها بعضٌ للبدل، أي بـدل ذنوبكم، أو للابتداء على تضمين «يَغْفِر» معنى يخلص. واللام للتعدية، أو للتعليل، قيل: أو بمعنى إلى.

والغالب في القرآن ﴿مِن ذُنُوبِكُمْ﴾ مع الكُفَّار و﴿ذُنُوبَكُمْ﴾ مع المؤمنين، ومن غير الغالب: ﴿قُل لِّلذِينَ كَفَرُواْ...﴾ [سـورة الأنفال: 38] إلَّا إن اعتبرنا ما ذكر فيه يغفر ﴿يَآ أَيُّهَـا الذِينَ ءَامَنُواْ هَلَ اَدُلُّكُمْ...﴾ [سـورة الصف: 10] ووجه ذلك أنَّ المغفرة للكفار مرتَّبة على الإيمان، وللمؤمنيـن مرتَّبة على تجنُّب المعاصي وعلى الطاعـة، فـ«مِن» مَعَ الكفَّـارِ لإخـرَاجِ المظالم، وأمَّـا المؤمنون فلا تبعيض، بل تعمُّ للتوبة المتناولة للخروج من المظالم.

﴿وَيُوَخِّرَكُمُۥٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ متمتِّعين باللَّذَّات إلى أجل الموت، وإن لم تؤمنوا تنغَّصت حياتكم بالنقم، ولكن قد علم الله أنَّكم لا تؤمنون فتصابوا بالنقم، أو تؤمنون فلا تصابوا.

[أصول الدين] أو لكلِّ أحد أجلان علمهما الله، إن عمل كذا كالإيمان أخِّر إلى الأجل الطويـل وإلَّا عوجل بالقصير، وقد علـم الله كلَّ من يعمل موجب القصير أو الطويل، وهذا كما أوجد للشـقيِّ أزواجا وقصورا في الجنَّة لو عمل عمل السـعيد لصار إليها، وقد علم أنَّه لا يعمل فلا يصيـر إليها، وكما جعل للسعيد مكانا في النار لو عَمِل عَمَلَ الشقيِّ لصار إليه، قد علم أنَّه لا يعمله فلا يصير إليه، وكما قضى في الأزل أنَّ عمر فلان كـذا وكذا، منه كذا وكذا لصلة رحمه، وأنَّ أجل فلان كذا لو لم يقطعها وإذا قطعها أو طغى فأجله دون ذلك، وهو وقت كذا وكذا، وكذا ما أشبه ذلك فالأجل واحد لا يتقدَّم ولا يتأخَّر.

والفرق بين ذلك ومذهب المعتزلة أنَّهم قالوا لا يتعيَّن له أحدهما حتَّى يعمل موجبه، ومن ذلك ﴿ادْخُلُواْ الاَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ التِي كَتَبَ اللهُ لَكُمْ﴾ [سورة المائدة: 21] فقد كتبها لهم ولم يدخلوها، بل حرَّمها عليهم أربعين سنة، لأنَّ كتبها مقيَّد بالطاعة وهم عصوا، وأوضح من ذلك أن يقال: المراد ليجمع لكم بين مغفرة الذنوب والتأخير إلى الأجل المسمَّى، وإن لم تؤمنوا لم يكن لكم إلَّا التأخير إليه.

وكأنَّه قيل: فبم أجابوا؟ فقال: ﴿**قَالُواْ إِنَ اَنتُمُۥٓ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا**﴾ أكلا وشربا ونكاحا ولحما ودما وصورة وغير ذلك، فما وجه اختصاصكم بالنبوءة؟ لو شاء الله رسولا لكان ملكا أو غيره كشيء يجعله أفضل من البشر لا بشرا، ولو لم يكن الإنسان مخصوصا بخواصَّ شريفة لم يَصِحَّ في العقل أن يكون نبيئا.

﴿**تُرِيدُونَ**﴾ بدعوى الرسالة ﴿**أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا**﴾ من تلقاء أنفسكم، ولم تريدوا تبليغ شيء محقَّق من الله، لعدم إرساله لكم ﴿**فَاتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ**﴾ برهان ظاهر، مِن «أبانَ» اللازم، أو مزيل للخفاء على أنَّه مِن «أبانَ» المتعدِّي، يدلُّ على صدقكم في دعوى إرسال الله لكم، وأمَّا ما آتيتمونا به فليس بحجَّة ولا يقنعنا.

وكأنَّه قيل: فبم أجيبوا؟ فقال: ﴿**قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمُۥٓ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ**﴾ كما قلتم ﴿**وَلَكِنَّ اللهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَّشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ**﴾ بالرسالة دون أن يختصَّ عن البشر بشرف لا يوجد لهم نفسيٍّ أو قدسيٍّ، وله أن يرجِّح بعض الجائزات على بعض، ولو استوت لحكمته، ولا مؤثِّر لشيء سواه.

[قلت:] والنبوءة ليست اكتسابيَّة بقصد ولا اتِّفاق لمزيد عمل واعتقاد، ولا مانع من أن يقال: يخصُّها الله ﷻ بمن جعل فيه خواصَّ شريفة قدسيَّة، وليسوا يتأثَّرون بها بالقصد إلى النبوءة، ولا علموا أنَّهم يكونون أنبياء حتَّى يوحى إليهم، وإن شاء أخبر بعضا أنَّكَ ستكون نبيئا، وعليه فيكون المعنى: فأتونا

بسلطان مبين على أنَّ لكم مزيَّة تستحقُّون بها الرسالة، فإن شاءوا أخبروهم بها، ولكن لم يخبروا اتِّضاعا لله ﷻ، ولأنَّ الله لم يأمرهم بالإخبار بها كما قال:

﴿**وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّاتِيَكُم بِسُلْطَانٍ**﴾ برهان على نبوءتنا أو على مزيَّتنا ﴿**اِلَّا بِإِذْنِ اللهِ**﴾ وقد أتيناكم بما أذن الله أن نأتيكم به من الحجج، ولا طاقة لنا أن نأتيكم بما تقترحونه ولم يأذن به الله، ولكلِّ نبيء نصيبه منها لا يتجاوزه.

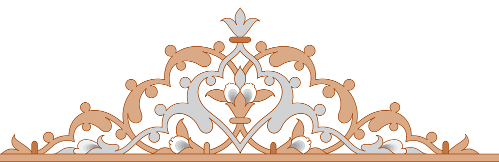
﴿**وَعَلَى اللهِ**﴾ لا على غيره ثقةً به ﴿**فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُومِنُونَ**﴾ في الصبر على معاداتكم لنا وأذاكم. والفاء صلة، و«عَلَى» متعلِّق بما بعدها، أو عاطفة على محذوف هكذا: وعلى الله نعتمد، ولم يقولوا: وعلى الله فلنتوكَّل بل عمُّوا بالمؤمنين فيدخلوا فيهم أوَّلاً وبالذات، كما رجعوا إلى أنفسهم على الالتفات من الغيبة إلى التكلُّم بقوله:

﴿**وَمَا لَنَآ**﴾ لا عذر لنا، أو أيُّ شيء لنا؟ على الاستفهام الإنكاريِّ معشر الرسل، لكن لا مانع من أن يريدوا معشر المؤمنين عموما، فإنَّ سائر المؤمنين يؤذيهم المشركون، كما يؤذون الرسل ﴿**أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ**﴾ في أن لا نتوكَّل، لا عذر لنا في انتفاء التوكُّل مع قيام الحجَّة على وجوب إثباته، ولا داعي إلى جعل «أَنْ» صلة ناصبة لا مَصدَرِيَّة وأنَّ الجملة حال.

﴿**وَقَدْ هَدَٰينَا سُبُلَنَا**﴾ حال، والهداية من الحجَّة في وجوب إثبات التوكُّل، فعرَّفنا الله الطرق التي نعرفه بها، ونعرف أنَّ الأمر كلَّه بيده ﴿**وَلَنَصْبِرَنَّ**﴾ معشر الرسل ﴿**عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا**﴾ معشر الكُفَّار على إيذائكم إيَّانا بالعناد، واقتراح الآيات والشتم وسائر المضارِّ. وليس كلُّ نبيء يقول ذلك بالجمع بل كلُّ واحد يقول على نفسه بالإفراد: إن أنا إلَّا بشر لا أتجاوز البَشَرِيَّة إلى الملَكيَّة، وما كان لي أن آتيكم ومالي أن لا أتوكَّل على الله وقد هداني سبيلي، ولأصبرنَّ على ما آذيتموني، فجمعهم الله في كلٍّ، أي قالوا ذلك وكلُّهم بصيغة نفسه، وقد يقول الواحد عن نفسه وعن أتباعه من أمَّته فيما يمكن.

[نحو] ومن العجيب أن تجعل «مَا» اســما ويقدَّر الرابط منصوبا على نزع الجارِّ، فيكون حذفه كحذف الضمير المفعول به هكذا: آذيتموناه، أي به، مع أنَّ نزع الجارِّ خلاف الظاهر ومع أنَّ الحذف خلاف الأصل مع عدم الاحتياج إلى ذلك، وأقــرب من ذلك مــع المخالفة للأصل تقدير علــى الإيذاء الذي آذيتموناه.

﴿**وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ**﴾ مثل ما مــرَّ، والقصر قصر إفادة وقصر قلب بالنظر إلى من يتوكُّل على غير الله خاصــة، وقصر إفراد على من يتوكَّل عليه وعلى غيــره، والمراد: فليــدم المتوكِّلون على توكُّلهــم، أو يزيدوا منه، والتوكُّل مستحدث من إيمانهم، أو يتوكُّل مريدو التوكُّل.



﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (13) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ (14) وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (15) مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ (16) يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ (17) مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (18)﴾

العاقبة للأنبياء رغم تهديد الكفار لهم

﴿**وَقَالَ الذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ**﴾ هم الكفرة المتمرِّدون المؤذون للرسل، القائلون: ﴿**إِنَ انتُمُوَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا...**﴾ [سورة إبراهيم: 10] أو الكفَّار مطلقا، فإنَّ ضعفاءهم راضون بالقول فكأنَّهم قالوا لرسلهم: ﴿**لَنُخْرِجَنَّكُم**﴾ لمخالفتكم ملَّتنا ﴿**مِّنَ اَرْضِنَآ**﴾ لكثرة الكفرة ومعاضدتهم وقبحهم، ينسبون الأرض لأنفسهم مع أنَّها مشتركة بينهم وبين المسلمين، والمسلمون أحقُّ بها كما قال كفَّار قريش يوم الحديبيَّة: «ارجع العام لا يتحدَّث الناس أنَّك دخلت مدينتنا وأرضنا بغير إذننا».

﴿**أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا**﴾ لتصيرنَّ في ملَّتنا أو لتدخلنَّ في ملَّتنا، وإلَّا فليسوا فيها قبل، فعبَّر بالمطلق على المقيَّد الذي هو الكون في الشيء بعد الانصراف عنه، أو هو على ظاهره توهَّموا أنَّ الرسل أشركوا قبل لأنَّهم نشأوا معهم في

أرض الشـــرك، إذ ربَّما لم ينهوا المتمرِّدين قبل الإرســـال لعدم قدرتهم، ولو نهوا غيرهم.

أو الخطاب لمجموع الرســـل ومن آمن بعد إشراكه من أتباع، فغلِّبوا على الرسل لأنَّهم أكثر، وقد كانوا في الشـــرك وغلَّبوا الرسل عليهم في الخطاب، علـــى أنَّ أتباعهم غير حاضرين فـــي حال الخطاب، حصـــروا أمرهم في أحد أمرين: مقدور لهم وهو الإخراج، وغير مقدور، فروعي المقدور عليه، فكفى عن غيره، وهو الكون فـــي ملَّتهم، أو ادَّعوا القدرة علـــى إجبارهم إلى الملَّة، والمراد على الأوَّل إن لم تدخلوها أخرجناكم، ويدلُّ على أنَّ الخطاب للرسل خطابهم شعيبا بقولهم: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾.

﴿**فَأَوْحَىا**﴾ بعد هذه المحاورة بســـببها ﴿**إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ**﴾ هؤلاء الكفـــرة المتمرِّديـــن، وأهلك بعضا بالغـــرق، وبعضـــا بالريح وبعضا بالصيحة وبعضا بالبعـــوض وهكذا، ولم يقل: لنهلكنَّهـــم، ليحضر في اللفظ موجب الإهلاك، وهو الظلم بالإشراك وظلم غيرهم.

﴿**وَلَنُسْـــكِنَنَّكُمُ الاَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ**﴾ بعد إهلاكهم، وهي شـــاملة للديار والأصول، والأرض هـــي المذكورة التي قالـــوا فيهـــا: «لَنُخْرِجَنَّكُم». وجملة القسم وجوابه مفعول لـ«أَوْحَى» لتضمُّنه معنى قلنا، أو يقدَّر القول والذي لا محلَّ له أبدا هو الجواب لا مع القسم، وهذا الخطاب للرسل وأتباعهم، كقوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ...﴾ الآيَة [سورة الأعراف: 137].

قال ﷺ: «**من آذى جاره أورثه الله داره**»(1). قال في الكشاف: كان لي خال يظلمه عظيم القرية التي أنـــا منها، ويؤذيني فيه، فمـــات فملَّكني الله ضيعته، فنظرت يوما إلـــى أبناء خالي يتـــردَّدون فيها ويدخلون فـــي دورها، ويأمرون وينهون، فذكرت لهم حديث رسول الله ﷺ، وسجدنا شكرا لله تعالى.

---

(1) أورده **الآلوسي** في تفسيره، ج 5، ص 200.

﴿**ذَلِكَ**﴾ أي ما ذكر من الإهلاك والإسكان، أو ذلك الإسكان ﴿**لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ**﴾ نهلك له الظالمين ونسكنه كما فعلنا بمن ذكر قبل هذه الأمَّة، أو المراد من ذكر على معنى التقابل، أي لأنَّهم خافوا مقامنا ووعيدنا.

و﴿مَقَامِي﴾: موقفي، وهو الموقف الذي يقف فيه المكلَّف، وأضافه لنفسه لا لكونه يقف فيه حاشاه بل لأنَّه ملكه، خلقه ليحكم فيه للعبد أو عليه، أو زمان قيامي على كلِّ نفس بما كسبت للجزاء لا أنسى، ولا يفوتني شيء، أو خاف قيامي بذلك، ويبعد أن يكون من إقحام الاسم أي لمن خافني فزاد لفظ مقام كقوله:

.... ثُمَّ اسم السلام عليكما

ودمشق الشام، وبغداد العراق، بزيادة الشام والعراق، وإلى حضرتكم، وسلام على مجلسكم، لأنَّ ذلك ضعيف مع احتمال بعض هذه الأمثلة.

والوعيد: الإخبار بالشرِّ على أهله، أو بمعنى موعودي السيِّئ على الكفر، وكرَّر الخوف لمبالغتهم في الخوف، أو لأنَّ الأوَّل خوف إجلال والثاني خوف عقاب.

﴿**وَاسْتَفْتَحُواْ**﴾ طلب الكفَّار من الله الحكم بينهم وبين المسلمين، طامعين في أن ينصروا على المسلمين كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا...﴾ [سورة الأعراف: 89] وقوله: ﴿رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ...﴾ الآية [سورة الشعراء: 117]، أو طلب المسلمون الحكم بينهم وبين الكفار طامعين في النصر، أو طلبوا النصر لَمَّا أيسوا من إيمانهم، كقول نوح: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ...﴾ [سورة نوح: 26]، وموسى: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ...﴾ [سورة يونس: 88]، ولوط: ﴿انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ [سورة العنكبوت: 30].

أو طلب الكُفَّار العذاب لأنفسهم إن كان المسلمون على الحقِّ، كما قالت قريش: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً...﴾ [سورة الأنفال: 32]، وكما قال غير قريش: ﴿ايتِنَا

بِعَذَابِ اللهِ...﴾ [سورة العنكبوت: 29] أو طلب المؤمنون النصر على الكُفَّار والكفَّار النصر عليهم، أو طلب كلٌّ منهم الحكم، فالواو للفريقين، والعطف على «أَوْحَى» أو «قَالَ»، أو الواو لقريش طلبوا الإمطار في سني القحط وخابوا.

﴿**وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ**﴾ مقتضى الظاهر على أنَّ الواو للكفَّار [أن يقول:] «وخابوا»، فوضع الظاهر ليصفهم بالتكبُّر وعناد الحقِّ، والمعنى: ففتح لهم فأفلح المؤمنون وخاب الكُفَّار، أي خسروا ولم ينالوا مطلوبهم.

﴿**مِّنْ وَّرَآئِهِ جَهَنَّمُ**﴾ نعت ثان لـ«جَبَّارٍ»، أو حال من «كُلُّ»، ووراء: خلف، وذلك أنَّهم أعرضوا عن جهنَّم ولم يؤمنوا بها وأقبلوا على أمرهم وهي طالبتهم، أو بمعنى قدَّام، وقال ابن الأنباري: بمعنى بعدُ، أي بعد حياتهم، قال ثعلب: أصله لِمَا توارى عنك خلفك أو قدَّامك.

﴿**وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ**﴾ عطف فِعلِيَّة على اسمِيَّة، أو يقدَّر: يلقى فيها ويسقى، أو يدخلها ويسقى، و«صَدِيدٍ» عطف بيان في النكرة، ومن منعه فيها جعله بدلا، وهو ما يسيل من جلود أهل النار من القيح والدم، وقيل: من جلود الزناة. و«ماء» استعارة مجرَّدة بصديد.

﴿**يَتَجَرَّعُهُ**﴾ يعالج أن يبلعه لحرصه على الشراب ولا ينفعه، أو يجبر على بلعه مرَّة بعد أخرى، أو يطاوع التجريع، أو يتمهَّل في الجرع شيئا فشيئا. و«يَتَجَرَّعُ» حال من ضمير «يُسْقَى» أو نعت لـ«مَاءٍ» أو حاله، أو نعت لـ«صَدِيدٍ»، أو مستأنف للبيان، كأنَّه قيل: ما حاله مع مرارته وحرارته ونتنه وخبثه؟ فقال: ﴿يَتَجَرَّعُهُ﴾.

﴿**وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ**﴾ يجيزه في حلقه بالبلع، فهو يشربه بالقهر مع بعد ذلك في الطبع يغصُّه في حلقه، ثمَّ يصل بطنه، ويذيب أمعاءه، كما قيل: يعرض عليه ولا يشربه، وقد قيل: المعنى يكاد لا يسيغه، قال رسول الله ﷺ في الآية: «**يقرَّب إلى فيه فيكرهه، فإذا أوتي منه شوى وجهه، ووقعت جلدة**

رأسه، فإذا شـــربه قطّع أمعاءه حتّى تخرج من دبره»[1]. ﴿وَسُـــقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُـــمْ﴾ [ســورة القتال: 15] ﴿وَإِنْ يَّسْـــتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَـــآءٍ كَالْمُهْلِ...﴾ [ســورة الكهف: 29] ﴿يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ﴾ [ســورة الحج: 20] **فذلك دليل على** وصوله أو وصول بعضه جوفه بالإساغة قهرا.

أو يؤوّلُ ﴿لَا يُسِـــيغُهُ﴾ بـ«لا يسْـــتَطِيبُهُ» كما قيل، لأنَّ انتفاء الاســـتطابة متعيِّنٌ، وانتفاء قربها متعيِّنٌ، أو الإساغة: البلع مع استطابة.

﴿**وَيَاتِيهِ الْمَوْتُ**﴾ أســباب الموت مـــن الغصّ في حلقـــه وإذابة أمعائه، فيطول عذابه بلا انقطاع ﴿**مِـــن كُلِّ مَكَانٍ**﴾ من كلِّ نوع من أنواع العذاب التي لو كانت في الدنيا لمات، أو تحيط به من جميع الجهات الســـتِّ، أو من كلِّ مكان من جسده من كلِّ شـــعرة ومن إبهام رجليه إلى شـــعر رأسه، والتعميم أولى، ومنه أن يَعْلِقَ نفســـه في حلقومه فلا تخرج من فيه فيستريح ولا ترجع لموضعها فيتهنـــأ بها ﴿**وَمَا هُوَ بِمَيِّـــتٍ**﴾ مع وجود أســـباب الموت كلِّها فلا استراحة لهم.

﴿**وَمِـــنْ وَّرَآئِهِ**﴾ خلفه أو قدّامـــه، أو بعد حاله. ويجـــوز ردُّ الضمير للماء ﴿**عَـــذَابٌ غَلِيظٌ**﴾ من ضرب بمقامـــع من نار، والإحراق بالنـــار، والزمهرير، والجوع، ووجع الأسنان، وعذاب بعد عذاب بلا نهاية، وازدياد العذاب أبدا، والخلود، وقيل: حبس النفس في الحلق.

وقيل: قوله: ﴿وَاسْـــتَفْتَحُواْ﴾ إلى هنا في قريش، طلبوا الســـقي في سني المجاعة كما مرَّ فخابوا وعوَّضهم صديد النار وأنواع عذابها.

---

(1) أورده **الســـيوطي** في الدر، ج4، ص83. وقال: أخرجه أحمد والترمذي وابن أبي الدنيا في صفة النار، وأبو يعلـــى وابن جرير وابن المنـــذر وابن أبي حاتم والطبرانـــي وأبو نعيم في الحلية وصححه، وابن مردويه والبيهقي في البعث والنشور عن أبي أمامة.

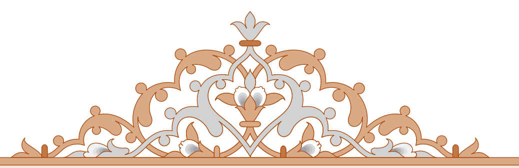
﴿مَّثَلُ الذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمُ﴾ أي صفتهم، استعير لها لفظ مثل الموضوع للذي شبِّه مضربه بمورده لجامع الغرابة، وخبره محذوف، أي فيما يتلى عليكم: بيان مثل الذِينَ كَفَرُوا، كقول سيبويه: فيما يتلى عليكم حكم ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي﴾ [سورة النور: 2] وحكم ﴿السَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ﴾ [سورة المائدة: 38]. وكأنَّه قيل: كيف مثلهم؟ فقال: ﴿أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيَاحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾.

[نحو] أو «أَعْمَالُهُمْ» بدل اشتمال من «مَثَلُ»، و«مَثَلُ» مبتدأ خبره «كَرَمَادٍ»، أو خبره «فيما يتلى عليكم»، و«أَعْمَالُ» بدله، أو مبتدأ خبره «أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ»، والرابط كونه نفس المبتدإ في المعنى، وقال الكسائي: «مَثَلُ» زائد، فكأنَّه جعل «أَعْمَالُهُمْ» مبتدأ خبره «كَرَمَادٍ» والأصل عدم الزيادة، ولا سيما زيادة الاسم.

ومعنى ﴿اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيَاحُ﴾: أسرعت به، واليوم العاصف: شديد الريح، وإسناد العصف إلى اليوم مجاز عقليٌّ، لأنَّ العصف بمعنى الهبوب الشديد، وأسند إلى زمانه، أو يقدَّر مضاف أي عاصف ريحه، والمراد أعمالهم الحسنة كالصدقة وإغاثة الملهوف والعتق وصلة الرحم، فإنَّهم لا يثابون عليها لشركهم، فهي ذاهبة كذهاب الرماد بالريح الشديدة، أو أعمالهم: عبادة الأصنام وما أنفقوا لها، أو ذلك كلُّه.

﴿لَّا يَقْدِرُونَ﴾ يوم القيامة ﴿مِمَّا كَسَبُواْ عَلَى شَيْءٍ﴾ سوى الحسرة والعذاب لا يستفيدون بها شيئا، ولا يدفعون بها عقابا، أو تخفيفا فيه، وهذا زيادة إيضاح وفذلكة للتشبيه بالرماد اشتدَّت به الرياح، ويذهب كلُّه وإن بقي بعضه، فكما أثيبوا في الدنيا بعملهم، سواء عملوا لله أو للأصنام، إلَّا أنَّ ما عملوا للأصنام لا يثابون عليه في الدنيا ولا في الآخرة، بل يعاقبون عليه. و«مِمَّا كَسَبُوا» حال من «شَيْءٍ» ولتوسُّعهم في الظروف قدِّم على صاحبه المجرور، وقدّم «مِمَّا كَسَبُوا» هنا لأنَّ المقام مقام لأن يذكر أنَّ أعمالهم كلَّها كرماد، وأخِّر في آية أخرى مراعاة لبيان أنَّ شيئا ما منها لا ينفعهم، والله الموفِّق.

﴿**ذَٰلِكَ**﴾ ما ذكـــر من أعمالهم، أو اعتقـــاد نفعها ﴿**هُوَ الضَّـــلَالُ الْبَعِيدُ**﴾ ومعلوم أنَّها ضـــلال، فيجوز أن يقدَّر ذلـــك الضلال هو الضـــلال البعيد، إذ أخطؤوا وظنُّوا أنَّهـــم على الطريق الموصلة، فيبعـــد أن يتركوه بل يدعون إليه ويخطِّئون من خالفهم.



﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿19﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿20﴾﴾

دليل وحدانيَّة الله ووجوده وقدرته

﴿**أَلَمْ تَرَ**﴾ يا محمَّد، وخطاب المتبوع خطاب التابع، أو يا من يصلح للخطاب ولو مؤمنا، أو يا كافر، فيصلح للكفَّار المذكورين كلِّهم، على طريق البدليَّة، وفي هذا التفات من الغيبة إلى الخطاب.

﴿**أَنَّ اللهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالَارْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَّشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَاتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ**﴾ يطيعه بدلكم بعد إعدامكم، كما خلق أصولكم وما يترتَّب عليه خلقكم، وهو السماوات والأرض، وكما قدر على خلقهم أطوارا قدر على إذهابهم، وإيجاد غيرهم. والحقُّ: هو كونهم بوجه حسن مع الحكمة، و«بِالْحَقِّ» متعلِّق بـ«خَلَقَ» أي مع الحقِّ أو بسببه، أو حال من «السَّمَاوَاتِ وَالَارْضَ» أو من ضمير «خَلَقَ» والخطاب لأهل مكَّة أو للكفَّار مطلقا.

﴿**وَمَا ذَالِكَ**﴾ المذكور من إذهابكم والإتيان بخلق جديد من جنس البشر أو غيره ﴿**عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ**﴾ صعب أو محال، لأنَّ قدرته ذاتيَّة لا تعجز عن شيء، فهو[1] الذي يؤمن به ويعبد رجاء ثوابه وخوف عقابه، يوم يبرزهم الله من قبورهم كما قال:

(1) الضمير يعود إلى الخلق الجديد، تأمَّل!

﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ قَالُواْ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿21﴾ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿22﴾ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿23﴾﴾

الحوار بين الأشقياء والشيطان يوم العذاب وظفر السعداء بالجنَّة

﴿وَبَرَزُواْ﴾ من قبورهم ﴿لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ يبــرزون ولا بدَّ، ولذلك كان اللفظ ماضيا وكأنَّهم برزوا الآن للحساب، أو لله إذ كانوا يخفون المعصية ويتوهَّمون أنَّه لا يراهــم عليها، ولا يعلمهــا، والمراد برزوا لخلــق الله، أو لأجل الله، أو ﴿بَرَزُوا﴾: صاروا في الأرض البراز، وهي المتَّسعة التي لا حاجب فيها.

[أصول الدين] والله ﷻ يبعث الأجســام والأعــراضَ المتَّصلةَ كالبياض والحمرة والصفرة والســواد، والطول والقصــر والغلظة والرِّقَّــة، والمنفصلةَ كالحركة والســكون والصوت والضرب، ومــا في قدرة العبــد وما ليس في قدرته، كحركة الأنبــاض والأنفاس، والعلــم والجهل، كما قــدر على إعادة



الذات قدر على إعادة العرض، وقيل: لا تعاد الأعراض للزوم قيامها لو ردَّت بالأعراض التي بعد البعث، أو معها وذلك محال.

وعبارة بعض: إنَّ المعاد يعاد بمعنى هو الإعادة فيلزم قيام المعنى الذي هو الإعادة بالمعنى الـذي هو العرض، وهـو محال، **وهو الصحيـح عندنا**، وقال جمهور قومنـا بالإعادة للعـرض، واختلف هل يعـاد الزمان؟ قيـل: يعاد تبعا للأجسـام، لقوله تعالى: ﴿بَدَّلْنَاهُمْ جُلُـودًا غَيْرَهَا﴾ [سورة النسـاء: 56] لأنَّ المراد الغيريَّة بحسب الزمان، وإلَّا فالجلود هي الأولى بأعيانها، لأنَّها هي التي عصت، قلنا: لا يعاد الزمان، وإلَّا دخل زمان في زمان، وتبعث الجلود الأولى وتفنى في جهنَّم، ويبدَّل جلود أخرى غير الدُّنيَوِيَّة، وليست الجلود معذَّبة بل الروح.

وحقيقة إدراك الروح وكيف يجتمع الزمان الماضي والحاضر والمستقبل الدُّنيَوِيَّة في وقت واحد؟ وكيف تجتمع مع أزمنـة يوم القيامة؟ وإن أجيب بأنَّ ذلك تدريج لا دفعة كما كانت في الدنيا تدريجا، بقي أنَّها كيف تجتمع مع زمان الآخرة؟.

﴿**فَقَالَ الضُّعَفَآؤُاْ**﴾ هم المرءوسون سـمُّوا لضعف رأيهم وضعف عزِّهم، وقد يكون رأيهم غير ضعيف، فيبقى ضعف عزِّهم ومالهم وبدنهم ﴿**لِلذِينَ اسْتَكْبَرُواْ**﴾ هم الرئيسـون الذين اسـتغووا الضعفاء، وقد يكون الضعيف أشدَّ كفرا أو مساويا للرئيس لكنَّه ضعيف من حيث لو ردَّه الرئيس إلى ما دون كفره أو كفرٍ آخر لتبعه.

﴿**إِنَّا كُنَّا لَكُـمْ**﴾ لا لرأينا ﴿**تَبَعًا**﴾ في عبادة غير الله وفي تكذيب الرسـل والكتـب، أو إنـكار الله ﷻ. [تَبَعًا] جمـع تابع، كخادم وخـدم بفتح الخاء والدال، وغائب وغيب، أو مصدر بمعنى اسم الفاعل أي تابعين، أو ذوي تبع، أو نفـس التبع مبالغة في الاتِّبـاع ﴿**فَهَلَ اَنتُـم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَـذَابِ اللهِ مِن شَيْءٍ**﴾؟ دافعون عَنَّا شيئا من عذاب الله، أو دافعون عنَّا دفعا فـ«شَيْئًا» مفعول به، أو مفعول مطلق، والدفع: الإزالة البتَّة، أو المراد أن تعذَّبوا مكاننا.

[نحو] و«مِنْ» الثانية صلة في المفعول به، أو في المفعول المطلق، و«مِنْ عَذَابِ اللهِ» تبعيض للعذاب حال من «شيء» ولو جرَّ، لأنَّ جارَّه صلة؛ ويجوز أن تكون للبيان أي دافعون شيئا عنَّا هو عذاب الله ﷻ، فيجوز أن يكون المعنى: مغنون عنَّا بعض شيء هو عذاب الله؛ أو كلاهما للتبعيض، أي بعض شيء هو بعض عذاب الله، فطلبوا دفع بعض البعض، والوجه ما ذكرته أوَّلاً.

﴿**قَالُواْ**﴾ أي الذين استكبروا للضعفاء جوابا واعتذارا ﴿**لَوْ هَدَاٰينَا اللهُ**﴾ للإيمان هداية توفيق، أو تأثير ولو مع شقوة ﴿**لَهَدَيْنَاكُمْ**﴾ هداية بيان إليه، فيمكن أن تؤمنوا وأن لا تؤمنوا، لكن خذلنا فاخترنا لكم ما اخترنا لأنفسنا من الضلال المترتِّب على خذلاننا.

أو ذلك جواب لقولهم: «فَهَلَ اَنتُمْ...» فيكون المعنى: لو هدانا الله إلى طريق نتخلَّص به من العذاب إلى الجنَّة اليوم مع البقاء على الشرك أو دونه لخلَّصناكم كما أغويناكم قبل، أو لو رددنا إلى الدنيا لهديناكم فيها. ثمَّ إنَّ أهل النار يصدر منهم الكذب فيها وفي الموقف. والاستفهام توبيخ وتحسُّر، كيف يطمعون أن يدفعوا عنهم العذاب أو بعضه وهم في النار مقهورون، وذلك الاستفهام جزع فأيسوهم من الدفع وأعلموهم أنَّ الجزع لا ينفع.

وإنَّا وإيَّاكم مخلَّدون كما قال: ﴿**سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ**﴾ موضع حيص، أي ميل إليه للنجاة، أو ما لنا حيص إلى ملجأ، لا ملجأ أو لا زمان حيص لأنَّا خالدون، وقيل: ليس هذا من كلام المتكبِّرين بل من كلامهم وكلام الضعفاء، فهو محكيٌّ بقول محذوف، أي قالوا جميعا: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا﴾ يقولون: تعالوا نصبر فقد كان الصبر في الدنيا نافعا، فيصبرون خمسمائة عام فلا ينفعهم، فيقولون: ﴿سَوَآءٌ...﴾، وعدُّوا عدم ويلهم صبرا، ويقال: يقولون: تعالوا نجزع، فيجزعون أي يصيحون بالويل خمسمائة عام فلا ينفعهم، ويقولون: تعالوا نصبر، فيصبرون عن الويل والبكاء

خمســـمائة عام فلا ينفعهم، فيقولون: ﴿سَــوَآءٌ...﴾، أو يبدؤون بالصبر وبعده بالجزع **وبهذا جاء الحديث**[1].

والضمائر لهم جميعــا، قدَّرنا القول أو لم نقــدِّر، وإذا لم نقدِّر فقد غلب التكلُّم على الخطاب، أو يقدَّر: سواء علينا وعليكم أجزعنا وجزعتم أم صبرنا وصبرتم مــا لنا وما لكم مــن محيص. ويعلــم جزع الضعفاء مــن أحوالهم وقولهم: ﴿فَهَلَ...﴾.

﴿**وَقَالَ الشَّــيْطَانُ**﴾ إبليس لأهــل النار فيهــا ﴿**لَمَّا قُضِيَ الاَمْرُ**﴾ حوســب المكلَّفون من الثقلين، وأدخل أهل الجنَّة الجنَّة، وأهل النار النار، واجتمعوا عليه فيها، وقد وضع له منبر من النار فيها ليخطبهم فعاتبوه على إغوائه إيَّاهُم، وسألوه أن يشفع لهم بإزالة عذابهم البتَّة، أو يعذَّب مكانهم لأنَّه هو الذي أضلَّهم.

﴿**إِنَّ اللهَ وَعَدَكُــمْ وَعْــدَ الْحَقِّ**﴾ بالبعــث للجزاء وبالثــواب على العمل الصالــح والتقــوى، ولــم يخلفكم، وحــذف لعلمهم بــه معاينــة، وبقوله: ﴿فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾. والحقُّ: ضدُّ الباطل، لأنَّه وعد أنجز، ومن شــأنه الإنجاز ضدّ وعد الشيطان، أو الوعد: الحقُّ فأضيف الموصوف للصفة، أو وعد الله، فوضع الظاهر موضع المضمر، أو الوعد: البعث والجزاء.

﴿**وَوَعَدتُّكُمْ**﴾ وعد الباطل بتحليل المحرَّمات وتحريم المحلَّلات، وبأنَّه لا بعث ولا ثواب ولا عقاب، وإن كان ذلك شــفعت لكم الأصنام ﴿**فَأَخْلَفْتُكُمْ**﴾ وعدي، تبيَّن لكــم إخلافي بمشــاهدة البعث وما بعده، شــبَّه ظهور الإخلاف بالإخلاف، ووجه الشــبه انتفاء ترتُّب الموعود به. ولا اســتعارة في «وَعَدتُّكُمْ» لأنَّه لا يشترط في لفظ الوعد الصدق، والداعي إلى الاستعارة أنَّ الإخلاف إنَّما هو فيما يسعه مقدرة الواعد. أو ذكر الإخلاف بدل مسبّبه وهو ظهوره.

---

(1) الحديث رواه ابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن كعب بن مالك مرفوعا. راجع **السيوطي** في الدر، ج 4، ص 84. وأورده **ابن كثير** أثرا عن عبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم في تفسير الآية.

﴿**وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ**﴾ ما كان لي عليكم قُوَّة أقهركم بها على المعاصي والشرك ﴿**الَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ**﴾ إليها بالكذب والتزيين. والمصدر بدل من «سُلْطَانٍ» والاستثناء متَّصل على أنَّه عدَّ الوسوسة قاهرة، وإن لم يعدَّها إذ لم تكن شنقا أو خنقا أو نحوه فهو منقطع، وأولى من ذلك أن تعدَّ الوسوسة سلطانا على طريق تأكيد الشيء بضدِّه، فإنَّه لا يشرط المدح والذمُّ، وقد مرَّ هذا في قوله ﷻ: ﴿كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَآءِ﴾ [سورة الرعد: 14] وقد يكون مع ذلك تهكُّم من إبليس عليهم، ولو كان الحال لا يرتضيه، ولكن لفرط غفلتهم تهكَّم عليهم بأنَّ الوسوسة قهر، وذلك كلُّه جائز أيضا إذا فسَّرنا السُّلْطَان بالحجَّة والبيِّنة.

﴿**فَاسْتَجَبْتُمْ لِي**﴾ بَالَغتم في إجابتي بالسرعة، فإنَّ الاستجابة أبلغ من الإجابة، لأنَّه على صيغة الطلب، والإسراع في الشيء إنَّما يكون لكونه مطلوبا، والإسراع من لوازم الطلب، ولو كان طلب الإنسان من نفسه. والفاء للاتِّصال، وهو مبالغة أيضا.

﴿**فَلَا تَلُومُونِي**﴾ على إضلالي إيَّاكُم، لأنَّها ما كانت إلَّا بالكذب والتزيين ﴿**وَلُومُواْ أَنفُسَكُم**﴾ على إهمال عقولكم الصحيحة عن التدبُّر، وعن النظر فيما جعل الله لكم من الدلائل، قيل: وعلى وثوقكم بي مع تصريحي لكم بالعداوة، وفيه أنَّه لم يصرِّح لهم.

وإن أريد قوله ﷻ: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ﴾ [سورة الأعراف: 16] و﴿لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الَارْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُم...﴾ الآيات [سورة الحجر: 39] لم يَتِمَّ، لأنَّهم لم يسمعوه حين قال، ولم يؤمنوا بالقرآن الذاكر ذلك عنه، والعياذ بالله منه، نعم لم يؤمنوا بالقرآن فيتدبَّروها.

﴿**مَّآ أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ**﴾ بمجيب صريخكم أي صياحكم إليَّ مستغيثين، وهو اسم فاعل «أَصْرَخَ» بهمزة السلب، أي لا أزيل صراخكم بالإجابة والاستغاثة، ﴿**وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ**﴾ مثل ما ذكر، والحاصل: لا أغيثكم ولا

تغيثونني، وذلك إقناط كلِّيٌّ من معاونة أهل النار بعض بعضًا، وهو جمع، حذفت نونه للإضافة، فأدغمت ياؤه في ياء المتكلِّم.

﴿إِنِّي كَفَرْتُ﴾ الآن ﴿بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ بإشراككم إيَّاي مع الله في الدنيا بالعبادة لي، بترك ما أمر الله به، وفعل ما نهى عنه، وبعبادة الأصنام فإنَّها للشيطان، إذ أمر بها، والله نهى عنها؛ أو شبَّه انقيادهم إلى عبادتها إذ أمرهم بها بالإشراك في العبادة، فاستعار له لفظ الإشراك. تركت ذلك كلَّه الآن وقلت: لا إله إلَّا الله، وما جاءت به الرسل حقٌّ من الله. وهنا انتهت خطبته في جهنَّم على منبر فيها من نار.

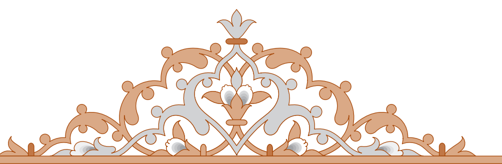
وفي هذا المنبر وخطبته لهم بما ذكر زيادةُ تغييظ وإقناط، والمشهور ما ذكر القرطبي أنَّهم يقولون: اشفع لنا فإنَّك أضللتنا، فيقوم خطيبا ويقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ...﴾. وقيل: انتهت خطبته في قوله: ﴿إِنَّ الظَّالِمِين﴾ الكافرينَ ﴿لَهُمْ عَذَابٌ اَلِيمٌ﴾ اليوم في النار، وهو داخل في الظالمين، وعلى أنَّه من كلام الله يكون المعنى: لهم عذاب أليم إذا جاء يوم القيامة.

وأجاز بعض أن تكون «مَا» بمعنى الله، نحو: «سبحان ما سخَّركنَّ لنا»، أي كفرت قبلكم بالله الذي أشركتمونيه إذ لم أسجد لآدم، ويجوز جعلها مَصدَرِيَّة في المثال على حذف مضاف، أي سبحان تسخيركنَّ لنا، أي ذي تسخيركنَّ لنا، وكأنَّه قال: كيف تطمئنُّون إليَّ وأنا أَوَّل عاصٍ. ومعنى «أشركتمونيه» جعلتموني شريكه، ونكتة التعبير بذكر الإشراك التلويح إلى وصف، أي بالمعبود الذي لا معبود بحقٍّ سواه.

﴿وَأُدْخِلَ الذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الاَنْهَارُ﴾ أي وأَدخل الله الذين آمنوا، كما قال: ﴿يُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أو أدخل الملائكة الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وهم كالبوَّاب يقول: أدخل بإذن مالك البيت، فسمَّى الإذن إدخالا لأنَّه سبب للدخول. عقَّب شأن أهل النار

بشـــأن أهل الجنَّة. ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي ناوين الخلود لأنَّ الإدخال سابق على الخلود ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ متعلِّق بـ«أُدْخِـــلَ»، ولو قيل: التقدير «أدخل الله الذين» لأنَّ لفــظ الجلالة غيـــر مذكور، بل لو ذكـــر لكان من وضـــع الظاهر موضع المضمر تلويحـــا بالتعرُّض لوصف الرُّبُوبِيَّة إلى مزيـــد اللطف والرحمة لهم، وفي ذلك أنَّ الجنَّة بفضل الله لا بالإيمان والعمل الصالح ولو كانا سببا عاديا.

﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَـــلَامٌ﴾ الجملة حال ثانية، أو من ضميـــر «خَالِدِينَ»، أو مستأنفة، ووجه اتِّصَالها بما قبل هذا أنَّ من شـــأن المتخالطين السلام بينهم، وهاء الجمع لداخلـــي الجنَّة، أي تحيَّتهـــم التي تأتيهـــم، أو يوقعها الملائكة عليهم، أو بعض على بعـــض، قال الله عَجَلَّ عن الملائكة: ﴿سَـــلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ [سورة الرعد: 24].



﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٢٤ تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذۡنِ رَبِّهَاۗ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ٢٥ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٖ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجۡتُثَّتۡ مِن فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٖ ٢٦ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ٢٧﴾

مثال الكلمة الطيِّبة ومثال الكلمة الخبيثة

﴿**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً**﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ، أولى أن يكون لكلِّ من يصلح، لأَنَّ الأصل فيه التعيين، ولأنَّ ما للنبيء في الجملة للكلِّ، والرؤية عِلميَّة، بدليل تعليقها بالاستفهام، لكن تعلق البصريَّة أيضا، تقول: انظر إلى موضع كذا هل فيه كذا، فيجوز أن تكون هنا بصريَّة مجازا، تنزيلا للعلم منزل المحسوس مبالغة. و«مَثَلاً» مفعول ثان، و«كَلِمَةً» [مفعول] أَوَّل، أي كيف صيَّر كلمة طيِّبة مثلا، أو متعدٍّ لواحد بمعنى وضع، و«كَلِمَةً» بدل أو بيان على جوازه في النكرة من «مَثَلاً»، والمراد: كالمثل في الغرابة.

والكلمة الطَّيِّبَة: «لا إله إلَّا الله»، أو كلُّ كلمة حسنة كالتسبيح والتحميد، والاستغفار والتوبة، والقرآن، ودعوة الإسلام، **وكلِّ ما أعرب عن حقٍّ أو دعا إلى صلاح**، وقيل: المؤمن، كما أطلق على عيسى أنَّه كلمة، والأولى ما تقدَّم، ووجه الشبه أنَّ كلمة الشهادة رسخت في القلب كرسوخ الشجرة، ويتفرَّع عليها الأعمال الصالحة كتفرُّع ثمار الشجرة.

[نحو] ﴿كَشَجَرَةٍ﴾ نعت لـ«كَلِمَةً»، أو حال، أو هي كشجرة، أو جعلها كشجرة، وعليهما تكون تفسيرا لضرب المثل، وَيَدُلُّ على أنَّ «كَلِمَةً» بدل أو بيان لـ«مَثَلاً» و«كَشَجَرَةٍ» مفعول ثان قوله: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ لأنَّ «مَثَلُ» مبتدأ و«كَشَجَرَةٍ» خبر.

﴿طَيِّبَةٍ﴾ هي النخلة كما فسَّرها بها ﷺ بعد ما سألهم عنها، وفهمها عبد الله بن عمر، فلم ينطق بها حياء[1]، وَلَعَلَّهُم لم يسارعوا إليها لتبادر اسم الشجرة إلى غيرها، أو لأنَّها لو أريدت لم يختبر أفهامهم بها لمشاهدتها في البلد وكثرتها، ولولا ذلك لفسِّر بمطلق الشجر الطيِّب المثمر، كالنخلة وشجر الرمَّان والعنب والتين، وقيل: شجرة جوز الهند أو شجرة طوبى، كما قيل بهما.

﴿اَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ راسخ في الأرض بالعروق ﴿وَفَرْعُهَا﴾ أعلاها، كما يقال لأعلى الجبل: إنَّه فرعه، وإن أريد فروعها وهو الغصون التي هي هنا الجرائد فالإضافة للحقيقة، أو للاستغراق فصلح لِمَا فوق الواحد. ﴿فِي السَّمَآءِ﴾ في جهة السماء، أو جهة العلوِّ. أنزل الله الآية على ما علم مِنَّا ـ وهو خلق له ـ أنَّا ننزع الجرائد اليابسة وننزع الخضرة أيضا للحاجة، فيكون أعلاها جرثومة في الجوِّ، ولو تركت بلا نزع لم يختص أعلاها بذلك فتكون كشجر السرو.

﴿تُوتِي أُكْلَهَا﴾ مأكولها أي المأكول المتولِّد منها بإذن الله، وفاعل الإيتاء الله ﷻ، وأسند للمحلِّ أو للسبب أو الآلة، والله منزَّه في الحقيقة عن العمل بشيء ولو كان ذلك صورة وخلقا ﴿كُلَّ حِينٍ﴾ كلَّ وقت وقَّته الله ﷻ لإثمارها، وهو مرَّة في العام تدوم مدَّة، وقد تكرّر، وقد لا تلد، بحسب ما قدَّره الله ﷻ، وكأنَّه قيل: كلَّ سنة.

أو المراد: ستَّة أشهر من حين طلعها إلى صرامها، وعن عليٍّ: ثمانية أشهر من حملها باطنا وظاهرا، وقيل: من ظهور حملها إلى إدراكها، وهو أربعة

---

(1) رواه **الربيع**، كتاب الأيمان والنذور، باب نسمة المؤمن، رقم: 703. **والبخاري**، كتاب العلم، باب قول المحدث حدِّثنا... رقم: 61. من حديث ابن عمر.

أشهر، وقال سعيد بن المسيِّب: شهران، من وقت الأكل منها إلى صرامها، وذلك كلُّه غير متناف لأنَّها في ذلك كلِّه في سنة، والكمون والظهور في سِتَّة، وكمنت قبل الستَّة الأشهر بشهرين، وقبل الأربعة بأربعة، وتؤكل في شهرين تقريبا، ويختلف باختلاف البلاد بشدَّة الحرِّ.

وقيل غير ذلك بأنَّها تُؤكَلُ في كلِّ حين من السنة وأكثر، صباحا ومساء لأنَّها تدخَّر، يؤكل منها الجمَّار والطلع والبلح والبسر والمنصف والرطب والتمر ويدَّخر، والعسل، وماؤها القاطر بقطع جرائدها، والخلُّ المعمول منها ويدَّخر ذلك، إلَّا أنَّ ماءها سريع الإسكار[1].

﴿بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ بأمره أو بخلقه لها، **كذلك كلمة الإيمان راسخة في قلب المؤمن تتولَّد منها الأعمال الصالحة والتقوى**، ويصعدان إلى السماء، وله بركتهما وثوابهما كلَّ وقت، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ والْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [سورة فاطر: 10] والشجرة بأصل راسخ وأصل قائم وفرع عال، كذلك الإيمان بثلاثة: تصديق بالجَنان، وقول باللسان، وعمل بالأركان.

﴿وَيَضْرِبُ اللهُ الاَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ بزيادة الإفهام، لأنَّه صوَّر المعقول بالمحسوس، وفي علوِّ فرع الشجرة مباعدة عن عفونة الأرض، ودلالة على قُوَّة الأصل، فتكون ثمارها في غاية الشرف.

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ هي كلمة كائنة ما كانت من الكفر، وكلُّ ما كان على خلاف الطيِّبة، إلَّا أنَّ الواضح عدم التعرُّض للمباح في الطيِّبة، والمكروه في الخبيثة، ومقتضى الظاهر: «وضرب الله مثلا كلمة خبيثة...»، ولم يقل ذلك لأنَّ ضربها مثلا غير مقصود بالضرب بل المراد به مجرَّد الإخبار.

(1) أي إن ترك حتَّى دخلته الحموضة، وللشيخ مصنَّف خاصٌّ في النخلة وغرسها عنوانه: «النحلة في غرس النخلة».

﴿**كَشَجَرَةٍ**﴾ يقدَّر مضاف، أي كمثل شجرة، أو الكاف بمعنى مِثْل، أي مَثَل كلمة خبيثة مِثْل شجرة خبيثة ﴿**خَبِيثَةٍ**﴾ مخصوصة هي شجرة الحنظل، ولو كان من الشجر ما هو مرٌّ مثلها وضعيف العروق، قريب من وجه الأرض، أو قويها.

ويقال: الكثوث، نبت يتعلَّق بأغصان الشجر بغير أن يضرب بعروقه فيها أو في الأرض، قال شاعر:

هو الكثوث فلا أصل ولا ورق ... ولا نسيم ولا ظلٌّ ولا ثمر

وقد شاهدته.

ولعلَّ المراد بالشجرة مطلق ما خبث منها. وهو بمثلَّثتين، وقيل: الأولى شين، وهو بفتح الكاف وضمِّها. وإطلاق الشجر على الحنظل مجاز لأنَّه لا ساق له، فهو نجم لا شجر، فالأولى تفسيرها بالدفل، لكن روي تفسيرها بالحنظل مرفوعا، وعن الضحاك: إنَّها الكثوث، وعن الزجاج وغيره: إنَّها شجرة الثوم، وقيل: شجرة الشوك، وقيل: الطحلب، وقيل: الكمأة، ويردُّه أنَّه لا خبث في الكمأة وكذا الطحلب، وقيل: كلُّ شجر لا يطيب له ثمر، وعن ابن عَبَّاس: شجرة لم توجد مثَّل الله تعالى بها.

﴿**اجْتُثَّتْ**﴾ أصيبت جثَّتها بالقطع ﴿**مِن فَوْقِ الاَرْضِ**﴾ ولو كانت لها عروق لضعفها وقربها من فوق الأرض، فكأنَّ أخذ عروقها معها أخذ من فوق الأرض، ووجه دخول ذلك في التشبيه التنقيص بضعفها، أو المراد بـ«فَوْقِ الاَرْضِ» اتِّصَال أغصانها بالأرض، وليس لها شرف علوِّ الشجرة الطيِّبة، لانبساطها على الأرض، ولا ثمر طيِّب بل ثمرها رديء، أو لا ثمر لها، ويضعف تفسير الشجرة بشجرة الزقُّوم في النار أعاذنا الله منها ﴿**مَا لَهَا مِن قَرَارٍ**﴾ رسوخ، ويجوز أن يراد بـ﴿اجْتُثَّتْ﴾ أنَّها لانبساطها وضعف عروقها كأنَّها مقطوعة، وتسمية ما لا ساق له شجرةً مجازٌ.

﴿**يُثَبِّتُ اللهُ الذِينَ ءَامَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ**﴾ الذي ثبت من الله عندهم في

قلوبهم راســخا، فكانوا يعملون ويتركون بمقتضاه، وهو الاعتقادات الدِّينِيَّة، من كلمة الشــهادة وما بعدها ﴿**فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾ وماتــوا عليها ولا يتركونها ولو يقتلون لأجلها، كزكرياء ويحيى وشمسون ومن قتلوا في الأخدود.

[قصص] كان جرجيس من الحواريِّين يدعو باسم الله الأعظم ويحيي به الموتى، فدعا جَبَّــارا بالموصل يعبد صنما إلى تركه وعبادة الله، فشــدَّ رجليه ويديه فشــرح صدره ويديه بأمشــاط من حديد، وصبَّ عليه المالح وســمر بمسامير حديد عينيه وأذنيه، وأوقد على حوض من نحاس حتَّى ابيضَّ وألقاه فيه، وطبق عليه، فخرج أحسن مِمَّا كان وأجمل، وقطَّعه أعضاء فأحياه الله ﷻ ودعاهم إلى الله، وأحيى الموتى، ولم يؤمن فأهلكه الله وقومه، وقلب المدينة عليهم. وكان شمســون يقاتل عبدة الأصنام من الروم ويهزم جنودهم وحده، ووعد ملكهم امرأته أن تســأله بم يغلب؟ فقال: بشــدِّ شــعري في غير حال الطهارة، ففعلت به ذلك فقبضوه وألقوه في قصر الملك فمات.

﴿**وَفِي الآخِرَةِ**﴾ في المحشر إذا سئلوا عن دينهم فيه وفي القبر: من ربُّك ومن نبيئك وما دينك؟ فيقــول: ربِّي الله وديني الإســلام ونبيئي محمَّد ﷺ، ومَن قبلَهُ ﷺ يُســألون عــن أنبيائهم في المحشــر، فينادِي ملَــك عن الله من الســماء: صدق عبدي، قال ﷺ: «**فذلك القول الثابت**»[1] ويروى: ما تقول في هذا الرجل؟ فيقول: هو محمَّد رسول الله ﷺ.

﴿**وَيُضِــلُّ اللّٰهُ**﴾ عن الجــواب الحــقِّ ﴿**الظَّالِمِينَ**﴾ الكفَّار والفسَّــاق فلا يهتدون إلى أن يجيبوا بذلك، ولو عرفوه في الدنيا وعاندوا، وأحاديث المقام مشــهورة[2]. هذا عائد إلى المثل الخبيث ومــا قبله للطيِّــب ﴿**وَيَفْعَلُ اللّٰهُ مَا يَشَآءُ**﴾ من تثبيت وإضلال عدلا منه.

(1) رواه **الترمذي**، كتاب التفسير، سورة إبراهيم، رقم: 3120، ج 5، ص 295، من حديث البراء.

(2) راجع **ابن كثير** إن شئت ففيه الكثير في الموضوع، وكذلك **الدر المنثور** للسيوطي.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿28﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿29﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿30﴾ قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ﴿31﴾﴾

تصرُّف الكفَّار إزاء نعم الله وحثُّ المؤمنين على العمل الصالح

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ اللهِ كُفْرًا﴾ تعجيب لرسول الله ﷺ، أو لكلِّ من يصلح للتعجُّب من أباطيل الكُفَّار البعيدة عمَّن له أدنى فهم، وهم كفَّار قريش، وفي ذلك حذف مضاف أي بدَّلوا شكر نعمة الله كفرَ إشراكٍ وما دونه، والنعمة باقية ولم يشكروها حتَّى انتقم الله عز وجل منهم، أو لا يقدَّر مضاف فتكون النعمة زائلة عنهم بسبب كفرهم، فذلك معنى التبديل، فإنَّ الكفر سبب زوالها وقد اختاروه عنها.

ونعمة الله هي رسول الله ودين الإسلام، وسكنى الحرم الآمن، والقيام بأمر الكعبة وخدمتها، وتوسيع الرزق بدعاء الخليل عليه السلام. قحطوا سبع سنين وقتل منهم سبعون يوم بدر، وأسر سبعون فذلُّوا. ولا مانع من عموم الآية لغير قريش ولو قال: ﴿اَلَمْ تَرَ﴾، ألا ترى إلى قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الذِينَ خَرَجُواْ﴾ [سورة البقرة: 243] وهو لم يشاهد الخارجين. وعن عمر وعليٍّ: هم الأفجران من قريش بنو المغيرة كفيتموهم يوم بدر، وبنو أميَّة متِّعوا إلى حينٍ، أي وقت أجلهم.

﴿وَأَحَلُّواْ﴾ أنزلوا بسبب الإضلال ﴿قَوْمَهُمْ﴾ أتباعهم ولو من غير نسبهم، قلت: قُطِعُوا عن قريب وما كانت لهم دولة بعد، إلَّا في طرف الأرض في أندلس ﴿دَارَ الْبَوَارِ﴾ الهلاك، وأصله الكساد استعير له لجامع عدم الانتفاع، وضمائر «أَحَلُّوا قَوْمَهُمْ» و«بَدَّلُوا» للرؤساء، وإن رددنا ضمير «بَدَّلُوا» للعموم وضمير «أَحَلُّوا قَوْمَهُمْ» للرؤساء جاز، ولكن فيه تفكيك الضمائر.

﴿جَهَنَّمَ﴾ بدل أو بيان لـ«دَارَ»، فإدخال جهنَّم هو الإحلال، ويجوز أن يكون إحلالهم هو تعريضهم للأسر والقتل والذلِّ والمضارِّ الدُّنيَوِيَّة، وأمَّا عذاب الآخرة ففي جهنَّم ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ على الاشتغال، أي يصلون جهنَّم يصلونها، والجملة حال من «قَوْمَهُمْ»، أو من واو «أَحَلُّوا»، وإذا جعلنا «جَهَنَّمَ» بدلا أو بيانا فـ«يَصْلَوْنَ» كذلك، أو حال من «جَهَنَّمَ».

﴿وَبِيسَ الْقَرَارُ﴾ هي، أو بيس القرار قرارهم، ومعناه: موضع الاستقرار إذ لا تحوُّل عنها فهي دائمة، كما أنَّ الجنَّة دار عدن أي إقامة لا تحوُّل عنها، وجملة «يَصْلَوْنَهَا» وجملة «بِيسَ الْقَرَارُ» زيادة بيان لـ«وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ» لأنَّ دار البوار لا يختصُّ بجهنَّم، ذلك إذا قلنا بالاشتغال، وأمَّا إذا قلنا بالإبدال والبيان فقد حصل المراد ظاهرا، لكن يحصل بهما دخول مخصوص بمقاساة الحرِّ والبرد، وإنَّها مدخل بئس[1].

﴿وَجَعَلُواْ لِلهِ أَندَادًا﴾ شركاء في دعواهم وزعمهم الباطل ﴿لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِ﴾ لم يتَّخذوها ليضلُّوا عن سبيل الله وهو التوحيد وشريعته، بل ضلالهم سابق على اتِّخاذها، لكن لَمَّا كان اتِّخاذها نتيجة لضلالهم جعل كأنَّه غرض لضلالهم، وأيضا يزداد ضلالهم بها فاللام لعاقبة الازدياد، وجملتا «أَحَلُّوا» و«جَعَلُوا» معطوفتان على «بَدَّلُواْ» فالتعجيب منسحب عليها.

(1) في الطبعة العُمانية: «بئس مدخل».

﴿قُلْ تَمَتَّعُواْ﴾ في الدنيا قليلا، والدنيا كلُّها قليل، وهذا يقوّي أنَّ الذين بدَّلوا هم قريش مثــلا لا عموم كفَّــار الأمم. قل يا محمَّــد لقومك الذين بدَّلوا، مع أنَّه لا مانع من العموم كأنَّــه قال: قل يا محمَّد لقومك الذين من جملة من بدَّلوا.

هدَّدهم بالأمر بالتمتُّع بالشهوات ومنها عبادة الأوثان إشعارا بأنَّ تمتُّعهم لا بدَّ منه، كما أنَّ الأمر للوجوب وقد صدر من قاهــر فلا بدَّ من المأمور به، شــبَّه انهماكهم في التمتُّع بذلك بالتمتُّع الذي أمر به من لا يخالفه المأمور، بجامع تحتُّم الوقوع، وكلٌّ من التمتُّــع المهدَّد عليه والمصير إلى النار المهدَّد به واقع، بحيث يترتَّب الثاني على الأوَّل.

كما علَّلــه بقوله: ﴿فَــإِنَّ﴾ لأنَّ ﴿مَصِيرَكُــمُۥ إِلَى النَّارِ﴾ فذلك اســتعارة تمثيليَّة، أو نزِّل التقابل منزلة التناســب على الاســتعارة التهكُّميَّة، فإنَّ اللفظَ الأمرُ بالتمتُّع والمراد النهي عنه، والمصير مصدر.

﴿قُل لِّعِبَــادِيَ الذِينَ ءَامَنُــواْ يُقِيمُواْ الصَّلَــوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِــرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ الجزم في جواب «قُلْ»، والمحــذوف مفعول للقول، أي قل للذين آمنوا: أقيموا الصلاة وأنفقوا ممَّا رزقناكم سرًّا وعلانية، يقيموا الصلاة وينفقوا مِمَّا رزقناهم ســرًّا وعلانية، فالجزم في جواب الأمــر، وذلك مدح للمؤمنين بالمطاوعة في الحقِّ، كما مدحهم بإضافتهم إليه.

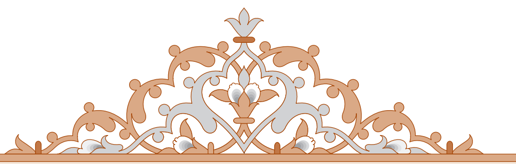
ويجوز أن يكون ذلك من أمر الغائب بلام محــذوف أي قل لهم ليقيموا الصلاة ولينفقوا...، وكأنَّه قيل: قل لهم أقيموا وأنفقوا.

[فقه] والمراد: الصــلاة الواجبة بإقامة أركانها بعد شــروطها، والإنفاق الواجب وهو الــزكاة، وصدقة التطوُّع لقوله: ﴿سِــرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ لأنَّ الزكاة من شأنها العلانية، وكذا ســائر الفرائض. وإن خاف الرياء بالفرض لأنَّ الصحيح

إمكان الرياء به أعلن به وجاهد نفسه في نفي الرياء، وقيل: يسرُّ، وقيل: إسرار الفرض أولى كالنفل، والصحيح الأوَّل فيزيد [الثواب] على الإسرار به سبعين، وقد قيل: المراد السرُّ في التطوُّع والعلانية في الفرض، فيكون في الآية إغراء بإسرار النفل وإغراء بجهر الفرض، ويجوز أنَّ المعنى الأمر بإكثار الصدقة هكذا على أيِّ حال كانوا.

[نحو] والنصب على الظرفية كجئت طلوعَ الشمس، أي وقت سرٍّ وعلانية، أو يقدَّر في، أو على المفعوليَّة المطلقة أي إنفاق سرٍّ وجهرٍ، أو الحالية أي سارِّين ومعلنين، أو ذوي سرٍّ وعلانية، أو نفس السرِّ والعلانية مبالغة.

﴿**مِّن قَبْلِ أَنْ يَّاتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ**﴾ لا يباع الشيء فيشتري به المذنب نفسه، أو لا يبيع شيئا فيفتدي بثمنه، أو لا يشترى ما يفدي به، فالبيع على هذا شراء، أو لا فداء فإنَّ البيع يطلق أيضا على الفداء ﴿**وَلا خِلَالٌ**﴾ مصدر خالَّه يخالُّه بشدِّهما: اتَّخَذَه خليلا، أو جمع خُلَّة أي صحبة بضمِّ الخاء كقلَّة وقلال، لا اصطحاب ينتفع به في ذلك اليوم بالشفعة، فإنَّه يوم لا نفع فيه إلَّا بما قدَّم في الدنيا من نحو صلاة وإنفاق لوجه الله ﷻ، وكما نفيت الخلَّة هنا وفي سورة البقرة [آية 254] نفيت في قوله تعالى: ﴿الَاخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍ...﴾ [سورة الزخرف: 67] لأنَّ المراد الأخلَّاء في الدنيا تنتفي خلَّتهم في الآخرة وتستحيل عداوة.



﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿32﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿33﴾ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿34﴾ ﴾

أدلَّة وجود الله وتوحيده في الكون والأنفس

﴿**اللهُ الذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالَارْضَ**﴾ الله هو الخالق لذلك وما بعده، فكيف يعبد غيره؟ ﴿**وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً**﴾ من السحاب، ما علاك فهو سماء، أو من السماء المقابلة للأرض وهو بعيد، أو تارة من هذه وتارة من السحاب، تكون على جبل وفي أسفل منك سحاب ماطر، ويقال: ينزل من السماء إلى السحاب كما ينزل جبريل في لحظة أو ينزل الماء بتدريج فيظهر لنا حين أراد الله.

﴿**فَأَخْرَجَ**﴾ الفاء للترتيب دون اتِّصال هنا، وهي سَببيَّة، أو مضت مدَّة فأخرج، أو الاتِّصال في كلِّ شيء بحسبه، فمقدار المعتاد في الإخراج بعد الإنزال اتِّصال ﴿**بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ**﴾ حال من قوله: ﴿**رِزْقًا**﴾ رزقا هو الثمرات أو بعض الثمرات ﴿**لَّكُمْ**﴾ متعلِّق بـ«أَخْرَجَ» أو نعت «رِزْقًا»، والرزق: ما يُنتفَعُ به مطعوما أو مشروبا أو ملبوسا أو غير ذلك، والثمرات يشمل ثمرات الشجر، وثمرات ما يحرث، وثمرات القطن والكتان.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الفُلْكَ﴾ سهَّل لكم صنعتها والعمل بها فلا تغرق، وهو هنا مفرد لأنَّ المفرد الأصل، ولقوله: ﴿لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ ولم يقل ليجرين كما قال في الجمع: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ [سورة يونس: 22] ولو احتمل الجمع وإفراد الضمير لتأويل الجماعة، لأنَّ هذا خلاف الأصل، و«ال» للحقيقة، فصدق بالجماعة كما فسَّروه بالسفن لا بالسفينة، والفلك المفرد يذكَّر ويؤنَّث، وأنِّث هنا، ووجهه أنَّه في معنى السفينة، وقد يترجَّح الجمع هنا ويتقوَّى بالتاء، لأنَّ المفرد في القرآن ورد مذكَّرا وهو قوله تعالى: ﴿فِي الفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ [سورة يس: 41] كما أنَّث ضميره في قوله: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ﴾ [سورة هود: 42].

وأمره مشيئته تجري بإذن الله، وتسخيره في البحر لمصالحكم من حمل الثمار ومتاع التجر، وحمل الحيوان من بلد لآخر، وماء البحر لذلك، وما شاء الله من المنافع كاللؤلؤ.

وذكر الشراب بقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الاَنْهَارَ﴾ للشرب والحرث، وقد تكون فيه السفن للحمل أيضا، وتسخير إنباعها، ولولاه لم تنبع، ولو شاء لجعلها أسفل، وقد تشمل عيون الأبيار، ومن تسخيرها: تعليمه الناس استخراجها، وإجراؤها سواقي وقنوات.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ﴾ في السماء الرابعة ﴿وَالْقَمَرَ﴾ في السماء الدنيا ﴿دَآئِبَيْنِ﴾ يجريان في فلكيهما على استمرار، وقيل: في أيدي ملائكة بسلاسل من نور.

والفلاسفة يثبتون لهما حركتين: الحركة الأولى اليومية من المشرق إلى المغرب الحاصلة لهما بقسر محدِّد لفلكيهما، والأخرى: الحركة الثانية وهي الحركة من توالي البروج من المغرب إلى المشرق، الحاصلة بحركة فلكيهما حركة ذَاتِيَّة، ولا يثبتون لهما حركة في الفلك كحركة

الحوت في الماء. وقال ابن العربي: لهما حركة في فلكيهما، والفلك عنده مثل الماء والهواء[1].

والدأب: العادة والدوام، لا ينقطع جريهما لإزالة الظلمة، وإصلاح النبات والحيوان وإنضاج الثمار بهما، قيل: الشمس تنضجها والقمر يلوِّنها، ومعرفة الفصول بالشمس نهارا، والشهور بالقمر للتوقيت للديون والأشياء المؤجَّلة والحجِّ والصوم وغير ذلك. ﴿**وَسَخَّرَ لَكُمُ الـيْلَ**﴾ للسكون والراحة ﴿**وَالنَّهَارَ**﴾ للكسب.

هذه سبع جمل صلات لـ«الذِي» متعاطفة، والجامع بينهنَّ بيان كمال قدرته وسعة نعمه على خلقه. واستدلَّ على وحدانيَّته تعالى علما وقدرة، بعشرة أَدِلَّة وزاد خلق السماوات وإنزال الماء بِأَنَّ بينهما جامعا خياليًّا وأمَّا المسند إليه **فمتَّحد** سبحانه وتعالى.

﴿**وَءَاتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ**﴾ قدَّر بعض: وما لم تسألوه، وذلك زيادة على السبع المتقدِّمة مِمَّا لا يحصره إلَّا الله عز وجل مِمَّا سألتموهن بالفعل أو بالإمكان، فالسؤال بلسان الحال أو بلسان القال، ومنه ما بالقلب فإنَّه أعطانا ما سألناه بألسنتنا وقلوبنا أو بقلوبنا، وما لم نسأله مِمَّا احتجنا إليه، أو زيادة على حاجتنا.

و«مِنْ» للابتداء والمفعول محذوف، أي ما يليق بكم، أو للتبعيض أي شيئا هو بعض الجنس الذي سألتموه، لا من كلِّ فرد بل من كلِّ صنف، ولا إشكال، وَلَمَّا كان هذا البعض هو الأصلح بحسب الحكمة كان كَأَنَّهُ أعطانا كلَّ ما سألناه، أو أعطى هذا بعض ما سأله غيره، مثل أن تسأل شيئا قد سأله

(1) مراد الشيخ بالفلاسفة علماء الهيئة، وما ذكره الشيخ هو من تخمينات الأقدمين يخالف ما وصل إليه العلم حديثا، راجع كتاب الإعجاز العلمي في القرآن الكريم (مع آيات الله في السماء) الفصل الخامس ص201 وما بعدها، للدكتور حسن أبو العينين.

غيرك في جملة أشـياء، فلم يعطه بل أعطيته أنت بحسب الحكمة وبالعكس، فقد أعطي المجموع كما سأل المجموع.

[نحو] وقـد أجيز زيـادة «مِـن» فـ«كلّ» مفعـول لـ«ءَاتَاكُـمْ»، والجارُّ والمجرور محذوفان، أي آتاكم من كلِّ ما سألتموه من الله، أو سألتموه اللهَ، أو الهاء لله فيكون الرابط محذوفا هو ضمير الشيء المطلوب، أي سألتموه إيَّاهُ.

﴿**وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللهِ لَا تُحْصُوهَآ**﴾ إن تعاطيتم أو أردتم عدَّها لم تقدروا عليه، وإن ابتدأتم عدَّها لم تتمُّوه، وسـواء عدُّ أنواعهـا أو عدُّ أفرادها كلٌّ من ذلك لا يطاق، ومن النعم منـع موانعها. وإضافة النعمة إلى الله للاسـتغراق. ومنها الشكر يحتاج إلى شكر لأنَّه نعمة وُفِّق الشاكر إليها.

﴿**إِنَّ الِانسَـانَ**﴾ الحقيقة في ضمن الأفراد لا الكل الاسـتغراقي، لأنَّ من الناس من لم يكفر ولم يظلم كالأنبياء ومن لم يكلَّـف كالأطفال، ومن عادة الناس الكفر والظلم إلَّا أنَّ منهم من يتوب ﴿**لَظَلُومٌ**﴾ للنعمة بإهمال استعمالها في العبادة، وما يوصل إليها، ولنفسه بحرمانها من منافعها الدِّينِيَّة وَالأُخرَوِيَّة، وبالتعرُّض لزوالها بإهمالها، ولعذاب الآخرة، والمـراد: كثير الظلم وعظيمه ﴿**كَفَّارٌ**﴾ عظيم الكفر وكثيره، بعبادة غير الله ووصفه بصفات خلقه.

أو ﴿ظَلُومٌ﴾: في الشدَّة يشكو ويجزع، ﴿كَفَّارٌ﴾: في النعمة يجمع ويمنع، أو ﴿ظَلُومٌ﴾: لنفسه ﴿كَفَّارٌ﴾: بنعمة ربِّه، وقيل: الظلوم: الشاكر لغير من أنعم عليه، والكفَّار: الجاحد لنعم ربِّه.

وختم هنا بـ﴿لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ لتقدُّم ذكر تبديل نعمة الله تعالى، وفي النحل بقوله: ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [سـورة النحل: 18] لتقدُّم ذكـر تفضُّلات، فذلك تحريض للرجوع إليه تعالى لكثرة نعمـه، وعن ابن عَبَّاس: الإنسـان أبو جهل. وقدِّم ظلوم للفاصلة.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ ءَامِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿35﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿36﴾ رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَوٰةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿37﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿38﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿39﴾ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿40﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿41﴾﴾

دعاء إبراهيم عليه السلام بعد بناء الكعبة

وذكَر بعضَ هذه النعم بقوله: ﴿**وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ**﴾ واذكر يا محمَّد وقت قول إبراهيم لله: ﴿**رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ ءَامِنًا**﴾... إلخ فإنَّ ذلك دعاء إبراهيم أبيهم لأهل هذا البلد ـ وهو مكَّة ـ بالرزق والأمن، ونهاهم عن عبادة الأصنام، وهذا في ضمن قوله: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الَاصْنَامَ﴾ وقريش بنوه، ودعا لهم بإقامة الصلاة، وذكر البلد هنا بالتعريف لعهده، ونكرة في سورة البقرة عن إبراهيم [في آية 126]، وهو فيها باعتبار أنَّه قبل جعله قرية، وهنا باعتبار أنَّه قرية يأمن أهلها، وفيها سأل أن يكون بلدا لا يخاف أهله، وهنا أن يزال خوفهم.

فأجاب الله دعاءه فجعله حرما لا يسفك فيه دم، ولا يظلم أحد، ولا يصاد صيد، ولا يختلى خلاً فيه، أي لا يقطع حشيشه الرطب.

وما في ســورة البقرة كقولك: اجعل هذا خاتما حسنا تشــير إلى المادَّة، وسألت أن يسبك منها خاتما حسنا، وما هنا كقولك: اجعل هذا الخاتم حسنا فقد تعمَّدت نحو الحســن دون الخاتميَّة بإحداث حســن فيه، كصقل وجعل فصٍّ فيه، وإنَّما ذكرت الخاتم توطئة.

﴿**وَاجْنُبْنِــي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُــدَ الَاصْنَامَ**﴾ اجعلنا في جنــب غير جنب عبادة الأصنام لا نتناول عبادتها، وهذا دعــاء بالمجموع لا بالجميع، لأنَّ الأنبياء لا يخافون عبــادة الأصنام، لعلمهم بالعصمــة منها بخلاف بنيــه، قبل أن يعلم بنبوءة مــن تنبَّأ منهم، أو اجمعنــا في أن لا نعبدها، أي اجعــل بنيَّ مثلي في ذلك، أو دعاء بالجميع قبل أن يعلم أنَّ الأنبياء معصومون، أو بعد علمه لكن صدر ذلك منه دهشا لشدَّة خوف الأنبياء، وهضما وتملُّقا له، وذكرا للفضل.

وأمَّا أن يجاب بــأنَّ المــراد: أَدِمْنَا فلا يفــكُّ عن ذلــك، لأنَّ الأنبياء لا يعبدونها ولا يدومون فــي عبادتها، وبنيهم قد يعبدونها فلــم تتَّحد الجهتان، ويجاب بأنَّه لا مانع من قوله: أدمني في مجانبتها، وأدم أولادي فيها، ســواء تقدَّم منهم إشراك أو لم يتقدَّم.

وقيل: المراد بنوه مــن صلبه وغيــره الموجودون من ذريتــه في حياته، والمؤمنون. وتقدَّر «عن» أي أُجنبنا عن أن نعبد، وإن جعلناه بدل اشتمال قدِّر «عنَّا» هكــذا: اجنب عبادتنــا الأصنام عنَّــا، ومعنى عبادتنا الأصنــام العبادة الممكنة، والمراد: بنوه من صلبه ومن غيره.

وليس كلُّ دعاء النبيء مســتجابا وقد أخربت الكعبــة بعده، وعبد بعض ذرِّيَّتــه الأصنام كقريش، وقــد قال الله ﷻ لــه: ﴿لَا يَنَالُ عَهْــدِيَ الظَّالِمِينَ﴾ [ســورة البقرة: 124] وأمَّا إخراب الكعبة آخر الزمان فلا يــرد علينا، لأنَّ المراد ما قبل ذلك، وقد قيل: إنَّ إخرابها قبل هذا الدعاء، وإنَّما دعاؤه بعد البناء، وأيضا المراد عن أهلها لا أن لا تخرَّب.

﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ﴾ سألتك العصمة منهنَّ لأنهنَّ، فهذا تعليل جملي لقوله: أجنبني ﴿أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ أسند الإضلال إلى السبب وحقيقته أضلَّ الشيطان بهنَّ كثيرا، أو أضلَّ الله بهنَّ كثيرا، كما ورد: ﴿يُضِلُّ مَنْ يَّشَآءُ﴾ [سورة النحل: 93] ﴿وَمَنْ يُّضْلِلْ فَلَن تَجِدَ...﴾ [سورة الكهف: 17] أو شبههنَّ بالعاقل المغوي، وأشار إلى التشبيه بإثبات الإضلال، وكان بضمير الإناث لأنَّهنَّ إناث كاللات والعزَّى ومناة، وجمع الضمير لأنَّ الأصنام جمع قلَّة لغير العقلاء، وإذا جمعت بلفظ الذكور العقلاء فباعتبار اعتقادهم عظمتها.

﴿فَمَن تَبِعَنِي﴾ على التوحيد والعمل بمقتضاه ﴿فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ من أهل ديني أي يثاب بالخير كما أثاب، ويمنع من السوء أو من أهل ولايتي أو من أهل حبِّي كأنَّه بعضي لا ينفكُّ عنِّي، في أمر الدين وأمر الآخرة.

﴿وَمَنْ عَصَانِي﴾ خالفني في دينك بالشرك، التقدير: «فتاب» بدليل قوله: ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ﴾ له ﴿رَّحِيمٌ﴾ أو غفور له رحيم بهدايته إلى دينك، وإمهاله إلى أن يتوب، وليس من حكمة الله أن يغفر الشرك أو الكبيرة مع الإصرار، أو هذا الدعاء قبل أن يعلم أنَّ الدعاء بالغفران للمشرك لا يجوز كما استغفر لأبيه.

﴿رَبَّنَآ إِنِّيَ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي﴾ قال هنا: «رَبَّنَا» ولم يقل: «ربِّ» لأنَّ المدعو له هنا أكثر، كذا المدعو به هنا التوحيد وإقامة الصلاة والرزق، لأنَّه إنَّما يقيم الصلاة الموحِّد لا المشرك، والمدعو له هنالك خصوص بنيه وبني بنيه الحاضرين أو المؤمنين، والمدعو به هناك مجانبة الأصنام.

ويقدَّر مفعول، أي أسكنت ذرِّيَّة من ذرِّيَّتي، أو بعضا من ذرِّيَّتي مع سريَّتي هاجر، وذلك البعض إسماعيل وذرِّيَّته، لا أولاد إسحاق وأولاد مدين، ولا إسحاق ومدين فإنَّ محلَّهما الشام ومدين، وإسكان إسماعيل إسكان لذرِّيَّته بعدُ لأنَّهم في ضمن إسماعيل وفي صلبه، ولو حدثوا بعد، ويمكن أن

يكون هذا الدعاء بعد وجود بعض أولاد إسماعيل، وهو قيدار، ولم يلد إلَّا إيَّاهُ فصحَّ التعبير بالماضي.

لم يدع إبراهيم بالتنجية من نار نمروذ حين رآهم مشتغلين بها، ولا حين ألقي إليها، وسأله جبريل: هل لك حاجة؟ أو قال له: ادع الله، فقال: قد علم حالي مع شدَّة، ودعا للإسلام لقوَّة رغبته في الدين، فمازال مترقِّيا في أطوار الكمال.

﴿بِوَادٍ﴾ في واد ﴿غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ هو وادي مكَّة، لأنَّه لا ينبت لكثرة حجارة أرضه ﴿عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ المعظَّم الممنوع من الخراب، الذي لا تحلُّ إهانته، ولم يستول عليه الطوفان بل أعتقه الله منه ومن كلِّ جبار، وكان من آدم أو من الملائكة فكان يسمَّى عتيقا لقدمه، أو لنجاته من التلف ولو اندرس، وبعد اندراسه سمَّاه بيتا باعتبار ما كان عليه، أو باعتبار ما سيكون لأنَّه بناه بعد هذا الدعاء لأنَّه أسكن ابنه إسماعيل مع أمِّه هاجر قبل بناء الكعبة.

ويجوز أن يكون هذا الدعاء بعد ما شبَّ إسماعيل وبعد بنائهما الكعبة بل ذلك قولان مرويان، ولا بدَّ أنَّ الله أبان أرسام البيت، وكذا الكلام في كونه محرَّما مع أنَّه اندرس.

﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلوٰةَ﴾ عند بيتك المحرَّم، هذا دعاء كما مرَّ، وهو من أمر الغائب، أمرهم ودعا الله أن يوفِّقهم لإقامة الصلاة، ويجوز أن تكون اللام تعليليَّة متعلِّقة بـ«أَسْكَنتُ» أي أسكنتهم في واد لا ماء فيه ولا ثمار ولا نبات لإقامة الصلاة عند البيت. وكرَّر النداء ووسطه في دعائه، لأنَّ مقصوده بالذات إقامة الصلاة عند البيت، والحرم كلُّه عند البيت.

ذكر أنَّ الوادي غير ذي زرع فعلم أنَّه لم يسكنه للزرع بل للعبادة المدلول عليها بذكر البيت المحرَّم، التي هي أفضل العبادات، وهي إقامة الصلاة، فكأنَّه قال: ما أسكنته إلَّا لها، ولا يلزم التفسير بهذا الحصر، اللهمَّ إلَّا إضافيًّا

إلى الزرع، فإنَّه قصد أيضا مناسك الحجِّ وغيرها فلا حاجة أيضا إلى تعليق اللام بـ«أَسْكَنتُ»، مؤخَّرا للحصر.

﴿فَاجْعَلَ اَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ﴾ قلوبا، جمع قلَّة أريد به الكثرة إلَّا أنَّها قليلة بالنسبة، وسواء جعلنا «مِنَ» للتبعيض أو للابتداء، كأنَّه قال: أفئدة ناس، أو أفئدة من أفئدة الناس، بخلاف ما لو قال: أفئدة الناس فإنَّه يعمُّ، فيزدحم عليه فارس والروم واليهود والنصارى والمجوس كما قال سعيد بن جبير عن ابن عَبَّاس: لأنَّ دعاءه مستجاب.

﴿تَهْوِي﴾ تميل بسرعة ﴿إِلَيْهِمْ﴾ لا لذاتهم بل لزيارة البيت، وذلك دعاء من إبراهيم للمؤمنين بأن يرزقهم الله الحجَّ، ولسكَّان مكَّة من ذرِّيَّته بالرزق مِمَّن يأتيهم من الناس ﴿وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ﴾ أجاب الله دعاءه فنقل إليها الطائف من الشام، وجعله حرما آمنا تجبى إليه ثمرات كلِّ شيء، حتَّى قيل: إنَّه تجتمع فيه فواكه الفصول في يوم واحد.

[قصص] ويروى أنَّ جبريل قلع أرضا من فلسطين ذات ثمار فطاف بها سبعا على البيت، ووضعها قريبا من مكَّة، فسمِّيت طائفا، وذلك لدعوة إبراهيم بقوله: ﴿وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ﴾ عموما في دعائه ولا قصد له في الطائفة ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ نعمك.

[قصص] جاء بابنه إسماعيل وهو يرضع وسُرِّيَّته هاجر من الشام، وأنزلهما أرض مكَّة مع جراب تمر وسقاء ماء، ولا بناء بها ولا أنيس ولا ماء ولا شجر، وأدبر عنهما ومضى، وقالت ﵂ مرارا: كيف تتركني هنا؟ ولم يلتفت إليها فقالت: آلله أمرك؟ فقال: نعم، فقالت: إذا لا يُضيِّعني، وذلك بعد نار نمروذ، وقبل ولادة سارة إسحاق، وَلَمَّا علا الثنيَّة بحيث لا تراه رفع يديه إلى السماء مستقبلا فقال: ﴿رَبَّنَآ إِنِّيَ أَسْكَنتُ﴾ إلى ... ﴿يَشْكُرُونَ﴾ وعطشا بعد نفاد السقاء، فسارت إلى الصفا وعلته لعلَّها ترى أحدا، وذهبت إلى

المروة كذلك، وتردَّدَت بينهما سبعا، فكان الطواف بينهما سبعا، وسمعت صوتا فتبعته فإذا ملك عند ابنها في محلِّ زمزم، وهو جبريل فضرب جبريل بعقبه أو جناحه موضع زمزم فنبع، وشربا، وكانت تحوط عليه، فقال الملك لا تخافي عليه فإنَّ هذا المقام يعمره ابنك ويبني هو وأبوه هنا بيتا لله عَزَّ وَجَلَّ.

[قصص] ومرَّ بهم قبيلة من جرهم ذاهبين إلى الشام، وعطشوا أو نزلوا ورأوا طيورا ترفرف، فقالوا: لا تفعل ذلك إلَّا على الماء، ولا ماء هنا! فأرسلوا رجلا فوجد الماء فأخبرهم وطلبوا النزول معها على الماء على أن يشركوها في ألبانهم، فقالت: نعم، وقد احتاجت إلى أنيس وشرطت أن لا حقَّ لهم في الماء إلَّا الانتفاع، فأنعموا وأرسلوا إلى أهلهم فنزلوا، وَلَمَّا شبَّ إسماعيل تعلَّم منهم العَرَبِيَّة ففاقهم وأعجبهم وتزوَّج منهم ثمَّ ماتت أمُّه.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾ من حزن القلب وبكاء العين، وأحوالنا ومصالحنا، وأرحم بنا منَّا لأنفسنا:

وأرحم بي منِّي لنفسي وأرف فما جزعي مِمَّا أصاب وما عذري؟

لكن ندعوك توحيدا لك إذ لا قاضي حاجة سواك ولا أرحم منك، واستعجالا لنيل ما عندك، فمن شأن الإنسان العجلة ولو كان الأولى تركها، وجبرا لِمَا نالني من مفارقتي لولدي الرضيع وأمِّه السُّرِّيَّة الموافقة لي دينا ودنيا المطيعة لك، وإظهارا للتضرُّع والتوكُّل فإنَّك المرجوُّ ظاهرا وباطنا، ورجاءً لأنْ تحييهما في واد غير ذي زرع، وتخفيفا للحزن المتمكِّن في قلبي على ذلك، واستنجازا لقولها: «إذًا لا نخشى، تركتنا إلى كافٍ» حين قلت لها الله أمرني بذلك[1]، وكرَّر النداء للمبالغة في التضرُّع.

---

(1) لا يخفى عليك أنَّ هذا الكلام أورده الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ على لسان إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ مناجاة ودعاء لله تعالى.

﴿**وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللهِ مِن شَـيْءٍ فِي الاَرْضِ وَلَا فِي السَّمَآءِ**﴾ لأنَّ علمه لنفسه لا بتعلُّم وحدوث، وما بذلك لا يتغيَّر. و«مِنْ» للاستغراق تصريحا، ولو كان بدون «مِنْ» لكان ظاهرا لا تصريحا إلَّا بعلمنا من خارج أنَّه لا يخفى عليه شيء مَّا، وقيل: النكرة في سياق السلب تَعُمُّ تصريحا لا ظهورا فقط، ولو لم تدخل عليها «مِنْ» الزائدة.

وذلك من كلام إبراهيم على الصحيح لأنَّ ما قبله وما بعده من كلامه، وقيل: من كلام الله ﷻ معترض، ولا سيما أنَّ بين الكلامين مدَّة، وعلى الأوَّل الأصل: «وما يخفى عليك»، ووضع الظاهر موضع المضمر قصدا إلى ذكره تعالى باسمه الأعظم، الذي يستجاب به، التفاتا من الخطاب إلى الغيبة، وعلى الثاني الأصل: «وما يخفى عليَّ من شيء في الأرض ولا في السماء»، على الالتفات السكَّاكي، من التكلُّم إلى الغيبة، اعترض به تصديقا لكلامه قبل تمامه.

وقدَّم «الأرض» للفاصلة، ولأنَّ الداعي والمدعو له في الأرض، وليكون علمه بما في الأرض كالبرهان لعلمه بما في السماء، والأمكنة عنده سواء، فإذا علم ما في الأرض فعلمه بما في السماء أولى بحسب بادئ الرأي، لأنَّها في جهة محلِّ اللوح والوحي، وهو متنزِّه عن الحلول.

﴿**الْحَمْـدُ للهِ الذِي وَهَبَ لِي عَلَـى الْكِبَرِ**﴾ «عَلَى» للاستعلاء مجازا، أو بمعنى «مع». ﴿**إِسْمَاعِيلَ**﴾ لتسع وتسعين سنة من عمري ﴿**وَإِسْحَاقَ**﴾ لمائة واثنتي عشرة، وقيل: إسماعيل لأربعة وستِّين، وإسحاق لتسعين، وعن سعيد بن جبير: ما ولد إبراهيم إلَّا بعد سبع عشرة سنة [من دعائه].

وهذا حمد لله ﷻ على نعمة التوليد في غير أوانه، وليس هذا من الدعاء فضلا عن أن يعترض بأنَّه لا يصحُّ، لأنَّ إسحاق حين الدعاء غير موجود، لأنَّه عند وضع هاجر وإسماعيل عند البيت، وإسحاق ولد بعد ذلك، فكيف يقول:

الحمــد لله الذي وهب لي إســحاق؟. وقد يكــون الدعاء والحمــد بعد ولادة إسحاق، وروي أنَّه لَمَّا وضعها وابنها استقبل الكعبة ودعا، أي استقبل موضعها.

﴿إِنَّ رَبِّي لَسَــمِيعُ الدُّعَآءِ﴾ عالم به أو قابل لــه، أو دعاؤه قابل أو عالم، كحسن الوجه بالإضافة، لكن على الإسناد المجازي، بأن نقل إلى فعل بالضمِّ فهو لازم، أو نزِّل بمنزلة اللازم فساغت منه الصفة المشبِّهة.

[نحو] بل أجاز الفارسيُّ صوغها من المتعدِّي لكن شرط في إضافتها إلى الفاعل عدم اللبس بإضافتها إلى المفعول، وهنا لبس، وأجيب بِأَنَّ عدم اللبس يشترط في إضافته إلى الفاعل على القطع، وهنا ليس كذلك لاحتمال المفعول والفاعل، فإذا أريــد المبالغة يختار الحمل على إضافته إلــى الفاعل بالتأويل المذكور، وإلَّا فإلى المفعول.

دعا الله في الولد فوهبه، وذلــك من أجلِّ النعم، لأنَّه فــي غير أوانه كما أشار إليه بذكر: «سَمِيعُ الدُّعاءِ» كأنَّه قال: ســألته فأعطاني لأنَّه سميع الدعاء، وقد قال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [سورة الصافات: 100].

﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَوٰةِ﴾ بشروطها وشطورها والدوام عليها، [قلت:] **وترك الدوام عليها غير إقامة لهــا**، فالدوام عليها إقامة لها حقيقة كشــطورها وشــروطها لا مجاز، فليس في ذلك جمع بين الحقيقة والمجــاز، أعني أنَّها حقيقة عرفيَّة شَــرعِيَّة، كما أنَّ إطلاق الإقامة في شــطورها وشــروطها حقيقة كذلك، والإقامة في اللغة: تقويم الجسم كالعود ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ «مِنْ» للابتداء ولا استغراق فيه، فيصدق بما إذا جعل بعض ذرِّيَّته، كما إذا جعلت للتبعيض.

والتقدير: واجعــل قوما من ذرِّيَّتي مقيمي الصــلاة، ولو عطف على الياء لقيل: مقيمي الصلاة، بالجمع إلَّا على طريق العطف على معمولي عامل، أي اجعلني مقيم الصلاة وقوما من ذرِّيَّتي مقيمهــا، والتبعيض لعلمه بالوحي أنَّ من ذرِّيَّته كفَّارا، أو باستقرائه أنَّ الأمم لم تخل من كفَّار.

﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَـآءِ﴾ ما زال يكرِّر ذكر الله مبالغة فــي التضرُّع، والمراد: الدعاء المذكور، أو المقصود بالدعاء هنا العبادة فلا تكريــر، أو قوله: «رَبَّنَا» متعلِّق بقوله: «وَمِن ذُرِّيَّتِي» فلا تكريــر أيضا، وكذلك إن أريد الدعاء الماضي والآتي فلا تكرير.

ومن الآتي قولــه: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِــي﴾ هذا قبل أن يعلــم بالعصمة فخاف صدور الذنوب منه بعدُ، أو خاف أن يكون قد أذنب ولم يعلم، أو اغفر لي ما فعلته أو أفعله من مكروه، أو ما لا ينبغي، أو ما لا يعدُّ في حقِّ الأنبياء، ويعدُّ في حقِّ غيرهم[1]، أو **تضرُّعا وتعظيما لله** ﷻ **وهضما لنفسه** ﴿وَلِوَالِدَيَّ﴾ قاله قبل أن يعلم أنَّ أباه شــقيٌّ، أجاز الله الدعاء بالمغفرة لاحتمال أنَّه يتوب، وقد علم الله أنَّه لا يتوب، ثمَّ بيَّن الله له أنَّه لا يتوب، ونهاه عن الاستغفار له، وأمَّا أمُّه فقيل: آمنت وقيل: لم تؤمن، وقالت الشــيعة: أبــواه مؤمنان وأبوه الكافر جدُّه لأمِّه أو عمُّه، وقيل: إنَّ أمَّه مؤمنة وإنَّ أباه نــوح، ويبعد ما قيل: إنَّه أراد بوالديه آدم وحوَّاء، وقيل: أراد أباه وأمَّه على شــرط التوبة، أو أراد بالمغفرة سببها وهو الإسلام، كأنَّه قال: اللهمَّ اهدهما للإسلام، كما تقول الأنبياء: اللهمَّ اهد قومي، ويبحث بأنَّه لو كان كذلك لزم نسخ جواز «اللهمَّ اهدِ قَوْمِي» لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اسْــتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ...﴾ [ســورة التوبة: 114] يجاب بأنَّ الاستغفار على هذا لا يجوز، ولو أريد به طلب الهداية فيجوز: «اللهمَّ اهده»، ولا يجوز «اللهمَّ اغفر له»، ولو أريد به الهدايــة، وفي ذلك جمع بين الحقيقة والمجاز، أو يقدَّر: واغفر لوالديَّ، أو من عموم المجاز.

﴿وَلِلْمُومِنِينَ﴾ عمَّم بعد تخصيص نفسه وذرِّيَّته، وقدَّم نفسه لأنَّ ذلك هو الأحقُّ، وأمَّا ذرِّيَّته ففي دعاء آخر، وخصَّها لأنَّها أحقُّ كنفس الإنسـان، ولأنَّ

(1) لعل الأنسب: «ما يُعدُّ في حقِّ الأنبياء، ولا يُعدُّ في حقِّ غيرهم». تأمل.

إيمان ذرِّيَّته سبب لإيمان الأتباع، قال الشعبيُّ: ما يسرُّني من دعوة نوح وإبراهيم عليهما السلام للمؤمنين والمؤمنات حمر النعم.

[بلاغة] ﴿**يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ**﴾ يثبت، شبَّه ثبوته بالقيام على القدمين، وجعله من جنسه تأكيدا للمعقول بالمحسوس، فاشتقَّ منه على الاستعارة التبعيَّة «يَقُومُ» بمعنى يثبت، أو شبَّه الحساب بالإنسان ورمز إليه بلازم الإنسان وهو القيام على القدمين، الذي إثباته تخييليَّة لهذه المكنيَّة المرموز إليها، ووجه الشبه الظهور والتشدُّد إلى شيء، أو يقدَّر مضاف أي يوم يقوم أهل الحساب إلى الحساب، أو أهل الحساب إليه، فحذف وأسند القيام إلى الحساب مجازا عقليًّا.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿42﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿43﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿44﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿45﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿46﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿47﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿48﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿49﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿50﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿51﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿52﴾﴾

عاقبة الكفَّار وأحوال يوم القيامة

﴿**وَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ**﴾ كفَّار مكَّة فيدخل غيرهم بالقياس وبالنصوص الأخر، أو الكُفَّار مطلقا، فيدخل كُفَّار مكَّة بالأولى وبالذات، شبَّه ترك العقاب عاجلا بغفلة الإنسان لجامع عدم العمل في شيء،

وذلك أنَّ الغفلة معنى يمنع الإنسان من الوقوف على حقائق الأمور، أو سهو يعتريه من قلّة التحفُّظ والله ﷻ متنزِّه عنهما.

فالمعنى: إنَّ الله ﷻ لا يترك الانتقام من الظالم للمظلوم، فالآية تسلية للمظلوم وتهديد للظالم، ولا يجوز أن يكون المعنى: لا تحسبنَّ الله يعاملهم معاملة الغافل، لأنَّ الله قد عاملهم بها فلا ينهى عن حسبانها، إلَّا أن يراد الغافل الذي لا ينتبه بعد، وعلى كلِّ حال لا يصدر ذلك منه ﷺ فكيف يُنهى عنه؟ مع أنَّه أعلم الناس بما يحال في حقِّ الله ﷻ وبما يجب؟ الجواب: إنَّ المراد التهييج على قُوَّة الثبات على ترك الحساب.

أو الإخبار بأنَّه لا يغفل وأنَّه رقيب يعاسرهم في الحساب، أو الخطاب لغيره ﷺ مِمَّن يمكن توهُّم الغفلة منه، أو لمن جرى الظلم بينهما، فهو نهي للمظلوم ليتسلَّى، وللظالم ليرتدع ﴿**إِنَّمَا يُوَخِّرُهُمْ**﴾ يؤخِّر عقابهم، وأسند التأخير إليهم مع أنَّه للعقاب تهويلا عليهم، هم مؤخَّرون لأمر مهول ﴿**لِيَوْمٍ**﴾ لأجل يوم يستحقُّ أن يكون العقاب فيه أو إلى يوم.

﴿**تَشْخَصُ فِيهِ الَابْصَارُ**﴾ ترتفع عن قدَّامها إلى فوق وجوانب، فهي تتحرَّك أيضا في داخلها، أو تفتح وتلزم النظر في موضع واحد. والجملة نعت «يَوْمٍ»، و﴿الَابْصَارُ﴾: أبصار الظالمين، فـ«ال» للعهد أو للحقيقة يراد بها، لا للاستغراق، لأنَّ المقام ليس له، إلَّا أن يقال: المراد يشخص فيه كلُّ بصر للهول فكيف ينجو هؤلاء من الشخوص مع ظلمهم؟. ولا نسلِّم أنَّ أبصار المؤمنين لا تشخص فإنَّه يوم شديد على كلِّ أحد.

﴿**مُهْطِعِينَ**﴾ مسرعين إلى جهة الداعي في صخرة بيت المقدس إلى المحشر، وهو إسرافيل [يقول:] «أيَّتها العظام البالية والأوصال المتقطِّعة، واللحوم المتمزِّقة، والشعور المتفرِّقة، إنَّ الله يأمركنَّ أن تجتمعن لفصل

القضاء». أو المراد: مقبلين بأبصارهم لا يطرفون بها خوفا وإجلالا، وهذا مجاز، والأصل الإقبال بالذات.

وقيل: أصل الإهطاع الإقبال على الشيء، فإطلاقه على الإسراع أيضا مجاز أو حقيقة عرفيَّة. والنصب على الحال من هاء محذوفة عوّض عنها «ال»، أو مجرورة بحرف، أي بأبصارهم، أو الأبصار لهم أو منهم، أو يقدَّر: «يبعثون مهطعين».

﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ حال ثان ممَّا مرَّ، أو من ضمير «مُهْطِعِينَ»، أو من «الَابْصَارُ» مبالغة بأنَّها كعاقل حتَّى جمعت جمعه، ووصفت بارتفاع الرأس نفسه، كما مَرَّت المبالغة بأنَّ الدعاء قابل أو عالم، وإضافته لَفظِيَّة، لأنَّه وصف للحال أو للاستقبال فصحَّ حاليَّته، ولو أضيف لمعرفة. والإقناع: رفع الرأس بجملته فلا يتكرَّر مع رفع العين إذا فسَّرنا به ﴿تَشْخَصُ﴾، وقيل: الإقناع خفض الرأس، فهو من الأضداد.

﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ حال ممَّا مرَّ، أو من ضمير «مُقْنِعِي» أو من الهاء لا بدل من «مُقْنِعِي» لأنَّه لا تبدَّل جملة من مفرد، أو هو مستأنف. و«يرتدُّ» مطاوع ردَّ، أي لا يردُّون أبصارهم فلا ترتدُّ، أي لا ترجع. والطرف: العين، والمراد الجمع، وسوَّغ ذلك الإضافة إلى ضمير الجمع، أو أفرد لأنَّه مصدر في الأصل، أو المراد المصدر، أي لا يرجع إليهم نظرهم من الموضع الذي تنظر فيه العين إلى أجسادهم.

﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ اسمِيَّة موجبة عطفت على فِعلِيَّة سالبة، أو حال ممَّا مرَّ، أو من إحدى الهاءين، ومعنى ﴿هُوَآءٌ﴾ خلاء، وكلُّ خال هواء، أي خالية عن الفهم والتفكُّر، وعن جريان التكليف للأمور لشدَّة الدهش، أو خالية عن الخير، أو عن العقل، أو تهوي في أجوافهم ليس لها مكان تستقرُّ فيه، **أو [كأنَّ] القلوب يومئذ زائلة عن أماكنها، والأبصار شاخصة والرؤوس مرفوعة إلى السماء لشدَّة الهول.**



﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ﴾ أنذر يا محمَّد الناس: قومك وغيرهم، أي أخبرهم بما يخافون، وهو متعدٍّ لاثنين: الثاني هو قوله: ﴿يَوْمَ﴾ على حذف مضاف، أي أنذر الناس هول يوم ﴿يَاتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾ أي عرِّفهم هوله الآن ليعملوا له، وهو يوم القيامة، أو يوم الموت فإنَّه أوَّل وقت عذابهم ﴿فَيَقُولُ الذِينَ ظَلَمُواْ﴾ من أهل مَكَّة وغيرهم.

﴿رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ﴾ عن العذاب، أو أخِّر عذابنا لننجو منه أبدا، بأن تردَّ الدنيا وأموالها وبناءها وتكليفنا فيها، وتمهلنا فيها ولو مدَّة قليلة، أو تحضر لنا ذلك في مقامنا هذا فنستدرك ما فات ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ مدَّة من الزمان قصيرة، مقدار ما نقضي ما ضيَّعنا، أو مقدار آجالنا السابقة في الدنيا، فإنَّها قليلة ولو طالت، أو هذا يوم الموت لا يوم القيامة إذ أيقنوا بالعذاب حين الموت ﴿نُّجِبْ دَعْوَتَكَ﴾ دعاءك السابق لنا في الدنيا إلى التوحيد، والعمل الصالح والتقوى ﴿وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ﴾ هذا كالنعت الكاشف، لأنَّ من أجاب الدعوة فقد اتَّبَعَ الرسول، وإجابة الدعاء اتِّبَاع للرسل، أو ﴿نَتَّبِعِ الرُّسُلَ﴾ فيما توحي إليهم أيضا زيادة على ما مضى.

﴿أَوَ لَمْ تَكُونُواْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ﴾ أي في الدنيا ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ يقول لهم الملائكة أو الملك الواحد كجبريل، أو يخلق الله الكلام في آذانهم أو قلوبهم، أو قول حال.

ويتبادر هنا أن لا يُقدَّر كلام بين الواو والهمزة لأنَّا إذا قدَّرنا: أتمنَّيتم التأخير؟ أو أطلبتم التأخير؟ يبقى «لَمْ تَكُونُواْ أَقْسَمْتُم» نفيا وإخبارا مع أنَّ المراد به الإثبات بالاستفهام التوبيخيِّ، أو التقريريِّ، فإنَّهم مُقْسِمُون ما لهم من زوال، وساكنون في مساكن الذين ظلموا لا غير ساكنين، وهكذا...

وإن قيل: انسحب على ذلك تمنِّيهم التأخير على معنى: تمنَّيتم التأخير، أو طلبتموه وتمنَّيتم أنَّكم «لَمْ تَكُونُواْ أَقْسَمْتُم...» فبأيِّ لفظ يفاد هذا

أبمذكور أو بمحذوف؟ نعم ينسحب التوبيخ بتقدير: «ألم تؤخَّروا في الدنيا ولم تكونوا أقسمتم».

والمراد: الزوال عن الموت، أو عن قبورهم بالبعث، كما قال الله ﷻ عنهم: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللهُ مَن يَّمُوتُ﴾ [سورة النحل: 38] وهذا أنسب بأنَّ اليوم يوم القيامة، أو الزوال عن الدنيا بالموت، علموا أنَّهم يموتون لكن يقولون بطرا: لا نموت، أو حالهم حال من يعتقد أنَّه لا يموت، إذ أملوا بعيدا وبنوا مشيدا ﴿يَحْسِبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُ﴾ [سورة الهمزة: 3].

يقول أهل النار: ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ...﴾ [سورة غافر: 11] فيجيبهم الله ﷻ: ﴿ذَالِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ اللهُ وَحْدَهُ...﴾ [سورة غافر: 12]، ثُمَّ يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا...﴾ [سورة السجدة: 12]، فيجيبهم ﷻ: ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ...﴾ [سورة السجدة: 14] ثمَّ يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ...﴾، فيجيبهم: ﴿أَوَ لَمْ تَكُونُواْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ...﴾، ثمَّ يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا...﴾، فيجيبهم: ﴿أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم...﴾ [سورة فاطر: 37]، ثمَّ يقولون: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا...﴾ [سورة المؤمنون: 106]، فيجيبهم تبارك وتعالى: ﴿اخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ...﴾ [سورة المؤمنون: 108]، فهذه خمسة أدعية وخمسة أجوبة لا جواب لهم بعدها، ولا يَتَكَلَّمُون بعدها إلَّا نباحا وزفيرا، [قلت:] وذلك الترتيب عندي والعدد لا يتعيَّنان، ولو تمَّ الأخير. أعاذنا الله الرحمن الرحيم ببركة ما هو الاسم الأعظم الذي لا يردُّ الداعي به من ذلك.

﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الذِينَ ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ﴾ بالكفر والمعاصي، كعاد وثمود، وهذا يقوِّي أنَّ الناس عامٌّ لا قريش خاصَّة، لأنَّ قريشا لم يسكنوا منازل عاد وثمود، فهذه السكنى لغيرهم، والكلام على المجموع فيها لا على الجميع، اللهمَّ إلَّا أن يقال: سكنها أوائل قريش، أو أريد بالسكنى ما يشمل مبيتهم فيها، أو نزولهم مطلقا فيها حين السفر.

والجملة معطوفة على «أَقْسَمْتُمْ»، فالاستفهام منسحب عليها، وكذا ما بعدها كأنه قيل: «ألم تكونوا سكنتم؟ ألم تكونوا تبيّن لكم؟... ألم تكونوا ضربنا لكم الأمثال؟».

﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ فاعل «تَبَيَّنَ» ضمير مستتر عائد إلى الحال، أو الفعل المدلول عليه بـ«فَعَلْنَا»، فعل الله الهلاك والعذاب، وإخراب المنازل كما تشاهدونها في أسفاركم، وتسمعون في الأخبار، وقال الكوفيُّون: كيف فعلنا بهم فاعلُ «تَبَيَّنَ».

﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ الاَمْثَالَ﴾ بيّنّا لكم في القرآن أخبارا عن الأمم السابقة شبيهة بالأمثال في الحسن والغرابة، من الجزاء على أفعال، وفي الغرابة من أفعالهم والجزاء عليها بأنواع الهلاك.

فـ«الأمثال» استعارة تصريحيّة، شبّه الأفعال والجزاء عليها بالأمثال المضروبة، أو بيّنّا لكم أمثالكم في الكفر والعقاب، وهم الأمم السابقة والأوّل أولى.

﴿وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ﴾ استخرجوا مكرهم من أنفسهم، ولم يبقوا منه شيئا في مضرّة رسول الله ﷺ، بالقتل أو التقييد أو الإخراج ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ [سورة الأنفال: 30] لإبطال الحقّ، وإظهار الباطل، ودلَّ على استفراغ مكرهم التأكيد بالمصدر المضاف إليهم إضافة استغراق.

﴿وَعِندَ اللهِ مَكْرُهُمْ﴾ بالنبيء والدين معلوم، أي عند الله جزاء مكرهم، أو مكرهم عنده ومكتوب، فيجازيهم عليه، فإضافة «مكر» للهاء إضافة للفاعل كالسابق واللاحق، أو عند الله جزاء بمكره لهم، فالإضافة للمفعول، أو يمكر بهم بإبطال مكرهم.

والمكر في هذا متعــدٍّ لتضمُّنه معنى الضرِّ أو الجــزاء، أو تقدَّر الباء، أي مكر بهم. وتسمية الجزاء مكرا استعارة ومشــاكلة، وقيل: المكر في ذلك كلِّه بمعنى الكفر كقوله ﷻ: ﴿يَكَادُ السَّــمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الَارْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا اَن دَعَوْاْ لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ [سورة مريم: 90ـ91].

﴿**وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ**﴾ «إن» مخفَّفة، واللام للتعليل فــي قوله: ﴿**لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ**﴾ لعظمه وشــدَّته، ولكن لم تــزل، أي معدًّا لإزالة الجبال المســتعار لفظها للمعجزات والآيات لجامع الثبــات، أي أعدُّوا مكرا عظيما لدفع الحقِّ الذي هو كالجبال، ويجــوز أن يكون شــرطا وَصْلِيًّا أغنى عــن جوابه قوله: ﴿وَعِندَ اللهِ مَكْرُهُــمْ﴾ أي عند الله مكرهم يجازيهم، ولــو كان مكرهم عظيما معدًّا لإزالة ما هو عظيم، واللام للتعليل.

أو المراد: المقاربة لزوال الجبال الحقيقيَّة مبالغة بالتشبيه البليغ، بحذف أداة التشــبيه، فيكون كقوله: ﴿يَكَادُ السَّــمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَــقُّ الَارْضُ وَتَخِــرُّ الْجِبَالُ﴾ [ســورة مريم: 90]؛ وقيــل: نافية، والــلام لام الجحود، أي وما مكرهم تزول منه الجبال، بل هو هيِّن كقولــه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ﴾ [سورة الأنفال: 33] والجبال في هذا على حقيقتها، أو مراد بها الحقُّ العظيم، وهو المعجزات والآيات.

﴿**فَلَا تَحْسِبَنَّ اللهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُــلَهُ**﴾ إذا تقرَّر أنَّ مكرهم مكتوب عند الله، وأنَّه مجازيهم عليه، وأنَّ مكرهم لا يزول به ما هو كالجبال، وهو دين الله ﴿فَلَا تَحْسِــبَنَّ اللهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُــلَهُ﴾ وأنت من رســله فلا يخلف وعدك بالنصر ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُــلَنَا﴾ [ســورة غافر: 51]، ﴿كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَاْ وَرُسُــلِيَ﴾ [ســورة المجادلة: 21]. و«وَعْدِهِ» مفعول ثان قــدِّم الوعد وأضيف إليــه «مُخْلِفَ» تخفيفا، وإنَّما قدِّم علــى طريق الاعتناء به، وأنَّه المقصــود بالإفادة، كما قدَّم «شركاء» على «الجن» في قوله: ﴿وَجَعَلُواْ للهِ شُــرَكَآءَ الْجِنَّ﴾ [سورة الأنعام: 100]

لأنَّ الاعتناء بذمِّ الإشراك أقوى من ذمٍّ من يجعلونه شريكا، وأَدْخَلُ في القصد بالإفادة، كذلك نفي خلف الوعد أدْخلُ في القصد من كون المخلف رسله، لأنَّ عدم خلفه نفي لصفة الذمِّ عنه فهو أحقُّ مطلقا، فيتفرَّع أنَّه في حقِّ الرسل أولى من غيرهم، والمفعول الأوَّل في غير باب ظنَّ هو الذي هو فاعل في المعنى، والرسل يأخذون الوعد فهم المفعول الأوَّل، وأولى من هذا أنَّ الأوَّل هو الوعد لأنَّه الفاعل لأنَّه المتخلِّف.

﴿**إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ**﴾ غالب لا يَغلبه مكر ماكر، ولا يُدفع عمَّا أراد ﴿**ذُو انتِقَامٍ**﴾ من أعدائه الظالمين لأوليائه المظلومين.

﴿**يَوْمَ تُبَدَّلُ الاَرْضُ غَيْرَ الاَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ**﴾ اذكر يوم، أو هو ظرف متعلِّق بـ«انتِقَامٍ» أو بدل من «يَوْمَ» المتقدِّم، أو متعلِّقٌ بـ«مُخْلِفَ»، و«تُبَدَّلُ» متعدٍّ لاثنين، أي تصير هذه الأرض غيرها، تزال وتجعل مكانها أرضا من فضَّة فيكون التبديل من تحت الأرجل، فلا يقال: أين يكون الناس؟.

والسماوات غير السماوات فحذف تذهب، ويجعل في موضعهنَّ سماوات من ذهب كما روي ذلك عن عليٍّ، وروي عن ابن مسعود وأنس: يحشر الناس على أرض بيضاء لم يعص الله عليها، كما تقول: بدِّلت الدنانير بالدراهم، فذلك تبديل ذات، ومنه: ﴿بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [سورة النساء: 56]، ويجوز أن يراد تبديل الصفة كما قال ﷺ: «**تبدَّل الأرض غير الأرض، تمدُّ مدَّ الأديم العكاظي، لا ترى فيها عوجا ولا أمتا**»[1]، وذلك أن تندكَّ الجبال، وتزال الأشجار وتسوَّى، وأما السماوات فتكوَّر شمسها وقمرها، وتتناثر نجومها، وكونها تارة ﴿كَالْمُهْلِ﴾ [سورة المعارج: 8]، وتارة ﴿كَالدِّهَانِ﴾ [سورة الرحمن: 37].

---

(1) أورده **القرطبي** في تفسيره، ج 9، ص 383. **وابن كثير** في تفسيره، ج 2، ص 296. من حديث ابن عَبَّاس.

﴿وَبَـرَزُواْ﴾ ظهروا مـن قبورهم، أي ويبـرزون للجزاء علـى أعمالهم، والعطف على «تُبَدَّلُ» ولتحقُّقه قـال: ﴿بَرَزُوا﴾ بالفعل الماضي. ﴿لِلهِ﴾ لأجل جزاء الله، لا لله، لأنَّه لم يخفوا عنه في قبورهم ﴿الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ فالأمر أشدُّ ما يكون لأَنَّه إذا كان الأمر لواحد غالب قهَّار ولا سيما من لا تبدو له البدوات لا يطمع أحد في خلاف ذلك الأمر، ولا يستغيث بغيره، وهو لا يخلف الوعيد.

ولو كان له شـريك فيه لاختلفا فيضعف فيطمع، وكذا لو كان غير غالب، ولو كان تبدو له لرجع عنه لخـوف أو لعاقبة أمر أو لرقَّة، **تعالى الله عن ذلك، ولا مغيث سـواه** ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [سورة غافر: 16]. ﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِـذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الاَصْفَادِ﴾ يا محمَّـد أو يا من يصلح لأن يَرى، وهو للاسـتقبال، وهو أولى من أن يقال: للحال اسـتحضارا لحال المجرمين كأنَّه يشاهدها الآن، لعدم تبادر ذلك، مع أنَّ الأصل في القصَّة الاستقبال لأنَّها مستقبلة. والعطف على «تُبَدَّلُ».

ومقتضى الظاهر: «وتراهم»، على أنَّ واو «بَـرَزُواْ» لِلكُفَّارِ فوضع الظاهر موضع الواو تصريحا بموجب التقرين في الأصفاد وما بعده، وهو الإجرام.

وإن رددنا واو «بَرَزُواْ» للناس كلِّهم فالظاهر في محلِّه، و﴿يَوْمَئِذٍ﴾ بمعنى إذ برزوا كأنَّه واقع لتحقُّقه، أو إذ يبرزون استعمالا لـ«إذ» في الاستقبال مجازا.

والصَّفَدُ بفتحتين: ما يربط به اليدان، أو مع الرجلين، أو مع العنق، يقرن كلُّ كافر مع شـيطانه أو مع من شـاركه في الاعتقاد الزائغ، أو العمل، ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ [سورة التكوير: 7] أو مع ما اكتسب من العقائد الزائغة والعمل، أو قرنت أيديهم وأرجلهم وأيديهم وأعناقهم، أو ذلك كلُّه.

والإسناد على هذا وعلى الأوَّل مجاز، لأنَّ الأصل أن يقرن مع غيره لا في نفسه، وشـدِّد للمبالغة كمًّا لكثرة المقرونين، وكيفًا للتضييق في القرن، و«فِي

الَاصْفَادِ» متعلِّق بـ«مُقَرَّنِينَ»، لأنَّهــم أدخلوا في القيود والأغلال بربطهم بها، أو حال من ضمير «مُقَرَّنِيــن»، أو حال ثان لـ«المُجْرِمِيــنَ» ويدلُّ للأوَّل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ [سورة الحاقَّة: 32].

﴿سَرَابِيلُهُم﴾ جمع سربال وهو اللباس ﴿مِّن قَطِرَانٍ﴾ الجملة مستأنفة، أو حال مِمَّا ذكر، أو من المســتكن في «فِــي الَاصْفَادِ» إذا جعــل حالا. يطلون بالقطران حتَّى كأنَّه لباس لهم لســواده، ونتنه ولدغه، وإســراع النار فيه، وهو أشدُّ ريحا من قطران الدنيا ولدغا ولونا واشتعالا.

﴿وَتَغْشَــىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ وقلوبهم، ولا ســيما غيرهــا، وخصَّ الوجه بالذكر لأنَّه أعزُّ عضو يظهــر، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْــحَبُونَ فِــي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِــمْ﴾ [ســورة القمر: 48]، وقولــه: ﴿أَفَمَنْ يَتَّقِــي بِوَجْهِهِ سُــوءَ الْعَذَابِ﴾ [ســورة الزمر: 24]، ولأنَّه لم يســجد به لله ﷻ، ولم يســتعمل ما فيه من العينين والأنف والأذن واللســان في الحقِّ، ولا تدبَّروا بها فــي دين الله ودلائله وفيم خلقت، كما تطَّلع على الأفئدة لتضمُّنها العقائد الزائغة، ونية الشرِّ، ولجهلها.

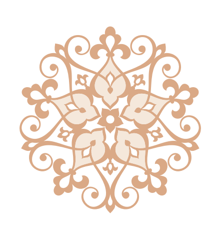
﴿لِيَجْــزِيَ اللهُ كُلَّ نَفْسٍ﴾ مجرمة ﴿مَّا كَسَــبَتِ﴾ متعلِّق بـ«بَــرَزُوا»، أو بمحذوف، أي فعل الله بهم ذلك ليجزي الله كلَّ نفس ما كســبت من الســوء، على حذف مضاف، أي عقاب ما كســبت، أو ما كســبت هو العقاب، ســمَّاه باسم سببه وملزومه، وإن فسَّــرنا ﴿كُلَّ نَفْسٍ﴾ بالمجرمة والمطيعة اعتبرنا أنَّ تعذيب المجرميــن لاعتقادهم وعملهم يســتلزم إثابة المطيعيــن لاعتقادهم وعملهم، وكذا إذا رددنا واو «بَرَزُوا» للمجرمين، وأمَّا إذا رددناها للناس كلِّهم وعلَّقنا «لِيَجْزِيَ» به فلا إشكال في عموم كلِّ نفس للمؤمنة والكافرة، والجزاء للثواب والعقاب.

﴿إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ قريب الحساب، كأنَّه حاضر، أو لا يصعب عليه لأنَّه لا يشغله حساب عن حساب، يحاســب الخلق في أقلَّ من لحظة، وورد

حديث: في قدر حلب شـــاة[1]، وورد حديث: في نصف يوم من أَيَّام الدنيا[2]، تمثيل أو حقيقة أراد الله ذلك ولو شاء لكان في أقلَّ.

﴿**هَذَا**﴾ مضمون ما ذكره من قوله: ﴿ولَا تَحْسِـــبَنَّ...﴾ إلى هنا، أو القرآن هكذا، أو القرآن الذي هو هذه الســـورة، فإنَّ بعض القـــرآن قرآن، أو ما فيه أو فيها مـــن العظة والتذكيـــر ﴿**بَـلَاغٌ لِّلنَّاسِ**﴾ هو مـــا فيه كفاية فـــي الترهيب والترغيب، أو كأنَّه هـــذا مبلغ لهم إلـــى الخير إن عملوا بـــه، فيكون بمعنى الوصف ﴿**وَلِيُنذَرُوا بِهِ**﴾ عطف على محذوف، أي أنزلناه ليبشَّروا به ولينذروا به، أو لينصحوا ولينذروا ﴿**وَلِيَعْلَمُواْ**﴾ بالتدبُّر فيه، وفي ســـائر الدلائل ﴿**أَنَّمَا هُوَ**﴾ أي الله ﴿**إِلَهٌ وَاحِدٌ**﴾ فلا يعبد ســـواه ﴿**وَلِيَذَّكَّرَ**﴾ يتذكَّر ﴿**أُوْلُواْ الاَلْبَابِ**﴾ فيجعلوا لأنفسهم عن النار درعا بالإيمان والتقوى، والعمل الصالح.

وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم.
ولا حول ولا قوَّة إلَّا بالله العليِّ العظيم.



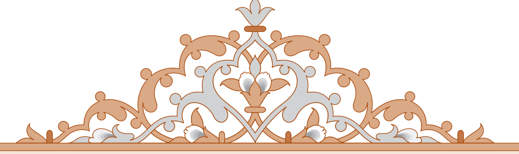
(1) لم نقف على تخريجه. وقد أورده كثير من المفســـرين خبرًا عن رســـول الله ﷺ. ينظر: الكشاف **للزمخشري**، ج1، ص 277. تفسير **القرطبي**، ج2، ص435.

(2) رواه **البيهقي** في شعب الإيمان، الإيمان بالبعث والنشور، رقم: 357، ج1، ص 557. من كلام مقاتل بن سليمان.

15

تفسير سورة الحجر

مكّيَّة إلَّا الآية 87 فمدنيَّة، وآياتها 99 ـ نزلت بعد سورة يوسف



﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ الٓر ۚ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ ﴿1﴾ رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿2﴾ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿3﴾ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿4﴾ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴿5﴾ ﴾

وصف القرآن وتهديد الكافرين والعصاة

﴿ **أَلَر** ﴾ لا يعلم معناها إلَّا الله، أو حرف من أوائل أسماء الله: الله لطيف رحيم، أو تنبيه للوحي بذكر **أسماء الحروف الهمزة واللام والراء، بمعنى تنبيه إلى كلام موحى به مركَّب من نوع هذه الحروف**، ومع ذلك هو معجز ليس كسائر الحروف، [قلت:] وفي ذلك معجزة إذ علم ﷺ أسماء الحروف، مع أنَّه لم يتعلَّم، فإنَّ من لم يتعلَّم أ ب ت ث لا يعرف أسماء الحروف، لو قلت له ألف أو باء أو تاء أو ثاء، فقد يثبت أنَّه [ﷺ] قال: «**بَيِّنِ السِّينَ، ولا تُغوِّر الميم، ومُدَّ الرحمن**»[1]. أو اسم للسورة، أي اقرأ

(1) وردت هذه الرواية المنسوبة إلى النبيء ﷺ بصيغة: «تُغوِّر»، و«تُعوِّر» قالها لمعاوية بن أبي سفيان حين أمره بكتابة الوحي. عزاها السيوطي في **الدرِّ المنثور** إلى الديلمي، عن معاوية، ج1 ص28.

هذه الأحرف، أي استعد لنوعها، أو هذه سورة، أو اقرأها، أو استعد لقراءة ذلك.

﴿**تِلْكَ**﴾ الإشارة إلى السورة أو إلى آياتها، فإنَّه تجوز الإشارة إلى ما يوجد بعد، كما تجوز إلى ما وجد لاستحضاره بكونه معلوما، وبعض القرآن قرآن، فلا يعارض بقوله: ﴿وَقُرْءَانٍ﴾، أو إلى ما في اللوح المحفوظ، وإلى جميع آيات القرآن. ﴿**ءَايَاتُ الْكِتَابِ**﴾ المعهود، أو الكامل، أو الكتب كلِّها كأنَّه هي، فخِّم بتعريف الكتاب ثمَّ بتنكير «قُرْءَانٍ» في قوله: ﴿**وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ**﴾ عكس ما في النمل إذ فخِّم فيه بتعريف «قرآن» ثمَّ بتنكير «كتاب» [﴿تِلْكَ ءَايَاتُ الْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾]، تفنُّنا في العبارة البليغة. والعطف تنزيل لتغاير الصفات منزلة تغاير الذات، أي آيات السورة، أو المؤلَّف الجامع للكمال حتَّى كَأَنَّ غيره ناقص، ولا نقص، أو لكونه كالكتب كلِّها، ولكونه مقرونا بعضه ببعض، كآية إيمان بآية كفر، أو متلوًّا ظاهر المعنى والإعجاز والبلاغة من «أبان» اللازم، أو مظهرًا للصواب من الخطأ والفرائض وما يحتاج إليه، من «أبان» المتعدِّي.

﴿**رُّبَمَا يَوَدُّ الذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ**﴾ الأصل في «رُبَّ» التقليل، و﴿يَوَدُّ﴾: يحبُّ أو يتمنَّى، والكفر إشراك، أو شامل للفسق، و«لَوْ» مَصدَرِيَّة، والمصدر مفعول «يَوَدُّ»، وما كَافَّة مهيِّئة للفعل بعد «رُبَّ»، والأصل أن يكون ماضيا ولا يكون مضارعا إلَّا إن نزِّل منزلة الماضي لتحقُّق وقوعه، وهو باق على الاستقبال، أو بمعنى الماضي مجازا.

ولا حاجة إلى جعل «مَـا» نكرة موصوفة حذف عائدها، أي رُبَّ شيء يودُّه الذين، وهو الإسلام، أو رُبَّ إسلام يودُّه الذين، ولا إلى جعل «لَوْ» إقناعيَّة محذوفة الجواب، أي لسرَّهم ذلك، أو تخلَّصوا مِمَّا فيه، لأنَّ الأصل عدم الحذف.

والتقليل نسبيٌّ، فإنَّ أكثر أوقات الأشقياء الذهول عن ودِّ الإسلام بما هم فيه من السوء، ولو كان الودُّ كثيرا بكثرة الواردين، وتكرُّرِ تلك المرَّة وذلك أنَّهم يودُّون الإسلام في الدنيا حين رأوا المسلمين غالبين، أو حين عاينوا الموت على غضب الله، أو حين دخلوا النار، **بل في كلِّ ذلك** وحين عذاب القبر، وحين البعث.

واعتبر أنَّ الودَّ لو كان قليلا لوجبت المسارعة إليه فكيف وهو كثير متكرِّر؟ لظهور الفوز بالإسلام.

[قصص] قال أبو علي القالي في الأمالي: حدَّثنا عبد الرحمٰن بن خلف، قال حدَّثنا أحمد بن زهير: قال حدَّثنا أبو عبد الله القرشي قال: حدَّثنا عبد الله بن عبد العزيز قال: أخبرنا ابن العلاء أحسبه أبا عمرو أو أخاه، عن جويرية بن أسماء عن إسماعيل بن أبي حكيم بعثني عمر بن عبد العزيز في الفداء حين ولِّي، فبينما أنا أجول في القسطنطينية إذ سمعت صوتا يتغنَّى: أرقت وبان عنِّي من يلوم، أبيات شعر ساقها القالي، قال أبو عبد الله القشيري: والشعر لنقيلة الأشجعي، قال: سمعت العتبي يقول: صحَّف في اسمه فقال: نفيلة، قال إسماعيل بن حكيم: فسألته حين دخلت عليه فقلت له: من أنت؟ قال: أنا الوابصي الذي أخذت فعذِّبت فجزعت، فدخلت في دينهم، فقلت: إنَّ أمير المؤمنين بعثني في الفداء، وأنت والله أُحبُّ أن أفديه إليَّ إن لم تكن بطَّنت في الكفر، قال: والله لقد بطَّنت في الكفر، فقلت: أنشدك الله، قال: أأسلم وهذان ابناي، وإذا دخلت المدينة قال أحدهم: يا نصراني، وقيل لولدي وأمهما كذلك، لا والله لا أفعل، فقلت له: لقد كنت قارئا للقرآن؟ قال: والله لقد كنت من أقرأ الناس، فقلت: ما بقي معك من القرآن؟ قال: لا شيء إلَّا هذه الآية: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ﴾[1].

---

(1) ينظر القصة والأبيات بكاملها: **الأمالي** لأبي علي **القالي**، ج3، ص 20ـ21.

واعلم أنَّ قولهم: «حدَّثنا» وقولهم: «أخبرنا» وقولهم: «أنبأنا» بمعنى واحد.

ويجوز جعلها للكثرة لكثرة ودِّهم.

وتعيَّنت «مَا» للوصفيَّة في قوله:

ربَّما تكره النفوس من الأمر — له فَرْجَة كحَلِّ العِقال[1]

قد يُصاب الجبان في آخر — الصفِّ وينجو مقارع الأبطال

لرجوع هاء «له» إليه، أي رُبَّ شيء تكرهه النفوس.

كان لأبي عمرو بن العلاء غلام جيِّد أراده الحجَّاج فهرب به إلى اليمن وقرأ ﴿غَرْفَةً بِيَدِهِ﴾ [سورة البقرة: 249] بفتح الغين وقال له: إن لم تأت بحجَّة عليه أقتلك، فهرب إلى اليمن فبينما هو مهموم إذ جاء أعرابيٌّ ينشد الأبيات، فقال له: ما وراءك يا أعرابي؟ قال: مات الحجَّاج، فقال: لا أدري بأيِّهما أنا أشدُّ فرحا بموته؟ أو بفتح فاء فرجة؟ وقيل: بضمِّ أوَّل فرجة وغرفة.

ولا داعي إلى دعوى أنَّ الأصل: «لو كنَّا مسلمين»، وإنَّما ذلك لو قيل: ربَّما يودُّ الذين كفروا قائلين. ﴿ذَرْهُمْ﴾ اتركهم لا تأمرهم ولا تنههم، ولا تخبرهم بشيء من الدين، فإنَّه لا يؤثِّر فيهم كلام، وذلك إقناط منهم، وما عليك فقد أبلغت. ولا نسخ في مثل هذا بآية القتال، فإنَّه مِمَّا يقال فيهم ولو أذن بالقتال لا يستعمل له ماض إلَّا قليلا، كما قيل عنه ﷺ: «**ذروا الحبشة ما وَذَرَتْكُم، فإنَّه لا يستخرج كنز الكعبة إلَّا ذو السويقتين**»[2] وهذا تهديد لهم على لسانه ﷺ، كما هدَّدهم الله سبحانه بردِّ الضمير إليه معهم في قوله: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ [سورة المدثر: 11] والمراد: ذرهم وقل لهم: كلوا وتمتَّعوا وليلهكم الأمل فسوف تعلمون.

﴿يَاكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ﴾ قدَّم الأكل لأنَّه في البهائم أشدُّ، وهم أخسُّ منها، وأمرهم

---

(1) الفرجة مصدر فرج يفرج أي تَفَرُّج وانكشاف. اللسان مادة فرج.

(2) لم نقف على تخريجه.

بما هو غاية مطلوبهم وأشـدُّ لندمهم أمر تهديد ﴿وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ فيكـون تهديدا خوطبوا بـه، إذ قال لهم: كلـوا وتمتَّعوا وليلهكم الأمل فسـوف تعلمون، فذكر الله أنَّهم وافقوا هذا الخطاب بقوله: ﴿يَأْكُلُواْ...﴾ يأكلوا من اللذائذ الحلال والحرام، ويتمتَّعـون بالمحرَّمات من اللباس والزنى، وغيره من شـؤون الدنيا الحلال والحرام، ومنها المراكب الجيِّدة، والمساكن الحسنة، ويلههم أملهم الطويل عن التذكُّر والاستعداد للبعث الذي أنكره منكرهم، وشكَّ فيه شاكُّهم.

وساعدهم على ذلك اسـتقامة الدنيا لهم، وقد طمعوا في طول العمر مع ظنِّهم أنَّ أموالهم هي التي أخلدتهم، أي أبقتهم أحياء، وسوف يعلمون عاقبة ذلك وهو النار الدائمة، وما قبلها من عذاب الموت والقبر والبعث والمحشر والخزي والإهانة، وذلك بمشاهدتهم المدلول عليها بالعلم.

قال ﷺ: «**صـلاح أوَّل هذه الأمَّة بالزهد واليقيـن، ويهلك آخرها بالبخل والأمل**»[1] وعن عليٍّ: «إنَّما أخشـى عليكم اثنين: طول الأمل واتِّباع الهوى، فإنَّ طول الأمل ينسي الآخرة، واتِّباع الهوى يصدُّ عن الحقِّ».

﴿**وَمَآ أَهْلَكْنَـا مِن قَرْيَةٍ**﴾ ما أهلكنا قرية من القـرى أردنا إهلاكها، والمراد القوم، عبَّر عنهـم بقرية مجازا لحلولهم فيها، أو حقيقـة أو بتقدير مضاف: أي قوم قريـة أو أهل قرية، وهـذا بيان لوجه تأخيـر العذاب في قوله: ﴿فَسَـوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ بأنَّ تأخيره ليس إهمالا بل ليبلغـوا أجله كما قال: ﴿**إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ**﴾ أجل مؤقَّت مكتوب في اللوح المحفوظ يهلكون فيه ﴿**مَّعْلُومٌ**﴾ بالحد.

[نحو] الجملـة قيـل نعـت لـ«قَرْيَـةٍ» مقرون بالـواو لتأكيـد اللصوق بالمنعوت، لشـبهه بالحال الذي يقرن بالواو المؤكِّـد للصوقه بصاحبه، ولم

---

(1) أورده **الآلوسي** في تفسـيره، ج14، ص10، وقال: أخرجه أحمد في كتاب الزهد. و**الطبراني** في الأوسط، ج8، ص316. والبيهقي في الشعب عن أبيه عن جدِّه مرفوعا.

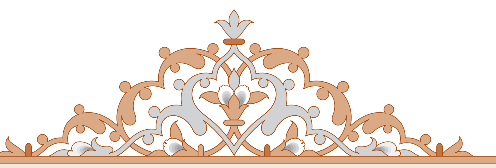
يتغيَّر المعنى بالواو، وهو ضعيــف، لأنَّ أصل الحال المقيس عليه أن لا يقرن بها لأنَّه كخبر المبتــدأ، والخبر لا يقرن بهما إلَّا فــي العطف عليه، وأيضا لا يعهــد معنى اللصــوق للــواو ولم تكــن فــي قولــه: ﴿إِلَّا لَهَا مُنــذِرُونَ﴾ [سورة الشعراء: 208] لأنَّ الوصف فيه لازم عادي.

[كتاب معلوم] جرت عليه ســنَّة الله أن لا إهلاك إلَّا بعد الإنذار، وفي آية السورة لازم عقلي أنَّ أمور الحكيم لأوقاتها.

[نحو] والأصل أيضــا أن لا يفصل النعــت بـ«إلَّا»، وجعل الجملة نعت البدل محــذوف هكذا: إلَّا قرية لهــا كتاب معلوم، لا يرفع الإشــكال لوجود الواو، فالأولى أنَّ الواو للحال، والجملة حال من النكرة لوجود النفي المفيد للعموم.

﴿**مَّا تَسْــبِقُ مِنُ امَّةٍ اَجَلَهَا**﴾ في الإهلاك، قرن الفعــل بالتاء مراعاة للفظ «أُمَّة» الذي هو فاعل، وذكَّر وجمع مراعاة لمعناه في قوله: ﴿**وَمَا يَسْتَاخِرُونَ**﴾ أي عنه، وحذف للفاصلة ودلالة ما قبله.





﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ⁦6⁩ لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ⁦7⁩ مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا مُّنظَرِينَ ⁦8⁩ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ⁦9⁩ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي شِيَعِ ٱلۡأَوَّلِينَ ⁦10⁩ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ⁦11⁩ كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ⁦12⁩ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَقَدۡ خَلَتۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ ⁦13⁩ وَلَوۡ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ ⁦14⁩ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ ⁦15⁩﴾

بعض مقالات المشركين في النبيء ﷺ والرد عليها

﴿**وَقَالُواْ يَآ أَيُّهَا الذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ**﴾ تهكُّم به لأنَّهم لا يعتقدون تنزيل الذكر عليه وهو القرآن، ألَا ترى إلى قولهم: ﴿**إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ**﴾ كقول فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [سورة الشعراء: 27] والمراد شبه الجنون من الغشي الذي يصيبه حين نزول الوحي، تقول به مثل ما يقول المجنون، ولم يريدوا أنَّه مجنون حقيقة، وهكذا في غير هذه الآية، أو رموه بالجنون لقوله ما لم يألفوه، أو أريد نزِّل عليه الذكر في زعمه، أو يا أَيُّهَا الذي يقول نزِّل عليه الذكر، فحذف القول.

أو يا أَيُّهَا الذي نزِّل عليه الذكر من كلام الله أي قالوا فيك: ﴿يَآ أَيُّهَا الذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ كما يقال: قيل: يا زيد إنَّك مجنون، كأنَّه قيل: يا أيُّها الذي نزِّل عليه الذكر قالوا فيك إنَّك لمجنون.

﴿**لَّوْ مَا**﴾ «لَوْ» و«مَا» ركِّبتا للتحضيض، وقيل: الميم عن اللام، فهي «لَوْ» و«لَا» كذلك، أي هلَّا ﴿**تَاتِينَا بِالْمَلَآئِكَةِ**﴾ يشهدون بأنَّك رسول من الله، وبأنَّه

نزَّل عليك القــرآن، وبالعذاب على من كفر بك، أو بإحضــار عذابنا لكفرنا بك كالأمم قَبْلُ كقولهم: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ [سورة الفرقان: 7]. ﴿**إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ**﴾ فيما تدَّعي من ذلك.

وردَّ الله عليهــم بقوله: ﴿**مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ**﴾ مــا تنزل إلَّا بالحكمة، وهي ضدُّ الســفه والباطل، فإنَّ إهلاكهم قبل أجلهم غير حقٍّ، لأنَّ فيه خلف الوعد، وهو نقص، ولأنَّ فيهم من سيؤمن، وفيهم من يلد من يؤمن، وفيهم من يلد من يكفر، ولا يقطع ولادة قضاها، فإنَّ قضاءه لا ينتقض.

وإرسال الملائكة ليشهدوا له ﷺ لا يجدي، لأنَّه لو أرسلهم بصورة البشر قالوا: غير ملائكة، أو على صورهم هلكوا بمشاهدتهم، إذ لا يقوون عليها، أو على صورهم والإقدار على المشاهدة وكان إيمانهم اضطرارا لا يقبل، كما لا يقبل عند المشــاهدة بالمــوت ويوم القيامــة، وأيضا لو أنزلهــم ولم يؤمنوا أهلكهم الله على عادته في إهلاك من اقتــرح آية وأجيب إليها ولم يؤمن، وقد قضى الله أن لا يموتوا إلَّا لأجلهم.

وأيضا لا تنزل الملائكة بإذن رســول الله ﷺ وإتيانه بهم، بــل إنَّما تنزل بوحي من الله إليها بالنزول، ونزولها بدونه باطــل لا يكون، ونزولها لغير ما ذكر كلِّــه غير حقٍّ، أو إنَّمــا تنزل الملائكة بوحي الشــرائع وما شــاء الله، لا بتصديق الرســل، أو إنَّما تنزل بالعــذاب لمن كفر مثلكــم لا لتقوية الأنبياء بالخطاب وتأخير العذاب.

﴿**وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا**﴾ إذ حرف، تدلُّ علــى أنَّ النزول يترتَّب عليه الإهلاك، أو ظرف أي إذ نزلوا أو إذا نزلوا ﴿**مُّنظَرِينَ**﴾ مؤخَّرين في الإهلاك والعذاب على عادتهم فيمن اقترح.

وقدَّر بعض: «ما تنزَّل الملائكــة عليهم إلَّا بصور الرجال، فيحصل اللَّبس فلا ينتفعون وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا...»، وقدَّر بعض: «فلا يؤمنون وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا...».

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾ القــرآن من عندنا، وليس كلاما لمحمَّد مخترعا ولا لغيره ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ عن أن يزيد فيه أحد حرفا أو ينقصه، كما فعل اليهود والنصارى بالتوراة والإنجيل، وعن زوال شرعه قبل قرب الساعة جدًّا وعن القدح فيه والمعارضة عليه، إذ جعله في فصاحة وبلاغة لا يقدر أحد أن يأتي بمثله، ولو ادَّعَى مدَّع مثله أو أدخل فيــه لافتضح بالنقص، كالنحاس الأحمر بحضرة الذهب الإبريز، مع أنَّه على لسان أمِّيٍّ حفظه الله فلم يتغيَّر، ووكَّل حفظ غيــره إلى أهل الكتاب فتغيَّــر، كما قال: ﴿بِمَا اسْــتُحْفِظُواْ مِن كِتَابِ اللهِ﴾ [سورة المائدة: 44].

ويضعف رجع الهاء إلى رســول الله ﷺ ولو دلَّ عليه ذكر الإنزال والمنزَّل كرجوعها إلى القــرآن لذلك في: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَاهُ﴾ [سورة يوســف: 2] لأنَّ عودها إلى مذكور قريب بــلا تكلُّف وهو «الذِّكْــرُ» أَوْلَى، ولأنَّ ردَّ إنكارهــم إنَّما يظهر بإقامة البرهان على كونه منزَّلا من عنــد الله، وإذا رجعت إليه ﷺ اختلَّ إقامة البرهان لأنَّهم ينكرون أيضا قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.

وســلَّاه الله ﷻ عن إنكارهم بقوله: ﴿وَلَقَدَ اَرْسَــلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِــيَعِ الاَوَّلِينَ﴾ أرسلنا رســلا من قبلك في فرق الأوَّلين ﴿وَمَا يَاتِيهِم مِّن رَّسُولٍ﴾ يأتي الأوَّلين أو شيع الأوَّلين ﴿اِلَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ كما استهزأ به قومك، فاصبر كما صبر هؤلاء الرسل على الاستهزاء. والشِّيَعُ: جمع شيعة وهي الفرقة المتَّفقة المتتابعة على أمر، شاعه بمعنى تبعه وأعانه، وكان بعض يشايع بعضا. والمضارعان بمعنى الماضي، صوِّر بصورة المضارع المستعمل للحال ليكونا كأنَّه شوهد وقوع معنييهما، والمشاهد أقوى من المخبر عنه.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك الاســتهزاء أو ذلك السلك الذي سلكنا كلام الرسل أو كتبهم، أو ذلك التكذيب المذكور على الأوَّلين ﴿نَسْلُكُهُ﴾ ندخل الذكر أو الاســتهزاء، والأوَّل أولى، لأنَّ أصل الــكلام للذكــر، ولأنَّ الضمير في «بِهِ»

للذكر لا للاستهزاء، ولأنَّ لفظ الاستهزاء غير مذكور بل ذكر فعله، ولفظ الذكر مذكور، و«يستهزئ» ولو كان أقرب لكنَّه ليس اسما بل يؤخذ منه الاسم، ورجوع هاء «بِهِ» للرسول كرجوعها للذكر.

﴿**فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ**﴾ كفَّار مكَّة ﴿**لَا يُومِنُونُ بِهِ**﴾ تفسير للسلك، كأنَّه قيل: نمرُّ به في قلوبهم بلا بقاء أثر منه فيها، سواء جعلنا الجملة حالا من هاء «نَسْلُكُهُ»، أو من «الْمُجْرِمِينَ»، أو مستأنفة ﴿**وَقَدْ خَلَتْ**﴾ مضت ﴿**سُنَّةُ الَاوَّلِينَ**﴾ سنَّة الله فيهم، بإهلاكهم لاستهزائهم وعدم إيمانهم، أو بسلك الوحي في قلوبهم بلا بقاء أثر فيها، وإهلاكهم على ذلك، وهذا تهديد لأهل مكَّة أن يقع بهم ذلك الإهلاك بكفرهم.

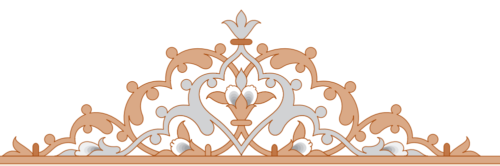
﴿**وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم**﴾ على كفَّار مكَّة، و«عَلَى» لعلوِّ السماء، أو بمعنى اللام ﴿**بَابًا مِّنَ السَّمَآءِ فَظَلُّواْ**﴾ أي صار كفَّار مكَّة، أو كانوا في النهار كلِّه ﴿**فِيهِ**﴾ في الباب ﴿**يَعْرُجُونَ**﴾ يصعدون حتَّى رأوا ملكوت السماء وما فيها من الملائكة، أو فظلَّ الملائكة يعرجون فيه وكفَّار مكَّة ـ كما اقترحوا ـ يشاهدون عروج الملائكة ودخولهم من ذلك الباب، والأوَّل أولى، لأنَّ محطَّ الملائكة الأعظم ـ ولا سيما في التصرُّف بالوحي ـ الهبوط من السماء لا الصعود، ولا سيما أنَّهم لا يؤمنون أنَّ الملائكة في الأرض أو في الجوِّ.

﴿**لَقَالُواْ إِنَّمَا سُكِّرَتَ ابْصَارُنَا**﴾ المحصور فيه بـ«إنَّما» هو آخر الكلام، و«نا» كالجزء من «أَبْصَارِ» فالمحصور فيه الأبصار، أي ما سكرت إلَّا أبصارنا أي سدَّت بسحر محمَّد، حتَّى رأت بابا مفتوحا وملائكة تدخله ولا باب ولا ملائكة، أو بابا وإيَّانا ندخله ولا باب ولا دخول مِنَّا، وأمَّا عقولنا فهي على حالها غير مسدودة، وهي عارفة بأنَّ لا باب ولا دخول ملك.

[لغة] وسُكِر بالتخفيف يتعدَّى، فتشديده للمبالغة، وقيل: لازم فشدَّ للتعدية، والأمران واردان، وقيل: الغالب اللزوم. والمراد بالسدِّ الصرف عن

طبعها لا الإطباق، وإن جعلنا ﴿سُكِّرَتْ﴾ بمعنى حيِّرت فالشدُّ للتعدية، وإنَّما فسَّرت السدَّ بالصرف لأنَّها إذا أغلقت لا إبصار لها.

والسحر أخصُّ من الصرف فلا يتكرَّر مع قوله: ﴿**بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ**﴾ في أبصارنا تخيَّلت ما لم يكن، أو أضربوا عن سحر الأبصار إلى إثباته لعقولهم أيضا، والمراد أنَّهم يقصدون الكذب فيه والتمويه ما أمكن.



﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (16) وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (17) إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ (18) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ (19) وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (20) وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (21) وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (22) وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ (23) وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ (24) وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (25)﴾

بعض مظاهر قدرة الله تعالى: من خلق السماوات والأرض، وإرسال الرياح لواقح والإحياء والإماتة والعلم الشامل والحشر

[فلك] ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ محال تسير فيه الدراري: الحمل والعقرب للمِرِّيخ بكسر الميم، والثور والميزان للزُّهَرة بضمٍّ ففتح، والجوزاء والسنبلة لعَطارد بفتح أوَّله، ومنع الصرف لشبهه بمفاعل، ويصرَّف أيضا، والسرطان للقمر، والأسد للشمس، والقوس والحوت للمشتري، والجدي والدلو لزحل. والدراري يشملها على التدلي قول بعض:

زُحَلٌ شَرَى مِرِّيخَهُ من شَمسِنَا فَتزاهَرتْ لِعُطَارِدِ الأَقمَارُ

وعن ابن عَبَّاس: البروج منازل الشمس والقمر كلَّ ليلة، وقيل: النجوم الكبار، قيل: وتحتمل مطالع الشمس والقمر، وقيل: البروج قصور بناها الله للملائكة يحرسون.

قال ابن العربي: قسَّم الله ﷻ الفلك الأطلس اثني عشر قسما سمَّاها بروجا، وأسكن كلَّ برج منها ملكا، وهؤلاء الملائكة أَئِمَّة العالم، وجعل لكلٍّ منهم ثلاثين خزانة، تحتوي كلٌّ منها على علوم شتَّى، يهبون للنازل منها بهم قدر ما تعطيه رتبته، وهي الخزائن في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ اِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُ﴾.

[أصول الدين] [قلت:] ولا بأس بذلك، لمن اعتقد أنَّهم يفعلون بأمر الله تعالى وخلقه، وكلُّ شيء من أفعالهم مستأنف من الله، ومن أثبت ذلك لهم على استقلال أشرك[1].

﴿**وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ**﴾ بالكواكب الثوابت ليتفكَّروا فيها، ويعلموا أنَّها صنعة الحكيم، موصلا منافع السماء بمنافع الأرض ﴿**وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ**﴾ بالشهب، أجرام محرقة تشبه الكواكب، أو حفظناها بالكواكب، فترجع إلى محالِّها على أنَّها صغار، أو يشعل منها ولو كانت في الفلك الثامن، والله قادر مقدِّر كما قال:

﴿**اِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ**﴾ واستراق السمع اختطافه بالعلم من أوضاع الكواكب وحركاتها، أو بالسمع تحقيقا من الملائكة، والأوَّل على أنَّ الكواكب تحت السماء. والاستثناء منقطع إذ لا معنى لأن تحفظ من كلِّ شيطان دخولا إلَّا [من] استراق السمع، فإنَّ الحفظ يكون من دخولها.

لَمَّا بعث عيسى عليه السلام منعوا من الثلاثة العلا، ولَمَّا بعث سيِّدنا محمَّد ﷺ منعوا من الأربعة السفلى، ومن استرق السمع لا يشمله كلُّ شيطان رجيم، واستراق السمع لا يُخرج السماء من كونها محفوظة من دخولهم.

---

(1) وبإثبات ذلك للكواكب على استقلال وَقُوَّة منها نشأ كثير من أعمال السحر وأفعال الشعوذة والمشعوذين والشياطين. فاحذر الزلل.

ويجوز أن يكون متَّصلا على معنى حفظناها من قرب كلِّ شــيطان رجيم إلَّا قرب من استرق، ويجوز أن يكون «مَنْ» بدلا من كلِّ لأنَّ الحفظ نفي، كأنَّه قيل: لا يقربنَّهما شيطان إلَّا من استرق.

ومعنى «أَتْبَعَهُ» تبعه أو لحقه. والشــهاب جسم شــبيه بالكوكب، فيسمَّى كوكبا، وقيل: غير ذلك كما مرَّ قريبا، ومعنى ﴿مُبِينٌ﴾ ظاهر للمبصرين.

وكانت الشــياطين تُرمى بالنجوم قبل مبعث رســول الله ﷺ، ولَمَّا بعث كثرت وعظم أمرهــا، وأجاز بعض أن تكــون قبله غير رجــم، قيل: تتراكب فيرجم أعلاها ويلقي ما ســمع للذي تحته، فيبلغه ويزيد فيه، وَأَمَّا هو فإمَّا أن يمــوت وإمَّــا أن يحترق ويبقــى كالمجنون، ويضــلُّ الناس فــي الصحاري والأودية، وهو محترق كلُّه أو بعضه أو مثقوب.

وإنَّما تسمع الشــياطين من ملائكة تحت الســماء يذكرون ما قضى الله، وقيل: مــن فوقهم وينفذ صوتهم مــن تحتها بقدرة الله ﷻ، وهم ليســوا نارا محضة فأمكن إحراقهم بالنار ويجترئون على الســمع مع مشــاهدة الإحراق طمعا في النجاة[1].

﴿**وَالَارْضَ مَدَدْنَاهَا**﴾ بسطناها على الماء، [قلت:] وترى بسيطة ولو كانت كروية لوسعها. والنصب على الاشــتغال، وعطف مددنا المقدَّر على «جَعَلْنَا» عطف فِعلِيَّة على فِعلِيَّة ﴿**وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِــيَ**﴾ أنزلنا فيها جبالا رواسي، أي ثوابت إنزالا فيه بعض شــدَّة، وتلــك الجبال كالأوتاد لــلأرض، فلا تتحرَّك بالماء تحتها.

(1) للشــيخ الفاضل الطاهر بن عاشــور في تفســيره «**التحرير والتنوير**» بحــث جيِّد في قضية اختراق الشــياطين للأجواء واستراق الســمع المذكور هنا وفي سورة الشــعراء وفي سورة الجن، راجعه ان شــئت في ج 14 ص 32. وانظر القصة في **صحيح البخاري** كتاب تفســير القرآن رقم 192 باب قوله ﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ﴾ رقم 4424.

﴿وَأَنبَتْنَا فِيهَا﴾ أي في الأرض لأنَّ الكلام سيق لها بالذات، وأنواع النبات المنتفع به المختـارة إنَّما هي من الأرض، أو فـي الأرض والجبال، لأنَّ في الجبال أيضـا أنواعا نافعة، ولو كانت دون ما فـي الأرض، وقد يعود الضمير بمعنى يشمل الجبال بمعنى ما يقابل السماء، وقد يقال: الضمير للجبال لقربها ولأنَّ المعادن إنَّما تتولَّد في الجبال غالبا.

والأشـياء الموزونة في العرف والعادة هي المعـادن لا النبات، كما قال الكلبي: إنَّ الضميـر للجبال وإنَّ كلَّ شـيء موزون بمعنى الذهـب وَالفِضَّة والنحاس والرصاص والحديد والكحل والزرنيخ والملح والزاج ونحوها من الأجسـاد ﴿مِن كُلِّ شَـيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ بالميزان ذي الكفَّتيـن ونحوه من أنواع الموازين وذلك في المعادن، وعلى أنَّ المـراد النبات أو مع المعادن فالوزن: **التقدير المعيَّن الذي اقتضته حكمته**، أو الوزن: الاستحسـان، يقال في الشيء المجوَّد: إنَّه مـوزون كما يقال في الـكلام المنثور المجوَّد: إنَّـه موزون، أو الوزن: تقدير المرتبة، أي ما له مقدار من الشأن في أبواب النعمة.

[نحو] و«مِنْ» صلة في الإثبات في قول الأخفش والكوفيِّين، فكلٌّ مفعول لـ«أنبت»، أو غير صلة فيقدَّر: «وأنبتنا فيها أنواعا أو أفرادا ثابتة من كلِّ ما من شأنه أن يوزن»، بمعاني الوزن السابقة.

﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا﴾ في الأرض أو فيها وفي الجبال، فيضعف جعل «ها» في «أَنبَتْنَا فِيهَا» للجبال لأنَّ جلَّ المعايش المذكورة بعدُ ليست في الجبال، ولو كانت الأثمان ذهبا وفضَّة إلَّا أنَّها لا تتبادر هنا. ﴿مَعَايِشَ﴾ جمع معيشة بمعنى حياة، أو ما يعاش به، والمتبادر الثمار والحبوب ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾ وتوهَّمتم أنَّكم رازقوه أو لم تتوهَّموا، وهي العيال والعبيـد والدوابُّ والأنعام والطير والوحش. و«مَنْ» للعاقل وغيره، أو لغيـر العاقل فقط كالدوابِّ، وهـو ضعيف، لأنَّه ليس أصلا في «مَنْ»، ولأنَّ العبد والدابَّة في توهُّم أنَّ مولاهما هو رازقهما سواء.

[نحو] والعطف على محلِّ الكاف بلا إعادة للجارِّ لورود ذلك، أو للفصل كما ذكره البرادي[1]، شبه العطف على ضمير الرفع المتَّصل للفصل، أو على «مَعَايِشَ»، فإنَّ الله ﷻ جعل لنا دوابَّ ننتفع بها كما جعل لنا معايش، أو يقدَّر: «وأغنينا من لستم له برازقين»، أو مبتدأ محذوف الخبر، أي ومن لستم له برازقين جعلنا له فيها معايش، حذف لدلالة ما قبله، نقول: زيد أكرمته وأخوك، أي وأخوك أكرمته.

قيل: أو عطف محلِّ مجموع «لَكُمْ»، وهو مشكل، لأنَّه ليس في محلِّ جرٍّ بل الذي في محلِّ جرِّ الكافُ وحدها، لا مع اللام، ولا في محلِّ نصب لأنَّ الذي في محلِّ نصب من حيث إنَّه مفعول به توصّل إليه بحرف الجرِّ الكاف وحدها، كما أنَّ المفعول في مررت بزيد، زيد وحده لا مع الباء.

﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ﴾ نوع ما ﴿إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُ﴾ أفراده المخزونة، أو مقدَّراته، شبِّه بالمواضع التي تخزن فيها الأشياء، والجمع باعتبار المتعلَّقات، وهي ما تتأثَّر فيه القدرة، وإلَّا فقدرته واحدة، بمعنى أنَّ وجوده ناف للعجز عن الشيء. والخزائن استعارة للقدرة، ووجه الشبه مطلق الاشتمال، اشتمال الخزانة محسوس واشتمال القدرة معقول.

يوجد الله كلَّ ما شاء لوقته بلا كلفة كما لا كلفة لنا فيما خزنَّا، أو شبَّه مقدَّراته بالأشياء المخزونة، أو الخزائن: المفاتيح، سمِّيت باسم الآلة التي يتوصَّل بها إلى ما فيها ثمَّ أطلقها على ما تتسبَّب عنه المقدَّرات كالماء والريح

(1) البرادي هو أبو الفضل أبو القاسم بن إبراهيم البرادي عاش في النصف الثاني من المائة الثامنة، نشأ بجبل دمر ـ بالجنوب التونسي ـ وتعلَّم بجبل نفوسة على الشيخ عامر الشَّمَّاخِي صاحب الإيضاح وبجربة بمدرسة وادي الزبيب، وتولَّى التدريس والتأليف، وله عدَّة مؤلَّفات قيِّمة حقَّق البعض منها بعض الأكاديميِّين في أيَّامنا. راجع البعد الحضاري للعقيدة عند الإباضية، ص 124.

والشمس للثمار، ويجوز أن يراد بالشـيء الأفراد، لا موجود عندكم إلَّا قدرْنا على أضعافه التي لا تتناهى، ودخل في النوع والفرد المذكورين المطر.

[قلت:] وتخصيص الآية به سهو [من قِبل بعض المفسِّرين]، وسببه قوله: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ﴾ ما نخرجه من العدم إلى الوجود ﴿إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ اقتضته الحكمة، وقوله: ﴿وَأَنبَتْنَا﴾ وقوله: ﴿مَعَايِشَ﴾ وليس ذلك دليلا، ولا يصحُّ دعوى تخصيص بلا دليل.

وعن جعفر بن محمَّد بن عليِّ بن الحسين بن عليِّ بن أبي طالب[1] عن أبيه محمَّد عن عليٍّ أنَّ الخزائن تمثال جميع ما خلق الله في البرِّ والبحر، مرسوم في العرش، والقدر المعلوم ما عيَّنه الله واختاره من الجائزات القادر هو عليها كلِّها على حسب المصالح. والتنزيل بمعنى الإخراج يلائم الخزائن فهو ترشيح للاستعارة أو للتشبيه.

﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾ لاقحات أي حاملات للماء إلى السحاب تصبُّه فيها، ويمرُّ فيها كمرور اللبن في الضرع، ثمَّ تمطره كما قال ابن مسعود، ولا تقطر من السماء إلَّا بعد ريح الصبا تثير السحاب فيكون ركاما، والشمال تجمعه وتسمَّى المؤلِّفة، والجنوب تدره وتسمَّى اللاقحة، فيمتلئ بها ماء، والدبور تفرِّقه بإنزال.

[صرف] يقال: لقحت الريح: حملت الماء، والناقةُ: حملت الجنين، فهو ثلاثيٌّ أصالة، ويتعدَّى بالهمزة، فيقال: ألقح الريح السحاب والشجر والجمل

(1) جعفر بن محمَّد بن عليِّ بن الحسين بن عليِّ بن أبي طالب أبو عبد الله الملقب بجعفر الصادق المدني، أمُّه فروة بنت القاسم بن محمَّد بن أبي بكر الصديق، روى عن أبيه والقاسم بن محمَّد جدِّه من أمِّه ونافع وعطاء، وروى عنه محمَّد بن إسحاق ويحيى الأنصاري ومالك والسفيانان وغيرهم، ذكره ابن حبَّان في الثقات، وقال: كان من سادات أهل البيت فقها وعلما وفضلا. ولد سنة 80هـ وتوفي سنة 148هـ. الموسوعة الفِقهيَّة، ج 3، ص 354.

الناقة وقيل: ألقح بالهمزة لازم، وملقِّح اسم فاعل حذف الهمزة فقيل: لقحت فهي لاقح، أو اللاقح كتامر ولابن فلاقح على الأصل، أو مختصر من ملقَّح اختصار لقح من ألقح، أو للنسب، ومن الاختصار قولهم: أطاحته الملمات وطوَّحته، فهنَّ طوائح، بدل مطيحات أو مطوحات، أي مهلكات وأصل طائح هالك.

والريح جسم أشدُّ لطافة من الماء، سريع المرور في الهواء، والهواء أشدُّ لطافة منه كالروح.

﴿**فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَآءِ مَآءً**﴾ من السحاب التي جمعتها الريح ﴿**فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ**﴾ جعلناه لكم سقيا لأنفسكم ودوابِّكم وحروثكم وأشجاركم، فالإسقاء إعطاء مَادَّة من ماء كقربة يشرب منها في أوقاتها، وماجل وبركة وعين، أو جزء منها، والسقي إشرابك أحدا.

وقيل: هما بالمعنى الآخر كأطعمه: صيَّره آكلا مَرَّة، وأطعمه أعطاه ما يكفيه مدَّة، كما يقال: أطعمه وسقاه، ويناسب التفسير بالمادَّة قوله تعالى: ﴿**وَمَآ أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ**﴾ إنَّا أعددناه لكم مَادَّة في الأرض، ضاءات وعيونا، وفوق الجبال السفليَّة وتحتها وداخلها، ولا قدرة لكم على ذلك، فإنَّ ذلك أولى من معنى: أنزلناه فأشربناكم بعضه وخزنَّا بعضه.

ومن شأن الماء الغور والله يبقيه على الأرض مدَّة، وفي الطين أو حيث شاء الله في الأبيار، أو ﴿مَآ أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ بمعنى ما أنتم قادرين على إخراجه، وهذا المعنى راجع إلى تشبيه القدرة بالخزانة، تقدرون على إخراج ما في خزائنكم، ولا تقدرون على إخراج الماء لولا الله، على أنَّ الخزائن من ضرب مثل.

﴿**وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ**﴾ «نَحْنُ» غير ضمير فصل، لأنَّه إنَّما يكون بين اسمين معرفتين، أو الثاني نكرة بمنزلة المعرَّف بـ«ال»، وهو اسم التفضيل المنكر الذي بعده «مِنْ» التفضيلية لنيابتها عن «ال».

ولا حصر في الآية إلَّا بمعنى الاختصاص في نحو قولك: أنا قمت على اعتبار التقديم الحكمي بمعنى أن يؤخَّر «أنا» على أنَّه تأكيد للتاء الفاعلة، فكأنَّ أنا فاعل قدِّم للحصر والمقام له. والمراد: نحيي ما لا حياة فيه أصلا، وما كانت فيه وزالت، ونميت ما هي فيه، وذلك شامل للحيوان والنبات والأرض، وذلك جمع بين الحقيقة والمجاز، أو من عمومه، وقيل: المراد الحيوان.

﴿**وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ**﴾ الباقون بعد فناء الخلق، فالإرث مجاز مستعار من إرث الميِّت بمعنى القيام في تركته، أو الوارثون مالهم بعد أن ملكوه، وهذا مجاز أيضا لأنَّه لا مالك للعالم سواه، ومن الأوَّل قوله ﷺ: «**اللهمَّ أمتعنا بأسماعنا وأبصارنا، وقوَّتنا ما أحييتنا واجعلها الوارث مِنَّا**»[1] أي اجعل ما ذكر، أو الإمتاع باقيا إلى الموت، أو اجعلها كأنَّها تبقى بعدنا، روي أنَّه لا يقوم من مجلس إلَّا قال ذلك.

﴿**وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ**﴾ في الولادة أو في البطن أو فيهما ﴿**وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَاخِرِينَ**﴾ في أحدهما، أو فيهما، ومن تقدَّم وفني من لدن آدم أو بقي ومن يأتي.

ومَن تقدَّم في التوحيد، قيل: والجهاد وأنواع العبادة، ومن تأخَّر في ذلك، وفيه أنَّ الجهاد لَمَّا يفرض عند نزول الآية.

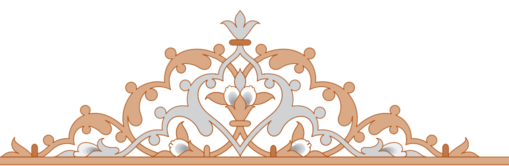
ومَن تقدَّم لفضل الصفِّ الأوَّل إذ رغَّبهم ﷺ في الصفِّ الأوَّل فازدحموا حتَّى أراد بنو عذرة بيع دورهم، وكانت بعيدة وشراء دور قريبة، فنزلت تقول: إنَّ الله عالم بنياتكم وأحوالكم لا يخفى عنه شيء.

ومن تقدَّم لِئَلَّا يرى امرأة ومن تأخَّر ليراها، ولو من تحت إبطه في الصلاة، كما روي أنَّه تصلِّي امرأة حسناء خلفه ﷺ، فتأخَّر قوم ليروها، وتقدَّم

(1) تقدم تخريجه، انظر: ج 2، ص 76.

آخرون لِئَلَّا يروها، فنزلت. رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه وابن حبَّان والحاكم، وقال: صحيح عن ابن عَبَّاس، فالآية تهديد وترجية كما إذا فسِّرت بالتقدُّم في الطاعة والتأخُّر فيها.

﴿**وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ**﴾ للجزاء، وفي الآية والتي قبلها دلالة على باهر حكمته، والتأكيد بتقديم الضمير فيكون ضميران والقسم ﴿**إِنَّهُ حَكِيمٌ**﴾ في قوله وفعله ﴿**عَلِيمٌ**﴾ بكلِّ شيء فكلُّ ما في هذه السورة وغيرها بحكمته وعلمه.



﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (26) وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ (27) وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (28) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (29) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (30) إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (31) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (32) قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (33) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (34) وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ (35) قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (36) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (37) إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (38) قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (39) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (40) قَالَ هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (41) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (42) وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (43) لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ (44)﴾

بدء خلق الإنسان وأمر الملائكة بالسجود له وإباء إبليس وعداؤه للبشر

﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ**﴾ آدم المعهود وهو أبو البشر، وليس المراد ذرِّيَّته معه كما أنَّه ﷻ ذكر أبا الجنِّ إذ قال: ﴿وَالْجَآنَّ﴾ ولم يقل: والجنَّ، ولا يخلو الكلام مع ذلك من إفادة أنَّ الذرِّيَّة مِمَّا خلق أبوهـا، وصرَّح بهذه الفائدة في قوله ﷻ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ [سورة الصافات: 11] وقوله تعالى: ﴿فإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [سورة الحج: 5].

وأجمعوا أنَّ المراد بالإنسان هنا آدم كما هو المراد في قوله ﷻ: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ﴾ ولا ينافيه التنكير لأنَّه أوَّل الأمر غير معهود، فقال: ﴿بَشَرًا﴾، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ...﴾ [سورة آل عمران: 59] وأجاز بعض أن يكون الإنسان آدم وذرِّيَّته.

﴿مِن صَلْصَالٍ﴾ طين يَبسٍ يصلصل، أي يصوِّت إذا نقر، وأيضا تصوِّت الريح في جسد آدم إذا هبَّت عليه، وفسَّر بعضهم الصلصال بالصوت المترتِّب على النفخ فيه، وقيل: الصلصال الطين اليابس، وأمَّا التصويت فخارج عمَّا وضع له، بل يترتَّب عليه ورجَّحه بعض، وهو صفة وأصله مصدر، وقيل: بمعنى منتن، والأوَّل أولى لأنَّ النتن مذكور في قوله: ﴿مَسْنُون﴾.

[صرف] والرباعي المركَّب من حرفين متفاصلين، فعله ومصدره ووصفه عند الفرَّاء ليس له لام الكلمة، بل له الفاء والعين فقط، وكذا: «فَعْفَعَ» وذلك كصلصل وصلصال ووسوس ووسواس، ويردُّه أنَّه لا فعل ولا اسم معربا إلَّا له لام الكلمة، وقيل: تكرَّرت فاؤه فقط والرابع لام الكلمة، الفعل فَعْفَلَ والاسم فَعْفَال، ويردُّه عدم ورود نظيره، إذ لم تقل العرب في ضرب ضرضاب ونحوه، وقيل: تكرَّر عينه وقلب الثاني من المكرَّرين من جنس الفاء، فالأصل مثلا صلَّلَ بشدِّ اللام الأولى، قلبت ثانيته صادا، ووسَّسَ بشدِّ السين الأولى قلبت ثانيته واوا، وذلك كراهة لثلاث أحرف من نوع واحد، ويردُّه أنَّه لو كان كذلك لكان المصدر تفعيلا كتصليل وتوسيس، كقدَّس تقديسا، وأنَّ الأوَّلين في حكم الواحد للإدغام، وقد ورد كثيرا كقلَّل وعلَّل، وقيل: **فعلل وهو الصحيح** لورود مصدره كمصدر دحرج، وكلُّها أصول كصلصلة ووسوسة، وقيل: الخلاف فيما يبقى أصل المعنى لو سقط الثالث نحو لملم، وإلَّا فلا خلاف في أنَّ حروفه كلَّها أصول، وبسطت ذلك في شرح لامية ابن مالك(1).

(1) طبع في عُمان في أربعة أجزاء سنة 1992.

﴿مِّنْ حَمَإٍ﴾ نعت لصلصال أو بدل من قوله: ﴿مِن صَلْصَالٍ﴾.

[لغة] والحمأ: الطين المسودُّ من طول مجاورة الماء، ﴿مَّسْنُونٍ﴾ متغيِّر الرائحة بالنتن لطول مجاورة الماء، كما يسنُّ الحجر على الحجر أي يحكُّ به، ويتولَّد منه النتن. ويسمَّى السَّنين بفتح السين، أو مصوَّر كسنَّة الوجه لصورته وسنَّة الشيء صورته، أو مصبوب يقال: سنَّه أي صبَّه ليتيبَّس، ويتصوَّر على صورة كما يصبُّ في القالب، وذلك تشبيه إذ لم يصب طين آدم في القالب، وهو نعت لـ«حَمَإٍ» لا لصلصال كما قيل، لأنَّه بعد كونه صلصالا لا يمكن صبُّه ولا تصويره بحسب المعتاد، ولا تغيير رائحة فيه، اللهمَّ إلَّا بحسب ما قبل الصلصلة.

[نحو] وأمَّا تقديم الصفة التي هي ظرف أو جملة على الصفة التي هي اسم صريح فجائز، إذا كانت فيه نكتة، مع أنَّه يجوز أن يكون «مِنْ حَمَإٍ» بدلا من قوله: ﴿مِن صَلْصَالٍ﴾.

﴿وَالْجَآنَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾ هو أبو الجنِّ، وإبليس من ذرِّيته، قاتلتهم الملائكة وأسروه فتعبَّد معهم، وقيل: هو إبليس، والجنُّ أعمُّ من الشياطين لعمومه الكافر والمسلم، وخصوص الشياطين بالكافر.

ويجوز أن يراد بالجانِّ الجنس سواء قلنا: إنَّ إبليس أبو الجنِّ أو ذرِّيَّة أبيهم، على كلِّ حال يتفرَّع الجنس من أصله، ويقال: الجانُّ أبو الجنِّ، وهم مؤمنون وكافرون، وإبليس أبو الكافرين فقط وهم الشياطين، مشركين ومنافقين، وهم أيضا جنٌّ لأنَّهم مستورون لا نراهم في الجملة، وقيل: الشياطين خَاصَّةً أولاد إبليس كما مرَّ، إلَّا أنَّهم لا يموتون إلَّا إذا مات إبليس.

ومعنى ﴿مِن قَبْلُ﴾ من قبل آدم. ونَارُ السَّمُومِ: نار لا دخان لها تدخل في ثقب البدن لشدَّة حرارتها ولطفها، والحيوان كلُّه كالغربال، والسموم: الحرُّ الشديد كأنَّه قيل من نار الحرِّ الشديد، وقيل: السموم صفة أضيف إليها موصوفها،

أي من النار السموم أي الداخلة المسام، أو الإضافة للبيان أي هي السموم، وقيل: السموم جهنَّم فهو مخلوق من نار جهنَّم، وعن ابن مسعود ﵁: نار الريح الحارَّة القاتلة التي هي جزء من سبعين جزء من السموم التي خلق منها الجان.

وعلى كلِّ حال الله قادر على بعثهم كما خلقهم أوَّلا، والله قادر على خلق الروح في الريح، وما شاء.

[نحو] و«مِنْ» الداخلة على «قَبْلُ» زائدة عند بعض للتأكيد، وكذا بعدُ، أو للابتداء، والثانية للتبعيض، فجاز اتِّحاد المتعلَّق، ولا تعلّق للزائد، بل لا يضرُّ اتِّحاد التعلُّق ومعنى الحرفين، مع أنَّ أحدهما في الزمان والآخر في المكان.

﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَآئِكَةِ**﴾ كلِّهم أو لبعض، فيعلم الباقين[1]. ﴿**إِنِّي خَالِقُۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ**﴾ سمِّي بشرا لظهور بشرته لعدم الشعر، لا كحيوانات كسيت شعرا وصوفا ووبرا وريشا، ويطلق الشعر على الكلِّ، أو لكونه كثيفا يباشر لا لطيفا لا يباشر كالملائكة، ونوع من الجنِّ، ومنهم من يباشر.

﴿**فَإِذَا سَوَّيْتُهُ**﴾ صوَّرته بالصورة الإِنسَانِيَّة وقد كان قبل بدون أعضاء، كما أنَّ الجنين في البطن بلا أعضاء ثمَّ تكون.

أو تسويته: تعديل طبائعه، عن ابن عَبَّاس ﵄: خلق الله آدم من أديم الأرض فألقاه على الأرض، حتَّى صار طينا لازبا، ثمَّ ترك حتَّى صار حمأ مسنونا، وصوَّره وبقي أربعين يوما مصوَّرا، حتَّى يبس فصار صلصالا كالفخَّار، ثمَّ صوَّره أعضاء لحما ودما، فكذا أولاده أطوارا نطفة بعد طينة ثمَّ علقة ثمَّ مضغة ثمَّ عظاما ولحما.

ويقال: تركه في الشمس أربعين عاما على صورته، وهو صلصال لا يدري أحد ما يراد به، ولم ير أحد مثل صورته، ثمَّ نفخ فيه من روحه.

---

(1) في الطبعة العُمانية: «الباقي».

﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ أجريت فيه بعض روحي، أي بعض الروح التي هي ملكي في تجاويف بدنه، فصار حيًّا، استعار النفخ للإجراء بجامع الإيصال، وأضاف الروح لنفسه تشريفا لآدم، كبيت الله، وناقة الله، وعبد الله، أي بعضا ثابتا أو شيئا ثابتا من جنس الروح الذي هو ملكي. و«مِنْ» في مثل ذلك للابتداء، أو للتبعيض.

﴿فَقَعُواْ﴾ كلُّكم، أمر من الوقوع، حذفت واوه قبل القاف لأنَّ أصلَ فتحِ قافِه الكسر، فكأنَّها وقعت الواو من مضارعه بين ياء مفتوحة وكسرة، والأمر تبع للمضارع، وغير الياء من حروف المضارع تبع للياء.

﴿لَهُ سَاجِدِينَ﴾ أي خاضعين له بالتحيَّة، أو منحنين له تعظيما، أو سجود صلاة تعظيما له، بجعله كالقبلة، وهو لله ﷻ، أو المراد بقوله: ﴿لَهُ﴾ لجهته، أو كان السجود لغير الله جائزا إذ ذاك ثمَّ نسخ إلَّا لله ﷻ. وقدَّم «لَهُ» للفاصلة.

﴿فَسَجَدَ﴾ له ﴿الْمَلَآئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ أكَّد تأكيدين تشريفا للملائكة بالامتثال، وذمًّا لإبليس، ولا يصحُّ أن يقال أفاد بـ«أَجْمَعُونَ» وقوع السجود في وقت واحد، لأنَّه لو أريد ذلك لقيل: «كلُّهم معا» بالنصب على الحال.

قال المبرِّد: أو قال: «جميعا» على الحالية، وفيه أنَّ «جميعا» لا يفيد اتِّحاد الوقت، اللهمَّ إلَّا إن أُوِّل «جميعا» بمجتمعين، ولا يتبادر ولو توهِّم، لكن الواقع في نفس الأمر السجود في وقت واحد لمسارعتهم في طاعة الله، ولو أمكن سبق بعض بعضا لأشدِّية سرعته، أو صغر جسمه، والمنحني للسجود ساجد في حينه إذا أَتَمَّه بعدُ، وواصل الأرض بجبهته ساجد.

﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ﴾ استثناء متَّصل إذ هو من الملائكة حكما لنشأته فيهم، وكونه مغمورا فيهم حتَّى شمله الأمر بالسجود، قيل: أو لأنَّ من الملائكة جنسا يتوالدون يسمَّون جنًّا، ويجوز أن يقال: منقطع. فـ«أَبَىٰٓ» حال مطلقا، أو

مستأنف زيادة لبيان عدم سجوده، أو استئناف بياني، لإمكان أن يكون استثناؤه من السجود لذهوله، أو تردُّده أو عدم شمول الأمر له، فكأنَّه قيل: ما شانه؟ فقال: أبى.

﴿**أَنْ يَّكُونَ**﴾ من أن يكون، أو أبى كونه ﴿**مَعَ السَّاجِدِينَ**﴾ الملائكة في السجود لآدم.

﴿**قَالَ**﴾ الله ﷻ: ﴿**يَآ إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ**﴾ لآدم في سجودهم، «لا» نافية أي ما شأنك في انتفاء سجودك، وما الداعي لك إلى انتفائه، أو صلة كما سقطت في قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ﴾ [سورة صٓ: 75] خلق الله له هذا الخطاب في الهواء، أو في موضع أو مع ملك، وخطابه تعالى لإبليس غاية تضييق عليه كما أنَّ خطابه لوليِّه غاية إكرام.

﴿**قَالَ لَمَ اَكُن لأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ**﴾ أكَّد نفي السجود بلام الجحود معرضا عن حكم الله وحكمته، إلى ترجيح نفسه على آدم، لأنَّه من صلصال من حمإ مسنون، وكيف وأنا مخلوق من نار وهي أشرف من التراب، وأنَّها منيرة دون التراب، وأنا كملك لست كثيفا، وغفل لعنه الله عن أنَّ آدم بلا واسطة، وأنَّ صورته أفضل، وأنَّ الله حكم بفضله، وأنَّ منه الأنبياء، وأنَّه مطيع لله ﷻ، وأنَّ له خواصَّ وفيه فوائد، وأنَّ التراب مسجد وطهور ومصلًّى.

﴿**قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا**﴾ من الجنَّة وكان فيها حال الخطاب، وفيها وسوس لآدم، فدلَّ الحال على مرجع الضمير، وقيل: من السماوات، وكان فيها كذلك، وكونه فيهنَّ دليل الضمير، وإنَّما يخرج الشيء مِمَّا هو فيه وكونه في سماء ككونه في الأخرى، أو من السماء بإرادة الجنس، والخروج من السماوات تحريم للجنَّة بالأولى.

أو من زمر الملائكة لأنَّه فيهم، فالخروج منهم، أو اُخرج من رحمتي أي محلِّها وهو الجنَّة والسماوات. عَارَضَ نصَّ الله بالقياس فاستحقَّ الإخراج من

الرحمة والرجم واللعنة، كما قال الله ﷻ: ﴿**فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ**﴾ ومعنى مرجوم مطرود من الرحمة والهدى.

وعبَّر بالرجم عن الطرد لأنَّ المطرود يرمى بالحجارة في الجملة، أو يرجم بالشهب إذا جاء للاستماع، كسائر من يسمع من أولاده، أو رجمهم رجمه إذ كان أباهم وأمرهم بالاستماع. واللعنة: الطرد والإبعاد في الدنيا، ومن لعن في الدنيا لم يكن له يوم القيامة إلَّا الخزي والعذاب، فلا إيهام أنَّ له السوء في الدنيا فقط.

أو معنى ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ﴾ أبدا، لأنَّ يوم الدين مِمَّا يضرب به الناس المثل في البعد، وقد علم الله أنَّ الناس سيكونون بخلقه لهم، وفهم إبليس ذلك، وأنَّهم يضربون به المثل إذا كانوا، وأيضا الدين: الجزاء فكأنَّه قيل: تبعد عن الخير إلى يوم تجازى فيه على عصيانك، وأيضا يلعن لعنة يوم القيامة تنسيه هذه اللعنة، كما قال الله ﷻ: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُم...﴾ [سورة الأعراف: 44] وأيضا يعذَّب فيه عذابا ينسيه اللعن في الدنيا.

وكان يلعنه أهل السماوات والأرضين، لأنَّه أوَّل عاص على المشهور، وكلُّ عصيان من غيره عصيان منه لأنَّه آمر به، ففي الدنيا اللعنة وينضمُّ إليها في الآخرة العذاب واللعنُ الدائمان.

﴿**قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي**﴾ أخِّرني عن الموت والجزاء والتعطيل عن الإغواء، والفاء عطفت «أَنظِرْنِي» على كلام الله أو على محذوف، أي فعلت ذلك أو قضيت ذلك فأنظرني، عطف طلب على خبر، ولا يقدَّر: إذا جعلتني رجيما ملعونا فأنظرني، لأنَّ الجعل واقع متحقِّق لا مستقبل، ولا إن جعلتني رجيما، لأنَّه لم يشكَّ في الجعل، وكذا تقول في مثل ذلك.

﴿**إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ**﴾ يبعث الناس، فإذا أخِّر إلى يوم البعث لم يمت بعد، فلم يصبه الموت كما أصاب الناس، فلا يعذَّب أو يستمرُّ على الإغواء بعد

بعثهم أيضا، وهذا لجهله أنَّه لا تكليف بعد البعث، ولا معصية بعده، وأنَّه لا بدَّ له من الموت، أو علم ذلك ودعا بخلافه هذا لطمعه فأجابه الله عز وجل بقوله: ﴿**قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ**﴾ وهو وقت نفخة الموت فيموت كغيره، ويبعثون بعد أربعين سنة بنفخة.

ويجوز أن يكون «يوم يبعثون» هو الوقت المعلوم بأن سمَّى وقت النفخ بالموت يوم بعث، وأنَّه وما بعده وقت واحد، وعلى هذا فلم يرد أنَّه يحيى أبدا، ولا أنَّه يغوي الناس بعد البعث، فعبَّر عنه بيوم الجزاء وبيوم البعث وبالمعلوم، لوقوعه في الكلامين.

يقول الله تعالى لملك الموت: جعلت فيك قُوَّة أهل الأرضين والسماوات السبع، وألبستك أثواب السخط، فاذهب بغضبي وسطوتي مع سبعين ألف ملك امتلئوا غيظا وغضبا مع كلِّ واحد سلسلة من جهنَّم وغلٍّ إلى إبليس وانزعوا روحه الخبيثة بسبعين ألف كلَّاب، وناد مالكا ليفتح أبواب جهنَّم ويبرز له بصورة لو أبصرها أهل السماوات والأرض لماتوا، فيفعل، ويقول: قف يا خبيث لأذيقك موتة الأوَّلين والآخرين، فيهرب إلى المشرق وإلى المغرب وإلى جهة السماء، ويغوص في البحر وفي الأرض، ويجد في ذلك كلِّه ملك الموت سابقا له، فيجيء موضع آدم وحوَّاء فيقول: من أجلك صرت هكذا، ويحييهما الله عز وجل ليشاهدا عذابه، ويقال له: اسجد لآدم فيقول: لم أسجد له حيًّا فكيف أسجد له ميِّتا؟ وقد جعلت له الأرض جمرة وطعنته الملائكة بالكلاليب[1].

﴿**قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي**﴾ «مَا» مَصدَرِيَّة، والباء للقسم، أي فبإغوائك إيَّاي، وجوابه قوله تعالى: ﴿**لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الاَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمُوٓ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ**﴾ ومفعول «أزيِّن» محذوف للعموم تقديره لأزيِّنَنَّ لهم في الأرض المعاصي وما يوصل إليها، أو ينقصها أو يقلِّلها.

(1) لا تغفلْ عن أنَّ قضايا الغيب لا يجب اعتقادها إلَّا بنصٍّ قطعي. (المراجع).

[فقه] وفي الآية القسم بفعل الله وهو الإغواء، والخلف في ذلك فقيل: جائز، وهو الصحيح عندي، وقيل: غير جائز، فقيل: ينعقد فتلزم الكفَّارة بالحنث وهو الصحيح عندي، وقيل: لا ينعقد فلا تلزم.

وفي سورة «ص» القسم بالصفة وهي العزَّة إذ قال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ﴾ [سورة ص 82]، وفي الأعراف [آية 16] بالفعل وهو الإغواء، والقصَّة واحدة، فإمَّا أن يكون أقسم مرَّتين: مَرَّة بفعل الله وهو ما هنا وفي الأعراف، وتارة بصفته وهو ما في «ص»، وإمَّا أن تجعل «مَا» اسما واقعا على العزَّة، وحذف الرابط المجرور ولو بلا وجود لشروط حذفه، فإنَّ من النحاة من أجاز الحذف بدليل مطلقا، وأجاز حمل الكلام عليه، والتقدير فبما أغويتني بها مراعاة للمعنى أو به مراعاة للفظ، كأنَّه قيل فبعزَّتك التي أغويتني بها، وإمَّا أن تجعل الباء سببيَّة متعلِّقة بمحذوف، أي أجتهدُ في كيدهم لإغوائك إيَّاي.

والمعتزلة منعوا أن يحدث الله الضلال، فأوَّلوا الإغواء بالنسبة إلى الغيِّ، مثل تأويل ﴿أَنْ يُغَلَّ﴾ [سورة آل عمران: 161]، بأن ينسب إلى الغلول، أو بكونه سببا لغيِّه، وذلك بأمره بالسجود المترتِّب عليه الامتناع منه.

[أصول الدين] ذهب بعض معتزلة البصرة إلى وجوب الأصلح في الدين، أي الأنفع لعبده على الله، وذلك مذهب الجبَّائي، وقال بعض معتزلة البصرة كذلك، إلَّا أنَّ الأوَّلين اعتبروا الأنفع في جانب علم الله ﷻ، والآخرين لم يعتبروا ذلك، وزعموا أنَّ من علم الله منه الكفر على تقدير التكليف يجب عليه تعريضه للثواب، بأن لا يموت صغيرا أو كبيرا مجنونا من صغره إلى موته، وقالت معتزلة بغداد: إنَّه يجب على الله الأصلح في الدين والدنيا معا، بمعنى الأوفق في الحكمة والتدبير.

وأمهل إبليس ليزداد عذابا ويلتحق به متَّبعوه، ويعظم الثواب لمن خالفهم، ولا واجب على الله وقد علم إبليس أنَّ فعل العبد منسوب إلى الله ومخلوق له، وذلك كالإغواء هنا وجهلته المعتزلة.

والأرض أرض الدنيا، يريد إنِّي أغويهم في الأرض كما أغويت أباهم في الجَنَّة، وأنَّ له قُــوَّة، أو أراد بالأرض الحياة الدنيا، والهــاء في «لَهُمْ» للناس، ومعنى ﴿أَغْوَيْتَنِــي﴾: خذلتني، ومعنــى ﴿لَأُغْوِيَنَّهُم﴾ أحملهــم على الغواية بالوسوســة، و﴿الْمُخْلَصِينَ﴾: من اختارهم الله بالهدى والسعادة فيؤمنون ولا يؤثِّر فيهم كيد إبليس، ولو لم يقل: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ﴾ لكان كاذبا، فقاله تحرُّزا عن قبح الكذب لخبثه في ذاته لا لتقوى ولا لخوف.

﴿**قَالَ هَذَا**﴾ أي الإخــلاص، أو اختياري عبادا لطاعتــي، ولا يؤثِّر فيهم كيدك، أو هذا الاســتثناء ﴿**صِرَاطٌ عَلَيَّ**﴾ أي طريق أراعيــه ولا يتخلَّف، كأنَّه واجب ولا واجب على الله، أو ﴿عَلَيَّ﴾ بمعنى إليَّ، وأبقى المعتزلة ﴿عَلَيَّ﴾ على ظاهرهــا من الوجوب، لأنَّهــم أوجبوا على الله الأصلح ﴿**مُسْــتَقِيمٌ**﴾ لا انحراف فيه ولا عنه، ويجوز أن يكون اســم الإشــارة عائدا إلى ما ذكر بعد، وهو معنى قولــه: ﴿**اِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَــكَ عَلَيْهِمْ سُــلْطَانٌ اِلَّا مَــنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ**﴾ العباد على العموم، فالاستثناء متَّصل.

ويجوز أن يراد بالعباد العباد المخلصين، فالاستثناء منقطع، أي لكن من اتَّبعك من الغاوين لك عليهم تســلُّط بالوسوســة المتأثــرة فيهم فقط لا في المخلصين، ولا إجبار لك عليهم بنحو خنق أو شنق، بل غوايتهم باختيارهم، والســلطان: التســلُّط، ﴿وَمَا كَانَ لِــي عَلَيْكُم مِّــن سُــلْطَانٍ اِلَّآ أَن دَعَوْتُكُم فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ [سورة إبراهيم: 22].

وفي جعلِ الاستثناء متَّصلا استثناءُ الأكثر، وفيه خلاف، وذلك أنَّ الغاوين أكثر من المخلصيــن، وأجاز قوم اســتثناء النصف وأقلَّ، وأجاز قوم اســتثناء الأكثر، ومنع آخرون استثناء النصف وأكثر، وأجاز ما دون النصف وهو الأصل.

والآية تصديــق لإبليس فــي قولــه: ﴿إِلَّا عِبَــادَكَ مِنْهُــمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ فالمخلصون في قول إبليــس: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُــمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ هم العباد في

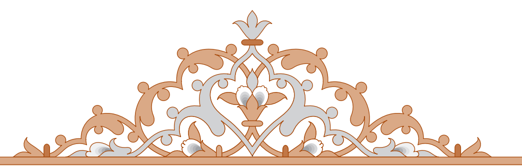
قوله ﷻ: ﴿إِنَّ عِبَادِي﴾ على أنَّ الاستثناء منقطع، والآية أيضا تكذيب لِمَا أوهم كلام إبليس من أنَّه يجبرهم على الغواية، وإذا أريد بـ«عِبَادِي» العباد المخلصون فالإضافة للتشريف.

﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ﴾ دار العذاب لا خصوص الطبقة المسمَّاة جهنَّم ﴿لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ موعد من اتَّبَعَك من الغاوين كلِّهم وأنت أسفلهم فيها، فالضمير لـ«مَنِ اتَّبَعَكَ»، ويرجِّحه أنَّ اعتبار الاتِّباع أدخل في الزجر عن اتِّباعه، مع أنَّ «الْغَاوِينَ» جيء به لبيانه. أو موعد الغاوين كلِّهم، فالضمير للغاوين، ويرجِّحه القرب وظهور الملاءمة، والمعنى واحد، لأنَّ «مِنْ» للبيان فمن اتَّبعه هم الغاوون. والموعد: مصدر ميميٌّ على حذف مضاف، أي ذات موعدهم، أي وعدهم فـ«أَجْمَعِينَ» توكيد، أو حال للهاء، أو اسم مكان، وعليه فـ«أَجْمَعِينَ» توكيد للهاء.

﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾ أطباق على وفق الأعضاء السبعة: العينين والأذنين واللسان والبطن والفرج واليد والرجل، وهي مصادر السيِّئات المستوجبة لجهنَّم، كما هي مصادر الحسنات المستوجبة للجنَّة لمن استعملها لها، [قلت:] وقد ينال الخير بالنية وحدها، فكانت أبواب الجنَّة ثمانية.

والسبعة: جهنَّم لفسَّاق الموحِّدين هي فوق، ولظى للنصارى، والحطمة لليهود، وقيل: بالعكس فيهما، والسعير للصابين، وسقر للمجوس، والجحيم لسائر المشركين، والهاوية لمن أضمر الشرك وأظهر الإسلام، ولا تهم أنَّ الفسَّاق من أهل التوحيد يكونون تحت المشركين كما هو قول مشهور ولو جاء أنَّه يبدأ بهم.

﴿لِّكُلِّ بَابٍ﴾ طبق ﴿مِّنْهُمْ جُزْءٌ﴾ من جهنَّم ﴿مَّقْسُومٌ﴾ مجعول لهم قِسْم منها، أو الباب في الموضعين على ظاهره، يدخلون النار من سبعة أبواب لكثرتهم.



﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿45﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿46﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿47﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿48﴾ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿49﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿50﴾﴾

مجازاة الله للمتَّقين يوم القيامة

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ لجميع المعاصي أو صغائر لم يصرُّوا عليها.

[أصول الدين] وذكر الفخر في سورة لقمان أنَّ اسم الفاعل يعتاد لمن رسخ فيه، فيحمل عليه الشرع، ولو كان ربَّما أطلق على من لم يرسخ، ويدلُّ لهذا ما ورد من أحاديث إبطال الأعمال بالكبائر والآيات، فليس المراد كلَّ من اتَّقى الشرك، وإلَّا كان قائل ذلك مرجئة أو نقض قوله بدخول بعضٍ النارَ.

﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ لكلِّ واحد مع مَن تَحتَهُ من ولدانٍ وحورٍ جنَّةٌ وعينٌ، أو لكلِّ واحد منهم مع مَن تَحتَه عددٌ من عيون، وعددٌ من جنَّات، ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [سورة الرحمن: 46] وكثيرا ما يطلق لفظ الجمع على الاثنين فصاعدا، وأيضا قال الله ﷻ: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [سورة الرحمن: 62] فيحتمل الضمُّ إلى الأولَيَيْنِ فَتِلْكَ أربع لكلِّ واحد، وقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ التِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَارٌ...﴾ [سورة القتال: 15] يدلُّ على تعدُّد الأنهار.

وليس فيه تعدُّد العيون، لكن لا مانع من أن يقال: لا فرق بين العين والنهر في دار الخلد، ويجوز أن يقال: العيون مقادير لتلك الأنهار، بل تنبع

من تلك الأنهار، والنهر أعظم من العين، ويجوز أن تجري العيون بعضها إلى بعض، إذ لا حقد ولا حسد، ومعنى كونهم في جنَّات وعيون أنَّهم في تملُّك جَنَّات وعيون، أو في شأن جَنَّات وعيون، أو في نفع جَنَّات وعيون.

﴿**ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ**﴾ يقول الله لهم قبل دخولها بخلق الصوت في آذانهم، أو في موضع أو بملك: ادخلوها، أي ادخلوا الجنَّة، أو الجنَّة والعيون، لأنَّ لهم دخول العين، ولا ينجس الماء بهم ولا يتَّسخ، أو المراد بالدخول الملابسة فتشمل العيون والجنَّات.

ويجوز أن يقدَّر حالا محكية، أي اثبتوا في جنَّات وعيون مقولا لهم قبل ذلك: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ﴾ أو كلَّما أرادوا دخول جنَّة من جنَّاتهم قيل لهم: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ـ امِنِينَ﴾ بعد أن كانوا فيها، والباء للمصاحبة أي مع سلامة من كلِّ مكروه ما دمتم فيها، وأنتم لا تخرجون منها، أو مع قولهم سلام عليكم كمن يسلِّم عند دخول دار، فيكونون يسلِّمون على من في الجنَّة من الحور والولدان والملائكة، وأيضا كلُّ مسلم يسلِّم على من سبقه فيها من المسلمين، أو المراد مسلَّما عليكم لأنَّ الملائكة تسلِّم عليهم ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ [سورة الرعد: 24].

﴿**ءَامِنِينَ**﴾ مقدِّرين الأمن من كلِّ ما يكره، فيكون توكيدا في المعنى لقوله: ﴿بِسَلَامٍ﴾ إذا فسِّر بالسلامة من مكروه، أو يقدَّر بسلام مِمَّا يضرُّ كالمرض، وزوال النعم والفزع، آمنين مِمَّا يكره دون ذلك، أو بالعكس.

ولا توكيد إذا فسَّرنا السلام بتسليمهم، أو بالتسليم عليهم بقصد التحية والدعاء، وكذا لا توكيد إذا فسَّرنا ﴿ءَامِنِينَ﴾ بمصدِّقين لقول: ﴿ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ﴾، ولا يفسَّر بعدم الخروج منها، وإلَّا تكرَّر مع قوله: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ فيكون ﴿وَماهُم...﴾ مؤكِّدا له لأنَّ الأمن من الخروج إذ جاءهم من الله تعالى لا يُتوهَّم تخلُّفه.

﴿**وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ**﴾ حِقد أو عداوة أو بغضاء، أو حسد سابقات في الدنيا، أو المراد أنَّه لا تتولَّد لهم فيها، وأنَّهم يوقفون على باب الجنَّة وقفة يغتسلون بماء هناك، ويشربون، فيزول كلُّ ما في قلوبهم من قبل، والدنيا سجن المؤمن، وروي أنَّهم يقفون وقفة فيسامح بعض بعضا، ثمَّ يؤمر بهم إلى الجنَّة، وقد نقَّى الله قلوبهم من الغلِّ والحقد والغشِّ والحسد، كأنَّها قلب رجل واحد، فلا يتغيَّر قلب واحد منهم بعلوِّ درجة غيره عليه، **وهذا أولى** من أن يقال: إذا كانوا فيها زال ذلك عنهم، ومن أن يقال: إذا كانوا على سرر متقابلين زال ذلك.

[نحو] ﴿**إِخْوَانًا**﴾ حال من الهاء في «صُدُورِهِم» المضاف إليها ما معناه بعضُ معناها، أو من ضمير الاستقرار في قوله: ﴿**فِي جَنَّاتٍ**﴾ أو من واو «ادْخُلُوهَا» أو من المستتر في «ءَامِنِينَ» أو في «سَلَامٍ» إذا جعل حالا، ومعنى ﴿إِخْوَانًا﴾: متصافِين بتخفيف الفاء، أي كلٌّ صفيٌّ للآخر.

[نحو] ﴿**عَلَىٰ سُرُرٍ**﴾ حال أخرى كذلك، أو نعت لـ«إِخْوَانًا»، أو متعلِّق بقوله: ﴿**مُّتَقَابِلِينَ**﴾، أو حال من المستتر فيه، و«مُتَقَابِلِينَ» نعت «إِخْوَانًا»، أو حال أخرى كذلك، أو من المستتر في «عَلَى سُرُرٍ» إذا جعلناه حالا ممَّا قبله، أو حال من المستتر في «إِخْوَانًا» لتضمُّنه معنى المشتقِّ، وهو متصافين.

ويجوز تعليق «عَلَى سُرُرٍ» بـ«إِخْوَانًا» على التضمين، إلَّا أنَّ عدم التضمين أولى عند عدم الاحتياج إليه، ويجوز تعليقه بمتصافِّين بالشدِّ، أي جاعلين صفوفًا، وتَقَابُلُهم بمعنى أنه لا يكون بعضٌ قَفَا بعض لدوران الأسرَّة بهم حيثما أرادوا.

﴿**لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ**﴾ تعب بعمل إذ لا عمل فيها، ولا بمعاشرة، لأنَّهم يزدادون حُبًّا وأُنسًا بها، وبالنعم والخدم والأزواج ﴿**وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ**﴾ أبدا لا يسلَّط عليهم مُخرِجٌ فضلا عن أن يخرجوا بأنفسهم واختيارهم، وتمام

النعمة بدوامها وإلَّا كانت مكـــدَّرة بتوقُّع الزوال، والمــوت خروج منها لأنَّ المَيِّت لا يكون في ملاذِّها فلا يموتون.

﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الاَلِيمُ﴾ تقرير بإجمـــال لِمَا تقدَّم تفصيلا من الوعـــد والوعيد، كما تقول: لـــك ألفان وثلاثة آلاف فذلك خمســـة آلاف، إلَّا أنَّه قدَّم في هذا الإجمال ما أخرِّ من التفصيل، وهو قوله: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ...﴾ وأخِّر ما قُدِّم وهو ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ...﴾.

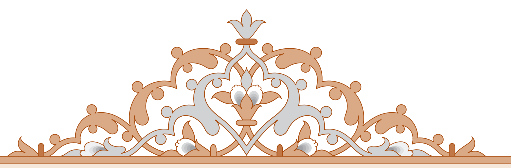
[أصول الدين] وليـــس في ذكر المغفرة ما يدلُّ علـــى أنَّ المراد بالمتَّقين متَّقو الشـــرك، فإنَّ الكبائر التي دون الشرك مُهلِكة إن لم تغفر، والصغائر أيضا تغفر باجتناب الكبائر، والعقاب على الصغائـــر مع اجتناب الكبائر جائز عقلا لا وقوعا، لأنَّ الله ﷻ أخبرنا بغفرانها، لو شاء لعذَّب عليها لكن لم يشأ.

وفي الآية توكيد الرحمة والمغفرة وتوسيعهما، لأنَّه أخبر بهما عن نفسه، وزاد ﴿أَنَا﴾ واخبر عن عذابه بأنَّه مؤلم لا عن نفسه بأنَّه معذِّب العذاب الأليم، قال الله تعالى [في حديث قدسي]: «**رحمتي سبقت غضبي**»[1].

وذكر مثل ذلك الوعد والوعيد في قوله:

---

(1) تقدَّم تخريجه، انظر: ج 4، ص 209.



﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ۝٥١ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ۝٥٢ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ۝٥٣ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ۝٥٤ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ۝٥٥ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ۝٥٦ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ۝٥٧ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ۝٥٨ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥٩ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ ۝٦٠ فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ۝٦١ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ۝٦٢ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ۝٦٣ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ۝٦٤ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ۝٦٥ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ۝٦٦ وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ۝٦٧ قَالَ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ۝٦٨ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ۝٦٩ قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ۝٧٠ قَالَ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ۝٧١ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝٧٢ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ۝٧٣ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ۝٧٤ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ۝٧٥ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ۝٧٦ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٧٧﴾

قصَّة ضيف إبراهيم وإخباره بإهلاك قوم لوط

﴿**وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ**﴾ لأنَّ إبراهيم وأهله ولوطا ومن آمن به متَّقون، وقوم لوط مجرمون.

والمراد بالعباد في الآية قبلُ وبضميره في الآية هذه مطلق العباد، ويجوز أن يراد بهما عباده المخلصون، فالإضافة للتشريف وقدَّم الرحمة تأكيدا وإطماعا، ولسبقها غضبه، وأكَّدها بوصفي المبالغة، قال أبو هريرة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنَّ الله خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة فأمسك عنده تسعا وتسعين، وأرسل في خلقه رحمة واحدة، حتَّى إنَّه لترفع الدَّابَّة بها رجلها عن ولدها، وبها يتراحم الناس، ولو علم الكافر بكلِّ ما عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنَّة، ولو علم المؤمن بكلِّ الذي عند الله من العذاب لم يأمن من النار**»[1] أي لتغلَّب عليه الخوف، قال عبادة بن الصامت: لو يعلم العبد قدر عفو الله ما تورَّع عن حرام، ولو علم قدر عذاب الله لجمع نفسه إلى قتلها.

وروي أنَّه ﷺ مرَّ بنفر من أصحابه وهم يضحكون، فقال: «**أتضحكون وبين أيديكم النار؟**» وَلَمَّا وصل الحجر رجع إليهم فقال: «**إنَّ الله تعالى أوحى إليَّ: لم تقنط عبادي؟**» ونزل: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيَ أَنِّيَ أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الاَلِيمُ﴾.

وذكر قصص الأنبياء وأممهم ترغيبا وترهيبا، وضيف إبراهيم لإهلاك قوم لوط وتبشير إبراهيم، فناسب ذكر الرحمة والعذاب في الآية قبل، وكذلك ناسب التفصيل السابق. وضيف إبراهيم اثنا عشر ملكا أو عشرة أو ثلاثة، على صفة غلمان حسان، أقوال، منهم جبريل، وأصل الضيف مصدر يصلح للقليل والكثير ولذلك قال:

[نحو] ﴿إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ﴾ بواو الجماعة، و«إِذْ» بدل اشتمال من «ضَيْفِ»، كأنَّه قيل: عن وقت دخولهم ولو كانت «عن» لا تدخل على «إذ»، بناء على أنَّه لا يلزم صلوح عمل عامل المبدَل منه في المبدَل، أو مفعول لمحذوف مبدَل

---

(1) رواه **البخاري** في كتاب الرقاق (19) باب الرجاء مع الخوف، رقم 6469. و**السيوطي** في الدر، ج 4، ص 114، وقال: أخرجه البخاري ومسلم والبيهقي في الأسماء والصفات مرفوعا.

من «نَبِّئْ»، أي اذكــر إذ، أو متعلّق بـ«ضَيْفِ»، بمعنـــى إضافة أو ضيافة، ولا يتعلَّق بلفظ خبر مقدَّر أي عــن خبر «ضَيْفِ»، لأنَّ الإخبـــار لم يقع في زمان إبراهيم، ويجوز تقدير: عن قصَّة ضيف إبراهيم الواقعة إذ دخلوا عليه.

﴿فَقَالُواْ سَــلَامًا﴾ أي ذكروا لفظ «سلام» بأن ذكروه بالنصب في كلامهم، على معنى سلَّمنا سلاما، أو نسلِّم ســلاما، أو بالرفع في كلامهم مع «عليكم» في كلامهم، أو مع حذفه وســلَّمنا أو نســلِّم المقــدَّر للإنشــاء لا للإخبار. والمضارع للحال هنا لا للاســتمرار كما قيل، كما تقــول: بعتُ، قاصدا لعقد البيع في الحال، وتقول: أبيع، قاصدا لعقده كذلك، ولم يذكر ردَّ الســلام هنا ولا بَقِيَّة القصَّة لتقدُّم ذكرهما في سورة هود وللاختصاص.

﴿قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُــونَ﴾ خائفون لأنَّهم دخلوا بــلا إذن وفي غير وقت دخول، كما بعد العتمة وفي وسط الليل أو السحر، ولامتناعهم من الأكل من العجل الحنيذ، وهذا القول بلسان حال لأنَّ في الآية الأخرى: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ [سورة الذاريات: 28] إلَّا أن يقال: قال بلسانه بعد الإيجاس.

﴿قَالُواْ لَا تَوْجَلِ اِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ ولا يخاف أحد مِمَّن جاء للتبشير، لا توجل مِنَّا لأنَّا ملائكة، أرسلنا ربُّك لنبشِّرك بغلام كثير العلم إذا بلغ، أو إذا أوحي إليه، وهو إسحاق، وفسّــر ﴿عَلِيم﴾ بنبيء. ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي﴾ بالولد ﴿عَلَىٰٓ أَن مَّسَّــنِيَ الْكِبَرُ﴾ على مسِّ الكبر إيَّاي، ومسَّ زوجي كما في غير هذه الســورة. الاســتفهام للتعجُّب من أن يولد له وهــو على مائة ســنة، أو مائة وعشرين، من ذات تسعين أو مائة على ما في ذلك من أقوال.

و«عَلَى» للاستعلاء المجازي متعلّق بـ«بشَّــر» وكذا إن جعل للمصاحبة، ولا حاجة إلى تعليقه بمحذوف حال، وأجيز أن يكون للإنكار وفيه أنَّ الإنكار تكذيب للرسل وهم الملائكة حاشاه عن تكذيبهم، إلَّا أن يقال: لم يعلم أنَّهم ملائكة حين قالوا ذلك، بل بعد، لكن لا مانع على هذا أن يجعل الاســتفهام

حقيقيًّا، كأنَّه قال: أحقٌّ تبشيركم؟ ثمَّ إنَّه قد يصحُّ الإنكار مع علمه بأنَّهم ملائكة على طريق شدَّة الحيرة في ذلك، والوَلَهِ وضُعف البشر، أو على طريق أن لا ولادة عادة في مثل كبري، أو على طريق أنَّ مثلي في السنِّ يكره الولادة، فلا تكون بشارة له، ولا ينقض ذلك أنَّهم جعلوه تبشيرا لأنَّه يرجع عليه السلام إلى أنَّه بشارة، ويفرح بالولد.

وهذه الأوجه كلُّها أيضا في قوله: ﴿**فَبِمَ تُبَشِّرُونِ**﴾ وزاد وجها آخر وهو أن يكون استفهاما حقيقيًّا مع علمه بأنَّهم ملائكة بمعنى: فعلى أيِّ وجه يكون التبشير؟ ويجوز إن يكون الإنكار في الموضعين بمعنى أنَّ نفسي نافية لذلك، ولو كان حقًّا، وإذا كان هذا استفهاما عن طريق أو كَيفِيَّة فالملائكة لم يجيبوه عليها، لأنَّ الأحسن له أن لا يسأل عنها بل يصدِّق ويفرح.

﴿**قَالُواْ بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ**﴾ بأمر غير باطل بل واقع ولا بدَّ، أو بأمر أيقنَّاه لا نتردَّد فيه، والباء متعلِّق بـ«بَشَّر»، أو بَشَّرْنَاكَ ونحن على الحقِّ في تبشيرنا، فتعلَّق بحال محذوف، أي ملتبسين بطريق هو قول الله وأمره، وإبراهيم عليه السلام مؤمن بقدرة الله عز وجل لكنَّ صورة كلامه كصورة القانط، فقالوا عليها: ﴿**فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ**﴾ كما قال: كيف تحيي الموتى؟ فقال عز وجل: أَولم تؤمن؟ [في سورة البقرة آية: 260] والقانط: الآيس، وضرب عن صورة القنوط إلى التصريح بما رسخ في قلبه بقوله: ﴿**قَالَ وَمن يَّقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّآلُّونَ**﴾ أي لا يقنط منها إلَّا الضالُّون، والله قادر على أن تلد لي عجوز عاقر وأنا كبير، وقد خلق أبي آدم بلا أب ولا أم.

وقد يقال: في الآية نوع تعريض منه عليه السلام بأنَّهم لم يصيبوا في نهيهم إيَّاهُ عن القنوط، مع أنَّه غير صادر منه على أنَّه لم يعلمهم ملائكة إلَّا بعد، وعلى علمه بهم أشار إلى أنَّ في كلامهم غلظة، والملك لا يخطَّأ لكن توجَّع عليه السلام بقولهم. والضالُّون: المخطئون عن معرفة سعة رحمة الله، وقدرته.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ عطف على محذوف، أي هذا تبشيركم فما خطبكم أَيُّهَا الملائكة الذين أرسلهم الله في خطب بالذات وفي التبشير بالعَرَض؟ عطف إنشاء على إخبار، أو قد بشَّرتموني فما خطبكم؟ عطف إنشاء واسميَّة على إخبار وفِعلِيَّة، أو على «فَبِمَ تُبَشِّرُونِ» عطف اسمِيَّة إنشائيَّة على فِعلِيَّة إنشائيَّة، وعلم أنَّهم أرسلوا أصالة لغير التبشير من أنَّهم جماعة، ولا يعهد أنَّ التبشير يكون بها بل بفرد، كما بُشر بعده بواحد: زكرياء ومريم، على أنَّ المراد بالملائكة جبريل تعظيما له، وبشَّر مريم عند النفخ، لكن عاجلته بالإنكار والردِّ إذ رأته على صورة شابٍّ جميل، أو علم إبراهيم أنَّ مجيئهم أصالة لغير التبشير من كونهم لم يبتدئوا بها، بل ذكروها في أثناء مطلق الكلام لإزالة الوجل، أو علم أنَّهم جاءوا أصالة لغيره من قِلَّة كلامهم بالبشارة مع مكثهم معه بعدها.

والعذاب يحتاج فيه إلى العدد عادة، ولهذا ولتعظيم لوط أرسل إليه ملائكة مع أنَّ الواحد يكفي في إهلاك قومه، وقلب قراهم ورجمها كما قلبها جبريل بجناح واحد أو بريشة، وكما قال الله: ﴿بِخَمْسَةِ ءَالَافٍ مِّنَ الْمَلَآئِكَةِ﴾ [سورة آل عمران: 125] مع أنَّ الله كاف، والملك الواحد بإذنه تعالى كاف، والخَطْبُ والشأن والأمرُ ـ واحد الأمور ـ بمعنًى، إلَّا أنَّ الخطب فيما يعظم.

﴿قَالُواْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ مشركين فاسقين هم قوم لوط الكافرون خَاصَّةً لنهلكهم، ولم يدخل فيهم قومه المؤمنون، فالاستثناء منقطع في قوله: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾ أتباعه في الدين، أي لكن آل لوط ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ويجوز أن يكون الاستثناء من المستتر في «مُجْرِمِينَ»، فيكون متَّصلا، أي إلى قوم أجرموا كلُّهم إلَّا آل لوط فإنَّهم لم يجرموا، وإلَّا آل لوط دليل على أنَّ القوم المجرمين قوم لوط، ولو كان الاستثناء منقطعا لأنَّ المنقطع تشترط فيه المناسبة، إذ لا يقال: قام القوم إلَّا ثعبانا، والجملة بعد الاستثناء المنقطع كأنَّها خبر عنه، وكأنَّه مبتدأ إذا كان له تعلُّق به.

﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ﴾ استثناء من آل لوط متَّصل إن أريد بآل لوط آله بالإسلام وآله بالعشرة، منقطع إن أريد الآل بالإسلام، أو من الهاء كذلك، وإذا استثنينا آل لوط من المستتر في «مُجْرِمِينَ» تعيَّن أنَّ امرأته مستثناة من الهاء كذا قيل، ولا مانع من استثنائها من آل لوط المستثنين من المستتر في «مُجْرِمِينَ» أي أجرموا إلَّا آل لوط لم يجرموا إلَّا امرأته منهم أجرمت.

﴿قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ﴾ الباقين مع سائر الكفرة فتهلك معهم، أو المراد إنَّها بقيت في العذاب ولو خرجت لأنَّها لحقها حجر، علِّق «قَدَّرْنَا» باللام لتضمُّنه معنى فعل القلب، كأنَّه قيل: علمنا أنَّها لمن الغابرين، أو معنى القول، والقول يعلَّق بلا تضمين لأنَّه يتسلَّط على الجملة على أيِّ حال كانت. و«نَا» للملائكة، والمقدِّر هو الله لا هم، لكن لَمَّا جرى قضاء الله على أيديهم أسند التقدير إليهم، وأصل التقدير: جعل الشيء على قدر غيره، ثمَّ أطلق على مطلق إجراء الشيء على غيره. والقضاء: يطلق على العلم الأزليِّ فهو وصف، وعلى كتابة شيء في اللوح المحفوظ، وعلى إيقاعه خارجا، وعلى الحكم به فهو فعل.

﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ﴾ وصلوهم بعدما خرجوا عن إبراهيم وقريته، والمراد بآل لوط نفسه، أو لفظ «آل» زائد، أو هو وأهل بيته، أو هو وقومه مطلقا، وعلى كلِّ حال أجابهم وحده وذلك أنَّهم جاءوه وقومه ليهلكوا قومه ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ لم أعرفكم من قبل بعين ولا بوصف، وإنِّي متوقِّع لشرِّكم من قتلي أو ضرِّي، وإنَّما حملت الإنكار على ذلك لا على معنى أنَّه لا يعرفهم، ولا يعرف من أيِّ قوم هم، ولا لم جاءوا لأنَّ قولهم في الآية: ﴿قَالُواْ بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ لا يلائمه فيحمل على لازمه، لأنَّ من أنكر شيئا ولم يعرفه ينفر منه ويخاف، فالمعنى: ما جئناك بما يضرُّك فتخاف، بل بما يسرُّك وهو عذاب يشكُّ فيه قومك إذا أنذرتهم به.

﴿وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ الباء للتعدية، أي صيَّرنا الحقَّ آتيك، وهو عذاب قومك، وإنَّما قالوا ذلك مع أنَّه أتى قومه لأنَّه يسرُّ به، أو الحقُّ: الإخبار بأنَّهم يهلكون عن قريب، وإنَّما أسند إحضار العذاب إلى الملائكة مع أنَّ محضره هو الله ﷻ لأنَّه على أيديهم، وقالوا: «أَتَيْنَاكَ» بصيغة الماضي لتحقُّق الوقوع، أو الإتيان بمعنى الشروع في التنقُّل إليهم، أو الباء للمصاحبة أي جئناك مع الإخبار الحقِّ أو مع العذاب. وَأَمَّا «كَانُوا» فعلى ظاهره من المضيِّ، لكنَّه استمراريٌّ كما دلَّ عليه المضارع بعده، فهم يمترون إلى الآن ما لم يقع، وقد يحمل على تحقُّق الوقوع كأنَّه وقع العذاب، فهم يخبرونه بأنَّه كان يمترون فيه فوقع فانقطع الامتراء ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ في إخبارنا بمجيء العذاب وفي صحبتنا له.

﴿فَاسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ وهم من أسلم، أو هم وعياله، واختلف في زوجه هل بقيت أو سرت ﴿بِقِطْعٍ مِّنَ الَّيْلِ﴾ في بعض من الليل، ولا دليل على تخصيصه بآخر الليل، ولو فسِّر به قول شاعر:

افتحي الباب وانظري في النجوم كم علينا من قطع ليل بهيم

مع أنَّه لا يلزم تفسير [هذا] الشعر بالأخير، والشاعر رغب في المكث مع حبيبته فيستريح بما بقي، أو رهب فيستريح بقلَّة ما بقي.

﴿وَاتَّبِعَ اَدْبَارَهُمْ﴾ كن خلفهم لتنشِّط الضعيف وتؤمِّن الخائف، وتدلَّ على الطريق من حاد عنه وتسرع بهم قبل الصبح، إنقاذا لهم من العذاب، ولِئَلَّا يشتغل قلبك عن الذكر بمن خلفك، ولِئَلَّا تغفل عمَّن خلفك.

﴿وَلَا يَلْتَفِتْ﴾ مطلقا، أو إذا وقعت الصيحة ﴿مِّنكُمُۥٓ أَحَدٌ﴾ وراءه لينظر ما ينزل، فإنَّه يموت بالنظر إليه إذ لا يقوى قلبه على مشاهدته مطلقا، أو إذا وقعت الصيحة، أو لأنَّ الله أمر الملائكة برمي من التفت وقضى الله ﷻ أن لا يلتفت أحد منهم إلَّا امرأته، فقضى أن تلتفت فترمى، لأنَّها كافرة التفتت،

وقالت: واقوماه، فرميت بحجــر، أو يرمى من التفت لعدم امتثال النهي، وفي هذا بعد، أو نهوا عــن الالتفات قطعا لهم عن أن يتمنَّــوا الرجوع فلا تخلص هجرتهم، أو تتعلَّق أنفسهم بمواطنهم فتنقص هجرتهم ولا تخلص.

لَمَّا ترك الخليل ﷺ هاجر مع ابنها إســماعيل لم يلتفــت إليهما. أو لِئَلَّا يرقُّوا على قومهم، أو لِئَلَّا يقضوا أوطارهم بكثرة النظر فتسهل الفرقة فينقص الأجر، أو لا يتخلَّف لغرض عن الهجرة، والتخلُّــف لازم للالتفات فعبَّر عنه بالالتفات. وفي ذلك خطاب قومه معه بعد خطابــه وحده، والتفات من غيبة القوم إلى خطابهم.

﴿وَامْضُواْ حَيْثُ تُومَرُونَ﴾ أي إلى حيث تؤمرون، كما قال الشاعر:

.... لدى حيث ألقت رحلها أم قشعم[1]

[لغة] ولا يقال: إلى حيث أمركم الله بالمضيِّ إليه، لأنَّ حيث لا يرجع إليها الضمير من الجملة بعدها إلَّا نادرا، وليســت منعوتــة بالجملة بعدها بل مضافة إليها، وأخطأ من قال إنَّ هذا ممنوع مع بقائها على الظرفيَّة لا مع خروجها عنها، كما أخرجت هنا عن الظرفيَّة بدخول «إلى»، وإن فسَّــرنا ﴿امْضُواْ﴾ بسيروا، أو ﴿حَيْثُ﴾ بالزمان لم تقدَّر «إلى»، لكن لو كان للزمــان لقيل: حيث أمرتم، ولو قيل هذا لم يشتمل على الموضع الذي يؤمرون بالذهاب إليه.

وعلــى أنَّه مكان ـ وهــو الأصل فيه ـ تكون مشــتملة علــى التعرُّض له إجمالا، وهو الشــام أو مصــر أو الأردن أو موضع النجاة مطلقــا، كأنَّه قيل: ســيروا في موضع الأمر بالســير، وأضيــف الموضع للأمر بالســير في هذه للعناية، لأنَّه المراد في نفس الأمر ولِالتباسِ الأمرِ بشيءٍ بذلك الشَّيْءِ.

---

(1) البيت لزهير:

فشــدَّ ولــم يفــزع بيوتــا كثيرة لدى حيث ألقت رحلها أم قشعم

وأم قشعم: الحرب أو المنية أو الذل. (لسان العرب، مَادَّة: «قشعم»).

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الَامْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ عدِّي «قضى» بـ«إلى» لتضمُّنه معنى أنهينا، أو أوحينا، وذلك الأمر إشارة إلى مبهم لم يعرف إلَّا بما عطف عليه عطف بيان، أو أبدل منه، وهو أنَّ دابر هؤلاء مقطوع، أي أوحينا قطع دابر هؤلاء، وهذا مغن عن تقدير: هو أنَّ دابر، أو بأنَّ دابر؛ أو الإشارة إلى الهلاك المعلوم من الإرسال إلى القوم المجرمين، ومن ذكر تنجية من نجى المعبر عنه أيضا بـ﴿بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾، وهو أقرب محلًّا وأصرح بالاسم وأنَّ «دَابِرَ» بدل. وفي الإشارة تفخيم للأمر.

وقطع الدابر عبارة عن إهلاكهم كلِّهم حتَّى يصل آخرهم، و«مُصْبِحِينَ» حال من «هَٰٓؤُلَآءِ» لأنَّ ما أضيف إليه جزؤه، ولأنَّ هؤلاء كلُّهم هلكوا، فهو مشتمل على الدابر، فكأنَّهما اسم واحد ولو كان الدابر وهؤلاء اسمين لا اسما واحدا، وليس المقطوع الدابر فقط، أو حال من «دَابِرَ» ولو مفردا لأنَّه أريد به الكلُّ.

﴿وَجَآءَ اهْلُ الْمَدِينَةِ﴾ مدينة تسمَّى سذوم أكبر قرى قوم لوط، وبقاضيها يضرب المثل في الجُورِ، بفتح السين وضمِّ الذال المعجمة، قيل: أخطأ من أهملها وليس كذلك، فقد روي إهمالها، وفي الصحاح أنَّها مهملة وهو معرب فبذا قيل: إنَّه معجم بعد التعريب ومهمل قبله.

وأصل سذوم اسم ملك من بقايا اليونان سمِّيت به المدينة وكان ظلوما، وكان بمدينة سرمين من أرض قنسرين، كذا قال الطبري، وهذا المجيء قبل قول الملائكة ﴿فَاسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ كما في هود ليستقلَّ الكلام ببيان كَيفِيَّة نصر الصابرين، وأخَّره هنا ليصل ذكر أمَّة بأخرى في الكفر، إذ قال: ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الَايْكَةِ لَظَالِمِينَ﴾ [سورة الحجر: 78] وقال: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ﴾ [سورة الحجر: 80] وقال: ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ﴾ [سورة الحجر: 90] وقال: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ [سورة الحجر: 95].

﴿يَسْتَبْشِـرُونَ﴾ يفرح بعض إلى بعض بأضياف لوط فـي بيته، وهم ملائكة على صور فتيان حسـان الوجوه طمعا في فعل الفاحشة بهم، ولا يعرف لوط ولا هم أنَّهم ملائكة ﴿قَالَ﴾ لوط عليه السلام حين قصدوهم إلى بيته: ﴿**إِنَّ هَؤُلَآءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ**﴾ بتغلُّبكم عليهم، وإذلالي إذ لم أقدر على دفعكم عنهم، أو بفضيحتهم فإنَّ فضيحة الضيف فضيحة مضيِّفه، وكلٌّ من يزنون به فإذا غلبوه كان ذُلًّا له.

﴿**وَاتَّقُواْ اللّهَ**﴾ عذابه في فعل الفاحشة وهي أيضا ظلم ﴿**وَلَا تُخْزُونِ**﴾ في ضيفي، لا تجعلونـي ذليلا بتغلُّبكم عليهم في الفاحشـة، مـن الخزي وهو الهـوان، أو لا تجعلونـي ذا خزاية أي حيـاء بهم ﴿**قَالُـواْ أَوَلَـمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِيـنَ**﴾ عن منع الناس عَنَّـا وحجبهم بالإضافة، وكانـوا يتعرَّضون لكلِّ غريب ولـو كانت له لحيـة، ولا يخصُّون ذوي الجمـال، وكان عليه السلام يمنعهم طاقته ومبلغ احتياله، أي ولو امتثلت نهينا لم يصبك خزي ولا خزاية.

﴿**قَالَ هَؤُلَآءِ**﴾ النساء نساء البلد، أو نسـاء أمَّته مطلقا ﴿**بَنَاتِى**﴾ كبناتي، والنبيء كالأب لأمَّته وأب حقيق لأولاده، أي تزوَّجوا هؤلاء، و«بَنَاتِي» بيان، أو هؤلاء بناتي فتزوَّجوهنَّ، أو هؤلاء البنات أطهر لكم إن أسلمتم، أو حلَّ في شريعته نكاح المشـرك الموحِّدة، وقد زوَّج سـيِّدنا محمَّد ﷺ بنته لابن أبي لهب وهو مشـرك، ثمَّ نسـخ، أو بناتي من صلبي على أنَّ عدد اللَّائطين عدد بناته، وهلك الباقون لرضاهـم أو لإعانتهم أو لعدم النهي ﴿**إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ**﴾ مريدين لقضاء الوطر، أو مريدين لقولي: تزوَّجوهنَّ.

﴿**لَعَمْرُكَ**﴾ حياتك قسمي، أو قسـمي حياتك، والأوَّل أولى لأنَّ الحذف بالآخر أولى، والمراد: بقسمي ما أقسم به، قال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «**ما حلف الله بحياة أحد إلَّا بحياة محمَّد** ﷺ»[1] قال: ﴿لَعَمْرُكَ﴾. ﴿**إِنَّهُمْ لَفِي**

---

(1) أورده **السيوطي** في الدر، ج 4، ص 103. **والآلوسي** في تفسيره، ج 5، ص 72. وقال: أخرجه البيهقي في الدلائل وأبو نعيم وابن مردويه وغيرهم عن ابن عَبَّاس.

سَــكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ وقيــل: الخطاب للوط من الملائكــة، أي قالوا: لعمرك يا لوط... إلخ، أو متَّصل بقولهم: «مُصْبِحِينَ» وما بينهما معترض، ويردُّه هذا الحديث، وقول ابن عَبَّاس ﵁ يريد: وعيشك يا محمَّد، وقوله أيضا: ما خلق الله نفسا أكرم عليه من محمَّد ﷺ، وما ســمعت أنَّ الله تعالى أقسم بحياة أحد إلَّا بحياته، قال: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

والسكرة: غوايتهم الشبيهة بزوال العقل، أو شدَّة اشتهائهم الشبيهة بزواله، حتَّى إنَّهم لا يميِّــزون الصواب من الخطــإ، فإنَّ الزنى حــرام والدبر حرام، والصواب موضع الحرث بالنكاح لا موضع الفرث بالســفاح، و﴿يعْمَهُونَ﴾: يتحيَّرون، لكن المقصود ضلالهم لا التردُّد والشــكُّ، فإنَّهم اعتقدوا أنَّ فعلهم صواب، ومرَّ كلام في ذلك، **فالمراد مطلق التخبُّط فيما لا يجوز.**

وهذا تســلية لرســول الله ﷺ عن ضلال قريش أو إيذائهم له بضلال قوم لوط وإيذائهم له، وتهديــد لهم لعلَّهم يصيبهم عذاب كمــا أصاب قوم لوط، وقيل: الهاء لقريش والكلام أيضا تهديد، والجملة على هذا معترضة، **وما تقدَّم أولــى ومتبــادر.** و«فِــي سَــكْرَتِهِمْ» و«يَعْمَهُونَ» خبــران؛ أو الخبــر الأَوَّل، و«يَعْمَهُونَ» حال من ضمير الاســتقرار، أو هو الخبــر و«فِي» متعلِّق به. يقول الله ﷻ: كيف يسمعون نصحك وهم في سكرتهم يعمهون؟!.

﴿**فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ**﴾ صيحــة هائلة مهلكة، وذكر بعض أنَّها من جبريل ويحتاج لدليل، ويتقوَّى بما عرف من أنَّ جبريل للزلزال والخسف ونحوها، عذِّبوا بثلاثــة: بالصيحــة وبجعــل عاليها ســافلها وبالرجــم بالحجارة. ﴿**مُشْــرِقِينَ**﴾ داخلين في وقت شــروق الشــمس، ابتدأهــم العذاب حين أصبحوا وتمَّ حين الإشراق، فذلك قوله: ﴿مُصْبِحِينَ﴾، وقوله: ﴿مُشْرِقِينَ﴾ فلا تناقــض، ولا يتعرَّض بأنَّ الإهــلاك غير ممتدٍّ لجواز أن يــراد بامتداده توجُّعهم، أو موت جماعة بعد جماعة، أو لَمَّا كثر إهلاك الأمم العاصية في

وقت الصباح قيل: مصبحين ولو وقع العذاب في الشـــروق، أو الصبح عامٌّ إلى الزوال في الجملة.

﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَـــافِلَهَا﴾ الضميران للمدينة، لتقدُّم ذكرها لا لقرى قوم لوط، كمـــا قيل، لأنَّه لم يجـــر لهم ذكـــر، إلَّا أن يراد بالمدينـــة جنس قراهم المهلكة، وهـــنَّ أربع فيهنَّ أربعمائة ألـــف مقاتل، وهذه الفـــاء للترتيب دون سببيَّة، وقد تُكلِّف في جعلها سَبَبِيَّة بأنَّه لو لم يصح عليهم لم تقلب وفيه بعدٌ لجواز أن تقلب بهم أحياء أو موتى بلا صيحة.

[أصول الدين] ومَن مُسِـــخ برئ منه وعرفنا أنَّه شقيٌّ عند الله كالمنصوص عليه، فمن تولاه أشـــرك[1]، ولا يبرأ من طفل أو غير عاقل إن مســـخ، ويبرأ من مجنون بلغ وكلِّف ثمَّ جُنَّ ومسخ، ولا يبرأ ممَّن خسف به الأرض خلافا لبعض، لأنَّ الله ﷻ قد يسلِّط الحرارة في باطن الأرض فيحرِّكها أو يفتِّقها بمن عليها.

﴿وَأَمْطَرْنَـــا عَلَيْهِمْ﴾ قبـــل موتهم وقبل القلب، ولا مانـــع بعد القلب بأن تخـــرق الأرض المقلوبة حتَّى تصلهـــم، ولا مانع من ذلك بعـــد الموت كما يعذَّب الكافر في القبر، أو إهانة لهـــم، أو الإمطار على من خرج من القرية أو القرى ﴿حِجَارَةً مِّن سِـــجِّيلٍ﴾ طين أحرق فصار كالحجر، أو من سجيل كتب عليها أسماء أصحابها من السجل بمعنى الكتابة، ومرَّ كلام في ذلك[2].

[قصص] قيل: قلعها من أســـفل الأرض، ولا يتبادر هذا لأنَّهم يقعون في الأرض الثانيـــة، لكن لا مانع مـــن ذلك، وقيل: من الأرض الســـابعة فيقعون تحت الســـابعة، وهو غير متبـــادر ولا مانع، وهو أشـــدُّ بعدا لفصـــل ما بين الأرضين بالهواء وعـــدم اتصالهنَّ، ولا ندري ما الحكمـــة في ضمٍّ أرض إلى

---

(1) الأولى أن يقتصر فـــي البراءة على المنصـــوص عليهم فقط دون غيرهـــم، فقد تقع كوارث طبيعية أو مرضية من مسخ وخسف يذهب فيها الصالح والطالح.

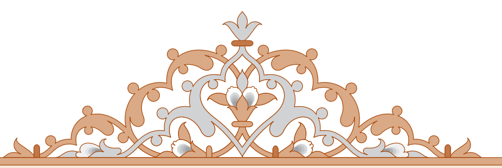
(2) في سورة هود آية 81.

أرضين، ولا ننســب إلى الله ما لا دليل له، والمتبادر أنَّها قلعت من وسط هذه الأرض، فقلبت فهي في داخل هــذه الأرض، ويدلُّ لهذا أنَّ موضع قراهم من جنس هذه الأرض تراب، والأرض السابعة غير تراب، لكن فيما قيل، وظاهر فتق السماء ســماوات والأرض أرضين: أن يكون السماوات من جنس واحد والأرضون من جنس واحد تراب، والله قادر أن يختلفن بعد الفتق.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي فيما ذكر من قصَّة إبراهيم وقصَّة لوط عليهما السلام ﴿لَآيَاتٍ﴾ دلالات على وجود الله ووحدانيَّته وقدرته ﴿لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ الكاســبين معرفة الأشــياء بإعمالهم النظر في ســماتها، أي علامتهــا العَقلِيَّــة وَالنَّقلِيَّة، وقيل: المتوسِّم الناظر من فوق الشيء لأســفل تثبُّتا، وقيل: مستقصي التعرُّف، وكلُّ ذلك من السمة أي العلامة.

﴿وَإِنَّهَا﴾ أي القرية أو القرى على ما مرَّ ﴿لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ ثابت لقريش في ذهابهم إلى الشام من الحجاز، أفلا يعتبرون بها؟ وقد تواترت لهم الأخبار بها وصدَّقوا بها، وأمَّا نفس القرى فــلا ترى لأنَّها قلبت ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُومِنِينَ﴾ عبرة لهم يستدلُّون بها على الانتقام من العاصي لعصيانه شركا أو فســقا، والمراد مطلق المؤمنين، وإن أريد به مؤمنو هذه الأمَّة فهم يســتدلُّون بذلك على رسالة ســيِّدنا محمَّد ﷺ، بقصَّة إبراهيم ولوط كما هما مع أنَّه لم يدركهما، ولا يقــرأ كتابة ولا يجالــس عارفا لها. وأمَّا من لــم يؤمن فيحمل الإهلاك على اقترانات النجوم واتِّصالات الأفلاك باســتقلال، ونحن معشــر المؤمنين ننسب ذلك [بدون استقلال] إلى الله عز وجل.

[نحو] واللام في الموضعين متعلِّقة بمحذوف نعت لـ«آية» و«آيات»، أو متعلِّق بما تعلَّق به «في»، أو بـ«في» ومدخولها لنيابتهما عَمَّا يصحُّ التعلُّق به، ويبعد التعليق بـ«آية» أو «آيــات» متضمِّنة معنى دلالة أو دلالات، ولا يترجَّح كما قيل بترجُّحه.



﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ۝٧٨ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ۝٧٩ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٨٠ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۝٨١ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ۝٨٢ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ۝٨٣ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝٨٤ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ۝٨٥ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ۝٨٦﴾

قصَّة أصحاب الأيكة (قوم شعيب) وأصحاب الحِجر (ثمود)

﴿**وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الَايْكَةِ**﴾ وإنَّه أي الشأن، والأيكة: الشجر الملتفُّ، ولكن المراد هي وبقعتها، كأنَّه قيل: بقعة ملتفٌّ أشجارها، أو جنَّةٌ ملتفَّة الأشجار، ويعبَّر عن ذلك بالغيضة سكنوا الغيضة وأكثر أشجارها الدوم، وقيل: الأيكة السدر، وقيل: قرية وأصحابها بعض قوم شعيب سكنوا فيها فبعثه الله سبحانه إليهم فكذُّبوه، فأهلكهم بالظلَّة، بأن شدَّد عليهم الحرَّ سبعة أيَّام فأنشأها الله فالتهبت عليهم نارا ﴿**لَظَالِمِينَ**﴾ بالإشراك والمعاصي والتكذيب.

﴿**فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ**﴾ بالظلَّة المذكورة ﴿**وَإِنَّهُمَا**﴾ قرية قوم لوط وقرية قوم شعيب، أو قرى قوم لوط وقرية قوم شعيب، أو لوطا وشعيبا المدلول عليه بذكر قومه، أو خبر قوم لوط وخبر قوم شعيب[1]، أو أصحاب الأيكة وأصحاب مدين لأنَّ شعيبا مرسل إليهما فذكر الأيكة مشعر

(1) في الطبعة العُمانية سقط قدر خمسة أسطر، من قوله: «سكنوا فيها...» إلى قوله: «...وخبر قوم شعيب»، وقد وقع فيها انتقال النظر لتكرار عبارة: «قوم شعيب».

بمدين، وعن ابن عمر عنه ﷺ: «**مديـــن وأصحاب الأيكة أمَّتان بعث الله تعالى إليهما شعيبا** عليه السلام»[1].

﴿لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ سمِّي الطريق إماما لأنَّه يؤمُّه السائر فيه حتَّى يصل.

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ﴾ واد بين المدينة والشـــام وأصحابه ثمود ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ كذَّبوا صالحا.

[أصول الدين] ومن كذَّب نبيئا واحدا فقد كذَّب جميع أنبياء الله وجميع كتبه، ومن كــذَّب حرفا واحدا أو حركة أو ســكونا فقد كــذَّب الأنبياء كلَّهم والكتب كلَّها، وذلك لاتِّحاد الدعوة في التوحيد وما لا يُبدَّل، وكلُّ نبيء جاء بتقرير الأمَّة قبله على أنَّها على الحقِّ إن كانت متَّبعة لنبيئها.

ويجوز ـ على ضعف ـ أن يفسَّر ﴿الْمُرْسَــلِينَ﴾ بصالح وأتباعه تغليبا، أو بمعنى الإرسال اللغوي، فإنَّ أتباع الرسل مأمورون بالتبليغ، كقوله تعالى: ﴿إِذْ جَآءَهَا الْمُرْسَلُونَ إِذَ اَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ﴾ [سورة يس: 14].

[سيرة] ويروى أنَّهم اســتقوا من آبار ثمود وعجنوا ونصبوا القدور في غزوة تبوك، فأمرهم ﷺ بإهراق ذلك وأن يعلفوا الإبل العجين وأن يستقوا من البئر التي ترد الناقة، وأمرهم أن لا يدخلوا تلك الأرض لئلَّا يصيبهم مثل ما أصاب أهلها.

﴿وَءَاتَيْنَاهُمُوَ ءَايَاتِنَا﴾ الكتاب المنزَّل على صالح أو نبيء قبله يتبعه، وهو صحف آدم وشــيت وهو الظاهر، أو المعجزات وهو أولى، إذ لا يعرف كتاب لصالح، ولصالح معجزات غير ما في القرآن.

[قصص] أو المراد ما فيه من ولادة الناقة من الصخرة عشراء وبراء، أو معها ولدها من الصخــرة، أو نتجته بعد خروجها وتمخُّــض الصخرة بها،

(1) أورده **الآلوسي** في تفسيره، ج 5، ص 75. وقال: أخرجه ابن عساكر عن ابن عمر.

وورودها الماء يومـا، وكثرة لبنها حتَّى كفاهم، وحلب العسـل منها أيضا، وعظم خلقها حتَّى إِنَّهَا إذا شـربت رجعت من غير طريقها الذي وردت منه لزيادة عظمها.

وأيضا آيـات كلِّ رسـول آيات للآخر، كمـا أنَّ تكذيـب واحد تكذيب للآخرين، أو ما نصب لهم من الأدلَّة الآفاقيَّة والنفسـيَّة، ﴿سَنُرِيهِمُۥ ءَايَاتِنَا فِي الَافَاقِ وَفِي أَنفُسِـهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُـمُۥ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [سـورة فصِّلت: 53]. وأضاف الإيتاء إليهم مع أنَّه لصالح لأنَّه أرسـل إليهم بالآيـات، وكلِّفوا بها، كإطلاق إنزال صحف إبراهيم على الأسباط، قال الله تعالى: ﴿قُولُواْ ءَامَنَّا بِاللهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا...﴾ [سـورة البقرة: 136] وقال تعالـى: ﴿وَمَآ أُنـزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنـزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ للهِ﴾ [سورة آل عمران: 199].

﴿فَكَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ لا يتفكَّرون، والإعراض عن الآيات المنزَّلة وتكذيبها أقبح وأشدُّ من الإعراض عن الآيات الآفاقيَّة والنفسيَّة، فالتفسير بها أولى، ولا سيما أنَّها أنسب بالإيتاء، وتليها المعجزة.

وجمع الآية هنا اعتبارا لتعدُّد أفرادها، وكذا في قولـه: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ ءَلَايَاتٍ لِلْمُتَوَسِّـمِينَ﴾ [الآيـة: 75] اعتبارا لتعدُّد ما قـصَّ من حديث ضيف إبراهيـم وحديث لوط، وتعرُّض قـوم لوط للملائكـة وإهلاكهم، وقلب المدائن وإمطار الحجارة، وأفرد في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَالِكَ ءَلَايَةً لِلْمُومِنِينَ﴾ [الآية: 77] باعتبار وحدة قرية لوط أو جعل قراهم كواحدة.

﴿وَكَانُواْ يَنْحِتُـونَ﴾ يقطعون ﴿مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًـا﴾ صخرا تصير بعد بيوتا، فهو من مجـاز الأوْل، أو يتَّخذون من الجبـال بيوتا بقطع الصخر وبنائه بيوتا، أو ينقبون فـي الجبال نقبا يكون بيوتا لهـم، ويتَّخذون من سهولها قصورا يسكنونها في الصيف، وينحتون من الجبال بيوتا يسكنونها في الشتاء.

﴿ءامِنِينَ﴾ من الانهدام بالمطر أو القدم، ومن نقب السارق وهدم الأعداء لأنَّهنَّ من صخر غلاظ محكمة بصنعة، قال تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ﴾ [سورة الشعراء: 149] قيل أي حاذقين، ولا سيما إذا كان النحت بالنقب في الجبل، أو آمنين من العذاب الذي توعَّدهم به صالح، حتَّى قالوا: ﴿اِيتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ [سورة الأعراف: 77]، أو آمنين من أن يصلهم إن جاء لظنِّهم أنَّ بيوتهم تحصِّنهم عنه. ويضعف أن يفسَّر بآمنين من عذاب الآخرة لعدم اعتقادهم الآخرة، ولعدم تصوُّر العاقل أن يمنعه بناء الدنيا من عذاب الآخرة، نعم يجوز بلا ضعف أن يقال: آمنين من عذاب الآخرة لإنكارهم البعث، وقيل: آمنين من الموت لطول أعمارهم.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ داخلين في الصباح باعتبار الابتداء لِمَا قيل: إنَّهم هلكوا ضحوة اليوم الرابع، وأيضا الزمان من الفجر صبح إلى الزوال. والصيحة هنا من السماء أو ممَّا شاء الله، والرجفة من الأرض، ولم يذكرا معا لأنَّ الصيحة تفضي إلى الرجفة، أو المراد بالصيحة الرجفة مجازا عنها، لأنَّها سبب الرجفة، فلا تناقض بين الآيتين.

﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ من المساكن الموثقة والأموال الكثيرة، والجيوش والعبيد والحشم، وهذا أنسب بأن يفسَّر الأمن بالأمن من عذاب الدنيا، لا من عذاب الآخرة ولا منهما ولا من الانهدام والسرَّاق.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالَارْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ إلَّا مع الحقِّ، أو ملتبِسين بالحقِّ، أو بسبب الحقِّ الذي اقتضاه الدليل من الإيمان، أو البعث والجزاء، والحقُّ: الحكمة والعدل المقتضي لإهلاكهم وإزاحة فسادهم، وإلَّا كان الهرج والمرج ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ ءَلَاتِيَةٌ﴾ فيجازى كلٌّ بعمله، فينتقم الله لك منهم، ولا تنتقم منهم في الدنيا.

﴿**فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيـلَ**﴾ يا محمَّد، وهو الإعراض عن أذاهم بلا جزع ولا انتقام، **وأخطأ من قال في مثل هذا إنَّه منسوخ بآية السيف، لأنَّ هذا مأمور به أبدا قبل نزول القتال وبعـده** ﴿**إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَـلَّاقُ**﴾ الكثير الخلق، فإنَّه خلق كلَّ شيء من أجسـام وأفعال وسـائر الأعراض، وذلك لعظم قدرته فلا يهولك شيء، مع أنَّه ﷻ مولاك، أو فعَّال للنسب أي ذو الخلق، فبيده أمرهم فكلُّهم إليه ﴿**الْعَلِيمُ**﴾ بالأشـياء كلِّهـا، ومنها حالك وحالهـم، وقد علم أنَّ الصفح دائم هو الأصلح في محاله، وليس القتال مخرجا عنه.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْءَانَ الْعَظِيمَ ﴿87﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿88﴾ وَقُلْ إِنِّيٓ أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴿89﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴿90﴾ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿91﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿92﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿93﴾ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿94﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿95﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿96﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿97﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿98﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿99﴾﴾

نعم الله تعالى على نبيِّه المصطفى ﷺ ومننه

﴿**وَلَقَدْ ـ اتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْءَانَ الْعَظِيمَ**﴾ أي سبعا من الأشياء التي هي موضع ثني وهو التكرير، أو موضع ثناء، أو الأشياء المثنية، فقال الجمهور: ذلك فاتحة الكتاب كما قرأها ﷺ وقال: «**هي السبع المثاني**»[1]، وروى ذلك أبيٌّ وأبو هريرة، وذلك أنَّها سبع آيات تثنى في كلِّ صلاة، أي تكرَّر، أو أنَّها تثنَّى في الصلاة بالسورة بعدها، أو إنَّها نصفان نصف ثناء ونصف دعاء، كما في حديث الربيع وغيره عن الله: «**قسمت الصلاة...**»[2] أي

---

(1) رواه **البخاري** في كتاب تفسير القرآن، باب ما جاء في فاتحة الكتاب، رقم 4204. و**الترمذي** في كتاب تفسير القرآن، رقم 3050. و**النسائي** في كتاب الافتتاح، رقم 904. من حديث سعيد بن المعلَّى.

(2) يشير إلى الحديث الذي رواه **الربيع** في مسنده، باب (58) في القراءة في الصلاة، رقم 224، و**مالك** في كتاب الصلاة باب القراءة خلف الإمام، رقم 192، و**أحمد** و**مسلم** عن أبي هريرة. ورقم 723 عند **البخاري** عن عبادة بن الصامت.

سورة الصلاة وهي الفاتحة أو سـمَّاها صلاة لأنَّها معظمها، ولا تصحُّ بدونها من السور، «**بيني وبين عبدي نصفين**» أو أنَّها مكرِّرة: الرحمن الرحيم، وإيَّاك وإيَّاك، والصراط وصراط، وغير وغير، وعليهم وعليهم، وكان عمر ﷺ يقرأ: «وغير الضالين»، أو إنَّها نزلت بمكَّة ونزلت بالمدينة.

قال الزجَّاج: سـمِّيت مثاني لأنَّها في الثناء علـى الله ﷻ، وهي من أجلِّ السور لنزولها مرَّتين كما قيل في الأنعام، ولإفرادها بالذكر عن القرآن، ولأنَّه لا صلاة إلَّا بها كما قال في الحديث[1]، أو السـبع الطوال، والأنفال والتوبة كواحدة، أو هما واحدة كما لا بسملة بينهما، وورد في هذا حديث.

وجاء عن ابن مسـعود وابن عمر وابن عَبَّاس ﷺ وجماعة من التابعين: لأنَّه يثنى فيهنَّ حدود القرآن وفرائضه، وأمثاله وعبره، وعامة أحكامه، وفيهنَّ عَامَّة الأحكام، واعترض بأنَّ السورة مكِّية، أو هذه الآية وأكثر السبع مَدَنِيَّة، ويجاب بأنَّ إنزالهنَّ إلى السـماء مرَّة مع باقي القرآن إيتـاء، وأنَّه قضى أن ينزلن عليه، أو سـورة التوبة لأنَّه يثنى فيها إلخ، وكذا فيما بعد من الأقوال، أو يونس أو الحواميم.

أو سبع صحائف وهي الأسباع، والقرآن سـبعة أجزاء، كلُّ سبع صحيفة وكتاب ومثناة ومثنية، فالسبع هو القرآن كلُّه، قسِّم سبعة أجزاء، أو سمِّي سبعا لأنَّه تضمَّن معنى صحف سـبع نزلت على من قبله وزاد عليها، ويناسبه قوله تعالى: ﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَـنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَـابِهًا مَّثَانِيَ﴾ [سـورة الزمر: 23]، أو ﴿الْمَثَانِي﴾: كتب الله كلُّها.

(1) انظر الحديث في الجامع الصحيح مسـند الإمام **الربيع** بن حبيب، كتاب الصلاة رقم 222. و**البخاري** في كتاب التفسير، باب ما جاء في فاتحة الكتاب، رقم 4474، ورقم 4647 بنحوه. و**مالك** في كتاب الصلاة (8) باب ما جـاء في أمِّ القرآن، رقم 190. من حديث أبي سـعيد مولى عامر بن كريز.

[نحو] فـ«مِنْ» للتبعيض، وحذفت تاء سبع لتأنيث المعدود وهو آيات أو سور، و«مِنَ الْمَثَانِي» نعت «سَبْعًا» و«مِنْ» للبيان، وإذا أريد بالمثاني أكثر من السبع فـ«مِنْ» للتبعيض، والمفرد مثنى ـ بالإسكان ـ من التثنية وهو التكرير أو الثناء، وفي ذلك كلِّه تقرير القراءة والألفاظ والقصص والمواعظ والأحكام، ويثنى عليه بالبلاغة والإعجاز، وثناء على الله بما هو أهله.

وعطف «الْقُرْءَانَ» عليه عطف عامٍّ على خاصٍّ إن أريد بالسبع بعضه، وإن أريد به القرآن أو الأسباع فعطف شيء على نفسه باعتبار تعدُّد صفته، بمعنى سبعا توصف بأنَّها من المثاني، أو نفس المثاني، وبأنَّها قرآن عظيم كقوله:

أنا الملك القرم وابن الهمام وليث الكتيبة في المزدحم

وقولك: جاء زيد العاقل والشجاع والعالم، أي الجامع بين عظم الملك والبنوَّة للهمام والشجاعة وزيد الجامع بين العقل والشجاعة والعلم.

[سيرة] روي أنَّه ﷺ وافى بأدرعات سبع قوافل لقريظة والنضير فيها أنواع البزِّ والطيب والجواهر وسائر الأمتعة، فقال المسلمون: لو كانت هذه الأموال لنا لتقوَّينا بها، ولأنفقناها في سبيل الله، فقال لهم: «**لقد أوتيتم سبع آيات هي خير من هذه القوافل السبع**» ولعلَّه وافاها في بعض أسفاره، وفي نسخة: أقبلت من بصرى وأدرعات سبع قوافل.

ولا يكون هذا سببا لنزول قوله تعالى: ﴿**لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ**﴾ لأنَّ هذه السورة مكِّية، ومصادفة القوافل بعد الهجرة في آخر عمره في ذهابه إلى الشام للقتال، ومنه تبوك، ولعلَّ المسلمين طمعوا في القوافل لأنَّها أموال المحاربين، كذا قيل، وفيه أنَّه لا قُوَّة للنضير وقريظة في آخر عمره ﷺ، قيل يحتمل أن تكون هذه الواقعة قبل نزول الآية فنزلت فيها، أو الآية مَدَنِيَّة جعلت في سورة مكِّيَّة، وهذا الحديث نصٌّ في تفسير السبع بسبع آيات.

وعن أبي بكر رضي الله عنه: «من أوتي القرآن فرأى أنَّ أحدا أوتي من الدنيا أفضل مِمَّا أوتي فقد صغَّر عظيما وعظَّم حقيرا»، ولم أقف له على سند، وعنه ﷺ: «**ليس منَّا من لم يتغنَّ بالقرآن**»[1] أي لم يعده غنًى أو كشفا للهموم بقراءته، أو لم يفصح به ويجهر به، أو يقرأه على خشية، أو يزيِّن به صوته، وقد جاء: «**زيِّنوا القرآن بأصواتكم**»[2] قيل لراوي الحديث: فإن لم يكن حسن الصوت؟ قال: يحسِّنه ما استطاع.

و﴿أَزْوَاجًا﴾: أصنافا، قال ﷺ: «**لا تغبطنَّ فاجرا بنعمة، فإنَّك لا تدري ما لاقى بعد موته، إنَّ له عند الله قاتلا لا يموت**»[3] يعني النار، ومدُّ العين: طموحها رغبة فيما متِّع به الكُفَّار، فهو ﷺ بعد لا ينظر إلى ذلك بعينه ولا بقلبه.

﴿**وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ**﴾ بعدم إيمانهم شفقة عليهم، فإنَّهم أشقياء خلقوا لعذاب الله عز وجل، والضمير لِلكُفَّارِ عموما، قيل للممتَّعين، وفيه أنَّ الحزن على ممتع الكُفَّار بالدنيا المبغوضة عنده تعالى لا يليق بالأبرار، فضلا عن سيِّد الأخيار، والأولى أنَّ المعنى: لا تحزن على تكذيبهم وإعراضهم ﴿**وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُومِنِينَ**﴾ ألن لهم وارفق وتواضع، وأصل جناح الإنسان يده، ﴿وَاضْمُمِ اِلَيْكَ جَنَاحَكَ﴾ [سورة القصص: 32] أي يدك، أو جناح الطائر كنِّي به عن حسن التدبير والشفقة، كما يرخي الطائر جناحه لفروخه وكما يخفِّضه إذا أراد الانحطاط فذلك استعارة تمثيليَّة أولى من أن يكون استعارة عن التواضع.

---

(1) رواه **البخاري** في كتاب التوحيد (44) باب قوله تعالى: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمُۥٓ أَوِ اجْهَرُواْ بِهِ...﴾ رقم 7527. ورواه **أبو داود** في كتاب الصلاة باب استحباب الترتيل في القراءة، رقم 1471. من حديث ابن أبي مليكة.

(2) رواه **أبوداود** في كتاب الصلاة باب استحباب الترتيل في القراءة رقم 1468. و**الحاكم** في كتاب فضائل القرآن: ج 1 ص 763 رقم 2100. من حديث البراء بن عازب.

(3) أورده **الهيثمي** في المجمع، ج 10، ص 355 بلفظ «لا تغبطوا...».

﴿**وَقُلِ اِنِّيَ أَنَا النَّذِيرُ**﴾ بعذاب الله تثبيتا للمؤمنين وزجرا للكفرة بأنَّه ينزل إن لم يؤمنوا، وفي المؤمنين أيضا ما ينذر عنه ﴿**الْمُبِينُ**﴾ الظاهر الإنذار، أو مبين لطريق النجاة، وطرق الهلاك، وفي ضمن ذلك تبشير بالجنَّة للمؤمنين، ووصفه بالمبين لأنَّ إنذاره أبين من إنذار غيره من الأنبياء، لأنَّه بلسان القال ولسان الحال، لأنَّه من أشراط الساعة، ولعلَّه لهذا لم يصرِّح بالتبشير. و«ال» للعهد، فالحصر باعتبار العهد وإن جعل للجنس فالحصر إضافي، قصر قلب أي نذير لا ساحر أو شاعر أو كاذب.

﴿**كَمَآ أَنزَلْنَا**﴾ الضمير للنبيء ﷺ لأنَّه نزل على لسانه، أو لله، أي ذلك كما أنزلنا، أو آتينَاكَ سَبعًا كما أنزلنا ﴿**عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ**﴾ أي إنذارا ثابتا كما أنزلنا العذاب على المقتسمين، ويكفي هذا، وأوضح منه أن يقدَّر: إنِّي أَنا النذير المبين بإنزال العذاب كما أنزلناه على المقتسمين اليهود والنصارى، المقتسمين للكتب بأن آمنوا ببعض وكفروا ببعض.

و﴿أَنزَلْنَا﴾ بمعنى ننزل لأنَّ عذاب النضير وقريظة إنَّما وقع بعد الهجرة بإخراجهم، والسورة مكِّيَّة، فالماضي لتحقُّق الوقوع بعد.

[سيرة] وكذا إن فسَّرنا المقتسمين بقريش الذين قسَّموا طرق مَكَّة باثني عشر رجلا أو سِتَّة عشر أو أربعين في مواسم الحجِّ والأسواق، وجعلوا في كلِّ طريق من يصدُّ الناس عنه ﷺ بكلام يقوله: كساحر ومجنون، وكاهن وشاعر، وأساطير الأوَّلين، وتعليم بشر ونحو ذلك إنَّما هو بعد الهجرة، وقتلوا يوم بدر، وقيل: ماتوا بالحرب، قيل: ومنهم الوليد بن المغيرة، والمشهور أنَّه مات بخدشة السهم المسموم، فالإنذار بعذاب يشبه عذابا سيقع، أو الاقتسام افتعال من القسم وهو الحلف، فهم الرهط التسعة الذين تقاسموا أن يقتلوا صالحا فرجموا بالحجارة.

وهذا لا يناسبه قوله تعالى: ﴿**الذِينَ جَعَلُواْ الْقُرءَانَ عِضِينَ**﴾ إلَّا إن جعلنا القرآن ما على عهد صالح من كتب الله، أو قلنا لما خالفوا ما فيه صاروا كأنَّهم جعلوه عضِين، ولو كان يجيء بعدهم، أو نجعل «الذِينَ» مبتدأً خبره



«فَوَرَبِّكَ...». ويجوز أن يعود التشبيه إلى «ءَاتَيْنَاكَ سَبْعًا» لأنَّ الإيتاء إنزال كأنَّه قيل: ولقد أنزلنا إليك سبعا من المثاني كما أنزلنا على المقتسمين... إلخ، إلَّا أنَّه لا يتبادر تشبيه إنزال الآيات أو السور مثلا بإنزال العذاب إلَّا على التهكُّم بهم، أو على الامتنان عليه ﷺ، بأنَّا عوَّضنا أعداءك العذاب في مقابلة إنزال السبع عليك.

[لغة] و﴿عِضِينَ﴾: جمعُ عَضَوٍ، أي أجزاء، حذفت لامه فجُمِع جَمْعَ المذكَّر السالم، ولو كان غير عاقل إلَّا أنَّه لم يعوَّض التاء، ثمَّ اطَّلعت أنَّه ورد في كلام العرب عضَةٌ بمعنى عضَهٌ، فيكون قد عوِّض كسَنَة[1].

وذلك أنَّ أهل مَكَّة جعلوا القرآن أجزاء بعض يقول: سحر، وبعض يقول: كهانة، وبعض يقول: شعر، وهكذا... أو أهل الكتاب جعلوه قسمين: بعضه حقٌّ موافق للتوراة والإنجيل، وبعضه باطل مخالف لهما؛ أو قال بعض منهم استهزاء: سورة كذا من كتاب محمَّد لي، وقال آخر: سورة كذا لي، وهكذا... أو قالوا: هذه لك وهذه لي؛ أو كفر أهل الكتاب ببعض كتبهم وآمن ببعض؛ أو قول النصارى في التوراة واليهود في الإنجيل، وقد أمر النصارى بالإيمان بالتوراة واليهود بالإيمان بالإنجيل وكأنَّهم قوم واحد، وعلى هذا فالقرآن: التوراة والإنجيل، فيكون تسلية له ﷺ بأنَّهم كفروا بكتبهم كما كفر قومك بكتابهم.

وكذا إذا فسَّرنا الاقتسام إلى إقرار ما وافق هواهم وتبديل ما لم يوافقه أو إخفائه كما قال الله ﷻ: ﴿تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ...﴾ [سورة الأنعام: 91] أو المفرد عِضَهٌ بالهاء حذفت وعوِّضت التاء فجمع بمعنى أسحار، أو كذب أو بهتان.

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ نسأل المستقسمين بالمعاني السابقة، أو المراد جميع المكلَّفين المدلول عليهم بقوله: ﴿إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ والأوَّل

(1) أي: سَنَةٌ أصلها: سَنَوٌ، لذلك تجمع على سنوات، وسِنين. أو مِئَة ومِئِين، وعزة وعِزين. ينظر: شرح قطر الندى لابن هشام، ص 50.

أولى لقربه والتصريح به. والسؤال سؤال تقريع أو تقرير ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ...﴾ [سورة يس: 65] وذلك في موقف ولا يسألون في موقف آخر، كما قال: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ...﴾ [سورة الرحمن: 39] أي لا يسألُ عن ذلك في موقف ويسألون عنه في موقف آخر، وكذا قال: ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ المُجْرِمُونَ﴾ [سورة القصص: 78]. أو لا يُسْأَلُونَ اسْتِفْهَامًا حَقِيقِيًّا ويسألون تقريعا أو تقريرا، ولا إشكال، فإنَّ السؤال يكون يومئذ لا في الدنيا وهو فيه غير حقيق. أو السؤال حيث أثبت كناية عن الجزاء وحيث نفي بمعنى التكلُّم.

﴿**عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ**﴾ من الاقتسام وجعل القرآن عضِين بأوجههما، أو عن كفرهم ومعاصيهم كلِّها، فيدخل فيها الاقتسام والجعل.

﴿**فَاصْدَعْ**﴾ اجهر ﴿**بِمَا تُومَرُ**﴾ به، فحذف «به» ولو لم يتَّحد المتعلّقان لظهور المعنى، أو بأمرك، أو افرق بما تؤمر بين الحقِّ والباطل، أو بأمرك، والأمر بمعنى المأمور به، إذ لا خلاف في جواز التأويل بالمصدر بمعنى المفعول، وإنَّما الخلاف في المصدر الصريح ومع هذا فالصحيح الجواز.

﴿**وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ**﴾ لا تبال بما يقولون، ولا يهمَّنَّك قولهم.

﴿**إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِءِينَ الذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا ـ اَخَرَ**﴾ نعت أو مبتدأ خبره قوله: ﴿**فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ**﴾ والأوَّل أولى، قال عبد الله بن عبيدة[1]: «ما زال النبيء ﷺ مستخفيا حتَّى نزل: ﴿فَاصْدَعِ بِمَا تُومَرُ...﴾» يعني أنَّه يبلِّغ الوحي من حين بُدِئَ به، ولَمَّا نزلت اشتدَّ به جدًّا.

[سيرة] ﴿الْمُسْتَهْزِءِينَ﴾: الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والحارث بن قيس، والأسود بن عبد يغوث، والأسود بن المطّلب،

---

(1) عبد الله بن عبيدة الربذي مولى بني عامر بن لؤي، اختلف فيه فبعض وثَّقه كالدارقطني وبعض ضعَّفه، وقال النسائي: ليس به بأس. مات سنة 130. تهذيب التهذيب، ج 5.

ويروى: عديُّ بن قيس بدل الحارث بن قيس، وهم من أشراف قريش، يبالغون في إيذاء رسول الله ﷺ والاستهزاء به، قال له جبريل: أمرت أن أُكْفِيكَهم، فأومأ إلى ساق الوليد، فمرَّ بنِبال فتعلَّق بثوبه سهم، فتكبَّر أن ينحني لنزعه، فقطع عرقا في عقبه فمات، ويروى: جعل السهم يضربه، فخدشه في ساقه فمرض به فمات، وأومأ إلى أخمص العاص فدخلت فيه شوكة، فانتفخت رجله حتَّى صارت كالرحى، وقيل: مثل عنق البعير، فمات مكانه في شعب خرج يتنزَّه فنزل فيه فدخلته الشوكة، وأشار إلى أنف عديٍّ بن قيس أو الحارث بن قيس، فامتخط قيحا وما زال كذلك حتَّى مات، وأشار إلى الأسود بن عبد يغوث وهو قاعد في أصل شجرة، فجعل ينطح برأسه الشجرة ويضرب وجهه بالشوك حتَّى مات، وقيل: أصابه مرض الاستسقاء[1] فمات، وإلى الأسود بن المطَّلب فعمي، وروي أنَّه رماه جبريل بورقة خضراء فذهب بصره ووجعته عيناه، فجعل يضرب برأسه الجدار حتَّى مات.

وحذف مفعولي «يعلم» أو مفعوله على أنَّه بمعنى يعرف، للعموم والتهويل، أي يعلمونهم مغرورين، بعود الهاء والواو إليهم، أو يعرفون عاقبة أمرهم في الدنيا والآخرة. ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ﴾ على مقتضى الطبيعة البَشَرِيَّة ﴿بِمَا يَقُولُونَ﴾ بما يقول المشركون أو المستهزئون، من الشرك والطعن في القرآن والاستهزاء بك وبه ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ مع حمد ربِّك، أو ملتبسا بحمد ربِّك، قل: «سبحان الله وبحمده» يزل همُّك بهما مع الصلاة وإدامة العبادة.

قال ﷺ: «**ما أمرت أن أجمع المال وأكون من التاجرين، ولكن أوحي إليَّ أن ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَاتِيَكَ**

(1) علَّة تصيب البطن في صفاقه، قال في اللسان: ماء أصفر يصيب بطنه.

الْيَقِينُ﴾»[1] أي: وإذا ضاق صدرك فسبِّح... إلخ كلَّما ضقت فالتجئ إلى الله ﷻ بذلك.

﴿**وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ**﴾ المصلِّين، سمَّى الصلاة باسم ما هو أظهر في الخضوع، وكان ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة[2]. ﴿**وَاعْبُدْ**﴾ عطف عامٍّ على خاصٍّ ﴿**رَبَّكَ حَتَّىٰ يَاتِيَكَ الْيَقِينُ**﴾ الموت، فإنَّ البالغ العاقل لا يزول عنه التكليف بحسب طاقته ما لم يمت، أو عاين ولو عاش عمر الدنيا، أو أضعافه كالملائكة، قال أبو حيَّان: اليقين من السماء الموت لأنَّه لا يشكُّ فيه أحد، والله أعلم.

ولا حول ولا قوَّة إلَّا بالله العليِّ العظيم
وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم



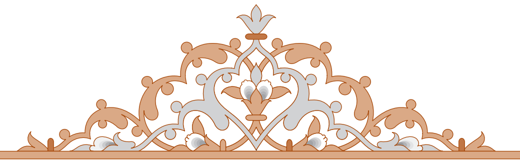
(1) قال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء: رواه ابن مردويه في التفسير، من حديث ابن مسعود.

(2) كما في الحديث الذي رواه **أحمد** ج 5، ص 388، و**أبو داود** في كتاب الصلاة، باب وقت قيام النبيء ﷺ من الليل، رقم 1319. عن حذيفة بن اليمان: «كان ﷺ إذا حزبه أمر صلَّى».

16

تفسير سورة النحل

مكّيّة إلّا الآيات الثلاث الأخيرة فمدنيّة، وآياتها 128 ـ نزلت بعد سورة الكهف



﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (1) يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ (2)﴾

إثبات البعث والوحي

﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ﴾ كانوا يستعجلون ما أوعدهم رسول الله ﷺ من قيام الساعة وعذاب الدنيا ﴿إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً﴾ [سورة الأنفال: 32] ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ [سورة الحج: 47] يقولون: متى هذا الوعد؟ وإن صحَّ ما تقول خَلَّصتنا الأصنام، فنزلت الآية، فوثب النبيء ﷺ ورفع الناس رؤوسهم، فنزل قوله تعالى: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ فإنَّه شرٌّ لكم لا تستنقذكم منه الأصنام.

ويضعف ردُّ الهاء إلى الله، أي: لا تستعجلوا الله بإتيان أمره يوم القيامة أو العذاب، كما قال: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾. و«أَتَى» ماض بمعنى يأتي لتحقُّق الوقوع، وهو مجاز، لأنَّه بمعنى حضر، أي يحضر، وقرينة المجاز حاليَّة قبل نزول ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ وهي أنَّهم لم يروا حضوره، ولَمَّا نزل ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾

كان قرينة قاليَّة، ويجوز أن يكون معنى «أَتَى»: شرع في التنقُّل فالماضي حقيقة، أو أتت مقدِّماته ومبادئه، كانشقاق القمر ونصر الرسول، أو قَرُبَ مجازًا.

و﴿أَمْرُ اللهِ﴾: قيام الساعة، وقيل: عقوبة المكذِّبين ونصره ﷺ وملكه بلادهم وأموالهم، كما قتل النضر بن الحارث يوم بدر صبرا وهو القائل: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا...﴾.

وروي أنَّه نزل قوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ [سورة القمر: 01] قال الكفَّار: أمسكوا عن بعض ما تفعلونه حتَّى يتبيَّن أمره، ومضت أيَّام، فقالوا: ما نرى ما تقول، فنزل قوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ [سورة الأنبياء: 01] فانتظروا ثمَّ قالوا: ما نرى شيئا، فنزل: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ اللهِ﴾ فوثب فرفع الناس رؤوسهم، ولَمَّا نزل: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ اطمأنُّوا. والخطاب بـ﴿فلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ للمؤمنين والكفَّار، أو للمؤمنين أو للكفَّار، قال ﷺ: «**بعثت أنا والساعة كهاتين إِنْ كادت لتسبقني**»[1]، أشار بإصبعيه.

﴿**سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ**﴾ هذا إخبار، أي: تنزَّه الله تنزُّها، بدليل عطف «تَعَالَى» عليه، وليس كـ«سُبْحَانَ» في قوله تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ﴾ [سورة الروم: 17] فإنَّه أَمْرٌ بالصلاة، فليس المراد هنا أمر، أي سبِّحوا الله تسبيحا أيُّها المؤمنون. وقولك لله سبحانه: «جلَّ وعزَّ»، أولى من قولك: «عزَّ وجلَّ»؛ لأنَّ الجلال لا تعلُّق له بغيره، وأعمُّ من العزَّة، والعزَّة لها تعلُّق؛ لأنَّ المعنى: الغلبة على غيره وأخصُّ.

﴿**عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ في قولهم: إن صحَّ ما تقول منعتنا آلهتنا منه، وفي سائر أقوالهم الملحدة وأفعالهم التي هي إشراك، كعبادة الأوثان. ولا معنى للتنزُّه عن ذات ما يشرك به إلَّا من حيث الإشراك به، فلتجعل «ما» مصدريَّة أولى من جعلها اسما مرجوع فيه إلى مراعاة علَّة الإشراك بعدُ، وكذا في مثل ذلك.

---

(1) رواه **أحمد** في مسنده: ج 5، ص 348، **والهيثمي** في المجمع ج 10، ص 311، كما أورده **ابن كثير** في تفسيره: ج 4 ص 34، وج6 ص 533.

﴿يُنَـزِّلُ الْمَلَآئِكَـةَ﴾ جبريل، سـمَّاه ملائكة تعظيما، أو هو إسـرافيل إذ قُرِنَهُ ﷺ قبل جبريل، والملائكة الناقلون الوحي إلى جبريل على القول بذلك، أو هو وملائكة تنزل معه، فقد قيل: ما ينزل وحده في أكثر الأحوال، كما تنزَّل معه في بدر وكثير من الغزوات، وفي سائر المهمَّات والمصالح، إلَّا أنَّ الإمام جبريل، فصار يسـند الوحي إليه، ومن ذلك شقُّ بطنه ﷺ. ﴿بِالرُّوحِ﴾ أي مع الروح وهو جبريل.

[قلت] والصحيح أنَّ المراد بالروح القرآن وسـائر الوحي؛ لأنَّ ذلك على اسـتعارة في صلاح الإنسـان كالروح للبدن، والبدن بلا روح ميِّت، وهو بلا قرآن ووحيٍ كميِّت، والروح به قوام البدن وكذلك قوام الدين بالوحي.

﴿مِنَ اَمْرِهِ﴾ بسـبب أمره، أو لأجل أمره، أي: شأنه، أو «مِنْ» للبيان، وهو أولى، ومثل الآية قوله تعالى: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ [سورة مريم: 64] وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْـبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [سـورة الأنبياء: 27] ﴿عَلَىٰ مَنْ يَّشَـآءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أي على من يشـاء الله نبوءته على العباد ﴿أَنَ اَنذِرُواْ﴾ أيُّها الأنبياء الكافرين، «أَنْ» مفسِّرة لقوله: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَآئِكَةَ بِالرُّوحِ مِنَ اَمْرِهِ﴾؛ لأنَّ التنزيل بالروح قول دون حروفـه، لا مصدريَّة؛ لأنَّ الأمر لا خارج له لا يؤوَّل منه المصدر، وهكـذا أقول، وهو الحقُّ إن شـاء الله. أو مصدريَّة، وعليه تقدَّر الباء، أي: بأن أنذروا، فيكون بدلا مِنْ «بِالرُّوحِ»، وإن جعلنا «بِالرُّوحِ» بمعنى مع الروح علِّق بـ«يُنَزِّلُ» لاختلاف معنى الباءين.

﴿أَنَّهُ﴾ بأنَّه، وهو متعلِّق بـ«أَنـذِرُوا» أو المعنى: أعلموا الناس أنَّه ﴿لَآ إِلَهَ إِلَّآ أَنَاْ فَاتَّقُونِ﴾ اِحذَروا عقابي بامتثال أوامـري واجتناب زواجري، أو خافوا عقابي، وهذا عائد إلى قوله: ﴿فَلَا تَسْـتَعْجِلُوهُ﴾، أو إلى قولـه: ﴿أَنذِرُواْ﴾؛ وعليه فـ﴿أَنذِرُواْ﴾ بمعنى: قولوا، أي: قولوا عن الله إنَّه، أي الشأن ﴿لَآ إِلَهَ إِلَّآ أَنَاْ فَاتَّقُونِ﴾ أو إذا كان الأمر كذلك فاتَّقوني.

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ③ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ④ وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۗ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ⑤ وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ⑥ وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ⑦ وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ⑧ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنۡهَا جَآئِرٞۚ وَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ⑨﴾

نعم الله الدالة على قدرته ووحدانيته

﴿**خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ**﴾ بالعدل والصواب والحكمة للعبادة فيهما، وللدلالة بهما، خلقهما على أوجه مخصوصة اختارها من وجوه جائزة، ومَن قَدرَ على ذلك لا يُعصى، وحقيق أن يُتَّقى ولا يُشرَك في عبادته مَن لا يَقْدِرُ على ذلك.

﴿**تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ عمَّا يشركونه به، أو عن الإشراك، وكذا فيما مرَّ مع أنَّ الذي يشركونه به هو من السماوات، أو الأرض المخلوقتين له، أو ممَّن فيهما ولا يَقْدِرُ قدرتَه، ولا يَستغني عنه، فلا تكرير، كما يعلم مما قدَّرتُ بعد «يُشْرِكُونَ» الأوَّل والثاني. ﴿**خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ**﴾ لا يَقْدِرُ على ذلك ما تعبدون ولا غيرُه، فكيف تسوُّونه تعالى بذلك؟ ﴿**أَفَمَن يَّخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ**﴾؟ [سورة النحل: 17] وفي ذلك أيضا دلالة على وجود الله وكمال قدرته، فإنَّ النطفة ـ تبدو لنا ـ ميِّتة خلق منها ما هو أعظم الخلق فهمًا وتدبُّرًا

واحتيالاً، وهو حَالَ الولادة أضعفُ مِن أولاد الحيوان، وأقلُّ تحرُّزا عمَّا يضرُّه، ثمَّ تمضي عليه مدَّة فيفاجئه ما ذكره الله ﷻ في قوله:

﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ﴾ عظيم الخصام فيما يحاوله، أو سمَّاه خصيما مبينا حال الولادة باعتبار ما يؤول إليه، كتسمية العصير خمرا. وهو صفة مبالغة، وقيل: بمعنى «مفاعل»، أي: مخاصم، كالنسيب بمعنى مناسب، والعشير بمعنى معاشر، والخليط بمعنى مخالط ﴿مُّبِينٌ﴾ ظاهر الخصام، أو مبين لحجَّته، ودخل في ذلك خصامه في شأن البعث، قال الله ﷻ: ﴿أَوَ لَمْ يَرَ الِانسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُّحيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [سورة يس: 77ـ78] جاء أُبي بن خلف لعنه الله بعظم رميم إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا محمَّد أترى أنَّ الله يحيي هذا بعدما رمَّ؟ فقال ﷺ: «**نعم يحييه الذي خلقه أوَّل مرَّة**»، وقد قيل: نزلت الآية فيه، وخصوص السبب لا يمنع عموم المعنى، فهي في الاستدلال على وجود الله تعالى واختصاصه بالعبادة عمَّن لا يقدر على الخلق، كما هي في إثبات البعث.

﴿وَالَانْعَامَ خَلَقَهَا﴾ وخلق الأنعام خلقها، وهي: الإبل والبقر والغنم. بدأ بذكر خلق السماوات والأرض وفيهما منافع للإنسان، وذكر بعده ما ينتفع به أكلا وشربا وهو الأنعام، وهما أعظم ما يحتاج إليه، ومعهما ركوب الإبل واللباس.

[نحو] واختير النصب على الاشتغال لتقدُّم الفعليَّة، أو «الانْعَامَ» معطوف على الإنسان، وذكر قوله: ﴿خَلَقَهَا﴾ على هذا ليبني عليه قوله: ﴿لَكُمْ﴾ خبر مقدَّم ﴿فِيهَا﴾ متعلِّق به، أو بما تعلَّق به ﴿دِفْءٌ﴾ مبتدأ كما قال: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ﴾. ويجوز تعليقه بـ«خَلَقَهَا»؛ فيكون فيها خبر على الاشتغال. أو عطف على الإنسان، فيكون قوله: ﴿خَلَقَهَا لَكُمْ﴾ بيانا لما خُلِقَ لأجله، وقوله: ﴿فِيهَا دِفْءٌ﴾ تفصيلا.

وعلى كلِّ حال يكون المراد: لكم يا أهل مكَّة في جملة الناس، ويجوز تعميم الناس بالخطاب. والدفء: التخلُّص من مضرَّة البرد بتحصيل السخونة

بلباس ما نسج منها، ويصنع البيوت منها، أو الدفء: ما يُتحصَّل من الإبل من نتاج ولبن ومنافع.

﴿وَمَنَافِعُ﴾ كالحبال والحرث والنضح، وحفظ المـال في البيت المتَّخذ منها، وسائر ما يعمل منها، وركوب الإبل، وقد يركب على البقر. قيل: ولبنها، وقد يدخل فـي «تَاكُلُـونَ» لقوله تعالـى: ﴿وَمَن لَّـمْ يَطْعَمْـهُ فَإِنَّـهُ مِنِّي﴾ [سورة البقرة: 249]. قيل: ونسلها، وفيه أنَّه نفس الإبل والبقر والغنم، قيل: وأثمانها وأثمان ما يتولَّد منها، كلبن وصوف وأجرة عمل.

[فقه] ولا أجرة للضراب وله أخذ ما أعطي بلا عقد أو شرط.

وإنَّما شـمل الأكل ﴿وَمِنْهَا تَاكُلُونَ﴾ اللحم ومن غيرهـا أيضا، وخصَّها بالذكر لأنَّها معظم ما يؤكل، وقدَّم الظرف للفاصلة، ومُراعاةً لطريق الاهتمام.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ﴾ زينة ﴿حِيـنَ تُرِيحُونَ﴾ تردُّونها من المرعى رواحا، أي عشـيَّة إلى حيث تلبث، ويقال له مـراح ﴿وَحِينَ تَسْـرَحُونَ﴾ تخرجونها صبحا إلـى المرعى، تكون زينـة لهم ولبيوتهـم، وما يليها إذ تـأوي إليها. و«حِينَ» يتعلَّق بمحذوف نعت «جَمَـالٌ»، أو بـ«فِيهَا» أو بـ«لَكُمْ» لنيابتها عمَّا يجوز التعلُّق بـه، أو بمتعلَّقهما. وقدَّم الإراحة على السـرح مـع تأخُّرها في الزمان لأنَّها أشـدُّ زينة، إذا أريحت ممتلئة البطـون والضروع تجري مجتمعة وتجتمع في المراح بأصوات عكس حالها حال السرح، ولا سيما حال الربيع. والمفعـول محذوف فـي «تَسْـرَحُونَ» للفاصلة، وفـي «تُرِيحُـونَ» لموافقة «تَسْرَحُونَ»، والتقدير: تريحونها وتسرحونها.

﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾ حكم على المجمـوع ﴿إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِـقِّ الَانفُسِ﴾ الأثقال جمع ثقل، وهو الشـيء الثقيل وما يحتاج المسـافر وغيره، فإنَّ من الأشياء ما يعجز الإنسـان عن حمله ولو ميلا إلَّا بشقِّ نفسه، والمراد: الأحمال، كذا قيل، وهو خطأ.

[قلت] والصواب أنَّ المعنى لا تبلغوه ماشـين علـى أرجلكم غير حاملين لشيء إلَّا بشقِّ الأنفس، إلَّا بتعب عظيم، أو إلَّا بشقِّ قُوتِكم، أي بنصفها، وغيره زائل بذلك المشي كما يقال: لا تنال كذا إلَّا بقطعة من كبدك، والظاهر أنَّه يجوز إطلاق الشِّـقِّ على ما دون النصف أيضا، وتحتمله الآية، ويجوز أن يقدَّر: غير بالغيه بها، أي مع الأثقال المحمولة على الأنعام إلَّا بشـقِّ. ونكَّر البلد للتعظيم في البعد، قال ابن عبَّاس: هي اليمن ومصر والشـام، ولعلَّه نظر إلى أنَّها متاجر أهل مكَّة، ولعلَّه أراد التمثيل، كما مثَّل بعضهم بمدينة الرسول ﷺ، فالظاهر أنَّ المراد: البلد البعيد مطلقا، وأنَّ ذلك في الذهاب والرجوع.

وهذه الخطابات الماضية والآتيات مخالفات للغيبة في الإنسان من قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الِانسَـانَ﴾، لكن المسـمَّى منها التفاتًا هـو الأوَّل فقط، وهو «لَكُمْ» في قوله ﷻ: ﴿خَلَقَهَا لَكُمْ﴾، وما بعده تبعٌ له جاء على أصله حتَّى لو اغتاب بعد الأوَّل لكان التفاتا منه إلى الغيبة.

والآية جاءت على الغالب، أو على من شَـرَع في السفر على المعتاد، فلا تُنافِي كرامات الأولياء ولا تبطلها في طيِّ مسافات الأرض فيصلون المواضع البعيدة، في زمان قريب بقرينة الوجود ومشاهدته.

﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ كما لم يعاقبكـم عاجلا وأنعم عليكم بالأنعام الحاملة ومنافعها. وقدَّم «رَؤُوفٌ» مع أنَّه أخصُّ إذ هو أشدُّ الرحمة للفاصلة؛ لأنَّ آخر الفاصلة نون، وإنَّما يناسبها ميم لتقاربهما بخلاف الفاء فبعيدة عن النون.

﴿وَالْخَيْلَ﴾ اسم جنسٍ لا واحدَ له من لفظه، وله واحد من معناه وهو فرس، وسمِّيت خيلا لاختيالها في مشـيها. والعطف على الأنعام ﴿وَالْبِغَالَ﴾ أبو البغل الحمار وأمُّه الفرس الأنثـى ﴿وَالْحَمِيـرَ﴾ نصب الخيل وما بعـده عطفا على «الِانسَـان» إن جعلنا «الَانْعَامَ» معطوفا عليه، وإن جعلناه من الاشـتغال فالأولى نصب «الْخَيْلَ» وما بعده بـ«خَلَقَ» محذوفا هكذا: وخَلَقَ الخيلَ والبغالَ والحميرَ

﴿لِتَرْكَبُوهَا﴾ جرَّ المصدر المؤوَّل باللام التعليليَّة المتعلِّقة بـ«خَلَقَهَا» لاختلاف الفاعل؛ لأنَّ فاعل الخلـق الله ﷻ، وفاعل الركوب الناس، ونصـب «زِينَةً» من قوله: ﴿وَزِينَةً﴾ على التعليل لاتحاد فاعلهما؛ لأنَّ الخالق والزائن هو الله ﷻ.

[فقه] نصَّ علـى أنَّ الثلاثة للزينة ولم يذكر الحلَّ لـلأكل والآية مكِّية، والحمر الأهليَّة حرِّمت في المدينة عام خيبر عند الجمهور، وفي الصحيحين عن جابر بن عبد الله أنَّ رسـول الله ﷺ **نهى عن لحوم الحمر الأهلية**[1] أي في المدينة؛ فهي قبل ذلك على الحلِّ، **والأصل في الأشياء قبل النزول الحلُّ، إلَّا ما تبيَّـن**، وأَذِنَ في لحوم الخيل يوم خيبر، وفي رواية: أكلنا زمان خيبر الخيل وحُمُـر الوحش، ونهى النبيء ﷺ عـن الحمار الأهلـيِّ، وروى أبو داود عن جابر بن عبـد الله: ذبحنا يوم خيبر الخيل والبغال والحميـر، وكنَّا قد أصابتنا مخمصة فنهانا رسول الله ﷺ عن البغال والحمير، ولم ينهنا عن الخيل[2].

[فقه] وفي الصحيحين عن أسـماء بنت أبي بكر الصدِّيق: «نحرنا على عهد رسول الله ﷺ فرسا ونحن بالمدينة فأكلناه»[3] ولهذا ونحوه أحلَّها الحسن البصريُّ وشـريح وعطاء وسـعيد بن جبير والشـافعيُّ وأحمد وإسحاق وأبو حنيفة قبل موته بثلاثة أيَّام وصاحبـاه. وذِكْرُهُمَا للزينة والركوب لا ينافي حلَّ لحمها، وحملَ الأثقال عليها، كما أنَّ ذكر الأنعام للأكل لا ينافي حلَّ الركوب عليها والزينة بها، وإنَّما ذكر في كلٍّ من ذلك ما هو المقصد الأعظم فيه امتنانا علينا، بحسب ما يعتاد فيه.

---

(1) رواه **البخـاري** في كتاب المغازي (38) بـاب غزوة خيبر رقم 4219. مـن حديث جابر بن عبد الله، و**أحمد** في مسنده: ج 2، ص 21، و**الهيثمي** في المجمع: ج 4، ص 263.

(2) رواه **البخاري** فـي كتاب المغازي (38) بـاب غزوة خيبر رقم 4220، مـن حديث ابن أبي أوفى. و**أبو داود** في كتاب الأطعمة، بـاب لحوم الحمر الأهليَّة رقم 3808، من حديث جابر مع اختلاف في اللفظ.

(3) رواه **البخاري** في كتاب الذبائح والصيد (24) باب النحر والذبح رقم 5511.

[فقه] ولا يخفى أنَّ المنفعة العظمى في الأنعام، فذكرت بالحلِّ للحمها والشَّعَر للباس وغير ذلك من المنافع، والسنَّة بيَّنت حلَّ الخيل وتحريم الحمار والبغل، ولا يلزم من تعليل الشيء بما يقصد منه غالبا أن لا يقصد منه غيره أصلا.

[فقه] وعن ابن عبَّاس تحريم لحم الخيل كالبغل والحمار، وعليه مالك وأبو حنيفة لذكرهما بالركوب والزينة، ولا يتمُّ تعليلا، وفي أفضل كتب الحديث للربيع بن حبيب عن أبي عبيدة عن جابر بن زيد بلغني عن عليِّ بن أبي طالب: «**نهى رسول الله ﷺ عن متعة النساء يوم خيبر وعن أكل لحوم الحمر الإنسيَّة**»[1] إلَّا أنَّه مقطوع، وهو في تلك الكتب المذكورة موصول.

[فقه] وعن أبي يوسف ومحمَّد إباحة الخيل، لما روي عن جابر: كنَّا جعلنا في قدورنا لحم الخيل ولحم الحمار، فنهانا عليه السلام أن نأكل لحم الحمار، وأمرنا أن نأكل لحم الخيل، يعني أنَّ بعضا جعل في قدره لحم الخيل وبعضا لحم الحمار، فلو كانا في قدر بمرَّة ولم يدخلهما النضج لَغُسِلَ لحمُ الخيلِ والقدرُ، وطُبِخَ لحم الخيل وحده، وعن أبي حنيفة كراهة لحم الخيل لا تحريمه لاختلاف الصحابة والسلف، وعن حسن عنه من تلاميذه أنَّه يحرِّمه، وقيل: أراد أبو حنيفة بالكراهة الحرمة.

وذكر بعض أنَّ البغل إن كانت أمُّه أتانا فكالحمار، والعبرة بالأمِّ، وإن كانت فرسا فكالفرس، إن نزا الحمار على الرمكة لم يكره لحم بغلهما.

[فقه] والمذهب تحريم الثلاثة ورخَّص بعض فيها، وروى أبو داود والنسائي عن خالد بن الوليد: «نهى الرسول ﷺ عن أكل كلِّ ذي ناب من السباع وعن لحوم الخيل والبغال والحمير»[2].

---

(1) رواه **الربيع** في كتاب الزكاة (63) باب أدب الطعام والشراب رقم 388. و**البخاري** في كتاب المغازي (38) باب غزوة خيبر رقم 4216. من حديث علي.

(2) رواه **أبو داود** في كتاب الأطعمة، باب في أكل لحوم الخيل، رقم 3790. و**النسائي** في كتاب الصيد (30) باب أكل لحوم الخيل رقم 4343.

﴿**وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾ أنتم ولا غيركم، أو ما لا تعلمون أنتم وقد علمه غيركم، وذلك في الأرض والأرضين تحتها، وفي الهواء وفي السماوات.

[قصص] روي أنَّ سمكة عظيمة اتَّبعت سمكة عظيمة دونها من البحر المحيط، فدخلت التي دونها زقاق «سبتة»، أعني الخليج الممتدَّ من جهتها إلى طنجة، ولم يَسَعِ العظيمةَ، مع أنَّه فراسخ!. وأنَّ ناسا في المركب من جهة الجنوب رأوا الأسود والنمور والفيلة وغيرها هربت من غابة لِحَيَّةٍ من ورائها كالصومعة تمتدُّ إلى فوق، ثمَّ تنكس في مشيها، يكون الفيل لقمة لها، ومثل هذا في الكتب كثير.

وأخرج ابن مردويه عن ابن عبَّاس عنه ﷺ: «**إنَّ ممَّا خلق الله تعالى لأرضا لؤلؤة بيضاء مسيرة ألف عام، عليها جبل من ياقوتة حمراء محدق بها، وفي تلك الأرض ملك ملأ شرقها وغربها له ستُّمائة رأس، وفي كلِّ رأس ستُّمائة وجه، وفي كلِّ وجه ستُّمائة ألف وستُّون ألف فم، في كلِّ فم ستُّون ألف لسان يثني على الله تعالى، ويقدِّسه ويهلِّله، ويكبِّره، وإذا كان يوم القيامة نظر عظمة الله تعالى فيقول: وعزَّتك ما عبدتك حقَّ عبادتك**»، فذلك قوله تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

ويجوز أن يكون المراد: ما لا تعلمون ممَّا يحتاج إليه كذلك، وأن يكون المراد ما في الجنَّة والنار ممَّا لا يخطر لهم ببال، كما قال ﷺ عن الله سُبحانه وتعالى: «**أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**»[1].

وروى ابن عبَّاس والضحَّاك ومقاتل وعطاء: «إنَّ عن يمين العرش نهرا من نور مثل السماوات السبع، والأرضين السبع، والبحار السبع، يدخل فيه

---

(1) رواه **البخاري** في كتاب بدء الخلق باب ما جاء في صفة الجنة رقم 3072. ورواه **مسلم** في كتاب الجنَّة وصفة نعيمها رقم 5050. من حديث أبي هريرة.



جبريل كلَّ سحر فيغتسل ويزداد جمالا وعظما، ثمَّ ينتفض، فيخلق الله تعالى من كلِّ قطرة تقع من ريشه كذا وكذا ألف ملك، فيدخل منهم كلَّ يوم سبعون ألف ملك البيت المعمور، وسبعون ألف ملك الكعبة، لا يعودون أبدا».
[قلت]: **ولا يحسن أن يفسَّر** ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ بالسوس والدود في النبات والثمار.

﴿**وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ**﴾ بيان السبيل القاصد وهو المستقيم، دين الإسلام، أو السبيل المقصود، وهو دين الإسلام، أو جعله كذلك، وذلك بإرسال الرسل وإنزال الكتب فضلا منه، ولا واجب عليه، ولكن ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيِيَ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [سورة الأنفال: 42].

﴿**وَمِنْهَا جَآئِرٌ**﴾ عن الاستقامة، أو عن الله ورحمته، بردِّ الضمير إلى السبيل بلا قيد أنَّها قاصدة، وذلك استخدامٌ؛ لأنَّ السبيل المذكورة مستقيمة فلا يتصوَّر أن يكون منها جائر، وذلك إذا فسَّرنا ﴿قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ بإضافة إلى الموصوف، كما رأيت، ولو جعلناه إضافة خاصٍّ لعامٍّ، أي: القاصد أو المقصود من السبيل ردَّ الضمير إليه بلا استخدام.

[صرف] والسبيل يؤنَّث، كما قال: ﴿مِنْهَا﴾، وكقوله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي﴾ [سورة يوسف: 108]، ويذكَّر كما قال: ﴿جَآئِرٌ﴾ أي سبيل جائر. وأُنِّث على إرادة معنى السبل المتعدِّدة.

وأجيز عود الضمير إلى الخلائق، كما قرأ عيسى[1] وابن مسعود: ﴿وَمِنكُمْ جَائِرٌ﴾ وعليٌّ: ﴿فَمِنكُمْ جَائِرٌ﴾. ولم يقل: وجائرها حتَّى يوافق ما قبله؛ لأنَّ المقصود بالذات بيان سبيله المستقيم، وأمَّا الجائر فبالعَرَض، وأيضا ذكر سبيل الاستقامة مع قوله: ﴿عَلَى اللهِ﴾ ترجيحا لرحمته.

(1) المقصود بعيسى: عيسى بن عمر الثقفي البصري النحوي المقرئ وهو شيخ الخليل وسيبويه وابن العلاء، أول من هذَّب النحو ورتَّبه توفي 149هـ. معجم المفسِّرين ج 1 ص 408.

[أصول الدين] والحـــقُّ إضافة الضـــلال إلى الله ســـبحانه بمعنى خالقه، وأخطأ المعتزلة إذ قالوا: لم يخلقه، وذكر بعض أنَّه عبَّر بذلك تأديبا.

﴿**وَلَوْ شَآءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ**﴾ والله لم يشأ هداية الشقيِّ، ولم يردها، فهو مخذول، ولكن أمره بالهـــدى، وأحبَّ له الاهتداء بمعنى: أمره به، ولو شـــاء لهداه باختياره، كما أنَّه لو شاء لأجبره على الاهتداء، والمراد بالهداية الهداية الموصلة إلى المطلوب، وأمَّا هدى البيان فعمَّ الســـعيد والشـــقيَّ، ولولاها لم تكن السعادة والشقاوة.

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗۖ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝١٠ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ۝١١ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ۝١٢ وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ۝١٣ وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ۝١٤ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَأَنۡهَٰرٗا وَسُبُلٗا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ۝١٥ وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ۝١٦﴾

أدلَّة أخرى لإثبات الألوهيَّة والوحدانيَّة

﴿**هُوَ الذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً**﴾ السحاب، أو من جهة السماء، أو من السماء نفسها، والله قادر، وكذا تقول في غير هذا المحلِّ. ومن السحاب ما ينعقد من ماء البحور والعيون بالبخار [وهذا هو الواقع].

﴿**لَّكُم**﴾ قدِّم على طريق الاهتمام والامتنان، وكذا قوله: ﴿**مِّنْهُ**﴾ من ذلك الماء، أو قدّم «مِنْهُ» للحصر؛ لأنَّ كلَّ ما في الأرض نزل من السماء سوى الماء الأوّل[1]، قال الله تعالى: ﴿فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ﴾ [سورة الزمر: 21]، وقال تعالى:

(1) يقصد الشيخ: الماء الذي قبل خلق الموجودات المذكور في قوله تعالى ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَآءِ﴾ (سورة هود: 07).

﴿فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ﴾ [سورة المؤمنون: 18]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ [سورة الحجر: 22]. ﴿شَرَابٌ﴾ مشروب لكم.

[نحو] و«مِنْ» للتبعيض أو للابتداء متعلّق بـ«لَكُمْ»، أو بمتعلّقه؛ لأنَّه خبر لـ«شَرَابٌ»، أو حال من المستتر في «لَكُم»، و«شَرَابٌ» مبتدأ، أو يتعلَّقُ بـ«أَنزَلَ» والخبر «مِنْهُ»، ولا تقل: «مِنْهُ» متعلِّق بمحذوف حال من «شَرَابٌ»، مع أنَّ «شَرَابٌ» مبتدأ؛ لأنَّ رافع المبتدأ ـ وهو الابتداء ـ لا يتقيَّد بالحال.

﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ﴾ مبتدأ وخبر، أو عطف «مِنْهُ» على «مِنْهُ»، و«شَجَرٌ» عَلَى «شَرَابٌ»، وهذا على أنَّ «لَكُمْ» خبر، ويجوز تقدير: وينبت منه شجرٌ بالبناء للفاعل أو للمفعول، و«شَجَرٌ»: نكرة عمَّت في الإثبات، لجواز ذلك مع قرينة، أَلَا ترى أنَّه ليس المراد شجرات مخصوصات؟ والمراد بالشجر النبات الذي يُرعى ممَّا لا ساق له مجازا، أو له ساق لا يسمَّى به في العرف شجرًا، ففي حديث عكرمة: «**لا تأكُلوا ثمن الشجر فإنَّه سحت**»[1]، ولعلَّه فيمن منع النبات في الفلاة ليختصَّ بالكلأ، قال شاعر:

نطعمها اللحم إذا عزَّ الشجر والخيل في إطعامها اللحم ضرر[2]

ويروى: «نعلفها اللحم»، أراد بالشجر النبات، واللحم: ضرع الشاة أو نحوه، يشير إلى اللبن، ومعنى الضرر أنَّه لا يكفيها. قال الزجَّاج: كلُّ نباتٍ شجرٌ حقيقةً.

﴿فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ تجعلون دوابَّكم سائمة، أي راعية فيه، قال الزجَّاج: أصل السوم بمعنى الرعي، السوم بمعنى العلامة، لأنَّه يحصل من الرعي آثار في الأرض والنبات.

﴿يُنبِتُ﴾ المضارع للتجدُّد على مرِّ الدهور، أو لاستحضار الصورة لِمَا فيها من الغرابة ﴿**لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالَاعْنَابَ وَمِن كُلِّ**

---

(1) أورده **ابن حجر** في كتابه الكاف الشاف في تخريج أحاديث الكشاف ص 734 (م.أ.ط.ح).

(2) أورده صاحب اللسان في مادة لحم.

الثَّمَـرَٰتِ﴾ أي: وبعض كلِّ نوع مـن الثمرات التي قضى الله بهـا، أو المراد: ينبت لكم بعض كلِّ الثمرات، وكلُّها لا يوجـد إلَّا في الجنَّة، وما في الأرض إلَّا بعض، أو بعض مـا في بِقَاع الإمـكان من ثمر القدرة، وذاك شـبه قوله: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

قدَّم المرعـى لأنَّه يسـتحيل لبنا ولحما، وهمـا أفضل الأغذيـة، وعقَّبه بالحبوب في قوله: ﴿الزَّرْعَ﴾، ولا شكَّ أنَّ البُرَّ والشعير معظم ما يؤكل وأقواه، وذكر بعدهما الفواكه، وقدَّم منها الزيتون؛ لأنَّـه فاكهة من وجه وأَدَمٌ من وجه، ودهن في مصالح ودواء وأكل وطلي واسـتصباح وغيـر ذلك، وفي الحديث: «**كلوا الزيت وادهنوا به فإنَّه من شـجرة مباركة**»[1]. وذكـره الله في القرآن بأنَّه صِبْغٌ للآكِلِينَ [سورة المؤمنون: 20] ومثَّل به نوره [سورة النور: 35]، وعقَّبه بالنخل، ولا يخفى منافع البسـر والرطب والتمـر، وهو أفضل من العنـب، ولا يخفى أنَّ العنب يشبه النخل في التغذِّي والتفكُّه، وفي عمل الخلِّ منها.

[قلت]: وفي الآية تلويح إلى أن يهتمَّ الإنسـان بمن تحت يده، **وذلك من مكارم الأخلاق**، وفي سـورة أخـرى تقديم طعام الإنسـان: ﴿كُلُـواْ وَارْعَوَاْ اَنْعَامَكُمُ﴾ [سـورة طه: 54] لأنَّه مما لا دخل للإنسـان فيه، أو رجوع إلى الأصل كما قال ﷺ: «**اِبدأ بنفسك ثمَّ بمن تعول**»[2].

[فقه] فلو توقَّفت الحياة على [طعـام] قليل لا يوجد غيره ولا يكفي إلَّا واحدا لقدَّم صاحبه نفسـه، ومات غيره إلَّا النبيء ﷺ فإنَّه ﴿أَوْلَى بِالْمُومِنِينَ مَنَ انفُسِهِمْ﴾ [سورة الأحزاب: 6]، وكما يقدِّم الإنسان في الدعاء نفسه شرعا.

---

(1) رواه **الترمذي** في كتاب الأطعمـة (43) باب ما جاء في أكل الزيت رقـم 1851، من حديث عمر. ورواه **التبريزي** في كتاب الأطعمة، الفصل الثاني رقم 4221(63) من حديث أبي أسيد الأنصاري.

(2) رواه **مسـلم** في كتاب الزكاة (13) باب الابتداء في النفقة بالنفس ثم أهلـه ثمَّ قرابته، رقم 41(997) مع اختلاف في اللفظ. من حديث جابر.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المذكور من إنزال الماء وما فصَّل ﴿لَأَيَةً﴾ على وجود الله ووحدته وكمال قدرته، يخرج من نقرة النواة نخلة ومن أسفل الحبَّة وهو ما اتَّصل بالشجرة عروقا، ومن أعلاها أوراقا وأزهارا وأكماما، مع اختلاف الأشكال والألوان والمنافع والرائحة والطعم، واتحاد التراب والماء وحرارة الأرض والشمس، وبرودة الأرض والهواء، وكيف يُشرَكُ به أخسُّ الأشياء في الذات والصفة؟! وذلك يُدرك ـ والحمد لله ـ بأدنى تفكُّر.

﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ جعل هذا فاصلة ليستعملوا العقول في تلك الاختلافات مع اتحاد المادَّة والسبب.

[أصول الدين] وفي ذلك ردٌّ على الطبيعيِّين لعنهم الله، وذلك بأنَّ للعالم صانعا ﷻ، وأيضا فمن خلق الطبع ونوَّعه تنويعا؟ وعلى الفلاسفة القائلين بأنَّ الأشياء تكوَّنت من الله بلا اختيار منه، لعنهم الله، وأيضا يقال لهم: لِمَ اختلفت مع اتِّحاد المؤثِّر؟.

﴿وَسَخَّرَ﴾ سهَّل، أو هيَّأ في مصالحكم، وسمَّى ذلك تسخيرا إطلاقا للخاصِّ على العامِّ، أو استعارة؛ لأنَّ حقيقة التسخير قهر الحيِّ على ما يكرهه، وذلك بجامع الصعوبة في الجملة، ولا صعب على الله ﷻ.

[فلك] أو لَمَّا كانت حركة القمر والشمس الطبعيَّة من المغرب إلى المشرق، وكان الفلك الأعظم يجري بهما من المشرق إلى المغرب، مخالفا لحركتهما كانا كمقهور على ما لا يريد، وحدوث الليل والنهار ليس إلَّا لحركة الفلك الأعظم، وأمَّا حركة الشمس فسبب لحدوث السَّنَة؛ ولذا لم يغن ذكر الليل والنهار عن ذكر الشمس.

[فلك] ﴿لَكُمُ اليْلَ وَالنَّهَارَ﴾ اليوم عبارة عن دورة فلك الكواكب من النطح إلى النطح، ومن الشرطين إلى الشرطين، ومن البطين إلى البطين، وهكذا إلى آخر المنازل، ومن درجة المنزلة ودقيقتها، وأخفى من ذلك إلى

أقصى ما يمكن الوقوف عليه، وما من يوم من طلوع الشمس أخفى إلى طلوعها، أو من غروبها إلى غروبها، أو من استوائها إلى استوائها، أو ما بين ذلك إلى ما بين ذلك إلَّا وفيه نهاية ثلاثمائة وستِّين يوما، فاليوم طول ثلاثمائة وستِّين درجة لأنَّه يظهر فيه الفلك كلُّه، وتعمُّه الحركة.

﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾ بإرادته وإيجاده وحكمه، وموافقة ما أراده بها من المنافع بلا تخلُّف. والنصب على الحال المؤكِّدة لعاملها، وهو اسم مفعول، أو على المفعوليَّة المطلقة.

[صرف] وهو مصدر ميميٌّ؛ لأنَّه من كلِّ رباعيٍّ أو خماسيٍّ أو سداسيٍّ، بوزن اسم مفعوله، أي تسخيرات، والمصدر يجمَع ويُثنَّى للدلالة على الأنواع، ولو قيل تلك النباتات بالكواكب والأفلاك لقيل: لِمَ اختصَّت ببعض الجائزات؟ فبان أنَّ لها صانعا مختارا لبعض الجائزات، كمقدار من الطعم ونوع منه، ومقدار من الألوان والطول والقصر.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ جعل هذا فاصلة لما قبله، لأنَّ العلويَّات أظهر دلالة على القدرة الباهرة، وأبين شهادة للكبرياء والعظمة، فيكفي في الدلالة بها وجود العقل مع استعمال وتدبُّرٍ مَّا، بخلاف النبات وما معه فلا بدَّ فيه من الجدِّ في استعمال العقل، فخُتم بالتفكُّر. وجمع الآية هنا لأنَّ ما هنا أنواع من الدلالة ظاهرة بالمشاهدة.

﴿وَمَا﴾ عطف على «النُّجُومَ» أو على «اللَّيْلَ»، ولا بأس بالتكرارِ وشِبْهِهِ للتأكيد أو زيادة البيان أو نحو ذلك؛ وذلك أنَّ لام «لَكُم» للنفع، و«سَخَّرَ لَكُمْ» في معنى ينفعكم، ولا سيما أنَّ الآية سيقت كالفذلكة لِمَا قبلها؛ ولذلك خُتمت بالتذكُّر، كأنَّه قيل: وسخَّر ما ذرأ. ويجوز نصبه بـ«خَلَقَ» محذوفا، كأنَّه قيل: وخلق، لكن فيه تكرير الخلق بقوله: ﴿ذَرَأَ﴾ خلق ﴿لَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ من الحيوانات والنبات والثمار والمعادن ﴿مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ ببياض وحمرة وصفرة

وخضــرة، أو ﴿أَلْوَانُهُ﴾: أصنافــه أو أحواله، وكيفيَّاته، فإنَّهــا تتخالف بالنوع غالبا، ومن غير الغالب التخالف بالطعم والشكل.

﴿**إِنَّ فِــي ذَٰلِكَ لَأيَةً لِّقَــوْمٍ يَذَّكَّرُونَ**﴾ يدركون بنظرهــم أنَّ اختلاف ذلك بفاعل مختار، اختار أحد الجائزات في الألوان والطعوم والأشكال والطبائع، وكثيرا ما يتَّحد اللون أو الشــكل ويختلف الطعم، كالرمَّان الحلو والحامض، وكالحنطة والبطيخ الأخضر.

﴿**وَهُوَ الَّذِي سَــخَّرَ الْبَحْرَ**﴾ المالح، وإنَّما يُفسَّــر به لعِظَمِهِ وتبادُرِهِ باسم البحر دون هؤلاء البحور الجارية، ولو كانت تســمَّى بحرا كبحر النيل. وأيضا البحــر المالح هــو المعروف باســتخراج اللؤلــؤ والمرجان منــه والياقوت والحوت، بخلاف البحر الحلو كالنيل، فإنَّه لا يكون فيه ذلك الحُلِيُّ، وقلَّ فيه السمك، وهو دون ســمك البحر المالح. والمراد بالبحر الجنس الشامل، ولا يدخل المحيط؛ لأنَّه لا يطاق على الغوص إلى أرضه.

والمراد: سخَّره للركوب إلى حيث شــئتم من البحر أو البرِّ والغوص فيه للسمك، ونحو اللؤلؤ كما قال:

﴿**لِتَاكُلُواْ مِنْهُ**﴾ أي من سمكه، فحذف المضاف، أو المعنى: لتأخذوا منه ﴿**لَحْمًــا طَرِيًّــا وَتَسْــتَخْرِجُواْ مِنْــهُ حِلْيَةً**﴾ مــا يتزيَّن به من لؤلــؤ ومرجان ﴿**تَلْبَسُــونَهَا**﴾ ذكوركم ونســاؤكم، كما يثقب للصبيِّ فيعلَّق في أذنه لؤلؤة أو مرجانة، وكما يركَّب التاج بهما.

[فقه] ومن حلف على حُلِيٍّ حنث بأحدهما عند أبي يوسف للآية لا عند أبي حنيفة لعدم العرف بذلك، والأكثر في لباســهما النساء؛ ولذلك يجوز أن يقدَّر: تلبسها نساؤكم.

أو أســند اللباس إليهم حكما على المجموع؛ لأنَّ النساء والرجال جنس البشر، ولأنَّهنَّ يلبسن ذلك لأجلهم، كما قيل: المراد بالبحر ما يشمل العذب،

فيكون نسبة استخراج الحلية بالنسبة إلى العذب حُكمًا على المجموع، كما في قوله تعالى: ﴿يُخْرَجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [سورة الرحمن: 22]، ﴿وَمِن كُلٍّ تَأكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً...﴾ [سورة فاطر: 12] أو تلبسونها بمعنى تخالطونها في نسائكم ومتاجركم، أو استعار اللباس للاستلذاذ بجامع التمتُّع، أو ذلك مجاز مرسل لأنَّ التمتُّع لازم للباس.

ووَصَفَ السمكَ بالطراوة لأنَّه أرطب اللحوم، وهو أسرع فسادا من سائر اللحوم إن لم يشرَّح ويملَّح؛ ولذلك يسرع إلى أكله لئلَّا يفسد، وسمَّاه لحما مع أنَّه حيوان لذلك، ولكونه يصلح للأكل فقط لا كالأنعام، ولدقَّة عظامه كأنَّها لم تكن، وفيه دلالة عظيمة على قدرته إذ خلق لحما طريًّا شهيًّا للأكل في ماء مالح تتصلَّب أشياؤه.

[فقه] ومن حلف لا يأكل لحما حنث بالسمك؛ لأنَّ الله ﷻ سمَّاه لحما، [قلت]: والصحيح عندي القول بأنَّ اليمين على العرف فلا يحنث في عرف من لا يذكره باسم اللحم، ولو كان لحما في اللغة والقرآن، لأنَّ العمل بالنيَّة. سمع سفيان الثوريُّ عن أبي حنيفة أنَّه لا يحنث به من حلف على اللحم فأنكر عليه لهذه الآية، فأرسل إليه أبو حنيفة من سأله عن حالف لا يصلِّي على البساط إن صلَّى على الأرض، فقال لا يحنث، فقال السائل: قد سمَّاها الله بساطا، فعلم أنَّ ذلك السؤال من أبي حنيفة فرجع إلى قول أبي حنيفة. فلا يحنث حالف على ركوب دابَّة بركوبه إنسانا، مع أنَّه دابَّة؛ لأنَّها في العرف الحمار أو ذات الأربع.

والمرجان: شجر أحمر ينبت في البحر المالح على صورة شجرة التين مثلا، كما قال أبو بكر الطرطوشي[1] إنَّه عروق حمر تطلع من البحر كأصابع الكفِّ، لا صغار اللؤلؤ كما قيل، وإنَّما يزداد حمرة بالعمل [أي بمعالجته بمادة].

---

(1) هو محمَّد بن الوليد القرشي الفهري الأندلسي، ويقال له: ابن أبي رندقة، فقيه مالكيٌّ من حفَّاظ الحديث، مفسِّر أديب، من أهل طرطوشة بشرق الأندلس. مات سنة 520هـ. معجم المفسِّرين ص 646 ج 2.

[فقه] والحوت كلُّه حلال ولو على صورة إنسان أو خنزير أو كلب، أو طفا على الماء ميّتا، أو ذهب عنه الماء أو مات بضرب أو بأكل شيء أو غير ذلك، أو وجد في بطن حيوان آخر، أو بِحَرٍّ أو بردٍ أو ضيق، أو مات في جُبِّ ماء، أو قتله طائر أو غيره، أو طال موته وأنتن، وما قطع منه وما بقي **إلَّا أنَّ أكله بعد ذهاب طراوته أضرُّ شيء** قال ﷺ: «**كلُّ ما في البحر فهو ذكيٌّ**[1]»، وقال: «**هو الطَّهور ماؤه، والحلُّ ميتته**»[2] أي ميتة حيوانه ولو مات في غيره، ولا أستثني شيئا منه، ولهذا الحديث ونحوه علمنا أنَّ حديث: «**ما أبين من حيٍّ فهو ميتة**»[3] إنَّما هو في حيوان البرِّ، وعنه ﷺ: «**ما نضب عنه الماء فكلوا، وما لفظه الماء فكلوا، وما طفا فلا تأكلوا**»، روي عن جابر بن عبد الله، فإن صحَّ فالنهي عن الطافي كراهة لا تحريم.

﴿**وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ**﴾ جمع «ماخِرٍ»، والميم أصل، تمخر الماء أي تشقُّه ذاهبة وراجعة بريح [أو غيره]، وربَّما اتَّحدت الريح ذهابا ورجوعا، أو تصوِّت مع الماء للجري فيه أو تجري.

﴿**وَلِتَبْتَغُواْ**﴾ في عطف على «لِتَاكُلُواْ»، أي ولتطلبوا، قيل: أو الواو زائدة لسقوطها في قوله تعالى: ﴿فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُواْ﴾ [سورة فاطر: 12]، أو عطفت على محذوف، أي: لتعتبروا ولتبتغوا، أو لتنتفعوا ولِتَبتغوا، قيل: أو وَفَعَلَ ذلك لتبتغوا ﴿**مِن فَضْلِهِ**﴾ من سعة رحمته بركوبها للتجر ﴿**وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾ الله على ذلك وسائر نعمه، وذكر الشكر هنا لأنَّه جعل البحر المهلك سببا في الوصول إلى المرام.

وأخرج البزار عن أبي هريرة موقوفا: «**كلَّم الله البحر الغربي**[4] **إنِّي**

(1) من ذكا يذكو الشاة: ذبحها فذكيٌّ على وزن فعيل بمعنى مفعول، أي مذكًّى.

(2) رواه **الربيع** في كتاب الطهارات (24) باب في أحكام المياه رقم 161.

(3) أورده **الزيعلي** في (النصب) كتاب الصيد: ج 4 ص 317.

(4) المراد بالبحر الغربي المحيط الأطلسي، وقد كان في القديم مرهوب الجانب لا يغامر الناس بالإبحار فيه، حتَّى اكتشف الطريق إلى الأمريكيتين.

حامل فيك عبادا من عبادي فما أنت صانع بهم؟ قال: أغرقهم، قال: بَأْسُكَ في نواحيك، وَحَرَمَهُ الحِلْيَةَ والصيدَ. وكلَّم البحر الشرقي: إنِّي حامل فيك عبادا من عبادي فما أنت صانع بهم؟ قال: أحملهم على يدي، وأكون لهم كالوالدة لولدها، فأثابه الحُليَّ والصيد» ومثل ذلك لابن أبي حاتم عن عبد الله بن عمرو بن العاصي عن كعب الأحبار، وهو كلام لم يثبت **وكأنَّه موضوع**[1]، والمشاهد أيضا في الغربي الصيد والحُليُّ.

﴿**وَأَلْقَىٰ**﴾ وَضَع ببعضِ شِدَّةٍ من جهة السماء، وفسِّر بـ«خَلَقَ من الأرض»، والأوَّل أصحُّ ﴿**فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ**﴾ جبالا رواسي، أي: ثوابت ﴿**أَن تَمِيدَ بِكُمْ**﴾ على حذف مضاف: كراهة أن تميد بكم، أو [حذف] لا النافية، أي: لئلَّا تميد بكم. والميد: الميل من جانب لجانب بتكرُّر. والباء للتعدية.

خلق الله الأرض على الماء فجعلت تمور، وذلك بخلق الله تعالى فيها، وذات الشيء لا تقتضي الحركة، وإنَّما هي بإرادة الله تعالى، فقال الملائكة: لا يستقرُّ عليها أحد! فأصبحت وقد أرسيت بالجبال على جريان عادته تعالى في جعل الأشياء منوطة بالأسباب، وإذا شاء لم يعلِّقها بالأسباب، وفي ذلك ردٌّ على من زعم من الكفَّار أنَّها تميل على استقامة إلى المشرق، فيكون الليل وإلى المغرب فيكون النهار، و[زعموا أنَّ] الشمس والقمر لا جريان لهما، وذلك إنكار لجريانهما المذكور في القرآن، وإنكار لتحرُّك جوانبها، فأرسيت عليها الجبال فسكنت.

وزعموا أنَّ في الإقليم الأوَّل عشرين جبلا، وفي الثاني سبعة وعشرين، وفي الثالث ثلاثة وثلاثين، وفي الرابع خمسة وخمسين، وفي الخامس ثلاثين، وفي كلٍّ من السادس والسابع أحد عشر، وذلك مائة وسبعة وثمانون، والله أعلم ولعلَّه لا يصحُّ ذلك.

---

(1) وقد أورده ابن كثير في تفسير الآية وأشار إلى ضعفه.

[فلك] قـال علماء الهيئـة: ثلاثة أرباع كـرة الأرض غائصـة في البحر المحيط[1]، وفي الربع المسكون سبعة أبحر سـخَّرها الله ﷻ للناس، وكانت تميل من جانب لجانب فألقى الله عليها الجبال فثبتت، كسفينة تتحرَّك وجعل فيها الأثقـال فثبتت، وكانت لها كالأوتـاد، قال الله ﷻ: ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [سـورة النبأ: 7]. وإنَّ الأرض كرة، وإنَّ أعظم جبل في الأرض ارتفاعا فرسـخان وثلث فرسخ، نسـبته إلى جميع الأرض نسـبةُ خُمُسِ سُبُعِ شـعيرة إلى كرة قطرهـا ذراع، وهذا القدر من الشـعيرة لا يخرج الكرة المذكـورة عن صحَّة الاستدارة، بحيث يمنعها عن سلاسـة الحركة، فكذلك ينبغي أن يكون حال الجبال بالنسبة إلى كرة الأرض.

[فقه] ومـن حلف لا يجلس علـى الأرض وأراد مقابـل الفراش حنث بالجلوس على الجبل، وإن أهمـل الإرادة لم يحنث به فـي عرفنا، إنَّه يقال سـكن في الأرض أو سـكن في الجبل، وإذا كان الكلام فيما يقابل السـماء حنث بالجبل، وهكذا يبحث، ألا ترى أنَّها من غير الأرض جعلت في الأرض وألا ترى أنَّ الأرض تقابل بالبحر مع أنَّه فيها؟

﴿**وَأَنْهَارًا وَسُبُلاً**﴾ عطفه على «رَوَاسِيَ» على تأويل «أَلْقَى» بـ«خَلَقَ»، أي: خلق رواسي، وأمَّا على نصبه بـ«أَلْقَى» بمعنى وضع بشدَّة فلا يُعطف عليه، إذ لا معنى لوضع الأنهار والسـبل والعلامات بشـدَّة، فيقدَّر لهـنَّ: «خَلَقَ» أو «وَضَعَ» بلا قيد شِدَّة، أو «شَقَّ»، كقوله: «علفتها تبنا وماء باردا»[2]، إلَّا إن فسِّر «أَلْقَى» بمطلق الوضع بلا شدَّة، أو ضمِّن «أَلْقَى» معنى جَعَلَ.

والمـراد بالأنهار ما يشـمل الصغار والكبـار، وجعل بعـضٌ منها النيل وسـيحون وجيحون والفرات، وفيه نظر إن أريد بالنهر مـا ينبع، لأنَّهنَّ أودية

(1) وعند الجغرافيين: اليابسة تمثِّل 29 % من سطح الأرض والباقي مياه.

(2) البيت من شواهد ابن عقيل وعجزه: حتَّى شَفَتْ همَّالةً عيناها.. انظر: اللسان مادَّة علف.

جارية من الجنَّة [فيما قيل]، إلَّا إن اعتبر منبعهنَّ منها، أو اعتبر ما يزاد إليهنَّ من عيون الجبال، فإنَّ فيهنَّ ماء عيون وأمطار، وذكر الأنهار عقب الجبال لأنَّ معظم العيون وأصولها من الجبال، وأخَّر الأنهار لأنَّ غالبها من الجبال، ﴿وَسُبُلاً﴾: طرقا إلى ما تحبُّون الذهاب إليه.

﴿**لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**﴾ إلى ما تحبُّون الذهاب إليه، أو إلى ما تطلبون في الجهات أو إلى معرفة الله ﷻ.

﴿**وَعَلَامَاتٍ**﴾ تستدلُّون بها على المواضع التي قصدتم كالجبال، ومنها العيون ونفسها ومواضع في الأرض، والريح وشمُّ التراب فتعرف بها الأرض، والمسافة من السوف بمعنى الشمِّ، ولا يختصُّ بالنهار، ومطلع الشمس ومغربها، وذلك نهارا. ﴿**وَبِالنَّجْمِ**﴾ جنسه، أي: وبالنجوم، وهي علامات ليلا، كما قرئ: «وبالنُّجُمِ» بضمِّ النون والجيم، أو بضمِّها وإسكان الجيم.

وقيل: المراد الثريَّا والفرقدان وبنات النعش الصغرى والكبرى والجدي، وقيل: الثريا لأنَّ النجم عَلَمٌ عليها بالغلبة، قال ﷺ: «**إذا طلع النجم ارتفعت العاهات**»[1]. وعنه ﷺ: «**إنَّه الجدي**» أي جدي الفرقد، رواه ابن عبَّاس، **ولعلَّه لم يصحَّ عنه**. وخلق الله النجوم علامة للطرق، ورجوما للشياطين، وزينة للسماء، ومن قال غير ذلك فقد تكلَّف ما لا علم له به.

[بلاغة] ولَمَّا كانت الدلالة بالنجم أنفع العلامات ليلا برًّا وبحرا، قدَّم «وَبِالنَّجْمِ» على متعلَّقه بطريق العرب في التقدُّم للاهتمام، وهو «يَهْتَدُونَ» من قوله: ﴿**هُمْ يَهْتَدُونَ**﴾، وقدَّمه أيضا للفاصلة، ولكون الدلالة بالنجم أنفع العلامات، جاء ﴿يَهْتَدُونَ﴾ بالغيبة على طريق الالتفات من الخطاب ليعمَّ أهل الأرض، فالضمير لهم عموما، وقيل لقريش لكثرة

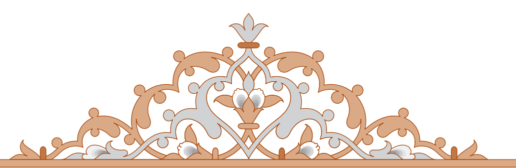
---

(1) أورده **العجلوني** في الكشف: ج 1، ص 110. و**الطحاوي** في مشكل الآثار: ج 3 ص 91 (م.أ.ح.ن).

سفرهم للتجارة، وشــهرة اهتدائهم بالنجوم فيه، وأيضا هم أولى بالخطاب لإنكارهم من بُعِثَ فيهم ﷺ، ثمَّ العرب لفرط معرفتهم بالنجوم حتَّى لوَّح للاختصاص بقوله: ﴿هُمْ﴾.

ويجوز كون التقديم للحصر حتَّى كان غيــر النجوم كَلَا علامة في الليل. و﴿يَهْتَدُونَ﴾ بالمثنَّــاة التحتيَّة هنا، وهناك بالفوقيَّة، وكفــى ذلك مغايرة بين الفاصلتين، و**الأَوْلى** أنَّ الخطاب والضمائر في ذلك كلِّه لجميع الناس؛ لأنَّهم يسافرون ويستدلُّون بالنجوم، وقريش منهم ولو امتازوا بذلك.





﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝17 وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝18 وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۝19 وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝20 أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ۝21 إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝22 لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ۝23﴾

خواصُّ الألوهيَّة:

الخلق وعلم السرِّ والعلن والحياة الأبديَّة

﴿أَفَمَن يَخْلُقُ﴾ كلَّ ما يشاء كما شاهدتم ما ذكر وأقررتم به، وليس المراد ما ذكر لأنَّه مضى خلقه إلَّا بتأويل الحال له، كأنَّهم حضروا وشاهدوا خلقه، بل المراد الإطلاق والتجدُّد والاعتياد، فيشمل الماضي والحاضر والآتي، وكلُّ ما ذكر خلق له. ﴿كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ شيئا البتَّة، المعنى: أسوَّيتم اللهَ الخالقَ بمن لا يخلق في العبادة ولم تخصُّوه بها؟ ولذلك لم يكن الكلام: أفمن لا يخلق كمن يخلق، أو جعلوه كأنَّه من جنس المخلوقات العجزة شبيها بها، ولا يصحُّ أن يقال: بالغوا حتَّى جعلوا الله فرعا في العبادة على أصنامهم؛ لأنَّ قولهم: تقرِّبنا إلى الله زلفى ينافيه.

و«مَنْ» الثانية للأصنام على اعتقادهم عظمتها، حتَّى كأنَّها عاقلة، أو للعقلاء وغيرهم، فإنَّ مِمَّا يُعبَد من الخلق الملائكةَ وعيسى وغيرهم، ومن قريش من يعبد الملائكة، أو على مشاكلة «مَنْ» الأولى التي للعالم، أو ذلك

على تأكيد نفي المساواة، كأنَّه قيل: أيكون الله الخالق كالملائكة وعيسى الذين لا يَخلُقون وهم يعلمون؟ فكيف من لا يعلم كالأصنام؟ ﴿**أَفَلَا تَذَّكَّرُونَ**﴾ فإنَّ الحقَّ في ذلك يُدرَك بأدنى تأمُّل، بل بمجرَّد التفات في الشأن. وما ذُكر تذكير تفصيليٌّ بطائفة من النِّعم، عقَّبه بتذكير إجماليٍّ بقوله:

﴿**وَإِن تَعُدُّواْ**﴾ إن أردتم العدَّ ﴿**نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَآ**﴾ تنبيها على أنَّ وراء تلك النعم نعما لا تقدرون على حصرها بعدد أفرادها ولا أنواعها، فضلا عن أن تقوموا بشكرها، وحقُّ عبادته غير مقدور لكن أُمرتم بالشكر على حسب الطاقة.

﴿**إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ**﴾ لمن تاب ﴿**رَّحِيمٌ**﴾ قدَّم الغفران لأنَّ التخلِّي قبل التحلِّي، وهو أنسب بالفاصلة. ومن رحمته أنَّه لم يعاجلكم بالعقاب وتوسيع النعمة عليكم بعد تقصيركم، ومبالغتكم في المعاصي، ومن الجائز أن يقال: غفور يستر الذنب في الدنيا ولا يكشفه بالإظهار ولا بالعقاب عليه، رحيم بنعم الدنيا ونعم الآخرة للتائب.

﴿**وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ**﴾ من أحوالكم كلِّها، ومنها إيذاؤكم رسوله، وسائر معاصيكم، اعتقادا وعملا سيجازيكم، وليس ما تعبدون عالما بأحوالكم ولا مجازيا عليها ولا على خير تدَّعونه، فكيف تعبدونه؟ وقدَّم الأسرار تحقيقا للمساواة على أبلغ وجه، فإنَّ الجاهل يتوهَّم أنَّه تعالى لا يعلم ما أسرَّه أحد.

﴿**وَالذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ**﴾ بمعنى «تعبدون» مجازا متعارفا ملحقا بالحقيقة، لاشتمال العبادة على الدعاء من حيث إنَّها فعل متقرَّب به إلى ما يراد تحصيله، وإنَّ فيها دعاء صريحا مثل: ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا﴾ [سورة البقرة: 285]، ومثل: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ﴾ [سورة الفاتحة: 6]. ﴿**لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ**﴾ يخلقهم الله، أو يُصوَّرون من حجر وخشب ونحوها، والمضارع لحكاية حال

الإيجاد من العدم، أو حال تصوير عابديها لها، أو بمعنى الماضي، أو باعتبار ما يخلقه الله بعدُ منها أو يصوِّرونه بعدُ.

[أصول الدين] والإلـه قديم غير مُحدث، واجب لا بموجب، غير محتاج، وغير عاجز، وآلهتكم ليست كذلك.

[منطق] وليس هذا تكرارا لقوله: ﴿أَفَمَنْ يَّخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾؛ لأنَّه كلام مفرد، وما هنا كلام مرتبط للاستدلال على طريق الشكل الأوَّل، هكذا: ما تعبدونه لا يخلق شيئا، وما لا يخلق لا يشارك من يخلق، فلا شيء ممَّا تعبدون شريك لمن يَخلُق، أو من الشكل الثالث هكذا: هم لا يَخلُقون شيئا، ولا يشارِك من يَخلُقُ من لا يَخلُقُ، فينتج: هم لا يشاركون من يَخلُقُ، ويلزمه أنَّ من يَخلُق لا يشاركهم؛ فلا تكرار مع نفي المشابهة.

﴿أَمْوَاتٌ﴾ هم جماد غير متَّصفين بالحياة الآن ﴿غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾ بعدُ، فلم تلحقهم حياة قطُّ، ولا تلحقهم إلَّا إذا أحياهم يوم البعث للشهادة على عابديهم، فكيف يلحقون بمن لم يتَّصف بغير الحياة قطُّ؟ ولن يتَّصف به بعد، وليسوا كميِّت تلحقه حياة بعد، مثل النطفة والبيضة، ومثل الإنسان يموت ويُبعث، وهم منكرون للبعث، أو هم أموات غير أحياء بالذات، والله ﷻ حيٌّ بلا أوَّل ولا آخر، ولا مُحيًى كما هو شأن الإلَـه، والملائكة وعيسى وعزير أحياء لا بالذات بل بِمُحْيٍ، بدليل سبق العدم، فقد بان لك وجه ذكر «غَيْرُ أَحْيَآءٍ» بعد ذكر «أَمْوَاتٌ»، أو ذُكِر تأكيدا.

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي الآلهة ﴿أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ أي عابدوها، لا يعلمون متى يُبعث عابدوهم، أو الخلق مطلقا، ومن شأن من هو إله أن لا يخفى عليه شيء ولا يعجزه شيء، فكيف يطمعون في أن يثيبوهم على عبادتهم؟ ولا يدرون متى يبعثهم الله للشهادة على عابديهم بالعبادة؟ سواء الأصنام والملائكة

وعيسى وعزير. ويبعث الله الأصنام حيَّة مع شياطينها فتبرأ من عابديها، فيؤمر بالكلِّ إلى النار، كما قاله ابن عبَّاس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

أو الواوان للآلهة، ويلزم من نفي شعورهم بوقت بعثهم نفي شعورهم بوقت بعث عَبَدَتِهم، أو للأموات المذكورين بمعنى الكفَّار، أي: لا يدري الكفَّار متى يبعثون للجزاء فيكون خارجا للوعيد، و«أَيَّانَ» اسم استفهام متعلِّق بـ«يُبْعَثُ» لا ظرف لقوله: ﴿**إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ**﴾ بمعنى أنَّ الله مختصٌّ بالألوهيَّة يوم يبعثون لا يدَّعيها أحد معه كما في الدنيا؛ لأنَّ ذلك مخرج لـ«أَيَّانَ» عن الاستفهام إلى الظرفيَّة المحضة كـ«يوم»، وليس المعنى على ذلك.

بل المعنى: إلهكم الذي هو أهل للعبادة هو إله واحد، وهو الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ و عَزَّوَجَلَّ، وهذا نتيجة لما قبله وفَذْلَكَةٌ، أعيد بعد الاحتجاج عليهم مفصّلا موضّحا وتوطئة لقوله:

﴿**فَالذِينَ لَا يُومِنُونَ بِالَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ**﴾ فإنَّهم أصرُّوا على عبادة غير الله لإنكار قلوبهم وحدة الله بالألوهيَّة، ولاستكبارهم عن أن يتَّبعوا محمَّدًا صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، أو قلوبهم منكرة للبعث فلم يَخَافُوا عقابا على كفرهم، ولم يرجوا ثوابا على ما يدعوهم إليه، وهم مستكبرون عن قبول كلام ناصحهم صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، والفاء تفريع على ما قبلُ من عدم تأثُّرهم بالتذكير.

﴿**لَا جَرَمَ**﴾ لا بدَّ ﴿**أَنَّ اللَّهَ**﴾ من أنَّ الله ﴿**يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ**﴾ فيجازيهم، أو أصل «لَا جَرَمَ» لا بدَّ ثمَّ جُعِل كلُّه كلمةً واحدة بمعنى: ثبت، فالمصدر ممَّا بعده فاعله، أو جُعِل بمعنى مصدرٍ رافعٍ للفاعل المذكور، أي حقًّا إنَّ الله يعلم، أي حقَّ حقًّا علمُ الله، أو «لَا» نافية لمحذوف، أي: لا يصحُّ ما قال الكفرة، و«جَرَمَ» معناه وجب، أي: وجب أنَّ الله يعلم ما يسرُّون وما يعلنون. وذلك على العموم، لا كما قيل: المراد ما يسرُّون في دار الندوة من قتل محمَّد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

﴿**إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ**﴾ أي: لا يرضى أفعالهم ولا أقوالهم، ولا اعتقادهم ولا استكبارهم، أو لا يأمر بحالهم، أولا يثيبهم عليها كما يثيب المؤمنين على إيمانهم بل يعاقبهم. والأصل: «إنَّه لا يحبُّهم» وأظهر ليصرِّح بالعلَّة وهي الاستكبار، فإنَّ تعليق الحكم بمعنى المشتقّ يؤذن بعلِّيَّة معنى ما منه الاشتقاق.

و﴿الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ عامٌّ لكلِّ مستكبر، فالإظهار على بابه، ويدخل كفَّار قريش فيهم دخولا أوَّليًّا، أو المعنى: لا يحبُّ المستكبرين مطلقا فكيف من استكبر على التوحيد واتِّباع الرسول ﷺ؟ أو المستكبر متعاطي الكِبْر بما ليس عنده فهو أقبح من المتكبِّر، أو لا يحبُّ الذين يطلبون الكبر فلم يصلوه فكيف بمن طلبه وفعله؟ **والأولى أنَّه بمعنى المتكبِّر**؛ لقوله: ﴿فَلَبِيسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [سورة النحل: 29]، والأولى أنَّهما سواء، وأنَّ كلًّا منهما يطلق على من ادَّعى الكبرياء من الناس بما عنده، ومن ادَّعاها بما ليس عنده.

مرَّ الحسين بن عليٍّ بمساكين يأكلون كسرا، فقالوا: الغداء يا أبا عبد الله، فنزل وقال: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾، وأكل معهم، فقال: أجبتكم فأجيبوني، فاتَّبعوه إلى منزله فأطعمهم وسقاهم وأعطاهم.

والذنوب يمكن إخفاؤها إلَّا التكبُّر فإنَّه لا يخفى، وهو أصل العصيان إذ تكبَّر إبليس فلم يسجد لآدم، وعنه ﷺ: «**إنَّ المتكبِّرين يُحشرون يوم القيامة أمثال الذرِّ تطأهم الناس بأقدامهم**»[1] لتكبُّرهم، يعني: يتضرَّرون بذلك، وبعد دخول النار تعظم أجسامهم ليشتدَّ ضررهم.

---

(1) أورده **القرطبي** في تفسيره: ج 10، ص 95. و**ابن كثير** ج 7، ص 102. ورواه **الترمذي والنسائي** عن ابن عمر بلفظ: «يُحشر المتكبِّرون يوم القيامة...».

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٢٤ لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ۝٢٥ قَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ۝٢٦ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُخۡزِيهِمۡ وَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمۡۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ إِنَّ ٱلۡخِزۡيَ ٱلۡيَوۡمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٢٧ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡۖ فَأَلۡقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعۡمَلُ مِن سُوٓءِۭۚ بَلَىٰٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٢٨ فَٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَلَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ۝٢٩﴾

صفات المستكبرين:
إنكار المشركين الوحي المنزَّل والنبوءة وجزاءهم

[سبب النزول] ونزل في النضر بن الحارث، وكان عنده كتب التواريخ، وكان يزعم أنَّ حديثه أجمل وأتمُّ ممَّا نزل على محمَّد ﷺ قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُم**﴾ للنضر بن الحارث ومن معه من المقتسمين، والقائل بعضهم لبعض تهكُّما إذ لفظوا بأنَّ الإنزال على محمَّد ﷺ من الله، أو تحقيقا لا تهكُّما، لكن قالوا: ما عندنا خير، أو على فرض أنَّه منزَّل لكنَّه أساطير الأوَّلين أنزلها، أو القائل المسلمون تذكيرا. ويضعف أنَّه اختيار لعلمهم بكفرهم.

أو الوافدون على المسلمين والوافدون على أهل مكَّة يسألونهم عن أحوال محمَّد ﷺ والقرآن، فيقول المشركون: أساطير الأوَّلين، و[يقول]



المسلمون: أنزل خيرا، وكذا غير الوفد ﴿مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾ أي: أيَّ شيء أنزل ربُّكم؟ أو ما الذي أنزله ربُّكم؟ وهو الأنسب برفع «أَسَاطِيرُ» ﴿قَالُواْ﴾ أي: النضر ومن معه ﴿أَسَاطِيرُ الاَوَّلِينَ﴾ هو، أي الذي أنزل ربُّنا أساطير الأوَّلين، جمع أسطار جمع سطر، فهو جمع الجمع، أو جمع أسطورة، أي: شيء سطره الأوَّلون، أي كتبه سطورا لا نفع فيها، أو أكاذيب، عرضوا عن لفظ الإنزال لشدَّة عنادهم ولو أرادوه، إذ لم يقولوا: «أساطيرَ» بالنصب فيقدَّر: «أنزل»، وإثباتهم الإنزال تهكُّم أو مشاكلة، أو على تقدير أنَّ له إنزالا أثبتوه ليردُّوه كقوله: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ [سورة الأنعام: 76].

﴿لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنَ اَوْزَارِ الذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ اللام لام العاقبة لا لام التعليل؛ لأنَّهم لم يقولوا: أساطير الأوَّلين قصدا لحمل الأوزار ورغبةً فيه، بل عاقِبتُهم عند الله ذلك الحمل. ومعنى «كَامِلَةً» أنَّه لا يخفى عن الله من أعمالهم شيء، ولا ينساه فيفوته العقاب عليه، ولا ينقص شيء من أوزارهم بأعمالهم الصالحة، لأنَّها لا تقبل عنهم لشركهم، ولا بالمصائب لأنَّها بعض عذابهم، فيعذَّبون في الدنيا والآخرة ﴿اَنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُّصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ [سورة المائدة: 49] لا كالمؤمن يثاب على المصيبة وعلى عمله الصالح، أو يكفَّر عنه ذنبه، [قلت]: والكافر يثاب في الدنيا على عمله الصالح إن شاء الله، ويردُّ عليه إن شاء، وقال بعض الصوفية: البلاء للمخطئ عقاب، وللبَرِّ مكفِّر، وللعارف درجة لا يصلها إلَّا به دون عمله.

و«مِنْ» للتبعيض فإنَّ الرؤساء يحملون بعض أوزار المرؤوسين الذين ضلُّوا بهم، وذلك البعض هو الذنوب التي أصابوها باتِّباع الرؤساء، وسائر ذنوبهم باقية عليهم، وليس المراد أنَّهم يحملون البعض وينجو المرؤوسون منه، بل يعاقَب الرئيس المضِلُّ بمثل ما يعاقب المرؤوس به، وليس ذلك حملا للوزر عن وازره، بل حمل لوزره وهو الأمر بالمعصية.

قال أبو هريرة: قال رســـول الله ﷺ: «**من دعا إلى هــدى كان له من الأجر مثل أجور من اتَّبعــه، لا يَنقُصُ ذلك من أجورهم شــيئا، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من يتبعه، ولا يَنقُصُ ذلك من آثامهم شيئا**»[1].

[فقه] و﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ حال من الهاء، والمعنــى أنَّهم غير عالمين بأنَّ ما يأمرهم به رؤساؤهم ضلال، وفي ذلك دلالة على أنَّ المقارف لما لا يعلم غير معذور لوجوب التمييز عليه، ولوجوب طلب العلم قبل المقارفة، ودلالة على أنَّ العالم بتحريم ما يأتي أشدُّ قطعا للعذر.

أو حال من الواو، والمعنى: جاهلين لما يســتحقُّون من العذاب الشــديد على الإضلال، وليس في هذا الوجه دلالة علــى أنَّ المقارف غير معذور، إلَّا من حيث إنَّ الآية في الذمِّ وفي بيان الضلال، وليســت الآيــة دلالة على أنَّ إضلالهم للتابعين معلوم لهم منزَّل منزلة المجهول إذ أمروا به التابعين؛ لأنَّهم لا يعلمون أنَّه ضلال، وأجاز ابن جنِّي كونه حالا من الواو والهاء.

﴿**أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ**﴾ ساء وزرهم ذلك، أو ساء وزرا يزرونه ذلك، أو ساء الوزر الذي يزرونه. ﴿**قَدْ مَكَــرَ الذِينَ مِن قَبْلِهِمْ**﴾ دبَّروا لرســلهم مكائد ولم يؤثِّروا فيهم، بل أُهلكوا به، «من حفر لأخيه جُبًّا وقــع فيه منكبًّا»، «من حفر جبًّا لأخيه أوقعه الله فيه»، وذلك تسلية لرسول الله ﷺ وتهديد لقومه.

﴿**فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم**﴾ مفرد مذكَّر، وقيل هو جمع، أو اســم جمع، والمفرد بنيانة كـ«كَلِمَة» و«كلِم». ﴿**مِّنَ الْقَوَاعِدِ**﴾ مــن جهة الدعائم، والعَمَد التي بنوا عليهــا ﴿**فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّــقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ**﴾ شــبَّه حيلهم على رســلهم بأنواع المكر، وســعيهم في إنفاذها وتأثيرها ورجوع ذلك عليهم بالهلاك ببناء بنيان

(1) رواه **مسلم** في كتاب العلم (6) باب من سنَّ سنَّة حســنة أو سيِّئة... رقم: 16 (2674). **وأبو داود** في كتاب السنَّة، باب من دعا إلى السنَّة، رقم 4609. من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.



محكم للنفع هدِّم من أصله، ووقع لضعفه على أصحابه، وهلكوا به مع رجاء الانتفاع به والنجاة، وذلك أشدُّ كما أنَّه هدِّم من أصله.

وأصل الهدم من فوق فذلك أشدُّ، وذلك استعارة تمثيليَّة، والمراد: فأتى أمر الله، وهذا أولى من أن يقال: المعنى أهلك الله بنيانهم، من قولهم: أتى عليه الدهر، أو أتاه الدهر، بمعنى: أهلكه، بلا تقدير مضاف.

[بلاغة] وقاعدة البناء: أصله الذي أسِّس عليه. وذكْرُ الفوقِ تأكيدٌ؛ لأنَّ الخرَّ لا يكون إلَّا منه، وقد يكونون جانبا فخرَّ عليهم، فهو تأكيد أيضا؛ لأنَّ الخرَّ من فوق ولو جانبا. أو يحتمل هذا فأزيل بأنَّهم تحت السقف فخرَّ عليهم. أو المعنى: خرَّ عنهم بمعنى فوته، أو ﴿خَرَّ عَلَيْهِمْ﴾: خرَّ لهم، أي لأجلهم، أي: لكفرهم وهم تحته، والوجهان ضعيفان، والأخير أضعف.

﴿وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ لا يعلمون أنَّه يأتي، بل يتوهَّمُ النفع بالبنيان فكان عليهم هلاكا، والهلاك من حيث يُرجى النفع أشدُّ، كعَارِضٍ عَادٍ[1].

[قصص] وقيل: الآية تحقيق لا تمثيل: بَنَى نمروذُ بنُ كنعان (بضمِّ النون وفتحها، وإعجام الذال وإهمالها، وكسر الكاف وفتحها) بناءً في بابل في سواد الكوفة، ارتفاعه خمسة آلاف ذراع أو فرسخان، وعرضه ثلاثة آلاف ذراع ليقاتل أهل السماء، ويرصد أمرها، فهدمه الله بريح، وقيل: بجناح جبريل، وأهلكهم الله به، وبقي هو إلى أن مات بالبعوض مع من بقي معه. ويقال: زلزل أسفله ووقع عليهم، أو على العَمَلَة، وقطع الريح أعلاه وألقاه في البحر، وتبلبلت ألسن الناس للفزع من وقوعه على ثلاث وسبعين لغة، وكان لسانهم قبلُ سريانيًّا.

---

(1) يشير إلى آية الأحقاف رقم 24 ﴿هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾.

وقيل: بابيل بمعنى المشتري في لغة أهل بابيل، وقيل: لسانهم قبل ذلك عربي كصالح لا سريانيٌّ، وقيل: الآية في قوم لوط، وتفسير الآية بهذه القصَّة لا يناسبه المكر كما ناسب قصَّة ثمود، ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾ [سورة النمل: 50]، وفي قوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ...﴾ [سورة الأنفال: 30]، وكذا ذكر قومه لأنَّه لا مكر لهم، كما كان لقومه ﷺ بل عامَّة مسخَّرونَ إلَّا باعتبار أنَّهم لا يُعذَرون، فكانوا كمن قصد أو تعلَّموا منه قصد السوء.

﴿**ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**﴾ متعلِّق بقوله: ﴿**يُخْزِيهِمْ**﴾، وقدِّم على طريق الاهتمام بيوم القيامة، وإنكار على من أنكره من قومه ﷺ، والله لا يهتمُّ. والخزي: الذلُّ، والإخزاء: الإذلال، وهو أعمُّ من العذاب، أو المراد بالإخزاء التعذيب بالنار، أو هو وغيره، وهو الفرد الكامل من الخزي ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدَ اَخْزَيْتَهُ﴾ [سورة آل عمران: 192]. والهاء للكفَّار مطلقا، وكلمة «ثُمَّ» تدلُّ على أنَّ العذاب المذكور قبلها في الدنيا، وإن قلتَ: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِيَ﴾ يأباه لأنَّه قبل دخول النار، فالمراد أصل معناه وهو الإذلال، قلتُ: الواو في قوله: ﴿وَ يَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ﴾ لا تُرتِّب، وأيضا التعذيب فرد كامل في الخزي فهو مستعمل في أصل معناه، وأيضا يقال لهم في النار: أين شركائي؟ جمعا عليهم ـ للإهانة ـ بالقول توبيخا، وبالفعل وهو التعذيب، كما يقال لهم قبل دخولها، ولا دليل على منع ذلك القول في النار، نعم يتبادر القول قبلها.

﴿**وَيَقُولُ**﴾ على لسان الملائكة، أو يقدَّر مضاف، أي: يقول ملائكته: ﴿**أَيْنَ شُرَكَآءِيَ**﴾ أثبت الشركاء له تعالى استهزاء بهم وتبكيتًا، أو على زعمهم، وهذا أشدُّ في التوبيخ من أن يقال: أين شركائي الذين كنتم تزعمون؟ ويضعف ما قيل: إنَّ الإضافة هنا لأدنى ملابسة، بمعنى أنَّها لَمَّا كانت تذكر معه أضيفت إليه.

﴿الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـاۤقُّونَ فِيهِـمْ﴾ تجعلونهم في مرتبة، والله في مرتبة من الألوهيَّة والعبادة، كلٌّ في شقٍّ غير شقِّ الآخر، تعالى الله عن ذلك. أو المشاقَّة: العداوة؛ لأنَّ عداوة المؤمنين عداوة لله، أو يقدَّر مضاف، أي: تشاقُّون عبادي المؤمنين في توحيدهم، كقوله تعالى: ﴿يُحَارِبُونَ اللّهَ...﴾ [سورة المائدة: 33] الآية. والاستفهام توبيخ لهم على الاعتماد على من لا يحضر عند الشدَّة، فما نراهم دفعوا عنكم العذاب.

﴿قَالَ الذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ﴾ الأنبياء أو العلماء أو المؤمنون أو الملائكة، أو كلُّهم، والمراد: الجنس لا كلُّ فرد من العلماء والمؤمنين والملائكة، يقولون للكفَّار على طريق الشماتة بهم، وزيادة إهانة، ولا سيما الحفظة من الملائكة، والذين تعنَّوْا في دعاء هؤلاء الكفرة إلى الإسلام، وهذا العموم أولى، ولكنَّ المتبادر في إيتاء العلم: المؤمنون والأنبياء لا الملائكة.

﴿إِنَّ الْخِـزْيَ﴾ الذُّلَّ ﴿الْيَوْمَ﴾ يوم القيامة، بخلاف الدنيا فقد يصيبان المؤمن، وهو متعلِّق بالخزي بلا إشكال ولا ضعف، وإنَّما الضعف في نصب المصدر المقرون بـ«ال» المفعول به، مثل: «ضعيف النكاية أعداؤه»[1]، ولا تُعلِّقْه باستقرار على الكافرين، ولا بـ«عَلَى الْكَافِرِينَ» إلَّا بضعف، كضعف: «زيد مستقرًّا في هجر». وزادت الآية الفصل بالعطف: ﴿وَالسُّـوءَ﴾ العذاب ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ خاصَّة. أنزل الله ذلك في القرآن ليتَّعظ به الناس فيحذروا من وقوع ذلك بهم إن كفروا، **والشماتة عذاب روحيٌّ أشدُّ على النفس.**

[نحو] ﴿الذِينَ﴾ نعت، ولا حاجة إلى تقدير: «أعني» أو «هم»، ولا إلى الإبدال أو البيان، وتعاطي ذلك بلا دليلٍ عليه غفلةٌ، وأَبعَدُ من ذلك جعلُهُ مبتدأ خبره: «أَلْقَوْا» على قول الأخفش بجواز زيادة الفاء في الخبر مطلقا، ولو لم يشبه المبتدأ اسم الشرط في العموم.

---

(1) شطر بيت تمامه: «يَخالُ الفرارَ يُراخي الأجل». انظر: شواهد ابن عقيل، باب أعمال المصدر.

﴿تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَآئِكَةُ﴾ عزرائيل وأعوانه ﴿ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ﴾ بالكفر الموجب للخزي والسوء يوم القيامة، والمعنى: توفتهم، بدليل قوله: ﴿فَأَلْقَوُاْ السَّلَمَ﴾ بصيغة الماضي، أو يبقى «تَتَوَفَّى» على الاستقبال، و«أَلْقَوْا» بمعنى يُلقون، و«تَتَوفَّى» للاستقبال على أنَّ القول في الدنيا، وللمضيِّ على حكاية الحال على أنَّه يوم القيامة. ويجوز عطف «أَلْقَوْا» على «قَالَ» أو «يَقُولُ»، أو «تَتَوَفَّى» على معنى توفَّت. والسَّلَم: ضدُّ المنافرة، انقادوا إلى الإسلام حين لا ينفعهم.

﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ﴾ تفسير لقوله: ﴿فَأَلْقَوُاْ السَّلَمَ﴾ بلا تقدير ولا تضمين، كما أنَّ قولك: فعلت لك ما تحبُّ، نَفْسُ قولك: خضعت لك، أو يقدَّر حال هكذا: قائلين: ﴿مَا كُنَّا...﴾، أو يضمَّن ﴿فَأَلْقَوُاْ السَّلَمَ﴾ معنى القول فتُنصَب الجملةُ به، كما تنصب بالقول وإلقاء السلم.

﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ﴾ هو عند معاينة الموت أو يوم القيامة حين عاينوا العذاب، وهو أولى، فيكونون يكذبون يوم القيامة؛ لأنَّهم قد عملوا السوء في الدنيا، وهو الكفر بالإشراك وغيره، وقيل: المراد الإشراك، يكذبون عمدا، أو لفرط الخوف والدهشة. وَمَن مَنَعَ صدورَ الكذب يومَ القيامة قال: المعنى: ما كنَّا في اعتقادنا نعمل سوءًا، فإنَّا نظنُّ الكفر حقًّا، ويردُّه قوله تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ [سورة الأنعام: 24].

﴿بَلَىٰ﴾ تقول الملائكة: بلى قد عملتم السوء، أو المؤمنون أو العلماء، ويتعيَّن الأوَّل على أنَّ القول عند الموت ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فيجازيكم ﴿فَادْخُلُواْ﴾ عطف على إخبار محذوف، أي قد فعلتم فادخلوا ﴿أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ طبقاتها أو مداخلها من خارج، تعدَّدت لكثرة الكفَّار، وللكفَّار طبقات؛ لأنَّ بعضا أشدُّ عذابا من بعض. والخطاب للأصناف، وإلَّا لزم كلَّ فرد أن يدخل من جميع أبوابها، أو أن يكون في جميع طبقاتها أو

أبوابها أصناف عذابها، من نـــار وضرب ولدغ وزمهريـــر وغير ذلك... كما يقال: فلان ينظر في باب من العلم، أي في صنـــف منه؛ وعليه فلا مانع من أن يراد الخطاب للأفـــراد على أنَّ لكلِّ فـــرد صنفا ليس للآخـــر، وفيه بُعدٌ لكثرتهم، والله قادر.

﴿**خَالِدِينَ فِيهَا**﴾ في الأبواب بمعنى الطبقات أو الأصناف، أو في جهنَّم، ويتعيَّن الأخير إذا فسِّر الأبواب بالمداخل، قوم من باب وقوم من باب، وقيل: لكلِّ فرد باب، وهو قول لا يظهـــر أنَّه صواب. ﴿**فَلَبِيسَ مَثْـــوَى الْمُتَكَبِّرِينَ**﴾ المخصوصُ بالذمِّ محذوف تقديـــره: جهنَّم، أي هو جهنَّم أو طبقاتها، أي: هو طبقاتها المعبَّر عنها بأبواب. والمثوى: المقام، أو المرجع. واللام في «لَبِيسَ» و«لَنِعْمَ» للتأكيد الجاري مجرى القَسَم. وقيل: لام الابتداء دخلت على الفعل لجموده كأنَّه من الأســـماء، وقيل: في جواب قَسَم محذوف. **وليس في القرآن «لَبِيسَ» و«لَنِعْمَ» إلَّا هذان.**

والعطف على محـــذوف، أي: مرجعكـــم طبق أعمالكـــم، فلبيس مثوى المتكبِّريـــن عن التوحيد وعـــن المؤمنين، وهؤلاء ضالـــون مضِلُّون، ألا ترى قوله: ﴿وَمِنَ اَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم﴾ [ســـورة النحل: 25]، فأكَّد الكلام باللام كما أكَّد في الهاديـــن المهتدين فقيل: ﴿وَلَـــدَارُ الَاخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْـــمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ [سورة النحل: 30]، ولعدم ذلك في آية الزمر [رقم: 72] وآية المؤمن [رقم: 76] لم يؤكِّد «لبيس» باللام فيهما.

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ (30) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ (31) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (32)﴾

إيمان المتَّقين بالوحي المنزَّل وجزاؤهم

﴿**وَقِيلَ لِلذِينَ اتَّقَوْاْ**﴾ أي الشرك، ولو وصل شارحٌ لَفظَ الشرك بـ«اتَّقَوْا» بدون «أي» لوجب على القارئ الوقف على «اتَّقَوْا»، فيقطع همزة الشرك، إذ لو وصل وقطع لكان خطأً، ولو وصل وحرَّك الواو لكان تغييرًا لِنَظْم القرآن.

والقائلون الوفد، يلاقون أهل مكَّة ويسألون المسلمين عن محمَّد وأحواله والقرآن. ويحكى أنَّ أحياء العرب يرسلون من يسأل فيقول المسلمون: أنزل خيرا، وإن سألوا المشركين قال المشركون: الذي أنزل عليه أساطير الأوَّلين، وكذا غير الوفد مِمَّن يدخل مَكَّة.

أو قالوا بدون ذكر «أَنزَلَ»، كما قال تعالى: ﴿**مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ خَيْرًا**﴾ أي أنزل خيرا، فهذه جملة فِعلِيَّة، مثل: ﴿مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾ على أنَّ «مَاذَآ» اسم واحد بالتركيب، مفعول لـ«أَنزَلَ»، وفي هذا موافقة للسؤال رغبة في جوابه، إذ أتوا بـ«أَنزَلَ» مقدَّرا أو ملفوظا به كما هو في السؤال، والكفَّار أعرضوا عن

ذكر الإنزال الذي هو في لفظ السائلين، لم يذكروه ولم يقدِّروه في العبارة، رغبة عنه وعمَّا تضمَّنه، فقالوا: «أساطير الأوَّلين».

[سيرة] وبعث قريش أرصادا في طرق مكَّة يقولون لمن يجيء من العرب للسؤال: إنَّه ساحر جاء بأساطير الأوَّلين، وإذا دخلوا مكَّة وسألوا المسلمين، قالوا: أنزل الله عليه خيرا، وإذا كان الوافد عاقلا قال الوافد للمشركين الصادِّين: بئس الوافد أنا إن رجعت لقولكم قبل أن ألقاه وأتحقَّق الأمر من عنده. ومن الجائز أن يكون المؤمن يقول لمؤمن: «ماذا أنزل ربُّكم»؟ فيقول: «خَيْرًا»، والكافر يقول لكافر فيقول: أساطير، وذلك تلذُّذ بالسمع، وأن يقول الكافر لمسلم: «ماذا أنزل ربُّكم»؟ تهكُّما.

﴿**لِّلذِينَ أَحْسَنُواْ**﴾ بالتوحيد والعمل الصالح وترك الكبائر ﴿**فِي هَذِهِ الدُّنْيَا**﴾ متعلِّق بـ«الذِينَ» أو بمتعلَّقه، لأنَّ المعنى عليه أولى من المعنى على تعليقه بـ«أَحْسَنُواْ» للعلم بأنَّ المعتبر ما يوجد في الدنيا من الإحسان، ولو لم يذكر في الدنيا فهو جائز مرجوح، إلَّا أن يقال: لوَّح به إلى أنَّ هذه الدنيا مكسب للآخرة فلا يكون التفسير به مرجوحا ﴿**حَسَنَةٌ**﴾ حياة طيِّبة بمدح الله لهم عند الملائكة، وهم أحياء وعند المؤمنين، ومدح المؤمنين بعض لبعض، وبالظفر على الأعداء والأمن من القتل والسبي، وبمنح الله لهم المعارف، أو ثواب في الآخرة لأعمالهم، أو التضعيف للحسنة بعشر إلى سبعمائة فصاعدا، وهذا أنسب بذكر خيريَّة الدار الآخرة بعد هذا.

وهذا وما بعده إلى ﴿تَعْمَلُونَ﴾ من كلام الله ﷻ مستأنف، ويجوز أن يكون بدلا من قولهم: «أَنزَلَ خَيْرًا»، أو عطفَ بيان على القول بجوازه في الجمل، أو تفسيرا، وفي هذه الأوجه يكون داخلا في قوله: ﴿قَالُواْ خَيْرًا﴾ فلهم خير الدنيا وخير الآخرة بقوله:

﴿وَلَدَارُ اَلاخِرَةِ﴾ أي ثواب دار هي دار الآخرة، أو ثواب دار الحياة الآخرة ﴿خَيْرٌ﴾ لهم مِمَّا أصابوا في الدنيا من الأمور الحسنة، غير مدح الله ومعارفه، فهما خير من نعم الآخرة، أو نقول لم يُقصد هذان في قوله: ﴿حَسَنَةٌ﴾، أو نقدِّر: خير من الدنيا.

﴿وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ وعدٌ لهم، والمخصوص بالمدح محذوف تقديره: هي، أي دار الآخرة، أو هو قوله: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ أي جنَّات إقامة دائمة.

[نحو] وإذا قدَّرنا المخصوص كان قوله: ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ خبرا لـ«جَنَّات» على أنَّه مبتدأ، وإذا جعلنا «جَنَّاتُ» مخصوصا كان قوله: ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ حالا من «جَنَّاتُ» أو نعته، كذا قيل، والصواب أنَّه نعته، وقدَّر بعض: لهم جنَّات عدن، وبعض جعله مبتدأ خبره قوله: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا اَلاَنْهَارُ﴾ وعلى غيره يكون حالا من قوله: «ها» أو نعت آخر لـ«جَنَّاتُ»، قيل: أو حال منها.

﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾ من اللذَّات، [قلت:] ولا يلقي الله في قلوبهم ما لا يجوز كالجماع في الدبر، وتزوُّج ذوات المحارم، والجمع بين من لا تجتمعان كامرأة وخالتها، وقيل: لا أدبار لأهل الجنَّة لأنَّه لا فضلة لهم، فيلزم أن لا تجوُّف للذكر إذ قالوا: لا نطفة فيها، فيكون ذلك نقصانا، فقل: لهم أدبار لا فضلة تخرج منها بل رائحة مستلذَّة، وللذكر جوف ونطفة برائحة طيِّبة، ترشفها أبدان النساء إن لم يكن حديث مانع من ذلك، ويكون للمؤمن زوجان من الآدميَّات، نصَّ عليه ابن حجر.

[قلت:] وأقول له أزواجه الآدميَّات كلُّهنَّ ولو أربعا إن كنَّ سعيدات مات عنهنَّ، ولم يتزوَّجن بعده، أو تزوَّجن شقيًّا أو متن عنه ولم يتزوَّج بعدهنَّ محرمة لهنَّ، وكذا ما فوق الأربع، مثل أن يتزوَّج أربعا بعد أربع، أو يتزوَّج

بعد النقصان عن الأربع بالموت، لا ما قيل: ما له إلَّا واحدة، وفضل الله أوسع[1]، وإطلاق الحديث يناسبه.

[بلاغة] وليس قوله: «فِيهَا» حصرا بالتقديم كما قيل، لأنَّ الحصر بالتقديم يكون إذا كان التقديم على عامل المقدَّم، وعامل فيها هو «لَهُمْ» أو متعلّقه لا «مَا يَشَآءُونَ»، أو كان التقديم على مبتدئه، نحو: في الدار زيد، وإن علِّقت «لَهُمْ» بـ«تَجْرِي» و«فِيهَا» خبر مقدَّم ساغ الحصر، ومعنى الحصر أنَّه لا يجد الإنسان كلَّ ما يشاء إلَّا في الجنَّة.

﴿**كَذَٰلِكَ يَجْزِي اللهُ الْمُتَّقِينَ**﴾ على تقواهم، يقال: الجزاء نفس ذلك لا مثله فما معنى التشبيه؟ [قلت:] المعنى والله أعلم: يجزي الله المتَّقِينَ جزاء مثل ذلك الوصف، أي مطابقا له، أو يقدر له مبتدأ هكذا: الأمر كذلك، ويستأنف قوله: ﴿يَجْزِي اللهُ الْمُتَّقِينَ﴾.

﴿**الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَآئِكَةُ طَيِّبِينَ**﴾ خالين عن الكفر والمعاصي، وهو مقابل لقوله: ﴿ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ﴾ [الآية: 28]، فهو كقولك: خالين عن ظلم أنفسهم بالكفر والمعاصي، أو قدِّره: خالين عن ذلك الظلم، أو طيِّبين بالبشارة بالجنَّة، أو بالإفضاء إلى الحبيب سبحانه وتعالى بالموت. وهو نعت للمتَّقين، وإن جعل مبتدأ فخبره قوله: ﴿**يَقُولُونَ**﴾ والرابط محذوف، أي يقول الملائكة لهم عند التوفِّي: ﴿**سَلَامٌ عَلَيْكُمُ**﴾ وعند الفراغ من الحساب والتسريح من الموقف: ﴿**ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾.

وإذا لم نجعل «الذِينَ» مبتدأ فـ«يَقُولُونَ» حال من الملائكة، ويجوز أن يكون القول في الآخرة، فتكون الحال مقدَّرة، لأنَّ يوم القيامة أو سؤال القبر

(1) والأحسن من هذا أن نقول كما قال الشيخ أبو نصر: وأحكام تلك الدار ليست كهذه.

لم يحضر وقت التوفِّي، والسعيد يدخل الجنَّة بروحه، أو إن مات شهيدا وإلَّا أخرج له النعم إلى باب الجنَّة.

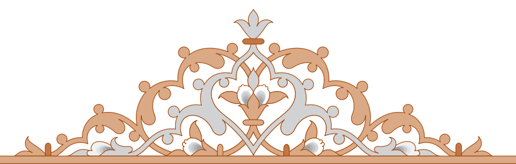
أو المراد: ادخلوا الجنَّة إذا بعثتم، أو الموت على السعادة يعدُّ دخولا للجنَّة بالروح والبدن، والمبدأ بالروح من حينه، والبشارة بدخول الأرواح بشارة بدخول الأبدان. روى مالك وابن جرير الطبري والبيهقي عن محمَّد بن كعب القرظي: «**إذا أشرف العبد المؤمن على الموت جاءه ملك فقال: السلام عليك يا وليَّ الله، الله يقرأ عليك السلام، وبشَّره بالجنَّة**»[1].

والأظهر أنَّ السلام المذكور في الآخرة في المحشر، لأنَّه أنسب بقوله: ﴿ادْخُلُواْ الجنَّةَ...﴾ بلا حاجة إلى تقدير قول، ولا إلى جعل الحال مقدَّرة، بل ﴿يَقُولُونَ﴾ مستأنف مسلَّط على ما بعده إلى ﴿تَعْمَلُونَ﴾، وعليه اقتصر أبو حيَّان، فيكون الحديث في السلام عند التوفِّي، والآية في السلام في الآخرة من الملائكة مطلقا، ومن خزنة الجنَّة قبل دخول المؤمنين الجنَّة، ومن السلام في التوفِّي قوله تعالى: ﴿إِنَّ الذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا اللهُ﴾ إلى ﴿وَأَبْشِرُواْ بِالْجَنَّةِ التِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [سورة فصِّلت: 30]، ومن سلام الآخرة قوله تعالى: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [سورة الزمر: 73].

ويجوز أن يكون التوفِّي بالحشر، مِن توفيت الشيء: أخذته وافيا، فهم يحشرون من القبور ولا يبقى أحد منهم، حشر أمن وبشارة كما يؤخذ الطيِّب ويميَّز عن الخبيث، والأمر كما مرَّ، وإن أريد الحشر من الموقف إلى الجنَّة فالحال مقارنة.

---

(1) أورده **السيوطي** في الدر، ج 4، ص 131. بلفظ: «إذا استفاقت نفس العبد المؤمن جاءه ملك، فقال...» من حديث محمَّد بن كعب القرظي.



﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿33﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿34﴾﴾

تهديد المشركين على تماديهم في الباطل

﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ ما ينتظر الكفَّارُ المذكورون، أو الكُفَّار مطلقا، فيدخلون بالعموم، وعلى الأوَّل غيرهم يقاس عليهم، بل ذكر في غير هذه الآية أيضا ﴿إِلَّآ أَن تَاتِيَهُمُ الْمَلَآئِكَةُ﴾ عزرائيل وأعوانه لقبض أرواحهم والقابض الله تحقيقا، لو شاء الله لعصروا الروح فلا تخرج.

﴿أَوْ يَاتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ العذاب مع الموت أو بدونه، أو القيامة وفيها الموت والعذاب، وإذا جاء ذلك آمنوا ولات وقت نفع، ﴿وَإِن مِّنَ اَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُومِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ [سورة النساء: 159]، ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ [سورة غافر: 85]، لَمَّا كان ذلك يلحقهم لحوق المنتظر لتعاطيهم أسبابه شُبِّهوا بالمنتظرين.

[بلاغة] ففي ذلك استعارة تبعيَّة، وذلك في أنَّهم غير متوقِّعين، فأطلق عليهم لفظ المتوقِّع، وهذا مبنيٌّ على مجاز، وهو استعمال النظر بمعنى الانتظار، فالنظر بمعنى الانتظار والانتظار غير حقيق، بل مشبَّه بالتوقُّع الحقيق، وهم غير متوقِّعين للعذاب تحقيقا، والنظر بمعنى الانتظار من مجاز الأَوْلِ، وكأنَّه وقع المنتظر فصار ينظر، [قلت:] وفي ذلك لي

تصاريف أخر لا أحبُّ الإطالة بها، ولا يلائم المقام التفسير بأنَّهم ما ينتظرون في تصديقك، إلَّا أن تشهد الملائكة بنبوءتك، كقولهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ [سورة الأنعام: 8]. و«أَوْ» لمنع الخلوِّ لا لمنع الجمع لجواز اجتماع العذاب ثمَّ الموت بعده.

﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ الذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ كذَّب الأمم السابقة كما كذَّب قومك، وأشركوا فأهلكوا، فليحذر قومك الإهلاك بتكذيبهم وإشراكهم ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ﴾ بإهلاكهم لأنَّه أهلكهم بذنوبهم ﴿وَلَكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بفعل موجبات الهلاك ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُواْ﴾ عطف على «فَعَلَ»، أي كما فعل الذين من قبلهم فأصابهم سيِّئات ما عملوا. و﴿سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾: جزاء سيِّئات ما عملوه، أو جزاء عملهم، فـ«مَا» موصول اسميٌّ أو حرفيٌّ، والمضاف مقدَّر فيهما كما رأيت، أو ﴿سَيِّئَاتُ﴾: بمعنى الجزاء تسمية للجزاء باسم سببه، أو للمشاكلة التقديريَّة، لأنَّهم عملوا سيِّئات ولم تذكر هنا، كقوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾ [سورة البقرة: 138] وهي الإسلام، في مقابلة ذكر النصارى صبغهم أولادهم في ماء أصفر ليتحقَّقوا في النصرانيَّة.

﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ نزل بهم العذاب الذي استهزؤوا به، أو جزاء استهزائهم بالأنبياء والكتب، وأصل الحيق الإحاطة بالشيء، ولكن خصَّ بالشَّرِّ.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ٣٥ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٣٦ إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٣٧ وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ بَلَىٰ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٨ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي يَخۡتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰذِبِينَ ٣٩ إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٤٠ ﴾

احتجاج الكفَّار بالقدر، وإنكار البعث والردُّ عليهم

﴿**وَقَالَ الذِينَ أَشْـرَكُواْ**﴾ بعض لبعض، وللمسلمين وغيرهم ﴿**لَوْ شَآءَ اللهُ مَا عَبَدْنَـا مِن دُونِهِ**﴾ متعلِّق بمحذوف حال من شـبه الجملـة في قوله: ﴿**مِن شَـيْءٍ**﴾ وجاز تقديم الحال على صاحبها المجـرور، لأنَّ الجارَّ صلة لتأكيد، وهو تأكيد العموم، فيكون نصًّا في الاستغراق، و«مِنْ» في قوله: ﴿مِن دُونِهِ﴾ للبيان، والمعنى: من غيره، وكذا في قوله: ﴿وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَـيْءٍ﴾ ولا وجه لجعل «مِنْ» فيه زائـدا، أو للتوقُّف مع جعله في الأوَّل للبيان، بل لا تزاد «مِنْ» في حال، ومسوِّغ الحال من النكرة تقديمه عليها وتقدُّم النفي.

﴿**نَّحْنُ**﴾ ليس تسويغا للعطف على الضمير المتَّصل المرفوع لوجود الفصل بخمسة أشياء غير «نَحْنُ» والسادس «لَا» في قوله: ﴿**وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ**﴾ من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام، وَلَمَّا صدرت مِنَّا عبادة غير الله، وتحريم ما ذكر علمنا أنَّ الله راض بذلك، ولو لم يرض لم يخلق ذلك الفعل مِنَّا، أو لم يخلقنا إليه وأجبرنا على خلافه، فلا عقاب علينا ولا قبح، ولا فائدة في إنزال الكتب وإرسال الرسل فلا كتاب من الله ولا رسول.

[أصول الدين] فقد علموا ما لم تعلمه المعتزلة إذ قالوا: خالق الفعل فاعله، لا الله ولا علم به حتَّى يقع، وطائفة تقول: علم به قبل.

ولا يلزم أن يكونوا مؤمنين بذلك، لأنَّ إِشْراكهم وتحريم الحلال وتحليل الحرام لا يثبت معها الإيمان، ولو قالوا: إنَّ أفعالنا خلق من الله.

وقيل: قالوا ذلك استهزاء بالإسلام والمسلمين، ومنعا للبعثة والتكليف متمسِّكين بأنَّه لا يكون إلَّا ما شاء الله، واشتركوا هم والمعتزلة في أنَّ الله لا يريد القبيح.

﴿**كَذَالِكَ فَعَلَ الذِينَ مِن قَبْلِهِمْ**﴾ أشرك من قبلهم وأحلُّوا ما لم يحلَّ، وحرَّموا ما لم يحرَّم، وأنكروا الرسل فأهلكوا، وعذر الله رسلهم بالتبليغ ﴿**فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ**﴾ تحصيل البلاغ، أو اسم مصدريٌّ، أي التبليغ أو الإبلاغ ﴿**الْمُبِينُ**﴾ الموضح أو الواضح.

﴿**وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً**﴾ الأمَّة هنا مَن أرسل إليهم رسول إلى أن يأتي رسول آخر، وهكذا الرسول الأوَّل رسول لأمَّة الرسول الآخر، إن كان الآخر مقرِّرا غير ناسخ، والمراد بالرسول هنا ما يشمل من نُبِّئ بلا رسالة، بمعنى أرسل الله إليه جبريل، وبمعنى أنَّه لا بدَّ أن يأمر وينهى ويعلِّم، فكأنَّه نبيء رسول.

والمراد أنَّ ما أنت عليه ليس ببدع، وكذا ما عليه أمَّتك من التكذيب، من قوم منهم، بل بعثنا بالتوحيد رسلا كما بعثناك به، وكذَّب بعض أممهم وصدَّق بعض كما صدَّقك بعض قومك وكذَّب بعضهم، كما قال الله ﷻ: ﴿**أَنُ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلاَلَةُ**﴾ «أَنْ» تفسيريَّة، لأنَّ في البعث والرسالة معنى القول دون حروفه، ومن زعموا أنَّه يجوز دخول حرف الجرِّ على «أَنْ» قبل الطلب أجاز تقدير الباء هكذا: بأن اعبدوا الله.

والطاغوت: الشيطان أو الأوثان، أو ما يعبد من دون الله مطلقا، ومرَّ في سورة البقرة[1]، ويقدَّر مضاف هكذا: عبادة الطاغوت، ودخل فيه ما يدعو إليه عموما، وفي حذفه تأكيد كأنَّه يجتنب من كلِّ وجه، ولو غير عبادة، و﴿هَدَى اللّهُ﴾ أي وفَّقه للإيمان فآمن، و﴿حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلاَلَةُ﴾ ثبتت عليه بالخذلان.

[أصول الدين] والأشياء كلُّها ملك لله خلقها بعد العدم، ولا حقَّ لغيره فيها، ولا يقبح منه شيء إذ لا حقَّ لغيره عليه، ولا يقال له: لم فعلت؟ ولا لِمَ لَمْ تفعل؟ فخلق القبيح وإرادته غير قبيحين، وقبح القبيح على فاعله لأنَّ الله حذَّره عنه، قال الله سبحانه: «**إنَّما هي أعمالكم أحصيها لكم فمن وجد خيرا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلَّا نفسه**»[2].

﴿**فَسِيرُواْ فِي الاَرْضِ**﴾ معشر قريش ﴿**فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ**﴾ لرسلهم قبلكم، وهي الهلاك، وهم عاد وثمود وغيرهم مِمَّن ترون أثره، فخافوا أن ينزل بكم ما نزل بهم لتكذيبكم الرسول كما كذَّبوا رسلهم.

---

(1) انظر: ج 2، ص 129.

(2) حديث قدسي رواه **مسلم** في كتاب البر والصلة والآداب باب تحريم الظلم، رقم 4674. كما أورده **المناوي** في كتابه الإتحافات السنيَّة، ص 27، رقم 48. من حديث أبي ذر.

والآية تصرِّح بأنَّ عليهم السفر للاعتبار في الأرض، ولو بلا قصد الاكتساب، ويجوز أن يكون المراد: سيروا للاعتبار مع قصدكم السفر للتجر مثلا، ولا تخلصوا سفركم للتجر مثلا خَاصَّةً.

﴿**إِن تَحْرِصْ**﴾ يا محمَّد ﴿**عَلَى هُدَاٰيهُمْ**﴾ هدى قومك المأمورين بالسير للاعتبار، أي هدى توفيق كما روي أنَّه يقول: «**اللهمَّ اهد قومي**»[1] ويجوز أن يريد بالحرص شدَّته فوق ما يلزمه من هدى بيان ﴿**فَإِنَّ اللهَ لَا يُهْدىٰ**﴾ هدى توفيق، ولو شددتَّ في البيان، أو رغبت في هدى التوفيق لهم جِدًّا، وقرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف: ﴿لَا يَهْدِي﴾ بفتح الياء بالبناء للفاعل.

﴿**مَنْ يُّضِلُّ**﴾ أي الله، لا يهدي أحدٌ من أراد أن يضلَّه، كما تقول: السلطان لا ينجي أحدٌ من أراد قتله، وجواب «إِنْ» محذوف ناب عنه علَّته، تقديره: لا ينفعهم حرصك، فإنَّ الله أي لأنَّ الله، ورابط خبر «إِنَّ» باسمها الضمير في «يُّضِلُّ». ونائب فاعل «يُهْدَى» هو «مَنْ»، وهي واقعة على قريش، أو عَامَّة فيدخل قريش أوَّلاً. ﴿**وَمَا لَهُم**﴾ الهاء لمن روعي معناه ﴿**مِّن نَّاصِرِينَ**﴾ بدفع العذاب عنهم قبل مجيئه أو بعد مجيئه أو تخفيفه أو بالهداية.

﴿**وَأَقْسَمُواْ بِاللهِ**﴾ عطف على ﴿وَقَالَ الذِينَ أَشْرَكُواْ﴾. ﴿**جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ**﴾ مفعول مطلق لأنَّ المعنى: غاية أيمانهم، وغاية الأيمان يمين، فالمعنى: أقسموا بالله إقساما هو غاية في القُوَّة. والجَهد بالفتح والضمِّ: الغاية، وهي الطاقة، وقيل بالفتح: الشدِّة، وهو راجع لذلك المعنى، لأنَّ الطاقة شاقَّة. وقوله: ﴿**لَا يَبْعَثُ اللهُ مَنْ يَّمُوتُ**﴾ جملة لا محلَّ لها، لأنَّها جواب القسم، وهو أقسموا.

وكانوا يحلفون بآلهتهم وآبائهم، وإذا عظم الأمر أقسموا بالله ﷻ، عابهم الله وذمَّهم بأنَّهم كما أنكروا التوحيد أنكروا البعث، وزادوا في إنكاره اليمين،

---

(1) أورده **السيوطي** في الدر، ج 3، ص 94. و**الزبيدي** في الإتحاف لشرح إحياء علوم الدين، ج 8، ص 258.

وقد قيل: إنَّ مسلما استقضَى دَيْنًا له من مشرك، وذكر البعث فقال: وإنَّك لتبعث بعد الموت، وأقسم بالله لا يبعث من يموت، ونزلت الآية فردَّ الله عليهم بقوله: ﴿بَلىٰ﴾ أي يبعثهم، وبقوله: ﴿وَعْدًا﴾ أي وعد البعث وعدا لا يتخلَّف، وهو مقتضى حكمته، وبقوله: ﴿عَلَيْهِ﴾ هو نعت «وَعْدًا»، وبقوله: ﴿حَقًّا﴾ سواء جعلناه نعتا لـ«وَعْدًا» أو مفعولا مطلقا، كـ«وَعْدًا» فهما مؤكِّدان لأنفسهما، بمعنى قوله: ﴿بَلَى﴾ أو جعلناه حالا من المستتر في «عَلَيْهِ».

[أصول الدين] يبعث الله ﷻ من فني كلَّه، وما فني من ميّت بقي بعضه، يحيي الله الجميع بعينه بصورته في الدنيا، لا جسما آخر مثله، ولا يكسو العظام لحما آخر بل لحمها الأوَّل، ويدلُّ لذلك خلقه ما خلق لا من شيء، [قلت:] هذا ما عندي ولجمهور المتكلِّمين، ولكن زدته إيضاحا واستدلالا، وزعم الفلاسفة والكراميَّة وأبو الحسن البصريُّ من المعتزلة: أنَّ ردَّ الفاني بعينه مستحيل لكن يردُّ مثله، وما ذكره الله: ﴿فَخُذَ اَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ﴾ [سورة البقرة: 260] مِمَّا نحتجُّ نحن به.

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ البعث حقًّا لعدم علمهم بكمال قدرته تعالى، وبأنَّه حكمة لا يهملها الله ﷻ، ولاستبعادهم حياة ما مات، قال الله ﷻ: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الذِي أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [سورة يس: 79] صرَّحت الآية أنَّ أكثر الناس مشركون منكرون للبعث، فنقول: دونهم مشركون غير منكرين للبعث، ودون هؤلاء موحِّدون مقرُّون.

[نحو] ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ﴾ متعلِّق بـ«بَعَثْنَا» عند البعض وهو ضعيف، أو متعلق بـ«بَلَى» ولو كان حرفا لأنَّه بمعنى يبعث، وما بينهما معترض فلا حاجة إلى تقدير يبعثهم ليبيِّن، ولا إلى تقدير: «يبعثهم» بعد «بَلَى»، وهذا وهم من النحاة وغيرهم، فإنَّ «بَلَى» هو نفس الجملة معنًى فلا تقدَّر بعدها، حتَّى إنَّها لو ذكرت كانت تأكيدا لـ«بَلَى»، وكأنَّه قيل: لا يبعث الله من يموت بلى ليبيِّن.

﴿الذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الذِينَ كَفَـرُواْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَاذِبِينَ﴾ وإنَّما قدَّر من قـدَّر: «يبعثهم ليبيِّن» لأنَّه يبعد ذكـر قوله: ﴿وَعْدًا عَلَيْـهِ...﴾ إلى ما بعد ﴿كَاذِبِينَ﴾ مع رجوعه إلى «بَلَى»، وَلَكِنَّ هذا البعد غير موجود إلَّا تقديرا فلم يمنع مِمَّا قلت من تعليقه بـ«بَلَى».

والذي يختلفون فيه هو البعـث، ومعنى ﴿يَخْتَلِفُونَ فِيـهِ﴾: يخالفون فيه المؤمنين بـه، أو الافتعال على بابه فيقـدَّر: يختلفون فيه مـع المؤمنين، أو اختلفوا فيما بينهم بعض يقول: لا يكون جزمـا، وبعض يقول: ممكن جائز، مرجِّحون عدم وقوعه.

على أنَّ الضمير في «لَهُمْ» و«يَخْتَلِفُونَ» للنـاس الكفَّار عموما، من يجزم بنفيه كما في قوله: ﴿وَأَقْسَـمُواْ بِاللهِ...﴾ ومن يظنُّ كما في قوله: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ [سورة الجاثية: 32] الأوَّلين والآخرين، وقيل: المراد بالناس أهل مكَّة فيكون الضميران لهم خَاصَّةً.

ومعنى ﴿وَلِيَعْلَـمَ...﴾: ليعلموا الحقَّ من الباطـل وأنَّ الحقَّ هو ما يقول محمَّد ﷺ من أمور الدين والوحي كلِّه، البعث وغيره.

وزعم بعض أنَّ الهاء في «لَهُمْ» لمن يموت الشامل للمؤمنين والكافرين، فيكون التبيين للمؤمنين تبيين معاينة حقيقـة الحال وعين اليقين، ولو حصل لهم العلم بذلك قبل البعـث، ويجوز أن يراد بما اختلفـوا فيه: الحقُّ مطلقا، وبقوله: ﴿كَاذِبِينَ﴾ كذبهم في إنكار البعث.

[أصول الدين] وعلى كلِّ حـال البعث مقتضى الحكمـة، لأنَّ به تمييز المحقِّ من المبطل، وجزاء كلٍّ بما يستحقُّه، فالبعث من توابع التكليف.

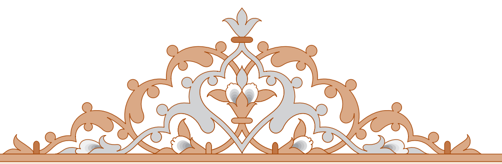
﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَـيْءٍ﴾ في شـأن وجود شـيء، [قلت:] وإنَّما لم أجعلها للتبليغ كما جعلها بعض لأنَّ الشـيء قبل وجوده لا يخاطب، وأمره بالوجود

بعد وجوده تحصيل للحاصل، ولذلك جعلها الزجَّاج للسببيَّة، وهو قريب مِمَّا قلت، ولو ضعف معنى السَّبَبِيَّة هنا في أنَّها ليست للتبليغ، وهو واضح لا كما قيل: إِنَّهُ غير واضح، أي لأجل شيء سيوجد، فكما كان التجوُّز في «كُنْ» على سرعة الوجود ساغت صيغة السَّببِيَّة، ولا وجه للتبليغ إلَّا بطريق تشبيهه بالموجود، لقرينة أَنَّهُ غير موجود فليس موجودا تحقيقا، أو على طريق العرب وغيرهم في التخيُّل تعالى الله عنه.

والآية كالنصِّ في إطلاق الشيء على المعدوم الذي سيوجد، ولا يحسن الخلاف في إطلاقه على ما وجد، أو سيوجد، أو وجد وفني، فإنَّ الحقَّ إطلاقه، وإنَّما يسوغ الخلاف فيما لم يوجد ولا يوجد، والحقُّ المنع. ﴿إِذَآ أَرَدْنَاهُ﴾ أي أردنا وجوده ﴿أَن نَّقُولَ لَهُ﴾ فيه ما في قوله لشيء ﴿كُن﴾ فعل تامٌّ، ولا حاجة إلى تقدير كن موجودا ﴿فَيَكُونُ﴾ فيحصل.

ولا قول في ذلك، بل المعنى إذا تعلَّقت إرادتنا الأَزَلِيَّة لوجود شيء في وقته حصل بلا علاج، ولا آلة ولا تأخير، فكيف تنكرون البعث لمجرَّد رؤيتكم الموتى مستمرِّين على العدم؟ والله قادر على إيجاد العرش والكرسيِّ والسماوات والأرضين وما فيهما من أوَّل الخلق إلى آخره، وكلُّ ما تسمع من الموجودات، والجنَّة والنار وما فيهما في أقلّ من لحظة، وعلى إفناء ذلك في أقلّ منها، ولا مانع من أن يراد بالشيء وجودا وعدما كما هو شأن البعث، والمقام له.

[نحو] والفاء عاطفة على محذوف، أي نقول ذلك فيكون، برفع قول المقدَّر على الاستئناف، ولا قبله، أو في جواب شرط، أي إذا قلنا ذلك يكون، وقرن بالفاء مع أنَّه يصلح شرطا لحذف الشرط، **فاحفظ ذلك** وزد عليه أنَّه إذا تقدَّم معمول الجواب عليه قرن بالفاء ولو صلح شرطا، نحو: إذا جئت فإيَّاك أكرمت.



﴿وَالذِينَ هَاجَرُواْ فِي اِ۬للَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي اِ۬لدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ اُ۬لَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ (41) اَ۬لذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (42) وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً يُوحَىٰ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ اَ۬لذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (43) بِالْبَيِّنَٰتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ اَ۬لذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (44) أَفَأَمِنَ اَ۬لذِينَ مَكَرُواْ اُ۬لسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ اَ۬للَّهُ بِهِمُ اُ۬لَارْضَ أَوْ يَاتِيَهُمُ اُ۬لْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (45) أَوْ يَاخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ (46) أَوْ يَاخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (47) اَوَلَمْ يَرَوِاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ اَ۬للَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ اِ۬لْيَمِينِ وَالشَّمَآئِلِ سُجَّداً لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ (48) وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي اِ۬لسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي اِ۬لَارْضِ مِن دَآبَّةٍ وَالْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (49) يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُومَرُونَ (50)﴾

جزاء المهاجرين الصابرين وتهديد الكافرين والتذكير بآيات الله

﴿**وَالذِينَ هَاجَرُواْ**﴾ بلادهم ﴿**فِي اللَّهِ**﴾ أي لأجل إقامة دين الله، وهم النبيء ﷺ وأصحابه الذين هاجروا إلى المدينة قبله، أو بعده أو معه، وإلى الحبشة في المرَّة الأولى أو الثانية، وهجرتهم بعد من الحبشة إلى المدينة غير داخلة في الهجرة المذكورة في الآية، لأنَّ السورة مكِّية، إلَّا إن جعلت الآية المدنيَّة في سورة مكِّية.

[سيرة] وقيل: المراد الذين هاجروا الشرك فحبسوا بمكَّة وعذِّبوا، وهم بلال وصهيب وخبَّاب وعمَّار وعياش، لا عابس على التحقيق، وابن سهيل

وأبو جندل، لا ابن جندل، أو المراد هؤلاء المحبوسون هاجروا إلى المدينة بعد ما حبسوا ليرجعوا عن الإسلام، قال صهيب: أنا رجل كبير لا أنفعكم وإن كنت عليكم لم أضرَّكم، ففدى نفسه بمال وهاجر إلى المدينة، فقال له أبو بكر: ربح البيع يا صهيب، ولم يَصِحَّ أنَّ القائل له: «نعم العبد صهيب...» هو رسول الله ﷺ، ولا عمر كما قيل.

ويجوز إبقاء «فِي» على الظرفيَّة بمعنى أنَّ هجرتهم متمكِّنة في حقِّ الله تعالى تمكُّن المظروف في ظرفه، ليس فيها أدنى ميل إلى الدنيا ﴿**مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ**﴾ بالعذاب من أهل مَكَّة أو بالشتم وسائر الأذى.

وقوله: ﴿**لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ**﴾ لا محلَّ لها لأنَّها جواب القسم، أي والله لنبوِّئنَّهم، والقسم وجوابه في محلِّ رفع خبر «الذِينَ»، ومعنى «لَنُبَوِّئَنَّهُمْ»: لننزِّلنَّهم ﴿**فِي الدُّنۡيَا حَسَنَةً**﴾ أي دارا حسنة أو مآبة حسنة، والمآبة منزل القوم، أو المراد المدينة، أو تبوئة حسنة وهي تبوئة المدينة، وهو في هذا الوجه نعت لمفعول مطلق محذوف، وفي سائر الوجه منصوب على أنَّه مفعول ثان لـ«نُبَوِّئ» لتضمُّنه معنى نعطي، أو منصوب على التشبيه بالمفعول به، أو على الظرفيَّة شذوذا على الخلاف في منصوب دخل.

﴿**وَلَأَجۡرُ الۡاخِرَةِ**﴾ هو الجنَّة، فالآخرة: ما بعد القيامة، أو ما بعد موت الناس كلِّهم، ولا بأس في أن يقال: أجره الجنَّة؛ أو الآخرة: الجنَّة، وأجرها: نعيمها. ﴿**أَكۡبَرُ**﴾ من نعيم الدنيا، قيل: أو أكبر من أن يعلم أحد بعظمه قبل أن يشاهده، ولا دليل يدلُّ على هذا، [قلت:] وليس كلُّ ما يجوز في المعنى يجوز أن يفسَّر به القرآن، ولو غير ظاهر ولا له دليل.

وكان عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إذا أعطى رجلا من المهاجرين عطاء من بيت المال أو من الغنيمة أو الزكاة أو غير ذلك قال: خذ بارك الله لك فيه، هذا ما وعدك الله في الدنيا وما ادَّخر لك في الآخرة أفضل، ثمَّ يقرأ هذه الآية.

﴿**لَوْ كَانُواْ**﴾ أي المشركون ﴿**يَعْلَمُونَ**﴾ البعث حقًّا، أو الإيمان خيرا في الدارين. وجواب «لَوْ» محذوف أي لآمنوا. قيل: أو الواو للمهاجرين، أو للمؤمنين فيشمل المهاجرين، ولا دليل على إرادة ذلك بالآية، أي لو كان المهاجرون يعلمون ذلك علما بليغا أو علما بالمشاهدة ـ لأنَّها أقوى ـ أو علما تفصيليا لزادوا في اجتهادهم وصبرهم، **وكونه للمشركين أولى**، أو لا يقدَّر جواب، فالمعنى: أكبر عندهم لو كانوا يعلمون، أمَّا إذا لم يعلموا فليس بأكبر عندهم.

﴿**الذِينَ صَبَرُواْ**﴾ هم الذين صبروا، أو أعني أو أمدح الذين صبروا، أو نعت لـ«الذِينَ»، والمراد الصبر على الشدائد من أذى المشركين، ومفارقة الوطن والعشيرة ومن يعاشرون، وعلى الطاعات وعلى المصائب وعن المعاصي، ولكن المقام مقام ذكر الصبر على شدائد المشركين، فإذا أريد العموم دخل أذاهم بالأولى.

﴿**وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**﴾ لا على غيره ولا مع غيره، فيرزقون من حيث لا يحتسبون ولا يضرُّهم مفارقة الوطن. والمضارع لحكاية الحال الماضية الاستمراريَّة، التي هي الانقطاع إلى الله ﷻ، وترك الأمر كلِّه إليه.

[سبب النزول] قالت كفَّار قريش: الله أعظم من أن يكون رسوله بشرا بل يكون ملكا، فأنزل الله ﷻ: ﴿**وَمَآ أَرْسَلْنَا**﴾ إلى الأمم ﴿**مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً**﴾ آدميِّين.

[قلت:] وما قيل من نبوءة حوَّاء ومريم وآسية وسارة وهاجر ويُوخَابَذْ أمِّ موسى **قول رديء مخالف للنصِّ** ﴿**يُوحَىٰٓ إِلَيْهِمْ**﴾ ولو أنزلنا ملكا على صورة بشر لقالوا: إنَّه بشر، وعلى صورته لم يطيقوا مشاهدته، ولو قوَّاهم على مشاهدتهم على صورهم لكان إيمانهم لو آمنوا غير نافع، لأنَّه كإيمان من وجِّه إليه العذاب، أو شاهد أمر الآخرة، ولكان كفرهم إن بقوا عليه موجبا لتعجيل العذاب كعقاب أصحاب المائدة وقوم صالح أصحاب الناقة.

وقيل: وما أرسلنا إلى الأنبياء إلَّا ملائكة على صور رجال، ويردُّه أنَّ المقام لذكر كون الرسل إلى الأمم رجالا، وأنَّ أهل الذكر لا يجيبون بذلك، وقد قال الله في الجواب: ﴿**فَاسْأَلُواْ**﴾ الخطاب لمشـركي مكَّة، إذ قالوا في إنكار رسالة محمَّد ﷺ: الله أعظم من أن يكون رسوله بشرا فهلَّا بعث إلينا ملكا! والتقدير: إن أبيتم إلَّا إنكار رسالة محمَّد فاسألوا ﴿**أَهْلَ الذِّكْرِ**﴾ التوراة والإنجيل والزبور، ولا تُقدِّر: إن شككتم أو إن أنكرتم، والمراد الذين لم يسلموا لأنَّ من أسلم منهم ـ كعبد الله بن سلام بل من أسلم مطلقا ـ لا يأخذون بقوله كسلمان.

وقيل: المراد من أسلم لأنَّ الذِّكر القرآن، قلنا: سمَّى الله التوراة أيضا ذكرا في مواضع منها: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾ [سورة الأنبياء: 105] وإنَّما قال ﷺ: «**نحن أهل الذكر**» في تفسير غير هذه الآية. وقيل: أهل الذكر من علم بأخبار الأمم السالفة.

﴿**إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**﴾ أنَّ الرسل بشـر يخبروكم بِأَنَّ أنبياءهم بشر، كموسى وعيسى، وأنَّ الرسل من البشـر كُلّهم، وأنتم تعرفون أنَّ لهم معرفة بكتب الله ورسله، وتصدِّقونهم قبل أن تصدِّقوا المؤمنين، لأنَّ بينكم مناسبة كفر بالنبيء ﷺ.

﴿**بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ**﴾ كأنَّه قال قائل: بم أرسلوا؟ فقال: أرسلوا بالبيِّنات، فحذف «أرسلوا»، أو متعلِّق بـ«لَا تَعْلَمُونَ» لتضمُّن معنى الإلصاق، أو أرسلنا رجالا ملتبسين بالبيِّنات، أو يوحى بالبيِّنات، أو ما أرسلنا من قبلك بالبيِّنات.

والبيِّنات: الحجج الواضحة، وهي المعجزات، والزُّبُر: الكتب، أو هما شيء واحد، من حيث إِنَّهُ موضِّح يسمَّى بيِّنات، ومن حيث إِنَّهُ مكتوب أو زاجر يسمَّى زبرا، من قولك: زبرت أي كتبت، أو زبرت بمعنى زجرت، جمع زبور، بمعنى مكتوب أو زاجر. ويجوز تعليقه بـ«أَرْسَلْنَا» على حدِّ قولك: ما ضربت إلَّا زيدا بسوط، استثناء لشيئين بلا عطف لأنَّ الأصل: ضربت زيدا بسوط، فدخلت إلَّا على ذلك، والمانع يقدِّر: ضربته بسوط.

﴿**وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الذِّكْرَ**﴾ القرآن سمَّاه ذكرا لأنَّه يحصل به التذكُّر والاتِّعاظ، والإيقاظ من سِنَة الغفلة ﴿**لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ**﴾ بالنصِّ أو بالإرشاد إلى قياس ودليل بالمشافهة، والوسائط إلى يوم القيامة ﴿**مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ**﴾ أي مجمل ما نزِّل إليهم من الحلال والحرام، [قلت:] فالسنَّة تُبَيِّنُ القرآن مقدَّمة عليه إذا تعارضا، أو تخبرهم بألفاظه مطلقا فإنَّه إذا نزل بيَّنه لهم بتلاوته.

وعطف على «لِتُبَيِّنَ» قوله: ﴿**وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ يتأمَّلون فيما أنزل إليهم فيذعنون للحقِّ، ويؤمنون به، وهذا مِمَّا يدلُّ على أن تبيينه ﷺ للناس لا يختصُّ بالتصريح لهم، بل يشمل كلَّ إرشاد ولو سكوته عن النهي، فنعلم الإباحة أو العبادة منه، لأنَّ ما ينصُّ عليه لا يحتاج إلى تفكُّر.

﴿**أَفَأَمِنَ الذِينَ مَكَرُواْ السَّيِّئَاتِ أَن يَّخْسِفَ اللهُ بِهِمُ الاَرْضَ**﴾... إلخ تهديد للماكرين من مشركي مَكَّة لرسول الله ﷺ بإرادة إهلاكه، وعلى أصحابه بالصدِّ عن دين الله ﷻ، أو الماكرين على الأنبياء وأممهم سيِّدنا محمَّد ﷺ وأمَّته، وغيرهما، **والأوَّل أولى** لأنَّ الأصل الكلام على الحاضرين لا على الماضين في التهديد، فيكون المراد المجتمعين في دار الندوة على المكر به ﷺ بحبسه أو قتله أو إخراجه.

والفاء عاطفة على ما قبلُ، والهمزة من جملة المعطوف، أو على محذوف هكذا: أمكروا، فأمن الذين... إلخ؟ أو أأنزلنا الذكر فأمن الذين مكروا؟. و«السَّيِّئات» نعت لمصدر محذوف تقديره: مكروا المكرات السَّيِّئات، أو مفعول به لـ«مَكَرُوا» لتضمُّن معنى عَمِلوا، أو مفعول به لـ«أَمِنَ» لتضمُّنه معنى لم يخف العقوبات السيِّئات، وعليه يكون «أَنْ يَّخْسِفَ...» بدلا من «السَّيِّئَاتِ» بمعنى العقوبات، وعلى غيره يكون مفعولا به لـ«أَمِنَ»، والخسف: أن يدخلهم في الأرض كالإغراق بالماء، كما فعل بقارون.

﴿أَوْ يَاتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِن حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ لا يعلمون أنَّه يأتيهم، كما قتلوا يوم بدر، ومن قبل الخروج إلى بدر لا يخطر ببالهم أنَّهم يقتلون، أو من السماء فجأة كما فعل بقوم لوط، وما يجيء منها لا يشعر به غالبا، أو معنى ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أنَّه لا يجيء على يد مخلوق سواء يجيء من الأرض أو من السماء.

﴿أَوْ يَاخُذَهُمْ﴾ بعذاب ينزل من السماء، ويجوز أن يكون على العموم أو الإجمال ﴿فِي تَقَلُّبِهِمْ﴾ في تنقُّلاتهم في السفر للتجر أو غيره ذهابا ورجوعا، أو في تنقُّلاتهم مطلقا إقبالا وإدبارا في السفر أو الحضر، أو في قضاء مكرهم وتنفيذه.

ويضعف ما قيل: في تقلُّبهم في فرش إلَّا إن أريد التمثيل لمطلق التقلُّب، ويناسب ما ذكرت أوَّلا قوله تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الذِينَ كَفَرُواْ فِي الْبِلَادِ﴾ [سورة آل عمران: 196] وهو متعلِّق بـ«يأخذ»، أو يقدَّر في زمان تقلُّبهم ولا حاجة إلى جعله حالا من الهاء.

﴿فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ لا يعجزون الله فيما أراد بهم من العذاب بأن يفوِّتوه. والفاء لتعليل الأخذ أو لترتيب عدم الإعجاز على الأخذ، لقوله ﷺ: «**إنَّ الله تعالى ليملي للظالم حتَّى إذا أخذه لم يفلته**»[1].

﴿أَوْ يَاخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ متعلِّق بـ«يأخذ»، بمعنى: في تخوُّف أو زمانه، ولا حاجة إلى جعله حالا من الهاء، والمعنى: خوف قوم الهلاك لهلاك قوم قبلَه، و«التفعُّل» بمعنى الفعل، أو للمبالغة، أو لتوقُّع المخوف منه، أو التخوُّف: التنقُّص بمعنى إهلاكهم كلّهم، لكن قوما بعد قوم، ومالا بعد مال حتَّى يأتي على الكلِّ.

(1) رواه **البخاري** في كتاب التفسير (5) باب قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ...﴾ رقم 4686. و**البيهقي** في كتاب الغَصْب (1) باب تحريم الغَصْب وأخذ أموال الناس بغير حقٍّ، رقم 11287. من حديث أبي موسى.

قال عمر رضي الله عنه على المنبر: مـا المراد بالتخوُّف؟ فقال شـيخ من هذيل: التخوُّف التنقُّص في لغتنا، فقال: هل تعرفه الشـعراء؟ قال: نعم، قال شاعرنا أبو كبير يصف ناقته:

تخوَّف الرحـل منها تامِكا قَرِدا كما تخوَّف عود النبعة السَّـفَنُ

فقال: عليكم بديوانكم لا تضلُّوا، أي في تفسير القرآن، قالوا: وما ديواننا؟ قال: شعر الجَاهِلِيَّة فإنَّ فيه تفسـير كتابكم ومعاني كلامكم. وخصَّ الجَاهِلِيَّة حذرا من المولَّدين.

وقيل: هذه لغة أزد شنوءة، و«لا تضلُّوا» نهي أو مجزوم في جواب الأمر، والتَّامك: السنام، والقَرِد بفتح فكسر: ما تلبَّد من الصوف، والنبع: شجر يتَّخذ منه الأقواس، والسَّـفَنَ بفتحتين: حديدة ينحت بها، ويطلق على المبرد، وما ذكر أولى من نسـبة بعضهم البيت لزهير[1]، ومراد عمر ورود التخوُّف بمعنى التنقُّص لا الحصر في معنى التنقُّص، وإلَّا لزم التفسير به.

وعذابهم فـي تخوُّفهم مجمل يراد بـه نوع، ويجوز العمـوم بأن يعذَّبوا بأيدي رجال مثلا ثمَّ بصاعقة، ثمَّ بخسف، أو المراد: إهلاكهم بشيء شاهدوه وخافوا منه الهلاك كالريح والصاعقة المشاهدة النزول والتزلزل.

﴿**فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾ إذ أمهلهم فيزداد عذرهم قطعا، وقد يلدون من قضى الله فإنَّه لا بدَّ منه، وقد يخرج منهم مؤمن وقد يؤمن بعضهم، وهذا تعليل للأخذ على تخوُّف مِمَّا يشـاهدون، إذ لـم يكن بغتة، أو للأخـذ على تقلُّب، فيعتبرون ويتوبون، وهو أولى من الأوَّل، لأنَّه لا ينفعهم إيمانهم حين شاهدوا.

﴿**أَوَلَمْ يَرَوْاْ**﴾ ألـم ينظر هؤلاء الماكرون ولم يروا ﴿**إِلَـىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ**﴾ أبهم بـ«شَـيْءٍ» بعد الإبهام بـ«مَا» ليصفه بقوله: ﴿**يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَالُهُ**﴾ فهو

(1) وقد اختلف في نسبة البيت، راجع اللسان (ط علي شيري) مَادَّة: «سفن».

تمهيد لِمَا بعده، كما يقال: زيد رجل عربيٌّ، وكأنَّه قيل: أولم يروا إلى المخلوق الثابت الأصل، الذي له ظلٌّ كشجر وجبل وجدار.

ولا ظلَّ للملك ولا للجنِّ الذين بصورة الريح بلا لحم ودم، وأمَّا الجنُّ الكثيفة باللحم والدم فمن كان منهم بصورة الحيَّة أو غيرها فله ظلٌّ، وهم في الأجحرة، وما يخفى، كجحر الحيَّة فإذا خرج ظهر له ظلٌّ، وأمَّا الجنُّ الكثيفة على صورة الإنسان مثلا فلا نشاهد لهم ظلًّا، وهم في ضوء الشمس والقمر والمصباح، فنقول: الله قادر أن يجعلهم بلا ظلٍّ، كما قيل أن لا ظلَّ لرسول الله ﷺ.

أو لهم ظلٌّ لا نراه كما أنَّا لا نراهم وذلك بقدرة الله تعالى، والله على كلِّ شيء قدير، ولو شاء الله لجعل لهم ظلًّا نراه دونهم لكن نرتاع لذلك، فلم يجعله، أو هم أجسام غير كثيفة لا ظلَّ لهم، كما أن الهواء جسم لطيف لا ظلَّ له.

ومعنى ﴿يَتَفَيَّؤُاْ﴾: يميل بالرجوع، فهو «يتفعَّل»، من فاء يفيء بمعنى رجع، والفيء: مطلق الظلِّ كما هو ظاهر الآية، وهما مترادفان، وقيل: الفيء ما بعد الزوال، لأنَّه رجع إلى موضع كان فيه قبله، والظلُّ ما قبله، وقيل: ما بعده فيء وظلٌّ، وما قبله ظلٌّ، ومن ترادفهما قوله:

فسلام الإله يغدو عليهم وفُيُوء الفردوس ذات الظلال

إذ لا شمس في الجنَّة تنسخ الظلَّ.

﴿عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَآئِلِ﴾ قيل: يمين الواقف مستقبلا للمشرق ويسمَّى الجنوب، وشماله، وقيل: اليمين أوَّل النهار والشمال آخره، إذ يقع الظلُّ على الربع الغربيِّ قبل الزوال، وعلى الربع الشرقيِّ آخره، والربعان الآخران غالبان، قيل: إذا طلعت الشمس وأنت مستقبل القبلة فظلُّك عن يمينك، وإذا توسَّطت السماء فخلفك، وإذا غربت فيسارك.

قلت: لا يتمُّ هذا، لاختلاف مطالع الفصول والأرض، ومخالفة أوَّل الفصول وما بعده، وكذا لا يتمُّ قول قتادة والضحاك: اليمين أوَّل النهار

والشمال آخره دائما، أو المراد باليمين والشـــمائل يمين الأجرام التي لها ظلٌّ وشمائلها، على الاســـتعارة التصريحيَّة، أو على التخييل للمكنية، لأنَّ اليمين والشـــمال حقيقة للإنســـان والملائكة والجنِّ والحيـــوان، أو بمعنى الجانبين إطلاقا للمقيَّد على المطلق.

وقيل: يمين الفلك وهو المشرق وشمائله وهي المغرب، شبَّه الجانب الشرقي بأقوى جانبي الإنســـان وهو يمينه، لأنَّ أقوى الحركات الفلكيَّة التي هي الحركة اليوميَّة أخذت من المشـــرق إلى المغرب، وقيل: المراد يمين مســـتقبل الجنوب وشماله، وقيل: يمين البلد وشماله، إذا كانت الشمس عن يمينه صيفا فتقع الظلال على يسارها، وعكس ذلك شـــتاء، [قلت:] ولا يحسن التعبير بما هو خاصٌّ هكذا لأنَّ الآية على العمـــوم. وأضيف «ظِلَال» لضمير المفـــرد مراعاة للفظ «ما»، وكذا أفرد اليمين، أو لأنَّ «ال» للحقيقة مثل ﴿وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [سورة القمر: 45].

وجمع الشـــمال للمعنى كما جمع في قوله: ﴿**سُـــجَّدًا لِله وَهُمْ دَاخِرُونَ**﴾ وقيل: جمع الشمال لأنَّ غالب المعمور شـــمالي، وقيل: ظلُّ الغداة يضمحلُّ حَتَّى لا يبقى منه إلَّا قليل، فَكَأَنَّهُ في جهة واحدة، وظلُّ العشـــيِّ يعمُّ الجهات فجمع، وأيضا الشمال يلي «سجَّدا» فجمع لأنَّه ولي الجمع، وأفرد اليمين لأنَّه ولي الضمير المفرد وهو هاء «ظِلَالُهُ».

وجمع «دَاخِرُونَ» جمع الســـلامة لأنَّ الدخور من أوصاف العقلاء، ولأنَّ في جملة ذلك من يعقل، والســـجود: عدم المعاصاة طبعـــا أو اختيارا، يقال: سجد الغصن إذا مال لكثرة ثماره.

والأجرام منقادة لله والظلال تميل من جانب لجانب منقادة واقعة على الأرض كالساجدة، قال الحســـن: **ظلُّك يســـجد لربِّك وأنت لا تسجد؟ بِئْس ما صنعت**. وعن مجاهد: ظـــلُّ الكافر يصلِّي وهو لا يصلِّي، ونقول: **ظلُّ كلِّ شيء يسجد لله**.

و«سُـــجَّدًا» و«هُمْ دَاخِرُونَ» حالان مترادفتان أو متداخلتان، أو «سُـــجَّدًا» حال من الظلال و«هُمْ دَاخِرُونَ» حال مـــن هاء «ظِلَالُهُ»، ولو مضافا إليها، لأنَّ المضاف كجزئها، **والداخر: الذليل المنقاد.**

وإطلاق الســـجود على وقوع الظلِّ على الأرض اســـتعارة، إذ هي لَاصِقة بالأرض على هيئة الســـاجد، وجمع ما يعود إلـــى هَاءِ «ظِلَالُـــهُ» العائدة إلى «شَيْءٍ» مراعاة لعموم المراد بشيء.

﴿**وَلِلهِ**﴾ لا لغيره ولا مع غيره ﴿**يَسْـــجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الَارْضِ**﴾ غير العقلاء والعقلاء كما قال: ﴿**مِن دَآبَّةٍ**﴾ ما يدبُّ على الأرض من غير العقلاء ومنهم، كالجنِّ والإنـــس. والمراد بالدبيب التنقُّل، فيشـــمل الحوت ونحوه في الماء، لأنَّ الماء على الأرض ﴿**وَالْمَلَآئِكَةُ**﴾ عطف على «ما» الأولى، أو الثانية عطف خـــاصٍّ على عـــامٍّ، لأنَّ في الســـماوات ملائكة، وفـــي الأرض ملائكة كالحفظة وفي الهواء ملائكة، وباعتبار «هُمْ» يكون فيه عموم من حيث إنَّ ما في الهواء لا يصدق عليه أنَّه في الســـماء ولا أنَّه في الأرض، وشـــمله الدبيب لأنَّه بمعنى التنقُّل، إلَّا إن حكم بأنَّهم في الأرض إذ كانوا تحت السماء.

والملائكة أجسام نورانيَّة بلا لحم ودم ونحوهما، ولا يجوز أن يقال: أرواح مجرَّدة عن الدبيب والحركة الجسمانيَّة، لأنَّه يناقض الحديث. و«ما» حقيقة في غير العالَم مجاز فيه، وقيـــل: حقيقة فيه وفي غيره، وعليه فلا مجاز ولا تغليب، وقوله: ﴿**وَهُمْ**﴾ أي الملائكة ﴿**لَا يَسْـــتَكْبِرُونَ**﴾ عن العبـــادة. والجملة الكبرى حال أو عطف على قولـــه: ﴿يَسْـــجُدُ﴾. ﴿**يَخَافُونَ رَبَّهُم**﴾ عـــذاب ربِّهم ﴿**مِّن فَوْقِهِمْ**﴾ حال مـــن «رَبّ»، والمراد علوُّ شـــأن عليهم بالقهر، كمـــا قال: ﴿وَهُوَ القَاهِرُ فَوْقَ عِبَـــادِهِ﴾ [ســـورة الأنعام: 18، 61]، أو متعلِّق بمحـــذوف بمعنى يخافون عـــذاب ربِّهم الآتي مـــن فوقهم، أو يخافـــون عذابه آتيا، وليـــس صفة أو حالا كاشفا، بل مؤسِّسًـــا لأنَّ العذاب يكون من تحت كما يكون من فوق، والجملة تقرير لقوله: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أو بيان له، **ومن خاف الله لم يستكبر عن عبادته.**

﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُومَرُونَ﴾ به من فعل أو تــرك، إذ هم مكلَّفون بمعنى أنَّهم مأمورون منهيُّون، أو غير مكلَّفين بمعنى: أنَّهم لم يكلَّفوا ما فيه مشــقَّة إذ لا تلحقهم مشقَّة في عبادتهم.

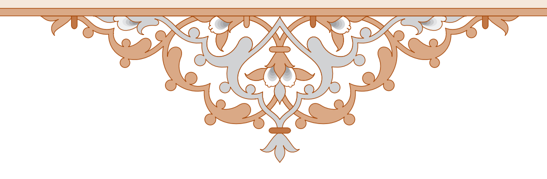
[نحو] وحذف العائد المجرور مع عدم شرطه للعلم به، وهكذا غير هذه الآية، وإن لم يُعلم لم يحذف نحو: «عجبت فيمــا رغبت»، إذا لم يدر رغبت فيه أو عنه، والمانع ـ وهو المشــهور ـ يجعل «مَا» مَصدَرِيَّة، بمعنى: يمتثلون أمرهم، أي أمر الله إيَّاهُم.

[أصول الدين] استدلَّ بعضٌ بالآية على عدم عصمة الملائكة على معنى أنَّ لهم نفوســا تدعو للمعصية، وهو خطأ لأنَّ خوفهم خوف إجلال لا خوف وعيد عند بعض، وصحَّحه بعض ونقلــه عن ابن عَبَّاس ﵄، أو لَمَّا قال [في حقِّهم]: ﴿نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ [ســورة الأنبياء: 29] منعهــم ذلك عن أن يكون لهم ميل للمعصية فهم معصومون عنها، والصحيح أنَّ خوفهم خوف وعيد لقوله تعالى: ﴿وَهُم مِّن خَشْــيَتِهِ مُشْــفِقُونَ وَمَن يَّقُلْ مِنْهُمُوٓ إِنِّيَ إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ...﴾ [سورة الأنبياء: 28ـ29] ولا ينافي ذلك عصمتهم، وقد يجاب بأنَّ المراد: أشــفقوا أن يكونوا لم يبلغــوا القدر الواجــب من إجلاله عليهــم، والخوف مستلزم للرجاء، فهم راجون ولا سيما أنَّهم يخدمون أكرم الأكرمين.

[تمَّ بحمد الله وحسن عونه الجزء السابع من تيسير التفسير، ويليه بحول الله الجزء الثامن، وأوَّله تفسير قوله تعالى:

﴿وَقَــالَ اللهُ لَا تَتَّخِــذُوا إِلَهَيْــنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُــوَ إِلَهٌ وَاحِــدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ...﴾ [الآية: 51]]

الفهـارس



الفهرس التفصيلي للمسائل الأصولية

الفهرس التفصيلي للمسائل الفقهية

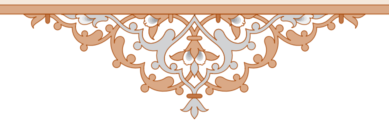
فهرس بعض مختارات الشيخ

فهارس عامة للموضوعات الفرعية

فهرس الآيات والعناوين الرئيسية



التعريف بالمفسِّر(*)



- في سنة 1237هـ/1818م بمدينة غرداية العريقة شمال صحراء الجزائر، وُلد الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش.

- في سنة 1243هـ/1827م حفظ القرآن الكريم في بني يسجن ـ بلده الأصلي ـ، واشتغل بحفظ المتون الدينية واللغوية على يد شقيقه الأكبر إبراهيم اطفيش، وعلى غيره من مشايخ المنطقة، ونبغ في فروع الثقافة الإسلامية نبوغًا كبيرًا.

- في سنة 1253هـ/1837م جلس للتدريس والتعليم في داره ببني يسجن، ثمَّ في مدينة بنورة لفترة من الزمن، ثمَّ عاد إلى بني يسجن وواصل نشاطه الدؤوب في معهده، وتولَّى مهمَّة الوعظ والإرشاد والفتوى في المسجد.

- منذ سنة 1300هـ/1882م قاوم الاستعمار الفرنسي عند دخوله إلى وادي ميزاب، وتولَّى إحباط خططه وتصرفاته، وله زيارات ميدانية للدعوة والإرشاد والتعليم إلى جميع قرى وادي ميزاب.

(*) انظر تفاصيل ترجمته في مقدِّمة الجزء الأوَّل من هذا التفسير.

- في سنة 1304هـ/1886م زار البقاع المقدَّسة للمرَّة الثانية، وفي طريقه زار جامع الزيتونة بتونس، وجامع الأزهر بالقاهرة، واستمع لعلمائها، وألقى دروسًا في الحرم المدني، تشريفًا وتقديرًا له من علمائه.

- له مراسلات هامَّة إلى علماء عصره جاب بها الشرق والغرب، وترك في كلِّ فنٍّ تأليفًا أو أكثر يشهد له بالتفوق والإتقان.

- تخرَّج من معهده عدد كبير من الدعاة والقضاة والعلماء، وإليه يرجع الفضل الكبير في بثِّ الوعي الديني، ونشر الروح العلمية في هذه الربوع وفي غيرها بأبحاثه وتآليفه القيِّمة، وبتفانيه في التدريس والتعليم.

- في سنة 1332هـ/1914م اختاره الله إلى جواره في مركز نشاطه ببني يسجن، رحمه الله وأرضاه وجعل الجنَّة مثواه.